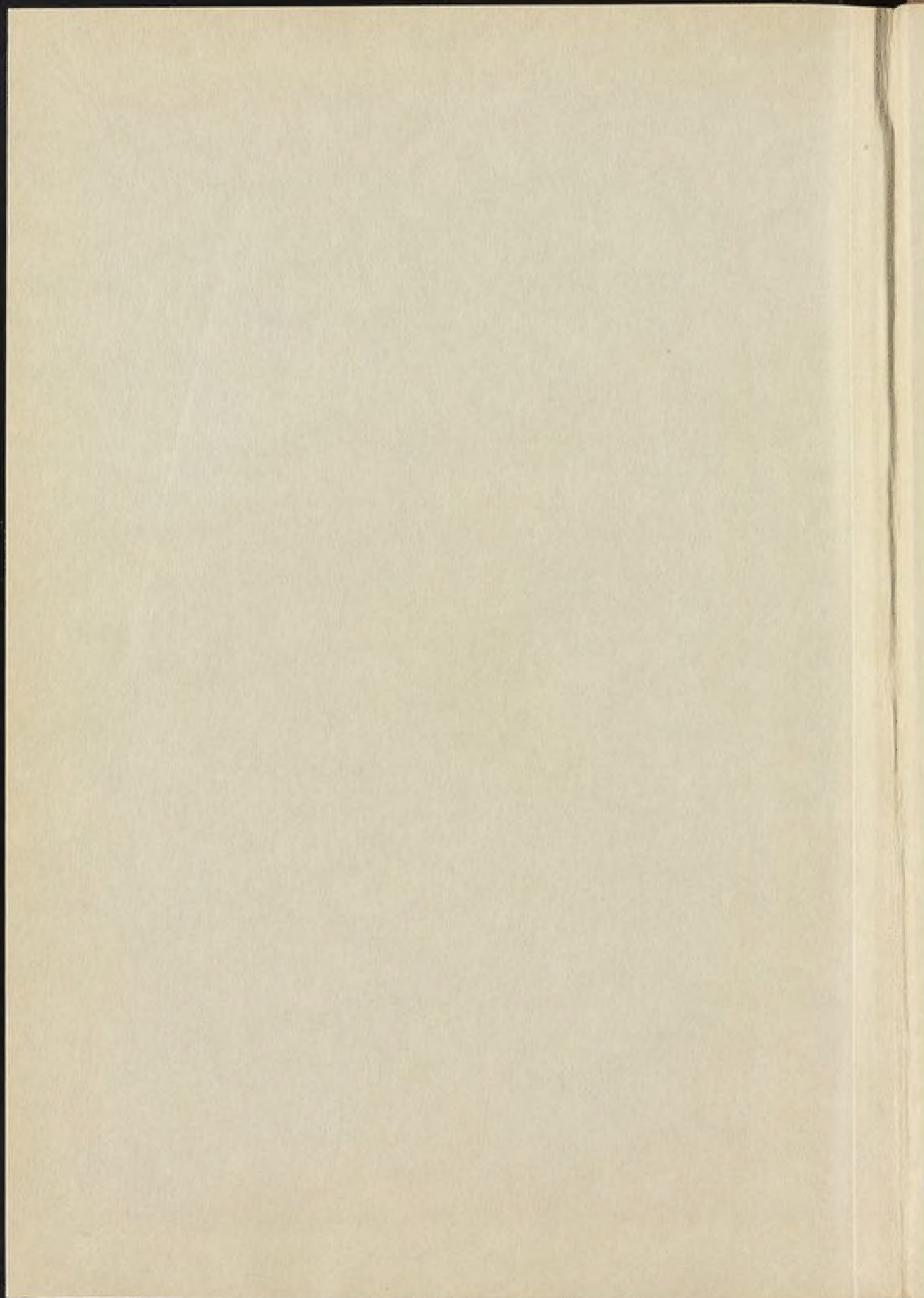
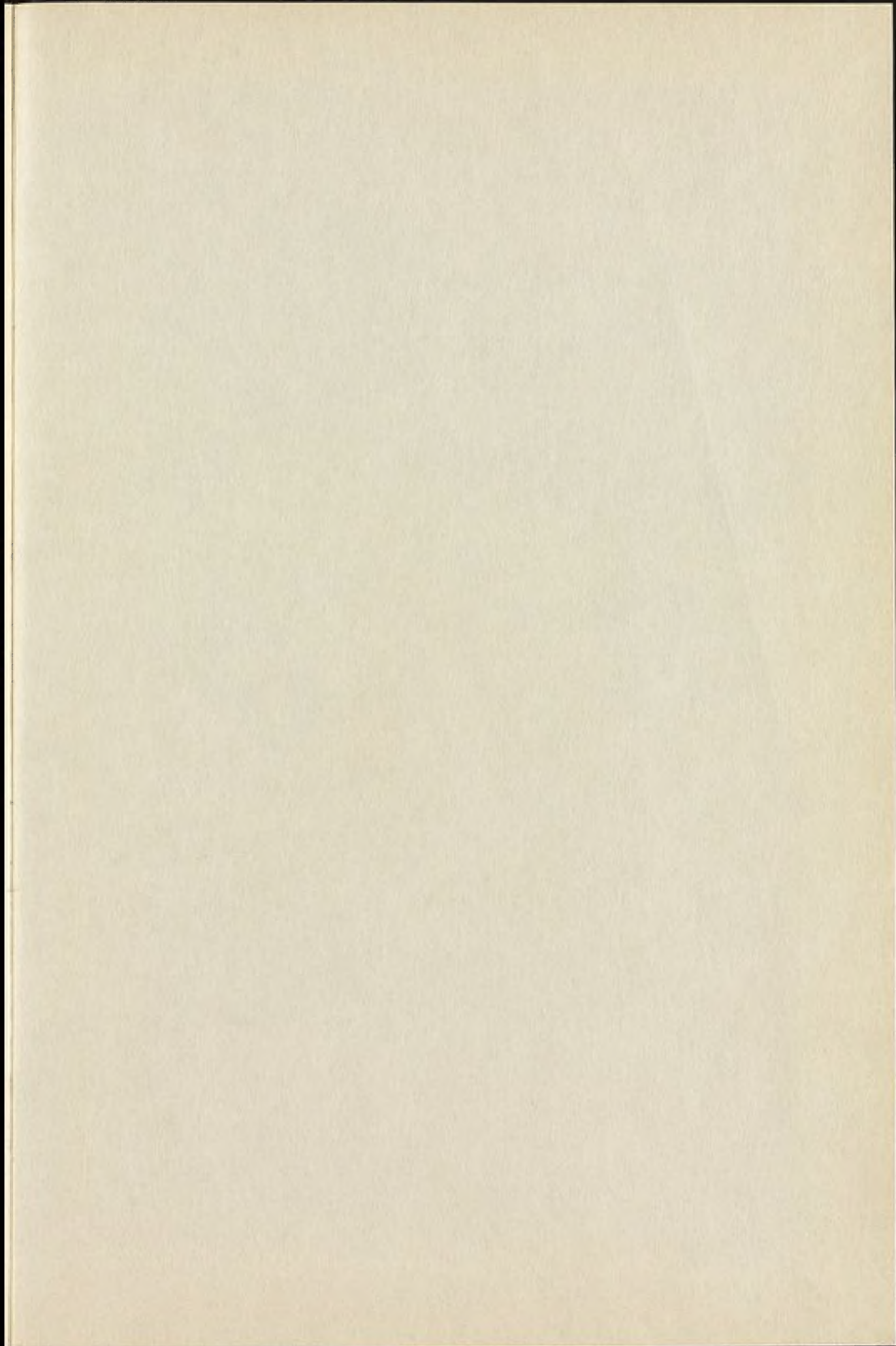


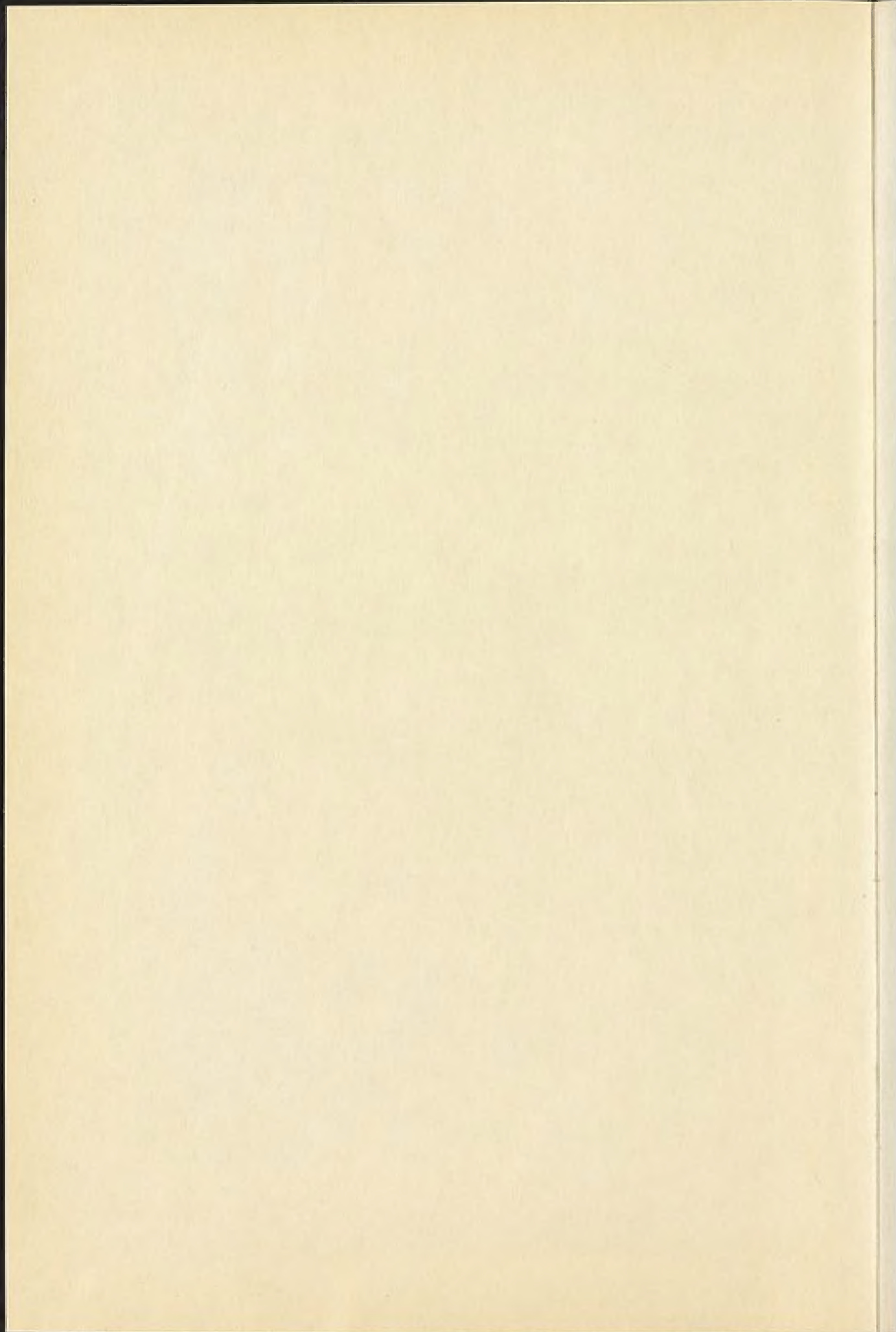
Columbia University
in the City of New York

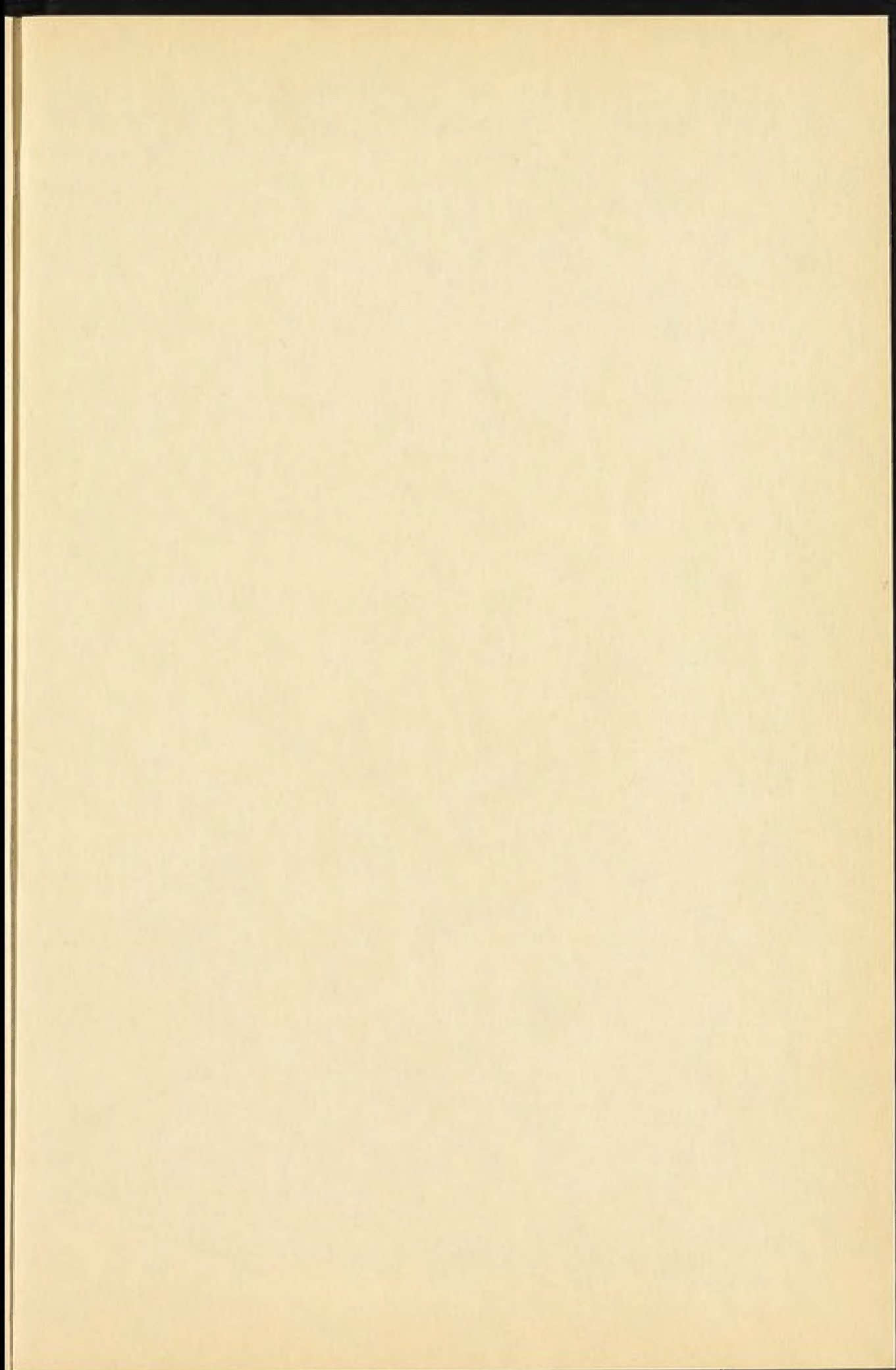
THE LIBRARIES











خِصَامُ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ

تأليف لوثروب ستودارد الامريكى

LOTHROP STODDARD

نقله الى العربية

الأستاذ عجاج نويهض

وفيه فصول وتعليقات وخواشٍ مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الإسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير

الأمير شكيب أرسلان

المجلد الثانى

حقوق الطبع والترجمة محفوظة

القاهرة — ١٣٥٢ — هجرية

عنيت بنشر مكتبة ومطبعة عيسى البابى الحلبي وشركاه بمصر

893.791

St 644

V. 2

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِزْ

فهرست

المجلد الثاني

من كتاب « حاضر العالم الاسلامي »

- مساهمة الأندلس للامير شكيب من صفحة ١ — ٥٨
- مسير الأندلسيين لسيدى محمد الطاهر عاشور من صفحة ٥٩ — ٦٣
- طرابلس الغرب وإيطاليا للامير شكيب من صفحة ٦٤ — ١٢٨
- أربعة كتب واردة للسيد احمد السنوسي من ١٢٩ — ١٣٥
- ما سبق في التاريخ من استيلاء الافرنج على طرابلس الغرب من صفحة ١٣٦ — ١٣٧
- غرب طرابلس بقلم عبد الستار الباسل بك من صفحة ١٣٨ — ١٣٩
- السنوسية للامير شكيب من صفحة ١٤٠ — ١٦٥
- الجزائر والأمير عبد القادر وفرنسا للامير شكيب من صفحة ١٦٦ — ١٧٤
- الجزائر وقبائل البربر للامير شكيب من صفحة ١٧٥ — ١٨٧
- بلاد الطاغستان والشيخ شامل للامير شكيب من صفحة ١٨٨ — ١٩٣
- المهدي المنتظر للامير شكيب من صفحة ١٩٤ — ١٩٦
- أفغانستان للامير شديب من ١٩٧ — ٢١٨
- المسلمون في الصين للامير شكيب من صفحة ٢١٩ — ٢٨٥
- رأى كورديه في حالة الاسلام في الصين والهند وجاوى والفلبين من صفحة ٢٥٨ — ٢٦٣
- حديث لرئيس البعثة الصينية الأزهرية من صفحة ٢٦٤ — ٢٦٧
- حديث عالم مسلم صيني من صفحة ٢٦٨ — ٢٧٠
- الاسلام في الصين غابره وحاضره للاستاذ محمد مكيين الصيني من صفحة ٢٧١ — ٢٨١

١٩٥٥

٣٥

- المسلمون في الصين حديث للوفد الصيني من صفحة ٢٨٢ — ٢٨٥
- مسلمو روسيا في عهد البلاشفة للامير شكيب من صفحة ٢٨٦ — ٢٨٨
- السيد جمال الدين الأفغاني للامير شكيب من صفحة ٢٨٩ — ٣٠٣
- الاسلام والجنود السوداء مقالة روجر لاهون والتعليق عليها للامير شكيب
من صفحة ٣٠٤ — ٣٥٩
- لمحة على حالة الاسلام الحاضرة من صفحة ٣٠٥ — ٣١٤
- الاسلام الاسود من صفحة ٣١٤ — ٣٢١
- الاسلام عند السنيغاليين من صفحة ٣٢١ — ٣٢٤
- الخلاصة من صفحة ٣٢٤ — ٣٢٦
- اندحاض الأباطيل والمفتريات للامير شكيب من صفحة ٣٢٦ — ٣٥٢
- الجنس الاسود والاسلامية للسيور بريفيه وتعليق الامير شكيب عليه
من صفحة ٣٥٢ — ٣٥٩
- الاسلام في افريقية للامير شكيب من صفحة ٣٦٠ — ٤٠١
- نهضة الاسلام في افريقيا وأسبابها من صفحة ٣٩٢ — ٤٠١
- الطريقة القادرية صفحة ٣٩٥
- الطريقة الشاذلية والطريقة التيجانية ٣٩٦
- الطريقة السنوسية صفحة ٣٩٨
- الزوايا السنوسية من صفحة ٤٠٢ — ٤٠٧

مسلمو الاندلس

المشركين

كأن المؤلف يريد أن يقول أن المسلمين لا يرأسون عن دينهم من أنفسهم ويطلق اختيارهم والا فما ثبت تاريخياً أن مئات ألوف من مسلمي الاندلس قد تنصروا وإن كثيرين من الأسبانيول اليوم لا سيما سكان جنوبي أسبانية هم من سلالة العرب وتجدد يحفظون أنسابهم ومنهم من عندهم شجرات النسب ومنهم من يدل بقري إلى بعض المسلمين في آخر بقية .

وان كثيراً من الأمر النبوية الأسبانيولية يسمى إلى أصل عربي ولا يزال يحصل إلى يوم الناس هذا أسماء عربية فتجد في الشبذية مثلاً بني أمية - وأحياناً يلفظها الأسبان خيفة - وتجد بني عباد وبني عمرو وبني الفخار وغيرهم . وقد ناولي المستشرق الأسباني الفرناخي المنيور « إيزيدور و دولاس كاخيكاس » Isidoro de las Kujikas فتصل أسبانية في نظامون جدولاً فيه أسماء عائلات اسبانيولية نبيلة متحدرة من أصل عربي مثل « عائلة البرقوقي » في طريف والأسبانيول يقولون Alburquerque . وجدني صديق الحاج عبدالسلام بنوته الذي هو من أعلام المغرب وانجده الطالعة بأن في « انجرة » من جبال الريف عائلة البرقوقي أي أنه يوجد البرقوقي في طريف وفي العدة المغربية المقابلة لالريف . ومثل عائلة « القلعة » Alcala ومنها المركيز « الداما » ومنها عائلة « الكدية » Alkudia في « انارقي » ومنها عائلة « المازان » Almazan في « بتاوة » ومنها عائلة « المنارد » Almenara في « بناسيج » ومنها عائلة « الشور » Almodovar في « كسيرس » وهم منسوبون إلى قلعة المدور عند قرطبة ويوجد في طنجة وطاؤون بنو المدور . ومنها عائلة « بيانة » Baena نسبة إلى بلدة بهذا الاسم . ومنها بنو « دانية » Dania في « وادي اليازان » ويوجد بنو

دانية (تلفظ بالامالة) في الرباط وهم عائلات كثيرة ومنها بنو «غرناطة دينا» Granada De Ega ومنها بنو «جريك» والأسبان يقولون «جريك» ومنها «بنو مدينة سالي» Medinaceli وهكذا يلفظ الأسبان بنو مدينة سالم على القطع بل يلفظون السمين من سالم ناء ويقولون «مدينة نالي» ومنهم الكونت «دوكافيا» . ومنها بنو «مدينة شنونيه» Medina Sidonia ومن هؤلاء الذين كونت «دولا البوراده» ومنها بنو «تاجره» Naejan ومنها بنو «سويغو» Surco ومنها عائلة المركيز «دو ابراده» De Abrada في «دلا مازان» ومنها عائلة الباتان Albatan . ومنها عائلة البلوطن Albalade اعلمها عائلة القاضي منصور بن سعيد البلوطن الشهير قاضي الجماعة بقرطبة لعهد الناصر وكان ينسب الى غصن البلوطن . ومنها عائلة «الفصير» Alcedvar في بلدة «فرانزة» ومنها عائلة «البروسس» Alburacos في «كافيشي» ومنها عائلة «الفرانس» Alfaras في «فسارش» Camares . ومنها عائلة «دولا الفاه» De la Algaba في «ديازر» . ومنها عائلة «الغاره» Algara في بلدة «الش» . ومنها عائلة «دولاغرفه» Algorta في «وادي الميتا» . ومنها عائلة «الحه» Alhama في «أرياني» ومنها عائلة «الهندين» Alhendin في «مرشليه» ومنها عائلة «التصوره» Almorozza في «تامريت» . ومنها عائلة «المرسي» Almarza في «ناراسيت» . ومنها عائلة «القبلة» Alkibla في «الزهرا» Zahra ومنها عائلة «آرمونيه» Armunia في «عقرا» ومنها عائلة «بائرس» Baers في «زويه» ومنها عائلة «بيلس» Berles

ويقال ان رئيس جمهورية اسبانيا الحالي «القلعه سموره» Alcala Zamora هو من أصل عربي . ويقال أيضاً ان رئيس الوزارة الحالي Azania الذي يغلب أن يكون «السانيه» هو أيضاً من أصل عربي . وكذلك تافير المعارف الحالي في أسبانية De los Rios هو حسبما يروي من أصل عربي . وقد تألفت في أثناء تجديد هذا الكتاب جمعية أسبانيوية اسلامية في مجريط عاصمة أسبانيا مقصدها التقريب بين المسلمين والأسبان رئيسها السيور «خوسيه فرانسي» نائب مجريط وخليفته الرئيس محرز هذه الأسطر والسينو «اميليو بيامو» وفيها بضعة عشر شخصاً من نواب المجلس الأسباني ومن أدباء أسبانيا وساستها . وفيها من المسلمين عدداً هائلاً الفقير الى ربه الأخ احسان بك الجابري زميلي في الوفد السوري الفاسطيني والحاج عبيد السلام بنونه عين أعيان تطوان والسادة محمد الفاسي وأحمد

بلافريج وعبدالحق الطوريس ومحمد الداود ومحمد بن الحسن الوزاني وهؤلاء هم نخبة شبان المغرب علماً ونجاةً وتحصيلاً وسراوة . وفي هذه الجمعية السيد خليل بن أمية من صحافي تشيلية والسيد « انريكي دورافولس » وهو أيضاً من أصل عربي يقول ان أصل اسمهم رجال ولما كان الأسبانيون ككثيراً ما يقلبون الحاء فاءً فقد جعلوها « رفال » كما قالوا في البحيرة « البخيرة » في بلنسية وبعد أن صار اسمهم « رفال » جعلوه « رفولس » فهو عربي المولد بحسب قوله . ومن هذا النمط بنو سراج المشهورون في الأندلس من أعقابهم أناس بقاتلة يقال لهم « بنو سراج » على عادة الأسبانيول في قلب الجيم حاء . وفي مدينة جنيف بسو بسرة شارع « أبو زيت » Abouzel وهو منسوب الى الميسو « أبو زيد » الذي كان أعلم علماء زمانه وكان عربياً مشهوراً أصله من « تولوز » وأصل سلفه من جالية الأندلس الى جنوبي فرنسا كانوا أطباء ونصروا على متعصب البروتستانت فيمن تنصر من تلك الجالية . ثم لما صدر أمر لويس الرابع عشر بجمع المذهب البروتستانتي من فرنسا جلا كثير من البروتستانت الى سائر البلدان مثل ألمانيا وهولاندة وسو بسرة وجاء أبو زيد هذا الى جنيف وكان معاصراً لفولتير ولروسو ولبيوتن واللينينز وكان جميعهم يعجبون بسعة معارفه وكان فولتير يستقيه في عويص المسائل ويقول له « صديقنا العربي » . وفي سو بسرة أكثر من اسم عربي وأما في فرنسا فهو كثير لا سيما في الجنوب ومن هذا القبيل الميسو « مورو جافري » القاضي نائب كورسيكا Murad Jaffri وهو المغربي الجعفري كلاً لا يخفى وتحرير هذه المسألة أنه لما غلب فرديناند وإيزابلا على آخر مملكة اسلامية في أسبانية وهي دولة بني الأحمر من سلالة الخزرج الذين كان كرسيمهم غرناطة واستولوا على هذه البلدة سنة ١٤٩٢ عقدوا مع المسلمين معاهدة ليس هنا محل تفصيلها وإنما نلخصها حسبما جاء في نصح الطبيب : تأمين الكبير والصغير في النفس والأهل والمال وابقاء الناس في أمانا كتبهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يتحكم على أحد منهم الا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك . وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يقصوا أحداً . وأن لا يوتى على المسلمين نصراقي أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل . وأن يقتل جميع من أسرى في غرناطة من حيث كانوا وخصوصاً أعياناً نص عليهم . ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا لسواه

والسلطان يدفع عنه المالكة . ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع ويجوزون في مدة عينت في
مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر ما لهم والكراء .
وأن لا يؤخذ أحد بدين غيره وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم . وأن
من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من
النصارى فإن أقر الرجوع الى الاسلام تمادى على ما أراد . ولا يعاقب من قتل نصرانيا أيام
الحرب ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة . ولا يكلف المسلم بضايقة أجناد
النصارى ولا يسفر جبهة من الجهات ولا يزبدون على المغارم المعتادة . وترفع عنهم جميع
المظالم والمغارم المحدثه . ولا يطلع نصرائي للسور ولا ينطلع على دور المسلمين ولا يدخل
مسجداً من مساجدهم ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله . ولا يجعل علامة
كما يجعل اليهود وأهل الدين ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا تحسره من أمور دينه
ومن ضحك منهم يعاقب . ويتركون من المغارم سنين معلومة وأن يوافق على كل الشروط
صاحب رومة (أي البابا) انتهى

ولقد أوردت تلخيص هذه المعاهدة في كتابي « آخر بني سراج » الذي ذيلته
بتاريخ الأندلس المطبوع أول مرة سنة ١٨٩٧ م مسيحية فقلت : انها حسن وخشون مادة
تتضمن من تفاصيل ما وقع عليه الاتفاق وفي طياتها من عقود المحاسنة والملاطفة والمراعاة
والحفاظة على أعراض القوم وعقائدهم وديانهم وأموالهم وكراماتهم وراعاتهم ما لا ينفي به
الا فسد . وقد تكرر في المادة الخامسة العهد من الملك والملكة باحترام ديانة المسلمين
ومساجدهم وأوقافها وأموالها المحفوظة وعدم التعرض لأموالهم الشرعية بل إعادة ذلك الى
فقهاءهم وبالحفاظة على أصول القضاء وعاداتهم وملازمهم وأن يبقى هذا العهد معمولاً به في
الأعقاب وأعقاب الأعقاب

وفي المادة السادسة عدم طلب أسفحة المسلمين ولا مراكبهم ولا مواشيهم الا
الاسلحة النارية فتقرر أخذها . وفي المادة السابعة تسهيل السفر لكل من شاء الهجرة
بأمواله وأمتعته وفيها بعدها اجازته على لشقة دولة فتتألف من أي مرسى أراد . وتسهيل
معاملات بيع العقار لمن شاء الرحيل واذا لم يتهيأ البيع ووكل صاحب الملك وكيلاً تعتبر
وكالته ويساعد على استيفاء حاصلاته وايصالها اليه بمكانه من وراء البحر . ويورد في المادة

الخادية عشرة تشديد مجازاة كل من يدخل من النصارى جامعاً بدون رخصة من اذقيها .
 وورد في المادة الخامسة عشرة اعفاء السلطان أي عبد الله وبنائهم أمراء المسلمين وقوادهم
 وفقهائهم من الضرائب والرسوم واقرار الجميع على امتيازاتهم كما كانوا العهد ملكهم وان
 تكون كلهم نافذة وقوطهم مسموعاً . وورد في المادة السادسة عشرة والتي بعدها ما
 يتضمن عدم جواز دخول أحد من النصارى بيوت المسلمين ولا الملك ولا الملكة ومن خالف
 ذلك يجازى بشدة . وفي المادة الخامسة والعشرين اذا فر أحد من أمري المسلمين المعتقلين
 في سائر الممالك : ووصل الى غرناطة فقد تجا ولم يكن اشربة غرناطة أن تمسكه لكن هذا
 الامتياز خاص بعرب الأندلس لا يتناول أسرى المغرب . وفي المادة الثلاثين أن من أسير من
 النصارى قبل هذه الكائن فلا يعامل الا بالخصى ولا يلقى أهل تحضر ومن خالف ذلك يقال
 من الجزاء شدة . وفي المادة الواحدة والثلاثين لا يجبر مسلم ولا مسلمة على قبول الدين المسيحي
 وفي المادة الثانية والثلاثين اذا كان المسلم متزوجاً بنصرانية وأسماة لا تجبر على الرجوع الى
 دينها الأصلي والذين يتولدون من هذا الزواج يعدون مسلمين ولو ارتدت الزوجة عن اسلامها
 وفي المادة الخامسة والثلاثين لا يرد المسلمون شيئاً مما غنموه أثناء الواقع التي جرت الى يوم
 تسليم البلد وفيها بعدها لا يعالون على شيء مما مضى من تخيير الأسرى أو اهلانهم . وفي المادة
 الثانية والاربعين تفصل الخصومات بين المسلمين والنصارى في مجلس مؤلف من قاضين أحدهما
 مسلم والآخر مسيحي . وفي الثالثة والاربعين تعاد جميع امري المسلمين في مدة ثمانية أشهر من
 أي بلدة وجدوا فيها من اسبانية وفي مدة خمسة أشهر ان كانوا في بلاد الأندلس . وفي التي
 تليها ذكر اطلاق سبيل ابن الدرامي المأسور عند غوانسالة هر ناندز وعثمان اسير كونه
 ناندز ورضوان اسير صاحب قبره وإعادة الفقيه ابن يحيى الدين ورفقه الذين غلبوا على أثر
 حادثة ابراهيم بن سراج ابننا وجدوا . وفي السادسة والاربعين تسهيل حركات سفن المغاربة
 في مراسي الأندلس واعفاؤها تلك المدة من دفع رسوم بشرط عدم نقلها اسرى من
 النصارى . وفي الثانية والخمسين عدم استخدام شرطة من النصارى لرقابة شؤون المسلمين
 بل تكون شرطتهم من أنفسهم

وفي آخر هذه المعاهدة عهد الملك فرديناند وامرأته ايزابلا صاحبا بمالك قشتالة ولراغون
 وليون وصقلية بأن يحافظا على نص شروطها حرفاً بحرف ويجريا جميع أحكامها من خاص

وعلم وكفى وجزئى يكال التدقيق وبدون أدنى زيادة ولا نقصان مهما كان من الأسباب وإن
تبقي على شكلها وهيئتها ولا يتغير ولا يتبدل حرف منها إلى الأبد . ولا يمكن أحداً من
خلفاء الملوك المنابر اليهما ولا خلفاء خلفائهم ولا حفيدتهما ولا أولادهما إلى ما شاء الله أن
ينقضوا أقل حكم من أحكامها أو يبدلوا حركة من حركاتها . وأعطى الأمر بها إلى الأمراء
والوزراء والقواد والأجناد والرهبان والرعية من حاضر وغائب وقاص ودان وكبير وصغير
واعلم أن من يخبر على الخلق بشئ مما تضمنته هذه المعاهدة يخزى جزاء من أقدم على
افساد البراءات الملوكية أو تقليد الحجج والسندات وذلك بدون أدنى تأخير

وأقسم الملك فرديناند والملكة إيزابلا وسائر من أمضوا الشروط على دينهم وشرفهم
برعايتها إلى الأبد على الصورة الميئة وكتب على رقب غزال محلى وظهرت تحريراً في
ثلاثين من ديسمبر سنة إحدى وأربعين وأربعمائة والف من الميلاد

وحررها « فرناندو صفرد » بأمر الملوك وأمضاه الملك فرديناند والملكة إيزابلا
وأولادهما الدون جان والدونة إيزابلا والدونة حنة والدونة ماريانة والدونة كاتاليتة ورئيس
أساقفة اندلسية الدون دياغو هرناندو ورئيس أساقفة صانديا غو الدون الفونس وكبير
فرسان صانديا غو الدون الفونس أيضاً والدون جان كبير فرسان القنطرة والدون
الفارو زعيم رهابين ماريوحنا والدون برونو غو زوالس كردينال اسبانية ورئيس أساقفة
المملكة والدون هنرى كبير حكومة اراغون ومن أبناء عم الملك والدون الفونس من أبناء
عمه أيضاً والدون الفارو مدير دائرة الملوك والدون برونو فرناندز رئيس جنده قشتالة ويليمهم
نحو من أربعين دوناً كلهم من أبناء السلالة المالكة وأساقفة البلاد وأمراءها وأعيانها
وقوادها

وكتب أيضاً معاهدة أخرى لسلطان غرناطة أبي عبد الله بن أبي الحسن متضمنة أربع
عشرة مادة فيها تملكه الاقطاعات والأراضي والبلدان التي وهبها لها الملكان معيناً كل منها
بذاته والتعهد بإعطائه أربعة عشر مليوناً وخمسمائة قطعة من السكة المغربية بالمرأيد وذلك
عند دخولها قلعة الجراء وإقرار ملكيته لجميع العقار الموروث وإعقاؤه من دفع الضرائب
والرسوم وأداء المكوس عما يجلب من الأمتعة برسمه وإنه في أى وقت شاء يبيع هذه الأراضي
والأملاك يشترها كلها الملكان بقيمتها العادلة وإن لم يشأ يبيعها وأراد النقلة إلى بر المغرب

فلوكيل الذي يعينه عليها يستوفى له حاصلاتها ويوردها عليه في أية جهة كان بمأوراء البحر . وفي أية وقت عول على الاجازة تنقله مع رجاله وعياله وأمواله سفن دولة فشتالة مجاناً . ولا يطالب بشيء ولا يكون مسؤولاً عن شيء مما حصل الى حسين عقد الصلح ولا يسرد شيء مما غنمه . وجميع هذه الشروط كما هي جارية في حقه تجري أيضاً في حق والدته وشقائقه وزوجته وزوجة مولاي أبي نصر . والمعاهدة الثانية مؤرخة في يوم تاريخ الاولى الا اني وجدت أكثر المؤرخين يؤرخون امضاء هذه المعاهدات في ٢٥ ديسمبر وفق ٢٢ محرم سنة ٨٩٧ ولما كان الاسبانول قد أعطوا المسلمين مهلة سبعين يوماً لأجل التسليم بناء على أمل هؤلاء في ورود النجدة من وراء البحر ازداد الطاغية تيقظاً وسهراً وجعل الجيوش بحطة بقرنطة الحاملة السوار بالمعصم وجمع الأساطيل ونهبها في مراسي الأندلس وفي قرصة انجرت منعاً لسكر مدد وارد فلم يطل أحد (تلك أمة قد خلت) وان أطلق فلم يغن شيئاً لأن سلاطين الاسلام كانوا في ذلك الحين مشاغولين بفتنهم الداخلية ومحاربة بعضهم بعضاً فضلاً عن ان الذي أصبح مقررأ في أذهان عامة المسلمين ان لا أمل يحفظ مملكة الاندلس وتجديد دولة الاسلام فيها وراء البحر الى جهة العدو الاسبانية وان الجهاد في هذه السبيل غيب وهذا الأمر كائن لاشاعة فتركوا الأمور وشأنها وأهل قرنطة يعللون أنفسهم بلعل وعسى . ولكن ابتداء الجوع بعضهم بأنبياء فرأى أبو عبد الله ان انتظار آخر المسدة مما لا يكون له نتيجة سوى زيادة الضيق والمجاعة ولا رجاء في ورود أقل مدد ولو كان في قيد الحياة تنسى . فهاور الرؤساء فأشاروا بالتسليم قبل انقضاء الأجل المضروب . وفي العشرين من ديسمبر أرسل وزيره يوسف بن كاشة مع الرهائن الى الملك فرديناند وأصحبه بفرسين كرمين وسيف ثمين على سبيل الهدية فبئته مقصده وعزم الجماعة على تسليم البلاد قبل مضي الأمد . وفي اليوم التالي ظهر درويش اسمه حامد بن زارة فأخذ يطوف الأسواق منادياً بالجهاد مستنقراً العامة الى الدفاع قائلاً لهم ان يسيرد اليهم نجات من البشرات ومن ير العدو وان الأمل عظيم بالفرج لكن الملك أبا عبد الله والرؤساء خائفون وكثير القيل والقال في البلد وصبوا اللعنات على أبي عبد الله ورموه بالخيانة وبيع الدين والوطن فنار نحو من عشرين الفا من أهل قرنطة وتقليدوا أسلحتهم وخرجوا في الأسواق بضوضاء ملأت الفضاء عازمين على الجهاد مستعينين بالله في دفع العدو فاستمروا يوماً كاملاً وقسموا من الليل

في هذه الحركة وإذا بأعصار شديد قد عصفت بشدة فالزم الناس بيوتهم وانتهى الهياج بهبوب العاصف وفي اليوم التالي خرج أبو عبد الله من الجراء محموقاً برؤساء البلد وخطيب الأمة قائلاً لهم : « لا ذنب إلا ذنبي ، أنا الذي عقلت والذي وجلت الأعداء على المملكة لكن الله قد أخذني بجرائري وأنزل النعمة كلها على رأسي وها أنا ذا الآن قبلت بهنئه المعاهد لأجلكم يا هومي ضناً بدمكم أن يراق سدى وبأطفالكم أن يموتوا جوعاً وبسائكم وذرائكم أن تنزل فيهن معرات الحرب وحفظاً لأموالكم وأملأكم وحررتكم ونسرتكم وديانتكم في ظل ملك أسعد ظالماً من أبي عبد الله المشؤوم » فأنزلت رقة كلامه في خواصر القوم وسكنت سورة حقدهم واستلكت نعمة خطابه ماخضين في صدورهم فانفضوا إلى أمكنتهم . وفي الحال أرسل أبو عبد الله إلى الملكين يعرض عليهما التسليم في اليوم التالي حذراً من تجديد الخوارج فرفضاً بذلك وتأهباً لدخول الجراء كما أن أبا عبد الله وأسمرته وحشمه أحبوا التلبي في التأهب للخروج وقد شغلوا إهباء الجراء بدموعهم وملأوا أرواحهم بنواحيهم وزموا حقائبهم بما فيها من الذخائر والاعلاق وحملوها البغال . وقيل أن تلبج الفجر الساب حريه أبي عبد الله وأهل القصر من أحد الأبواب حيث كان بانتظارهم فرقة من فرسان المسلمين الذين بقوا متمسكين بعروة سلطانهم إلى الآخر وساروا من أحد الأحياء المعتزلة من المدينة والناس نيام والسوارع خالية ، أما عائشة الحرة والدة أبو عبد الله فكانت مشجدة متجمعة . وأما امرأته وسائر جواري القصر فقد فرح البكاء ما قبيهن وخدد الدمع خدودهن . ولما وصل الموكب إلى إحدى القرى التي على طريق البشيرات وقف ينتظر وصول أبي عبد الله وعند مطلع الشمس جاءت فرقة من الخيالة والمشاة يصحبها « حراندودولا تافيره » مطران أفيلا ودخلت من أحد أبواب المدينة حسبما كان وقع عليه الاتفاق فالتفتها السلطان أبو عبد الله وقال للمطران المذكور : « امض وتسلم هناء الحصون التي صبرها الله إلى يدكم عقاباً للمسلمين على ائتمانهم » ثم تقدم للقاء الملكين وتقدمت العساكر فدخلت الجراء وكان فردينايد وإيزابلا ينتظران رؤية اعلام إسبانية فوق أبراجها فحقت مدة وأنظارهما شاخصة فلم يريا شيئاً خشياً وفوج حدث لكن لم يكن إلا قليل بعد ذلك حتى خفقت راية الصليب فوق أبراج الجراء وبجانبها راية مار يعقوب وعلا هتاف العساكر فلما رأى الملكان ذلك بمكانتهما على ضفة السنديل خرواً جاثيين على ركبهما واقتدى بهما جميع الأمراء

والقواد والجند شكراً لله تعالى على ما من به . وبعد انتهاء الصلوات استأنفوا المسير حتى صاروا بجانب جامع صغير قريب من النهر فهنا التقوا بالسلطان أبي عبد الله الذي^(١) خالما وقعت العين على العين أراد السلطان الترحيل اجلالاً للملكين فنعاه من ذلك فهو على يد الطاغية ليقبها فلم يتمكن فردينا من ذلك . وقيل ان الملكة أيضاً أتت أن ترسل له يدها وانما أحسنت تعزيتة وسلمته ابنه الذي كان مرهوناً عندها فوضعه الى صدره وأخذ يقبله كأن الشفاء زاد من تعلق أحدهما بالآخر . ثم سلم أبو عبد الله مفاتيح البلد الى الملك فأنزل له « هذه المفاتيح هي آخر ما بقي من سلطان العرب في أسبانية خذها فقد أصبح لك ملكك ومتاعنا وأشخاصنا كما قضت بذلك مشيئته تعالى فتقبها بالرافة التي وعدت بها والتي نتظرها منك » فأجاب فردينا : « لاشك في اجراء ما وعدنا به وعسى أن يكون لك من صحبتنا الحظ الذي لم يكن لك من عدواننا » ثم دفع فردينا المفاتيح الى الملكة قد فتمتها الى ابنيهما البرنس جويان وهذا أعطاها الى الكونت نديله الذي كان قد عين قائداً لعرناطة

ثم انفصل أبو عبد الله عن الملكين فصدأ القر الذي كان قد عين له في وادي برشانة وسار الطاغية وامرأته نحو المدينة وأصوات الموسيقى مسموعة الى بعيد ولم يدخلها يوم سلمها خوفاً من الغدر وانتظروا ان تنبواها جميع العساكر لما كان يرعيهما من اعم عرناطة . أما سلطان عرناطة السابق فلما وصل الى مرفب عال على مسافة مرحلتين من المدينة يشرف عليها وقف يودع مدينته فلم تكن في عينه أجل منها في تلك الساعة فأخذ ينامل في أبراجها وقلاعها ومتأثرها الضاربة في السماء ومرجها النضير المتقطع النظر ووقف وراءه حاشيته وجنده الذين لم ينقلوا عنه وهم يتأملون سكوتاً قد أيكمهم الحزن وأخسرهم الهم وإذا بالمدن قد ارتفع فوق القاعة ودوى صوت المدافع ابذاناً بأن المدينة دخلت في حوزة الأسبانول وانقلعت منها دولة الاسلام فعدتها خفق قواد أبي عبد الله ولم يترك نفسه من البكاء فصاح « الله أكبر » وفسح مجال الدمع واستمطر ماء العيون فجادت بالنايب فقات له أمة عاتية الحرة المشهورة بالشدة « عليك أن تبكي بكاء النساء ما عجزت أن تدافع عنه دفاع الرجال » وهي الكلمة الشهيرة التي تناقلتها جميع التواريخ . واجتهد وزيره

(١) في أثناء رحلتي الأدبية سنة ١٩٣٠ واقام في عدة عشر يوماً بعرناطة مررت بهذا المكان الذي سلم فيه أبو عبد الله مفاتيح عاصمته ملكة الأندلس الى فردينا وتلوى على مكان الجامع

يوسف بن كاشة في تعزيتة فلم يقبل قلبه العزاء وبقيت شؤون عييته فائضة وزفراته متصاعدة وهو يقول: «أى شفاء مثل شفاى» وقد سمي الأسبانيول ثالث الخضبة التي وقف عليها آخر سلاطين غرناطة يبكي المنزل والحبيب «بآخر حشرات المغربي»^(١) ولما وقف فرديناند عن دخول البلد خوف الغيلة إلى أن تكون عساكره احتلت المواقع جميعها أرسل مركيز «فيلس» وكونت «تسدينه» بثلاثة آلاف فارس وجيش من المشاة مصحوبين بالأمير سيدي يحيى الذي سماه النصارى بعد تنصره بالدون «بئرو دو غرناطة» وعين للنظر في أمور المغاربة وبأبته الذي أطلقوا عليه اسم الدون «الونزو دو غرناطة» وكان أميراً للاستطول فتبوأوا جميع الأبراج ونشروا فوقها الاعلام الأسبانية

ولم يدخل الملكان المدينة إلا في سادس يناير وكان الاحتفال بدخولها باهراً وظلالاً سائر من إلى مسجد غرناطة الأعظم فخلده كنيسة^(٢) وأقيمت الصلاة شكراً لله تعالى على هذا الفتح المبين وأقبل الأمراء والفوائد وعظما الأسبانيول على الملكين بقبولن أيديهما ويهنونهما على هذه النعمة التي اختصهما الله بها وكرمهما بأحرارها . وبعد الخروج من الكنيسة سارا إلى الجراء الموصوفة فألفياها فوق ما كانا يتصوران من اتقان الصنعة ونقاعة البنائين ورحابة الساحات ولطافة الرسوم والنقوش وأعجبا بما فيها من الزخرفة التي تنقطع دونها الأبدى والتألق البالغ حده سواء في الإبهاء أو المقاصير أو النوافر والظهاريج أو المداخل والتعاريج الذي تحير الناظر ما بين مرمر مسنون ومسجد مصون وسوار كنائها مفرغة في أحسن القوالب وسقوف كأنها السماء زينت بالكواكب فالتفت الملكان لها عرشاً فيها وجلسا لتهنئة حيث جاء أهل غرناطة والبشرى بضمون لها واجب الاجلال وقبولن أيديهما صاغرين . ووجد في غرناطة يوم دخول الملكين اليها خمسة أمير من الأسبانيول

هكذا انتهت تلك الحرب التي استمرت عشر سنين لم تغر فيها الوقائع ولا نشفت

(١) وهذا الملكان قد مررت به أيضاً في سباحتي إلى جبال البشيرات

(٢) وقد دخلت هذه الكنيسة وشاهدتها في أثناء زيارتي لغرناطة سنة ١٩٣٠ وشاهدت مدني فرديناند وإزابيلا يقرب هذه الكنيسة ورأيت صوراً كثيرة على الجدران منها صورة جماعة من مسلمي الأندلس من رجال ونساء يتصرون بين أيدي أخبار الأسبانيول وعلى وجوههم غيرة الموت

فيها البراء ولا انقطعت المصارع وبنهايتها انصرم حبل الاسلام من بلاد الأندلس بعد ان استنبت دولته فيها سبعائة وثمانيا وسبعين سنة منذ انهزم لتريق على ضفاف الوادي الكبير الى اسليم غرناطة والله وارث الأرض ومن عليها

ثم نقلنا ما جاء في نفح الطيب عن هذه الكائنة العظيمة مما يقدر أن يراجع من شاء لما في كتابنا « آخر بني سراج » المتبيل بتاريخ الأندلس ولما في نفح الطيب نفسه كما أنه يتمكن أن يراجع وصف هذه الكائنة في كتاب « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » مؤلف لم يذكر اسمه يظهر من نسق روايته أنه كان حياً في ذلك الوقت وأنه شاهد الوقائع بنفسه وهذا الكتاب مطبوع أيضا ذيلاً لآخر بني سراج . ثم قلنا :

« وبعد أن دخلت غرناطة في حوزة الأسبانيول انقطع السلطان أبو عبد الله بن الأحمر في أرضه بوادي برشانة حيث وفر له الطاغية الاخطايات وكذلك لوزيره يوسف بن كاشة الذي ربه بابه فأقلم مدة هناك ذاق أثناءها طعم الراحة وانتفض من عوارض ما كان فيه من عياط وميأس . ولكن الأمر لم يطل به حتى عاد يذكر ماضي ملكه وعليانه ويحن الى ثمار حراته فتثور فيه الأشجان ويستنهر فؤاده الأحران . وفي هاتيك المدة لم يدع الملاك وسبيله الا استعمالها لأجل صباه عن دين آباءه وانتماله في النصرانية فأخفقت مساعيها وبقي بالها مشغولاً من جهة اذ لم يزل وجوده هناك محلاً للخوف من انتفاض مسمى الأندلس تحت رايته والثقافهم حوالبه في سنة ١٤٩٦ داخل الملك فرديناند وزيره يوسف بن كاشة سرّاً في ابتياع أراضي مولاه بنانية آلاف دوكان من الذهب فتمت الصفقة واعتقد البيع بدون علم أبي عبد الله وبدون أن يعتني فرديناند بسؤال يوسف عن سند الوكالة بل نقده المال خممئد البغال وسار الى البشيرات فلما وصل بين يدي مولاه ثر الدنانير أمامه فزلاله :

« رأيت يا مولاي أن بقاءك هنا معرض للخطر فإن المغاربة أهل افتداه ونار ونجدة أو نار ولا بعد أن يشعروا مرة رافعين رايتك وتعزى ثورتهم اليك فتقع في المقيم المقعد . وما دمت في هذه البلاد بخطر في بالك أنك كنت أمبرها على حين لا أمل في رجوع هذه الامارة لك . لذلك رأيت الأنجح في حقك بيع أراضيك وقبض ثمنها وبها هو لديك يمكنك أن تتمتع به أراضي واسعة جداً وراء البحر »

« فلما سمع أبو عبد الله هذه الكلمات استشاط غضباً واختلط سيقه وكاد يضرب به رأس وزيره فأمرع هذا إلى الفرار من حضرته وبقى أبو عبد الله وحده يتأمل في هذه المسألة ويقلب من وجوهها فلم يلبث أن ذهب ما به وعاد إليه سكونه واستدل على أن هذه الصفقة لم تكن لتجرى لولا رغبة فرديناه في زيارة من هناك وأن الحق قد يكون مع وزيره يوسف بن كاشة فأجمع الرحلة وشد حقائبه . وجمع أمواله وكنوزه وتحمل إلى أحد الثغور^(١) حيث شيعة كثير من قومه داعين له بالنهيل^(٢) . فلما ركب السفين وغاب عن عينيه جبال غرناطة المهمات منهما العبرات وتصاعدت من صدره الزفرات ونزل بليلا ومنها سار إلى فاس نزلاً على سلطانها متاهلاً على ما سلف . وفي بعض نواريج الأفرنج أنه توفي بليلاً في إحدى الوقائع مع سلطان فاس سنة ١٥٣٦ أي بعد ٤٤ حولاً من فراقه أسبانية ولذلك قال فيه أحد المؤرخين انه قتل في سبيل الدفاع عن مملكة سواد بعد أن جين عن أن يقتل في الدفاع عن حوض مملكته »

وأما النقص فيقول في نهاية أمره ما يأتي :

« ثم احتال (أي الطاغية) في ارتحاله (أي أبي عبد الله) لبر العدو وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور فكذب لصاحب المرية : انه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث أراد من لبر العدو ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بما عهد له . فأنصرف في الخين بنص هذا الكتاب وركب البحر ونزل بليلا واستوطن فاساً وكان قبل طلب الجواز الناحية مرا كشي فلم يسعف بذلك وحين جوازه لبر العدو لقي شدة وغلاء وبلاء »

ويقول بعد ذلك : « والسلطان المذكور الذي اختل على يده غرناطة هو أبو عبد الله محمد الذي انقضت يدواته مملكة الاسلام بالأندلس ومحييت رسومها ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله واسطة عقدهم ومسيد مبانيهم الأنيقة وسلطان دولتهم على الحقيقة وهو الخلع الوافد على الأصمغ

(١) وقد مررت بنفسى في سنة ١٩٣٠ بلمرسي الذي أفلح منه أبو عبد الله بن الأحمر من الأندلس

فصدا المغرب

(٢) وترأت أنه هاجر معه نحو من ألف نسمة من مسلمي الأندلس

المريضة بفاس العائد منها للملكه في أرفع الصنائع الرجائية العاطرة الانفاس — وهو سلطان
 اسان الدين بن الخطيب — ابن السلطان ابي الحجاج يوسف ابن السلطان اسماعيل قاتل
 سلطان النصارى دون بطريرك غرناطة ابن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر بن قيس
 لانصارى الخزرجى رحيم الله تعالى جميعا . وانتهى السلطان المذكور بعد توليه بملية الى
 مدينة فاس باهله وأولاده معتزلاً عما أسلفه متلبهاً على ما خلفه وبني بفاس بعض قصور
 على طريق بديان الأندلس رأبها ودخلتها وتوفي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة
 ودفن بآراء المصلى خارج باب الشريعة وخلف ولدين أحدهما اسمه يوسف والآخر أحمد .
 وعقب هذا السلطان الى الآن بفاس وعهدى بذريته بفاس الى الآن سنة ١٠٣٧ يأخذون
 من أوقاف الفقراء والمساكين ويعلمون من جملة الشحاذين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى
 العظيم . انتهى

قلت : وقد فرأت في بعض كتب الافرنج انه كان للسلطان أبى عبد الله اخوة صغار
 من غير أمه لبثوا في غرناطة بعد أخذ الاسبانول اباهما وتنصروا وتحولوا اسبانولاً
 ولكنى لم أطلع على خبر اسبانول في الوقت الحاضر ينتسبون الى بنى الأحمر . ولقد سمعت
 من الأخ الكريم الحاج عبد السلام بن العربى بنوته من عيون أعيان فطاون بل من
 عيون أعيان المغرب كله ان ببلدهم أسرة تنتسب الى بنى الأحمر الى يومنا هذا . وقيل لى
 انه لا يزال منهم بفاس أيضاً

ثم انى أقول في ذيل « آخر بنى سراج » ما يلى :

« ولما ذكر حلة بقية مسلمى الأندلس بعد ذهاب ملكهم فنقول : ورد في تاريخ

« الاسلام فى اسبانية » تأليف « ستانلى لانبول » ما محصاه :

« ان آخر أنفاس أبى عبد الله على تلك البربوة لم يكن يا آخر حراً أنفاس المسلمين فى

البح الديار بل بداية أنفاس برسلونها الصعداء وافتتاح عهد انتقام وابناء وان اسقف غرناطة

الأول « هرناندو دوتالافيرد » كان رجلاً حليماً . عادلاً أحسن معاملة المغاربة وأبى الجور

عليهم وتعلم العربى وكان يصلى به وعلى يده أريد ألوف من المغاربة الى النصرانية قيل ان

ثلاثة آلاف تنصروا فى يوم واحد . الا أن الكردينال « كسيميناس » الذى كان من

القسم المغارب بين رؤساء الكنيسة اعطف اليسيس ومال الى العنف والاكراه وأساء

معاملة المسلمين وحمل الملكة إيزابلا على ما بقي نقطة دمهاء في تاريخ حياتها من اضطهادهم واستعبادهم واكرامهم على التنصر فأتار ذلك ساكنهم وأخرج كل منهم وفي إحدى المرات حبست امرأة في البيازين لشأن من هذا القبيل فأتار سكان البيازين وتحصنوا وحملوا السلاح وكادوا يفتكون بالجنود وأوشك الدم أن يسيل بحدة الكردينال كسيميناس إلا أن المطران هرناندو الموصوف بالوداعة دخل رضى البيازين بالسكينة والأنس مع نفر قليل من حاشيته بدون سلاح وسأل القوم عن شكواهم وتقبلها منهم بالاستماع والاحتفال وهذا روعهم ونادى طائر الأمن إلى وثره وحجب الدماء يومئذ. أما كسيميناس المشهور فلم يزل يغوى الملكة حتى أصدرت أمرها باكرام المسلمين على إحدى الخطتين الجلاء أو النصرانية وذلك بأنهم كانوا يذكرون المسلمين بأنهم من سلالة النصارى في الأصل فاقفلت المساجد وأحرقت الكتب التي هي نمرات القرون وزيدة الحطب^(١) وأذيق المسلمون العذاب اشكالا والوفاة ففضّل علمتهم فراق دينهم على فراق أوطانهم إلا أن شعبة من الحبة الإسلامية بقيت تجمع في جبال البشيرات حيث حتمهم أوعارهم من مضطهدهم

«وأول جيش أرسل إليهم كان تحت قيادة الدون «الونزو دوشيلار» البطل المشهور انهزم هزيمة شتعاء وذلك سنة ١٥٠١ وقتل الدون المذكور وقيل انه الدون الخامس المقتول من تلك العشرة في حرب المسلمين فازداد انتقام الأسبانيول من المغاربة بعد هذه الغلبة وهجم كونت «طندبلد» على «قويجار» وخدم كونت «سرين» جامعاً على جماعة اتجأوا إليه من المسلمين بسلامتهم وأطفالهم. وأمست الملك فرديناند بنفسه الطريق على الفارين من الجبال فن بقى حياً من الثوار فبرأ إلى مراكش ومصر والبلاد العثمانية وانتهت الثورة الأولى في الجبال

«ومضى على ذلك نصف قرن والقبض دفين في القلوب والمسلمون المنتصرون يعمدون أولادهم ظاهراً فإذا انصرف القسيس مسحوا عن الولد ماء المعصودية وإذا تزوج أحد الموريسك^(٢) أجرى القسيس عقد الأكليل ثم بعد ذهابه عقدوا النكاح بحسب السنة الإسلامية

(١) ذكر في بعض كتب الأسبانيول أنه أحرق في غرناطة في يوم واحد مليون مجلد وقيل بل مائة ألف مجلد وقرأت في بعض كتبهم أنهم أحرقوا كل الكتب إلا التاكليف بالعبادة والطب والرياضيات
(٢) لقب المنتصرة من المغاربة

«وكانوا يتقبلون قرصان البحر من أهل المغرب ويعاونونهم على اختطاف أولاد
النصارى ويأتون غير ذلك من الأعمال انتقاماً فلو كانت نمة حكومة عاقلة قوية ترعى عهودها
التي وافت عليها عند تسليم غرناطة لم يكن محل لذلك البغض العميق ولكن حكام
الاسبانيول لم يكونوا أهل عقل ولا أهل عدل وكانوا يزدادون بتدادى الأيام شراً ولم تلبث
الأوامر ان صدرت باكراد المسلمين على ترك ألبسهم الخاصة بهم وإس البرنيطة والسراريات
الاسبانيوية وحظر عليهم الغسل ودخول الحمام اقتداءً بغالبيهم في احتمال الأفساد (١) ثم
منعواهم من النكاح بالعربية وصدر الأمر بان لا يشككوا بغير الاسبانيول وبان يغيروا أسماءهم
ويسموا سيرة اسبانيوية ويسموا أنفسهم اسبانيولاً . وكان تصديق الإمبراطور شراسكان
هذا الأمر الفظيع في سنة ١٥٢٦ على انه لم يكن الظاهر منه اعتياده على اجرائه بالفعل لكن
عمله اتخذوه ذريعة لاستنزاف أموال المؤمنين من الموريسك وصار ديوان التفتيش يتحرف
ويشجر بهذه المسئلة . ومما صار الأمر الى فيليب الثاني مدد في اتخاذ الأوامر بحق الموريسك
وسنة ١٥٦٧ عزز الأمر الصادر بشأن تغيير الزى واللغة باستيفاق غريب لأجل منع النفاقة
التي هي من سنن الاسلام وذلك بأنه أخذ يهدم حمامات الجراء البديعة . فالتفريق التي أخذوا
بها لتكبير أحوال تلك الأمة البائسة كانت أشد من أن يتحملها أي قبيل دح سلائي المتصور
وعبد الرحمن وانشاء سراج ولذلك لم يطل الزمن حتى استنظر الشر واشتعلت الفتنة وثار فرج
ابن فرج من نسل بني سراج بجماعة من ذوي الحية من غرناطة فاصداً الجبال قبل ان
تمكنت الحامية من تعقبهم ونودي « بهرنالدو دوفلور » من نسل خلفاء قرطبة ملكاً على
الأندلس تحت اسم محمد بن أمية وعمت الثورة في اسبوع واحد جميع جبال البشريات ووقع
ذلك في ١٥٦٨ وما كانت هذه الجبال من أصعب تضاريس الأرض مرتقى وأوعرها ملكاً
كان تدويح سكانها من أصعب الأمور منالاً وكانت الفتنة فيها بعيدة المدى فاستمرت هذه
المره حولين كاملين حافلاً تاريخها بحوادث لا تحصى من القتل والغدر والتعذيب والاستباحة
والاحتياط وذلك من الجانبين لامن جانب واحد لكنه حافل ايضاً بوقائع يندم في تاريخ
الفرسية وكتب الحامسة الظفر بامتائها ونقى على صفحات السبر خراً للفرون والأمم . وكان

(١) كان من عادة الشعوب اللاتينية التفرد من الظهارة والاستحمام وكانوا يهزون النسل بقولهم « الذي
يدخل الحمام » وكان الاسبانيول يهدمون الحمامات بالمره التي يهدمون بها الجوامع

الغارية هناك في موضعهم الأخير والموقف الذي يحاولون فيه ادراك الثأر عن نحو من مائة سنة قضاها في البلاد العظيمة والظنون الذي ليس له نظير فهو أجمعاً منادين بالخذائيل واقتضاء الاوتار قرية بعد قرية وهدمو الكنائس واهانوا فيها وفتكوا بالمسيحيين وعذبوا النصراني الذين وقعوا في ايديهم واعتصم الذين نجوا بالمعاقل والأبراج ودافعوا دفاعاً شديداً . وكان مركيز « موندنجارة » قائداً في غرناطة فعمد الى المسألة واخذ بالملاينة وكادت الوفدة تنطلق لولا ما عاهد الشرر من ذبح مائة وعشرة سجناء من المغاربة في حبس البيلازين قبل ان يخرجهم ووقع بغير علم المركيز لسكران الموريسك بم يقبوا العذر ونشر والواء الثورة وصار ابن امية امراً بالنعل على جميع جهات البشريات الا انه لم يكن ممن يحسن السياسة فقام بعض اعوانه وقتلوه وبزيع لرجل آخر موصوف بالجمادة والحماة اسمه عبد الله بن أبيه

« فأرسلت دولة اسبانية لسانوخ النوار الدون « جون الاوسرى » أنا الملك وهو شاب في الثانية والعشرين من العمر فباشر القتال في شتاء ١٥٦٩ الى ١٥٧٠ وأتى من الضائع ما بلغت بأنداده كتب الوقائع فذبح النساء والأطفال ايام عيذه وأحرق الساكن ودمر البلاد وكانت علامته « لا هوادة » وانتهى الأمر بأذعان الموريسك لكنه لم يطل واستأنف مولاي عبيد الله بن أبيه الكرة فاحتال الأسبانيون حتى قتلوه غيلة وبقي رأسه منصوباً فوق أحد أبواب غرناطة ثلاثين سنة . وأخذ الأسبانيون في قمع الثورة بما أقسموا عليه من الذبح والحرق والتخلف بالدمار حتى أهلكوا من بقية العرب خلقاً كثيراً وخضع الذين نجوا من الموت اكنهم وقعوا في الرق وسيقوا بمالك وعبدانا وبقى منهم جلة فأخذ عددهم يتناقص . ولما كان اليوم المشهود والمذكور في النوارنج وهو عيد جميع القديسين سنة ١٥٧٠ بلغ عدد من ذهب منهم عشرين ألفاً والذين أخذوا منهم في معصية الفتنه صاروا الى الاستعباد وأخرج الباقون من البلاد مخفورين فأت كثير منهم على الطريق نعباً ومنهم من أجاز الى بر العدو وطافوا هناك سائلين لأجل قوتهم الضروري . ومنهم من لجأ الى بلاد فرنسة حيث استقبلوهم برّاً وترحبوا واحتاج اليهم هنرى الرابع لأجل دسائسه في مملكة اسبانيا^(١) ولم ينته اخراجهم تماماً الى سنة ١٦١٠ اذ وقع الجلاء

(١) الخليفة ان هنرى الرابع أصدر أمراً بقبولهم في فرنسة لكن على شرط أن يتحولوا كاثوليكين وقد نفذ الأمر وأجبر وأعلى النصر الى أن طاب السلطان ابن عثمان اخراجهم من فرنسة الى بلاد الاسلام

الأخبر ولم يبق في ذلك البلاد مسلم واحد بعد أن وليها الاسلام ثمانية قرن . ويقال ان عدد من خرج منهم منذ اليوم الذي سقطت فيه مملكة غرناطة الى السنة العاشرة بعد الألب والتامة يبلغ ثلاثة ملايين وان الذين خرجوا الآخر مرة يبلغ نصف مليون

« وأما الاسبانيول المساكين فلم يعرفوا ماذا يصنعون ولا فهموا أنهم كانوا يخرجون بيوتهم بأيديهم بل كانوا فرحين مسرورين بطرد المغاربة الذين اسبانية كانت بهم مركز المدينة ومبعث أشعة العلم قرونا . وفلما استفادت بقعة أوربية من حضارة الاسلام بمقدار ما استفادته هذه البلاد . فلما غادرها الاسلام انكسفت شمسها وتسلط تحسها وان فضل مسلمي الانلس ليظهر في هرجية هؤلاء القوم وتأخرهم في الحضارة وسقوط هذه الأمة في مكانها الاجتماعية بعد ان خلت ديارها من الاسلام . انتهى كلام ستانلي لامبول ملخصا

وأستشهد في حاشية هذه الجلة بنقل لك درجة هذه الحقيقة وهو ان لذلك حول مدينة غرناطة ضياعاً واسعاً ومزارع اضطروا الى بيعها سنة ١٥٩١ بسبب أنهم كانوا يحسرون عليها أكثر من غلتها مع ان هذه البقاع كانت لعهد العرب حدائق غناء وغياضاً وارفة الأفياء وموارد ثروة ورخاء . ومن أراد أن يعرف ما كانت عليه تلك المزارع من الخصب والثناء في زمان العرب فما عليه الا أن يقرأ الاحاطة في أخبار غرناطة تأليف وزير غرناطة الشهير لسان الدين بن الخطيب قال من جلة ما ذكر من وصف إسبانيا :

« ونحرف ضرورة هذه المدينة المعصومة بقطاع الله تعالى البسائر العربية المستخلصة والأدواح الملتفة فيصير سورها من خلف ذلك كأنه من دون سياج تلوح نجوم الشرفات أثناء خضراته . (الى أن يقول) :

فخرج أكثرهم وبقى منهم من اختار الإقامة بقرنيسة مع النصرانية ولما ظهر مذهب البروتستانت وكان منهم من اختار هذا المذهب وسدر أمر لويس الرابع عشر بأخراج البروتستانت كما لا يخفى هاجر قسم من هؤلاء الى سويسرة وبينهم العالم العلامة الشهير « أبو زيد » Abouzy الذي كان من أعلم علماء عصره في كل فن وكان صديقاً لفلوثير وروسو ونيوتن ولايبنتز وكان فلوثير يقول عنه « صديق العربي » وساقا كان فلوثير يستقبه في عويس المسائل وكانت بينه وبين روسو مراسلات كثيرة جميعاً أحدهم في كتاب . وفي جيب الآن شارع باسم ابوزيد فلوثير المذكور وهذا العبقري العربي العظيم وكان أبو زيد من عائلة أطباء عربية ساكنة في تولوز بخوف فروسية

« فليس تعرفون من جنبااته عن الكروم والجنان جهة الاملا عبرة به مقدار غلوة
أما ما حازره السفلى من حومته فهي عظيمة الخطر متناحية القيم يضيق جدد من عدا أهل
المالك عن الوفاء بأنماها منها ما يغفل في السنة الواحدة نحو الألف من الذهب قد غدت منها
الدكاكين بالخضر الناعمة والفواكه الطيبة والثمرة المدخرة يختص منها بمستخلص السلطان
المدور طوفاً على ترائب بلده ما يتنازع مائة منها الجنة المعروفة بعد أن الميسة والجنة المعروفة
بعد أن عصام^(١) والجنة المعروفة بالغروي والجنة المنسوبة الى قديح بن سحنوق والجنة
المنسوبة لابن المؤذن والجنة المنسوبة لابن كامل وجنة النخلة العليا وجنة النخلة السفلى
وجنة بن عمران والجنة التي الى نافع والجرف الذي ينسب الى مقبل وجنة العرض وجنة
الحفرة وجنة الجرف ومدرج نجد ومدرج السبك وجنة العريف^(٢) كلها لا تظفر لها في الحسن
والريع وطيب الثمرة وغرفة السقيا والنفاس الأشجار واستجادة الأجناس الى ما يتجاوزها
ويستغلها مما يختص بالأحباس الموقوفة والجنان المتمسكة وما يتصل بها بوادي سهل ما يقبده
الطرف ويعجز الوصف قد منلت منها على الأنهار المتداخلة العباب المتارة القباب واختصت
من أشجار العاريات ذات العنبر الثاني بهذا السقع ما قصرت عنه الأقطار الخ^(٣) اقتصرنا
على هذه الجبل من وصف طويل

ولا شك أن جنان السلطان الموصوفة هذا الوصف كله والتي كانت تدر بالاموال
والأوراق أيام العرب هي التي آلت بعد فتح الاسبانيول لغرناطة الى مالك الاسبانيول
وعادت امهاتهم لا تعطي من الغلة ما يفي بالنفقات اللازمة لها

وقال واشتدقون ارضين في تاريخه الشهر لفتح غرناطة ما ملخصه :

«انه بعد دخول هذه البلدة في حوزة الاسبانيول بقيت الحال غير مستقرة تماماً مدة
ستوات الى أن وقع من اجتهاد رؤساء المذهب السكانيولكي في حمل المسلمين هناك على

(١) الغدان بفتح أوله وتشديد ثانيه وقد يكرر أوله هو زمن الفراء وعنده وهو يقال لدور أصحاب
اليد في سبيل التباين وهذه المنظمة مستعملة في الشام بهذا المعنى وقد سرت الى الأندلس الذين أكثر
عربها كانوا شاميين

(٢) هذه التي يقول لها الانرجع Généralif

النصرانية^(١) ما أبأس مغاربة الجبال المتشددين في دينهم فناروا برؤساء الدين الكاثوليكي وقبضوا على اثنين منهم وعرضوا عليهما الاسلام فامتنعا فقتلوهما . وقيل ان النساء والأولاد قتلوهما قعصاً بالعصى وشدخاً بالحجارة وأحرقوا جثثيهما فاتقم النصارى من هذه الفعلة بأن اجتمع منهم نحو من ثمانمائة فارس وساروا الى قرى المقاربة بخربون ويعبثون فاعتصم المغاربة بالجبال وانتشرت الفتنة في الجبال كلها لكن وسطها كان في جبل « برميج » المصافى للبحر^(٢) فلما اتصل اخبر بالملك فرديناند أصدر أوامره بنقل المسلمين الساكنين في جهات الثورة الى قشتالة وأعطى الأمر سرّاً بأن من يدخل منهم في النصرانية يبق في وطنه ثم رمى تلك الأمة بالقائد المشهور « الوزو دواغيلار » ومعه جيش وهو الذي قضى معظم شبابه في قتال المغاربة فلما اقترب من بلادهم حتى هرع جماعة وافدة منهم الى رندة لدخول في النصرانية^(٣) وجر الباقون منهم تحت قيادة فارس منهم اسم الفهرى الى

(١) قد وقع في تاريخ الاسلام أن بعض ملوكه عززوا الاسلام وأحبوا نصره بطرق سلبية ولكنه لم يقع ولا مرة ان المسلمين أكرهوا النصارى أو اليهود على قبول دينه

(٢) لقد ظفت يوم دعاني الى اسبانية هذه الجبال ورأيتها متدلية الى البحر مع غلورها الفاتق وغبست ما كان من السهولة على المسلمين من الثورة فيها والأصناف بالمسلمين الذين كانوا ينجدونهم الفعلة بعد الفينة من وراء البحر

(٣) عندما كنت في رندة سنة ١٩٢٠ وشاهدت آثار العرب الباقية فيها كالحمام والجسر والأبراج التي عند الباب وحنية المساء المحرورة اليها ولا سيما القصر الذي منه درج تحت الأرض منحوتة في الصخر تبلغ ٢٦٠ درجة نزولاً من القصر الى البحر وغير ذلك من الآثار فالت لمسا كنت هناك أحببت أن أستمع عن منزل أبي البقاء صالح بن تريف الرندي فلم أفت له على أثر وقيل لي ان محمداً اسمه « لوزاو » هو الأخير الذي بنى رندة وله تأليف في تاريخها غام وأظلم على كثير من آثارها وأخبارها وسألت عما اذا كان معلوماً محل بيت صالح بن تريف الرندي الشاعر المشهور فاجاب بانني . ثم سألت عما اذا كان باقياً هناك فاجاب عريضة معروفة فقال انه كان في رندة أسرة عريضة اسمها venega تحريف Benega انقضت وانه كانت عائلة اسمها الرغري وانه يقرب رندة في تلك الجبال قرية اسمها venadali لعلها محرفة عن ابي عدالي أو ما أشبه ذلك معروف أن أصل أهلها عرب وقرية أخرى اسمها ben arrabal أو « بن الرباط » وقرية أخرى اسمها ben alariah وهذه ترجع أيضاً محرفة عن « بن رباح » وعذلاً من أشهر قبائل العرب بالغرب . وذكر لي اسم قرية اسمها Zara أطلقها محرفة عن « صخرة » وقال لي انه توجد في قرية « خوبريك » أسماء عربية كثيرة

حيث يتعذر السالك من تلك الأوغار راغبين شعاب الجبال دون مرور عساكر الاسبانيول فتلاقى الجعان أمام بلدة « مونارده » وانتشب القتال فيقال ان الدون « الوزو » مع ابنه الدون « بطرء » وثلاثمائة من شجعانه صدقوا الحيلة على المغاربة فأزاحوهم وتلاحقوا في الطريقة فتبجحهم الجند يغتمون ويضربون ولما امتلأت أيديهم بالغنائم كرم عليهم الفهرى بجماعة من أبطاله وعلت الصرخة فارثجت لها جوانب الأودية وذعر الاسبانيول فتدأوا الى الفرار وابت الوزو في مكانه يحرضهم ويضم من شقبت شملهم فصر معه جماعة وولى الأكرنرون ودخل الظلام وخيم الغسق واشتد الخناق بالاسبانيول وجرح بطرء بن الوزو فأمره أبوه بالرجوع فأصر على البقاء بجانب أبيه فأمر أتباعه بحمله الى معسكر كونت « أوريبه » فاحتملوه مشحناً جراحاً وليت الدون يقاتل من رجاله يناضلون الى أن قتلوا عن آخرهم

« وتخص الدون بين صخرين يتقى بهما فبصر به الفهرى فقصده واستحضر الصراع وأخ الفهرى وطمع في قرنه وكانا متماثلين في نبات الجنان مع قوة الاضلاع ونونى الخلق فصاح الوزو بخصمه : « لانتخبني نفسك وقعت على صيد هين فأنا الدون الوزو دواغيزلار » فأجابه المغربي : « ان كنت أنت الدون الوزو فأعلم أنى أنا الفهرى » ثم كوره صريعاً ومات يموتة مثال الفراسة الاسبانية والنمودج الغشمشمية في الأندلس . واندفع المغاربة ذلك الليل بطوله يطاردون الاسبانيول ولم ينكفئوا حتى لاح الصباح فأجلى المعترك عن قتل الدون « فرانسيسكو دوراميز » المجرى الذى كان قائد المدفعية الأكبر وكانت له المواقف المشكورة في حصار غرناطة لكن مصرع الدون الوزو دواغيزلار أنهى الأحرار جميعها . وعند وصول خير هذه الفاجعة الى الملك رشح بالجيش الى جبال رندة فكنت بحضوره النائرة واشترى بعض المغاربة أرواحهم بخازوا الى افريقية واجتمعي آخرون بالنصرانية . وأما أهل البلد الذى قتل فيه فرسان الاسبانيول فسلكوا فى سلك العبودية وبخت المئات عن جثة الدون فوجدوها بين مائتي جثة فيها أجساد عدد من الأمراء والكبراء وحملت تجاليد الدون الوزو الى فرطبة فى مشهد حافل بين مدامع كالمسحاب الموهل ودفن فى كنيسة مارهيبيوليتو ونديه الاسبانيول دهرأ طويلاً . انتهى كلامه بحملاً

وذكر المؤرخ الشهير الفرنسي فيكتور دروى Victor Durrty في تاريخه ما يأتي ملخصاً :

« ان اسبانية تخلصت من العرب لكنها بقيت حافظة عليهم احبة شديدة ريثما في قلوبهم ثمانية قرون قضتها معهم في الحرب . وكان لذلك سكان الجزيرة اختلاطاً من مسالمين ونصارى ويهود فعول فرديناند على توحيد الديانة بوحدة الاعتقاد تعزيزاً للدولة فأنتأ ديواناً جديداً للتفتيش وكان الملك هو الذي يعين الرئيس والمفتش الكبير ويضع يده على أملاك المحكوم عليهم . وكان هؤلاء في البداية من النصارى اليهوديين والمسلمين المنتصرين قاهراً الباقين باطناً امناً لمحمد بن عبد الله ثم شملت أحكام الديوان أهل البدع السياسية كما شملت أهل البدع الدينية . سنة ١٤٩٢ قرر ديوان التفتيش المذكور طرد اليهود من اسبانية بعد أن سلبوهم أموالهم . وقد قدر بعض المؤرخين المعاصرين تلك الخسارة عدد من خرج منهم ثمانمائة ألف (١) والقسم الأكبر منهم هلكوا وعذبوا بما لم يعذبه احد من العالمين سنة ١٤٩٩ صدر الأمر بسلب المسلمين حرثهم الدينية التي تقررت لهم بموجب عهد غرناطة فجلا منهم جم غفيرة ولم يتم خروجهم جميعاً حتى القرن التالي سنة ١٦٠٩ وهكذا فازت اسبانية بوحدتها الدينية لكنها خسرت صناعتها وتجارتها اللتين كان العرب واليهود اعم عمالهما » اهـ

وذكر مرة عند كلامه على تراث كان اندا كل مقصد فرديناند فاكره مستمعي بلنسية على التنصر وأهل غرناطة على ترك دينهم والتسكلم بغير لغتهم . وقال في عرض الكلام على فيليب الثاني انه اضطهد المغاربة وضيق عليهم حتى اضطروا للثورة سنة ١٥٦٨ وأوقدوا نيرانهم على تلك الجبال ايداناً بالخروج وكان يمكنهم بما امسكوه من مخائق جبالهم الثبات لنوايا لواءهم اليهم يد معونة من اخوانهم في افريقية . ففرق فيليب شملهم وبددهم في مقاطعاته ولم تحض سنون عشر حتى صاروا كلهم ارقاء

(١) منهم جماعة وافرد في أزهر وأقوام في الاسبانية وسلايك هاجروا اليها في تلك الكتلة ومنذ خمس سنوات — وقد مضت المدة الآن ٣٥ سنة أي انها كانت خمس سنوات يوم طبعا تأليفنا آخر بنى سراج مع ذيله في تاريخ الأندلس الطبعة الأولى — احتفلوا بعيد مضي الأربعمائة سنة على دخولهم بلاد الدولة العثمانية أكثر واخبر من الدماء سلطنة آل عثمان التي هي كهف الطارودين

ثم لتذكر بحسب عادتنا في المقابلة بين توارنج الأفرنج وتوارنج العرب كلام المقرئ
عن هذه الوقائع الأخيرة مع بعض تصرف . قال : « ثم ان النصارى سكتوا العهد ونقضوا
الشروط عرودة عرودة الى ان آل الحال لحلمهم المسلمين على التنصير ستة أربع وتسعمائة بعد
أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم انهم قالوا ان الفسبيين كتبوا على جميع من كان اسلم
من النصارى أن يرجعوا قهراً الى التنصيرية ففعلوا ذلك ونكلم الناس ولا قوة لهم . ثم
تعدوا الى امر آخر وهو ان يقولوا للناس ان جددك كان نصراناً فأسلم فلترجع اليك نصرانياً .
ولنا خش هذا الأمر قام أهل البيمارين على الحكم وقتلوهم وهذا كان السبب للتنصير :
قلوا ان الحكم خرج من السلطان ان من قام على الحاكم فليس الا الموت الا ان يتنصير .
وبالملة فانهم تنصروا عن آخرهم بالدية وحاضرة . وامتنع قوم من التنصير واعتزلوا النصارى
فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى ولما كن كذلك منها بلقيش والندرش^(١) وغيرهما فجمع لهم
العدو الجوع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً الا ما كان من جبل بالشفة فان الله تعالى
أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة^(٢) وأخرجوا على
الامان الى فاس بعبا لهم وما خلف من أموالهم دون الفخار . ثم بعد هذا كان من أظهر التنصير
من المسلمين بعيد الله في خفية وبصلى فتشدد عليهم النصارى في البحث حتى انهم اخرجوا
منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعواهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد .
وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقبض الله تعالى لهم ناصراً الى ان كان
اخراج النصارى اليهم بهذا العصر القريب عام سبعة عشر واثم خرجت اتوف بفاس والوف
أخر بتلمسان من وهران وجهودهم خرج بنونس فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله
تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم وهذا بلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المصرة
« وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد عمدوا فراها الحالية
وبلادها وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم
عسكراً جزاراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن وحسنوا قلعة
سلا وبنوا بها القصور والجامعات وهم الآن بهذا الحال ووصل منهم جماعة الى القسطنطينية

(١) هي البلدة التي ذهب اليها أبو عبدالله بعد أن أخذت منه غرناطة

(٢) هو التوزو دو ابياتر

العظمى والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام وهم طنبا العهد على ما وصف وامة وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين » انتهى

ثم قلت فى ذيل آخر بنى سراج :

« ثم ان الأندلسيين المطرودين النازلين بر العدو اتفقوا من الاسبانيول ومن طوائف الفرنج عما أذاقوهم اياه من العذاب وذلك بجهاه البحر الذى اشار اليه المقرئ حيث انهم انتظموا فى سائر بحرية الجزائر وغيرها من بلاد المغرب ايام كان اهلها يلقبون بلوك البحر وكانت دول أوربة بأسرها تدفع لهم الجزية وتواصل الى والى الجزائر اهدايا دفعا لغائلة السفن المغربية عن سفنها فكان من قطع المغاربة خصوصا الأندلسيين منهم السبل البحرية على بخارة الاسبانيول وغيرهم من السبي والاسر والعيت على شواطئ أوربة لاسيا اسبانية ما القاه الاوربيون توارىخ خاصة به وهو يدل على استحكام الاحن فى صدورهم . وفى الواقع لا ترى عداوة ظال امرها وتوفدت جررها كالعداوة التى بين المغاربة والاسبانيول

« وقد اتفق الكتاب على أن الأندلسيين الجالين عن بلادهم اى بالعدوة احتملوا معهم على أيديهم صناعة الاندلس وفى صدورهم هم اهلها ونقلوا ذوق تلك البلاد الموصوف بالسلامة الى حيث اتقوا عصا تسيارهم . فأتخلت عنهم فنون وشاعت بواسطتهم صنائع وانتشرت بسببهم فوائد وكانوا مع رثانة حالهم وتشريدهم من بلادهم صغر الابدى الامن زهيد المتاع يشلون حيثما حلوا قطعة من الاندلس ولا يزال على يثاتهم وأنواع معاشهم وسائر شؤونهم وما أخذهم مسحة اندلسية تتأثر بالذوق وتدل على الاصلية فى التمكن حتى ان السكائب الاخرنسى « فيليكس دوبوا » الذى ساه فى أواسط افريقية فى العام المنصرم (أى سنة ١٨٩٦) عثر على قبيل فى جوار تنيكوتو يقال لهم الاندلويز حقق بما أخذهم من اخبار اصول تلك القبائل انهم من جالية الاندلس كما يدل عليه اسمهم . وذكر انهم مع فقرهم تجدهم اسعى ذوقا وأعلى طبقة فى المدنية من القبائل المجاورة لهم وان لهم صناعات مخصوصة بهم كالصياغة والتفخس وغير ذلك والظاهر انهم مترامون الى السودان عن مرا كس وسبحان من يبدى نصارى الأمور . انتهى ما قلته فى ذيل آخر بنى سراج

ثم تعود الى موضوع تحويل الاسبانيول لعرب الأندلس من الاسلام الى النصرانية فنقول ان أهم ما عثرنا عليه فى هذا الباب وأدقه هو ما جاء فى كتاب « الأنوار النبوية فى

آباء خير البرية « للعالم النسابه سيدي محمد بن عبد الرفيح الأندلسي المتوفى في رجب عام اثنين وخمسين وألف (١) وهو كتاب خطي عزيز الوجود نقل عنه العالم المؤرخ الشيخ أبو عبد الله محمد أبو جندار فصلاً بتمامه جليل الخط في هذا الموضوع وذلك في كتابه « مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح » رعيماً ليكون جل انساب أهل الرباط اندلسية وأن البيوت النبيلة فيها كلها أوجها من بقايا جالية الأندلس والبهك ما يقوله محمد بن عبد الرفيح :

« قد كثر الانكار علينا معشر أشرف أهل الأندلس من كثيرين من اخواننا في الله بهذه الديار الأفريقية من التوسيين وغيرهم حفظهم الله تعالى بقولهم : من أين لهم الشرف وقد كانوا ببلد الكفار دمرهم الله ولم يثوب من السنين كذا وكذا ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدة الاسلام وقد اختلفوا مع النصارى أبعدهم الله . الى غير ذلك من الكلام الذي لا ينيل به ولا أذكره هنا صوناً لعرضهم ولحبي فيهم فأقول وبالله التوفيق وهو الطاهي الذي أقوم طريقه : مع أني صغير السن حين دخولنا هذه الديار عمرها الله تعالى بالاسلام وأهلها بحجاء النبي المختار ﷺ فقد أطلعني الله على دين الاسلام بواسطة والذي رجه الله عليه وأنا ابن ستة أعوام وأقل مع اني كنت اذ ذاك أروح الى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ثم أرجع الى بيتي فيعلمني والذي دين الاسلام فسكنت أعلم فيهما معاً وسني حين حلت الى مكتبهم أربعة أعوام . فأخذ والذي لوحداً من عود الجوز كناناً أنظر الآن اليه مملساً من غير طفيل ولا غيره فكتب لي فيه حروف الهجاء وهو يسألني حرفاً حرفاً عن حروف النصارى تنرياً وتقريباً فإذا سميت له حرفاً أعجمياً كتب لي حرفاً عربياً فيقول لي هكذا حروفنا حتى استوفى لي جميع حروف الهجاء في كرتين . فلما فرغ من الكرة الأولى أوصاني أن أكتب ذلك حتى عن والدي وعمي وأخي وجميع فرائينا وأمرني أن لا أخبر أحداً من الخلق ثم شدد علي الوصية وصار يرسل والدي الى ففستلي ما الذي يعلمك والدك فأقول لها : لا شيء . فتقول : أخبرني بذلك ولا تخف لأنني عندي الخبر بما يعلمك : فأقول لها : أبداً ما هو يعلمني شيئاً . وكذلك كان يفعل عمي وأنا أنكر أشد الانكار . ثم أروح الى مكتب النصارى وآتي الدار فيعلمني والذي اني أن مضت مدة فأرسلني الى من اخوانه في الله الأصدقاء فلم أفر لأحد قط بشيء مع أنه رجه الله تعالى قد أني نفسه

(١) أي بعد الجلاء الأخير عن الأندلس بحسب وثلاثين سنة

للهلاك لا مكان أن أخبر بذلك عنه فيحرق لا محالة . لكن أئدنا الله سبحانه وتعالى بنأبيه
وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته بين أظهر أعداء الدين » اهـ

قلت فهبنا من هنا أن هؤلاء الجماعة كانوا أُجبروا على النصرانية طرأ وانما كانوا
ياقين في الغالب على الاسلام سرأ وكانوا مضطرين أن يرسلوا أطفالهم حتى من سن أربع
سنوات الى مكاتب النصارى ولم يكن يباح لهم أن يعلموا أولادهم شيئاً عن الاسلام ومن
كان يقدم على ذلك وكانت الحكومة تعلم به كان يحرق بالنار . ورغم هذا كله كان
بعضهم حريصاً على تعليم أولاده عقيدة الاسلام ولقد العربيه فكان يعلمهم ذلك مع
أشد الاحتياط والامتناع خشية أن السلطة تأخذ سر الأمر من الأولاد فتحرق أولئك
والوالدين بالنار كما هو فرار ديوان التفتيش الكاثوليكي . ولكننا لا نظن ان عدد الوالدين
الذين كانوا يعلمون أولادهم الاسلام والعربيه سرأ كان كبيراً وذلك لأن كثيراً من العوام
كانوا أميين لا يعرفون الكتاب فلا يتمكنهم التعليم ثم لأن كثيراً من المسلمين كانوا يخشون
أن تطلع السلطة على السر بواسطة الأولاد فيقعوا في الهلاك . ولذلك كانوا يحتفون بدون
شك التعرض لهذه الهلكة . وقد نشأ أولادهم في النصرانية باطنياً ظاهراً وهم لا يعلمون
أن آباءهم كانوا مسلمين وان فلو بهم كانت مطمئنة بالإيمان وذلك نظراً لشدة كتمان الوالدين
وخذرعهم اطلاع السلطة على حقيقة حالتهم ولكون شعائر الاسلام كانت كلها ملقاة وكان
هؤلاء المسلمون المحمولون على النصرانية كرهاً والذين يقال لهم الموريسك مضطرين اذا
ولد لهم ولد أن يستدعوا القسيس ليعمده واذا تزوج منهم متزوج أن يستدعوه لعقد
الاكليل واذا مات منهم ميت أن يستدعوه للصلاة على الجنازة وكانوا جميعاً يلتزمون الذهاب
الى الكنيسة نهار الأحد فعلى هذه الحالة نشأ أولادهم في النصرانية وكان من الاسبانول
اليوم ملايين أصلهم من المسلمين بهذا السبب . ثم يقول :

« وقد كان والدي رحمه الله تعالى يعلمني حينئذ ما كنت أقوله عند رؤيتي للاصنام
وذلك أنه قال لي : اذا أتيت الى كنيستهم ورأيت الاصنام فاقرا في نفسك سرأ قوله تعالى :
« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو
اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . » وقل يا أيها
الكافرون لا أعبد ما تعبدون » الى آخرها وغير ذلك من الآيات الكريمة وقوله تعالى :

وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً وقولهم : انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً . فلما تحقق والذي رجه الله تعالى اني أكنتم أمور دين الاسلام عن الأقطاب فضلاً عن الاجانب أمرني أن أنسلكم بأفئدة الولداني وعجمي وبعض أصحابه الصداقة فقط . وكانوا يأتون الي بيتنا فيتحدثون في أمر الدين وانا أسمع فلما رأى حزمي مع صغر سني فرح غاية الفرح وعرفني بأصدقائه وأحبائه وأخوانه في دين الاسلام فاجتمعت بهم واحداً واحداً اهـ

قلت ان الاسلام في الأندلس حسبما يظهر من هذا الوصف كان أصبح شبهها بجمعية سرية نكتم أمرها أشد السكتان ولا يقدر الواحد من المسلمين أن يروج بالسلامة الا لمن يكون قد ابتلى أمانته وامتنحن صدقه فكانوا يجتمعون سرراً اذا كان بعضهم وانفا ببعض ويتكلمون في أمر الدين في أشد الخفية . ثم يقول :

« وسافرت الأسفار لأجتمع بالمسلمين الأخيار من جيان مدينة ابن مالك^(١) الى غرناطة والى قرطبة واشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء أعادها الله تعالى للإسلام فتلخص لي من معرفتهم أني ميزت سبعة رجال كانوا كلهم يتحدثونني بأمر غرناطة وما كان بها في الاسلام حينئذ وبما أقوله بعد وفاته قبل فندى عالي الكونه ما تم الا بواسطة واحدة بيني وبين الاسلام بها » اهـ

ان من عرف كون ابن عبد الرقيق توفي عام ١٠٥٢ لا يخفى عنه أنه كان شاباً في أول سني الألف للهجرة أي منذ زيف وثلاثمائة سنة . ويظهر له أنه منذ زيف وثلاثمائة سنة كان في جيان وغرناطة واشبيلية وقرطبة أناس يدينون بالاسلام سرراً وهم في الظاهر نصارى . وأغرب من هذا وجود مثل هؤلاء في طليطلة المصافحة لجريط والتي كان مضي على استرجاع الاسبانيول لها يوم زارها ابن عبد الرقيق أكثر من خمسمائة سنة . أي انه بقي أناس مسلمون في الباطن في طليطلة من بعد أن زال عنها حكم الاسلام بخمسمائة عام . ولقد علمت من كتب الاوربيين أن اللغة العربية بقيت هي لغة النفاقة عند الاسبانيول ولغة المعاملات والأخذ والعطاء وبها تكتب الصكوك والعقود الى سنة ١٥٨٠ أي الى العهد الذي

(١) محمد بن مالك الطائي الجياني صاحب الألفية

كان فيه ابن عبد الرزاق الأندلسي شاباً فعند ذلك صدر الأمر من الدولة الأسبانية بمنع الكتابة والكلام بالعربي . ولقد سمعت ما هو أقرب من هذا وهو أنه بقيت قرى إلى أوائل القرن التاسع عشر في نواحي بلنسية يتكلم أهلها بالعربي . أما تحجب النساء في بعض قرى بلنسية وفي بعض قرى الجنوب مثل طريف فباقر إلى يومنا هذا . هذا ولدى مجموع وثائق كبير عدة أجزاء طبعه « أنجيل غونزالز بالمسيه » من أساتذة الآداب في جامعة بحر بطاسمه « المستعربون في طليطلة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر »

Las mozarabes de Toledo en los siglos XII y XIII

وهو يتضمن سكوك بيع وشراء نقلت عن خطها العربي الأصلي بالزكوة جغرافيا ووجعت

بأرائها ترجمتها بالاسبانيولى

نذكر مثالا من هذه السكوك وهو هذا :

« اشترى رقي بن اسحق بن تميمش اليهودي من جيلة بنت فرج زوج البليوشى (البنا) جميع خضما وهو النصف من الكرم المعروف بالفوجوال بخومة قرية جلنكش من قرى مدينة طليطلة وعلى الاشاعة فيه مع من يشركها بسابره وحده في القبة الطريق وفي الجوف جبل لابن برطال وفي الشرق كرم ابن قرتجبل وفي الغرب الطريق وفيه بابة يسمون عنده ثلاث مائة مثقال من الصروف الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ بما فيه عشر درهما يتنقل على سنة المساءين في ... (هنا كلمة لم يمكن قرائتها) يومهم في رمضان المعظم عام خمسة وتسعين وأربعمائة^(١) ومن أشهده على بن البليوشى بأجارته له وامضائه له وإقراره لأحق له في شيء من المبيع المذكور ووجه من الوجوه ولا سبب من الأسباب وأنه كان لوالده جيلة إلى أن باعته حيث وصف . إبراهيم على بن سعيد بن أبو الفتح المالحى ، وإبراهيم بن وهب بن أبي ... و ... بن يوسف بن الرباني . ومحمد بن أحمد بن سعد ... وعبد الرحمن بن أحمد بن عفيف الفهري . وأحمد بن محمد ... ومحمد بن عبد الله بن مظاهر الانصري . وأحمد بن يوسف الانصارى وإبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ... وسامعة بن يوسف الانصري ويحيى بن عبد الله ... العافى واليك مثالا آخر :

« اشترى عبيد الله بن أسد من خلف بن عبد الله جميع الكرم الذي له في أول منزل

(١) أى سنة سقوط طليطلة بيد الأسبان بحرين سنة

رزين حده في القبلة نهر نايجه وفي الجوف كرم يشث الحريري وفي الشرق كرم لأبي خالد
وفي الغرب غروسات السلطان أيده الله بثمان عتده ستون ديناراً من السبزيات الجارية
بطبيلة حين هذا التاريخ ، وفي شهر نونبر الكاين في سنة ثلاثين ومائة وألف من
تاريخ الصفر

«وما وجب الخافه الى المدخل للكروم الموصوف فوق هذا على باب الكروم الذي
لرد ريقه قيس السلطان . . الذي هو من ليون والسبب المذكور مشترك بينهما إذ كان
الكروم في القرع واحد وعلى ذلك كنه يقع الأشهاد

«عبد الرحمن بن زكريا . يوان بن خلف شاهد . سلم بن زكريا وكتب عنه . سليمان
ابن عمر شاهد وكتب عنه . وعلى بن الحرير . عبد العزيز بن خير . ولهم فيم . . . وعبد الله
ابن الوال . وسليمان بن الجلال . اليان بن سعيد . وعبد الملك بن عبد الملك وكتب عنه وعليه
شهد عندي . وبخط عجمي جليانثس بيطرس نشنا . وبخط عجمي سيكاه بن مشارك شاهد
وعلى كل اسم من العجمي معلم شهد عندي وبالعربي خالد بن اصغر »
واليك مثلاً ثالثاً :

« اشترى خير بن زكوي من يحيى بن عبد السلام جميع الدار التي له بحومة رعية
القبلى حد الدار في الشرق دار خلف بن جواد وفي الغرب دار جليبرت الفرنجي وفي القبلة
دار أبي الحسن بن زكريا وفي الجوف دار مفرج بن عثمان بثمان عتده أربعون ديناراً
من الدنيرات الجارية بطبيلة حين هذا التاريخ في شهر ابريل الكاين في سنة واحد
وثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر

«وشهود الأهل فيه وفرج بن عبد الله . ومسعود زرفون شهد وكتب . عبد الرحمن
ابن يحيى شاهد على ذلك . وعيسى بن الحسن شاهد وكتب عنه بأمره . وعيشون بن يحيى
شاهد . هذيل بن حكم شاهد وكتب . زكريا بن عثمان شاهد وكتب عنه . وبالعجمي
بشتش فليش بطره تشش صحت هذه الفسخة (الخ) في العشر الأوسط من شهر شعبان
سنة ثلاثين ومائتين وألف للصفر . يوان بن يليان السقلى شهد . ويوانش بن مقابل بن
عبد العزيز المشتاري . وباطره بن عمر بن غالب بن القلاس »

وهذه المجموعة تشمل على ١١٥١ صكاً يفهم الناظر منها أن التعامل كان في طبيلة

بعد استيلاء الاسبان عليها ^(١) لا يزال باللغة العربية وأن أكثر أهلها كانوا عرباً أو مستعربين وأن نزرأ منهم كانوا غير مستعربين وكانوا لا يعرفون أن يوقعوا أسماءهم بالعربي فكان يكتب أنهم وقعوا « بالعجمي » وما يدل على أن العروبة قد كانت هي السائدة أنه إن كان ثمة شاهد أو بائع أو مشترٍ افرنجي جرى تعريفه بالفظلة « الافرنجي » ويرى الناظر في هذه المجموعة أن أناساً أسماؤهم مسيحية وأسماء آبائهم أو أجدادهم اسلامية مما يدل على كونهم تنصروا . ثم إنه كان الطقس الكنسي في طليطلة بالعربي *rite mozarabic* وكان يختلف عن الطقس اللاتيني في ثلاث عشرة نقطة .

واند اضلعت في جزيرة ميورقة على صك مقاسمة الاسبانيول لأملأكها وأراضيها بعد أن استولوا عليها سنة ١٢٤٨ وهو محرز بالعربي أيضاً مع أنه صك تقاسم بين جماعة لسانهم غير اللسان العربي . وهذا الصك محفوظ في خزانة البلدية في « بالميا » على أنه لا يستغرب كل هذا أيام كان العهد بالعرب والعربية حديثاً . واسكن اللسان العربي بقى لسان أهل طليطلة إلى سنة ١٥٨٠ وفي ذلك العهد كان يذهب إليها ابن عبد الرقيق فيجد اخواناً له باقين على الاسلام في الخفية . وقيل لي إن أحد المغاربة وقع في هذه الأيام الأخيرة ببعض قرى ضابطلة فوجدهم يذبحون الأكباش يوم عيد النحر عندنا ويقولون إنها عادة توارثوها عن آبائهم

ثم نعود الى كلام ابن عبد الرقيق الأندلسي فهو يقول :

« فباجتماعي بهم حصل لي خبر كثير وثلة المنة وقد قرأوا كلهم رجعهم الله على شيخ من منايح غرناطة أعادها الله للاسلام فقال له الفقيه الموطوري رجع الله تعالى ونفعنا به فإنه كان رجلاً صالحاً وإياً الله فضلاً زاهداً ورعاً عارفاً سالكاً ذا مناقب ظاهرة مشهورة وكرامات زاهرة مأثورة قد قرأ القرآن الكريم في مكتب الاسلام بقرناطة قبل استيلاء العدو عليها وهو ابن ثمانية أعوام وقرأ الفقه وغيره على منايح أجلاء حسب الامكان لأن الوقت ضاق في السر والاعلان لشدة القتال والحصر الذي كان عليهم مع صفر سنة . ثم بعد مدة يسيرة انتزعت غرناطة من أيدي المسلمين أجدادنا وقد أذن العدو في ركوب البحر والخروج منها من أراد وبيع ما عنده واتيانه هذه المياد الاسلامية أبقاها الله تعالى عامرة بالاسلام الى

(١) سنة ١٤٩٢ هجرية و ١٥٨٥ مسيحية

يوم الدين وذلك في مدة ثلاثة أعوام . ومن أراد أن يقيم على دينه وماله فليفعل بعد شروط
اشتراطوها والزامات كتبها عدو الدين على أهل الإسلام . فلما تحركوا لذلك أجدادنا وعزموا
على ترك ديارهم وأموالهم ومعارقة أوطانهم للخروج من بينهم وجزا إلى هذه الديار
التونسية والحضرة الخضراء بغتة من جاء إليها حينئذ ودخلوا في زقاق الأندلس المعروف
بهذا الاسم وذلك سنة اثنتين وأسمائة وكذلك للجزائر ونظاوين وفاس ومراكش وغيرها
ورأى العدو العزم فيهم لذلك نقض العهد فردتهم رغم أنوفهم من سواحل البحر إلى
ديارهم ومنعهم فهرا عن الخروج وللحقوق باخوانهم وفرايتهم لديار الإسلام . وقد كان
العدو يظهر شتاً ويفعل بهم آخر مع أن المسلمين أجدادنا استنجدوا مراراً بملوك الإسلام
كذلك فاس ومصر حينئذ فلم يقع من أحدهما إلا بعض مراسلات ليقتضى الله أمراً كان
مفعولاً اهـ

قلت الذي يظهر من خبر الشيخ الصالح اللوطوري رحمه الله أنه نشأ وشب تحت حكم
الاسبانيول لكنه كان يعلم فرائض الإسلام سرّاً بقدر طاقته بعد أن أتى الاسبانيول
شعائر الإسلام من كل الأندلس وأنه هو الذي أقر الأشخاص السبعة الذين ميزهم ابن
عبد الرقيق عن كان يجتمع بهم ويحدث معهم في النجوى بأمر الإسلام . وأما مسألة إذن
العدو للمسلمين بالرحيل ثم منعه إياهم بعد الإذن فقد جاء هذا في التواريخ وربما كان العدو
توجس خيفة أنه إن خلت الأندلس من المسلمين وصاروا كلهم في بر العدو انفضوا على
السواحل الاسبانية وأنزلوا بها المصائب أخذاً بالتأثر هذا فضلاً عن أن خروجهم جميعاً يخسر
الأندلس من جهة المال والجيالات ويخرب البلاد . ثم انه كان في نية فردناند وإيزابلا
إكراههم جميعاً على ترك الإسلام فلم يكن الاسبانيول بعد هذا يخشون بقاء أناس على
الإسلام في اسبانية . وأما استنجد الأندلسيين بملوك الإسلام وعدم إجابتهم إلا بالكلام فإن
هذه النازلة وقعت في عصر كانت فيه دول العرب بالتحفاظ لا تكاد تسد الفتوق التي عندها
في داخل بلادها فضلاً عن أن تسد الثغور البعيدة . وأما دولة الترك فكانت لا تزال قوية
الأنها كانت في الجهاد الدائم مع الدول الأوربية كما لا يخفى فلم يكن من السهل عليها
التفرغ لأمر الأندلس . وبرغم هذا قد ثبت أن خبر الدين بربروس وغيره من ولاة الجزائر
طالما أرسلوا نجدات بالمال والرجال إلى مسلمي جبال البشيرات المشرقة على البحر .

ثم قال :

« ثم بقي العدو يحتال بالكفر عليهم غصباً فابتدأ يزِيلُ لهم اللباس الإسلامي والجماعات والجماعات والمعاملات الإسلامية شيئاً فشيئاً مع شدة امتناعهم والقيام عليه مراراً وفتاهاهم إياه إلى أن قضى الله سبحانه ما قد سبق في غنمه فيقينا بين أظهرهم وعدو الدين يحرق بالنار من لاحت عليه أمانة الإسلام ويعذبه بأنواع العذاب فكهم أحرقوا وكهم عذبوا وكهم نغوا من بلادهم وضيعوا من مسلم فانا لله وأنا إليه راجعون حتى جاء النصر والفرج من عند الله سبحانه وتعالى وكان ذلك سنة ثلاث عشرة وألف هجيرة ^{بفتح} ^ع » اهـ

قلت من أدل الدلائل على وجوب تمسك المسلمين بأزيائهم ومشتخصاتهم القومية وعدم استخفافهم بهذا الأمر أن أعداءهم عندما يحاولون إخراجهم من الإسلام يبدأون بإجبارهم على تغيير أزيائهم وأوضاعهم التي نشأوا عليها ، وذلك كما فعل الأسبانيون من إكراه مسلمي الأندلس على تبني اللباس الإسلامي وترك الذهاب إلى الجماعات وما أشبه ذلك فالعمل الذي عملته حكومة أنقرة بمسلي تركيا في هذا العصر من إكراههم على لبس البرنيطة ودق عصى من لم يلبسها أو من انتفد لبسها أن هو إلا مرحلة من مراحل خروج المسلمين الأتراك من الدين الإسلامي وعمل مشابه لما فعله الطاغيتان فرديناند وإيزابلا بمسلي الأندلس بين يدي حلهم على التصرانية . نعم إن اللباس لا يتعلق بالدين والدين لا يتعلق باللباس ولكن لكل أمة مشخصات قومية ظاهرة ذات تأثير كبير في أحواط الروحانية الباطنة ومن ينكر ذلك يكن مكابراً ، ولو لا هذا التأثير ما كان الأسبانيون أنفسهم يخرج مسلمي الأندلس من الإسلام بأدروا بإجبارهم على تغيير ملابسهم وعاداتهم وإهم الله لو لا مناعة الأمة التركية وشدة انتماسها بحبيل الإسلام لكان تأثير الأوضاع الجديدة التي جلبتها عليها أنقرة عميقاً جداً ولا أزال أقول أنه إن استمرت هذه الحالة مدة طويلة في تركيا كان على اسلام الترك خطر عظيم لا سيما بعد الغاء أنقرة كل تعليم ديني إسلامي من مكاتب الحكومة .

ثم قال :

« نخرج بعض أحبائنا وأخواننا وهو الفقيه الأجل المدرس الشريف لأمه أبو العباس أحمد الحنفي المعروف بعبد العزيز القرشي ومعه أحد أخواله رحمهم الله تعالى إلى

مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية العظمى فالتقى بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان أحمد بن السلطان محمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى وأيدهم فأخبراه بما حل بأخواننا الأندلسيين من الشدة بفراصة وغيرها فكتب أمراً لصاحب فراسة دمرها الله بأعلام السلطان نصره الله بأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين الأندلسيين وخدام آل عثمان ويوجههم إليه في سقن من عنده معاً يحتاجون إليه »

قلت طالما ذكر المبعوضون للدولة العثمانية تقصيرها في نجدة مسلمي الأندلس الذين حل بهم كل ماحل وانزععت من أيديهم مملكة غرناطة أيام كانت هي في عزها وعشجيتها أمرها. وأنا لأبرئ الدولة العثمانية من تبعة هذا التقصير وأقول إنها برغم ما كانت عليه من الحروب في البلقان ومن مجاهداتها يومئذ للالمان والمجر والبولونيين والبنادقة وغيرهم كان في استطاعتها أن تجرد جيشاً ينزل في سواحل غرناطة ويفرج عن هناك من المسلمين ولكن قدر الله أن لا تفعل ذلك وكان أمر الله فلراً مقدوراً ولكن بما لا يجوز إنكاره أن أترك الجزائر سواء لعهد بربروس أو من بعده كانوا لا يفتأون ينجدون نوار المسلمين في جبال البشيرات المتدلية إلى البحر

ثم يقول :

« فلما فرى الأمر السلطاني في ديوان الرئيس فسمعه من كان عنده مرسلاً من قبل صاحب الجزيرة الخضراء وهو المعين فيليبو الثالث فأرسل إليه وهو يخبره بالواقع . وأن السلطان أحمد نجل آل عثمان أرسل أمره إلى فرانسوا وأمر صاحبها بأن يخرج من كان عنده من الأندلس فقبل كلامه وأمر بإخراج المسلمين وأذن لمن جاء من الأندلس بأن لا يأخذ معهم وإن يركبوا عنده في سواحل مراكبه ويبلغهم إلى حيث شاءوا من بلاد المسلمين » اهـ

قلت إن السلطان أحمد نجل آل عثمان الذي ذكره ابن عسك الرقيق الأندلسي هو السلطان أحمد الأول ابن السلطان محمد الثالث العثماني وهو السلطان الرابع عشر من سلسلة آل عثمان ولد سنة ٩٩٨ للهجرة (١٥٨٩) وتولى السلطنة وهو ابن أربع عشرة سنة وبقى فيها ١٤ سنة إذ توفي في ٢٢ نوفمبر سنة ١٦١٧ وهو ابن ٢٨ سنة لا غير . وله في استانبول جامع السلطان أحمد العظيم وسبيل الماء الذي في الطوبخانه .

«وفي أيامه عصي أهل البغداد وفتح ثورتهم ونشبت الحرب مع العجم وعقد معهم الصلح وتغلب اسطوله على اسطول فرسان مالطة وذلك في بحر قبرص ودمره وكان مراد باشا صاعداً أعظم في أيامه فاختضع الثوار الذين كانوا عصوا الدولة وهو الذي بواسطته أصدر السلطان أحمد أمره بانقاذ الأندلسيين . وأما ملك فرانسة الذي في أيامه التجأ الى فرانسة الموريسك (أى مسلمو الأندلس) الذين أكرهوا على التنصر فهو هنرى الرابع المتوفى سنة ١٦١٣ وكان هذا الملك قد قبلهم في بلاده على شرط أن يقبلوا الدين الكاثوليكي . فلما أرسل اليه السلطان أحمد العثماني ياركابهم البحر الى بلاد الاسلام لم يسعه الا الاجابة وأركبهم البحر الى البلاد التي أرادوها من بلاد الاسلام وبقى منهم بقايا في فرانسة اندمجوا في أهلها»
م يقول :

« فلما أحس بهذا الأمر عدوا الله فيليبو صاحب اسبانية دخلة الرعب والخوف الشديد وأمر حينئذ بجمع أكابر القسيسين والرهبان والبطارقة وطلب منهم الرأي وما يكون عليه العمل في شأن المسلمين الذين هم في بلاد كافة فيها الشأن في أهل بلنسية فأخذوا الرأي وأجمعوا انهم على اخراج المسلمين كافة من مملكته وأعطاهم السفن وكتب أوامر وشروطاً في شأنهم وفي كيفية اخراجهم وشدد على عماله بالوصية والاستحفاظ على كافة المسلمين من الأندلس . نعم أريد أن أذكر لك نبذة بسيرة اختصرتها وترجمتها من جملة أسباب ذكرها الملك الكافر أبعد الله في أوامره التي كتبها في شأن اخواننا الأندلسيين حين اخراجهم من الجزيرة الخضراء لتكون على بصيرة من أمرهم وتعلم بعض الأسباب التي أخرجوا من أجلها على التحقيق لا كما يزعم بعض الحاسدين . وإيؤيد ذلك ما قدمناه آنفاً من أمر السلطان أحمد المنصور بالله نجل آل عثمان نصرهم الله آمين ونسكمل الفائدة ولله يساء الظن منا معذر الأندلسيين فأقول وبالله التوفيق : قال الملك الكافر أبعد الله تعالى وزلة آمين : « لما كانت السيادة السلطانية الحسنة الجيدة موجبة لاجراج من يكدر المعاش على كافة الرعية النصرانية في مملكته التي تعيش عيشاً رغيداً صالحاً والتجربة أظهرت لنا عياناً أن الأندلسيين الذين هم متواسون من الذين كدروا مملكتنا فيما مضى بقيامهم علينا وقتلهم أكابر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم وقطعهم لحومهم وتخزيهم أعضائهم وتعذيبهم أيامهم بأنواع العذاب الذي لم يسمع فيما تقدم مثله مع عدم توبتهم مما

فعلوه وعدم رجوعهم رجوعاً صالحاً عن قلوبهم لدين النصرانية وأنه لم ينفع فيهم وصايانا
ورأينا عياناً أن كثيراً منهم قد أحرقوا بالنار لاستمرارهم على دين الماسين وظهر منهم
العناد بعينهم فيه خفية واستمجادهم كذلك عون السلطان العثماني لينصرهم علينا وظهر لي
أن بينهم وبينه مراسلات اسلامية ومعاملات ديدية وقد تبينت ذلك من اخبارات صادقة
وصلت الى ومع هذا ان أحداً منهم لم يأت اليانا ليخبرنا بما هم يدبرونه في هذه المدة بينهم وفيما
سبق من السنين بل كتموه بينهم علمت بذلك ان كلهم قد اتفقوا على رأي واحد ودين
واحد وبيتهم واحدة وظهر لي أيضاً ولاثر باب العقول والتدينين من النسيبيين والرهبان
والبطارقة الذين جمعهم هذا الأمر واستشرت ان من ابقائهم يتنا بنساً فساد كبير وهول
شديد بسططنا وأن باخراجهم من يتنا يصلح الفساد الثاني من ابقائهم بملككني فأردت
اخراجهم من سلطتنا جلة يزول بذلك الكدر الواقع والمتوقع للتصاري الذين هم رعييتنا
طائعين لاؤامرنا وديننا ودينتهم الى بلاد الماسين أمثالهم لكونهم مسلمين » انتهى

قلت ظهر من هنا جلها انهم كانوا نصر وهم كرها والمالك معترف بذلك ومعترف بأكثر
من ذلك وهو أنهم كانوا يحرقون بالنار من يلاحظون عليه انه كان باقياً مسالماً في السر .
وهذا أفطع عمل عرفه البشر في التاريخ . والمالك يعجب أيضاً من كونهم راسلوا السلطان
ابن عثمان سرّاً ككساعين يلتصقون بجمدته مع ان ملك اسبانية كان يظن انهم بعد ان
أكروهوا على النصرانية ومضت عليهم هذه المدة الطويلة نحو من مائة سنة وربي أيناؤهم
وأحفادهم في مدارس النصراني قد آمنوا بالدين المسيحي ايماناً خالصاً وزال كل أثر لاسلام
من قلوبهم فإراع المالك الا والأخبار تأتية بأن هؤلاء القوم لا يرجعون على دين آبائهم
في دخائل نفوسهم وانهم يدبرون أموراً فيما بينهم ولا يوجد منهم من يأتي ويخبر حكومة
الاسبانيول بتدابيرهم الخفية مما يدل على كونهم بأجمعهم لا يزالون مسلمين فلهذا أجمع في
الآخر طردهم

ثم يقول ابن عبيد الرقيع :

« ولم أتعرض لذكر شروط كتبها ودفعتها فانظر رجلك الله كيف شهيد عدو الدين
المالك الكافر بأنهم مسلمون واعترف أنه لم يقصر على إزالة دينهم من قلوبهم وانهم
متمسكون كلهم به مع انه كان يحرق منهم من ظهر عليه الدين ثم وصفهم بالعناد لرويته

فيهم لوائح المسلمين وأماراتهم فأثى علامة أكبر من صبرهم على النار لأجل دين الحق ومن استنجد بهم ملك دين الاسلام المؤيد لحماية الدين أمير المسلمين السلطان أحمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى فهذا غاية الخير والعز والبركة لهذه الطائفة الظاهرة الأندلسية التي قال فيها شيخنا الأستاذ القطب الغوث سيدي أبو الغيث القشاش نفعنا الله تعالى به دنيا وأخرى في بعض مكانيه التي كان يكاتبني بها في بعض شأنهم حين قدومهم الى هذه الديار أدامها الله للاسلام فقال لي : « وسلم لي على هؤلاء الأنصار الأظهر الأخيارياته لا يحكمكم الا مؤمن ولا يغيثكم الا منافق » انتهى بلفظه . ويؤيد كلام الأستاذ رحمه الله تعالى الأحاديث الشريفة السابقة في أول هذا الكتاب في الفصل الأول منه في النوع الثالث منها كحديث سلمان الفارسي رضي الله عنه وحديث علي رضي الله عنه وهو قوله عليه السلام : لا يغيث العرب الا منافق وغيرهما وكما جاء في شأن فريش ثبوت نسب أكثرهم منهم ومن الأنصار الخزرج والأوس وغيرهما قليلاً فضلاً عما هو منهم من الأشراف من ذرية الحسن والحسين والعباس وغيرهم رضي الله عنهم من بني هاشم كما سيأتي ذكرهم ان شاء الله تعالى مع ما تقدم والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق فخرجوا كلهم سنة تسع عشرة وألف ^(١) ووجد في ديار السلطان الكافر أبعد الله تعالى أن جلة من أخرج من أهل الأندلس كافة نيف وستة ألاف تسعة كبيراً وصغيراً فكانت هذه الواقعة منقبة عظيمة وفضيلة عجيبة لجامعتنا الأندلسية زادهم الله شرفاً بمئة وأمر أيضاً بإخراج من كان مسجوناً في كافة مملكته وكل من كان أمر بإخراجه فأخرجه وعفا عنه وزوده وأرسله الى بلاد الاسلام سالماً » اهـ

قلت قد حصص الحق وظهر أن آل عثمان لم يهملوا تماماً مسلمي الأندلس وأن خلاص هذه الستائة ألاف الأخيرة من نفوسهم انما كان على يد السلطان أحمد الأول رحمه الله وكان مشهوراً بالنضوى والورع والحجة الدينية

هذا ولما كتبنا شارعين في تأليف كتاب اسمه « الحلة السندسية في الرحلة الأندلسية » يتضمن رحلتنا منذ سنتين الى اسبانية وما شاهدناه فيها من آثار العرب وعلمائهم من تاريخهم فقد تركنا استقصاء أخبار المؤرسل لذلك التأليف وانما نحب أن نلحق بهذا

(١) رواية فتح الطيب أن الخروج الأخير كان سنة سبع عشرة وألف فيجوز أن يكون وقع تحريف في اللفظة لما بين تسع وسبع من التشابه

المبحث فصلاً جديداً عثرنا عليه في جريدة « آربايتزسايتونغ » Arbeiterzeitung جريدة العملة النمساوية الصادرة في فيينا عددها المؤرخ في ٣ يناير سنة ١٩٣٢ قد أتى فيه بمناسبة الكلام عن نورات أهل العمل على خبر موريسك بالنسبة في أوائل القرن السادس عشر فقال :

« سنة ١٥١٩ ثار الاهالي في مملكة بلنسية من بلاد أسبانيا وصادف ذلك زمان ثورة « السكوموتيروس » في قشتالة وثورة الفلاحين في ألمانيا . وبدأت ثورة بلنسية هذه بانتقاص أهل العمل . ولم يكن انتقاصهم على الملك نفسه بل على النبلاء أصحاب الاراضي . وكانت خلاصة مطالبهم المساواة في الحقوق مع الطبقات العليا وكان ينقد منهم يوان لورازو قائداً وما زالوا حتى أدخلوا اثنين من زعمائهم أعضاء في الهيئة الحاكمة في بلنسية . ولما كانت بلنسية تحت ظفر ظفرات الفرسان دائماً كان جميع الاهل يحملون السلاح بدون حرج فساعد ذلك على نجاح الثورة كما أن العنف الذي كان يجرى من الحكومة في قمعها قد زادها اشتعالاً وانتهى الامر بأن الاهالي قتلوا على الحكومة والنبلاء وطردوهم من بلنسية . ولما كان الموريسك يومئذ مستعبدين يعملون في أراضي النبلاء كانوا هم في الجبهة المعارضة لهذه الثورة ولما كانت هذه الأمة مختلفة عن النافرين في الجنس والدين وكانت تقاوم النافرين بالسلاح نشأ عن ذلك مذاج نقشعرت منها الأبدان وانفجرت بركان التعصب الديني بصورة هائلة كما لا يخفى

« ولقد كان العرب فتحوا بلنسية سنة ٧١٥ مسيحية وبقيت من جهة ولايات قرطبة مركز الخلافة . وفي أيام ملوك الطوائف استقلت بنفسها وذلك سنة ١٠٣١ ثم افتتحتها مملكة اراغون سنة ١٣١٩ وبقيت في يدها وبقى العرب في الأراضي مزارعين بعد ان كانوا مالكيين وصار الملك للنبلاء . وكان هؤلاء العرب ذوي مقام عند الاسبانول بسبب حسن قيامهم على الاملاك ومعرفتهم التامة بالزراعة وكانوا يؤدون ضرائب قاذحة ولا يتكادهم ذلك لشغافهم في العمل . ومن هناك جاء المثل الاسبانيوني : حيث لا عرب لا فائدة

Mi entras mas moros . mas ganancia

« فكان النبلاء أصحاب الاملاك يكرهون سياسة الكنيسة التي كانت تعمل دائماً لتحويل العرب الى النصرانية لأن تنصر العرب كان يحرمهم فوائد جزيلة وسنة ١٥١٥

أمكنهم بشدة إلحاحهم الحصول على أمر من شريكهم بأن لا يجبر أحدهم من العرب على التنصر وبأن لا يطرد أحد منهم في كل أرض بنسبة . وهذا العنصر الذي عظمه النبلاء للعرب في أمر حريتهم الدينية جعل هؤلاء ينتصرون لهم بالسلاح عند ماثار بهم حزب العمالة

« فتحتوات المصارعة بين العمالة والنبلاء الى مصارعة بين المسيحيين والمسلمين بهذا السب وفي وقعة « غانديا » في يوايو ١٥٢١ بين الحكومة والتأثرين كان ثلث العسكر من العرب . ولهذا لأجل أن ينتقم التأثرون من النبلاء ، تعمدوا تعميم المسلمين بالقوة القاهرة لأن المسلمين المنتصرون كانوا يحصلون على حقوق المسيحيين أنفسهم و يعودون بالسكن بعد أن كانوا مزارعين وترفع عنهم ضريبة إلحاحهم الخاصة بالمسلمين . فصار الثوار يجوبون البلاد وينصرون أي مسلم صادفوه بالأكراد وينهبون مزارع النبلاء . وقد ازداد ذلك بعد وقعة « غانديا » التي كان الظفر فيها للثوار تحت زعامة « تيساني بيريس » فكان حزب العمالة يزحفون ويجمعون المسلمين بالقوة وبأبي القيسون فيرشونهم بماء المعمودة وما زال الأمر كذلك حتى تغلبت الحكومة على الثوار وذلك بعد وقعة شاطبة التي دافع فيها الثوار عن تلك البلدة دافع الميوت وقتل فيها « بيريس » زعيمهم . وقد كان الثامول أن يحصل الفرج للمسلمين بتغلب الحكومة فحصل العكس وذلك بأن المسلمين بعد تنصيرهم كرهاً صاروا تحت نظر ديوان التفتيش الذي تأسس سنة ١٤٨٠ وكانت مهنة هذا الديوان حرق من لم ثبت نصرانته بالثوار . والحال أن جميع أولئك المسلمين الذين تنصروا بالقوة لم يكونوا يعمدون من النصرانية قليلاً ولا كثيراً ، فكان وفوعهم في الأعم في نظر ديوان التفتيش من أسهل الأمور . وبدأ اضطهاد هؤلاء المسلمين بشكل لم يسبق له مثيل . وكان النبلاء يحاولون الدفاع عن مزارعهم المسلمين فيسترضيهم رجال ديوان التفتيش بأنصف المشح حتى لا يعارضوهم في عملهم الوحشي بحق المسلمين . وبعد أن كان المنتصرون متمتعين بحقوق النصاري الأصليين عادت الحكومة فسلبتهم هذه الحقوق وصاروا يؤدون الضريبة الخاصة بهم مثل ذي قبل ولم يعودوا أحراراً في منازلهم . وما برحت هذه الأعمال الوحشية تشاقم بحق المسلمين حتى أخذت الرأفة بعض الاساقفة فراجعوا البابا سائلين إياه إذا كان التصير تحت التهديد بالحرق جائزاً . وكان البابا بونيفاس الثامن فأجابهم : « بأن التهديد

بالموت لا بعد أكرهاً يبطل مشروعية التنصّر^(١) وأن الأكره لا يكون أكرهاً إلا إذا سبق المسلم إلى المعمودية ويدها موثقان ورجلاه مقيدتان وكان يصيح بأعلى صوته محتججاً على هذا العمل « وكان البابا يعلم جيداً أن المسلم الذي كان يحتج على تنصيره بهذه الصورة لم يكن يرفع صوته حتى يسقط صريعاً

« ففي هذه السنين التي وقعت فيها هذه القذائع قرأ خمسة وعشرون ألفاً من مسمي بالدية إلى أفريقيا فلحق الضرر بالنبله في مزارعهم وراجعوا الإمبراطور شارل كان بشدة فاضمر أمره بتأليف لجنة لحل هذه المشكلة . فبعد مذاكرات طويلة قررت هذه اللجنة قراراً غريباً جداً وهو أن تعيد المسلم بالقوة ذب . يعاقب فاعله إلا أنه لا ينبغي أن يزول به أثر التعميد . والمسلم المعمد بالقوة يجب أن يبقى نصرانياً^(٢) وإن الله هكذا يكون جعل من الشر خيراً وبالاختصار رجع المسلمون إلى نظر ديوان التفتيش وهم يجهلون بسط قواعد المسيحية

« فأخذ هذا الديوان ينقب وينقر عن السكابة والخزنية من أعمال المسلمين ومنع جميع شعائرهم الدينية بل منع جميع عاداتهم ومذاهبهم في الحياة ولو لم يكن لها تعلق بالدين وعاقب على ذلك . وكان يعاقب أشد العقاب من علم عنه أنه لا يأكل لحم الخنزير أو الميتة أو عرف عنه أنه لا يشرب الخمر أو قيل أنه أدرج مبيته في كفن نظيف . وكانت النظافة في ذاتها ذنباً يعاقب عليه . وفي سنة ١٥٩٧ وجد في طليطلة المسمى « موريسكو بارثولوم شانجه » فليحظ عليه القوم أنه شديد التطهر فعذبوه عذاباً شديداً وما زالوا يعذبونه حتى أفرأ بأنه يتطهر عن عقيدة حكموا عليه بالسجن المؤبد وضبط جميع أملاكه . ووجدوا قرأتاً عند عجوز اسمها « إزابلا زاسيم »^(٣) فقات أنها لا تقدر أن تقرأه فلم ينفعها هذا القول وعذبوها ولكن لما كان عمرها تسعين سنة اكتنفوا من أهانتها بحملها على حمار والطواف بها في الشوارع وعليها غطاء مكتوب عليه اسمها وأنها ... ثم رجموها في السجن وبقيت فيه إلى أن علموها قواعد المسيحية . وقد عذبت نساء كثيرات على الطعام من لحم الميتة للكلاب

(١) نيتأمل القاري في سدف هذا البابا وحرية وجدانه ...

(٢) نيتأمل القاري في هذا الرثاء وهذا التعليل الفارغ وتحميد الله على أن تاريخ الإسلام خال من المعرات التي تلوث بها غيره في باب الحرية الدينية

(٣) تملها بحرفة عن قاسم أو حاسم

بدلاً من اكلهم له . وكان من جملة الذنوب تحضيب الاطفال بالحذاء . وكان اشد شيء على الموريسك ما كانوا يكرهونهم عليه من دفن موتاهم في وسط الكنائس ودينهم بأمرهم باضجاعهم تحت التراب . وكانوا يعاقبونهم بالعرامات الثقيلة وبالمنزاع املاكهم منهم واذا تكررت التهمة فبالخرق بالنار . وكان الذي ينجو منهم من الموت يحلف عينا مؤكدة بأن لا يخبر أبداً بما جرى معه . وكان ديوان التنقيش يعمل العملين بالمعين سرّاً وكان منهم من يختفي شهراً . وكان منهم من يختفي سنين ولا يعلم احد به وكثيراً ما كان يؤتى بالرجل فيجد امرأته بعد ان كان فقدتها ويؤتى بالاب فيجد اولاده بعد ان كان فقدهم وذلك الدلق بينهم عند محل الحريق . وقد حدث ان ابنة عمرها ١٩ سنة سعت والدتها واهلها لدى ديوان التنقيش فالتوا بالاب فلم يفر بشيء فاحرقوه واما الام فافترت حكموا عليها بالسجن المؤبد . وكانت ضحايا وشاية هذه البنت ٢٥ شخصاً منهم أربعة ماتوا حرقاً بالنار والباقيون حكم عليهم بالسجن وأما املاكهم فقد ضبطت بأجمعها

« ولقد انتهت هذه القذائع الوحشية باجلاء جميع الموريسك عن اسبانية وقد كانت ثورة العملة في بنفسية هي السبب في اكرامهم على التنصّر جوعاً وتمسك ديوان التنقيش بذلك لأجل اتمام عمله الشنيع » انتهى

قلت ان مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » معروف عند هؤلاء الجماعة وليس منحصرها في رهبانية الجزويت وحدهم . ونحريه أن الدخول في الدين الكاثوليكي هو خير محض وخلاص من عذاب جهنم . وعليه فإذا ساءت الوسائل المستعملة لادخال غير الكاثوليك في الكنيسة فلا بأس لأن الغاية حسنة ... وهكذا أجازوا لأنفسهم ان يعملوا ما عملوه في اسبانية بالمسلمين واليهود وفي جنوبي فرنسا وفي بلاد اخرى بالمستعدين الذين يسمونهم بالمرافقة . وكل هذا جرى بأمر الباباوات ورؤساء الكنيسة وقتلوا نازع فيه منازع منهم . وطذا لما جرت في السنة الماضية مناقشة بين حزب الفاشيست في ايطاليا والفاتيكان من أجل قول موسوليني رئيس الفاشيست ورئيس الحكومة : انه يجب على الفاشيست ان يكرهوا أعداءهم وقول جريدة الفاتيكان ان هذا مخالف لبداي المسيحية اضطر موسوليني أن ينشر ردّاً تحت امضاء أحد أعوانه ذكر فيه مبادئ الكنيسة بشأن أعدائها وعددها أساء الباباوات الذين أصدروا الأوامر بالقتل العام والحرق بالنار وأجازوا كل ألوان العذاب لأجل مجد

الرب... من هؤلاء الباباوات يوليوس واينوشنيوس وغريغوريوس واسكندر بورجيا وغيرهم

ومن طالع تاريخ هؤلاء وبخاصة تاريخ البابا اسكندر بورجيا واولاده وعلم ما كان يجري من التفطاع بأمره في نفس رومة لم يعجب مما جرى بأمره وأمر اخوانه على مسلمي الأندلس . ولا جدال في صحة هذه التواريخ لأن رواياتها متواترة وقد اجمع عليها المؤرخون حتى من انفس الكاثوليك

ثم انا تعود الى موضوع مسلمي الأندلس فنقول انه بما لامرته فيه أنه لما خرجوا من اسبانية خرجهم الأخير سنة ١٠١٩ أو ١٠١٧ وكانوا ستائة الف نسمة لم يكونوا هم جميع المسلمين الباقين بالأندلس بل بقيت منهم بقايا كثيرة في كثير من المدن والقرى انتهى أمرهم بأن اندمجوا في الاسبانيول وصاروا نصارى فعلاً . ويقال ان رئيس جمهورية اسبانيا الحالي « السنيور القلعة زمورة » Alcalá Zamora هو من سلالة العرب . ويقال ان رئيس نظارها الحالي « البانية » Azania هو أيضا من أصل عربي وان اناساً من الاسبانيول شاطبة يقتسبون الى الامام الشاطبي صاحب القراءات . وقد شاهدت اناساً من بلبنة قالوا لي ان اصلهم عربي . وشاهدت من غرناطة رجلاً اسمه « الفخارو » قيل لي ان اصله عربي في « الفخار » وهذه اسرة معروفة في الأندلس وقيل لي انه يوجد في « مائة من ذرية بني سراج . والاسبانيول يقولون لهم « سراج » على عادتهم في قاب الجيم « . ولقد وجدت ذكر اعقاب السراجيين هؤلاء في كتاب رحلة الوزير الغساني الى اسبانية في ايام السلطان الكبير . ولأى اسماعيل صاحب المغرب . وكنت قرأت ترجمة هذه الرحلة باللغة الافرنسية وأعجبتني جداً على كوني لم أطلع أصلها العربي . ثم اتصل بعلم المؤرخ الكبير العلامة النحرير الشريف الأثير الأثير مولاي عبد الرحمن بن زيدان رئيس العائلة السلطانية العلوية بالمغرب أدام الله عزها ووفقها خدمة الاسلام والمسلمين اني أبحث عن رحلة الوزير الغساني الأندلسي الكاتب الذي سافر لعهد مولاي اسماعيل الى اسبانية فتفضل بكرم اخلاقه بان أمر باستفاح نسخة من هذه الرحلة بنصها العربي الأصلي واهداني اياها في جلد محلي بالذهب أطال الله بقاءه ونفع به وعلمت ان الوزير الغساني المذكور توفي في فاس سنة سبع عشرة ومائة والف . واداسم رحلته فهو « رحلة الوزير في افشكك الاسير » وقد عثرت فيها على ذكر بني سراج عند

ذكر مدينة « اندوخر » من عمل فرطية قال :

« وهي مدينة قديمة أثرها أثر الحضارة وهي على ضفة الوادي الكبير أيضا وعلى هذا الوادي بقرب المدينة قنطرة من عهد الاسلام ويقع هذه المدينة من الزياتين والغروس واليسانين وأراضي الحراثة مالا يحصى . وأهلها أهل حراثة وفلاحة والغالب على عملها أنهم من بقايا الأندلس وجلبهم من أولاد السراج الذين كانوا تنصروا على عهد السلطان أبي الحسن آخر ملوك غرناطة . وذلك فيما يزعمونه النصارى وينقلونه في تواريخهم ان بعض أولاد ابن زكري الغرناطيين كان وثنى الى الملك بأحد أولاد السراج وذكر عنه أن له كلاما مع زوجة ابن الملك ومخالطة . فخلق الملك على أولاد السراج الذين معه بقرناطة فقتل منهم جماعة أعيان وكان أولاد السراج لذلك العهد هم أقوى جيش المسلمين وبلادهم « اندوخر » بيدهم باقية بعد تغلب الكفرة على فرطية واحوازها بحاربون عليها ويذبون عنها حينئذ بلغهم خبر من قتل من اخوانهم بقرناطة حلتهم الحية والأنفة والخنق والغيظ على أن يركبوا من ساعتهم وقصدوا ضاغية الوقت فنصروا على يده وخرجوا من عنده قاصدين غرناطة فأغاروا وحضروا بعد ذلك مع الطاغية في حروب غرناطة واحوازها فعوذ بالله من الضلال بعد الرشاد ومن الغواية بعد الهداية . وجل بقية هؤلاء المنتصرين الذين باندوخر بعد من أكل أهل البلد غير أنه لا يعد عند النصارى مثل ما لهم من الكبيرة التي يتوارثها النصارى خلفاً عن سلف مثل الدوك والقند وشبههم . وأكبر ما يحصل لهم اليوم من الكبيرة أن من يكون من سلف هؤلاء القوم الذين تنصروا أن يرت عمل الصليب على كتفه يرفد في ثوبه المتدثر به فتلك هي علامة الأكل منهم . والخطط التي يتبعونها بقايا هذا الجنس المذكور هي الكتابة وحكومة البلدان والشرطة وغيرها مما ليست وجاهة كبيرة وولاية سنية مثل التصرف في الحال^(١) أو الولاية للأقاليم الكبيرة والمدن القواعد مثل اسبيلية وما شاكلها . وعلى كل حال فهم في هذه النواحي كثير من لا يحصون فمنهم من ينسب ومنهم من لا ينسب ومنهم من ينسب من ينسب من سماعه الانساب ذلك . والذين هم من هذه النسبة وينتسبونها ينسب الى جبال نبارة وهي جبال بعيدة من فستاة^(٢) كان الحجاز اليها من بقي من النصارى ساعة تغلب المسلمين على العدو وبغافرون

(١) جمع محلة أى مركز قيادة الجيش

(٢) لغة بني قنار

بالانتساب الى تلك الجبال وما والاها . والذين بيدهم ولاية أو خطبة من الخطوط
الخزنية ^(١) من أهل هذا الجنس لا ينفرون من الانتساب فلقد لقيت يوماً بمدينة مدريده ^(٢)
رجلاً أنسيتُ اسمه الآن راكباً ومعه جماعة من النساء صغاراً وكباراً لهم حسب وجبال
فوقه وسلم سلاماً كثيراً وأظهر هو ومن معه من النساء بشراً وترحبياً فقاطناهما بما يجب
وحين أراد الانصراف عرّف بنفسه بأن قال : نحن من جنس المسلمين من نسل أولاد
السراج . فسألت عنه بعد ذلك فقبل لي أنه من كتّاب الديوان وهو الذي يقرأ ما يحصل
بالديوان من رافع وعرض حال وشبهه . وكذلك أيضاً كانت جماعة من أهل غرناطة لهم
بغرناطة ولاية وأحكام ومكناهم بمدينة مادريده ترد علينا فحبة ضون ^(٣) « الوصل » الذي
هو من عقب ملك غرناطة ^(٤) وينسبون الى الجنس الذي كان بغرناطة وغلب عليهم
الشقاء والعياذ بالله . ولقد كانوا يسألون عن دين الاسلام وعن أشياء منه فحين يسمعون
ما نجيبهم به عنه من البيانات وأحكام الشهادة التي بنى الاسلام عليها وغير ذلك يعجبهم
ما يسمعون منه وينصتون اليه ويشكرونه بحضرة النصارى ولا يعأون بمن حضر . ولم
يزالوا مدة مقامنا بمادريده يكثر من التردد لدينا ويردون علينا المرة بعد المرة ويظهرون
من المحبة والتحنن شيئاً كثيراً . ففُتُ أن الله أن يهديهم الى الصراط المستقيم ويرشدكم الى
الدين القويم » انتهى

ثم اننا ننقل من رحلة الفاضل الوزير الغساني ما ذكره عن من أخرى أنس فيها
رائحة الاسلام ولا عجب فإن بين جلاء المسلمين الأخير وبين عهد هذه الرحلة نحواً من
مائة سنة لا أكثر

قال عنه ذكر مدينة « لينارش » : « وبها من بقايا الأندلس الغربيون سكانها »
وقال عنه ذكر مدينة اسمها « مورا » هكذا : « ومعناها المباشرة وسبب تسميتها بذلك
والله أعلم النهار بما تأخرت عن جيرانها من المدة بشي مافي التنصير »

(١) نسبة الى الخزائن ومعناه في المغرب والأندلس ما يقال له الحكومة اليوم في الشرق

(٢) والمغرب قديماً كانوا يقولون مجريط

(٣) أي الدون وهو من القاب الضرف عند

(٤) بحسب هذه الرواية يكون من عقب أبي الحسن علي بن الأحمر من تنصر وتحويل أسبانيولاً وهذا

يطابق ما قرأته من أن أخوة أبي عبد الله الصغار مذ سقطوا غرناطة تحولوا أسبانيولين

وقال عند ذكر مدينة « شريش » ما يلي :

« ومدينة شريش هذه تلقب بشريش الغرظيرة ومعناها الثقبانة ويعنون بها
المقاومة لبر الاسلام أهزه الله وجل أهلها من أهل الأندلس وأعيانهم لأنهم تنصروا وهم
أهل حرارة وفلاحة »

وذكر مدينة في جهات شريش اسمها « البريججة » فقال : « وأنزلونا داراً لبعض
أكابرهم وجعلوا يتناولون علينا قسراً وفيها من اتسب لنا الى الأندلس بأشارة خفية
يتدر على التصريح بغير كلام خفي . والغالب على جل سكانها انهم من بقايا الأندلس الا أن
العهد حال عليهم ورأوا في بحبوحة الكفر فغلبت عليهم الشقاوة والعياذ بالله »

ثم ذكر مدينة « الغريرة » فقال من جملة كلام : « وجل أهلها من بقايا الأندلس »
ثم قال : « وأهلها ذوات عظام والغالب عليهم الحسن رجالاً ونساء ولقد شاهدنا ابنتين
احدهما بنت حاكم البلد والأخرى بنت القاضي في غاية من الحسن والجمال والكمال لم تر عيني
في جميع ما رأيت من بلاد أصفانيا على سمعتها أجل منهما وهما من بنات الأندلس ومن دم
ملك غرناطة الأخير الذي غلب عليها وهو الملك المعروف عندهم « بالرى الشيكور » ومعناه
السلطان الصغير . ولقد أخبرني بمدينة مادريد رجل يسمى « ضربن الوئص » حفيد موسى
أخي السلطان حسن ^(١) المتغلب عليه بغرناطة ان البنيتين اللتين بالغريرة من دمه . وضون
الوئص هذا رجل حسن الأخلاق حسن الشباب له قوة وشجاعة معروفة عند النصارى
وهو معبود من فرسانهم وشجعانهم ومع هذا فهو مائل الى من يلقاه من أهل الاسلام
ويذكر نسبته ويعجبه ما يسمعه من الحديث عن الاسلام وأهله وأغنى حديثي عن أمه أنها
حين حاث به اشبهت أكل الكسكسون فقال لها أبوها : اهل هذا الجبل الذي في بطنك
من صن المسلمين يداعبها بذلك فكأنوا لا يتفرون من نسبهم لعلمهم أنهم من بيت الملك
نعوذ بالله من الخذلان والغواية ونسأله التوفيق والهداية »

قلت انه بمناسبة الحسن والجمال قد لحظت وأنا في أصفانيا ان أهل الجنوب منها أي
أهل البلاد التي يقال لها الأندلس أجل من أهل الشمال أي قشتالة ونازار واراغون
وبرشلونة . فلما كنت في غرناطة ذكرت هذه الملاحظة لأحد نبهائها فأجابني على الفور :

(١) لهيا أبي الحسن

« نعم لأننا نحن عرب »

ثم ذكر الوزير الغساني مدينة « مرشينة » فقال : « وأهلها أهل بشاشة ومنهم من ينتسب الى الأندلس اقتساباً »

وذكر في موضع آخر من كتابه أن الذين تنصروا كانوا يعطون علامة الصليب برقوقتها على ثيابهم فقال : « الذين هم من جنس الأندلس وكانوا أكبر قومهم وتنصروا لأغراضهم فأعطوا تلك العلامة وهي دالة على عراقتهم مع الاصلاء اعيد اسلامهم وعلامة على كبرتهم الخ »

فن هنا وأشبهه نعلم أن الموريسك - أو المدجنين كما كان يقال لهم عند العرب - كان بقى منهم قسم عظيم بالأندلس وأنهم تنصروا أولاً بالقوة ثم اندمجوا مع طول الزمان في النصارى ولكنهم ابشوا بتذكرون أصلهم وورايم حتى هذه الساعة يدكرون ذلك وفي أخبار هذه الأيام بعد أن انقلبت الحكومة الأسبانية من الملكية الى الجمهورية وانطلقت الحرية في أسبانية وجدنا كثيراً من أهل الأندلس يجاهرون بأن أصلهم من العرب وإطاليون الحكومة باعطائهم الأراضي التي هم مزارعون فيها قائلين ان هذه الأراضي كانت لأبائهم لما كانوا مسلمين وانه لما افتتح الأسبانول الأندلس وانزعوها من يد الاسلام أقتلعوها النبلاء والسكانس وأبقوا العرب فيها كمزارعين فلماذا هم يريدون إعادة هذه الأراضي اليهم . ولقد أجابت الحكومة الجمهورية طلبهم وسنت قانوناً بموجبه ترجع هذه الأراضي الى الفلاحين . ولما كان النزاع على الأراضي قد اختلط مع تذكار النسب العربي القديم كنت تجد عند هذه الطبقات العاملة بالأندلس من كراهية النبلاء وبخاصة من كراهية القسيسين والرهبان ما لا تجده عند غيرهم . وطالما أحرقوا بهالين السنين الأديار والكنائس ودور الأساقفة ولو لا محافظة الحكومة عليها لما كانوا أبقوا منها شيئاً فيما بينهم وليس هذا كله ناشئاً عن المبادئ الشيوعية أو الاشتراكية كما يظن بل ثمة عرف عربي عاد فزع في الأندلس بعد اعلان الحكم الجمهوري . وكان بعض نبهاء الأندلس قد حبوا يطالبون باستقلال داخلي خاص بالولايات الأندلسية قرطبة واشبيلية وغرناطة ومالقة وفهس الخ وذلك على أن تنضم اليهما منطقة الريف التي أهلها مسلمون بحاجة أن بينهم وبينهم وحدة في الأصل والعادات والثقافة وكانت هذه الفئة تنزع الى تجديد الثقافة العربية في

الانسان واحيا، ذكريات العرب وقد خاطبني بعض زعماء هذه الفئة من أشيوية قائلين أنهم يرون أن عظمة الاندلس كانت عهد العرب وانه لما برحها العرب ابتدأ سقوطها فلماذا هم يريدون إعادة الثقافة العربية اليها ويفكرون في إعادة مسجد قرطبة الأعظم للإسلام وفي بناء جامع في اشبيلية . وقد حدثني الأخ الحاج عبد السلام بنونة من أعيان تطلون بأنهم خاطبوه فيما اذا كانوا سيقومون ببناء الجامع في اشبيلية هل يساعدهم المسلمون في الكلفة فأجابهم بأنهم يساعدون بنصف الكلفة . وقد كان من نتائج الحكم الجمهوري الحر في أسبانية أن سياسة التودد الى الاسلام قد ظهر لها أنصار كثيرون وكل من يقاوم الكاثوليكية والحزب الملكي قد مال اليها . ويقال ان ستين نائباً في مجلس النواب يجربون بميلون اليها . ولقد قدم أحد نواب مجريط طلباً يقترح فيه إعادة مسجد قرطبة الى الاسلام مع بقاءه مسجداً أسبانياً وذلك لأن الوفد المغربي الذي كان قد ذهب من تطلون الى مجريط سنة ١٩٣١ يطالب ببعض الحقوق الأهلية في منطقة الريف قد طلب أيضاً إعادة مسجد قرطبة مسجداً تقام فيه شعائر الاسلام كما كان . الا أن الحكومة خافت من هيجان حزب الكاثوليكية ولم تعد الوفد المغربي بشيء من هذا الامر . وذهب بعضهم الى أنه يجوز جعل هذا المسجد أثراً تاريخياً لا تقام فيه شعائر الاسلام ولكن تخرج منه شعائر المسيحية وان كتبرين من الاسبانول يرون هذا الرأي . ومما يدل على تقدم سياسة التودد الى الاسلام في أسبانية أن بعض النواب والصحفيين والمفكرين في مجريط على رأسهم السنيور « ارجيلا » والسنيور « فونس » أسسوا جمعية اسمها الجمعية الاسبانية الاسلامية Association Hispano stannique واتدبوا الوفد السوري الفلسطيني محرر هذه السطور وزميله احسان بك الجابري للدخول فيها وقد وافقتهم على رغبتهم ودخلنا في هذه الجمعية وانتخبت أنا الفقير اليه تعالى نائب رئيس ودخل فيها زميلي وغيره من كبار الاسلام أعضاء . ومن دخل فيها عضواً من أعيان المغرب وأديانه ورجاله اخراج عبد السلام بنونة والسيد محمد الداود والسيد عبد الخالق الطوريس من تطلون والسيد احمد بلا فريج والسيد مكي الناصري من الرباط والسيد محمد الفاسي والشريف محمد بن الحسن الوزاني من فاس ولا تزال هذه الجمعية دائية في نشر دعايتها وتأسيس فروع لها وقد وفق السيد مكي الناصري لتأسيس فرع لها في غرناطة في هذه الايام الاخيرة كما أن أحد أعقاب بني أمية

من اشبيلية شارع بالاتفاق مع بعض أصحاب هذا المشرب هناك بتأسيس فرع في اشبيلية
 عود الى موضوع اختلاط الأثني العربية والاسبانيولية : لما أُجلى بقايا المسلمين من
 الأندلس الى افريقية حسبما تقدم الكلام عليه كان فيمن جلا من المسلمين من أصلهم
 عربى ومن أصلهم اسبانيولى . فكلما أنه باقى في اسبانية ملازمين تجرى في عروقهم دماء
 عربية يوجد في افريقية مثات ألف تجرى في عروقهم دماء اسبانيولية . ولا نقدر أن نحصى
 جميع العائلات الأندلسية التى ارتحلت الى فاس والرباط وقطوان وناعمان والجزائر وتونس
 وغيرها ولستنا نذكر بعضاً منهم على سبيل التمثيل

فن هؤلاء آل مريئود ذكرهم صاحب كتاب مقدمة الفتح في تاريخ رباط الفتح
 وعدد جماعة منهم تولوا المناصب العالية من قيادة وقضا وحسبة . وآل شفيك Santiago
 وآل ابن طوجا . وأولاد القونسى . وأولاد القرطبي . وأولاد القصرى . وأولاد ابن عبدون .
 وأولاد الدك . وأولاد الوائلى . وآل أبى جندار . وآل اللوشى . وصيرون . واشكلاط .
 وكلهم ممن تولوا المناصب واشتهر منهم رجال . ومنهم آل بركاش وهم بيت مجد قديم وحسب
 صميم لم تنقطع الرئاسة من بيتهم ومنهم السيد عبد الرحمن بركاش باشا الرباط الحالى عرفته
 مرتين احدهما فى باريز سنة ١٩٢٦ عند ما حضر مع المرحوم السلطان يوسف فاجتمعت
 معه بطريق المصادفة فى فندق « ماجستيك » والثانية فى قرطبة سنة ١٩٣١ وهذه أيضاً
 بطريق المصادفة وكان معه أحد أئمة الأدباء وبعض من حاشيته وهو وأتجه من سراق
 الاسلام وأمانى القطر المغربى سائرون على آثار سلفهم الكريم ومنهم آل الزيدى . وآل
 غنام . وآل الزهرا . وآل النازى . وآل السويسى . وآل مارسيل . وآل فرج . وآل
 بلا فريج الذين منهم الشاب الناهض النافع السيد احمد بلا فريج حرس الله مهجته وهو من
 نخبة فتيان الأمة المغربية بنى الأمة العربية بهذا العصر ومنهم بنو العوفير . وأبى عزه .
 والباشا . وقد ترجم المؤرخ أبو جندار جميع هذه العائلات وذكر الذين اشتهروا منها وذكر
 أفراداً آخرين من الطائفة الأندلسية مثل الرئيس ابن عائشة الرباطى سفير السلطان اسماعيل
 الى لوز الرابع عشر والسيد طاهر بنانى الرباطى سفير السلطان محمد بن عبد الله الى السلطان
 العثمانى والحاج الثهايمى المدور سفيره الى بلاد السويد والرئيس العربى المستبرى سفيره الى
 انكلترا والحاج الهاشمى المستبرى والحاج العربى ملين والحاج العربى بنانى والسيد محمد

فريون والحاج عبد القادر المعموري والحاج محمد الأزرق والسيد ابن عيسى بن مسعود طريدانو والسيد محمد بن العباس الزكي والسيد الجليلي العدلاني وغيرهم ممن تولوا نظارة الرباط أو الحسبة أو غيرها من المناصب. ثم ذكر أبو جندار عدداً من أمراء البحر وقواد البحرية اشتهروا في القديم من الأندلسيين الجالين إلى المغرب منهم الرئيس مكي الشرفوني والرئيس علي بر يس والرئيس العربي المستعري والرئيس العربي حكم والرئيس محمد السبيع والرئيس محمد العنقي والرئيس لبريس والرئيس عاشور والرئيس الهاشمي المستعري والرئيس علي التركي والرئيس ابن مبارك والرئيس لباريس والرئيس الحسن بناني والرئيس بركاش والرئيس بر بطل والرئيس المعطي وغيرهم.

وأما في تطاون فقد كتب من أسماء العائلات الأندلسية التي فيها بني قسطنطين وأصلها Castilian. وبنو بايصه أصلهم من بسطة بالأندلس. وبنو أراغون وهولاء يرفعون أسمهم إلى الزبير بن العوام رضي الله عنه. وبنو سالس. وبنو القرطبي. وبنو الغرناطي. ويقال الغرناطي. وبنو الطوريس الذين منهم الشاب الآديب الفاضل السيد عبد الخالق الطوريس وأخوه الماجد وجدهم السيد محمد الطوريس كان الوزير الأول بالمغرب وأصل بني الطوريس من جبال البشيرات بالأندلس وبنو فردناش. وبنو مورارش وبنو الخطيب أصلهم من شاطبة شرق الأندلس. وبنو القوفش من ذرية خلفاء بني أمية. وبنو الديروكان يقال لهم أبناء المسوس. وبنو زريق أصلهم من اشبيلية. وبنو الركينة منهم في تطاون مسجون ومنهم اسبانيول فساري لأن في تطاون جالية اسبانيولية. وعائلة الركينة كثيرة في اسبانية ومنها من بني ركينة المسلمين أحمد ركينة ناظر احباس طنجة وبنو مارين ومنهم مسجون فساري على هذا الضرب. وبنو مارنيل. وبنو الصغار. وبنو زكري. وبنو الداود الذين منهم الشاب النهم الفاضل الناهض الأستاذ محمد الداود مؤسس المدرسة الاهلية بتطوان وفقه الله وبنو طناته. وبنو الأبار اقارب الخافض ابن الأبار البلبسي القضاعي صاحب «أدرك تخليك خيل الله اندلس» وبنو مدينه. وبنو مولتبه. وأصلهم من نعر المرية بالأندلس. وبنو اجزول. وبنو البول وبنو الموشى من لوشة من مدن غرناطة. وبنو بالامينو وأصلها بالومينو. وبنو ضياغو. وبنو ديفيه منهم في تطاون ومنهم في الرباط. وبنو مسطاسي. وبنو مولاطو ومنهم في الرباط أيضاً. وبنو كرسبو. وبنو سوباطا وأصلها ساباطا.

وبني مندوسه وقد انقرضوا . وقد انقرض من أندلسية تطوان بنو غرسية . وبنو اشبيليانو . ثم ان من الاسر الأندلسية الشريفة بنو رزين الذين منهم صديقنا الوجيه السيد محمد الرزني وهؤلاء بحسب تاريخ البيان المغرب لابن خلدون أصلهم بربر وكانوا ملوك « شتمرية » الشرق بالأندلس

وذكر لي الأخ الحاج عبد السلام بنونة عائلات أندلسية في الرباط لم أجد لها في « مقدمة الفتح » مثل عائلة فديرة . وهذه العائلة هي التي منها المنشرق الأسبانيون الشهير فرانسيكو كودير *Carder* استاذ المنشرق الشهير القسيس آرين بالاسيوس . وعائلة فلورن *Flora* وهي بالاسبانيون *Montegomaz* وقال لي ان عائلة مارشيد معروفة في اسبانية ومنها أخذ مسلمون في تطوان وان من بني ماري من نقاذ كثيرة في اسبانية وان منهم أخذ مسلمين في تطوان . وان من بني عباد اناساً في مرقطة في شمالي اسبانية وانما في فاس . وقال لي الأخ المشار اليه ان جبال الريف ملائ بالاندلسيين

وفي فاس اندلسيون كثيرون أشهرهم آل الفاسي وهم من بني الجند الفهرين الذين كانوا في قرطبة ثم في اشبيلية ثم في مملكة إلى أن ارتحلوا إلى فاس عندما لم يبق دار للإسلام في الأندلس . وفي كل من العادوتين حفظت هذه الأسرة مجدها وسراوتها ورفاهتها . ومنها الشاب الناهض السيد علاء الفاسي والشاب الناهض الفاضل المديق السيد محمد الفاسي وفقه الله وهو من نخبة شبان المغاربة وأنتم العرب الذين اتقوا تحصيلهم في باريس . ولم يتيسر لي اني سأعنه تحرير احصاء للعائلات الأندلسية في فاس ولا للعائلات الأندلسية في تلمسان والجزائر وتونس . فحتى يتيسر لي ذلك أضمه إلى المعلومات التي حررتها هنا وان فصح الله في الاجل نجعل ذلك في الطبعة الثالثة من هذا الكتاب

ولقد بحث لي الأخ المفضل نبيل النضال الاستاذ السيد أحمد توفيق المدني التونسي مولداً الأندلسي أصلاً المقيم الآن بمدينة الجزائر نفع الله به بقول لي في جواب على سؤال في هذا الموضوع ما يلي :

العائلات الأندلسية في شمالي أفريقيا أكثرها بالمغرب الأقصى وتونس . ومنها قليل في تلمسان ومنها قليل ببقية البلاد الجزائرية . أما في فاس مدينة الجزائر فالمعروف منها عائلة

الشيخ الجليل أحمد أبي الركائب وهو ابن عمنا متفرع من عائلة ابن عمر . وعائلة ابن عبد اللطيف

«وعائلة ابن الأمين . وعائلة ابن سوسان . وعائلة المرار التي كان منها الشيخ مصطفى المرار قاضي الجزائر عاش في أواسط القرن الماضي . وعائلة السيدي »
قال حفظه الله :

«وأما بالبلاد التونسية فالجاليات الاندلسية بقيت على حالها تقريباً ولها الى يومنا هذا بعض امتيازاتها حتى ان صناعة الشاذلية الاندلسية الطربوش المغربي لا يتولاها مبدئياً الا أعقاب العائلات الاندلسية ولا يمكن أحداً أن يباشر هذه الصناعة الا اذا كان عنده نبتان أحد أسلافه من الاندلس . وهذا النبتان هو نفس ما يسمى اليوم « مازكة مسجلة » ويسجل بالخط الاسود على نفس الطربوش من الداخل ويطبع على الورقة اختار جبة مع اسم صاحبه »
قال :

«وفي البلاد التونسية مدن ودينا صكر أسسها الاندلس ولا يزال سكانها الى اليوم يعتبرون بأصلهم الاندلسي سواء كانوا من المسلمين أو من اليهود وأشهر هذه المدن مدينة تستور بالشمال التونسي »

وقرأت في بعض جرائد تونس أن الاندلسيين أثروا في تستور ما أثر تاريخية كثيرة منها مأذنة جامعها الكبير فهي على أسلوب هندي يدعى ولا نظير لها في العالم الاسلامي فان الناظر من أعلاها يرى قعرها أفراغ وسطها وكونه على شكل اسطوانة مع ضيقه وتضييقه

ونختم هذا الفصل عن الاندلسيين الجالين الى افريقية والاندلسيين المدجنين الذين بقوا في اسبانية حتى اندمجوا في الاسبانية بذكر مكتوب من السلطان الكبير مولاي اسماعيل صاحب المغرب الى ملك اسبانية في عصره يذكره فيه بغدر أسلافه بالمسلمين نشره السيد الشريف العلامة مولاي عبد الرحمن بن زيدان فسح الله في عمره وذلك في كتابه « اتخاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناش » ولم يجزئ « بنشره بالحروف المطبوعة بل نشره بالفتوغرافيا في جانب المطبوع بالحروف ونصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم من عبد الله اسماعيل
 المتوكل على الله المفوض أموره الى الله أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين
 الشريف الحسين أيدته الله آمين (ثم الطابع الملوكي بداخله اسماعيل بن الشريف الحسيني
 أيدته الله ونصره . وبداثرته : انما يريد الله لينهب عنكم الرجس أهل البيت
 ويطهركم تطهيرا)

« الى عظيم الروم وملك أقاليم أصبانية وبلاد الهند والمتولى أمورها والمتصرف في
 أقطارها (دون كارلوس) السلام على من اتبع الهدى أما بعد فقد بلغنا كتابكم صحة
 خدمتكم (دون متويل يرهلون) وخديتكم (دون ايسل مسيح) وهو الكتاب الذي
 وجهتم لنا جواباً عن كتابنا الذي أصدرناه اليكم ووصلكم صحة الغرايطي قبل هذا وبعد
 ان قرأناه وفهمنا لفظه ومعناه وألقى البنا خديتكم (دون ايسل مسيح) ما في خاطرهم وما
 طلبتموه منا من فك هذه المائة من النصارى الذين وقع الكلام قبل هذا رددنا اليكم
 جواب كتابكم وجهناه مع خديم دارنا العلية بالله كاتبنا ومثولى الخط الأقرى من بساطنا
 السيد محمد بن عبد الوهاب الوزير ولولا مزيكم عندنا ومعرفتنا بمنصبكم ما سمعنا بفراق
 كاتبنا عن بساطنا لمهمات أمورنا وإذنا لخديتنا الأ كبير الأعز الأشهر أوى الحسن القائد
 على بن عبد الله أن يبعث معه رجلاً من أصحابه فوجه خديتنا عبد السلام بن أحمد جيسوس
 معاشراً له ومرافقاً وعند الكاتب المذكور قضية دخول جند الاسلام المظفر بالله على
 نصارى العرائس وفي علمه وعلى باله كل ما كان في ذلك من الكلام والاسباب وكيفية
 الخبر في ذلك فتقوا به وتعرفوا منه فانه حفظه ووعاه من أوله الى آخره ملازمته لبساطنا العلى
 بالله في سائر أوقاته ونحن بلا شك كنا أعطينا القول طهه المائة من النصارى بالسراح ولكن
 وقع من النصارى ما اختلف به منهم من الاسباب ما يوجب عدم الوفاء لهم بذلك فمنهم من
 كان ينادى بلفظ مينا على رؤوسهم ومنهم من لم يرض بخروجهم على ذلك انك القول
 وكاد يقتلك عن دخول اليهم من خدامنا الذين أوفدناهم عليهم وبعضهم ركب الحج البحر
 فاراً بنفسه حتى أدرك وقتل على الموج . وحاجتنا مع هذا كله كبار ملتنا وعلماء شريعتنا
 وأئمة ديننا بأن قلوا بما بأن المسلمين كانوا أشرفوا على الغنيمة ساعثته ووقع الغلب والظفر
 ولم يبق للنصارى الا الموت بالسيف أو بالغرق فلا وجه لسراحهم في الشريعة رأساً . وكنا

في أثناء هذه المدة كلها نتراد الكلام مع هؤلاء العلماء حفظهم الله وقلوبنا : هؤلاء المائة يكونون أسارى ويسرقون من كل وجه كذب وقد أخذوا العرايش من أول وهلة بلا موجب بل أضغطوا الشيخ ابن السلطان الذهبي وقبضوا عليه حتى أنفقوا عليه أموالاً عديدة وسكوا أولاده بسببها حتى أعطاهم العرايش على ضغط منه وعلى غير تأويل حقيقي في ذلك . وذكرونا في مسألة غدر أسلافكم بأهل غرناطة وغيرهم بما يزيد على الأربعين ألفاً بعد تعدد الشروط على مستين شرطاً ولم يوفوا لهم بواحد منها إلى غير ذلك من الغدر والمكر بأهل غرناطة وغيرهم من أهل الأندلس في كل بلد وقرية بعد بلد وقرية فألقبناهم ما تكلموا إلا بالحق (إلى أن يقول) : وذلك أن نعطوننا في الحسين نصرانياً من هذه المائة خمسة آلاف كتاب مائة كتاب عن كل نصراني من كتب الإسلام الصحيحة المختارة المثقفة في خزانهم بانيبيلية وفرطية وغرناطة وما والاها من المدين والقرى حسبما يختارها خديمتنا المذكور من المحاسن وغيرها وتعطون خمسة أسير من المسلمين في الحسين الأخرى عشرة أسارى لكل نصراني وإن لم توجد الكتب التي هي مرادنا فاجعلوا عوضها من أسارى المسلمين وأعطوهم إنا من الأسارى الذين في الأغربة وغيرهم وقبلنا منكم في العدد المذكور الرجل والمرأة والصبي الصغير والشيخ المسن من أياقنا وغيرها إذا مالنا فصد إلا في الأجر والثواب في فسكك امرئ المسلمين كيف ما كانوا ومن أي بلاد كانوا الخ »

فأنت ترى أنه كان مضي أكثر من مائة سنة على الغسر القطيع الذي غدره ملوك اسبانيابول بمسلمي غرناطة وسائر الأندلس . وكان المسلمون لا يزالون يتذكرونهم ويتحرفون من أجله . ولم يقتصر مولاي اسماعيل في تفريع معاصريه من ملوك الافرنج على ملك اسبانية فقط بل تناول بالفرع من أجل الخبث بالعهد لويس الرابع عشر أعظم ملوك فرنسا وهاك ما ذكره مولاي عبيد الرحمن بن زيدان حفيد مولاي اسماعيل في كتابه « انحاء أعمال الناس بحال حاضرة مكناس » في الصفحة ٥٤ من الجزء الثاني قال حفظه الله

« ومن أكبر البراهين وأوضح الدلائل على ما كان بينه وبين عطاء ملوك أوربا من العلائق السياسية ما وفقت عليه في عدة كتب ومخابرات صدرت بينه وبينهم ثم بكثير منها مؤرخ فرنسا الماهر الشهير الرحالة القبايوسوف الخبير الكنت دو كاستري في عدة من

كتبه واليك نصوص بعضها وضورها القوتوغرافية وقيد خطب فيها لويس الرابع عشر ملك فرنسا وجماس ملك الانكليز ودون كركوس ملك اصبانيا

« بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم من عبيد الله تعالى الامام المظفر بالله أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين الشريف الحسيني أيدته الله ونصره . (ثم الطابع) يداخله : اسماعيل بن الشريف الحسيني الله وأبيه (وبداثرته) : العز والاقبال » الى عظيم الروم بقرانصيص لويس الرابع عشر من هذا الاسم السلام على من اتبع الهدى وابعده طريق النقي والردى أما بعد فأعلم أن الذي ظهر اما انك ليس عندك قول صحيح ولا كلام راجح ولا أثبتك الا غلب عليك أهل ديوانك وصاروا يلعبون بك كيف شاءوا ولا يقي لك معهم ضرب ولا لقب ودليل ذلك اننا ما زلنا مافضنا منك صحة قول ولا أبرمت معنا شيئاً ففلامنك (أي مملكة هوالدة) الذين ليس لهم رئيس وما عندهم الا الدبوان نكلموا معنا كلمة وقيضناها عليهم ووفوا بها حين ذهب خديتنا ابلادهم لما ان طلبوا منا ذلك فرجوابه واكرموا وبرتوا بمواثي من عندهم بعشر مائة مكحلة وستة عشر مائة قنطار من البارود ومائة وسبعة من المسلمين أطلقوهم من الأسر لوجوهنا وعملوا من الخير ما عملوا مراعاة لنا وتبنا في قوتهم ووفوا بكلامهم . وأنت لا زال لم يصح منك قول ولا وفاً واوائك الذين كانوا قدموا اليك من هذه البلاد ليس هم من خدامنا ولا من أصحابنا ولا من لهم معرفة معنا فلما حاج على معين حيث أسره ولده لأن البعض من خدامنا واستحرم به وقدم اليكم على شأن اولئك المسلمين وجاز على دار السباع ودار النعام واتى اليكم بما اتى ولا شعرنا به ولا عرفناكم اخذ وقلنا انه ان وصلكم ولا بد تعملون لغرضه في اوائك المسلمين وتسرحونهم . فاذا به هو نحيل على ولده الى ان جاءه وانتم ما علمتم صواباً في غيره ولا صدرتكم ما تراخون لاجله . ثم بعد ذلك قدم لعل مقامنا صاحبكم انبشور وانا بشئ من الخرق مع فاقصوا الخرب وهل نحن ممن يعجبه ذلك ويسره فتحن معشر العرب لانعرف الا الصحيح ولا بسرنا الا ما فيه مصلحة المسلمين كلهم ومع ذلك اعطينا لصاحبك عشرين نصرانياً سيغفلنا بها وظننا انك ولا بد تراعى الخير وتبعت لنا ولو عشرين مسلماً نجبر بها خواطرننا وتكون هي الطريق للكلام الذي تريدنا منا . فاذا بك ما علمت شيئاً من هذا ولا جازيت باحسان . واناياً فبضنا لك سفينة قبل ان يقع الكلام بيننا وبينك بثلاثة أيام أو أربعة على التحقيق وهي موسوفة

بالسكر وتبغها وتقفناها نحواً من ثلاث سنين بقصدك ولا تركنا احداً يمد يده فيها وقلنا
انك تراعى خبرنا وتعمل لاوئيك المسلمين طريقاً ونسرحهم وان كانوا ليس فيهم من هو
خدمنا ولا من هو محسوب من جيشنا ولا من هو معرفتنا فما هم الا من لا اخلاق لهم ولا يركب
البحر عندنا الا أهمل الثمرين . ولو أطلقهم وان كانوا ليسوا بشئ فتسكون عملت الخير
بذلك وتقول انك عملت مسئلة تراعى عليها . وأعظم من ذلك كله هو ان رئيساً من بلادنا
اسمه التاج كان أعطاء صاحبك الذي انانا خط يده على انه يشتري سفينة من الجزائر يسافر
بها فرسان وما عليه فيمن لقيه من فرقيص فلما ان اشراها وسافرها ونعم فطارمه موسوفة
بالرخام والريال مع ما فيها من الحرير وغيره وبها مع أختها ستة وعشرين مسلماً وتعرضوا
لها سفنكم واخذوها وتقفنا انت ابناً ثم بعد ذلك مرفتها والمسلمون الذين كانوا معها
خدمتهم في الغراب . فلماذا لم تردعها أو تقفنا ثلاث سنين كما تقفنا نحن سفنكم وهل هذه
هي صحة القول فهذا ما يدل على عدم صحة كلامك وما يثبت الاخلال بقولك وفلة وفلك فخي
الآن قلنا اننا انما يليق بنا معك الا الشر واذا أردت تثبيت المهادنة وإبرام الكلام
فيها وامضاء حاجتها فابعت لنا من عندك فونصو بالتقويض على الأمر ويتجاسر لنا في
أحد مراسينا ويكون الأمانة معه في هذا كله وتبرم معه هذا الأمر ويكون من أهل الحق
والربط عندكم والا بان ظهر لكم خلاف ذلك فاعلمنا وعرفنا بما عليه عملك وما اضمرته
طوبتك والسلام على من اتبع الهدى وفي التاسع من شعبان المبارك سنة خمس وأربعين
والف « انتهى »

ولفائل أن يقول كيف يكتب السلطان اسماعيل مثل هذا الكلام الجاني الى لويس
الرابع عشر أعظم ملوك أوربة في عصره بن الى هذا العصر ٤ والجواب أن السلطان
اسماعيل لم يقل شيئاً غير صحيح وقد كان لويس الرابع عشر قليل الميلاة باليهود لا سيما مع
المسلمين وقد كان يستنق السرى المسلمين عنده سنين ملوا لا لا يرضى بفكاههم ولو أمكن
أن يفك بهم بقدر عددهم من السرى الفرنسيين . ولقد عابه بعض مؤرخي الافرنجة في
ذلك واظهروا ما بينه وبين مولاي اسماعيل من الفرق وقلوا ان مولاي اسماعيل كان يبذل
ما عز وعان في فكاه أسير مسلم أياً كان وطناً ما فادى وعادى لاجل استخلاص اسرى
المسلمين الذين في بلاد الافرنج غير مهم بالاستفادة من اسرى النصارى الذين كانوا عنده

وربما بلغ عددهم ثلاثين ألف أسير . أما لويس الرابع عشر فكان يهمة أن يوفر على خزائنه وان يشغل في سقته وأغربه اسارى المسلمين ولا يبالي أن يكون بقي في الاسر عند ملوك الاسلام اضعاف عددهم . فرأت هذا الانتقاد في كتب من توارىخ الافرنج المعبرة فهان على مولاي اسماعيل أن يقرعه ولم يكن اسماعيل بالذى يهاب لويس وقد كان عند اسماعيل جيوش جرارة منها مائة ألف أسمر يقال لهم جيش البخاري وان كان لويس الرابع عشر قد تولى ملك فرنسا رأساً أربعاً وستين سنة فان السلطان اسماعيل تولى ملك المغرب خساً وستين سنة حتى كان أهل المغرب يسمونه بالحلي الدائم .

لويس لويس الرابع عشر أول من خاس باليهود بين ملوك اورب بل أكثرهم كانوا لا يوفون بعهودهم ولا سيما مع من عاهدوا من المسلمين صدق فيهم قوله تعالى (وَمَا وَجَدْنَا لَأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ) وهذه بينهم وبين المسلمين شحنة قديمة فن صدر الاسلام الى الآن المسلمون يوفون معهم بعهودهم الا ما ندر وهم يغدرون بالمسلمين لجراد البغض والشائن وبناء على ذلك المبدأ الجزوي الشهير (الغاية تبرر الوسطة) . أما الشر بعنه الاسلامية فليس فيها (الغاية تبرر الوسطة) ولا (الشر الذي ينشأ عنه خير هو خير) بل فيها أن الشر شر بنفسه الا ما كان من قصاص أو نكال شرعي . وفيها أن العهد لا بد من القيام به ولا يجوز الخيس به ولو مع المشركين وفيها « ليس البر أن تقاتلوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » الآية وفيها « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئلاً » وفيها « إلا الذين عاهدنا من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأوفوا إليهم عهدهم إلى مدهم إن الله يحب المتقين » وفيها « وإن أخذ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه ما أمته » وفيها « وأوفوا بعهدهم الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً » وغير ذلك من الآي الكريمة والأحاديث الشريفة مما لا يكاد يحصى . وقد عمل بذلك ملوك الاسلام وأمراؤه الا ما ندر وكان تاريخ الاسلام من هذه الجهة ناصعاً طاهراً بالنسبة الى توارىخ الأمم الأخرى

وقد بلغ من وفاء المسلمين بعهودهم أنهم كانوا يوفون بها لمن سبق منه الغدر أحياناً روى
البلاذري في فتوح البلدان : ان الروم صالحت معاوية على أن يؤدي اليهم مالاً وارثهم
معاوية منهم رهناً فوضعهم في بعلبك ثم ان الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون
قتل من في أيديهم من رهنهم وخلوا سبيلهم وقالوا : « وفاء بغدر خير من غدر بغدر » . وهو
قول الأوزاعي وغيره .

وروى البلاذري في فتح قبرس أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك كان أجلى خلقاً
من أهل قبرس إلى الشام لأمر انهمم به فأكثر الناس ذلك ففردهم يزيد بن الوليد بن عبد
الملك إلى بلدهم وكان حيد بن معيوف الطمداني غزاهم في خلافة الرشيد (وكان أمير البحر
لعهده الرشيد) حدث أحدثوه فأسر منهم بشراً ثم انهم استقاموا للمسلمين فأمر الرشيد
برده من أسروا منهم فرأوا . قال البلاذري : وحدثني بعض أهل العلم من الشاميين
وأبو عبيد القاسم بن سلام قالوا : أحدث أهل قبرس حدثاً في ولاية عبيد الملك بن صالح بن
علي بن عبد الله بن عباس في التغور فأراد نقض صلحهم والفقهاء متوافرون فكتب إلى
الأمير بن سعد ومالك بن أنس وسفيان بن عيينة وموسى بن أعين واسماعيل بن عياش
ويعني بن حمزة وأبي اسحاق الفزاري ومحمد بن الحسين في أمرهم فأجابوه وكان فيما كتب
« الميث بن سعد ان أهل قبرس قوم لم يزل تنهيمهم بغش أهل الاسلام ومتابعة أعداء الله
الروم وقد قال الله تعالى « وَإِذَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » ولم
يقبل لا تنبذ اليهم حتى تستيقن خيانتهم وإني أرى أن تنبذ اليهم وينظروا سنة يأثمرون
فمن أحب منهم اللحق ببلاد المسلمين على أن يكونوا ذمة يؤدي الخراج قبلت ذلك منه
ومن أراد أن ينتحى إلى بلاد الروم فعل ومن أراد المقام بقبرس على الحرب أقام فكانوا
عسواً يقاتلون ويغزون فإن في انظار سنة قطعاً لحجتهم ووفاء بعهدهم . وكان فيما كتب به
مالك بن أنس : ان ابن أهل قبرس كان قديماً متظاهراً من الولاة لهم وذلك لأنهم رأوا
أن اقرارهم على حالهم ذل وصغار لهم وقوة للمسلمين عليهم بما يأخذون من جزيتهم
ويصيبون به من الفرصة في عدوهم ولم يجد أحداً من الولاة نقض صلحهم ولا أخرجهم
عن بلدهم وأنا أرى أن لا تعجل بنقض عهدهم ومتابذتهم حتى تنجح الحجة عليهم فإن الله
يقول : (فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مَدَّتِهِمْ) فإن هم لم يستقيموا بعد ذلك ويدعوا غشهم

ورأيت أن العذر ثابت منهم أوفعت بهم فكان ذلك بعد الاعتذار فرزقت النصر وكان بهم
الذل والخزي إن شاء الله تعالى »

وروي البلاذري أن قوماً بجبل لبنان خرجوا على عامل بعليك فوجّه صالح بن علي
ابن عبد الله بن عباس من قتل مقاتلهم وأقر من بقي منهم على دينهم وأجلى قوماً من أهل
لبنان فحدث القاسم بن سلام عن محمد بن كثير أن الأوزاعي كتب إلى صالح رسالة طويلاً
حفظ منها : « وقد كان من اجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على
خروجه ممن قتل بعضهم ورددت بأقيهم إلى فراهم ما قد علمت فكيف تؤخذ عامة بذنوب
خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم . وحكم الله : أن لا تزر وزرته وزير أخرى وهو أحق
ما وقف عنده واقتدى به . وأحق الوصايا أن تحفظ وصية رسول الله ﷺ فإنه قال : من
ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقتهم فإنه حبيبه »

فتأمل أيها القارئ في هذه الآثار وقابل بينها وبين أعمال ملوك الاسبانول وسائر
ملوك الافرنج في المسلمين وتأمل في فتاوى الأوزاعي رضي الله عنه وأمثاله من الأئمة في
النصارى وقائس بينها وبين فتاوى الباباوات والكرادلة في أهل الاسلام : لا شك أن المدعى
له الحق بعد ذلك أن يهتف :

اولئك آباؤى جفنى بمنهم اذا جمعنا يا جرير المجمع

وإني لأختم كلامي ببعض جمل ذكرها المؤرخ المصرى الفاضل محمد إيبس البتوني
في كتابه « رحلة الأندلس » وذلك أنه بعد أن أتى على ذكر كل ما ارتكبه الاسبانول من
الفضائح في مسعى الأندلس قال : « كان الخلفاء وهم في قوتهم وعصيتهم الدينية يحترمون
عقائد شعوبهم وكانوا يحترمون المدينين من أهل الذمة وكانوا يوظفونهم في حكومتهم
فكان منهم الأطباء والوزراء . وكان المتوكل العباسي على صلايته في دينه يؤاخذ النصارى
على عدم تسكينهم بدينتهم كما فعل مع ضيبي حنين وكان بلغه أنه نقل على صورة السيدة العفراء
خفده وسجنه . وفي أيام المعتض بالله قامت العامة على رجل من النصارى اتهموه بأنه سب
النبي واحضروه بين يدي الوزير القاسم بن عبيد الله وطالبوه بإقامة الحد عليه فصرقهم
لعدم تحققه صحة دعواهم . وقد صاب الخليفة الحكم بن الناصر أحد عماله لأنه بلغه أنه ظلم
أحد أهل الذمة »

ثم قال : « ان الدول النصرانية كانت تلجأ الى سماحة الاسلام وعدالته فقد أرسلت دولة المجر الى السلطان أحمد الاول ترجوه أن يأخذ المجر تحت حمايته وفاقية لها من ظلم النمسا المسيحية

« ولما فتح المسلمون الجزيرة (العراق) هربت قبيلة اياد (وكانوا نصارى) الى بلاد الروم فكتب عمر الى هرقل بردها . فأخرجها هرقل من دياره وكان على الجزيرة الوليد ابن عقبة فأتى أن يقبل منهم الا الاسلام . فكتب اليه عمر : دعهم ان لا ينصروا وليدأ ولا يتبعوا أحدأ من الاسلام . ثم عزل الوليد عنهم لشدة

« وفي مدة السلطان ابراهيم العثماني استولى الترك سنة ١٦٤٥ على غانية عاصمة جزيرة كريد . وكان نصارى كريد يساعدون البنادقة على الاتراك فأراد السلطان ان يقتل نصارى كريد في مقابلة ذلك اكن المفتي أسعد زاده عارضه في هذا الأمر . معارضة شديدة قائلاً أنه مخالف للشرع الاسلامي . فلم يقع سلطان العثمانيين في الشناعة التي وقع فيها ملوك الاسبان امام الله والتاريخ »

وتحرير ذلك انه لما غلب فرديناند وايزابلا على آخر مملكة اسلامية في اسبانية وهي دولة بني الأحمر من سلالة الخزر ج واستوليا على غرناطة سنة ١٤٩٢ عفا مع المسلمين معاهدة تضمن لهم حقوقاً كثيرة ومن الجاسة حريتهم الدينية التامة وفصل أسورهم الشخصية لدى قضائهم وغير ذلك من الشروط التي أمضاها فرديناند وامرأته على أمل تسهيل الفتح وتقصير أجل المقاومة وهما ناويان باطلاً نقضها منذ أمضاها . كما جرى هذه المرة في معاهدات الخلقاء أثناء الحرب العامة مع ملك الخباز أمضوها مؤقناً على نية نقضها فيما بعد . فلم يمض على تسليم غرناطة عدة اشهر حتى ذهبت تلك المعاهدة كأن لم تكن أو كما قال صاحب الطيب « نقضها الطاغية عمرة عروة » ونأسس ديوان التفتيش الشهير مؤلفاً من الأساقفة وبأمر من البابا وصار يسيطر على عقائد الناس فحمل المسلمين واليهود على النصرانية أو ينجوا عن البلاد فجاء أكثر المسلمين الى مراكش وتونس والجزائر ووصل منهم أناس الى مصر والشرق وجاء أكثر اليهود الى مملكة ابن عثمان فأقاموا بالقسطنطينية وسلايك وازمير وهم فيها الى يومنا هذا اغتصبهم الاسبانيون وبقي عدد كبير عز عليهم فراق أوطانهم فتظاهروا بالنصرانية تخلصاً من الجلاء ولكنهم بقوا على عقائدهم

سراً فصار ديوان التفتيش يعمل عملاً فيهم وارنكب تلك القطائع التي يحفظها له التاريخ وقتل وصلب وأحرق بالنار كما هو مشهور . ومع هذا فيبقى أكثر المسلمين نحو ٢٠٠ سنة وهم يحفظون ديانتهم سرّاً ويتظاهرون بالكثلكة وقد يزداد عليهم الضيق فيلجأون الى الثورة ولاسيما في جبال البشيرات التي اعتصموا بها لمنعها فحرق بعضهم وبين الاسبانيول وقائع عديدة الى ان انتهى أمرهم في زمان فيليب الثاني في أوائل القرن السابع عشر بجلاء البقية الباقية منهم الى افريقية . على انه مما لا شك فيه ان كثيرين من الآباء أجبروا على تعليم أولادهم الديانة المسيحية منذ الحداثة فنشأ هؤلاء مسيحيين و يطول الزمن صاروا اسبانيولا وهؤلاء هم الذين اليوم ينتسبون الى العرب يدل على ذلك خلفتهم وسحتهم وأسمائهم وأما كتبهم . وربما يقال ان مسلمي الاندلس أنفسهم لم يكن أصلهم كلهم عربا بل أسلم في الفتح العربي اسبانيول كثيرون وهذا جائز وهو ما كان يدعيه ديوان التفتيش ويجعله مبرراً لأعماله وان كان تاريخ المدينة انكرها ولقد اعتادت الدنيا هذا المد والجذر في الحكومات والديانات فبذلك لو خفت حدة هذا التباغض بين الناس من جراء الفوارق الدينية لاسيا بين ارباب المذاهب التي تدعو جميعها الى عبادة الخلاق ومكارم الاخلاق

مصير الاندلسيين

للأستاذ الأكبر سيدي محمد الطاهر بن عاشور التونسي

وقد اطلعنا على محاضرة تحت عنوان « مصير الاندلسيين » بقلم الأستاذ الأكبر سيدي محمد الطاهر بن عاشور التونسي كبير أهل الفضا من السادة المالكية بتونس جاء فيها خبر احتصار دولة الاسلام بالاندلس وفقى ما جاء في النفخ وغيره ثم قال : قلنا ان عدداً من المسلمين اختاروا الخروج من الاندلس لما رأوا يوارق الغدر والخيانة . ثم عزم أكثرهم على الخروج حين أرغموا على التنصر وضيق عليهم في أمور دينهم وقد قدمنا أنهم كانوا شغوفوا على الاسبان في عقد الصلح أن من رام من المسلمين الخروج يخرجونه الى بر العدو من غير دفع كراء ولا مغرم .

فما طلب جميع المسلمين الخروج لم يحضر واحد الا قليلا من الاجفان حتى انما نداء عظيما .

ولما صالحوا أهل جبل (بلقنة) على الخروج الى فاس أخرجوهم بعيالهم وما خلف من أموالهم دون الذنائر ثم لما أصدر فيليب الثالث أمره بإخراج كل من استنبه أمره من الموريسكو أمر بأن لا يخرجوا معهم نقود الذهب من المملكة وبذلك لم يجدوا فائدة في بيع أملاكهم فتركوا معظمها وأحضرهم قليل من المراكب وكان الخارجون على تقدير الصحيح ثلاثمائة ألف ومن المؤرخين من يقول نحو المليون فساد كثير منهم في فاس ونطاون وسلا والرباط وتلمسان وهران وتونس وعددهم يقرب من مائة وثلاثين ألفاً . ومات منهم في الطريق ما يقرب من تسعين ألفاً من الجوع والنصب وخرج منهم الى بلاد فرنسا برا مقدار مائة ألف فاستقرت عليهم الافرنج أن يتدينوا بالديانة الكاثوليكية فرفضوا ذلك فرددوا من حيث أتوا فاحتاروا في أمرهم وفضلوا المراسي الفرنسية للسفر الى المغرب فأت كثر في فرنسا ونجا قليل منهم وقد تسلط أعراب البوادي على كثير من خرجوا الى فاس وتلمسان في الطرقات ونهبوهم ولم يسلم من ذلك الا الذين خرجوا الى تونس

الأندلسيون في البلاد التونسية

علاقة الأندلس بتونس قديمة من وقت الدولة الحفصية فقد وفد منهم على تونس عدد كثير في مدة الحفصيين لأسباب في زمان السلطان المنتصر بالله الحفصي وكان لوفودهم على تونس أثر عظيم في انتقال حضارتها من البساطة إلى الرقي والترف والرفعة قال ابن خلدون في ذكر المنتصر «وهدت إليه شعور القاصية من العديين^(١) يد الاعتصام بما اجتمع يحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه (أي زكرياء) من شاعر مقلد وكاتب بليغ وعالم بخرير وفي أيامه عظمت حضارة تونس وكثر ترف سلاكنها وثأق الناس في المراكب والملاهي والمياني والماعون والآنية».

وكان بتونس في الدولة الحفصية جنود من الأندلس خاصة وكان رجال شورى السلطان من الموحدين ومن الأندلس قال ابن خلدون عند ذكر نزول الفرنسيين على قرطبة سنة «ونفاوض السلطان (أي المنتصر) مع أهل الشورى من الأندلس والموحدين - ثم قال - وملئت سواحل رادس بالمرايطة من جنود الأندلس والمتطوعة»

وأيضاً قد كان بين تونس والأندلس ارتباط بولاية أي حفص الهنتاتي جند الحفصيين إمارة اشيلية من جهة عبد المؤمن بن علي ثم ابنه عبد الواحد ثم ابنه زكرياء

لذلك لما انجلى المسلمون من الأندلس جلاءهم الأخير كانت البلاد التونسية من أول ما وقع نصب أعينهم في هجرتهم فركبوا إليها البحر ونزلوا بسطوطها والظاهر أن نزولهم كان بمرسى بنزرت وبمرسى المهدية ومن هذين المرسين قصدوا حضرة تونس ثم انصرفوا في البلاد فاقبلهم أهل المملكة بالترحاب ولم يلقهم في طريقهم نهب ولا ضرر كما قلنا آنفاً وقبل أن يفدوا على الحضرة أرسلوا إلى أهلها يستنبئون أيسمحون لهم بالدخول فوجدوا من أهل الحضرة رغبة في قدومهم وإكراماً لمتوابعهم.

وفيد وفتت على كتاب اسمه نور الأرماس في مناقب سيدي أبي الغيث القشقيش ألفه السيد المنتصر الحفصي وكان من مريدي سيدي أبي الغيث وهذا الكتاب موجود بخزانة جامع الزيتونة تحت عدد ٣٨٨٣ قال في أول الفصل الثاني منه ما نصه «سأجه الأندلس لتونس كنت أنا بتونس برسم الزيارة وكنت ذات يوم خارجاً من باب بشرى في جمع

(١) هي عدوة الأندلس لأنها أعداءنا من عدوة المغرب

أزينة فلقبت كبراء الأندلس ومسانحهم وفي أيديهم ورقة كأنهم وهم يغشون على من
خبروها لهم فصادفوني فقالوا أنت تقرأ خط الشيخ سيدي أبي الغيث فقلت لهم نعم فأطلعوني
على ورقة مكتوبة بالأخضر فيها مكتوب « الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله إلى
ساداتنا الأندلسية خصوصاً منهم سيدي فلان وسيدي فلان إلى أن سمي من أكابرهم عشرة
رجال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فلا مزيد بحمد الله تعالى إلا خبراً وأنا داعي
لكم بخبر وما ذكرتم لنا على أنني أستخير الله تعالى لكم فاستخبرتكم عند والدي والثاني
« عند أسناذي سيدي محمد حذيفة والثالث أئمة عند والدي فראيت لكم خبراً والمهديّة
شفقة من الهدى وأنتم كما قال الشاعر :

نحيا بكم كل أرض نزلون بها كأنكم ببقاع الأرض أمطار

وذكر نكحة الأربعة الأبيات والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته من العبد الفقير

أب القيت ثم أخذوا الورقة من يدي وساروا فرحين مبشرين بكلام الشيخ اهـ

وهذه الحكاية صادرة من شاهد عيان وهي أجلي ما يمثل لنا جالبة الأندلس ولا
بعض فقرات مثلها في كتب التاريخ ويستفاد منها أمور أحدها أن أهل الأندلس نزلوا
إلى المهديّة يقول الشيخ لهم والمهديّة مشتقة من الهدى فتفاءل لهم بذلك الثاني أنهم
أولوا على حالة جهل حتى لم يستطيعوا قراءة كتاب الشيخ أبي الغيث الثالث أن اسناد رئاستهم
التي عشرة كانت من الأمر المفلرد فيهم في سائر أحوالهم ومنه كان رؤساء صناعة الثانية -
في من مآثر الجلاء الأندلسي - عشرة يلقبون عندنا إلى اليوم «بالعشرة الكبار» الرابع
أنهم كانوا أوجسوا خيفة من سوء القبول فأوفدوا إلى الشيخ من يراجع في شأنهم ولذلك
يُستبشر لما رأوا منه حسن القبول لأن الشيخ أبا القيت في ذلك العصر هو معتقد أهل
الاس من أمير ومأمور

وكان وفود الأندلس إلى تونس في سنة ١٠١٧ في ولاية عثمان داي قال ابن أبي دينار
في تونس « وفي سنة ١٠١٧ والتي تليها جاءت الأندلس من بلاد النصارى نفاهم صاحب
سياسة وكانوا خلقاً كثيراً فأوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق ضعفاءهم على الناس وأذن
لهم أن يعمروا حيث شاءوا فاشترى الهاشميين وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت بهم
واستوطنوا في عدة أماكن ومن بلدانهم المشهورة (سليمان . ويلي . ونيانو . وفرنباليه .

وتركي . والجديدة . وزغوان . وطهرية . وفريش الواد . ومجاز الباب . والسوفية . وتسنور . وهي من أعظم بلدانهم وأحضرها والعالية . والقلعة - أي قلعة الأندلس - وغير ذلك بحيث تكون عدتها أزيد من عشرين بلدة فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الكرم والزيتون والبساتين ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد . ولم يذكر ابن أبي دينار من استوطن منهم بحاضرة تونس و بلدة بتزرت فلما تونس فنزلها منهم أهل الصنائع والفنون فأهل الصنائع الدقيقة سكنوا المدينة وهم أهل الثروة منهم وبنوا لأنفسهم حومة تعرف بزقاق الأندلس قرب جامع القصر . وأما أهل الصنائع الأخرى وبعض الفلاحين من أهل الحواضر فكثروا بفض باب السوفية وهم أول من بنى هناك خارج السور فنزل الحومة المعروفة بحومة الأندلس ولم يزل من بقاياهم هناك عائلات منهم عائلة الأندلس .

ولما نزلوا تونس احتفى بهم أهل البلد قال السيد المنتصر في مناقب سيدي أبي العيث القشاش « ولما أن جاء الأندلس إلى تونس ضافت بهم الحاجيج والطرقات والأسواق والديار والمخازن واخوانيت وصاروا يأتون إلى الشيخ وإلى منابته وجرى معهم الشيخ رضي الله عنه كل ربح المرسلة في إطعام الطعام وكسوة العريان حتى أني أحصيت ما يخرج ثوبوتهم اثنتي عشرة مائة خبزة من القمح وفقيزين من الدقيق والكسكسوني « يابس ونبي » مسقي وزوج أحبال من الخروب - لعنف الدواب - بخلاف اللبن واللحم رأسين بقر كل يوم هذا على حساب العام السكامل ضيقهم الشيخ ولما كثرت الأندلس بتونس وعمرها وأقليمها ودوايرها وعمرها الجزيرة وكثرت بلدانهم وكثرت خبرهم وحرثهم ونأهلوا صاروا يأتون من كل بلد لهم لزيارة الشيخ سيدي أبي العيث ويأخذون على يديه العهد من كل بلد حزبا وكل حزب يجعل له نقيباً والنقيب هو شيخ الفقهاء ويعطيه علماً - أي علماً - أخضر ويوصيه بطاعة الله وكان الأندلس ممثلين لأمر الشيخ سامعين له مطيعين في كل أمر وكان يحسن إليهم ويواسيهم ويكاتبهم ويأخذ بنواطيرهم ويقضي حوائجهم في كل ما يحتاجون إليه وكان أقربهم إليه سيدي محمد بن عبد الرقيب الأندلسي » اهـ

أما بلدة بتزرت فقد سكنها الأندلس وبنوا بها حومة تعرف الآن بحومة الأندلس وأسسوا قريتها منزلة جليل ومنزل عبدالرحمن والعالية وغار الملح وكذلك نزلوا منازل من الجزائر القبلية غير ما ذكره ابن أبي دينار مثل منزل أبي زلفي ومنزل تميم بالدخلة وقريته

القهرى وقرية دار شعبان ونزل فريق منهم ببلد نايل
وقد نظم الأندلسيون لأنفسهم بهذه البلاد نظاما حفظ لهم عوائدهم وقوميتهم الأصلية
وأقاموا عليهم كثيرا بلقب شيخ الأندلس فكانوا يحكمونه في فصل الخلاف بينهم ويرجعون
إليه في مهامهم ودام هذا الوظيف فيهم الى مدة الأمير محمد باشا وآخر من وليها الشيخ مصطفى
شلي بعد سنة ١٢٧١

الأندلس بالمغربين الأقصى والأوسط

انفصل أهل الأندلس بالمغرب الأقصى قديم من عهد الدولة المثنوية ثم الموحدية ولما
استولى الأسبان على غرناطة فقد سلطانهم أبو عبد الله بلاد فارس ونبيه جمع عظيم منهم ثم
لما تجلى الأندلسيون الخلاء الأخير قصدت جوع عظيمة منهم بلاد المغرب واستوطن معظمهم
مدينة سلا وراياها المعروف اليوم بالرباط أو بقلعة سلا وبنوا هناك قصورا ودورا وحمامات
وانتفع بهم ملوك المغرب في تعليم الصناعات وتدبير الحاضرة وجندوا منهم جندا عظيما في
البر والبحر وبهم فتح الملك المنصور السعدي إقليم السودان فن أجل ذلك لقب ملكه
سيفال عند الأفرنج بلفظ مور^(١)

ويظهر أن جل أهل البرودة من الأندلسيين قصدوا المغرب الأقصى واستوطنوا فاسا
بنوا هناك الحضارة الأندلسية في جميع مظاهرها ولا سيما فنون البناء والنقش والتزيين
وأساليب المعيشة وبت العلم

وكذلك قائمة علماء الأندلس قد انتقل معظمهم الى فاس وبنوا هناك العلوم فكان
خولهم نهضة عامة في الحضارة العلمية والفنية بالمغرب الأقصى
وأما المغرب الأوسط فقد نزلوا منه بتلمسان وهران والنجاز الى تلمسان طائفة من
أهل العلم فظهرت هناك أيضا نهضة في العلم والحضارة



والخلاصة أن مالحق مهاجري الأندلس من السعادة والعمران قد حصل نقيضه فيما أخلاه
من بلادهم التي سكنها الأسبان وما عمروها وعمد المؤرخون إخراج الأندلسيين من وطنهم
أعظم خطيئة أخطأها فيليب الثالث على مملكته واشتق بها لأجل ذلك على الفقر والتأخر
وإذا نظرت الى البلاد وجدتها تشق كما يشق العباد وتبعد

(١) قلت وقد وجد في تيكوتو قوم يقال لهم الأندلس من بغايا هؤلاء

طرابلس الغرب وإيطاليا

المقدمة

- (١) الكتب الواردة على اليد احمد الشريف السنوسي من لورد كننغر والسيد
مكماهون والجنرال مكسويل وهي ثلاثة .
- (٢) ما سبق في التاريخ من استيلاء الافرنج على طرابلس الغرب
- (٣) غرب طرابلس الغرب لعبد الستار بك الباشا

قد جرى بعد طبع الجزء الأول^(١) من هذا الكتاب حوادث كثيرة في طرابلس
الغرب ان لم يسعنا شرحها كلها فلا مناص من الاشارة اليها ولو على وجه الاختصار لأنها
من ألم ما ألم بالمسلمين في هذا العصر
منذ استولى على ايطالية حزب الفاشيست تحت رئاسة موسوليني بدأ الاسلام في
طرابلس وبرقة يؤول الى الانقراض التام

ومن المعلوم أن مبادئ الفاشيست هي الوصول الى أغراضهم بكل وسيلة وبدون
أدنى نظر الى ما يقال له « حقوق الأمم » و « حقوق الانسانية » وما أشبه ذلك مما انفقت
الأمم على مراعاته . بل يعلنون ويصرحون ولا يجمعون بأنهم لا يعرفون الحرية ولا
يقادسون للحقوق العامة عهداً وإن كل شيء يرونه ضرورياً لأجل تعالي إيطاليا وبسطتها
في الأرض أو لأجل توطيد دولة الفاشيست فهو عندهم سائق جائز مطابق ذلك الحقوق
الانسانية والحقوق الدولية أو لم يطابق . ولموسوليني خطب كثيرة وكتابات بتوقيع تؤخذ
منها هذه المقاصد بدون اشكال فلماذا لم تنب في إيطاليا لا حرية قول ولا حرية كتابة وكل
شيء يصادم ارادة الفاشيست فهو ممنوع . ولما أراد البابا تأليف جمعيات كاثوليكية هب
الفاشيست في وجهه ومنعوه من تأليفها وأقفلوا أما كن هذه الجمعيات لا عداوة للكثلكة
التي هم أنصارها الأشداء بل خشية أن يوجد في ايطالية حزب خارج عن حزب الفاشيست

(١) راجع صفحة ٢٩٠ من الجزء الأول

ولقد احتج البابا على استبداد الفاشيست به واشتد الخلاف بينه وبين موسوليني ولكنه غلب في مسعاه وذهبت احتجاجاته مدعى وهذا بعد أن أخفق به الفاشيست اهانات كثيرة وبعد أن داسوا صورته بالأقدام علناً في أسواق رومة

فالخزب الكاثوليكي الذي يهين البابا نفسه والحزب الإيطالي الذي لا يحيز أن يكون في إيطالية حزب سواه ولا يقبل في تلك المملكة قانوناً غير الذي ينطبق على مبادئ الفاشيست لاشك أنه إذا تسلط على طرابلس الغرب كانت مبادئه أفضح وأشنع وأبعد في الظلم مدعى . فإن الأمم الحرة الديمقراطية في أوروبا تجتهد مبلغ إمكانها في العدل والمساواة في بلادها حتى إذا صارت بازاء المسلمين نسبت مبادئ العدل والمساواة وكانت بمكيال الأوربيين و بآخر للمسلمين وأوضح دليل على ذلك حالة الإدارة الفرنسية في الجزائر ونونس والمغرب وحالة الإدارة الهندية في الجاوى وسومطرة ولا يستثنى من ذلك أيضاً حكم الإنكليز في الهند . فإذا كان هذا دأب الأمم التي تقم للعدل والمساواة والحرية وزناً فما ضحك بالقوم الذين لا يعرفونها من الأصل ولا يتقيدون بها تجاه أبناء جنسهم أنفسهم ومن يقولون أنهم لا يدينون بشئ إلا بالوصول إلى عرضهم لا جرم أن المظالم التي أوقعها الظليان الفاشيست في طرابلس وبرقة هي مما لم يقع نظيره في هذا العصر . وقد يكون نادراً حتى في القرون الوسطى . وما أحسن مقالة الوطني المصري المشهور الأستاذ عبد الرحمن عزام في إحدى مقالاته النبيلة وهو (أن الناس يحثون عن اختيار الأندلس وكيف أجرى الأسبانيول بالمسلمين هناك . وما لهم وللأندلس ولأموال جرت في القرون الوسطى فأمام أعينهم طرابلس الغرب فليذهبوا ويشاهدوا بأعينهم في هذه الأيام فظائع لا تقل عما جرى بالأندلس)

فالفاشيست فرروا نحو بل طرابلس وبرقة بلاداً لا تيشبه وأجبعوا أنزال مليونين أو ثلاثة من الظليان بها بزعمهم أن إيطاليا صافت بأهلها . والحقيقة أن أنزال نصف مليون إيطالي طرابلس وبرقة قد تعجز عنه إيطاليا لما يتقاضاها ذلك من النفقات الوجيعة ولكون الأراضي الجديدة في تلك البلاد قليلة جداً وهي على كل حال لا تستحق الهجرة إليها ولا يعيش بها إلا القثوع . والفاشيست إنما يفقدون في الحقيقة مجرد الافتخار والابتهاار بأنهم فتحوا بلداناً واستعمروا أفطاراً لأنه لو كان المقصود مجرد استتجاع الأراضي ففي نفس إيطاليا أرضون مهمة هي أجود من أرض طرابلس وأقرب للظليان وجزيرة سردينية من

من الخصب البقاع وأوسعها وهي نكاد تكون خالية

ومن شأن أن يعرف ما يعرض إيطاليا من الموانع الاقتصادية في استثمار طرابلس الغرب وما يوجد في نفس إيطاليا من الأراضي التي هي أولى بالاستثمار منها فليطالع للسفيور « نيتي » رئيس وزراء إيطاليا سابقاً ومن أعظم رجال السياسة والعلم في أوربة تأليفه الذي يبحث فيه عن الديمقراطية والفاشيستي والبلشفيّة فانه يزداد بمطالعة هذا الكتاب يقيناً بأن استثمار طرابلس لم يكن إلا لأجل مسابقة الدول الأخرى في ميدان الفتوحات والتمريبات العسكرية لا لأجل مقاصد اقتصادية كما يزعمون وأن طرابلس لم تكن ولن تكون بلداً تؤتي أكلها على أثر استثمار أو استثمار

وبخلاصة القول أن اخواننا الطرابلسيين لأمر يريد الله ابتلاؤا من الاستثمار الإيطالي الفاشيستي بالذاتية المدهمة والبلية الضياء التي مهمما كثرت مصائب الاسلام في هذا العصر فلا شيء منها يشبهها

فقد حذر بعض الواقفين بعشرين ألف نسمة عدد الذين شنتهم الطليان من أهالي طرابلس وبرقة منذ احتلالهم وكثيراً ما شتقوا الناس بدون محاكمة بل بمجرد ارادة قائد أو بمجرد ارادة ضابط صغير . وقد وقع لهم أنهم شتقوا نساء جردوهن من ثيابهن وأبقوهن مجردات عدة ايام . وقد وقع أنهم كانوا يسلكون سنين أو سبعين شخصاً في سلسلة واحدة ويحبسونهم على هذه الصورة مدة إلى أن يموتوا . وقذف البحر مرة عدة جثث إلى ساحل السوم مر بوطاً بعضها ببعض فرجح الناس انها من جثث أهالي طرابلس الكثرة ما ربطا الطليان من اوائك الساكنين بالخيال ورموا بهم في البحر . وقضية المظالم التي ارتكبتها العسكر الطلياني بأهل المنشية في أول نزولهم بطرابلس هذه قد اقشعرت لها أيدان الأوربيين برغم أنهم على وجه الاجال لا يشعرون بالآلام المسلمين . وقد حاول الطليان نهر بر تلك الاعمال الوحشية بكون الطرابلسيين قد هاجوا العساكر الإيطالية من وراء بينما هم يحاربون الجيش العربي الذي امامهم ولكن أوفوا من الافعال الوحشية التي أقدموا عليها قد أقدموا عليها بدون موجب سوى حب الانتقام من المسلمين والعمل لاستئصال شأفتهم من طرابلس وبرقة إحتلوا الطليان الجوبها ويكنونها آمنين

ولما كانت اراضي الجبل الاخضر من برقة هي أجود قطعة من بر طرابلس وفيها

المياه الجارية والعيون الصافية والغابات المثلثة والروج المربعة توجهت انظار الطفلان الى
استعمار هذه القطعة قبل غيرها وأخذوا يفكرون في الطريقة التي تمكنهم من اسكان الجنس
اللاتيني فيها بدون أن ينزعهم أحد عليها. فلم يجدوا طريقة سوى اجلاء القبائل العربية
الساكنة في الجبل الاخضر وجوارو عن أراضيهم وجعوا منهم ثمانين ألف نسمة رجالاً
وفساء وأطفالاً وسافوهم الى صحراء « سرت » في الأراضي الواقعة بين برقة وطرابلس على
مسافة عشرة أيام من أوطانهم الأصلية وأنزلوهم في معاطش ومجادب لا يمكن أن يعيش بها
بشر ولا بقر غلات جانب كبير منهم جوعاً وعطشاً وماتت مواشيهم بأسرها من فقد السكلاء
والماء. وعند ذلك جعلت الحكومة الإيطالية لسكن عائلة منهم فرنكين إيطاليين يومياً
أشبه بما يسمونه « قوت لايموت » وارتفع صراخ هؤلاء الأهالي وراجعوا الحكومة
الإيطالية وشكوا لها موت ذرارهم وموتان مواشيهم فسا زادها ذلك إلا مصاً في
عزيتها ولكنها جانت فأخذت منهم الرجال الذين من سن البلوغ الى الخامسة والأربعين
وأدخلتهم في سن الجندية. ثم عمدت الى الأحداث من فوق أربع سنوات الى ١٢ سنة
فأخذتهم فهرأ من أحضان آبائهم وأمهاتهم في يوم تنب من هولاء الأطفال ودفعتهم الى
إيطاليا لأجل تربيتهم وتنشئتهم في النصرانية. وهذا هو العمل الذي لم تقدم عليه حكومة
بعد في هذا العصر والذي يشبه عمل الاسبانيول بمساعي الاندلس منذ أربعة قرون قد أعاده
موسوليني في هذا القرن ولم يبال صراخ أولئك المساكين ولا بالي مخالفة ذلك للحقوق
البشرية العامة التي تجعل الأب والأم أوصياء طبيعيين على أولادهما القاصرين. وقد زعمت
الحكومة الإيطالية أمام الناس أنها إنما نقلت هؤلاء العرب من أوطانهم لتعزهم عن عصابة
الثوار الذين كان يقودهم عمر المختار رحمه الله. وهو كلام فارغ لا يقبله عقل ولا عدل إذ
كيف تقدم حكومة على نقل ٨٠ ألف نسمة من مسافط رؤوسها خشية أن يتصلوا بخمسةائة
ثائر لا غير ثم ان الطلبان تغلبوا على الثوار المذكورين وقيضوا على قائدهم عمر المختار
الذي ما فتى يحاهدهم من عشرين سنة وشتقوه بمحضرم جم غفيرة من أثناء جلسته فمضى
الى ربه شهيداً وبكاه العالم اسلامي بأجمعه وانطلقت الثورة من كل برقة ومع هذا لم ترض
الحكومة الإيطالية أن تعيد هؤلاء الأهالي الى بيوتهم وأوطانهم بل استخبت من بقاياهم
أربعة أو خمسة آلاف وأرجعتهم الى الجبل الاخضر يحرقون ويرزعون لا كالسكن بل

كعملة في الأملاك التي تزعتها الحكومة الإيطالية منهم وسلمتها إلى المستعمرين الطليان .
و بعبارة أخرى مثلت إيطاليا في هذه المسألة أيضاً دور الأندلس عندما اقتزعت أراضي
المسلمين وسلمتها إلى كبار الأسبانيول وإلى الرهبان ثم جعلت المسلمين أصحابها القدماء
الكثرة في نفس أراضيهم لحساب غيرهم . وهذا هو السبب الذي أثار فلاحى الأندلس اليوم
وجعلهم على مطالبية الحكومة الأسبانية بعد سقوط الملكية ونأسي الجمهورية فيها بإعادة
هذه الأراضي ملكاً لهم بحجة أنها كانت لأبائهم الذين كانوا مسلمين في الأصل . ولقد
قررت الحكومة الأسبانية الحاضرة تمليك فلاحى الأندلس هذه الأراضي وتزعت
أيدي الرهبان ونبلاء الأسبانيول الذين كانوا يملكونها . فالفاشيست اقتفوا آثار
فرديناند وايزابلا في الأندلس من كل وجه . ثم لما ثارت اعتراضات المسلمين على إيطاليا
من أجل اجلاء الثمانين ألف عرق عن أراضيهم واغتصابها إياها وتسليمها إلى الطليان
قامت إيطاليا بتمويه آخر لا يقل عن التمويه الأول سخفاً وهو ان تقول : ان كثيراً
من الحكومات الإسلامية قد أجبرت القبائل الرحل من رعائها على التحضر والتحول
عن الهيام في البرارى وانما هي أى إيطاليا إنما أرادت جعل هؤلاء العرب على قبول
الحضارة . كما فعلت الحكومات الإسلامية نفسها ولا نعلم لماذا يستلزم جعلهم على ترك
البداءة أن يخولوا عن أملاكهم وأراضيهم ويصار بهم إلى فلاة قاحلة لأماء فيها ولا كلاً
تقريباً ؟ وهل كانت تعجز إيطاليا عن اجبارهم على ترك البداءة وهم في وسط أراضيهم
الخصبة بالجبل الأخضر ؟ ان هذا التمويه لم يفتح أحداً وقد أشرنا اليه مراراً وإلى سائر
فضائع إيطاليا بطرابلس في مجلتنا العربية المنهج الأفرسيه الملهمج المسماة « بالامة العربية »
La Nation Arabe وتزيد على ذلك قولاً نقوله عن علم وعن خبرة وهو اننا في أوائل
غارة إيطاليا على طرابلس ذهبنا بنفسنا ومعنا بعض من أتباعنا وجاهدنا مدة ثمانية أشهر في
درنه وبنغازى فأنجح لنا أن نجوب الجبل الأخضر والأراضي التي تمتد من عقبة السلوم إلى
سهل بنغازى من أوطا إلى آخرها وعرفنا السلوم ودقنا وطبرق وغور الطنقبة وسائر ما
يسمى بالبطنان ثم الجبل الأخضر بما اشتمل عليه من أراضي قبيلة العبيدات في درنه وعين
منصور وابع مارة وترت وبنارة والقيصب وشحات مدينة سبرنا القديمة وأراضي قبيلة الحاسه
فيها وبعد ذلك أراضي قبيلة البراعصة في قلب الجبل بجوار الزاوية البيضاء وبعد ذلك

أراضي قبيلة البرسا وأراضي العرفا والعبيد حول قصبة المرج الى أراضي العوافير والمغاربة بظاهر مدينة بنغازي . وقد تعرفنا الى كثير من رؤساء هذه القبائل ومن مشايخ الزوايا السنوسية التي منها لكل قبيلة زاوية أو زاويتان أو ثلاث بحسب عدد تلك القبيلة وقد زرنا أكثر تلك القبائل في نجوعها ولم نجد منها قبيلة واحدة يصح أن يقال فيها انها عريقة في البداوة بل جميعها أصحاب زراعات وجنان وبساتين ومنها من يسكن الحضر ومنها من يسكن المدر ولكن الجميع حراثون زراعون مستفرون لا يظعنون الى أماكن بعيدة وإنما يشتون ويصيفون في بلادهم على عادة الكثيرين من الفلاحين وسكان الحضر في جميع الدنيا . ولنفرض جدلاً ان إيطاليا شامت تخضيرهم كما تزعم أفلم يكن ذلك ممكناً مع ابقائهم في أراضيهم ؟ أكل من الضر وري لأجل تخضيرهم اخراجهم من أراضيهم المربعة البديعة واسكانهم في فلاة قاحلة ليموتوا ؟ كل الأدلة متظاهرة من أعمال إيطاليا في طرابلس وبرقة على ان مراد الفاشيست هو استئصال الشعب الاسلامي من ذلك القطر لاحتلال الملايين محله . ولقد وصلت إيطاليا الى هذا الغرض ان لم يكن بنهاية فلي جانب كبير منه . فلقد كان أهالي طرابلس وبرقة قبل غارة إيطاليا عليهما ملبوناً ونصف ملبون من اللحم فلم يبق منهم الآن بحسب الاحصاء الأخير سوى سبعمائة ألف نسمة . فيكون قد تناقص عددهم الى النصف بالظلم والعسف والقتل وما نشأ عن ذلك من رحيل الأهليين منهم من قصد السودان ومنهم من دخل مصر ومنهم من تحول الى تونس ومنهم من وصل الى الجزائر . والطلبيان مسرورون بان الجوب بذلك يخلو لهم مغرورون بان افريقية ألقت اليهم بقيادة بواسطة طرابلس . وكل هذا أوهم وأحلام وسبيل لهم جهلهم الأيام . ولكنهم تركوا في فلوب المساعين من جراء أعمالهم في طرابلس جراحات لا توشى وحزازات لا تنسى ومن جهة أعمالهم فيها عدا ما تقدم ذكره انهم لما احتلوا واحدة الكفرة في ١٣ يناير من سنة ١٩٣١ الماضية استباحوا قراها ثلاثة أيام فقتلوا من صادفوه من الأهالي . وكان من جهة الفلبي بعض الشيوخ الأجلاء مثل السيد محمد بن عمر الفضيل والسيد حميد الفضيل والشيخ فضيل الديفار وغيرهم ممن قتلوه صبراً غير داخل في ذلك من قتلوا في المعركة التي جرت بين الأهالي وجيش الحلة الطليانية وهم ٢٠٠ شخص . ثم ان الطليان انتشروا في القرى والبساتين ونهبوا كل ما وقع في أيديهم ولم يرجعوا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء وصادفوا الشيخ مختار الغدامسي وهو

شيخ فان بالغ ثلاثة وتسعين سنة ومن جلة علماء السنوسية يحملوه مقيداً بالحبال على جبل ونفوه من الكفرة فأت في الطريق . ثم اغتصبوا النساء في أعراضهن وقتلوا منهم كثيراً من دافعهم إلى الآخر عن أعراضهن . وكان نحو من ٢٠٠ امرأة من نساء الأشراف قد فررن إلى الصحراء قبل وصول الجيش الإيطالي فأرسلوا قوة في أثرهن تتأخرهن حتى قبضوا عليهن وسحبوهن إلى الكفرة حيث خلاهن ضباط الجيش الطلياني واغتصبوهن وهكذا أتوا العرات بسبعين امرأة شريفة من أشراف الكفرة الذين كانت الشمس تقريباً لا ترى وجوههن من الصون والعفاف . وقد أشرت الصحف الطليانية إلى هذه الحادثة وصرحت في باب الاقتحار قائلة : « إن الجيش قبض على ٢٠٠ امرأة من نساء الزعماء » وقرأنا ذلك باعينا وحفظنا أن مقصود البلاغ العكري الإيطالي النصح بكون حلائل زعماء الكفرة صرن إلى الضباط . إلا أننا انتظرنا بقاء الأخبار من الجهة الثانية حتى نعلم ماذا جرى بعد التثبيت فامضى شهر حتى وردت الأخبار من المهاجرين الذين دخلوا حدود مصر بأن هؤلاء السيدات المقصورات الناشئات في أكرم مهود الطهارة والصون قد قبضوا عليهن في الصحراء وصرن إلى أولئك الفجرة الذين لا يعرفون لصباته العرض معنى ولا يقيمون بالشرف وزناً . وعلمنا أن بعض شيوخ الكفرة الذين احتجوا على ذلك أعراض السيدات المذكورات قد أمر القائد بقتلهم . ثم لما هاج هائج العالم الإسلامي من جراء هذا الخبر وأشياعه أذاعت الحكومة الإيطالية تمويهاً ظاهراً زعمت فيه أن الجيش تأثر النسوة المائتين المذكورات شفقةً عليهن ولأنجل أن يرجعن إلى بيوتهن آمناً وغير ذلك من الأقاويل التي قصدت إيطاليا بها تخدير أعصاب المسلمين الذين بلغهم ما كان جرى بالكفرة من هذه الذلالت من هناك أعراض مخبرات المسلمين ومن استباحة الزاوية السنوسية المسماة « بالناج » ورافقة الخور فيها ودوس المصاحف الشريفة بالأقدام هذا منضياً إلى ما كان بلغهم من قبل من اجلاء ١٨ أننا من عرب الجبل الأخضر عن أوطانهم وإمانتهم بالجوع والعطش وأخذ أطقا لهم قهراً إلى إيطاليا لأنجل تنصبرهم وإلى ما كان بلغهم من فظائع كثيرة مثل حبل الشيخ سعد شيخ قبيلة « الفوائد » و ١٥ شيخاً من رفاقه بالميارات وقد فهم بهم من الجوع على مشهد من أعظمهم حتى إذا وصل أحدهم إلى الأرض وتقطع له بأ حلق الطليان غرباً ونادوا العرب قاتلين : « ليات محمد هذا بيبكم البدوي الذي أمركم بالجهاد وينفذكم من أيدينا » وإلى غير ذلك من

الأمور التي جرحت قلوب المسلمين فجرت مظاهرات في النمام وطرابلس الشام وبيروت وفلسطين وانعقدت اجتماعات في كل مكان للاحتجاج على أعمال إيطاليا في طرابلس وأبرق المسلمون بالاحتجاجات الشديدة إلى جمعية الأمم بخيف وإلى نفس مسؤولي بالعبارة الفاسية وقامت قيادة الجرائد العربية وحلت على توحش الفاشيست من كل جانب وامتلاأت جرائد مصر بالاحتجاج والطعن في إيطاليا إلى أن عطلت الحكومة المصرية بعضها اجابة اطلب الحكومة الإيطالية ووصل الصريح إلى الهند والجاوي وأصبح المسلمون طه الأختيار وانعقد في الجاوي اجتماع كبير حضره ألوف مؤلفة من المسلمين وخطبوا خطبا شديدة ودعوا إلى مقاطعة البضائع الإيطالية وتدخلت الحكومة الهولندية في الأمر وانتصرت لإيطاليا بمقتضى قاعدة التكافل الأوربي بوجه المسلمين وقاعدة التكافل الاستعماري بوجه الأمم المقهورة وأشاع فواصل إيطاليا أن كل هذه الاخبار عما حل بمسلمي طرابلس ملفقة لا أصل لها وبلغت بهم الفتحة أنهم كانوا يخاطرون الناس بمخاطرة على أن يذهبوا إلى طرابلس بأنفسهم إشهدوا كتب هذه الأقاويل وبلغ بهم اليقين أنهم أشاعوا أيضاً أن إيطاليا اقترحت على جمعية الأمم أن ترسل إلى طرابلس لجنة من عندها للتحقيق عما يسبب إلى رجالها من الأعمال الشنيعة التي هم أرباب منها . وكل هذا اختلاق محض قصدت به إيطاليا التعمويه وتخدير الاعصاب وصرف المسلمين عن مقاطعة بضائعها وقد سكت كثير من المسلمين إلى هذه الكذبيات وهذا بالهم والحق خلاف ذلك . وكل ما شاع من الاخبار عن أعمال الطليان لاسيما بعد مجي دولة الفاشيست هو دون الواقع . ولو تأمل المسلمون فيما يأنيه الفاشيست في نفس إيطاليا من الموبقات ومن اغتيال أعدائهم السياسيين ومن حجز كل حرية ومن منع تأليف كل حزب يخالف حزبه ولو نظر والى اهتمامهم للبابا نفسه ومنعهم إياه من تأليف الجمعيات الكاثوليكية بحجة أن الحزب الفاشيستي الذي هو كاثوليكي الصبغة يعني عن تأليف أحزاب كاثوليكية أخرى لعلمو أن الذين يفعلون تلك الافعال بأبناء أمتهم وملتهم ووطنهم لا يقال أنهم لا يفعلون اضعافها بالمسلمين الذين ينوون هم استئصال شأفتهم من طرابلس لتحويل تلك البلاد إلى ملكة لا تبعية كما كانت لعهد الرومان وزعمهم ولا يطان ثلاثة ملايين ايطالي فيها . على أن الأعمال الوحشية التي أتوها في

طرابلس و برقة منذ بدء احتلالهم الى الآن والمظالم المتوالية التي أجروها من قتل ونهب وحبس وضبط أملاك وانتزاع أراض وغير ذلك قد أصبحت في حكم المتواتر الذي لا يصح فيه المراء لاتفاق عشرات الألوف من الأهليين على روايته فقد نزع عن طرابلس و برقة نحو من مائتي ألف نسمة وقيل من ٣٠٠ ألف نسمة منهم ٢٠ ألفاً دخلوا تونس والجزائر ومنهم ٦٠ ألفاً دخلوا مصر ومنهم من شردوا الى السوادين ومنهم من تفرقوا في الصحاري وقد أظفروا بأجمعهم على صحة هذه الأخبار ومشاهدتهم تلك الأفعال بالعيان وأنه ليستحيل اتفاق تلك الألوف المؤلفة على الكذب هذا فضلاً عن كون لسان الحال أقصع من لسان المقال فلو كان كون هذه المظالم حقيقة راهنة ما كان هذا العدد الكبير من الأهالي يترك وطنه ويهيم على وجهه في البراري أو يلتبس الرزق غاملاً في أرض غربة بعد ان كان سيداً في أرضه . ومن أغرب المتناقضات والتناقض من عادة كل كاذب أنه يتناغمسوا إيطاليا في بلاد الاسلام يذيعون أن من شاء أن يذهب الى طرابلس بنفسه ليتحقق كذب تلك الاخبار عن فظائع الطليان فيها فإن أبواب طرابلس مفتوحة لمن شاء الذهاب الى هناك و يتنا ففضلهم في يروت يشبع ذلك في يروت و يتنا الحكومة الإيطالية تقول هذه القول لشوكت على الزعيم المسلم الهندى إذ بقيت إيطاليا مدة طويلة بعد احتلال الكفرة وحوادثها المؤلمة تمتع كل دخول وخروج بين الحدود المصرية والحدود البرقاوية لئلا يقف أهل مصر على حقائق الاخبار فيزدادوا غيماً . ولكن الحقائق لا بد أن تظهر ولا يمكن إيطاليا اخفاء كل ما تأتبه من الأعمال الوحشية في طرابلس وليس المسامون وحدهم هم الذين شاهدوا أعمال الطليان وضجوا منها بل ثمة كثير من الافرنج شاهدوها وأنكروها ومن ذلك المستر « فرانسز ما كولا » الانكليزي الذي كان مرافقاً للجيش الإيطالى في طرابلس عند الاحتلال وشاهد تلك الفظائع بعينه فقد قال :

« أبيت البقاء مع جيش لاهم له الا ارتكاب جرائم القتل وان ما رأيت من المذابح وترك النساء المريضات العربيات وأولادهن يعالجون سكرات الموت على قارعة الطريق جعلنى أكتب للجنترال « كانيغا » كتاباً شديد المهجة قلت له : انى أرفض البقاء مع جيش لا أعدّه جيشاً بل عصابة من قطاع الطرق والقتلة »

ومن ذلك شهادة الكاتب الالماني « فون غونبرغ » الذي قال : « انه لم يفعل جيش

بعدوه من أنواع القدر والخيانة ما فعله الطليان في طرابلس فقد كان الجنرال كاتيفا يستهين بكل قانون حربى ويأمر بقتل جميع الأسرى سواء أقبض عليهم في الحرب أو في بيوتهم . وفى سيرا كوزة الآن كثير من الأسرى الذين لم يؤسر واحد منهم في الحرب وأكثرتهم من الجنود الذين تركوا في مستشفى طرابلس »

وفد قبض الطليان على ألوف من أهل طرابلس في بيوتهم ونفوسهم بدون أدنى مسوغ إلى جزر إيطاليا حيث مات أكثرهم من سوء المعاملة

وأقرأ ما قاله « هرمان رنول » المراسل النمساوى الحربى فقد وجد في الباخرة التي نقلت يانينا من هؤلاء الأسرى فوصف تلك الحالة فقال :

« في الساعة السادسة من مساء كل يوم نكبّل هؤلاء المرضى بالحديد من اليد اليمنى والرجل اليسرى . حقاً أن موسيقى هذه السلاسل تنفق مع « المديسة » التي نقلتها إيطاليا إلى افريقية . لا ريب أن الطليان قد أهانوا كثيراً فلم يكف أنهم أسقطوا منزلة أوروبا العسكرية في نظار افريقية حتى شوهوا اسم النصرانية أمام الاسلام » ثم قال :

« قد قتل الطليان في غير ٥ دنان الحرب كل عربى زاد عمره على ١٤ سنة ومنهم من اكتفوا بنفيه . وأحرق الطليان في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١١ حياً خلف تلك روما بعد أن ذبحوا أكثر سكانه بينهم النساء والشيوخ والأطفال » . قال : « ورجوت طبيبين عسكريين من أطباء المستشفى أن ينقلوا بعض المرضى والمصابين المطر وحين على الأرض تحت حرارة الشمس فلم يفعلوا . فلجأت إلى راهب من كبار جمعية الصليب الأحمر هو الأب « يوسف بافيلاكو » وعرضت عليه الأمر وأخبرت شاكياً فرنسياً أيضاً لكن الأب « بافيلاكو » حول نظره عني ونصح للشباب بأن لا يزعمج نفسه بشأن عربى في سكرات الموت وقال : « دعهم يموت ... »

فلت لي تأمل القارئ أن هذا الذى يقول هذا القول هو فيسب يزعم أنه ممثل المسيح على الأرض وأنه من رجال الصليب الأحمر أى الجمعية التي تزعم أنها تخدم الإنسانية بلا استثناء !

ثم قال هذا المراسل النمساوى : « ورأيت على مسافة قريبة جندياً إيطالياً يرقص جنة عربى برجله . وصباح اليوم التالى وجدت الجرحى والمرضى الذين رجوت الراهب من

أجلهم قد ماتوا . وقد رأى ذلك معي فون غونبرغ الألماني وبكى من نأثره » ثم قال :
 « رأينا طائفة من الجنود تطوف الشوارع مفرغة رصاص مسدساتها في قلب كل
 عربي تجده في طريقها قد تزع أكثرهم معاطفهم ورفعوا أكمام قمصانهم كأنهم جزارون »
 وقال فون غونبرغ في إحدى رسائله : « خرجت عصاة من الجنود وراء البيوت
 فلما دنوا منا وجدنا بينهم خمسة من العرب غلبت أيديهم خلف ظهورهم . ثم سمعنا صراخاً
 وإذا ببعض الجنود خرجوا من منزل يجرون عربياً ضموه الى الحصة الأولى وقتلوه رمياً
 بالرصاص . فعلمنا أن ليس هناك محاكمة ولا عدالة عسكرية بل هناك مجزرة محضة . ولقد
 قيل لي ان الطليان قتلوا ٢٠٠ امرأة وولد في هذه الأيام الأخيرة وأربعة آلاف رجل .
 وكانوا يقتلون النساء ويقولون : ظنتهم رجالاً » قلت : وهذا لم يكن من القاشيست بل من
 الطليان غير القاشيست لأنه حصل في سنة ١٩١١ قبل أن يوجد القاشيست

ثم قال : « في ٢٧ أكتوبر سنة ١٩١١ سرت في الطريق شمالي بئر » أبي مليانة »
 فأبصرت شابة عربية خرجت من بينها عسكة يدها طفلها الصغير . ثم ما لبثت أن سمعت
 ثلاث طلقات فارية ثم رأيت المرأة سقطت على الأرض ميتة أما الطفل فولى هارباً مدحوراً
 فلفتيت حينئذ ضابطاً فقلت له : جنودك قتلوا الآن امرأة عند البئر . فقال : جنودنا
 لا يستطيعون التمييز بين الرجل والمرأة أول وهلة . فعلمت من هذا الجواب أن العرب
 مباح قتلهم سواء كانوا مجرمين أو أبرياء »

ثم قال « الله صادم ٥٠ جندياً يتودون ستة من العرب الى خرابة يستعملها الجنود
 لقضاء الحاجة ... ولما أدخلوهم اليها اشترك الضباط والجنود في قتلهم بالمسدسات والبنادق .
 قال : وما كدت أفر من هذا المشهد الهائل حتى رأيت ما هو أشد هولاً وهو طائفة من
 الجنود يسوقون ٥٠ عربياً بين رجال وأطفال . ضرب أحدهم بحربة بندقيته اثنين منهم
 فأت الواحد لوفته وسقط الآخر يتخبط في دمه فرفسه أحد الجنود برجليه ثم أدخلوا الباقين
 الى مكان فد نهدم وبدأ الضباط يقتنعون هذا الصيد الكريه بمسدساتهم وبنادق جنودهم
 مدة عشرين دقيقة . وكأسمعوا أنبناً من جنة أعادوا عليها النار الى ان انقطع الأنين »

وقال مراسل الخامس يومئذ - قلت ولا يجوز أن ننسى أن غارة ايطاليا على طرابلس
 كانت بالاتفاق مع فرنسا وانكلترا استرضاء لايطاليا على أثر تقاسم انكلترا وفرنسا مصر

والغرب - : « ان قسوة الانتقام التي استعملها الطالبان في وقعة يوم الاثنين يليق أن يقال عنها انها أعمال قتل عام فقد فتكوا بكثير من الأبرياء وسبق ذكرى هذا الانتقام زمناً طويلاً ... » قلت ان كان بقي عند العالم الاسلامي ذرة من الشرف فلا يجوز له أن ينسى هذه الاهانات التي لحقت به مادام في الأرض نبي* يقال له اسلام

وقالت جريدة « الدالي كرونيكل » الانكليزية: « استمر الجيش الايطالي ثلاثة أيام يطلق الرصاص على كل من يلقاه من العرب فهلك عدد كبير من النساء والأطفال وبلغ مجموع القتلى بين الاثنين والجمعة أربعة آلاف عربي . وصدر الأمر بقتل كل من وجد خارج السور الى جهة « فرغارش »

وقال المسيو كوسيرا مراسل جريدة « اكسيلسور » الباريزية :

« لا يخطر ببال أحد ما رأيناه بأعيننا من مشاهد القتل العام ومن أكلوا جثث السيوف والنساء والأطفال يتصاعد منها الدخان تحت ملابسهم الصوفية كالبخور يحرق أمام منبع من مذابح النصر الباهر . ومررت بمائة جثة بجانب حائط قصي عليهم باشكال مختلفة . وما فررت من هذا المنظر حتى تمثلت أمام عيني عائلة عربية قتلت عن آخرها وهي تستعد للطعام . ورأيت طفلة صغيرة أدخلت رأسها في صندوق حتى لا ترى ما يحل بها بأهلها . ان الايطاليين فقدوا عقولهم وافسانيتهم من كل وجه »

وقد أشرف الى الحوادث نفسها مراسل « الدالي ميرور » المستر توماس كرات والسيده فرانك ماجي . وقال المستر راليس اشميد برنلت مراسل شركة روتر في رسالة بعث بها من مالطة يصف فيها ما شاهدته بعينه هو والمستر كرات مراسل الدالي ميرور والمستر داتيس مراسل ليو رنغ بوسن وقد سجلت هذه الرسالة في دائرة رسمية انكليزية تحت تواريخهم : « صادقتا بمجرد خروجنا من المدينة جماعة من رجال واولاد لا يقل عددهم عن السبعين قتلوا بدون محاكمة . وكنا نشاهد في طريقنا بعد كل بضع خطوات جثث القتلى في كل مكان قتل بعضهم برؤوس الخراب والبعض ضرباً وآخر من جرحوا وماتوا على أثر جراحهم . وأبصرنا على مسافة قريبة خمسين رجلاً وولداً علكوا بالرصاص والسيوف وشاهدنا رؤوساً مهشمة . ومن المشاهد التي رأيناها :

١ - شيخ عربي عاجز ينما هو يجلس بقرب مدرسة الزراعة اذا اتخذته طائفة من الجنود

الإيطالي هدفاً لرصاص بنادقها فأت

٢ - سمعنا جأة صوت عيار ناري فعلمنا أنه أطلق على رجل خرج من منزله فسقط
والدم يتدفق منه وخرجت زوجته وبسرها اناء فيه ماء ... لعلها تريد أن تضيفه أو تغسل
جراحه ... فلما رأنا نكست على أعقابها خوفاً من ...

٣ - التقينا في أحد الشوارع بثة من الجنود امسكوا ثلاثة من العرب وصرفوهم عند
حائط واخذوا يتلهون بإطلاق النار عليهم

وقال المستر بنيت بورلي مراسل « الدالى تلغراف » :

« قتل الطليان في ٧ نوفمبر (١٩١١) أربعة آلاف شخص بينهم ٤٠٠ امرأة ورأيت
رجلاً مقعداً قتل الجنود قريباً من قنصلية النمسا »
وقال مراسل « فرانكفورتر تسايتونغ » :

« لقد رأيت بعيني فظائع هائلة لم تسمع أذن إنسان بمثها . ولقد بلغ الى الآن عدد
المذبوحين من الأهالي سبعة آلاف من رجال ونساء وأولاد اذ أبيع للجنود قتل كل من
بصادفونه »

قلت هذه اعمال جيش منظم هو جيش إيطاليا تحت قيادة قائد برنية جنرال هو
الجنرال كانيفا يقود ذلك الجيش الى طرابلس الغرب بحجة انها بلاد متوحشة وان إيطاليا
تريد ان تمدنها وتدخل اليها مبادئ الانسانية ! ولذلك هاجمتها بغيا وعدواناً وأوقعت باهتها
كما يعلم كل احد . ولماذا هذا الانتقام الذي تأتي الوحوش الضواري الانبياء بمثلها بحق الاهالي
الوادعين المجردين من السلاح ؟ جواب ذلك ان المقاتلة من العرب دحروا الجيش الطلياني
عند المكان المسمى بالمنشية وان طائفة من المقاتلة جاءت الجيش الطلياني من وراء على غرة
منه فانكسر ونلف منه كثير . فانتقم الجنرال كانيفا طريفة جيشه هذه بذبح الاهالي الوادعين
المستقرين في بيوتهم رجالاً ونساءً وأطفالاً ولم يبال لاحو ولا حكومته شائعة هذه الاحدوة
ولا مخالفة هذه الاحتمال لقوانين الحرب الدولية وكيف يبالى وهو وغيره من الأوربيين لاسيما
الجنس اللاتيني يعتقدون ان الاسلام خارج عن الدائرة التي يجب ان تراعى فيها الحقوق
الدولية وانه لا نصيب له من ذلك وان كل ما يعمل به وبأجله جائز . وليس في هذا شيء من
المبالغة بل نحن أولاء نرى من الأوربيين أنما اسمى مقاماً اجتماعياً من الطليان نستدل من

كثير من اقوالهم وافعالهم ومن صريح كتبهم الحقوقية انهم لا يقبلون مبدأ المساواة بين
 الأوربي والمسلم ولا يرون الحقوق العامة التي يدعيها الأوربي مما يجوز ان يدعيه المسلم في
 المواثيق الدولية . فلماذا نجد جيوش هذه الأمم ترسكب في مستعمراتها لاسيما بالمسلمين ما
 يقرب من أعمال الجيش الإيطالي في طرابلس ولا يمتاز عنه بكثير . ولقد ارتكب الفرنسيين
 في هذه السنة غتة احتلال واحة نافيلاث بالمغرب افعلا بعيدة جداً عن الحقوق الدولية وعن
 الحقوق وهم وان كانوا اخفوا خبرها عن الناس ولم اتصل بالجزائر فلم يمكن طمسها ولا غمشتها
 فلما وهم بدون شك أعلى درجة في المدنية من الطليان . ومن غريب الأمراض التي ابتلى
 بها المجتمع الاسلامي في هذا العصر ان كثيراً من المغتربين بخلاف الأقوال من المسلمين
 لا يصدقون بصور هذه الافعال عن الأوربيين ويكذبون أخبارها ويكبرون فيها ويقولون
 ان أعمالاً كهذه يستحيل أن تصدر عن أمم متقدمة . وهذا من أعظم البلايا التي أصيب بها
 المسلمون في هذا القرن وفقدت فوق هذه البلية في عمايتهم عن الحقائق يلينهم فظائع الاستعمار
 الأوربي . ولكن هذا التصور العالي الذي كان لهم بالمدنية الأوربية والانسانية الأوربية
 والبراهمة والنبيلة المتين كانوا يعتقدونهما من اخلاق الأمم الغربية قد تناقص كثيراً بعد
 الحرب العامة عند ما احتل الجيش الافرنسي سورية وجزءاً من تركيا واحتل الانكليز
 العراق وفلسطين واستانبول وظهر ما ظهر منهم بعصر واليمن وعند ما عمل الفرنسيين
 عميلوه من تدمير دمشق وافتقع الجميع ما ظهر من أعمال الطليان في طرابلس الغرب وبرقة
 فانه اسمع به احد الا في القرون الوسطى ونعود الى ذكر تلك الفظائع فنقول ان الجمعية
 الطرابلسية البرقاوية في الشام قد نشرت في هذا العام كتاباً عنوانه « الفظائع السود
 الحمر » أو التمسين بالحديد والنار هو الحلقة الأولى من سلسلة فظائع الطليان في ذلك البر .
 وقد نقلت اخبارها بالوثائق ونقلت من كلام مراسلي الجرائد الكبرى كالتامس والطان
 ووسمينستر غارت وغيرها وعن كتاب « فظائع الطليان في طرابلس الغرب » المطبوع
 في الاستانة سنة ١٣٣٥

ولقد ورد في هذا الكتاب ذكر فظائع أعمال الطليان بالسلسل من بدء احتلالهم الى
 الآن سنة فسنه كل سنة مع ذكر ما ارتكبهوه فيها من الأعمال المخجلة الخارجة عن حدود
 الانسانية . ومما جاء فيه اهانة الطليان للدين الاسلامي وتعرضهم أحياناً للمسلمين في مساجدهم

ودخول الجنود سكارى الى الجوامع يهزأون بعبادة المسلمين وما من وازع ولا رادع واجبارهم المسلم ولو كان في وسط صلاته أن يترك الصلاة ويحجى الضابط أو المأمور الايطالى أياً كان . وان احتقار الطليان للمسلمين يظهر في الدقيق والخليل من معاملاتهم لهم حتى اننا قرأنا مرة برنامج مراسم أحد الأعياد الايطالية وكيفية الدخول على القائد الكبير في طرابلس فإذا به على هذا الترتيب : يدخل أولاً جالية الطليان وثانياً جالية الأوربيين من غير الطليان وثالثاً اليهود وأخيراً المسلمون . . .

ومن كان يهتم الاطلاع على ما فعله الطليان في طرابلس - ويجب أن يهم ذلك جميع المسلمين - فعليه بمطالعة هذا الكتاب من أوله الى آخره وهذا يغنينا عن نقل كثير مما فيه على أننا نقل منه بعض فقرات على سبيل التمثيل . في الصفحة ٥٩ نجد ما يلي : « الحاج مفتاح مشلوف رجل طرابلسي ذهب الى الحج فأخذ معه من النقود نحواً من ألف جنيه لأنه رجل يجعل معاملة المضارب ولما عاد الى وطنه شعر القاشيش بما معه من النقود فابتكروا المضاربين حياة سخيقة إذ ادعوا أنها امانة جمعها للجهاد السيد عمر المختار فرجا منهم أن يحققوا هذه الفرية فأبوا الا أن يقتصبوا أمواله بلا تحقيق ولا محاكمة وقالوا له : احمد الله على أن الحكومة لم تقتلك »

« لا قيمة لأعراض الناس عند القاشيش فطافوا هتكوا حرما وتجاوزوا على أعراض نساء شريفات . فمن ذلك أن ثلاثة ضباط ايطاليين طلبوا ثلاث بنات من أهالي فضاء « جالو » للاستمتاع بهن فافتنبوا منهن اثنتين والثالثة فرسها أبوها ونجهاها من برائن أولئك الوحوش المفترسة »

« واحة جغبوب هي مركز السادة السنوسية وحصن عبادتهم الأمين والايطاليون شديدو الحرص على ايادة رجال الدين ومحو معالم الاسلام من تلك البلاد لذلك هاجموا هذا المركز وأجلبوا عند أهله وكان أكثرهم من العلماء وطلاب العلم مثل السيد حسين السنوسى شيخ زواية جغبوب والشيخ أحمد اليوسف والشيخ صالح المسارى والشيخ الفضيل الكبير والشيخ محمد أبى شهبه وغيرهم ونفروا معهم نساءهم وأطفالهم الى حيث لا يعلم أحد . ويظهر أنهم أجلبوا « الى بردى سليمان » وقد سقط من السيارة فى الطريق الشيخ صالح المسارى فلم يهتموا له وكان من خلف السيارة التي تحملها سيارة أخرى دامت وذهبت بحياته »

« أصدرت حكومة الفاشيست في لواء بنغازي أمراً بسد جميع الكنائس التي تعلم الأطفال أمور دينهم وتحفظهم قرأتهم الكريم

« فاجأ الفاشيست رجلاً يدعى الشيخ يونس بن مصطفى البرعصي وهو معتكف في غار بزاوية الفايديّة بالجبل الأخضر فشدّوه عليه وأحرقوه مع عائلته المؤلفة من تسعة أشخاص نأويلاً لا عسكافه بالنجس عليهم

« تفنّن الفاشيست في التّكليل بالسكان حتى أنهم ألقوا جماعة منهم الشيخ عبد الحبيب أنا عمران البرعصي والشيخ المكنن العبيدي وأحمد خليل السعيطي من طيارة من غزو ٤٠٠ متر في المكان المعروف بجردس العبيد بالجبل الأخضر . وريدوا الشيخ مفتاح يحيى العبيدي وابن عمه صالح على بين سيارتين دفعوهما الى اتجاهين مختلفين فتقطعت أجسامهما رباً ارباً أمام قبياتهما المنحلة الفاتنة بجوار المعسكر الفاشيستي في « تاكفس »

هذا ما نقلناه عن صفحات ٥٩ و ٦٠ و ٦١ و ٦٢ من هذا الكتاب . واليك أمثلة أخرى من صفحة ٦٣ :

« أسس الجنرال « غرساني » محكمة عرفية سيّارة تقطع البلاد على متون الطيارات تحكم على الأهالي بالموت ومصادرة الأملاك لأقل شبهة فتتمتعها شرقة الفاشيست الذين سبّوا في وجوههم أبواب المهاجرة الى أمريكا وغيرها . ومن أغرب ما يفعله الفاشيست أنهم يحكمون وينفذون ثم بعد ذلك يحققون . . . فقد أخبرهم أحد جواسيسهم أن أحد عبد الهادي يقتني بندقية فحكموا عليه بالموت شنقاً وبعد أن نفذوا فيه الحكم فقتلوا منزله ثم يجمعوا فيه نوعاً من السلاح ثم ثبت لهم أن هذا الطير مخنلق فلم يعاقبوا الجاسوس بكثير ما أزهقت أرواح بمثل هذه التهم الباطلة »

قلت ان تقديمهم التنفيذ على التحقيق هو ناشئ عن خوفهم من ظهور البراءة وتفسد ذلك فضيع عليهم فرصة ازعاج نفس مسلمة على حين أنهم يعتقدون أن كل مسلم يشارك هذه الدنيا في طرابلس يفسح مكاناً لطلياني مستعمر . ففي قتل المسلم بأي وجه كان مصلحة لهم بزعمهم ولهذا يسارعون في تنفيذ حكمه بدون تحقيق ثم انه جاء في هذا الكتاب صفحة ٦٤ :

« نزلت محكمة الطيارات العرفية في هذا العام ^(١) على الأهالي المحشورين في عين

الغزاة حكمت فوراً على ستة أشخاص بالقتل وعلى عشرين شخصاً بالسجن - وأقل مدة السجن ٢٠ سنة - وكان بين المحكوم عليهم الشيخ الطلحي الموالى للطلحيان المقيم معهم بطبرق . فلما نلى عليهم الحكم همس أحد المحكوم عليهم بالحبس ٢٠ سنة في أذن جاره قائلاً له : انهم ظلموا الطلحي بحكمهم هذا . فأحس بذلك أحد الجواسيس فأبلغه للحاكم فأقسم بأن يكون صاحب هذا القول أول المقتولين وأعدموه الحياة فعلاً . ثم في ساعة تنفيذ الحكم طلب المحكوم عليهم أن ينفذ الحكم بحقهم خفية عن أهلهم وأطفالهم فلم يسعف طلبهم »

ثم جاء في صفحة ٦٥ :

« انتزعت حكومة الفاشيست من أيدي الأهالي ٢٠٠ ألف هكتار من الأراضي بلا مقابل فأعطت مائة ألف للمستعمرين وأوعزت الى اخوانهم المقيمين في الأرجنتين أن يبيعوا أراضيهم فيها ويأتوا الى طرابلس وبرقة حيث يأخذون بدلها مجاناً وقد صرح بذلك السنيور موسوليني في عدة خطب له . وقال المارشال بادوايو والي طرابلس وبرقة في خطاب له : يجب على الذين تمتنعهم الحكومة آلاف هكتارات أن يشمروا عن سواعدهم قائماً قد وفقنا الى استملاك الآلاف الموافقة من الهكتارات ولم يحتاج أحد . . . »

لم يحتاج أحد طبعاً لأن الذي يحتاج جزاؤه الموت . الا أننا نقول : أقليست هجرة هؤلاء البؤساء احتجاجاً عملياً على هذا الظلم القطيع ؟

وفي صفحة ٥٤ جاء ما يلي :

« في قضاء زوارة أرض خصبة وبساتين كثيرة فيها أنواع الفواكه وهي ملك لنبائل « النوائل » و « خويلد » و « السعيفات » اغتصبها الفاشيست وساموها الى مستعمرينهم وأجبروا أصحابها على تركها والجلء الى البادية »

وجاء في صفحة ٦٦ ما يلي :

« من فظائع الابداء والافناء التي قام بها الجنرال « غراسياني » انه حشر كافة سكان الجبل الاخضر في بقعة ضيقة من الارض على الساحل بين السكان « طلمينه » و « بفينه » بعد أن زج زعماءهم في السجون وألحق بهم من الاهانات ما لا يوصف وقتل من المشاهير رجلاً يدعى الشيخ سعيد الرفادي مع خمسة عشر شخصاً شر قتلة وذلك بان أمر بركابهم

في الطيارات والقائهم من عن علو ٤٠٠ متر على مشهد من أهلهم وكلما هوى منهم شخص صاح الضباط والجنود ساخرين منادين : « فليأت نبيكم محمد البدوي الذي أغراكم بالجهاد وبنقذكم من أيدينا » ثم عزم على ترحيل سكان برقة القريية فصادف نفودهم ومواسيهم وسافهم محاطين بفرسان وسيارات مصفحة ولم يسمح لهم بالانحراف عن الطريق ولو للاستقاء ومن كان يحاول ذلك أو يتجسس للاستراحة يعاقب بالمقتل فوراً لا فرق بين رجل وامرأة وطفل الى أن حشرهم بهندة الحال المخرجة في صعيد ضيق على ساحل المكان المعروف بالمقطاع .
 لما كان برقة الشرقية (منصرفية طبرق) فلم يكن نصيبهم من الضرر باقل من نصيب اخوانهم حين نفوا مع نسايم وأطفالهم الى ايطاليا . هناك أماء القبائل التي رُحلت لانها عن بكرة أبيها : العبيدات والحامد والمنفد والحوزة والشاراع وحيدون .

« وقد كانت مخيمة في أرض خصبة واسعة يحدها شرقاً السوم والأراضي المصرية وغرباً وادي النعبان وشمالاً البحر المتوسط وجنوباً الصحراء . ثم العواقر والغاربه وعائلة لمهشيش وأولاد الشيخ والغريبات والسعيط والقواخره والشهيبات وزوارة وجرارده ومشيكات الزاوية . وهذه كانت مخيمة في الأراضي المحسودة شرقاً بمسوس وغرباً بالمقطاع وعين الكبريت وخليج سرت وشمالاً بالبحر المتوسط وجنوباً بالصحراء . فهذه القبائل وغيرها بالغ عددها ٣٠ قبيلة وأنفسها ثمانين الفا حشرت بأجمعها في بقاع « بنيته » و « طلميش » و « العقيلة » الضيقة الفاحشة ومنعت عن التجول خارج الاسلاك الشائكة التي ضربت حولهم بعد أن سلبت الحكومة الفاشيستية حيواناتهم ومواسيهم

« جمع الجنرال غارسياني جميع مشايخ السنوسية ومتولي أوقافها وأئمة المساجد والمؤذنين والفقهاء والسادة وسجنهم كلهم في مركز « بنيته » وهو بناء قديم لاسقف له ذاقوا فيه أمر العذاب جوعاً وعطشاً وعذاباً ثم نقلوا الى سجون ايطاليا و بعد أن مكثوا فيها مدة أعيدوا الى « بنيته » حيث أفنوا بالجوع وغيره وهناك بعض أسماء الطالكيين : عمر الكوري شيخ زاوية المرج . السنوسي بن جلؤل شيخ زاوية البراضة . السنوسي بن ميلود شيخ زاوية المراتيق . السنوسي الهاني شيخ زاوية أمركية . ادريس أبو فارس شيخ زاوية أم حفير . ولا ذنب هؤلاء المساكين سوى أنهم يعملون أبناء المسلمين كتاب الله وسنة رسوله الكريم »

قلنا ان استئصال الدين الاسلامي من طرابلس واجتثاث عروقه بمحو رجاله من هناك كان ولا يزال محور سياسة الفاشيست في ذلك القطر . وقد صرح قائد طريق أمام جماعة من المسلمين انهم لا يمكنهم أن يصبروا بني آدم ما دام هذا الكتاب الذي هو القرآن بين أيديهم

ثم جاء في كتاب « الفظائع السود الحمر » ما يلي :

« أما الاخوان السنوسيون الفاطميون في جفجفوب فقد رحلواهم بعائلاتهم جميعاً مشياً على الأقدام الى قضاء « بنلو » تحت رحمة الجنود الذين كانوا يسوقونهم سوق الانعام بقصد الحاقهم باخوانهم في سجون « بنينه » و « سلوق » وغيرها . وقد مات أكثرهم جوعاً وتعذيباً . وكان منظر الأطفال الضغار على جانبي الطريق يفتت الأكباد زيادة على منظر الموتى من الرجال والنساء .

« حدثنا ثقة ان الثاين الن مسلم الذين تزعت من أيديهم بلاد الجبل الأخضر الحبيب وأرسلوا الى بادية « سرت » القاحلة الى تبعد مسافة ١٥ يوماً عن الجبل المذكور في منطقة ضيقة لا ماء فيها ولا كلاً مات أكثرهم من الجوع والعطش والابوة وهلك أكثر مواشيهم وصارت الحكومة بقرية ما كان عندهم من مال واثاث وحلى وتركوهم يفتشون الغبراء ويلتحفون السماء بصورة لم يسبق لها نظير حتى في أشد عصور التاريخ . زد على ذلك انهم جندوا منهم من يتراوح عمره بين ١٥ وال ٤٠ سنة ليحاربوا بهم اخوانهم في الدين والوطن وأرسلوا أطفالهم الى إيطاليا لتتبرهم .

« ضبط الفاشيست أولاً زوايا السنوسية وعددها يزيد على المائة مع أوقافها وانقصوا أخيراً جميع أراضي القبائل الناسبة الى الطريقة السنوسية (١) وهي قبائل الجبل الأخضر و برقة العبيدات وفروعها والبراعة والخاصة والدرسة والعرفا والعبيد والفوايد والمراطين والعوافير والمقاربة وغيرها ونفوس هذه القبائل تزيد على ٢٥٠ ألف نسمة وقد أصبحت أراضيها ماسكاً للحكومة الفاشستية بموجب أمر ملك إيطاليا (٢) نشرته الصحف الأوربية برفقة عن

(١) قلت وجميع قبائل برقة منسوبة الى الطريقة السنوسية

(٢) قلت وقد نشرت هذا الأمر جرائد إيطاليا ونشرنا في مجلتنا الاخرية اللغة « لاناسيون آراب » مجلة خاصة في أحد أعداد السنة الماضية عن فظاعة هذا القتل

روما . وإذا كان ملك إيطاليا وقع أمراً بالنزاع أراضي القبائل السنوسية واعترف بالمراسل « بادوليو » لندوب جريدة « زيوني كولونياني » بأن الحكومة أعلنت أكثر من ٢٠٠ ألف هكتار من الأرض لأربعمائة من المستعمرين الفاشيست الذين أتوا من تونس بقصد الاستملاك وأذاعت إيطاليا في بلاغاتها الرسمية أنها قد أسكنت في بركة بركة عشرة ألف فاشيستي مستعمر وأنها ستسكن خلال ٢٠ سنة في بركة ٣٠٠ الفاشيستي وأعلنت على صفحات الجرائد بلسان أكبر رجالها أنها امتاكت أكثر من ٦٠٠ ألف هكتار وصرح موسوليني أنه سيسكن فيها من مليونين إلى ثلاثة ملايين . إذا تم كل ذلك فمعنى هذا كله أن حكومة الفاشيست انتزعت مع أراضي بركة والجيل الأخضر أراضي طرابلس ومصراته ومسلاته ونزهوة وزايطن وغريان وأورفاة وسوكنة وغيرها حتى يبلغ العدد ستائة ألف هكتار كما جاء في بلاغاتها الرسمية الخ »

وجاء في هذا الكتاب صفحة ٨٧ ما يلي :

« وقد وقعوا للناحية الأولى حيث شردوا ثلث مليون من السكان ونفذوا الناحية الثانية حيث أقتوا ثلث مليون آخر ونيط تنفيذ الناحية الثالثة بالمدارس الطليانية ولم يتركوا في طول البلاد وعرضها مدرسة غير طليانية وهكذا الأخلاق الإسلامية قد ضمنت المدارس الطليانية القضاء عليها بوسائل التعليم الإجباري . وتسكنت دور القبح والدعارة بإفساد أخلاق الشبان . وأما الناحية الرابعة وهي نصير المسلمين ودفعهم لاعتناق الكنيسة فقد سرح أحد سفراء الدول للأمير الخليل شكيب أرسلان بأنه تحدث مع أحد رجال حكومة إيطاليا فقال له : أننا نأمل كثيراً نصير الجنس البربري من أهل طرابلس وبرقة »

نعم قد سمع محرر هذه السطور من سفير أوربي أعرفه من زمن طويل وأعرف أنه من الثقات في جميع أقواله

اني أرى في هذا النقل عن كتاب فظائع إيطاليا في طرابلس ما به مفتح وإن كانت أقول بعض الناس لا تزال تستكشف من قبول جميع هذه الروايات ونظنها من قبيل الغلو والافتراق في وصف مظالم الفاشيست . وما هي بقول ولا اغراق بل هي بأجمعها وقائع قد حوت فعلاً

ولما حررت المقالة التي نشرتها عن فظائع طرابلس وبرقة سنة ١٩٣١ على أثر دخول

الطليان الى الكفرة وارتجف لها العالم الاسلامي غضبا وعلا الصراخ من كل جهة جاء في
من الشهيد الأكبر بطل الجبل الأخضر السيد عمر المختار الكتاب الآتي :

« انه من خادم المسلمين عمر المختار الى المجاهد الأمير الخطر أخينا في الله وزميلنا
في سبيل الله الأمير شكيب لرسالة حفظه الله

« بعد السلام الام والرضوان الشامل الاعم ورحمة الله وبركاته قد قرأنا ما دبره يرادكم
السبال عن فظائع الطليان وما اقترفته الابدى الائمة من الظلم والعدوان بهذه الديار فاني
وعموم اخواني المجاهدين تقدم لاسامي مقامكم خالص الشكر وعظيم المنوذية . كل ما ذكرتموه
عما اقترفته ايدي الايطاليين هو قليل من كثير وقد اقتصدتم واحتفظتم كثيرا ولو يذكر
للعالم كل ما يقع من الايطاليين لا توجد اذن نصفي لما يروى من استحالة وقوعه . والحقيقة
وانه وملائكته شهود انه صحيح واننا في الدفاع عن ديننا ووطننا صامدون وعلى الله في
نصرنا متوكلون وقد قال الله تعالى : وكان حقاً علينا نصر المؤمنين وعليكم السلام ورحمة
الله وبركاته ، في ٢٠ ذي الحجة ١٣٤٩ هـ انتهى

وما لاحظته الشهيد المشار اليه هو عين الحقيقة فان الناس يصعب عليهم أن يصدقوا أن
جيلا على وجه الأرض يقدم على ارتكاب مثل الشناعات والذنات والفسادات التي أقدم
عليها الطليان في طرابلس ولا سيما الفاشيست منهم . وان الناس لا يزالون يتوقفون عن
تصديق حقائقها وآيات لغرائبها وفرط بعدها عن العقل بحيث كنا كثيرا ما نملك عن الخوض
في هذا الموضوع أمام بعض الأوربيين خشية أن نشتم بالافتراء أو بالبالغة والحقيقة ان كل
ما روينا عنهم وما رواه كتاب « الفظائع السود الحمر » هو قليل من كثير مما لا يمكن
استقصاؤه من أعمالهم في هذه العشرين سنة التي انصب فيها بلاؤهم على ذلك القطر الحزين .
وهذا مما يحس دليلاً مؤكداً على ان الأوربيين عموماً والملائين خصوصاً اذا ظفروا بالمسلمين
لا يرفقون فيهم إلا ولاذمة ولا يعرفون شفقة ولا رحمة

ولما اشتد غضب المسلمين على الطليان مما أتزلوه باخوانهم في طرابلس وتعدوا في كل
ناد يوجب مقاطعة تجارهم خشي الطليان عاقبة هذا الأمر وشرعوا يتوددون الى زعماء
المسلمين وينفقون لديهم كل ما شاع من أخيار ثلاث الفظائع . وكانوا من قبل قد امتنعوا عن
الاعتراف بأبن سعود ملكاً على الحجاز وأخذوا يتربصون به الدوائر ... وقبل انهم مدوا
أيديهم في الخفاء الى أعدائهم ليكوثوا بدأ واحداً عليه فلما أرادوا التزلف الى المسلمين ابتسروهم

أقاعيلهم بأخوانهم في طرابلس أسرعوا الى عقد المعاهدة التي كانوا رفضوا عقدها مع الملك ابن سعود وكانوا تطلبوا لأجل ذلك شروطا نحن أدرى بها لأن المذاكرة وقعت معنا في كل من سنة ١٩٢٧ و ١٩٢٨ وما أمكن الاتفاق يومئذ بما اقترحوا من الصيغ التي لم نوافق على تحريرها في المعاهدة . ثم كانوا من أسرع الدول الى الاعتراف باستقلال العراق ومن أكثرهن مصانعة لملك فيصل بن الحسين . ولقد سمعنا أيضاً أنهم خففوا من وطأتهم في طرابلس وسرعوا بترفضون الى المسلمين بحكم يسبق لهم من قبل وأخذوا من بعض مشايخهم شهادات بأنهم راضون شاكرون ! فأما القانون الذي عرّف في الذين أجلوهم عن أوطانهم البديعة وأراضيهم المريضة في الجبل الأخضر فما أعادوا منهم سوى خمسة آلاف رجل يقال أنهم انما أعادوهم اليها كعملة فيها لا كالكين . ولابد أن ينجلي القبار وتكشف الأسرار ولو بعد حين . على أن اتى فعلة الطليان بمسمى طرابلس لا يجوز للإمة الاسلامية أن تنساه أبداً بدهر اذا كانت تريد أن تبقى في الوجود وبتة در يزيد بن الطائفة القائل :

لا أنقى حسك الضغائن بالرقي فعل الدليل ولو بقيت وحيدا
لكن أجرد للضغائن مثلها حتى تموت وللمحتود حقودا

ولما كنا قد دخلنا في بحث طرابلس و برقة فقد رأينا أن تتمم هذا الفصل بملومات احصائية وجغرافية عن تلك البلاد كما جمعناها في أثناء ذهابنا بنفسنا الى الجهاد في برقة سنة ١٩١١ الى ١٩١٢ وأجمعنا ان تحريرها في كتاب مستقل برأسه الا أن العوائق الكثيرة من نوال الاسفار وتحرير الاسفار وغسير ذلك من الأشغال والمهمات لم تمنح لنا أن نبرز هذا الكتاب الى الوجود . فرأينا الآن أن نلخص هذه المعلومات هنا في هذه الطبعة من هذا الكتاب كما أننا كنا في الطبعة الأولى منه قد ذكرنا كثيراً منها في عرض البحث عن السادة السنوسية وزواياهم . وهكذا لا تكون أبحاثنا هذه المعلومات من فيد التسجيل ثم يعرف المسلمون بواسطة هذا الكتاب ماذا كان يوجد من السكان المسلمين في طرابلس و برقة وكيف كانت معاهد الطريقة السنوسية وغيرها في ذلك القطر يوم شن الطليان الغارة عليه بحيث اذا تغيرت المعام وتبدلت الأوضاع نعرف مقدار الحق الذي ضاع وعسدد العرب الذين خلت منهم تلك البقاع

فتقول ان أهالي برقة ينقسمون الى قسمين حضر وبادية فالخضر هم أهل بنغازي

ودرنه . والبادية هم أهل الجبل الأخضر وما يتجاووه . وهم في الحقيقة نصف بادية ولهم أراضي
كل أراضي الخضراء يحرثونها ويحرقونها وأشجار يخرسونها وإنما هم يعتمدون في الغالب على رعاية
المواشي وعندهم المراعى التي يشتر مثلها في البلدان ويصدرون الغنم والسمن والاقط إلى
الاسكندرية وغيرها

والبلاد التي تسمى « بركة » تبتدى من فم الفج من محل يسمى العصيدة على طريق
سيدي عمر المشمش ممتدة إلى غاية مضاع الكبريت من جهة عمل طرابلس . وثمة بركتان
الخرا ، والبيضاء كلثماهما ضمن قضاء أجنادية

ومن العصيدة إلى غاية وادي أبي الضحاك الذي تنصب مياهه إلى درنة هذا هو الجبل
الأخضر

ومن وادي أبي الضحاك إلى عين الغزالة شرقاً يقال له الخرمة

ومن عين الغزالة إلى وادي بلوك باش إلى الشرق ما يسمى بالبطنان

ومن وادي بلوك باش إلى مركز السلوم يسمى دفنة

ومن السلوم إلى الشرق صارت الديار المصرية فإلى حجاج العقبية ما يسمى بالعقبة

ومن رأس حجاج العقبية إلى المحل الذي يقال له سيدي عبدالرحمن ما يسمى بالعقبة

ومن سيدي عبدالرحمن إلى غاية خشم العيش يقال له المقطوعة

ومن خشم العيش إلى الاسكندرية يقال له مريوط

وأما من البحر المتوسط إلى الداخل فإذا ممددت خطاً من البحر عند بنغازي إلى

وادي الكفرة جنوباً فاتها مسافة ٣٥ يوماً . وإن ممدت خطاً من « دفنة » إلى الجنوب

مستقيماً وقع في واحة جفجف

وعلى مسافة ثمانية من ساحل البحر إلى الجنوب قضاء جالو وأوجيد التابع لبنغازي

وأهل نحو من ستة آلاف نسمة يقال لهم المجاربة ثلثان منهم في جالو وثلث في أوجيد

وفي الجبل الأخضر مياه جارية عذبة كياه جبل لبثان فنها نهر درنة وهو من وادي

أبي الضحاك ويقال له أيضاً وادي المنجر . وهو يجري من عينين أحدهما عين منصور .

وعلى مقربة منها بقي معسكر انور والمجاهدين مدة سنة فأكثر . وتداول على نهر درنة

الأرجية ونكثت في درنة البساتين وكلها سقي . وفيها عدا النهر آبار عذبة . وإلى الغرب من

درنة نهر « ماره » يدور الرضى أيضاً فيه ٢٥ عيناً ومأواه عند رأس نبعه في غابة البرودة والعذوبة تحلقه فبع الصفا في لبنان وعليه بساتين ومزارع ومنتهى درنة مسافة خمس ساعات. ويوجد إلى الغرب من درنة نهر « كرسه » على ساحل البحر. وإلى الغرب من كرسه وادي الأثرون القليلة الشوارع. ثم وادي القليعة. ثم وادي رأس الهلال. ثم وادي سوسة وهي قرية كان فيها مهاجرون من مسلمي كريد. ثم عين شحات أي سيرا في القديمة تبعد عن البحر مسافة ساعتين ونصف ساعة. وشحات جبل مشرف على البحر أشبه بجبال غرب لبنان أو جبال مثن لبنان المتواحة للبحر والماء يتفجر منه من مغارة في أعلاه وينصب من هناك في شفير عال أمامه الفضاء الشام إلى البحر. وعلاو هذا الشفير المقطوع نحو من ٣٠٠ متر. ومنظر شحات بانسراف جبالها واقبالها على البحر وعلاو شفيرها الذي تجري خلاله عين شحات وعيون أخرى هو من أجمل مناظر الدنيا. وأرض شحات القليلة الخاصة التي منها نقر في مرج بني عامر بفلسطين. وفيها زاوية كانت أجمل زوايا السنوسية بينة على حافة ذلك الشفير الشاهق بننا فيها ليلة يوم كنا في جهاد طرابلس سنة ١٩١١ كان شيخها يومئذ سيدي الدرد في من ككبوار الطريقة السنوسية وكان لهذه الزاوية أحسن أراضي شحات. وشحات هذه أو « سيرا » الشهيرة في التدم بناها البيريون من زمان سنة ٩٣٠ قبل المسيح وصارت مدينة عظيمة تضاهي قرطاجنة ونبغ فيها فلاسفة وحكماء منهم أريستيب Aristipp الذي نسبت إليه الفلسفة البيرزية وغيره. وقبل بناها اليونانيون سنة ٩٩١ قبل الميلاد وكان رئيس هؤلاء اسمه باتوس وبقيت دولتهم هناك ٢٠٠ سنة وخرج منها عشرون ملكاً أفضلهم باتوس الثاني. وهذا وغري نهر ماره وادي يقال له « الخبز » فيه عيون كثيرة منها عين اسكندر وعين الحى وعين القبة وعليها بناء قديم مشهور. وقد بننا عندها ليلة في أثناء اختراقنا للجبل الأخضر من معسكر المجاهدين في درنة إلى معسكر المجاهدين في بنغازي. ثم عين أم قديح وعين زاوية بشاره وهي زاوية سنوسية بناها آل فركاش مرربا بها في تلك السباحة. ثم عين الجريولة وأبو شبال في محل يسمى انقرش. وأرض الدرياس فيها عيون جارية منها عين الشيف وهناك قصر قديم فيه بقايا مدافع قديمة رأيت على بعضها تاريخ سنة ١٨٠٤ فيما أتذكر. وللعين ميزاب من داخل القلعة وميزاب وحوض من خارجها ومأوها بارد كأحسن مياه لبنان. وقد بننا عند قبصر

الفيقب هذا ليلة واحدة ونحن صادر ون عن سهل بنغازي إلى جبل درنة . وكان ذلك في شهر أغسطس أي أيار الحر ومع هذا فقد اضطررنا أن نشعل النار أمام خيامنا طول الليل اتقاء البرد . ثم عين لالي فعين الفيدية فعين زوية فعين باطية وكلها غربي درنة على مسيرة يومين للغارس وعليها زرائع وجنان وبساتين . هذا وفي سهل « دفنة » معطن يؤه ينبع من الأرض ^(١) ومعطن في بلوك باش ومعطن في مرسى طبرق ومعطن في العودة غربي طبرق ومعطن في عقيلة أي حسنا وكلها في سيف البحر . وعلى ساحل البحر أيضاً عين الغزالة وإلى الغرب منها معطن اسمه الشقيق ثم سانية التميمي قبلي خليج ميا وإلى الغرب منها عقيلة التميمي ثم أم ارزيم ^(٢) وهي عين ماء نضاجة عليها بستان عظيم وزاوية للسوسية بنا فيها ليلة من أيار رمضان متصرفنا من برقة في أوائل حرب البلقان . وجاعة هذه الزاوية غائلة مطرودة . ثم الخريبة غربي أم مرزم وغربها زاوية أم عفين بها زاوية للسوسية وعين جارية تبعد عن الأولى نصف ساعة . وكل هذه الأماكن مناوذة للبحر على مسافة ساعة ونصف منه . ثم وادي جدين فيه معطن قبلي ملاحة رأس الثين تبعد عن البحر مسافة ساعة ونصف ساعة أيضاً . وإلى الغرب من وادي جدين معطن السويقية . وإلى الغرب من السويقية وادي القراني فيه معاطن عدة . وإلى الغرب من القراني عين مرطوبة غريبة عليها أشجار وزرائع وهناك زاوية عظيمة للسوسية بنا عندها إبلية في طريقنا إلى معسكر انور في عين منصور . وغربي مرطوبة وادي بلغراف فيه معطن وهذه الأماكن هي على مسافة ثلاث ساعات من البحر . وغربي بلغراف وادي باليفا وإلى الغرب منه عيون البقر خمسة معاطن وثلاث آبار . وغربي عيون البقر وادي المنجر الذي فيه عين منصور الذي كان فوقها مخيم أنور أيام جهاد طرابلس سنة ١٩١١ إلى ١٩١٢ مسيحية وجميع هذه المياه هي في أراضي قبيلة العبيدات

وأما مدينة درنة على ساحل البحر فهي بلدة شامية في مياهها وفواكهها ورزاقها وفيها التين والمان والعنب والنخيل والتفاح والكمثرى ورماتها موصوف بنجودنه . والعنب أنواع كثيرة منه الزبيبي وبيض الحمام والتركي والبيوضي والسودادي وزرق

(١) المطن في اللغة مناخ الأبل حول الماء

(٢) والأرزم الريح ويوز أن يكون أم مرزم وهي بمعنى الريح أيضاً

الطير وغيرها

هذه نبذة مما علمناه من المعلومات الجغرافية المتعلقة بالجيل الأخضر وما أخذناه من أفواه الثقات من أهل تلك البلاد . وأما طول هذا الجبل من الشرق إلى الغرب فقد سرنا من أول الجبل مما يلي زاوية مرطوية إلى سهل مدينة بنغازي في ١٢ يوماً كل يوم كنا سير من ست إلى سبع ساعات . وقيل لنا إن عرضة من البحر إلى الصحراء مسيرة يومين . وهو اسم طابق مسماه اذ كيف توجهت وفع نظرت على مروج خضر كالزمرد وغاب اشبه متلف عظيم السرح فينان المروج يسير الزاكب مسالوف طوالاً بالأيام لا بالساعات وهو في ظل الشجر . وقيل لنا انه طالما شئت النيران في الغابات فبهيت تأكل منها أياماً ولم يشعر الناس أنه نقص منها شيء . ويروي عن سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه لما فتح مصر ومنها سار إلى بركة وطرابلس وفتحها لم يعجبه مكان كالجيل الأخضر وقال : لولا أموالى بالحجاز ما اخترت مكاناً للإقامة الجبل الأخضر . وأكثر الشجر الذي هو في هذا الجبل هو من الأرز والصنوبر والعفص وفيه غابات عظيمة من الزيتون البرى وفيه أشجار باسقة كثيرة متنوعة تعلو الشجرة منها نحواً من ٢٠ إلى ٢٥ متراً . فلا عجب اذا توجهت رغبة الظليان إلى استعمار هذا الجبل بنوع خاص وكانوا قد رأوا الوسيلة الوحيدة لانفرادهم بخيازته أن يحلوا عنه جميع قبائل العرب التي تسكنه . ويغصبوا تلك الأراضي من أيديهم غصباً ويصير وهم إلى فلول لا ماء ولا كلاً إلا ما قدر ليكون مصيرهم الانقراض ولا يبقى على الظليان خوف من كره العرب عليهم لاستزجاع أراضيهم

وأما قبائل العرب التي هناك فكلهم جاءوا من جزيرة العرب في أيام الفاطميين كما سيأتي . ولقد تبدلت أسماء الكثير من بطونهم وأغادهم بمرور الأيام ونحن نذكر الآن أسماءهم وتقاسيمهم على حالتهم الحاضرة ثم نعقب ذلك بأسمائهم وتقاسيمهم في الأعصر الماضية للمقابلة بين القام والفاطر فنعول :

هؤلاء العرب ينقسمون إلى قسمين الأول يقال له « السعدى » والثاني يقال له المرابطون . والفرق بينهما أن السعدى أشبه بالعلامات الممتازة أو الحاككة وإن المرابطين أشبه بالاهالى الذين تحت الحكم . واسمى القبائل الممتازة بالسعدى هي أن عقار قد ولد هذه القبائل من سعدى وهي امرأة هلالية فيكون بنو هلال احوال السعدى

هكذا يروون . فالسعدى منهم القبائل التي يقال لها ولد على وكل هؤلاء في داخل الديار المصرية منتشرون من مربوط إلى السلوم . وهم ثلاث فرق أولاد على الأبيض وأولاد على الأحمر وأولاد على خروف . وهؤلاء أولاد على خروف من فروع أولاد على الأبيض . وأشهر بطون أولاد على الأبيض الصافرة والمقاورة والموانمة والعجائمة والافراد . وأما أولاد على الأحمر فهم القيسات والحشيبات والكميلات وأبو سنية وهؤلاء ينقسمون إلى أنفاذ العراوة والقطيعة والمخافيط

ولأولاد على مرابطون أي جميع كما للقبائل السعدى التي في برقة ومرابطون أولاد على هم العوامنة والزعيرات والموالكة وحيتون والحونة وسمالوس والمنقة وكنهم في أرض مصر وأولاد على مع مرابطيهم يبلغون نحواً من مائة ألف نسمة ولهم نحو من عشرين زاوية يديرها السادة السنوسية كل فرقة منهم تخصص بزاوية

ثم من السعدى القبائل المسماة « بالحراني » وهم ضمن حدود برقة وهؤلاء ينتسبون إلى حرب بن عفار من ولد سليم بن منصور من العرب العدنانية وهم عدة قبائل العبيدات والبراعة والخاسة والدرسة وفائد

فالعبيدات ينقسمون إلى بطون منها عائلة غيث ومنها عائلة مريم الذين في جوار طبرق كان منهم شيخ مشهور يقال له المبرى استشهد في واقعة مع الطليان قبل وصولنا إلى هناك بقليل . ومنهم البنيان ومنهم العواكلة أي شاهين وشوكل وهذان البطان يقال لهما عائلة عبيد . ومنهم مسعودة وهم عدة عائلات عائلة منصور وعائلة قابس وعائلة أبي ضاوي وعائلة مباركة وعائلة أبي جازية وعائلة عبدالكريم وعائلة رفاد وعائلة المييط . ومن العبيدات أيضاً عائلة مزين (بضم ففتح) والعلافة والعدال والشرائع وعبيد

وعدد رجال غيث نحو من أربعة آلاف مسكنهم من القيقب في وسط الجبل الأخضر إلى حد دونه شرقاً . وعائلة مريم عددهم ١٥٠٠ رجل مسكنهم من طبرق إلى دونه . والعواكلة عددهم أربعة آلاف مسكنهم من القيقب إلى دونه . والشاهين ثلاثة آلاف منزلهم من الخيلة إلى السلوم . وعائلة منصور من درنة إلى أم مرزم شرقاً وهم ثمانية آلاف والقرب منهم قابس وهم خمسمائة . وأبو ضاوي زهاء ألفين منزلهم غربي درنة بجوار زاوية بشارة . ومباركة عددهم ألف في ناحية القبة غربي أبي ضاوي . وأبو جازية شرقي درنة في ناحية خليج ممبا

عند زاوية مرطوية وهم ١٥٠٠ ويلبهم عبيد السكريم وهم ألب وخمسةائة أيضاً . ويلبهم
رفاد وهم كذلك ١٥٠٠ رجل . ويلبهم الميظ وهم ٥٠٠ وكلهم في ناحية بمبا

وأما عائلة مزين في سبخة رأس العين من بمبا وعددهم زهاء ألفين . وأما العلاقة
خمسةائة منهم فريق بالفرش غربي درنة وفريق من البطان غربي طبرق . والعدال ألف
رجل وهم ينزلون بغرب العلاقة

ومن العبيدات عدد غير قليل في الديار المصرية . فالشرائع منهم ثلاثة آلاف ويقال
أكثر في الفيوم . ومن عبيد وعائذ مريم نحو من ١٥٠٠ في الفيوم أيضاً . ويقال ان من
العبيدات خمسة اسمهم الرزنا نحو من ١٥٠٠ في الفيوم أيضاً . ومن العواككة في الفيوم
وفي كفر الزيات ١٥٠٠ رجلاً . ومن الشاهين فريق في الفيوم يقال لهم الشلفات . ومن
أبي جزيرة نحو ٥٠٠ في الديار المصرية . ومن رفاد زهاء ٩٠٠ في دمنهور ومن مزين ٥٠٠
في البحيرة ومن عائلة مريم ٥٠٠ في طنطا ومن العلاقة في العقبة والفيوم والبحيرة ألب
وخمسةائة رجل ومن العدال ألب رجل في الفيوم وفي مربوط

وبالجيلة يبلغ عدد قبيلة العبيدات في الجبل الأخضر والديار المصرية من ٢٠ الى ٤٥
ألف مقاتل هذا بحسب الروايات التي تلقيتها من المرحوم صالح مركبوه من وجوه درنة ومن
عمره من العارفين بأحوال ذلك القطر لأني حيث حللت كنت أسأل وأبحث
وقد روي أيضاً ان العبيدات يتقسمون الى ضنى بنبنة وضنى واعرفن ضنى بنبنة
العواككة والشاهين . وان العواككة منهم عائلة بركات وعائلة خليل وعائلة سحج وعائلة أبي
سيخنة وعائلة عبيد السكريم وعائلة سعدى . ويقال ان أصل العواككة من حرب من الحجاز .
وقيل لي ان العواككة والخوانه والجرارة والفراكي كلهم من سليم بن منصور
ولما الشاهين فعائلة المجاوم وعائلة غاضرات وعائلة حبيب

وبنوت عائلة غيث عائلة الخادم وعائلة الفضيلة وعائلة حسين الفرخ وعائلة إبراهيم
الفرخ وعائلة الصغير وعائلة أبي نظارة وعائلة جبر وعائلة عويضة وعائلة عبد الله وعائلة محمود
وعائلة ابن صيت وزاويةتهم زاوية نرت . وكان شيخها يوم كنا هناك سيدي محمد الغزالي -
وقيل لي انهم يناهزون عشرة آلاف رجل

وعائلة غيث هم من ضنى واعرف . وكذلك من ضنى واعرف مسعوده أي عائلة منصور

ورفاقها ومن ضنى واعر عائلة مريم وعائلة مزين وعبيد . ويقال ان العالفة والعدال لبوا
 في الأصل من العبيدات وانما انضموا اليهم والتحقوا بهم
 وللعبيدات مرايطون كما تقدم . وهم كثير و العدد مثل العبيدات وربما أكثر فثمة
 قبيلة القطعان وأولهم الرحامنة منهم ستة آلاف رجل بين دفنة والعقبة . ويلبهم عائلة بريدان
 وهم ثلاثة آلاف رجل منهم الثمان في العقبة ودفنة والثلاث في أبي حص مصر . ومن القطعان
 عائلة أبي سعيدة وهم زهاء الفين في دفنة والبطنان ومنهم نحو الف في مربوط والبحيرة . ومن
 القطعان الرخامي منهم ٥٠٠ بناحية بمبا ونحو من الف نازلون بين العقبة ومربوط . ومن
 القطعان المعابدة منازلهم من العقبة الى مربوط وهم نحو من ثلاثة آلاف . ومن القطعان عائلة
 الفزار نحو من الفين في العقبة أيضا . ومما يرويه الناس هناك أن القطعان هم من ذرية
 كعب الأخبار

ومن مرايطي العبيدات المنفة وهم خمسة آلاف رجل منهم العلوم ومنهم مسيكة ومنازلهم
 من البطنان الى مصر . ومنهم عائلة الخائب زهاء خمسمائة في برقة ومنهم عائلة الحاج رجب
 المنفة في برقة وهم نحو من الف

ويقال ان اصل المنفة هؤلاء هم من بني حلال الا عائلة المقوري فانهم أشرف
 هاشميون ومن مرايطي العبيدات الموالك منازلهم من دفنة الى مربوط ويقال انهم نحو من
 خمسة آلاف ومن مرايطي العبيدات عائلة عبد الواحد الجرارة مسكنهم بدفنة والعقبة وهم
 ١٥٠٠ رجل وعائلة عبد السميع عددهم الف رجل بين دفنة والبطنان . ومنهم عائلة أبي سلمة
 زهاء ٦٠٠ في البطنان ودفنة . والسفينة زهاء الف هناك أيضا ومنهم أناس في بر مصر
 ومن مرايطي العبيدات قبائل الحونة منهم عائلة البيداني الف رجل بالجبل الأخضر
 ثم الجبيبات وعددهم أيضا نحو ألف ومسكنهم بالقيقب في الجبل الأخضر . ثم الصوانع
 وعددهم ٥٠٠ رجل ثم الدقش وعددهم ٢٠٠ وهم أيضا من سكان الجبل الأخضر . ثم الحونة
 النخوفة أكثرهم في بر مصر ومنهم فرقة بالبطنان زهاء ٥٠٠ أما الذين في بر مصر فنمازلهم
 من العقبة الى مربوط وهم يتأخرون ستة آلاف رجل . ثم المرازقة وهم في البطنان نزرا نحو
 من ٥٠٠ ولكن في أرض مصر يبلغون خمسة الى ستة آلاف . ثم الترسات وهم زهاء الفين
 من العقبة الى البحيرة

ومن مرابطي العبيدات الشواعر منهم الغوالب عدهم ألف رجل وهؤلاء في دفنة
ومنهم ألف أخرى في داخل حدود مصر . ومنهم شواعر قطينة وهم أيضاً في دفنة وعدهم
يبلغ الألف ومنهم ألف أخرى بين العقبة ومريوط . ومن الشواعر الوداس وهم زهاء ٢٠٠
في دفنة ومنهم ٥٠٠ من العقبة الى مريوط . ثم عائلة زائدة الشواعر ٥٠٠ في وادي درنة و ٥٠٠
من العقبة الى مريوط . وقبيلة عمر الشواعر نحو من ألف في الجبل الأخضر ومنهم نزل في
مصر . ثم العائلة بالجبل الأخضر وهم نحو من ألف والعسيرات وهم ٥٠٠ ومسكنهم في الجبل
الأخضر والقطوارسة ومنهم ألف في دفنة والبطنان وألف أو أكثر من العقبة الى مريوط .
وكل هؤلاء هم الشواعر وهم جميعاً زهاء عشرة آلاف مقاتل .

ومن مرابطي العبيدات الزعيرات ومنهم ٢٠٠ في بجا و ٨٠٠ في بر مصر وعائلة القرى
سكنهم بجا وهم فيها ٥٠٠ ومنهم بمصر نحو من ألف

ومن مرابطي العبيدات الشلاوية ومنهم نحو ٢٥٠٠ داخل الجبل الأخضر و ٥٠٠ في
أرض بجا ومنهم ألف في مديرية البحيرة بمصر . والنراكي وهم في الجبل الأخضر وعدهم
ألف رجل . وهناك قبيلة اسمها القبائل منهم بالجبل الأخضر ألفان وخسمائة ومنهم بأرض
مصر ٥٠٠ رجل . وجميع مرابطي العبيدات في الجبل الأخضر ومصر يناهزون سبعين
ألف مقاتل حسبما روى لي الثقات وعليه يكون العبيدات مع مرابطيهم نحواً من مائة وعشرة
ألف وأكثر أي يزيدون على أولاد علي

وقيل لي في تصنيف العبيدات رواية أخرى تختلف عن الأولى وهي أنهم من ثلاث
سلاتل ضنى سعدى وضنى أبي امامة وضنى غيث . وقالوا : إن سعدى من بني هلال وزوجها
هو عبيد فالعبيدات أخواتهم بنو هلال . قالوا : وضنى سعدى منصور وقابس ومباركة وأبو
ضاوي وعبد الكريم وأبو جازية ورفاد . قالوا وضنى أبي امامة عائلة مريم ومزين وحبيده
ويوسف والعبيدي والثور وفاطمة وأبو جود وصالح . قالوا : وضنى غيث هم عائلة عبد الله
وهو أكبر ولد غيث ثم عائلة محمود ثم عائلة الرجا ثم عائلة أبي فضيلة ثم عائلة ماضي ثم عائلة
الحادم ثم عائلة جبر غويضة ثم عائلة جبر مطيريد ثم عائلة إبراهيم الفرخ ثم عائلة حسين الفرخ
ثم عائلة بصيص الفرخ ثم أبو نضارة

قالوا : والبنان هم العواككة والشاهين . فالعواككة هم عائلة بركات بلجا وعائلة سميع

وعائلة عبد الكريم ودادي والأبعج ودادي وخليل ودادي والهيث ودادي وعائلة مريكب وعائلة
مقعور الطافية والخالصة

والشاهين عائلة ذويب وعائلة المعلوم وعائلة غاصرات وعائلة حبيب وعائلة جبره وعائلة
الأعور وعائلة أبي قفة وعائلة أبي قوبة

هذا وقد سألتنا حديثنا على أفندي العواككة قائم مقام قسبة المرج أيام جهاد طرابلس
عن نسبه في العواككة فقال : علي بن حامد بن سعيد بن صالح بن سميع بن فكري بن سعيد
ابن اندريس بن أبي عوكل بن عبيد بن حرب بن عقار من بني سليم

وقيل لي في مرابطة العبيدات أنهم القطعان وهم الرحامنة وأبو سعيدة والفزار والرخامي
وزاغوت وأبو ترجي والمعبدة ويريدان والتراكي وقبيلة اسمها القبائل واللماسة وعائلة عمر
الشواعر وعائلة زائد الشواعر وعائلة سليمان المرخي الشلاوية وعائلة علي الشلاوية وعائلة
الخواجه وعائلة اسرافيل وعائلة بركاك وقبيلة القوانع وعائلة النعيمه والجهدي وقبيلة الحونة
منهم الجرارة والنقوف والمرافقة والطيرة والمقاي والشرسات والعميرة وعائلة بلل والسفينات
والديداني وكل هؤلاء ضئي حويت . وأولاد منيف أو المنفا وهم ميكة وعدوم فالملية
الكحشاش وعائلة سباق والديابنة وعائلة المصمود وعائلة أبي خديجة وعائلة المقوري
والجحشاش . وأما المعلوم فعائلة رجب وعائلة الجزائر وعائلة الخشاب وعائلة علوش والعرايات
والرقبوات وعائلة الغضارف وغيرها

هذا ما نذكره عن قبيلة العبيدات أكبر قبائل الجبل الأخضر ومرابطتها وبعود أبي
القبائل الأخرى من الخراف وتسكلم عن الحاسة فنقول :

الحاسة ينقسمون إلى فساسمة وقلاطة . فالقباسمة هم الشباركة والبخايت هم الذين
منهم عشيرة الحاسي الزعيم المشهور الذي كان في مرج ابن عامر بفلسطين ولا تزال ذريته
فيها وهم الحامدة والمواسي . فالشباركة هم عائلة عبيد الله وعائلة مغانة ثم إن عائلة عبيد الله هي
عبارة عن عائلات غزالة وعقيلة وأبي قفة ونائف والأعور وشريعة والميار وجبر وشدة وأبي
محبوبة وزلمط وغوزي والمجنم وأبي الكسبرات .

وأما عائلة مغانة فهي عبارة عن عائلات موسى الفيشي ومني وسعيد والرقاعة وأبي
جطيلة وخالد

وأما البخايت فهم عائلة غريز والنوازرة . فعائلة غريز هم عائلة عمر وأبي حناء
وأبي عيسى والنكاح والعبورة . وأما النوازرة فعائلات الجماعة وعبد الصادق وبرعاص
والطويل وعبد الخاكم وأبي قتيلة

وأما القلابطة فهم المحامدة وهؤلاء هم عائلة ابراهيم وعائلة المساطل فعائلة ابراهيم هم
عائلات المرتبط وهيبة وكش والقريه . وأما المساطل فهم أبو كصفية والدويلى والسليخ
وعائلة بالرعى وعائلة وافي

ثم ان القسم الثاني من القلابطة هم المواسي وهؤلاء فريقان عائلة تقو وعائلة الحرار
فعائلة تقو هم الرفادى وسعد وعائلة الحرار هم أبولوية وحويج وأبو سداة .

وأما الحامد فسكهم زهاء تسعة آلاف رجل منهم ثلاثة آلاف شباركة والفان بخايت
وأربعة آلاف قلابطة نصفهم محامدة والنصف الآخر مواسي . ومنازل الحامد أجمل منازل
الجبل الأخضر شجرات وسوسة والمرباس عربى درة

والحماسة مرابطون منهم مسامير الرزفة منهم فى الجبل الأخضر ومنهم فى ببا شرقى
درة وعددهم ألف وخمسة رجل . ومن مرابطيهم اسماعيل المسامير بجوار شجرات زهاء
خمسة رجل . ومنهم اسماعيل التراكى مائة رجل بجوار القيف . ومنهم أبو ربيعة ٢٠٠
رجل بجوار القايدة

ومن أهم قبائل الخرايى قبيلة البراعة

وهم قسبان احد وجليد . فليد تزوج خضرا ومغيرية . فولدت خضرا عائلة خضرا
الذين بالقيوم . ومغيرية ولدت طامية الذين منهم حدوث وجلفاف وزائد والجويقي وعبد
الرحمن وعائلة عبد ودائحه وحليمة والينامى والمساعد وعائلة عريف وعائلة خزاعل . ومن
باطون البراعة أولاد أحد وهم الطلوح والظواهر وقتنول وقائل وبلدان ومنهم عائلة حسين
البراعة . وعدد الجميع يتجاوز العشرين ألف مقاتل وقيل لى ان البراعة فيهم أناس من
بنى جمار اشراف حسينية أصلهم من السوارقية بقرب المدينة المنورة وقيل لى ان أصل
البراعة هو هكذا :

شريف اسمه حميد بالثديد من ذرية سيدى عبدالسلام بن منيش من أولاد نائل
من أهل السافية الحرا من المغرب الأقصى جاء قاصداً الحجاز للحج فرأى على الجبل الأخضر

وكانت امرأتها حاملاً فلم يملكها اكمل الطريق الى الحجاز فتركها في بيت أحد الخراي من أهل الجبل الأخضر وذهب الى الحج وتوفي فيه وولدت امرأته بعده ولداً اسمه برعاص لأنه كان متحركاً جداً^(١) وهو طفل . فبرعاص ولد مسعوداً وحسيناً وعبد المولى ومخالب بن ذرية مسعود حليلة وضامية وجلعاف وحسوت ومنهم عائلة عريف واليتامي وعائلة خزاعل وذرية حسين وذرية عبد المولى وقد انقرضت ذرية مخالب ، وأما ذرية أحد الخراي فهم الطلوح والظافر وفندول

ولما كنت في معسكر أنور بعين منصور أردت السفر الى معسكر بنغازي وكانت لي معرفة بسيدي محمد العلعي شيخ زاوية البراعصة ومن أشهر السادة السنوسية وكبار رجال هذه الطريقة فكلمت معدي أن يجدي لي من عند جماعته ظهراً لنقل خيامي وأسياني فاستأجر لي رجلاً من البراعصة اسمه علي بن محمد من عائلة حسين وحمل هذا أئاماً على جهالة وفي أثناء الطريق مال بنا على تجمع وسأله عن نسبهم في التجمع الذي استرحنا فيه فقال لي : انه علي بن محمد بن علي بن يوسف بن أبي خثيم بن عبد بن القادر بن علي بن محمد بن حسين بن برعاص . فخرنا ان برعاص قد عاش في أواسط القرن الحادي عشر للهجرة . وللبراعصة مرابطون السعيط والعواملة والحسانة والعلاونة وهم عدة آلاف

وأما المدرسة فيقال انهم أولاد لدر بس ولد عتار بن حرب . ولقد خلف عائلة عادل وعائلة حامد والخشبات وعائلة مسعود وعائلة عبد وعائلة حسين أبي غويند وعائلة السريريك وعائلة دغار وعائلة الشاهاني وعائلة داخه وعائلة الحجازيات . ومجموع المدرسة نحو عشرة آلاف مقاتل وقيل ١٥ ألفاً ومنزلهم عند زاوية القصرين والعرقوب ومنهم فريق في جهة بنغازي ولهم تسع زوايا من الزوايا السنوسية كل غدة منهم له زاوية وأما قائد من الخراي فائدة رجل لاغير وكانوا قبيلة كبيرة لكن على أثر عداوة بينهم وبين العواقيم جلاأ أكثرهم الى مصر وهناك قبيلة البراغيت وهم برغوث الكبير والعبيد والمراطينة ويقال لهم البراغيت

الحر والبدور والعبادلة وهم يتجاوزون عشرة آلاف
وبين مساكن البراعصة من جهة الغرب وبين قصبة المرج قبيلة يقال لها المسامير مستقلة بذاتها يقال أصلها من الاشراف

(١) برعص اضطرب وتحرك تحتك وقيل البرعص هو اضطراب العضو المنقطع

هذه تقاسيم قبائل الخراي ومرابطيهم بقدر ما وصل اليه علمنا . وهناك فريق آخر من عرب برقة يقال له الجبارة أي أولاد جبرين وهم العواقر والمغاربة والعرفا والعبيد والعريبات ووطنهم بلاد بنغازي

فالعواقر ثلاث فرق : السديدي وإبراهيم ومطوع ، فالسديدي أربعة عشر بطناً : عائلة سليمان وعائلة العبار وعائلة عويدي والفوارس والعمارة والحداودة وعائلة ماضي وعائلة راسخ والتواجير وعائلة غرييل وعائلة دينال وعائلة الأديرع والقطارنة وسعيط

وعائلة إبراهيم هم عائلة الآواني وعائلة العمق وعائلة النمر وعائلة هذيلة وعائلة الخلاق وعائلة فنفوذ وعائلة غازة وعائلة مشري والبراغنة واليدور وعائلة الغزالي وسعيط الشمول

وأما مطوع فهم عائلة صالح والعشيبات والكواديك وعائلة الوزري والخفيفات وعائلة صالح ودرمام وعائلة زويد وعائلة علي والتضيدات والعبادة وعائلة درقة وعائلة فرانس وعائلة القطعانية وعائلة الخشمي وعائلة السويدي والعامرة ومبيدين والشريطرة وعائلة معيوف وأما المغاربة فهم الرعيطات وعائلة علي وعائلة عليوة وعائلة صبيح والعقارب وعائلة

الأسود وعائلة الباسل والقبائل والمشيطات والعريبات

وأما العرفا فهم السلاطنة والطرش . وأما العبيد فهم عائلة شعوبه والباشي وعائلة الدتاني وعائلة أبي شلوفة وعائلة حماد

والعواقر من أكبر القبائل يناهز عددها ثلاثين ألف مقاتل فأكثر وأكثرها عددا السديدي ثم عائلة إبراهيم ثم مطوع ومنزلهم من مدينة بنغازي إلى مسوس جنوباً وهي مسافة ٢٤ ساعة ومن الشرق إلى الغرب مسافة ٣٠ ساعة . وأما المغاربة فيقال إنهم ٢٥ ألف مقاتل ومنزلهم من اجدانية إلى عمالة سرت ومنهم كثير في نفس سرت ويسير الإنسان في أراضيهم خمسة أيام من الشرق إلى الغرب وأما العرفا فعددهم ألف وخمسمائة ومحلهم المرج . وأما العبيد فهم ثلاثة آلاف ينزلون قبلي المرج

وللعواقر قبائل تابعة أو مرابطون فالسديدي مرابطونهم الشهبات وعائلة إبراهيم مرابطونهم الفواخر . ويقال إن الشهبات هم من ذرية الصبحاني سيدنا عكاشة . ويقال إن الفواخر هم من عرب البامة . ومن مرابطي عائلة إبراهيم الجرارة ومن مرابطي عائلة صالح من منطوع بعض من المنقة . ومجموع مرابطي العواقر ٢٠ ألف مقاتل

ومن عرب بركة الحلالات وهي قبيلة مستقلة بذاتها نحو من ٢٠٠ رجل
والذكر الآن قبائل عرب بركة حسبها كانت في القديم نعلم مراجع أنسابها ونقابل
القديم بالخاضر فنقول :

يجد في كتاب « نهاية الارب في معرفة قبائل العرب لمقلقتندي » مايلي :

« بنو أحد بطن من بني هيب من سليم من العدنانية مساكنهم مع قومهم هيب في
أطراف بركة بما يلي الغرب . قال ابن سعيد : وطم اجداينية وجهاتها وهم يربهم حجاج المغرب »
قلت : لا يعد أن يكون بنو أحد هؤلاء هم أصل القبيبة التي تسمى اليوم المقاربة
والتي لها اجداينية وجهاتها . ثم ان من البراعة فرقة يقال لها بنو أحد هم أصل قبيلة البراعة
كما تقدم الكلام عليه . ويوجد في ترهونة من تولى طرابلس قوم يقال لهم بنو أحد
لا ندري هل هم منهم أم لا ؟

قال : « وأولاد سلام بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم بركة »
قلت يوجد الآن في بركة الجراء عائلة سلام
قال : « أولاد محمد بطن من صبيح من فزارة من العدنانية ومنازلهم بلاد بركة وهم
فرف في كثيرة » قلت : يوجد اليوم قوم اسمهم الصبيحات في الغوارشة في الطرف الغربي من
مدينة بني غازي ويخرج منهم هناك سنانه مقال
قال : « البركات بطن من لبيد من سليم من العدنانية ومساكنهم مع قومهم لبيد
بلاد بركة »

قلت : يوجد الآن البركات في أطراف كمينس غربي بنغازي على مسافة عشر ساعات
منها . ثم ان في ترهونة وفي مصراطة أقواماً اسمهم البركات وأهم بادية مصراطة منهم وكذلك
منهم أتاس في سرت

قال : « البشره بطن من لبيد أيضاً ومنازلهم مع قومهم بركة أيضاً »
قلت : لا نعلم من الناحية المسماة « بشارة » في الجبل الأخضر في أرض العبيدات
منسوبة اليهم أم لا ؟ فيحوز أن تكون « بشارة » ممدودة من « بشرة »
قال : « البلايش بطن من سليم من العدنانية منازلهم بلاد بركة »
ثم قال : « الجراشنة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم بلاد بركة وهم غير

الجواشنة الذين مساكنهم الخوف من الشارقة بالنيار المصرية لأن الجواشنة هؤلاء (أي الذين بمصر) هم بطن من الحيديين من غلبا سويد من جدام من العرب الفحطانية
قلت : يوجد الآن فرقة من قبيلة المغاربة المارة المذكور يقال لها عائلة أبي خنادة منهم قوم السهم الجواشنة

قال : « الحداثة (بتشديد الدال الثانية) بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم بلاد بركة »

قلت : يوجد الآن الحداثة من العواقر ويوجد حداثة في نفس بنغازي ويوجد حداثة في مصرطة

قال : « الحداثة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم بركة »
قلت : يوجد الآن حداثة في جهات اجداية

قال : « الفحوص بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم بلاد بركة »
قلت : موجودة الآن عشيرة اسمها « الفحاصي » شري بنغازي لعلمهم هؤلاء

قال : « المروغ بطن من لبيد من سليم من العدنانية مساكنهم بلاد بركة مع مهم »

قلت : موجود الآن عائلة الاديرع من فرقة السديدي من العواقر . وما لا يجوز أن يساه أن أسماء العائلات والقبائل تتغير وقد تتحرف عن أصلها . مما لا يجوز أن نذكر في القبيلة كثيراً ما يدخل فيها أقوام ليسوا منها في الأصل ثم يتحدجون فيها ثمأ
قال : « الرقيعات بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم مع قومهم لبيد بلاد بركة »

قلت : في الحاسة اليوم عائلة الرقاعة

ثم قال : « الزراير بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم بركة »

ثم قال : « السبوت بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم بركة »

ثم قال : « السوالم بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم بركة »

قلت : يوجد الآن عشيرة اسمها السوالم في عائلة مطلوع من العواقر منهم بأرض بنغازي ومنهم بمصرطة

قال : « الشبله بطن من ليبد من سليم من العدنانية بلادهم بركة »
 قالت : يوجد الآن جماعة اسمهم « الشبله في قبيلة المغاربة باجدانية »
 قال : « الشواعبة بطن من ليبد من سليم من العدنانية منازلهم بركة »
 قالت : في قبيلة المغاربة عائلة اسمها الشعيبات
 قال : « الشعوب بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم بركة »
 قالت : في الدرسة الآن عائلة شعيب وفي المغاربة الشعيبات فلا تعلم هل الشعوب هم هؤلاء أم أولئك أم هو تشابه أسماء ؟

قال : « الشنعة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح بلاد بركة »

قالت : لا أعلم هل هي بنون فغين أم بنون فعين أم بحرفة وأصلها « شععة » لأنه
 سيأتي أن من فزارة بطن اسمهم الشععة

ثم قال : « الصريرات بطن من ليبد من سليم من العدنانية منازلهم بركة »
 ثم قال : « العقيبات بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح بلاد بركة »

قالت : في غربي بنغازي اليوم قوم يقال لهم العقيب.
 قال : « العوامي بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح بلاد بركة »

قالت : من العوامي اليوم في نفس بنغازي وفي ترخوتة
 قال : « العواكلة بطن من ليبد من سليم من العدنانية منازلهم مع قومهم ليبد بركة »
 قالت : قد تقدم أن العواكلة فرقة من العبيدات يسكنون القيق وسط الجبل الأخضر ومنهم الجبالية بكفر الزيات بمصر

قال : « العلاوة بطن من ليبد من سليم من العدنانية منازلهم مع قومهم ليبد بركة »
 قالت : بلغني أنه يوجد علاوة في ناحية غربان بخرابلس ثم انه تقدم كون العلاوة
 من مزابني البراعة في الجبل الأخضر

قال : « العلاوي بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح بركة »

قلت : وفي العواقر عائلة « عليه » فربما كان العلاوى هم هذه العائلة
ثم قال : « العشاشمة بطن من صبيح من فزارة منازلهم مع قومهم صبيح بركة »
قلت : ويقول القلقشندي نفسه في صبيح الاعشى : « ان فزارة هو ابن ذبيان قال
في العبر : وكانت فزارة بنجد ووادي القرى ولم يبق منهم بنجد أحد ونزل جيرانهم من طي
سكانهم وذكر بأن بأرض بركة الى طرابلس الغرب منهم قبائل راحة هيب وفزارة قال :
وبافر يقية والمغرب منهم الآن احياء كثيرة اختلطوا مع أهل (الى أن يقول) : ومنهم مع
سليم بافر يقية طائفة أخرى أحلاف لأولاد أبي الماي من كهوب بني سليم يستظهرون بهم
في مواقف الحرب وقيمومهم لأنفسهم مقام الوزراء للملوك . (ثم يقول) : وفي بركة يناد
هيب جماعة منهم فازلون بها ومنهم طائفة بسجراء المغرب »

قلت : لم أجده اسم « هيب » الآن إلا اسم فرقة من العواككة يقال لها « الهيب » يغلب
على الظن انه بقية الاسم القديم الذي كان أعم وأشهر . والأسماء كالسميات تلتقي وتبعد
ثم قال : « القيووس بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم
الادبرقة »

قلت : وفي أولاد علي مر بنا اسم فرقة يقال لها القيسات إلا أن تكون مسحقة
ثم قال : « اللواحق بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم
الادبرقة »

ثم قال : « المسورة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم
الادبرقة »

قلت : من المسورة الآن في نفس درنة وفي مصرطة
ثم قال : « المسامير بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم
الادبرقة »

قلت : تقدم ذكر قبيلة مستقلة بنفسها اسمها المسامير تنزل الجبل الأخضر وبطن
أن أصلها من الأشراف . فإن كانت هي البطن الذي ذكره بحسب هذه الرواية لبست من
الأشراف القاطنين إلا أن يكون دخل فيها بيت منهم كالجري كثيراً بين القبائل . ثم من
مرايطي الخامسة قوم اسمهم المسامير . فأى المسامير هم الذين أشار القلقشندي الى أنهم بطن
من صبيح ؟ الجواب عنه متعذر

ثم قال : « المواقدة بطن من صبيح من قرارة من العدنانية مسا كنهم مع قومهم
بازد بركة »

ثم قال : « المقادمة بطن من سلم مسا كنهم الجيزة من الدار المصرية ومنهم بركة
والامرة فيهم الآن لأولاد التركية من بني فائد »

قلت : يوجد اليوم في العواقر عائلة اسمها « المقادمة » وأما « التراكي » فهي قبيلة
من قبائل الجبل الأخضر تعد من مرابطي العبيدات . وللمخاضة مرابطون يقال لهم بنو
السماعيل التراكي

ثم قال : « والمواسي بطن من صبيح المندم ذكرهم مسا كنهم بركة »
قلت : اليوم من الحاسة فرقة كبيرة اسمها المواسي . وفي المغرب الأقصى قبيلة اسمها
المواسي

ثم قال : « المولى بطن من لبيد من سلم من العدنانية مع قومهم لبيد بركة »
ثم قال : « اللبلة بطن من لبيد من سلم من العدنانية مع قومهم لبيد بركة »
ثم قال : « الذخاحسة بطن من صبيح من قرارة من العدنانية مع قومهم بركة »
قلت : الذخاحسة وقد يظنونها النعاسة قبيلة معروفة اليوم في ناجورة طرابلس
قال : « النوافلة بطن من لبيد من سلم من العدنانية مسا كنهم بركة »
قلت : في جهات اجنادية وممرت قوم اسمهم النوافلة
ثم قال : « بنو بعجة بطن من هلال بن عامر بن صعصعة . قال ابن سعيد : منازلهم
بين مصر وأفريقية »

قلت : سمعت أنه يوجد اليوم بنفس بنغازي عائلة بهذا الاسم
ثم قال : « بنو ذياب من سلم من العدنانية . قال في مسالك الأبحار : منازلهم من
فلس إلى طرابلس من بلاد المغرب . وذكر في العبر أن منازلهم ما بين فلس وبرقة »
قلت : سمعت أن منهم الآن في زوارة طرابلس وجنوبي يفرن
ثم قال : « بنو زغب بطن من سلم من العدنانية ذكر ابن سعيد أن ديارهم كانت بين
الحرمين ثم انتقلوا إلى الغرب فكنوا بأفريقية بجوار أخوتهم بنو ذياب بن مالك ثم صاروا
في جوار بني هيب »

قلت : يوجد الآن قوم اسمهم الزغيبات في مدينة بنغازي

ثم قال : « بنو زارة بطن من لواتة من البربر . قال في مسالك الأبصار : مساكنهم
فيما بين الاسكندرية والعقبة الكبيرة و بركة »

قلت : ويقول القاضى بنى نفسه في مسبح الاعشى عند ذكر نسب البربر : ومن لواتة
هوذا ، زارة (بضم الزاي) ولشديد اللون والقب ثم راء مبهمة مفتوحة وهاء الآخر) وهم وله
زارة من ولد بر بن قيس بن اسماعيل عليه السلام . وقال انه اخو هوزارة وأكبر زارة
بلاد المغرب ومنهم جماعة بالبحيرة و جماعة بالنبوية . وقد عد الجداى من بطونهم بالبحيرة
بنى مزديش وهم مزداشة و بنو صالح و بنو سالم و وريدغة و غرغان و لقالا . وزاد بعضهم
بنى حيون ووا كند و فرطيطه و غرجومة و طاز و له و لغات و ناصوره و بنى السعوية و بنى ابي
سعيد . وهم عرب بدر بن سالم . ومن لواتة أيضاً مزانة (بضم الميم وفتح الزاي) والنساء المشتهرة
توق وهاء في الآخر) وهم بنو مزانة بن لواتة الأصغر و منازلهم من البحيرة الى العقبة
الكبيرة بركة »

قلت : و قبيلة حيون في دفتة و بنو سعيبة هم في تلك الجهات . ومن العوافير فرقة
قال لها عائلة الماواى

ثم قال : « و بنو سناك بطن من العرب عدهم الجداى في عرب البحيرة و بركة والعقبة
الكبيرة ولم ينسبهم في قبيلة »

ثم قال : « بنو شياخ بطن من هيب من سليم من العدنانية قال ابن سعيد : منازلهم
المحصب من بلاد بركة مثل المرج وطلمية »

قلت : في قبيلة المغاربة اليوم عائلة الشامخ لا أعلم هل الشياخ والشامخ واحد أم هو
شبابه اسماء ؟

ثم قال : « و بنو عوف بطن من يمنة قال الجداى : ومنهم بالصعيد والقيوم والبحيرة
أما كثيرة وفي بركة الى الغرب مالا يحصى »

ثم قال : « بنو فزارة بطن من ذبيان من العدنانية ومن بطونهم الآن أولاد محمد
والجماعات والدمالى والشعوب والشععة والعقبان والعواسى والعلوى وانغاشمة والقيوس
والساورة والمسامير والمقادمة والمواحدة والمواسى والنحاحية . قال في العبر : وكانت فزارة

في نجد ووادي القرى ولم يبق بنجد منهم أحد ونزل جيرانهم من طلي مكانهم وذكر أن بأرض بركة إلى طرابلس منهم قبائل »

قلت : يوجد الآن في بركة أولاد محمد ويوجد « الجماعات » في سرت ويوجد في الخامسة عائلة الجماعة بالتشديد ويوجد « الجمعات » في اورقلة من عمل طرابلس وكذلك في أولاد سليمان من العواقر . وأما العواسي فقد تقدم أن منهم اليوم في بنغازي وفي ترهونة . وقد تقدم أن في درنة اليوم قوماً اسمهم المساورة . وكذلك يوجد اليوم في الجبل الأخضر قبيلتان باسم المسامر . وأما القيوس في أولاد علي الذين بين الاسكندرية والعقبة فركة اسمها القيسات . وأما المقادمة فيوجد الآن في العواقر بطن اسمهم المقادمة . وأما المواشي ففرقة من الخامسة كما تقدم . وأما الشحاحية فيوجد اليوم في تاجور من طرابلس من يحمل هذا الاسم كما سبق القول عليه

ثم قال : « بنو قطاب بطن من لبيد من العدنانية مساكنهم مع قومهم بركة »
قلت : يوجد اليوم بنو قطاب في القواقر في بركة ولا نعلم هل هو الاسم نفس محرفاً أم اسم آخر ؟

ثم قال : « بنو لبيد بطن من سليم من العدنانية مساكنهم بركة وهم خلف كثير لا يكادون يحصون منهم أولاد سالم والخواشبة وقطاب ويطاون أخرى منسعة »
ثم قال : « بنو محارب من سليم من العدنانية ذكرهم في العبر ولم يرفع نسبهم وقال : ديارهم بركة في الشرق عن بني أحد الجوار بن ليلاد المغرب إلى العقبة الكبيرة والصغيرة »
قلت : يشبه أن يكون قاصداً ببني محارب القبائل التي يقال لها اليوم الحراشي .

ثم قال : « بنو قره بطن من هلال بن عامر بن صعصعة من العدنانية وذكرهم الحماني في عرب الديار المصرية وقال : بلادهم الحيم من صعيد مصر . وذكرهم ابن سعيد في عرب بركة وقال : منازلهم فيما بين مصر وافرقيصة . قال في العبر : وكانت منازلهم بركة وكانت رئاستهم أيام الحاكم العبيدي ناضي بن مقرب . ولما بايعوا الأبي ركون من بني أمية بالأندلس وقتلوا الحاكم ساط عليهم الحبوش والعرب فأفناهم وانتقل من بقي منهم إلى الغرب الأقصى فهم مع بني جشم هناك »

وذكر الفلفسندى بني هلال في صبح الأعشى فقال : « هم بنو هلال بن عامر بن

صعصعة قال الجداني : وكان لهم بلاد صعيد مصر . وذكروهم ابن سعيد في غرب بركة وقال : منازلهم فيما بين مصر وأفريقية . ثم ذكر ماورد في العبر عما جرى عليهم في أيام الحاكم العبيدي وقال ان يحلب طائفة منهم وانه صار لهم بلاد اسوان وما تحنها ولم يخص منهم بنو قرة الا عند قوله : وباخيم منهم بنو قرة الى عذاب وساقية «قلته» منهم بنو عمرو و بطونهم وهم بنو رفاعنة و بنو محبر و بنو عزيز و باصفون واسنة منهم بنو عقبة و بنو حيلة »

وذكر الفلفشتدي نسب سليم الذي من اكثر قبائل بركة فقال : «هو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان قال الجداني : وسليم أكبر قبائل قيس . قال في العبر : وكانت منازلهم في عالية نجد بالغرب من خيبر . ثم قال : وافر يقية منهم بنو عظيم قال الجداني : مساكنهم بركة مما يلي الغرب ومما يلي مصر وفيهم الأبطال الأتجاد والخيال الجياد . قال في العبر : وقد استولوا على اقليم طويل منسج الأطراف » . قلت : وقد ذكر في صحيح الأغشي انه كان لسليم من الولد بهته (بضم الباء الموحدة في أوله وفتح المشاء بعد الطاء) ومنه جميع أولاده . وقد انفقت الروايات على انه كان بنو سليم بن منصور بن عكرمة و بنو عقيل ابن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة و بنو تغلب بن وائل بن خديلة كلهم في البحرين وكانوا أعظم القبائل هناك وكان أشهرهم بالكثرة والغلب بنو تغلب . ثم اجتمع بنو عقيل و بنو تغلب على بني سليم فأخرجوهم من البحرين وآل أمرهم الى أن نزلوا بصعيد مصر ثم تقدموا الى بركة واستولوا عليها وانتجعوا اجباها الأخضر ولم يتركوا بها ولاية ولا امرة الا سابعهم . قال الفلفشتدي : «قال والدي رحمه الله : وقد عدت الى بعض غرب بركة من بطونهم أولاد سلام وأولاد سليمان الركاب والبصرة والبلانيس والجواشنة والحداثة والحوتة والدر وع والرفيعات والزازير والبيوت والسوالم والذهلة والشوانبة والصمريرات والعواكة والعلوانة والفدوة والنوافلة انتهى »

قلت : تقدم أن من العوافير عائلة سليمان والحداثة والرفيعات وتقدم أن الحوتة قبيلة من العرب المزابيين وتقدم ان العواكة هم من فرق العبيدات . وتقدم ان بني سلام منهم جدانية وأما سائر الأسماء فمنها ما تغير بمرور الأيام وربما بقي ولكن لم يتصل اليها لأنه لا نقدر أن نقول ان الذين قد أعطونا هذه المعلومات قد أحاطوا بكل سكان بركة وطرابلس عما

قال المقرئ في « البيان والأعراب » عن نزل بأرض مصر من الأعراب : « فأما
بنو حلال فأنهم بنو حلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن
عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان ونفال قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .
وقال المقرئ : « وأرض مصر عوف بن سليم بن منصور بن عكرمة بن قيس بن عيلان
ومع نخد . وبنو عوف بن بهر بن امرئ القيس بن بهته نخد . وبنو عوف بن قحط بن
ذكوان بن ثعلبة بن بهته نخد . وعوف هؤلاء في بلاد الصعيد وفي القيوم وفي البحيرة وفي
برقة إلى بلاد المغرب منهم أم لا تحصى كثيرة »

وقال المقرئ : « ومن سليم بنو عوف بن بهته ما بين قيس و بلاد الغاب بالمغرب
وبنو عيب بن بهته اخوة عوف بن عيب ما بين السندرة من برقة إلى حدود اسكندرية
و بنو أحمد طم غداد و يرجعون إلى سماخ ولها الفر في عيب . ومن عيب سبال ومحارب
ورأسهم في عزاز . ولهم في سليم عزة لاستيلائها على إقليم طوين خربت مدائن وصارت
ولاية لأشياخهم وتحت أيديهم خلق كبير من البربر وفيهم طائفة الأبطال الأتجاد والامارة
فيهم في أولاد عزاز بن مقدم »

قلت تغاب على الظن أن يكون « المقادمة » الذين هم من العوافير يرجعون إلى
أسم مقدم هنا وأن يكون « العازة » يرجعون إلى عزاز . ثم ظهر من كلام المقرئ في هذا
أنه كان في برقة بربر كثير ون وأن بعض القبائل العربية الآن مثل حبون مثلا أصلها بربر
ثم قال المقرئ :

« وفيما بين الاسكندرية والعقبة الكبرى جماعة قائد وزائرة ومزانه وخفاجه وهواره
ومبال وإيبه جماعة سلام وفزاره ومحارب والعلوانة وفطلب والزعافية والبشرة والجواشنة
والبعاجنة والقصاب وأولاد سليمان والقصاص ومنازلهم من العنينة السجري إلى سوسة . ثم
جماعة بجعفر بن عمر وهم الثانية والميامنة وعرعرة وعظيمة والعكمة والمزابل والمعزة ومن
المعزة الجعافرة جماعة ابن عمر ومنهم البداري أيضاً ومنهم السهاونة والجلادة وأولاد أحمد .
ومنازلهم من سوسة إلى بر السارة وهي آخر حدود ديار مصر مسافتها من الاسكندرية
نحو شهر بغير القوافل »

قلنا : جماعة قائد منهم نزار اليوم بالجليل الأخضر وجماعة في الديار المصرية . ونقد

مر بنا أن زنارة هم بربر وهم أصل قبائل عدة مستعربة الآن مثل حبون . وأما خفاجة
ففي الجندانية . وأما الحوارة فقبيلة شهيرة أصلها بربر . وأما فزارة فقد تقدم ذكرهم بطون
من زيبان . وأما محارب ففي هذا الزمان لا نعلم قبيلة في بركة وطرابلس اسمهم محارب إلا أن
كان المراد بهم الخرافي . والعلاوة قد مر أنهم موجودون الآن كما أن الجعافرة مشهورون
في بلاد أورفة من طرابلس ومشهور أنهم من بني سليم بن منصور . وأما الفصاكن ففي
أورفة وهون عالية أي قصبة . أفصحهم هؤلاء : الخواب لا يبعد ذلك . وأما البداري
فربما كانوا هم البديوي الذين من العوافر . وأما أولاد أحمد والجلند فقد تقدم أن قبيلة
البراقصة أصلها أحمد وجليد فيظهر أن المقصود بهذين الاسمين البراقصة لأن النسبة إلى
براقص ابن الشريف المغربي شابت عايمهم . وأما بنو سلام فمنهم في بنغازي

ثم قال : « وفي بركة أحياء أبي جعفر وكان شيخهم أبو ذؤيب وأخوه حامد بن كحيل
وهم يسمون في العرب نردة في بني كعب بن سليم ونارة في فزارة والصحيح أنهم يسمون إلى
عصره أحد بطون حوارة . وفيها بين بركة والعقبة أولاد سالم . وما بين العقبة الكبيرة
والاسكندرية أولاد مقدم وهم بطنان أولاد الزكية وأولاد قائد منهم وسلام معاً وهم يسمون
إلى أبيه بن علي بن هبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر . وقال في آخر الكتاب : قال
عالمه الشيخ حسن العطار . ما ذكر في هذه الرسالة من القبائل المختلط حالهم الآن فالبعض
لا وجود له والبعض صار معدوداً من جهة فلاحي معبر الأقبالي باقية على عدم اختلاطها
بغيرها » انتهى

قلت : هذا ما أمكننا أن نرد من أسماء القبائل الحالية إلى الأصول المعروفة في الكتب
ولا شك أنه قد فأننا منها كثير إلا أننا نظن أن الذي ذكرناه من هذا الباب هو أوفى
وردد في كتاب مطبوع

واندكر الآن توابع بركة إلى الجنوب داخل الصحراء فنقول :

إن أهم ملاحظات بركة جغبوب وفيها زاوية سنوسية كانت هي مركز السادة وفيها
مدرسة وفيها مدفن سيدي محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة رضي الله عنه . وقد
دعانا أن الظليان بعد احتلالهم جغبوب أغلقوا المدرسة فخلت جغبوب من النسيخ والمريدين
والطلاب وأغضرت تلك الواحة . وقد استولى الظليان على جميع الزوايا السنوسية التي في

برقة وطرابلس مع أوقافها ثم جالو وأوجلة وقد تقدم ذكرهما

ثم واحة الكفرة الشهيرة وفيها زاوية الناج السنوسية مركز السادة وفيها أودية وجنان ومزارع كثيرة وسكانها أكثرهم من قبيلة «زوية» ويبلغ عددهم أربعة آلاف مقاتل ومن أودية الكفرة «الطواري» و«الطوبيري» و«الجوف» و«الرق» و«الغلاب» و«الغلابيب» و«تاهيد» و«زيم» و«ريانة» وفيها كلها النخل والتين والعنب والرمان وقصب الكر ومن مزارعها الخنطة والشعر وعندهم عيون جارية وآبار وسوان

ثم «تربو» على مسافة خمسة أيام من الكفرة وأهلها زوية أيضاً

ثم «ون» وهي بلاد منها «باتو» و«أهدة» و«درية» و«زوية» وفيها أربعة آلاف من السكان

ثم «قرو» وهي واحة فيها ألف نسمة

ثم «عين كلك» محركة وهي واحة شهيرة فيها زاوية سنوسية كان الفرنسي قد جاءوها بقوة من بلاد كانم وقاومهم السنوسيون وجرت بين الفريقين معارك قرأت نفاذيلها في كتاب لأحد جنباط الفرنسيين ممن شهدوا المعارك وبعد ذلك تغلبت فرنسا على عين كلك وفي عين كلك وجوارها نحو من سبعة آلاف نسمة من السكان

رواحة «قوري» وهي على ثلاثة أيام من قرو وفيها ألف وخمسة مائة نسمة ورواحة «أرضي» على مسافة يوم من قوري ويقال إن فيها أربعة آلاف ثم هناك «الوجنقات» فالوجنقة الأولى على مسافة ١٢ يوماً من الكفرة إلى الجنوب والوجنقة الثانية على مسافة يوم من الأولى وفيهما ألفاً نسمة

ثم «فرم» على مسافة نصف يوم من «أرضي» إلى الغرب وفيها ٥٠٠ نسمة ثم «بودو» على مسافة يوم من «أرضي» إلى الجنوب ويقال إن أهلها سبعة آلاف

و«العميان» على مقربة من عين كلك وأهلها ألقان

والى الشرق من كلك «يمية» وفيها ١٥٠٠ نسمة

و«الدور» وأهلها من قبيلة ذوية نحو من ألفي نسمة وهي عن كلك على مسافة أربعة أيام إلى الجنوب وعلى مسافة ١٦ يوماً من مملكة واداي و ١٤ يوماً من دارفور في

السودان المصري وستة أيام من الوجنقات وستة أيام من فرو
تم « وادي الاكورة » تابع كلك وهو من الوجنقات الى الجنوب وأهل عرب بادية
رهاء ثلاثة آلاف

و « وديته » بين الدور والوجنقات أهلها من جبل يقال لهم القرعان سودان فيهم
جمال وهم هناك من ثلاثة الى أربعة آلاف

و « باكية » من « وديته » الى الجنوب على مسافة يوم واحد وكلاهما مراعي وأهلها
قرعان نحو من ألفين

و « وادي ندو » على مسافة يوم من « باكية » الى الشمال وهي مراعي أيضاً وأهلها
قرعان رهاء ألفين وهم يأكلون الحنظل يصلحونه حتى يفسدوا على أكله

و « رشي » على مسافة يوم ونصف من « باكية » الى الشبلة بها مراعي وفيها ثلاثة آلاف
قرعان وعندهم بنت اسمه الكريب له حب

و « يسكري » الى الشرق من « رشي » على مسيرة يومين وهي مراعي أيضاً وفيها
بنت الكريب أيضاً وأهلها ثلاثة آلاف قرعان

وكل أهل هذه الواحات اخوان سنوسية تابعون لزاوية كلك
تم « أم جرس » على مسيرة ثلاثة أيام الى الشرق من كلك أهلها سودان يقال لهم
البديات وهم خمسة آلاف

والى الشرق من أم جرس على مسيرة ثلاثة أيام « باو » وكلاهما مراعي وفيها المواشي
كثيرة وأهلها بديات عددهم ستة آلاف

و « جبل مردي » بين أم جرس و « باو » وادي الاكورة فيه ١٢ ألف مقاتل كلهم
قرعان يقال لهم المرداوية وعندهم مواشي بكثرة

وأما « التبيو » فهم جبل من السودان الى الغرب وهم أعداد كثيرة وكانوا من
الجهل في أقصى ما يتخيل العقل فتهبهم السنوسية وعلموهم الصلاة والدين وحفظوهم القرآن
وأما اعراب كانم فبعد ان احتل الفرنسيين كانم انكفأوا الى كلك والدور . وجبال
الدور وعرة جداً وفيها مراعي ومياه غزيرة وعندهم تخيل وأشجار والملاحم عندهم كثير
وهم من الخيل والابل وسائر المواشي ما يذكر . وأهل الدور من زوية وهم أشد أهالي تلك

الجهات بآسأ . وكان شيخ الدور يوم أخذت هذه المديونات منذ عشرين سنة صالح أبو كريم الزويبي وأما شيخ الجميع في تلك الاقطار فقد كان شيخ زاوية عين كالك وكان وكيل الحضرة السنوسية وكان عنده خمسمائة مقاتل بمعاشات مرتبة ضمن الزاوية وكان للدولة العثمانية عسكر في كالك

ووجدت في كنداشاني في مكان آخر ان « ون » تبعد عن مملكة وادي مسافة ٢٠ يوماً وفيها زاوية سنوسية وزها ، التي مقاتلي ١٥٠ شيخاً سنوسياً . ومنزرواتها القمح والشعير والقطن وعندهم عيون جارية وآبار . وكان الفرنسيين جاءوها ثم رجعوا عنها . ومن ون الى كالك مسيرة يومين . وفي كالك رباط نحو ٢٠٠ مقاتل من رجال السنوسية .

ومن كالك الى فرو مسافة سبعة أيام وفيها ١٥ وادياً جميع سكانها عرب . وفي فرو زاوية سنوسية يتبعها ٥٠٠ مقاتل . ومن فرو الى الكفرة الى الشرق مسيرة ٢٠ يوماً . وفي الطريق مياه استعملها السيد السنوسي من عمق ٣٠ فامة . ومن كالك الى وادي ٢٠ يوماً . ومن كالك الى ون شمالاً يوم . ومن كالك الى فرو شمالاً خمسة أيام . ومن فرو الى الوجنقات ثلاثة أيام . ومن الوجنقات الى الكفرة ٢٠ يوماً . ومن الكفرة الى جالو ١٥ يوماً . ومن جالو الى بنغازي ثمانية أيام

ولما اتفق الفرنسي والانسكازي على تقسيم افريقية منذ سنة ١٩٠٢ وقعت واحدة الكفرة ضمن الحدود الانسكازية وجعلوا من الكفرة الى جهة وادي التابعة لفرنسية مسافة ٤٠ كيلو متراً وجعلوا جميع الصحاري التي الى الغرب من جالو واولجلا ضمن المنطقة الانسكازية وعقدوا جالو واولجلا آخر حدود المملكة العثمانية الى الغرب . ومثل ذلك انهم جعلوا الحدود العثمانية من مرزوق قصبة فزان الى الجنوب ٣٥٠ كيلو متراً فقط على حين كانت أحكام المملكة العثمانية جارية على مسافة ٨٠٠ كيلو متر الى الجنوب من الكفرة وكان العلم العثماني يتحقق في كالك وون وفرو فضلاً عن الكفرة وترزور ومقيد في كنداشاني الاحصاء الآتي :

كيلو متر	كيلو متر	
٢٥٠	من نخس الى طرابلس	١٠٠
٣٠٠	من طرابلس الى زواره	١١٠
٥٠	من زواره الى تخوم تونس	٦٠
٩٠	من حدود تونس الى غدامس في ليبيا	٥٠٠
٦٢	من طرابلس الى مرزوق	٨٣٠
١٠٦	من درنة الى الكفرة خطأ مستقيماً	٨٧٦
٢٥٠	من الكفرة الى فرو	٧٧
٩٢٠	من درنة الى اوجيه	٤١٠

هذا ولتختم كلامنا على بركة بما قاله المقامسى في كتابه « أحسن التماسيم لمعرفة

القبلي » :

« بركة قصبه جليلة عامرة نفيسة كثيرة القواكه والخيرات والأعمال مع يسار وهي
أمر قد أحاط به جبال عامرة ذات مزارع على نصف مرحلة من البحر في حوية قد أحاط بها
وابة حراء^(١) شرهم من آبار وما يحويونه من أمطار في جباب وهي على جادة مصر
عشرون الى الغرباء . أهل خير وصالح وأقل انقلاباً من غيرهم »
وذكر اجدانية فقال :

« عامرة بديانهم حجارة على البحر وشرهم من الأمطار و « سرت » كذلك وها
وادي وشعاري . وأما المسافات فتأخذ من بركة الى الدامة مرحلة ثم الى تاكنست مرحلة .
ثم الى المغار مرحلة . ثم الى حليان مرحلة . ثم تخميس مرحلة . ثم الى جب المنشار مرحلة .
ثم الى جناد الصغير مرحلة . ثم الى حي عبد الله مرحلة . ثم الى مرج الشيخ مرحلة . ثم
الى العنية مرحلة ثم الى خراب أبي حليمه مرحلة . ثم الى خربة القوم مرحلة . ثم الى
قصر الشاس مرحلة . ثم الى سكة الحمام مرحلة . ثم الى جب العوسج مرحلة . ثم الى حنية
اروم مرحلة . ثم الى ذات الحمام مرحلة . ثم الى بوعنبة مرحلة . ثم الى الاسكندرية مرحلة »

(١) أفقه يقصد بركة هنا مدينة بنغازي لأن هذا الوصف ينطبق عينا والهوة هذه قد عرفناها الى

الشرق من المدينة

ولقد ذكر الآن شيئاً عن طرابلس أخت بركة والتي ينسب ذلك القطر اليها فنقول
طرابلس مدينة عامرة كانت مركز الولاية أيام الدولة العثمانية وهي الآن لعهد الظليان
مركز الولاية وكان يتبعها ثلثة احياء جفارة وتاجورة وزنور . ثم قضاء النواحي الأربع
وهي ناحية هاني وناحية المشية وناحية الساحل وناحية الرفيعات . ثم قضاء نجاد . ثم قضاء
غريان . ثم قضاء أورفلة . ثم قضاء زهونة . ثم قضاء الزاوية . ثم قضاء زوارة . ثم قضاء
العريزية . ثم قضاء العجيلات . ثم لواء ابدو ويتبعه ناحية خس وناحية الساحل وناحية
ناورغة . ثم قضاء مصراتة . ثم قضاء زليطن . ثم قضاء مسلاتة . ثم قضاء سرت . ثم لواء
الجبل الغربي ويتبعه ناحية بفرين وناحية كسكة وناحية الحوض وناحية مراده وناحية
زنتان . ثم قضاء فساطو . ثم قضاء غدامس . ثم قضاء نالوت . ثم لواء فزان يتبعه رأساً
ناحية مرزوق ثم الوادي الشرقي ثم الوادي الغربي ثم الحفرة الشرقية ثم سبن وسمنو ثم زلاء
ثم فطرون ثم قضاء سوكنة . ثم قضاء الشاطئ . ثم لواء غات مربوط به رأساً ناحية جالت
وناحية البركة وقضاء تيمورشاده الجهة أربعة ألوية و ٢٠ ناحية

وقد كان في الدولة العثمانية لواء بنغازي يتبع طرابلس أحياناً ويفصل أحياناً وكان
يتبعه أربع نواح ناحية البراعة وناحية سلوك وناحية فيمنس وناحية برحيس ثم قضاء
درنة يتبعه ناحية السلام وناحية طبرق وناحية ميا وناحية القبة وناحية الحاسة . ثم قضاء
المرج يتبعه ناحية الدرس . ثم قضاء جالو وأوجله يتبعه ناحية برقة . ثم قضاء أجدابية الى
الغرب من بنغازي . ثم قضاء الكفرة مع توابعها المسالفة المذكور
ومما وجدته في كتاباتي عن طرابلس ما يلي :

أول بلد من طرابلس الى الغرب من بركة سرت وهي مركز قضاء وهي سرت
البيضاء وسرت الجراء . وبعد سرت عين ناورغا ووادي بن وليد ومصراتة وهي مركز قضاء
وزليطن قضاء أيضا والخس متصرفية . ومصراتة تمتد مسافة يوم الى الجنوب وآخرها من
الغرب زاوية محجوب عند مقام سيدي أبي روية . وبأراضي مصراتة الزينون والنخيل
والنخاح والزمان وجميع أهلها تقريباً خيالة لكثرة الخيل في بلادهم ويخرج منهم ألوف
مؤلفة من الفرسان وهم بغاية الشدة . وينقسمون الى قروغلية وبرعية . فالقروغلية تعرف
« قول أوغلي » وهم أولاد العياكر والمأمورين الأتراك والأرناؤوط والجركس والبشناق

وغيرهم ممن كانوا يخدمون في الجيش العثماني والحكومة في طرابلس . والرعية هم الأهالي الأصليون . ومن القروغلية في أكثر المدن كبنغازي ودرنة ومصرطة ومنهم يدثر ومنهم زواوي والشواهدة والجراكسة . وأما الرعية ففي مصرطة يقال لهم زمورة ومنهم أهل قصر جند وفزير وزاوية المحجوب وغيران والشتاوة وأولاد الشيخ والحريشات . وفي مصرطة عشرة اسمها خدام الزروق وهم الرعيضات وسورجابر وبلاطه والشويخات والحسرين والفرجان ومعدان وبركات . وكل قبيلة من هؤلاء لها قرية هي مستقلة بها وبعض خدام الزروق يسكنون في المضارب . وزعماء القروغلية عائلة الأدغم في نفس مصرطة وينتشر زعماء الآخرين ومزروعات مصرطة الحنطة والشعير والدخن وأرضها سهول ورمال راحيل عندهم لا تحصى وماؤهم من الآبار والسواني ولكنه كثير

وأما سرت فأهلها أولاد سليمان وهم بدو وعشيرة يقال لها الفهاني والندافة الفرجان وبركات ومعدان والحسون وزاوية . وكل هؤلاء منهم بدو ومنهم حضر في آخر سرت إلى الغرب بلد تاورغا أهلها حضر وهم سمر الألوان مثل السودان . وفي تاورغا أشهر جارية وعين اسمها عين سمهود ماؤها وفي تاورغا الدخيل والقمح الشعير وكان أهل سرت يوم جعلنا هذه الملاحظات أزيد من ٢٠ ألف مقاتل أما الآن فلا نعلم الحقيقة وإنما نعلم أن أهل طرابلس وبرقة منذ مجيء الطليان إلى الآن قد تناقصوا إلى النصف كانوا وذلك بالقتل والرحيل وتوالي المحن

والى الغرب من مصرطة قضاء « أورقلة » وأعلى بغاية الشدة يقولون « أورقلتي ما » أي « وهم جماعة سيدي عبد السلام ابن سليم الأسمر من أكبر أولياء الله . وأهل أورقلة منهم حضر ومنهم بدو وفي الصيف يأوون إلى بيوت الخجير وفي الشتاء يسكنون المضارب . وإلى الغرب من أورقلة بلاد زليطن ويقال لأهلها القوائير وهم أشرف وسيدي عبد السلام الأسمر منهم وهؤلاء القوائير يبلغون عسرة آلاف ويوجد في زليطن قبائل أخرى كأولاد غيت والعائم والبراهمة وغيرهم . وفي زليطن قروغلية كافي مصرطة . وإلى الغرب من زليطن الساحل وفيه نهر جابر يقال له عين كعاوه وأهل الساحل اسمهم الخوامد وعندهم زيتون ونخل وهم يزرعون الحنطة والشعير والقمح والقصب ومن الساحل إلى الغرب محل يقال له المرقب ثم مركز يقال له الخمس كان مركزا لتصرفية لعهد الدولة العثمانية وكانت

سرت ومصراته وزليطن وترهونة تابعة لتصرفية المجلس. وأما ترهونة فتمتد من المجلس المسمى بالساحل إلى تاجورة بقرب مدينة طرابلس وسكان ترهونة قبيلة يقال لها ترهونة أيضاً وكانت كثيرة العدد جداً أيام الدولة العثمانية وكان زعيم ترهونة على بك المرقص. وفي أيام الحرب الكبرى عندما انتفض أهالي طرابلس على الطليان وطردوهم وحصروهم في مدينة طرابلس ومدينة بنغازي ومدينة درنة لا يقدر أن يخرجوا إلى الخارج استقلت ترهونة بحكومة خاصة بها كما استقلت مصراته واستقلت أورشلة وغيرها. وبقيت الحال كذلك إلى أن حضر نوري أخو أنور من جهات بنغازي على أثر الاتفاق السيد إدريس السنوسي في ذلك الوقت مع الطليان وعقد لهم معاهدة معه يعترفون له فيها بالإمارة فجاء نوري منهزماً إلى مصراته ومعه الاستاذ عبد الرحمن عزام المصري فسلم له رمضان السواحل الذي كان مسنداً بأمر مصراته أمور تلك البلدة وبعد ذلك بحسن تدبير نوري ومستشاره عبد الرحمن عزام اتخذت جميع تلك الحكومات حكومة واحدة وصار بر طرابلس كله تحت إمارة نوري الذي كان يمثل السلطان وكان أخوه أنور يرسل إليه بالامدانات من الامانة بواسطة الغواصات الألمانية وانحصر حكم الطليان في مدينة طرابلس وأما بنغازي فكانت الامارة فيها للسيد إدريس السنوسي ما عدا مدينة بنغازي ودرنة. وبقيت الحال كذلك حتى جاء حكم الفاشست في إيطاليا فنقضوا المعاهدة التي كانت إيطاليا عقدتها مع السنوسي المثار إليه وقرء السيد إدريس إلى مصر حيث هو الآن وسلك الفاشست بمسلي طرابلس وبقرة المذالك القطيع الشنيع الذي سلكوه ونقلنا طرفاً من أخباره في هذا الفصل

هذا وإلى الجنوب من ترهونة قضاء مسلاته وكان لعهد الدولة العثمانية تابعة لتصرفية جبل غريان وفي مسلاته قبائل كثيرة وأثر محصولها العنب والزيتون ومن مسلاته إلى قرآن عشر ون مرحلة. وأما جبل غريان ففيه نحو من مائة قرية وفيه بيوت منحوتة في الصخر وهناك جبل يفرن وجبل نالوت وجبل فساطوط وجبل شقانه والجبل الغربي وقصبة زوارا على البحر وأهل الجبل الغربي وزوارا أباضيه وكذلك أهل فساطوط ونالوت وأكثر محصول جبل غريان التين. وإلى الغرب من بلاد طرابلس الزاوية الغربية ثم غدامس على حدود بلاد تونس وبما وجدته أيضاً في كنداشاني أن طريقة سيدي عبد السلام الأسمر ولي الله الأكبر رضي الله عنه هي الطريقة العروسية وأتباعها كثير ون

هذا ما اخترنا ذكره عن طرابلس وبرقة ولأجل اتمام الفائدة يجب أن نذكر خلاصة
عن كيفية احتلال إيطاليا لطرابلس فليعلم القارئ أن مبدأ هذه النزاية كان احتلال الفرنسيين
افاشودة في منطقة السودان المصري جاءوها من جهة السودان الغربي فاعتزضت عليهم
النجارة وحصل خلاف شديد بين الدولتين وأنترت النجارة الفرنسية بالحرب إن لم يرجعوا
عن فاشودة فرجعوا عنها ولكنهم طلبوا تحديد الحدود بين المنطقة الانجليزية والمنطقة
الافرنسية في السودان فبعد أن حددوا الحدود بدأ الحائزين الدولتين أن تتقاسما افريقية فيما
بينهما سرّاً وكان ذلك سنة ١٩٠٢ فترأت فرنسا لالنجارة عن مصر والسودان المصري
وأوغندة وغيرها وازلت النجارة لفرنسا عن مرا كشي وشمال افريقية والبلاد التي كانت
فرنسا احتلتها في السودان الغربي وقد كان هذا التقسيم من أقطع ما سجله التاريخ لأن
الدولتين تقاسمتا به بلدان الناس بدون علمهم وتجاوزنا على حقوق دول كثيرة مستقلة
اعتداء محضاً وتسلطاً صرفاً وقد كان هذا التقسيم لافريقية بين فرنسا والنجارة أكبر عامل
في الحرب الكبرى لأنه على أثره قامت ألمانيا تعرض على سعى فرنسا بالاستيلاء على المغرب
وكذلك اعترضت دول أخرى كإيطاليا وإسبانيا فالتهي الأمر بعقد مؤتمر دولي في الجزيرة
الحضراء أمام جبل طارق وهناك قررت الدول استقلال سلطنة المغرب برغم ما كان بين
النجارة وفرنسا من الاتفاق السري ولكن الحائزين الدولتين وقعا على معاهدة الجزيرة من
جهة وبقية أعمال تنفيذ الاتفاق السري الذي بينهما وبناء على هذا الاتفاق تعرضت
فرنسا للمغرب وسافت جيوشها وتجاوزت على هذه السلطنة من جهة الشرق واحتلت
«وجدة» ثم أرسلت جيشاً نزل بالدار البيضاء وكان ذلك مبدأ لسلطتها الحالية على
مرا كشي كما لا يخفى . وقد كان أهالي المغرب رأوا في سلطانهم عبد العزيز ابن مولاي
الحسن ضعفاً عن مقاومة الفرنسيين فباعوا أئامه عبد الحفيظ على أمل أن يقوم هو
بالدفاع عن البلاد ولم يبايعوه الا على شرط تنظيف البلاد من الأجانب ولكن الفرنسيين
أعملوا القوة العسكرية من جهة والسياسة والمصانعة من جهة أخرى وانتهى الأمر باقناع
عبد الحفيظ بقبول الحماية الافرنسية ولعب في ذلك الوقت قدور بن غبريط المشهور دوراً
مهماً في اقناع السلطان عبد الحفيظ بقبول الحماية بعد ان كان هذا السلطان امتنع عن
قبولها أشد الامتناع وأراد الاستعفاء من السلطنة . وخلاصة القول أن فرنسا والنجارة من

ورائها ظهر انقضاء معاهدة الجزيرة بغير علمها وكان ذلك مما أثار غيظ ألمانيا وحل امبراطور ألمانيا على المحيى بنفسه الى طنجة وإعلان أن استقلال المغرب لا يمكن أن يمه أحد ولولم يكن السلطان عبد الحفيظ قد قبل الحاية الافرنسية من نفسه لبقيت ألمانيا متمسكة بمبدأ استقلال المغرب التام . وهذا الذي دعاها قبل الحرب العامة بقليل الى ارسال بارجة الى مرسى أغادير يوم نار الخلاف بينها وبين فرنسا وكادت الحرب بينهما تنشب الا أن ألمانيا نسكت أو انشدت عن الحرب لتكون الحفزة وعدت فرنسا بجعل الأسطول الانجليزى تحت إرادتها فيما اذا نشبت حرب بين فرنسا وألمانيا . وقد كانت هذه من أمهات المسائل التي أوجبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ ومقصودنا من ذكر هذه المقدمة أن إيطاليا بعد أن رأت تقسيم إنجلترا وفرنسا لأفريقية واستئثار كل منهما بمالك وبلدان طويلة عريضة واحتلال فرنسا للمغرب واعطاء قسم منه لاسبانيا اسكاناً لها عن الاعتراض قامت فطالبت فرنسا وانجلترا بحصة لها في أفريقيا واقترحت أن تنزلا لها عن طرابلس الغرب وبرقة ونم الانفاق على ذلك بين هذه الدول الثلاث سرا وبعد ذلك حاجت إيطاليا طرابلس الغرب بغتة بدون أدنى سبب سوى أن فرنسا وإنجلترا تقاسمتا أفريقيا وأنها هي إيطاليا دولة كبيرة فلا يمكنها أن تبقى بدون حصة من هذه القارة ولما حاجت إيطاليا طرابلس الغرب أبلغت تركيا أنها ان رضيت أن تنخلي لها عن طرابلس وبرقة تعويضاً عن بعض تعويضات مائنة وتبقى للسلطان العثماني السيادة الدينية ولكن العالم الاسلامي يومئذ تار ثأره طفا الاعتداء الفظيع واضطر الدولة الى المقاومة . نعم انه لم يكن للدولة قوة في طرابلس أكثر من أربعة آلاف عسكري على حين ان إيطاليا جهزت لاحتلال ذلك القطر مائة ألف عسكري الا أن الأهالي ثاروا بأجمعهم ورأى الباب العالي أنهم قوة قادرة على مقاومة الطليان فأمدهم بما أمكن من الأسلحة وجاء أنور منسكراً ودخل الجبل الأخضر من الحدود المصرية وجاء على فتحي ودخل طرابلس من الحدود التونسية وكان بلغ أهالي مصر وتونس استعداد أهالي طرابلس وبرقة للحرب فأرسلوا اليهم بالأرزاق وأمدوهم بما أمكن من الأموال وكانت الحية الاسلامية في ذلك الوقت غير ما آلت اليه بعد الحرب الكبرى فرأت إيطاليا ورأى العالم الأوروبي كله من مقاومة الطرابلسيين مام بخطار لهم على بال . ولقد كانت إيطاليا تعتقد ان احتلالها لمدنك القطرين يتم في خمسة عشر يوماً . وأندكر أني

هرات بيانات للورد كفتنر ان هذا الاحتلال أصعب مما يظنون وانه قد يأخذ مدة ثلاثة
 أشهر ... فكان من مقاومة الطرابلسيين أن استمرت الحرب بينهم وبين ايطاليا عشرين
 سنة تامة بدلا من ثلاثة أشهر ولم تنقطع الا في السنة الماضية بعد أمر الشهبه عمر المختار .
 وقد بلغت خسائر ايطاليا في هذه الحرب مدة العشرين سنة مائة وخمسين ألف قتيل وثلاثمائة
 مليون جنيه ذهب ولو تيسر للاهالي السلاح الم لازم والعدة لكان يستحيل أن تنقسم
 ايطاليا من ساحل البحر الى الداخل ولو مسافة بضعة كيلو مترات ولكن الذي فاق في
 أعضاء الأهالي هو فقد السلاح والذخيرة كما لا يخفى . وكان نزول الطليان في طرابلس النهار
 الرابع من اكتوبر سنة ١٩١١ وخرجت الحكومة العثمانية من طرابلس ومعها العسكر
 بقيادة نجات بك وخيموا في جهات غريان وكانوا ينتظرون الأوامر من الباب العالي
 بالنسيم وكانت ايطاليا تنتظر ذلك لعدم تصور العقل امكان ادى مقاومة . ورأى الأهالي
 أن الدولة تركتهم لخضعوا في قول الأمر للطليان وهؤلاء أخذوا يزعمون الأموال على
 وجوه الأهالي في طرابلس وناحيتها وفي بنغازي وفي درنة واستجلبوا كثير منهم وكان
 من جملة من خدم الطليان من أغنيان بنغازي المعروفين منصور الكاخيا وكان منهم ابن
 المنتصر في مضراطة . وفي ذلك الوقت بينما ظن الطليان أن الأمر استوفى لهم قام سامان
 الباروني زعيم الاباضية الذي هو اليوم وزير ايام الاباضية في مملكة عمان وقام معه فرحات
 وغيرهم من زعماء طرابلس واستنفروا الأهالي فأتوا بالسلاح وهددوا العسكر العثماني
 المسحب الى خارج طرابلس بالقتال ان لم يصلي الطليان الحرب فاشتد عزم العثمانيين وعلم
 الباب العالي أنه يفسد أن يعتمد على الأهالي وفي أواخر شهر اكتوبر المذكور كان
 المتطوعون منهم قد تكاثروا جدا فزحف العسكر العثماني والمتطوعون الى مدينة طرابلس
 وقتلوا الطليان قتلا شديدا وفي أحد الأيام ظنوا أنهم مستولون عليها لا محالة . ولكن
 مسافع الطليان من البر والبحر حالت دون تحقيق هذه الأمنية . وكان قد لحق بالجيش
 العثماني أهالي زهونة وأهل الساحل والمنشيه والرجيحيات تحت قيادة علي بك الشامي الذي
 امتاز في معركة بئر طهراس والتحق أيضاً بالجيش أهالي تاجورة بقيادة علي محمد كرموس
 وجاء أيضاً الطوارف والفزانية وأهالي زايطن وغاورغ وزمتان ورجبان ومزده وأهالي
 غريان وأورفلة ومضراطة وغاور والزاوية وزنزور والعجيلات وغيرهم وبدأت الحرب

وجاء خمسةائة فارس من أولاد أبي سيف وهم سنوسية يسكنون في سكتة وكان جميع هؤلاء
الأهالي مقبلين على الحرب كأنهم موضحون إلى أعراس واستردت الأهالي جميع الذواحي
التي حول مدينة طرابلس حتى دخلت سيدي الهاني وسيدي المصري فشاهد العالم بأجمع
من بساطة هذه الأقوام ما قضى بالعجب العجيب ولكن الطليان ضاعفوا قواتهم ومعداتهم
وفي ٢٦ نوفمبر استرجعوا سيدي الهاني وسيدي المصري ثم بدعوا بتلك الأفعال الفظيعة وقد
ذكرنا فيما تقدم مذبحه المنسية التي نبقى غاراً على إيطاليا أبد الدهر . ولولا مدافع الطليان
ومعداتهم ما كان يمكنهم أن يثبتوا في مدينة طرابلس فضلاً عن أن يتقدموا إلى الداخل
وكان جميع المدافع التي في المعسكر العثماني سبعة مدافع فقط معها ثلاثون من المدفعية ولم
قائد اسمه أحمد شكري قاوم جميع مدافع الطليان بمدفعه هذه ووصل إلى مسافة كيلو
مترين فقط من الطليان وإلى مسافة ستة كيلو مترات من المدينة وكانت قنابره تسقط في
حديقة البلدة وفي واقعة فارقارين قاوم أحمد شكري هذا بأربعة مدافع جميع
مدافع الطليان الطائفة وفي واقعة عين زارة بقي يقاوم مدافع الطليان مدة عشر ساعات إلى أن
تمكن العثمانيون من إرجوع بانظام . وقد وصل اليقا ونحن في معسكر درنة الميسودر بحون
مراسل جريدة الأستراسيون المصورة خدمنا عن وقائع الحرب التي شهدنا في صرابلس وقال
إنه لم يجد قوماً عندهم شغف بالقتال واستخفاف بالموت كهؤلاء القوم . وقرأت له مقالة في
الأستراسيون أنه شاهد في المعسكر العثماني أمام طرابلس متلوقة من الطوارق ومن فزان
ومن جهيل غريان وزليطن وأورقلة وترهونة ومن الساحل قال : « وإذا سمع هؤلاء نداء
الحرب قامت قيامتهم وندفقوا إليها كالسيول من الجبال والجلجلة فالحرب عندهم أشبه
بصورها محفولنا » ثم إن الدولة العثمانية جعلت معسكراً آخر في مصرافه بقيادة خليل بك
عم أنور ونوري أخى أنور واشتعلت الحرب بينهم وبين الطليان الذين كانوا في قصر حد على
البحر . وأما من جهة بنغازي فإن الحرب بدأت بعد ١٨ يوماً من إعلان إيطاليا الحرب على
تركيا . وفي الليلة الثانية من نزول الطليان في بنغازي هجمت عائلة إبراهيم والبراعة بنفسه
على محنة يقال لها الصابري وسط تخيل بنغازي كان الطليان أرسلوا إليها جانباً من جيشهم
فحصلت معركة شديدة انهزم بها الطليان إلى محل يقال له الزراب وتلف منهم ذلك اليوم
نحو من نابورين . ووقعت واقعة أخرى يوم نزولهم اسمها واقعة جولباتة قتل منهم فيها

بلائماته ومن العثمانيين سبعون وكان الطليان يضربون بنغازي بمقذوفات مدافعهم من البحر وقتل من الرجال والنساء والأطفال نحو أربعمائة وتمكنوا بمدافعهم من النزول إلى البر لأنه لم يكن عند العثمانيين مدافع تحمي البلدة فنزلت عساكر الطليان واحتلت السكة العسكرية فقاتلها الأهالي وسقط من الطليان جماعة في ميدان السكة . وخرجت الجنود التي كانت في بنغازي مع قائدها شاكر بك إلى سيل الطوارى على مسافة أربعة كيلو مترات من المدينة بقيت خمسة عشر يوماً في الطوارى وكانت أربعمائة جندي فقط ثم تأخرت هذه القوة إلى الأبار على مسافة ثلاثين كيلو متراً . وكان سيدي عمران السكوني شيخ الزاوية السنوسية في قصبة المرج وقد عرفته يوم ذهبت إلى بنغازي فرأيت فيه جنديداً من الصناديد رحمه الله بأكثر من مثله فهذا الرجل استنصر قبيلة العرفا التي هو شيخ على زاويتها وقبائل أخرى والنحق بالجند العثماني الذين بقيادة شاكر بك وزحفوا إلى الطليان فكسروهم إلى مدبنة بنغازي ومن ذلك الوقت لبثوا في بنغازي تحت حابة اسطوطهم . وأقام المعسكر العثماني ومعه العرب بالحل الذي يقال له الرجة . وكان الطليان قد فصدوا قرية الكويضية على مسافة ساعة ونصف إلى الشرق من بنغازي وعلى ربيع ساعة من شاطئ البحر ولم يكن في الكويضية إلا نزر من المقاومة وكان الطليان عدة آلاف فانهزم الطليان وقتل منهم مئتا وستم منهم العرب بنادق ومسدسات وأعتدة كثيرة

وفي ١٥ يناير سنة ١٩١٢ بعد حضور عزيز بك المصري قائداً للمعسكر العثماني في بنغازي جرت وقائع كثيرة نذكر منها أن أربعمائة عربي هجموا على استحكام اسمه نوبليك دخلوه من شاطئ البحر فذبخوا الطونجية الطليان على المدافع وأحضروا المكاتب التي في جيوبهم من أهلهم اليهم وفي ١٦ الشهر المذكور دخل سبعون عربياً إلى استحكام القويصات وقتلوا وغنموا مقداراً من البنادق وفي ١٨ منه جرت وقعة الزريرعية إذ دخل من العرب ليلاً ٣٥ رجلاً بين استحكامين من استحكامات الطليان وقعدوا في حفرة وقعد ٥٠ عربياً من الجهة الأخرى فسار الطليان فوقعوا في الحفرة بغتة ونشب قتال شديد بين الفريقين وكانت أربع بوارج طليانية تطلق القنابر من البحر منعاً للعرب من امداد دورهم ولكن أصيب الطليان ذلك اليوم برزايا فادحة وقتل منهم مئتا وقيل ١٥٠ جندي وقتل من العرب ٣٥ مجاهداً وجرح ثمانون . ومن بعد هذه الوقعة ازداد اهتمام الطليان

بالاستحكامات ووضعوا حولها الأسلاك الشائكة

وفي ٣١ ديسمبر سنة ١٩١١ ذهب ٥٠ عربياً من قبيلة الفوارس ودخلوا استحكام الفويهات وغنموا وقتلوا وقتل منهم ١٠ رجال وجرح ١٢ رجلاً

وفي ٢٢ فبراير سنة ١٩١٢ هجم العرب من جهة الشمال على الاستحكام الطليان الذي هناك فغنموا خيلاً قتلوا فرسانها وغنموا بنادق وأدوات

وفي ٢٦ منه اجتمع الطليان في احتلال « غريونس » على شاطئ البحر جاءوها من جهة شويليك فردهم العرب وغنموا منهم ١٩ بندقية

وفي ١٢ مارس ١٩١٢ جرت وقعة الفويهات الشهيرة وكان سببها أن ٢٠٠ عربي دخلوا بين استحكامي الفويهات والبركة فنار في وجوههم الطليان واشتدت الحرب وأحاط الطليان بهذه المائتي مجاهد من العرب وقصد عزيز بك المصري ومن معه من العرب امداد هؤلاء فلم يتمكنوا من ذلك بسبب القنابر التي كانت تنسف كالمطر من البحر والبحر. فلبث هؤلاء العرب بفانلون مستميتين الى الظلام وعند ذلك نجح قلاهم وحلقوا بالعسكر العربي بعد قتال استمر طول النهار ويقال انه نجح ٨٠ رجلاً من المائتين. وأما الطليان فقتل وجرح منهم ألف وخمسة مائة مقاتل منهم ٢٨ ضابطاً برتب مختلفة وجرحا لواء وأصيب بالجنون عدة ضباط من حول تلك الوقعة. وكانت هذه الواقعة قد شقت كثيراً على العرب وقامت النوادر بسبب أولئك الأبطال الذين حالت مدافع الطليان دون إمكان نجدهم. وبينما العرب في مأثم على قلاهم إذ وردت برفية من أنور القائد العام في درنة الى عزيز على المصري قائد مجاهدي بنغازي عن برفية من الاسنانه عن برفية من برلين عن برفية من رومة تغيد أن وقعة الفويهات هذه كانت من أشد المصائب على الطليان خسروا فيها ألفاً وخمسة مائة مقاتل ومنهم ضباط كثيرون قتل وجرح ومنهم من أصابهم الجنون من هول ذلك اليوم. فلما بلغ العرب ذلك شق من حرقته على أبطالهم وتحول حزنهم سروراً

وفي ٤ ابريل اشتبكت دورية من العرب مع ثلاثة آلاف جندي طلياني في الفويهات أيضاً فانكشف الطليان بغير انتظام وخسروا ٨٠ قتيلاً ولم يقع من العرب الا قليل من القتل والجرح

وحصلت بين الفريقين وقعة اسمها وقعة السعاني وذلك أن ٦٠ عربياً هجموا على

استحكام الساماني فخرج الطليان ودارت رحى الحرب ووردت نجدات للعرب فكسروا الطليان وأزموهم داخل الاستحكام بعد أن تركوا مئات من القتلى على الخضيض. ثم وقعت البركة وحى أن الدرسة والعبيد دخلوا ايلاً بين الاستحكامات في راس عبدة وكانوا ثلاثمائة مقاتل فدارت رحى الحرب طول الليل وأصبح الصباح عن ٣٠٠ قتيل من الطليان ولم يقتل من العرب سوى ثمانية مجاهدين وجرح ١٢ مجاهداً. وفي ١٩ يونيو جرت وقعة مع دورية لكوبيبة وكانت ٥٥ مجاهداً لا غير قتلافت مع الطليان في سواني عثمان وكان هؤلاء تابورين من المشاة والذى من الفرسان ومعهم بطارية مدافع جبلية و بطارية صحراوية وثبت العرب مع قسلة عددهم نحواً من ساعين الى أن وصلت اليهم النجدات فعند ذلك المهزم الطليان ونقلوا عشر عربات وثلاث سيارات كهربائية ملائى بالقتلى والجرحى منهم ثلاثة ساط وغنم العرب اسلاباً كثيرة

وهكذا كانت وقائع بنغازى في بداية الغارة الطليانية واستمرت بعد ذلك بدون انقطاع الى أن جرت الحرب العسامة وخدع الطليان بالاتفاق مع الانكيز السيد ادريس السنوسى نجل سيدى المهدي واعترفوا به أسيراً على برقة وانقطع بذلك القتال وصارت الامرة في البركة للأمير ادريس وبقي كذلك سبعاً الى ثمانى سنوات اذ جاء الفاشيست ونكثوا بالمعاهدة واستأنفوا الحرب ففر الأمير ادريس الى مصر وتولى قيادة المجاهدين زعماء متعددون أشهرهم الشهيد عمر المختار الذى ثبت الى الآخر وبلغت مدة جهاده عشرين سنة وأما مبدء نزول الطليان في درنة فهو أنهم جاهدوا ودمروا فيها بيت التفراف اسلكى ثم ضربوا المدينة بالقنابل. وكان في درنة ٦٠ جندياً عثمانياً لا غير تحت قيادة ابيكباشى شاكر بك فانضم اليهم بعض الأهالى وجاء على افتدى العوا كلى قائم مقام قسبة المرج ومعه عشرته العوا كلة وبعض عائلة غيث فقاوموا الطليان بشدة لكن أهالى درنة حناروا التسليم. وخرج شاكر بك بجندته الى عين « ماره » وأخذ الطليان يستجلبون أهالى بالمصانعة ووزعوا أموالاً وكتبوا مشايخ الزوايا السنوسية ورؤساء القبائل ومع هذا «عرب بقيت تأنى طاعتهم فأخرجوا تابور بحرية وثلاثة قواير مشاة و بطارية مدافع وصعدت هذه القوة الى رأس تبع درنة فى الوادى المعروف بوادى الشواعر فصدتهم على افتدى العوا كلى بقومه وتوافت اليه الاعراب فهزموا الطليان هزيمة شتعا، قتل منهم فيها

مئات وجرح مئات بعد أن استمر القتال ١٢ ساعة وغنمت قبيلة الشواعر ٨٠ بندقية والعواكلة ١٢٠ بندقية ومن الحيوانات وفرطاس البنادق شيئاً كثيراً . ولم يسقط من العرب الا ١٢ مجاهداً من العواكلة وستة من الشواعر . فاشتدت بهذه النصرات عزائم العرب وتقوت قلوبهم وكان أنور قد وصل الى « دفنا » يوم جرت واقعة وادي الشواعر هذه فسكر يطير فرحاً وعلم أنه يقدر أن يقاتل برجال كهؤلاء . وقبل واقعة وادي الشواعر لم يكن حصل الا مناوشتان مع العرب بنى يازيد من العبيدات قتل فيهما ٥٠ طلياناً . أما بعد وصول أنور فإن الطليان امتنعوا عن الخروج مدة واعتصموا باستحكاماتهم وأخيراً خرجوا بقوة عظيمة وصارت الواقعة المسماة « الضبطة » وألحوا على معسكر أنور واسكن العرب هزمتهم وتركوا مئات من القتلى والجرحى وغنم العرب ١٣ بطلاً موفرة ومئات من البنادق واستشهد من العرب ٤٠ مجاهداً . وكانت هذه المعركة في ٣١

ديسمبر ١٩١١

ثم في ١٧ يناير سنة ١٩١٢ جرت واقعة بين الطليان وجيش العرب الشرقي أي الحميم تسمى درنه فتقهقر العرب وقتل منهم ١٨ مجاهداً وأمرع الجيش الغربي فاجده فوجد في صريقة تابورين من الطليان فهزمهما وقتل منهما ١٥٠ جندياً . ثم في ٣٠ يناير هجمت قبيلة البرقعة على استحكام سيدي عبد الله إيلا وهو ملائح بالمدايع الهائلة الكبيرة وكان هجوماً بجماعة نادرة المثل في تواريخ الحروب الا أن البرقعة لم يغتروا على الاستحكام ووقع منهم ٧١ شهيداً . وجرت واقعة في ٣٠ مارس ١٩١٢ استمرت طول النهار وانهمز الطليان وقتل منهم أربعائة منهم ثلاثة ضباط كبار وقتل من العرب ٣٧ وجرح ١٥٠ مجاهداً وغنموا ١٥٠ بندقية وثمانية صناديق ملائح بالمقتنيات

وفي شهر مارس جرت واقعة كانت أنا السبب فيها لأنى كنت وصلت مجاهداً ومعى خمسة رجال من أخصائى من جبل لبنان باقى منهم فى الحياة واحد هو عجاج أغا عبد الصمد من عماطور فلما وصلت الى معسكر عين منصور تقابلت مع أنور ومصطفى كمال وغيرهما من الفواد وصرت متربحاً لشرب واقعة لأشدها . فقتل أيام ولم يحصل شئ سوى مناوشات بين الطلائع . فبينما أنا أتحدث الى رشيد بك ابن المشير فواد باشا المجرىسى^(١) قال لى :

(١) استشهد رحمه الله فى حرب البلقان عند استرداد البلقان لادرنه سنة ١٩١٢

ان شئت نريك وقعة غداً . فذهبت أنا واباء الى ضلع جهيل مناوح لاستحكام سيدي
عبد الله وبنهما واد عميق . وجميع تلك المصاب مكسوة بالأشجار من غصص وغبره وفررنا
أن نكون الوقعة هناك وجبررنا مدفعين صغيرين من خمسة مدافع صغار هي كل ما كان
في جيش أنور ووضعناهما بإزاء استحكام الطالبان . وثاني يوم بكرنا الى ذلك المكان
وجئتم العرب في المتاريس بإزاء الاستحكام . وذهبت أنا وتقدمت وجئتم مثلهم وراء
متراس . ثم جاء مصطفى كمال وكان يومئذ قائد أثف وثاني أنور في القيادة لجلس بجاني . ثم
جاء أنور رحمه الله ثم بهاء رشيد بك ابن فؤاد باشا ثم جاء ضابط دمشق ذهب اسمه من بالي
ثم جاء ضابط الماني اسمه البارون غومبيرغ من أنبل غالات مونيخ وهو لا يزال في الحياة
من آخر أصدقائي . وبعد أن أخذنا مقاعدنا بدأنا برمي القنابر من المدفعين الصغيرين
حين كنا وضعناهما هناك قبل الوقعة بيوم . فأكثرت أصوات قنابرنا تدوي حتى انفتحت
قنابر مدافع استحكام الطالبان المسمى بسيدي عبد الله نصف نصف الرعود وأخذت القنابر
مسافة علينا كالطر وهي من نوع الشراييل واشتد رمي الرصاص من العرب . فاستمرت
الوقعة من الصباح الى الظلام لكن بقي كل فريق في أرضه فلا نحن رخصنا اليهم ولا هم
سدوا نحونا . ولما انتصف النهار اشتد بنا الجوع وكان مع مصطفى كمال رغيص من الخبز
اسمه بدنا وكنا خمسة وراء ذلك المتراس فاصاب كلا منا فردقة . وكان الهلال الاحمر
يعمرى قد جعلني مضطراً على بعثائه الطبية في تلك الحرب فلما رأوا في مخيم الهلال الاحمر انه
تسبب النهار والحرب مشقة ولا تقدر أن تبرح المصاب أرسلوا لنا غداة تامة فيه ما يكفي
من الخبز والجبن والزيتون والعلل وأرسلوا زمزمية ماء وجاء شاب صفا قسي اسمه على كنت
بخدمته عندي ومعه الطعام فأخذ يدب بين المتاريس الى أن وصل اليها فنفعنا السفره
وأكلنا وهدت نال منا الجوع كل منال فلم أعهد في حياتي اني أكلت أكلة أشهى منها .
ومد الطعام غلب على النعاس لأنني نهضت ذلك اليوم من الفجر لحضور الواقعة فأشار على
مصطفى كمال بان أبيت في ظل شجرة غصص صغيرة على مسافة ٢٠ متراً من المتراس .
فذهبت واضطجعت على التراب ومن شدة النعاس غلب الكرى على برغم قصف المدافع
والصوت نحواً من ٢٠ دقيقة وأذ بكثرة تراب غمرتني خفاة فاستيقظت مذعوراً فأذا بكثرة
البنل سقطت بجاني وانفجرت قنابلي منها التراب الذي اطاره من الارض فقامت

ورجعت فخلست الى جانب مصطفى كمال وانور وراء المناس . والحشد البارون غومبيرغ
بالتوغرافيا صورنا جميعاً ونحن هناك ولا تزال هذه الصورة محفوظة . ذكرت هذه القصة
لأنهما من ألد ذكريات حياتي . ولأن رفاقي ذلك اليوم صاروا فيما بعد من رجال التاريخ
أحدهم أنور أشهر من أن يذكر والثاني الغازي مصطفى كمال رئيس جمهوريته تركيا الحالي
ولم يقع منافي تلك الوقعة الا نزر من القنلى والجرحى

ثم جرت وقائع فيما بعد أشهرها واقعة قصر المين استشهد فيها من العرب ٥٠٠ وقيل
من الطليان أكثر من هذا العدد . وما زالت المعارك هناك تتوالى الى أن انتهت حرب
البلقان فألح الأتراك على أنور بالرجوع الى الاستانة فراجع مكرهاً وسلم القيادة الى عزيز
بك المصرى الذى واصل قتال الطليان . ثم لما عقدت الدولة الصلح مع إيطاليا رأى عزيز
بك نفسه مضطراً الى ترك القتال فسحب العسكر النظامى الذى كان فى برقة وكانوا زهاء
أربعمائة وأخذ الأسلحة التى أمكنه أخذها وسار قاصداً الحدود المصرية . وهو بهذا لم يعمل
الا بحسب الأصول الدولية ولكن المجاهدين السنوسيين تقدموا عليه انه عطل المدافع التى
بقيت عندهم ودفن القراطيس والفدائف فى الأرض . وهذه رايهم التى رويها الجميع
الناس وحرروها وقدموها الى الاستانة والله أعلم بها . ثم إن عزيز بك أبى أن يسلم العرب
البنادق التى مع عسكره وذلك وفقاً للأصول الحربية التى تقضى بعد انعقاد الصلح بين تركيا
 وإيطاليا أن لا يسلم العسكر العثماني أسلحة لأعداء إيطاليا . ولكن العرب لم يقبلوا هذا العذر
أيضاً ولم يفهموا كيف أن الدولة بعد أن عقدت الصلح مع إيطاليا مكرهة مرغمة بسبب
حرب البلقان تعود فتسحب هذه القوة الضخمة التى كانت باقية لها فى برقة ثم تأبى أن تترك
لهم البنادق التى كان يحملها الأربعمائة عسكرى الذين مع عزيز بك ؟ ولقد تلك أصرروا على
عزيز بك فى تسليمهم البنادق وبدأوا أولاً معه بالجدال وانتهوا أخيراً الى الجلاء . فوقع
حادثة مؤسفة مؤلمة نرى من واجبات الأمانة التى تلزم المؤرخ عند ذكر الوقائع أن لا ندعها
مستكوناً عنها كيف كان الخطأ فيها . وذلك أن الأعراب بعثهم عند مقاطعوا أمتهم من
سلم البنادق بالرضى أطلقوا الرصاص على العسكر العثماني وكان قد خيم فى « دفنا » عربى
السلام ولم يبق الا أن يصل الى الحدود . ولعلهم قتلوا أو جرحوا بعضاً من العسكر . وأمر
عزيز بك بمقابلتهم بالمثل فنشبت معركة سقط فيها أكثر من ستين قتيلاً من العرب ووضعه

غنى قتيلاً من الجند . وعند ذلك امتد صرخ العرب بعضها الى بعض وأقبلت من كل
 صوب تريد الانتقام من عزيز بك وعسكره . وهذا كله في دفتنا والأراضي المسماة بالبطان .
 واخذت العرب تجتمع لمهاجمة الجند النظامي . وكان السيد أحمد الشريف السنوسي في الجبل
 الأخضر وقد سخر الجو بينه وبين عزيز بك المصري سبب محب هذا للعسكر النظامي
 وتخليته لبرقة ولما كان في برقة كان يرضى بأن تكون النهاية قتل الماسيين بعضهم بعضاً وأن يرفع
 العرب بجند الدولة التي كانت تحافظ على بلادهم . فأرسل السيد السنوسي الأكبر السيد
 السيد عمر المختار انلافي الشر ومنع الأعراب من الهجوم فقطع عمر المختار مسافة أربعة أيام
 في يوم واحد مواصلاً الأغناد الى أن أدرك العرب قبل هجومهم فجبر الشر والجميع ما في
 مقاتلة عسكر الدولة من الفضيحة والسماتة وسوء القالة وسد أبواب عواطف الدولة على عرب
 سرايس وما زال بهم حتى اقتنعهم بأمر السيد السنوسي أن يتركوا نأرهم ويعدوا هذه الواقعة
 كأنها لم تكن . وبمقابلة ذلك أخذ لهم فيها سمعت البنات التي كانت مسئلتها هي سبب الشر
 الذي وقع . واسكن عزيز بك على المصري وحل الى مصر ثم الى الاستانة وقد امتلأ صدره
 وغراً على السنوسية كما أنهم هم أيضاً قدسوا الشكوى بتقته الى الدولة بعد أن صار أتور
 نظراً للحرية وانهمود بأشياء كثيرة أماتته الدولة من أجلها الى المحاكمة . ثم خلت بعد
 ذلك سبيله بشرط أن يغادر تركيا فغادرها الى مصر وطنه في خبر ليس هذا محله لأنه يتعلق
 بموضوع الحركة العربية على تركيا أكثر مما يتعلق بطرابلس الغرب

و بعد أن خرج عزيز بك من برقة أصبحت القيادة الفعلية بيد السيد أحمد الشريف
 السنوسي كبير الطريقة السنوسية وكان أكثر اعتداده في الأمور الجهادية على عمر المختار .
 واحتل الطليان غرة الحرب البلقانية مع تركيا فأوجفوا على السنوسية بقوتهم اعلمهم
 بسوخون ذلك القطر بتخلي الأتراك عنه فلم يبالوا أولاً لأن السنوسيين صدوهم من كل
 جهة . وابت الطليان منحصرين في المدن الساحلية . فليجأ الطليان الى الخديوي السابق
 واقنعوه بالتدخل في القضية لعل السنوسي يخضع لاطيالية بواسطته — ولتظ الناس يومئذ
 بأن الطليان وعدوا الخديوي بأن يشنوا منه خطاً جديداً مربوط الذي كان يخصه وانه أعلم
 فأرسل الخديوي رسالاً من قبله عدة مرات بفترح على السنوسي الاتفاق مع ايطالية فاعتذر
 السنوسي عن قبول ذلك حسبما حدثني هو بغمه وأجاب الخديوي بأنه هو لا يملك ذلك القطر

ليتركه عنه لايطالية وان الاسلام يمنع من تسلح البلاد للطلبان مادام فيه عرق ينبض . ولعل
الخديوي السابق أراد بهذا التوسط تخفيف الشر ولم يكن له مقصد في ضرر السنوسية الا أن
فضية بيع سكة مربوط من الطليان قد دارت على الألسن سواء كانت صحيحة أم لم تكن
فقدشت وجه الوساطة وأصبحت آذان السنوسية عن سماع الكلام . ثم ان الطليان لم يتمكنوا
من شراء سكة مربوط نظراً لمعارضة الحكومة المصرية لذلك بالتواطؤ مع الانكليز مرة .
ولقد أشار جيوليني رئيس نظار ايطالية الشهير في « مذكراته » الى مساعدة الخديوي السابق
لايطالية في الحرب الفرابلسية واسكنه لم يذكر شيئاً من فضية سكة مربوط وانما قال : « إن
عباس حلمي الخديوي السابق كان ماعداً لنا من أول هذه الحرب وبواسطته أمكننا
الاتفاق مع الادريسي في عسير ويقول الخديوي انه أراد بما فعله مكافأتنا على حسن المعاملة
التي لقيها منا أبوه عند ما كان منفيًا من مصر وأقام بناهوي »

ومن هذه الجمله يعرف القارئ ان جيوليني لا يؤخذ كلامه فضية مسلمة افلا نرى
انه يخلط بين والد الخديوي وجده اسماعيل باشا الذي كان هو المنفي الى ايطالية لا والد
الخديوي ولا عجب في هذا فان جيوليني حرره مذكراته بعد أن ناهز الخامسة والثلاثين من
العمر ومن علت منه الى هذه الدرجة فأحرره به أن يروي عن زيد ما يكون أحباً صدر
عن عمرو . والله أعلم بالحقيقة

ونعود الى خبر برقة بعد أن تركها الازراك فنقول ان السيد السنوسي أسس فيها
حكومة سنوسية وبقى يجاهد فيها الطليان ويقمعهم في الثغور البحرية بنغازي ودرنة الى
الحرب العامة اذ بعث اليه أنور بأخيه نوري ومعه الاوامر بالرحيل الى مصر لمشاغلة الانكليز
فيها . وكان السيد غير مرتاح الى هذه الغزاة خوفاً الفشل وكان الانكليز كفتش
وما كسويل وغيرهما يصنعونه ويشتمون اليه الهدايا اللطيفة يكتبون بها شره عليهم وقرأت
عنده كثيراً من رسائل الموردين كفتش والجنرال ما كسويل وهما يبالغان في تعظيمه واسترضاء
خاطره وما استجلب نظري أكثر من الجميع مكتوب بالعربي من الموردين كفتش بحري بعبارة
بليغة وباسجاع وشيقة ويخطأ لم أجد أبدع منه في حيائي مخاطب فيه الموردين كفتش السيد أحد
الشريف كما يخاطب الموردين ويلقيه بسلامة النبي الأعظم ﷺ وكل هذا مداراة منهم له ليكف
عن مهاجمة مصر . ولم يكن السنوسي قد تأسساً عن الرحيل الى مصر بسبب هذه المصالحات

الانكليزية وإنما كان يعوقه ان القوة التي كانت بيده لم تكن كافية وكان يخشى أن تدور عليه الدائرة فلما رأى ما رأى من الخاج أتور ونوري ونوبسح الوطنيين من المصريين اياه على النفاق اختار الزحف وكان من الأمر ما كان من الفضل الذي قد توقعه لما قد استوفينا شرحه في صفحة ١١٤ و صفحة ١١٥ و صفحة ١١٦ الى صفحة ١٢٩ من الجزء الاول من الطبعة الاولى من هذا الكتاب فمن شاء فليراجع هذا المبحث هناك ولكننا هنا نفشر ما وجدناه بين أوراقنا كتبنا واردة من السير مكماهون معتمد المجلعة بمصر ومن المورث كفتير ومن الجنرال مكسويل الفائذ العام للجيش الانكليزية بمصر الى السيد انيسوسي أحمد الشريف أخذنا فسخنا من نفس السيد انيسوسي اليه وهي من أهم الوثائق التاريخية المتعلقة بالحرب العامة

هذا وأحسن تاريخ عربي لطرابلس الغرب هو « المتنبى العذب في تاريخ طرابلس الغرب » تأليف أحمد بك النائب الاوسى الانصارى الطرابلسى أصله من جالية الأندلس في القرن السابع للهجرة وهذا التاريخ مطبوع في الاستانة العلية سنة ١٣١٧ هجرية

وأول رحلة قام بها أوربي الى طرابلس الغرب الميولومير قنصل فرنسة في طرابلس جول في تلك البلاد وكتب عنها رحلة بأمر لويس الرابع عشر ملك فرنسة . ثم افترق آثره بولس لوكاس فزارها سنة ١٧١٠ ثم سنة ١٧٣٣ ثم الدكتور توماس شاو زارها سنة ١٧٣٨ ثم في سنة ١٧٦٠ بلاءها من مصر فرنسي معلم طبيعيات اسمه غرانجه وفي سنة ١٧٦٨ و ١٧٧٢ زارها جوس بروس السائح الى الحبشة

وفي أوائل القرن التاسع عشر المسيحي سائح فيها الدكتور سرفلي الايطالي وتحرير ذلك أن والى طرابلس يوسف باشا القرمانلى ستر جيشاً لعقاب ولده الذي كان في درنه معاه . فكان في هذه الحلة الدكتور سرفلي وحرر أشياء مهمة نشرتها جمعية فرنسة الجغرافية . ثم عصى بعض العرب في جهة المرج بالجيل الأخضر فصرح اليهم والى جيشاً كان فيه طلياني آخر اسمه « دلاسل » فكتب رحلة ترجمت الى الانكليزية سنة ١٨٢٢ ثم زار برقة والجيل الأخضر الأب باسيفيكك جاءها من طرابلس . سنة ١٨٢٠ أراد جنرال روسياني أن يعمل سياحة في هذا القطر فاستصحب علماء وكتاباً وسار اليه من مصر لكنه فقد ثلاثة من أصحابه قبل أن وصل الى الجبل الأخضر فرجع أدراجه . سنة ١٨٢١

ساح القبطان ييشي في بر طرابلس وصور المواقع بالضبط سنة ١٨٢٤ و ١٨٢٦ خرج باشو الفرنسي وقام برحلة في القطر الطرابلسي وكتب عنه أربعة مجلدات ، وكان المسبو ديورفيل قنصلا لفرنسة في بنغازي وذلك سنة ١٨٤٨ فجمع كثيرا من الآثار القديمة التي وجدها في الجبل الأخضر وهي الآن في متحف اللوفر . ثم ان الدكتور برت ساح في طرابلس قبل أن ساح الى تنيسكو . سنة ١٨٥٥ ساح المستر جيس هاميلتون من بنغازي الى أوجلة الى سيوه الى مصر

سنة ١٨٦٠ و ١٨٦١ أجرى هذه السباحة القبطان مردوك سميث والكومندور بورشر الانكليزيان وكتبتا كتابا طبع سنة ١٨٦٤

وكان للقطر الطرابلسي من الصولة والمنعة وهبوب ريح العزفي البحر المتوسطا للقطر التونسي والقطر الجزائري والقطر المراكشي وكانت له الأساطيل القاهرة وكان ولاية طرابلس يأخذون الجزري من الدول الأوروبية وتدفعها هذه لهم . وقد روى صاحب كتاب « المهن العنيد » السالف الذكر في حوادث سنة ١٢١٣ ما يأتي :

« وفي هذه السنة كان يوسف باشا (١) دولة الاسويج يدفع مائة ألف فرنك عطية وغانية آلاف فرنك سنوية فرفض قنصلها هذا الاقتراح فأرسل يوسف باشا الأساطيل لمهاجتها وبث السرايا على سواحلها والقبض على مراكب رعاياها التجارية فغنموا سبع سفائن فالتجأوا الى نابليون بونابرت وهو وقتئذ بمصر . وسنة ١٢١٣ انعقد الصلح بواسطة مندوب بونابرت على أن تدفع السويج ثمانين ألف فرنك غرامة وغانية آلاف فرنك سنوية وتترك تلك السفائن للحكومة المحلية وتعاد أسارى الاسويج »

وذكر بعد ذلك وقائع كثيرة كانت تحصل بين دولة نابولي وطرابلس وبين دولة صردانية (٢) وطرابلس من أجل استنكافهما عن دفع الهدية السنوية لولاية طرابلس . وذلك الأيام نداولها بين الناس

(١) أي المرماني والى طرابلس

(٢) دولة آل سافوي ملوك ايطالية الحاليين

الكتب الواردة

على السيد أحمد الشريف السنوسي

من الموردين كشتن والبير مكاهون والجنرال مكسويل

» (١) «

من مصر القاهرة في ٢٢ صفر ١٣٣١

بسم الله قبل كل شيء

من عبدة الله المتوكل على الله سبحانه وتعالى لورد كشتن المعتمد السيامي بخالة
جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى بالنظر المصري

الى ميهبط اسرار الحضرة الربانية ومصدر صفوة الارشادات المادية صاحب التجليات
الانسية والنفحات القدسية قطب دائرة اهل الفضل والكمال وخلاصة ارباب الحياء والجلال
المتحلي بروحانية اسلافه الطيبين الطاهرين والمتجمل بصفات اهل الجلال واليقين والمتخلي عن
اوضاع الاغيار في مهب عبادته رب العالمين دوحة الشجرة الهاشمية وبضعة السلالة العلوية
خليفة صاحب ذلك النور القدوسي سيدي أحمد الشريف السنوسي رضي الله عنه وايدده
بروح منه

أما بعد فان الفرصة التي دعيتي الآن مكانية السيد الجليل أحسبها من أشرف الفرص
وإن كانت قصتها الداعية اليها ليست من أحسن القصص على أن السيد الجليل والشريف
السبيح خليفة ذلك الانام المهدي العظيم وولي الله الكريم قد يسره أن ترفع اليه الطلعات
ليحسني آمال رافعيها وأن تصل اليه أصوات الضراعات ليكون ملجأ ضارعيها ولهذا يسرني
أن أكون الواسطة لديكم لرفع مظالم قد ارتكبها من لم تخاطب هدايتكم فلو بهم ولم تستأصل
ارشاداتكم العالية من نفوسهم الخاطئة ذنوبهم ولذلك أكتب لمقامكم الجليل بما يلي :

قد ورد لي من سعادة حاكم السودان العام أن جماعة من عربان الكيايش التابعين
لحكومة السودان ويبلغ عددهم تسعة وعشرين رجلاً قضاوا ببر النطرون الزناج لمصرية
دفعلاً وبينما كانوا عند البئر إذ انقضّ عليهم عدد عظيم من العربان بينهم نحو مائة من

(م ٩ - ثاني)

أهل قران أتباع الطريقة السنوسية الشريفة والياقون من أهل زعلاوة والبيديات واعتصموا
عليهم شر اعتداء وكان دافعهم الى هذا الشر وداعيتهم اليه قبل كل أحد زعيم القرانيين
واسمه الشيخ محمد أبو دوشى القراني أحد الخاضعين لسلطانكم والمنظفين بقتل حوائكم
واحسانكم اذ ذهب برجله الى عربان غزاوة والبيديات وطلب منهم الانضمام اليه لقائلة
الكبايش وحرضهم على ذلك حتى انصاع اليه جمع منهم فبلغ ذلك عدد عصابة التي أغار
بها على ذلك النفر القليل زهاء مائتين وسبعة وأربعين رجلاً. أغار بهذا العدد الكبير على
أولئك النفر القلائل ولم يخف سطوة الله عز وجل ولم يذكر أن عمليته المنكر فضلاً عن
دونه يغضب الله وملائكته سبحانه عليه سخطكم وغضبكم الذي هو من سخط الله
وغضبه وكأنه لم يذكره أن يكون عدده كثيراً كالخيش الخرار بازاء جماعة الكبايش
الذين كانوا عند البئر بل أخذهم غداً وفاجأهم على غرة منهم فبينا كانوا آمنين
لا يحسبون للشر حساباً إذ أطاف عليهم رجاله من يناديهم الرأ حامية كادت أن تحصدهم
حصداً فلما رأهم قد وقفوا أمامهم برهة من الزمن جعلوا عليهم يسوقهم ورمحهم فطعنوهم
في صدورهم أنسكى الطعنة وقتلوا بذلك ثمانية وجرحوا ثلاثة وأربعين وسلبوا ما كان
معه من سلاح ومتاع ثم استاقوا جملهم وعددها مائة وواحد وأربعون ثمة عليهم من الاحمال
غير مبالغين بأن يعدوا في شر بعثة الاسلام من العائدين في الأرض فساداً وأن جزاءهم فيها
إذا وجدوا فتاة عدواً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا
من الأرض الخ الآية الكريمة فيرى السيد حفظة الله ووفقه لاجراء عمله على حكم الله
وسنة رسوله الأمين أن جماعة القرانيين الذين ينسبون أنفسهم الى طريقة الشريفة ويعتزون
في طول البلاد وعرضها بعزها قد خانوا الله وخانوا محجة رسول الله البيضاء وخانوا عهد
طريقكم السمحاء ولم يأتوا بغضب الله ولا بغضبكم ولم يذكروا اليوم الآخر وحسابه وبطش
الله وعقابه وهذا غريب جداً أمها السيد الكريم مع ما يعلم الفصيح والداني من خضوع
هؤلاء الأقوام لسلطونكم وانما هم بأوامركم ومع ما سارت الركبان والأمتال من أخبار
عدلكم المشهور وشدة بأسكم على أهل البرق والعناد وما تنحلي به شخصكم الكريم من
صفات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي انتهت اليكم ترافاً عن أسلافكم العظام
الأ كابر ذوي البأس الشديد والتاريخ المجيد فكيف مع هذا يجرؤ قوم أشداء كثير العدد

من أتباع طريقتكم الشريعة على الاعتناء على قوم مستضعفين قليلي النفرة فيقتلون منهم
الأنفس ويسلبون الأموال والمتاع وهم مع هذا يرون أنهم من أتباعكم خالقون بحمايتكم
وحسن رعايتكم

لقد كان في وسع حكومة جلالة الملك أن تتخذ في مثل هذا الحادث إجراءت أخرى
عظيمة التأثير والأثر على أمثال أولئك الطغاة البغاة وتضرب بهم الأمثال للناس وهي لا تعد
الوسيلة لذلك ولكني بما أعرفه عن سيادتكم من حب العدل والإنصاف والفسحة على إقامة
معالم الشريعة الغراء في البلاد والجهات التي يصل لها نفوذكم وتمتد إليها سلاطنتكم قد فضلت
أن أراجع مقامكم السامي في هذه النازلة لرفعها طبق ما يقتضيه العدل الإسلامي الذي لا يأباه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه

فإذا شاء السيد حفظه الله تحقيق آمالي في عدله وإنصافه في أسهل على حضراته أن
يأمر تابعيه بكف الأذى عن جيرانهم وأخوانهم في الدين وأن يكف أولئك المعذنين برد
الجمال والاحمال التي سلبوها مع دفع التعويضات كما يراها السيد بالحق المدة للفقير والتعويض
للمجروح فلعلنا وعدونا ولست أظن أنه يوجد من الموانع ما يتحول دون توقيع عدله
الإجراءات على مستحقها عند فضيلة السيئة ولكن إذا كان هناك مانع لا أعرفه فإني أرجو
من حضراته السريعة أن تشرفني بإفادتي عن الطريقة التي يحسن اتباعها للوصول إلى تلك
الغاية من غير أن يمس كرامتكم التي أودت أن أحفظ عليها دائماً وأطلب من الله المزيد فيها
وقد أرفقت بكتابي هذا بياناً مشتملاً على أسماء الأشخاص المعتدى عليهم من عرب
السككيات ومن قتل ومن جرح منهم انكسروا على بيته من الأمر والتجروا العدل فيهم كما
أمر الله جعلكم الله ملاذاً أعلى لتحقيق عدله بين خلقه وامتكم بروح منه مداً استقامته
إليك متواضعة وعنايته بكم شاملة ونفعنا الله ببركاتكم على الدوام آمين
(المورد كندش باشا)

• (٢) •

مصر القاهرة في ١٥ يناير سنة ١٩١٥ — ٢٩ صفر ١٣٣٣

قلب دائرة أهل الفضل والكمال وخلاصة أرباب الحجى والجلال أمام المحاضرين

ودعوة المرشدين الاستاذ الأعظم والملاذ الانغم السيد أحمد الشريف السنوسي أعزه الله

سلام الله الاسنى وتحياته المباركة الحسنى تخص مقام السيادة وبعد فاني بحمد الله
ومعونته وصلت الى مصر تائباً عن جلالة الملك جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى
وامبراطور الهند الذى أعلن حاجته على هذا القطار العبد ليحفظ سلطنته من اعتداء
الاعتدين ويرقى به وبأهله في معارج التقدم والفلاح . ولما كانت علاقة حكومة هذا القطار
على الدوام ودية مع سيادتكم رأيت أن أبلغكم وصولي وأؤكد لكم ان العلاقات الودية
التي كانت لكم ولأسلافكم الكرام مع الحكومة المصرية تستمر في هذا العهد الجديد
كما كانت عليه من قبل من الود والسلام

الإمضاء

السيد مكهمون المهر الرسمي

• (٣) •

مصر القاهرة في ٣ ديسمبر سنة ١٩١٥ - ٢٥ محرم سنة ١٣٣٤

حضرة الأستاذ الأعظم السيد أحمد الشريف السنوسي الخطاطي الأديب الحسنى دام
وجوده الكريم

تحية وسلاماً وبعد فقد أدهشني ما وجدته بعد عودتي الى مصر من زيارة الجيوش
المتحالفة في غايبوتي . ان العلاقات بيننا قد حدث فيها تغيير . وان اتباع سيادتكم قد
ارتكبوا أخطاءاً عدائية ضد الحكومة المصرية .

وقد سمعت بارتياح انكم أرسلتم كبيراً من مستشاركم الى اليمنى ليرى في ارجاع
بعض اتباعكم الذين عصوا أوامركم ولكنني تعجبت اذ سمعت ان هؤلاء الاتباع قد تقادوا
في العصابات حتى انهم لم يطيعوا الأوامر فقط بل أطلقوا الرصاص فعلاً على جعفر أفندي .
هذا وقد بلغني أيضاً ما همى وهو أن سبعين رجلاً من رجال الدولة البريطانية الذين نجوا من
مركب غرقته غواصة العدو قد حجزوا غرب حدودنا . فأسألكم برهاناً على العواطف
الودية التي أظهرتموها لنا أن ترسلوا هؤلاء الرجال المتكودي الحظ حالاً بدون اذى الى
مصرى مصر .

هذا ويظهر ان نفوذ توريك وأصدقائه الألمان عليكم يشبه نفوذ أنور باشا على
خلالة سلطان تركيا . وهذا النفوذ الضار هو الذي زج تركيا في هذه الحرب المهلكة والتي

سلفتهن حتى يزوال دولة الأتراك من الوجود إنكم تعلمون أن الحكومة المصرية
والحكومة البريطانية عاملتا سيادتكم بكل احترام واحترام وأما الآن فقد اضطرت بسبب
المقاصد السيئة التي تحيط بسيادتكم أن استدعى رجائي من نقطة السلام وأتخذ لهم مركزاً
في مرسى مطروح . وعليكم الآن أن يبينوا بأعمالكم وأعمال أتباعكم إذا كنتم تحبون
بقاء العلاقات الودية أم لا .

ومن الآن فصاعداً كل رجل من أتباعكم يعتدي الحدود حاملاً سلاحه اضطراً أن
أعده كمن له مقاصد عسائية وأعماله كذلك . لقد سألتكم أن تظهروا مقاصدكم الودية
بإبعاد الأشخاص الذين معكم الآن المعروفين بعداوتهم لنا وأناسف أن أرى أنكم لم تمكنوا
إلى الآن من إبعادهم .

إني لا أشك في أن السيد محمد عمر بق الادريسي قد سلمكم كتابي وفوضكم في
جميع الشؤون التي واجه اليه مفاوضتكم فيها ولا أشك في أنه بين لكم أن مقاصدكم تحوكم
ودية محضة وإن ما أوجب التغيير في العلاقات بيننا هو أعمال صدرت من جهنكم
لا من جهتنا .

ولا يعني إلا الظن بأن المسلمين قد نقلوا إليكم أخباراً كاذبة عن الحرب الأوربية
والحقيقة هي أن خسارة امبراطور الألمان وحلفائه بطيئة ولكنها كيدة على جميع خطوط
القتال والمستقبل يريكم ما أراده الله .

وإني أسألكم أن تنعموا النظر في الأمر وتعتبروا أنه إذا أخذتم لسوء الحظ خطة
عسائية فأنكم لا تجلبون عليكم إيطاليا فقط بل فرنسا وإنسكانرا ومصر وتحمّلون مسئولية
جميع النفوس التي تضيق في هذا السبيل وتعرضون بلادكم للجوع لأنفسكم عليكم طريق
الزاد والمؤونة برأ وتختصر الشطوط البحرية . وإذا كان مستشاروكم يعتمدون على
غواصات الأعداء فاعتمدوا قائم على لا شيء وإني أسألكم ذلك كله ليس بقصد التهديد
بل بقصد النصيحة كصديق . والأتراك يقضون لكم مأربهم ثم ينفذونكم بين التواء وراء
قهبورهم .

إن الحالة الحاضرة لا يمكن أن تبقى على ما هي عليه الآن ولذلك فإني أسألكم أن
تبرهنوا حسن مقاصدكم بالأعمال وليس بالأقوال وأن ترسلوا حالا إلى مرسى مطروح الرجال

الانكليز الذين نجوا من مركبهم وهم الآن غرب حدودنا، وأن تعيدوا العلاقات الودية معنا
وتخرجوا من بلادكم المستعارة من الأتراك والألمان أي نوري بك وباشاين وغيرهما من
الذين لا شك في أنهم يجلبون عليكم وعلى بلادكم عظميا .
ولي الرجاء انكم توفون هذه المسائل حقها من الاهتمام قبل أن يقع ضرر لا يمكن
تلافيه والسلام

الجنرال الميرجون مكسويل

القائد العام لجنود جلالة ملك بريطانيا العظمى بمصر

« (٤) »

مصر في ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٣٤ الموافق ٨ مارس سنة ١٩١٦

حضرة صاحب السيادة الأستاذ السيد أحمد البندوسى الكبير

تحية وسلاماً وبعد فقد وصلتني كتابكم المرسل بيد رسولكم موسى وليس لي أن
أزهد في الرد عليه تمحافته في كتبى السابقة . انى كنت دائماً أحذركم من خطر الاصغاء الى
نصائح نوري بك وجعفر وغيرهما لأن مصلحة هؤلاء تنافس مصالحكم على خط مستقيم .
فانكم بالاصغاء الى نصائحهم قد أنتم حرباً على مصر ونسبتم جيل بيت محمد على باشا الكبير
الذى يمتد صاحب العظمة السلطان حسين سلطان مصر الحالى .

انكم بعدتم الحدود ودخلتم الاراضى المصرية برجال مسلحة ومدافع وقد أطلقتم
برائكم على العساكر المصرية والانكليزية . وأظهرتم بكل جلاء ووضوح أن مفاصلكم
عدائية .

تقولون انى صدقت مقابلة سنو بك ولم أصدق ما قلتموه أتم . فانهو الصحيح ؟
إن جماعات من المحافظة المسلحة كانت على الدوام تأتي الى الاراضى المصرية المأبوع
منكم أو يعبر علم منكم ونسبى معاملة العرب الذين تحت إدارتنا ونأخذ منهم ضرائب بالقوة
وفد أطلق أنبياءكم الذين على الغواصات الانكليزية لغمر ماسهب . وأنزلت
الغواصات الألمانية المسلحة والعساكر وغيرها بقرب برديته وأطلقت نيرانها على ضرائر لغفر
السواحل وأغرقته وأنبياءكم لم يظفرو النار على الغواصات الألمانية بل استقبلوها بالترحاب .
ثم انكم حفظتم في الأسر جماعة من رعايا الدولة البريطانية الذين غرقوا وبورهم
وخرجوا الى سواحلكم . وقد حاربكم أنبياءكم تقطعا في البراقى والسبيل وأسروا عساكر الحرس

وسمروا بآذانهم وقطعوا خطوطنا التفرافية وعددوا نفلنا بالساقوم حتى اضطرت أن أصدر الأمر إلى سنوبك بالرجوع إلى مرسى مطروح وفي الوقت الذي كنتم فيه تصرحون بأن علاقائكم معنا على غاية الوداد كنتم تكتبون وترسلون مع رسلكم كتباً كاذبة أرفقها بكتابتى هذا وإلى مرسلها اليكم نعلم الحقيقة .

أرى انكم لازلتكم تذكرون أمر معاهدة عقدت مع الطليان ووجدت بين أوراى سنوبك . وأنا أعود فأكرر القول ان ذلك غير صحيح لسببين . الأول لأنه لم يعمل معاهدة مثل هذه قط والثاني لأن سنوبك لم يكن عنده السلطة لأن يعقد معاهدة كهذه .

ان جعفر الذى هو الآن أسير حرب يقول ان الانكليز الذين نجوا من الواور ولان فى الامر عندكم هم فى شقاء عظيم وليس عندهم ما يلزم من الثياب او الطعام . وانهم يقولون انهم على اتم الراحة والأمان . فأى القولين أصداق .

إنكم تشكون من أنى حجرت رسلكم هنا وأنا لم أفعل ذلك الا بعد أن بادأتمونى بالعصاة . إن الله وحده يعلم بالخطايا وما هو فى ضميركم . وكل ما يمكننى أن أقوله لكم ان أعمالكم كاذبة دلت على عدم قنصترو وروية ويلزم أن نحصوا الزرع الذى غرستموه .

إنكم بأعمالكم قد وفقتم موقف العدو ومادام فى الأراضي المصرية رجل مسيح من رجالكم فأنى أعبركم عدواً وقد سبقت فأخبركم عن الشروط التى بها ومنعها يمكننى أن أبدا بالتفاوضة معكم . وهذه الشروط أرسلتها فى كتاب مؤرخ فى ٢٨ صفر سنة ١٣٣٢ الموافق ٢ يناير سنة ١٩١٦ وهى كما يأتى :

(١) أن تردوا بسلام جميع الأسرى البريطانيين أو الهنود أو الأوربيين الذين فى يديكم .
(٢) يجب أن تبعدوا كل الأتراك أو الألمان الذين عندكم . وإن كنتم تجدون صعوبة فى إبعادهم فيمكنكم أن تسلموهم إلى أسرى حرب .

(٣) يجب أن تخرجوا جميع رجالكم المسلحين من الأراضي المصرية وتعهدهوا بعدم دخول رجال مسلحين إلى الأراضي المصرية وإذا دخلوا عوملوا معاملة أعداء حينما وجدوا .

(٤) يجب أن تجلو جلاء تاماً عن سيوه والساقوم وعن جميع البلاد التى إلى الشرق منها . وتقيموا بسلام فى الجغبوب فإذا كنتم الآن تخبئون هذه المطالب ونظيرون بالأعمال أنكم تريدون أن تكونوا على الوداد فأنى مستعد للقبول معكم أكثر مما تؤملون .

الجنرال السير جون مكسويل

المهر الرسمي

القائد العام لجيوش جلالة ملك بريطانيا العظمى

ما سبق في التاريخ من استيلاء الافرنج

على طرابلس الغرب

الافرنج

عند ما ضعف شأن العرب في صقلية وطردهم منها الملك رجار النورماني واخذت
إدارة أمورهم في تونس وطرابلس فسكر رجار في غزو طرابلس والمهدية فبعث بأسطول
نازل طرابلس آخر سنة ٥٣٧ للهجرة فنقب الافرنج سور طرابلس وكادوا يستولون عليها
إلا أن العرب انحدروا من الجوار فهزموا الافرنج وغنموا أسلحتهم ودوابهم ورجعوا
مائتين . ثم إن رجار لم يقطع الأمل من تلك البلاد وصار يتربص الفرصة لغزوها وفي سنة ٥٤٣
لهجرة أرسل أسطولاً بقيادة جورجى أمير البحر عنده فاستولى على المهدية واللائقانة
مركب ثم استولى على صفاقص وحصلت في طرابلس مجاعة أصاب الناس منها شدة عظيمة
واختلأت الأحوال وفنت الحامية فاحتل الافرنج الغرة وجاء أسطول رجار ونازل طرابلس
وقالها الافرنج برا وبحرا وكان أهل طرابلس قد اختلفوا فيما بينهم وأخرجوا الأمير الذي
كان عليهم محمد بن خرزون وولوا عليهم أميراً من ثنونه وحصلت بينهم فتنة استفاد منها
الافرنج فتمكنوا من البلدة وأخشوا في القتل والنهب ونجا كثير من أهل طرابلس إلى
الداخل وبعد أن تمكن الافرنج من البلدة نادوا بالأمان فراجع المسلمون إليها وأقاموا تحت
حكم الافرنج وانقرض أمر بني خرزون من طرابلس ثم ولي الافرنج أبي يحيى رافع بن مطروح
على طرابلس وأخذوا رهناً منه على الطاعة ونادوا في صقلية بالسير إلى طرابلس كما ينادى
الآن موسولينى بالسير إليها لأجل استعمارها فسار إليها أناس كثير من الافرنج واستولوا
على بلاد الساحل كلها وضموا على أهلها الجزية وصار لهم من طرابلس إلى قرب تونس ولم
يزالوا إلى أن استنفذ تلك البلاد كلها منهم عبد المؤمن بن علي سلطان دولة الموحدين وكان
ذلك سنة ٥٥٥ إذ نفى يحيى بن مطروح طاعة الافرنج واستنصر عبد المؤمن بن علي
الذي طرد الافرنج من المهدية بعد حصار شديد

ثم إن الافرنج رجعوا فغزوا طرابلس بعد ذلك بمائتي سنة . وكان فيها أمير اسمه ثابت بن محمد فجاءها الجنوبية سنة ٧٥٥ وكانوا جمعاً غفيراً فنزلوا بالبصرة أولاً كأنهم آتون لتجارة ثم بقيت لها ذات ليلة وصعدوا الأسوار وملكوها على الأهالي وهتف هاتفيهم بالحرب ولبسوا السلاح فاستيقظ الأهالي من مضاجعهم فرأوا بلدتهم بيد الافرنج فلم يكن منهم إلا النجاة بأنفسهم فاستباحها الافرنج ونهبوها ثم داخلهم أبو العباس أحمد بن مصكي صاحب قدس في فدائها فاشترطوا عليه خمسين ألف مثقال من الذهب العرين بجمعها الأهالي من قابس والحامة وبلاد الجريد ودفعوها إلى النصارى وأخرجوهم من طرابلس وبقيت أيضاً نحواً من مائة وخمسين سنة خالية من الافرنج . ثم غزاها الاسبانيول سنة ٩١٦ وكان أهلها قد استسلموا إلى الدعة وأهمقوا الدفاع عن بلدتهم فلما جاء الافرنج لم يكن منهم إلا الفرار وبقي الاسبانيول فيها إلى زمان بنى عثمان فأرسل أهالي طرابلس وفداً سنة ٩٣٦ إلى الاستانة العلية يستمدون السلطان سليمان القانوني رحمه الله لأجل إخراج الاسبانيول من طرابلس وكان الوفد الطرابلسي قد سئلوا الأمر على السلطان فأرسل معهم رجلاً اسمه مراد آغا ومعه قليل من الجند فنزل مراد آغا في قرية تاجوره على اثني عشر ميلاً شرقي طرابلس وحاصر طرابلس فعجز عن فتحها بتلك القوة القليلة ثم كان أهالي نابولي وحنوة غزوا المدينة واستولوا على جزيرة جربة فأرسل السلطان سليمان أساطيلهم فأوقعوا بهم وطردهم ثم في سنة ٩٥٨ قدم طرغود بك أمير البحر إلى طرابلس في مائة وعشرين سفينة وحاصرها وفتحها وبها مراد آغا من تاجوره وتولى الأمر فيها وبعد ذلك رجع طرغود بك إلى الاستانة ثم في سنة ٩٦٢ جاء طرغود بك بالأساطيل ونازل وهران وأخرج الاسبانيول منها ثم نازل بنزرت وأخرجهم أيضاً منها ثم غزا ميورقه وكورسكة ورجع إلى الاستانة بقتائم وافرة

عرب طرابلس

(حادثة : كنت رغبت الى حضرة اوجيه الأخ الفاضل السيد عبد الستار الباسل أحد كبار قبيلة الرماح بالفيوم ومن سراً ير مصر أن يكتب لي خلاصة عن عرب طرابلس لأن صاحب البيت أدري بما فيه فأرسل لي بالخلاصة التالية ثقيتها حرفياً) —
في القرن الخامس من الهجرة رحلت قبيلة هلال من جزيرة العرب الى مصر .
ورحل معها بطن من سليم خؤولته في بني هلال . أقاموا في مصر ما أقاموا ثم رحلوا الى افريقية وكانت اذ ذاك تابعة لخلافة الفاطميين في مصر .

سبب الرحيل الى افريقيا

كان في تونس عامل للفاطميين يدعى ابن باديس خلع طاعة الفاطميين وخطب للخليفة العباسي بغداد ورفع شعار العباسيين على دور الحكومة . كتفت حكومة مصر هاتين القبلتين بالذهاب الى افريقية وبحارثة ابن باديس وفعلاً رحلوا الى تلك الجهة وحرروا ابن باديس ونصره من البربر وكانت زعامة قبائل البربر اذ ذاك في زناتة . انتصرت هاتان القبيلتان على ابن باديس ومن معه وقتلوا البلاد وأرسلوا الى مصر بخبر هذا الفتح . ولما داهما لم يطمعا في الحكم ولا في ذلك . بن سلفا البلاد للفاطميين واكتفتا بأن تعيشا في الصحراء كما كانتا تعيشان من قبل . ثم انقسمتا الصحاري والمراعي بينهما فأخذت سليم صحراء طرابلس وأخذت هلال صحراء تونس . في هذه القسمة عين على سليم لأن صحراء تونس أنخصب من صحراء طرابلس . والسبب في ذلك أن سليم أقلية وهلال كثيرون لأن سليم لم يرحل من جزيرة العرب كلها كما رحلت هلال بل رحل بطن واحد منها وهو الذي خؤولته في هلال أما باقي سليم فيعضها في الجزيرة الى الآن وبعضها في السودان المصري وهو ما يسمونه الآن (بعرب بقارة سليم)

سليم طرابلس

انقسم سليم في طرابلس الى تفرق كبيرين . السكعوب وأبو الميل . أما السكعوب فهم ما يسكنون بين قصر ممرت مرفأ وحدود تونس غرباً وتشمل السكعوب قبائل « الحميد »

« وترهونه » و « أولاد سليمان » و « الرقصة » و قبائل أخرى صغيرة بعضها سكن مدن
السواحل وبعضها اندمج في هذه القبائل الكبيرة

أما أبو المليل فهو أولاد المسمون الآن بالسعدى نسبة إلى امرأة تدعى سعدى من
قبائل زمامة بنت عظيم من عظمائهم أخذت في حرب ابن باديس وتزوج بها زعيم سليم إذ
ذلك (أبو المليل) وهو أولاد كانوا يسكنون بين قصر « سرت » غرباً وعقبة السنوم شرقاً .

يتمتع أولاد سعدى هذه إلى ثلاث قبائل (١) براغيت (٢) عقافرة (٣) سلالة

١ - السلالة أو بني سلام يكونون الآن ثلاث قبائل جميعها تسكن مصر وهم (١)
الحنادى (٢) بني عونه (٣) الجبالية

٢ - العقافرة أو بني عقفار . يكونون الآن أولاد على وهم جميعاً بمصر . والخراني
وبعد الفتيحة يسكنون منها نخس قبائل وهي البراعة والعبيدات والدرسة والحاسة وأولاد
خيد وهو أولاد فريق منهم في مصر وفريق في شرابلس

٣ - البراغيت وهم يكونون (١) الفوائد وهذه جميعها بمصر (٢) الرماح (قبيلتنا)
وبعد فليسيها بمصر وفيليل منهم في شرابلس (٣) الجيارية أو أولاد جبريل وهم ثلاث قبائل
(١) العرافة وجميعها بطرابلس (٢) الجوازى وجميعها بمصر (٣) الغسارية وجميعهم
بشرابلس

٤ - العبيد وجميعهم بطرابلس

٥ - العرفاء أو أولاد عريف وكلهم بطرابلس

هذه هي قبائل سليم التي سكنت طرابلس وأول مجيئ بعض هذه القبائل إلى مصر
في أواخر القرن الثاني عشر من الهجرة وأول من جاء منهم بنو سلام ثم بعدهم جاءت قبيلة
أولاد على من العقافرة . ثم في أوائل القرن الثالث عشر جاءت بعض القبائل الأخرى وكان
ذلك سبب حروب وقعت بينهم وبين إخوانهم الذين بقوا في طرابلس إلى حرب الطلابان
هذا ياسينى الأمير مختصر تاريخ هذه القبائل بعضها أخذته من ابن خلدون وصيغ
الأصل . أما بعد القرن التاسع من الهجرة فهي روايات تتناقضها الأبناء عن الآباء أخذتها
من الشيوخ نقلاً عن شيوخ قبلهم مدعمة ببعض أشعارهم وأغانيهم

السَّنُوسِيَّة

الشيخ

سبق ذكر مجمل الدعوة الوهابية : وانتهى اصلاح ديني واثابه الى عقيدة السلف الصالح لولا ما أصابها من القلوب والافراط . أما السنوسية^(١) فهي طريقة عملي بالسنة والدراسة بدون شرط ولا قصور . مؤسسها سيدي محمد بن علي السنوسي الخطابي من عبود أعيان القرن الثالث عشر للهجرة : أصله من الجزائر من قبيلة مجاهر من جهات مستغانم . جده سيدي عبد الله بن خطاب المجاهري . واطلعت لهم على نسب ينتهي الى علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء رضي الله عنهما ويقال ان عدد أبناء هذا الخي يبلغ ٧٠ ألف نسمة وأنه ينتهي اليهم وينتسب حو لهم نحو ٢٠٠ ألف أكثرهم في (عمالة) و (حران) بجوار نهر شلف . وقرأت أن رئيس هذه القبيلة اليوم هو سيدي أحمد الشارف بن تلولك^(٢) وأن سيدي أحمد الشارف هو شيخ الطريقة السنوسية بالقطر الجزائري . والذي أعتقه أن الحسومة الفرنسية في المغرب لا تسمح بنشر الطريقة السنوسية التي تعدها خطراً عظيماً على الاستعمار . وأنها تسمح لسائر الطرق مع المراقبة اللازمة لها لكنها لا تقبل غيرها ولا عدلاً من جهة السنوسية التي نعم من قوتها ومن مقاديرها العملية ما تعلم .

أما سيدي محمد بن علي السنوسي فقد كان عالماً عاملاً كبيراً مجتهداً . خرج من الجزائر عند ما احتلها الفرنسي . وطاف بالبلدان وجميع البيت الحرام ولقي كبار الأشخاص من جلهم والد الأديب القاسم عيسى . ويظهر أنه رأى القطر الطرابلسي أكثر استعداداً من غيره لقبول دعوته فابتدأ بتأسيس طريقته في طرابلس وعاونه على ذلك سيدي أبو القاسم العيسوي والد الشيخين الاجلين سيدي أحمد العيسوي شيخ زاوية السنوسي ببنغازي . وصديقنا سيدي عبد العزيز العيسوي الذي أوقفه السادة السنوسية ثلاث مرات الى الاستانة فيما يعرض لهم من الأشغال لدى الدولة : آخرها في أثناء الحرب العامة . وقد

(١) راجع صفحة ٣٠٠ من الجزء الاول

(٢) ولا أعلم درجة قرباه من صديقي سيدي محمد الشارف ابن عم السادة السنوسية وشيخ إحدى روايات دفن من جهة السنوسية

وفق الاستاذ السنوسي الأعظم الى نشر طريقته في أكثر بقاع طرابلس و برفقة ، ولا سيما برفقة فان أهلها في الحواضر و قبائلها البادية بأجمعهم سنوسية مجاهدون وفي كل بلدة زاوية وعند كل قبيلة زاوية . واذا تعددت أنفاذ القبيلة فلنكل خذ منها زاوية . وكذلك زوايا السنوسي ممتدة الى مصر ، فلهم زوايا عظيمة في سيوة والواحات المدواخل الى الفيوم ، وزواياهم متسلسلة مطردة من بنغازي الى الاسكندرية وعندهم نحو ١٥ زاوية في نفس الخرج لها تبع كثير من قبائل حرب وغيرها وزواياهم كثيرة في السودان والنمسا أشهر زواياهم زاوية جغبوب على مسافة يومين أو ثلاثة من الحدود المصرية الى الغرب وهي بلدة تامة في عظمها واتساعها وعدد سكانها . وكانت جغبوب واحدة ملحة بأوى اليها الدمار والفسوس ولا تحبس القوافل أن تمر بها من جراء العيث في أنحائها فلما اختارها سيدي محمد بن علي السنوسي مقراً له وبنى بها زاويته الكبرى صارت مهداً آمناً ، ومركز عبادة ومشرق أنوار ومعلم هداية فغرس بها الأشجار ، ونسق الجنان واستنبت العيون ، وتوسع في البناء ، وأسس مدرسة انخرج مريدي الطريقة ، أجلس للتدريس فيها جبهة العلماء . وكان مركزه بادئ ذي بدء في الزاوية البيضاء من الجبل الأخضر على مقربة من شحات . وهي قرية مبنية على خربة « سيرة » عاصمة برفقة أو « سيرة بيك » فيها بقايا آثار من أيام يونان ومن قبلهم ومن بعدهم ، وموقع سيرة عند أوشحات على جبل عال مشرف امراً قائماً على علو ثلاثمائة الى اربعمائة متر ومن هذا الجبل الى البحر مسافة ساعتين وهناك مرمى اسمه سوسة ولا مبالغة اذا قيل ان هذا الموقع هو من أبدع ما خلق الله في أرضه ، لحة منظر ، وحسن هواء ، وطيب نجعة ، لاسيما وفي أعلاه مقارة تليجس منها عين فياضة بمياه كنوب المجين ، تنحدر من هناك في منى للال الى أسفل الجبل حيث نسق البساتين والغياض ، وأما الزاوية البيضاء فلبست في شحات بن في هذه زاوية أخرى لقبيلة الحامسة ^(١) يديرها سيدي محمد الدردني ولكن الزاوية البيضاء على مسافة ساعة من شحات الى الجنوب مبنية في وسط غابة من غاب الجبل الاخضر على مسافة خمس دقائق من مقام سيدي رافع الانصاري أحد الصحابة الذين فتحوا تلك البلاد ، وقد كان سيدي محمد السنوسي بناها وجعلها مقرة ، وقد رأينا رأى العين في أثناء جهادي

(١) التي يذهب اليها عقيلة الحامس الشيخ في مرج ابن عامر من ديار فلسطين

بتلك الديار سنة ١٩١١ وبث مرة بتلك الزاوية فإذا هي عبارة عن مسروحة تحيط بصحنها
 الغرف لأقامة الطلبة وفيها جامع حسن ، وهي اليوم زاوية قبيلة البراعصة المشهورة بالنداعة
 والنجدة ، وعهدى بمشيخة البراعصة ورئاسة هذه الزاوية لسيدى محمد العلى الغمارى من
 ذرية سيدى عبدالسلام بن مشيش المدفون في جهات ضيقة من المغرب الأقصى ولكن هذه
 الزاوية فقدت كثيراً من رونقها بعد تحول السوسى عنها الى جنوب ، ويقولون انه كان
 قد شعر بدنو استيلاء الأجانب على تلك الديار فاختار الايغال الى الجنوب والاقامة بالصحراء
 فحضر زاوية جغبوب وتوفي بها رضى الله عنه وله فيها ضريح يزوره السوسية من جميع
 الديار ، وولده بالزاوية البيضاء سيدى المهدي والد سيدى ادريس أمير بركة الحلى وسيدى
 الشريف والد سيدى أحمد الشريف نزيل الأناضول عند كتابة هذه السطور واسم الطريقة
 السوسية كلها ، ولقد استخلف السوسى ولده المهدي وأنبأ بأنه سيكون له شأن عظيم ،
 وصدقت قرأته فيه فانه أكمل عملي والده ، وبنى زوايا عديدة ، وذاع ذكره في الأقطار
 وحسبت له دول الاستعمار حساباً كبيراً وماوات أن تقترب اليه بأنواع الوسائل ، وأصناف
 الاطاف ، فأعرض عن كل هذه المداخلات ، وعكف على عمه الذى هو رب الدعوة وإيقاد
 الأمة ، وتأسيس الزوايا وربط الأهالى بها ، حتى حال أمره السلطان عبد الحميد فأراد أن
 يكشف حقيقته ويستطلع بطن حاله ، فأرسل اليه بفرقة في جغبوب وفداً كان فيه صديق
 المرحوم صادق بك المؤيد من آل العظم في دمشق وأحد حجاب السلطان ، فحدثني رحمه الله
 عن تلك الرحلة وعمه لقود في جغبوب وان السيد السوسى لم يكن إلا داعياً مرشداً ، وأنه
 دائماً يدعو الله بتأييد الدولة العثمانية وتوفيق الحضرة السلطانية ثم ان سيدى المهدي السوسى
 تحول من جغبوب الى الكفرة ، وهذه هي واحدة كبيرة تسكنها قبيلة اسمها زاوية في وسط
 الصحراء تبعد مسافة ٢٥ يوماً عن بنغازى الى الجنوب ، يمر السائر اليها في طريقه على بعض
 جبال وأوجلة اللذين هما في أول الصحراء على مسيرة نحاسية أيام من بنغازى فاختلشت الأقوال في
 أسباب ترك السيد السوسى مركزه الذى فيه قبة المقدس والده ، والمدرسة التى شادها مبعثاً
 لأشعة أنوار الشريعة والطريقة ، واختياره الأزواء في الكفرة بمكانها من البعد عن
 العمران ، فقال بعضهم انه لما استغرت قدم الانكاز بمصر أجفل السوسى ووضع نسب
 غيبته الايغال في الصحراء ، وانتجاع واحدة تكون أقصى من جغبوب مكاناً وأعز مثلاً ،

وقال آخرون بل السنوسية منذ زمن منبهد كل إنكهن يوقوع الحرب مع النابوليان (الطلبان) وإن هؤلاء لابد في يوم من الأيام أن يغزوا طرابلس وبرقة، فشرع صبي* أتباع طريقته للقاومة، ويعلم فضائل الجهاد، مما ظهر أثره في حرب إيطاليا سنة ١٩١١ فظهر أن هذه الشئ في الشرق والغرب، وأثبت أن الطريقة السنوسية هي عبارة عن دولة بل كثير من الدول لا تأت ما تملكه الطريقة السنوسية من الوسائل الخيرية وذلك تكونها طريقة عملية لا تعرف سوى العمل بالكتاب والسنة والافتداء بسلف هذه الأمة، ومن جهة ما فكر فيه أن يجعل مركزه بعيداً ما أمكن عن متطرح انظار الدول الاستعمارية لتدخله له الجور في تجهيز قومه وث دعواته، فالتبته هذا المكان الفضي من الصحراء في النقطة الوسطى بين ساحل البحر المتوسط والسودان، وقال آخرون بل ساءت معاملة بعض مأموري الأتراك في النجدي والشقيب عن السلاح وكس زوايا السنوسية في الجبل الأخضر وشاع أن الدولة أخذت تشبه في أمره، وتوحيس خيفة ادعائه الخلافة فقصده أن يعزها إلى الصحراء الكبرى، وأعل هذه الأسباب جميعها متوفرة في قضية تحوله إلى الكفرة يضاف إليها أنه من الكفرة كان يقصد اقتراب من السودان وث دعواته في تلك الاقطار ولحق الاسلام في أواسط افريقية من طريق وادي، وبرنو، وكلم، وادامو، والداهومي، وغيرها من أواسط افريقية وغربها مما كان ولا شك فيه للسنوسية اليد الطولى، فضلاً عن كون اقامته بواحة الكفرة سببت عمر ان تلك الواحة وازدياد الغراس والملاحة فيها وترقية عقول أهلها، فبنى فيها زاوية عظيمة سماها الناح وجعلها مقراً وبنى في أبا كن أخرى من تلك الواحة، وفي واح قريبة منها زوايا أيضاً وأسس مثلها في واحات الوجنقات التي تقع وراء دارفور إلى الشمال، وأخرى في واح وني وواحة فرو وزاوية في عين كلك التي وقعت فيها الحرب بين السنوسية والفرنسيين الذين قصدوها من وادي، وزوايا عديدة محرمها واحات الصحراء الكبرى وآنس بها وحاشتها، ونضر شعبرتها، وأيقظ غفلتها، وشغل أفكار الدول الاستعمارية من كل جهة، فأنكثرة تحسب حسابها من جهة السودان المصري، وفرنسا من جهة وادي ومستعمراتها في أواسط افريقية وشمالها وغربها، وإيطاليا كانت تنزلق اليه لعلها تنال سدونه فيما كانت تنويه من الغارة على طرابلس، ولم يخفى الأمر من كون السلطان عبد الحميد الذي كان لا يهدأ له بال قد أراد أيضاً معرفة مقاصد

السوسى من انقاذ ذلك المحل القاصى . فبلغنى أنه أوفد اليه مرة ثانية المرحوم صادق بك المؤيد الى نفس الكثرة فأخذ منه اجواب بأنه لا يقصد سوى خدمة الاسلام . وأبث الدعوة لطاعة السلطان . هذا ولم يزل سيدى المهدي السوسى يبت طريقته ويكمل أهنته الى أن مضى الى ربه منذ نحو ٢٠ سنة خلفه سيدى احمد الشريف ابن أخيه الذى اشتهر أثناء الحرب الطرابلسية وقام فيها المقام المحمود الذى لم يقم أحد ، ولولاه لم يمكن انور ولا غيره من أبطال الدفاع عن بر طرابلس أن يعملوا شيئاً ، وانصل جهاده من الحرب الطرابلسية الى ما بعدها فلم تحمله نار الى الحرب الغمة ، الى أن دخل الانسكاز والطلبان فى المفاوضات مع ابن عمه سيدى ادريس ابن سيدى المهدي وأقنعوه بالاتفاق معهم على أن يكون هو أميراً على داخل برقة ويكون الحكم للطلبان فى مدينتى بنغازى ودرنة . ويكون لهم احتلال بعض المراسى فالتعد الاتفاق على شروط معلومة كانت خلاصتها ما تقدم . ولما رأى سيدى احمد الشريف ذلك وكان الوفاق بين أبناء البيت السوسى من القواعد المقدسة لم يستحسن فى باطنه خطة ابن عمه ولكنه لم يشأ أن يخاذ به الحبل وصبر على المرة وأرسل الى المرحوم أنور ناظر الحرية يومئذ وذلك سنة ١٩١٨ بطلب منه ارسال غواصة ليقاد الى الاسطانة فاستقبلها بحاشيته الى ترينته ومنها ركب قطار الحديد الى فينا ومنها جاء الى الاسطانة واستقبله أهلها استقبالاً فاتحاً ، وأعظم السلطان محمد وحيد الدين قدومه وصادف ذلك بداية جلوس السلطان على عرش آل عثمان ، فاختار السيد المشار اليه لتقليده السيف فى الحفلة المعتادة لذلك فى جامع أبى أيوب الانصارى فى الخليج وهو الذى يسميه الاتراك جامع سلطان أيوب . ولما دخل الحلفاء الاسطانة أقام ببروسة ثم لما احتلها اليونان تحول منها الى قونية ثم ذهب الى حدود العراق العربى داعياً الى الوحدة الاسلامية . ولم أحصل الى هذا اليوم على شرف معرفته شخصياً وإن كنت أمت اليه بصدقة أكيدة وكانت المراسلة بيننا متصلة منذ سنين عديدة . أيده الله وأبقاه ونفع هذه الأمة على يده

بعد تحرير ما تقدم بشأن السادة السوسية ، أسعف القدر ، ووفى الدهر ، بعد أن غدر ، بتحقيق الامنية التى ظالمنا كنت اتناها ، وإدراك الغاية التى كنت من سنين عديدة اتوناها ، وهى مشاهدة الحضرة السوسية ، واجتلاء تلك الأنوار الأنسية ، بعد أن حال بيننا وبينها قول السفار وثباعد الاقطار ، واحتلال الاعداء بعد الحرب الكونية أو كثر

الدير . فلما كُنت في معسكر الجبل الأخضر ، بعين منصور في ظاهر درنة سنة ١٩١٢ كان
الاستاذ الأكبر سيدي أحمد الشريف نجل سيدي محمد الشريف ، نجل سيدي محمد بن علي
السوملي مؤسس الطريقة السنوسية وخليفة عمه سيدي محمد المهدي رضي الله عنهم جميعاً ،
لا يزال في واحة الكفرة الواقعة في وسط الصحراء على مسافة ٢٥ يوماً إلى الجنوب من مدينة
بني غازي . وقد منه الافادات والأوامر إلى الادوار المراقبة في وجه الطليان (١) وهو بعد في
زاوية التاج مركز السادة السنوسية ، ثم تقدم السيد من واحة الكفرة إلى واحة الجغبوب ،
ليكون أقرب إلى ميدان الحرب ، ولقد تدهب به عزائم المجاهدين . فكان في ذلك الوقت قد
وافق سفر هذا العاجز من الجبل الأخضر ، فأصدا الاستاذة لداكرة رجال الوزارة الجديدة
وهي وزارة مختار باشا وكامل باشا وحسين حلي باشا ، في أمر طرابلس ونفي عزيمتهم عن
النساجل فيها مع الطليان كما كان شأنهم . فلم يقدم إلى القدر في تلك الآونة ملاقة الاستاذ
السوملي المشار إليه . وبقيت العلاقات فيما بيننا بالمراسلة ، إلى أن شبت الحرب الكبرى ،
فانقطعت قليلاً ثم استؤنفت ببرد الغواصات التي كان المرحوم الشهيد أنور ينفذها إلى
سواحل طرابلس .

ولما قدم السيد إلى الاستاذة العلية بالغواصة سنة ١٩١٨ صادف وجودي بألمانية مهمة
التأليف بين العثمانيين والألمان ، فيما شجر بينهم في بلاد الفافقياس . فلما وصل السيد إلى
العاصمة لم يكن انتهى شغلي في برلين ، وما انتهى شغلي هناك إلا وقد طلب الباغار الهدنة
وبدا الانهيار في أجرف ألمانية وحلفائها . فأرقي إلى أنور برفقة رفيقه بواسطة سفارة الدولة
برلين بخرجاتي سرعة الآوبة . فذهبت فأصداً الاستاذة من طريق رومانية ، وركبت
الباحرة من مرسى برايل على الطونة ، ومنها إلى ميناء كوستنجه ، حيث تلقت الباحرة
أمراً بعدم دخول البوسفور والاصياع إلى اودسا . فذهبت مكرهاً وضاق صدرى جداً بهذا
التأخير ، والمسافر عليل دواؤه الوصول . ولكن قد يكون الخير فيما كره الانسان ، « ولو
أدلتهم على الغيب لاخترتم الواقع » . إذ لو أكتلت الباحرة الشقة إلى الاستاذة ، لم يلبث الحلفاء

(١) أعالي طرابلس الغرب يسكنون المعسكر دوراً ، وأصل هذه السيدات وانهن أعاد . أن قبائل العرب تأتي
إلى الحرب بالثأوية . كل قبيلة تفرس عليها خدمه كذا من الأيام أو من الاسابيع ، أو من الأشهر ،
مقوم بها أو ترسل عدداً معيناً يقوم بها ، ثم تذهب إلى مناجعها ويأتون إلى محفلها غيرها ، وهكذا بالتعاقب
قد أن تكون لوبتها ثانية . وعلم جراً . فسمى المعسكر الذي تخبر به تلك القبائل دوراً

أن قبضوا على مع رفاقي ، وغربوني الى ماطلة . فكان في نكوص الباخرة عن الكال
الجرى الى دار السعادة ، وذهابها الى نودسا ، وملاقائي ثمة المرحومين الاستاذ الشيخ عبدالعزير
جلو يش والاستاذ الشيخ صالح التونسي ، والاستاذ الشيخ خضر حسين التونسي ، ورفاقهم
من مصريين وتوانسة ، وما علمته منهم من انسلال انور وطلعت وغيرهما من الاستاذة .
ما غير وجهي واعادني مغرباً بعد أن كنت مشرقاً ، مما سبق تحريره في موضع آخر .

فلما لم يتيسر لي وقت للقاء سيدي احمد الشريف ، وبقيت أكتبه من اوربا الى
الاستاذة ، ثم الى الاناضول . فلما يسر الله الاجتماع في هذه الايام الاخيرة ، حدثني هو بنفسه
عن أمور كثيرة وحوادث جرت معه ، آثرت أن اخصها لقراء هذا الكتاب ، الكوفي
سمعتها من ثمة ، واحسن الترخيم ما أخصه الانسان من فم صاحبه ، وأروي الروايات
ما استقاه المؤرخ من رأس نبعه .

ذكر لي السيد ، حفظه الله ، خلاصة رحلته من طرابلس الى الاستاذة ، الى الاناضول ،
الى أن حصل في مرسين التي يقيم بها اليوم . وذلك أن أنور كان أنفذ أخاه نوري أثناء
الحرب الكونية الى طرابلس الغرب قائداً عاماً ، وعززه ببعض ضباط وأسلحة ونقود ،
وأمره باقتناع السادة السوسية بمهادنة الطليان ، ومهاجرة الانكليز في مصر ، حال كون سيدي
أحمد الشريف يعتقد عكس هذه السياسة ، وهو مهادة الانكليز ومطاردة الطليان . فشرع
نوري يغادي سيدي احمد ويرأوجه في أمر الزحف صوب مصر ، والسيد ثابت في رفضه .
حتى وقع الخلاف بينهما . وليس من الظنون أن يكون أنور أمل فتح مصر بتلك القوة
الضئيلة ، وإنما يغلب أنها كانت سياسة المانية ، المقصود منها تحميل انكلترا خسائر جديدة ،
وتحويل جانب من قوتها الى جهة السوسية ، إذ كل ما يتحول من قوة الانكليز نحو الأقوام
الاسلامية كان يخف عن الألمان ، حتى ان كثيراً من أركان الحرب يذهبون الى أن حادثة
الترعة نفسها لم تكن على أمل كبير بافتتاح الديار المصرية ، وإنما كان هدف الألمان منها
تحويل جانب كبير من قوة انكلترا لحاية الترعة ، التي هي بحري نفس هذه الدولة . أما
سيدي احمد الشريف . فلم يكن يعتقد بصواب الهجوم على مصر ، أولاً : لأنه كان يريد
حصار قوة العرب في مجاهدة الطليان ، وعدم الاشتغال بغيرهم . ثانياً : أنه كان يخشى فيما
لو هاجم مصر ، أن يقع القشل في صفوفه ، لما كان يعلمه من عظمة الاستعدادات

الانكليزية . فاذا فشلت جهته على مصر ، فترت عزائم العرب ، وضعف قواهم . ثالثاً : انه كان يهيم بقاء الطريق مفتوحة بين مصر والحبيل الأخضر ، خوفاً على العرب من الجوع ، ويعلم أنه لو هاجم مصراً لشد الانكليزي طريق مصر ، ووقع العرب في حيص بيص . وكان الجنرال ما كسويل الانكليزي يصانع السيد كثيراً ، ويراسله دائماً ، ويتحفظ ببعض الكتب ، ويرسل اليه بكل الوسائل ، انقل غارة من جهة السنوسية على مصر ، كما أن السيد كان يصانع الجنرال ما كسويل ، ويؤمنه من جهة السنوسية ، ويستخدمه في قضاء أغراضه ، وكان يستصنع في مصر ألبنة لتواير الجيش السنوسي ، وغير ذلك من لوازمه ، ولا يجد من جهة الانكليز حرجاً . فكل من الفريقين كان في الواقع ينقي الآخر ، ووقعت في يد السيد أسرى انكليز ، نجوا الى بر طرابلس من بارجة انكسرت عند مالطة ، فقبضوا من ساحل طرابلس الى السيد وهو في السلم ، فألبسهم وأكرمهم وبعضهم عديده الى الجنرال ما كسويل . وكان هذا يتخذ اليه من وقت الى آخر بعض كبار ضباطه ، ممن يعرفون سياسة العرب ، ويعرض على السيد مخالفة انكلترة ، ويطمعه في مقام كثيرة . بشرط أن السيد يتردد نوري أما أنور من السلم ، ويترك الأتراك . فكان السيد يصم أذنه عن هذه الاقتراحات ، ولا بعد الجنرال ما كسويل الا بالمسألة خيب . ولكن أنور كان يصدر الأمر نوري الأمر الى أخيه ، بأن يتحرش بالانكليز ، ويستفدح زناد الحرب بينهم وبين السنوسية . ويكتب الى السيد مباحداً عليه بشد عضد نوري ، وأنه لا يقبل له عذراً في التهاطل . ولما نكسب السيد عن غزو مصر وقع الخلاف بينه وبين نوري ، وشرع نوري يتحذرك بالانكليز ، بدون معرفة السيد ، ويضرب بالقناير سفائنهم التجارية ، التي كانت تأتي بالبحاثة والأرزاق الى السلم . فاغتاف السيد من عمله ، وبين له سوء مغية ذلك ، فلم يأبه الكلامه ونبي على عمله ، بل كتب الى أخيه في الاستانة بأن سيدي أحمد الشريف لا يريد معاداة الانكليز ، بل انه مالى لهم سرراً ، وغير ذلك من الأقاويل . ثم أرسل نوري سعاة الى مصر يقولون ان السيد يأتي الزحف الى مصر مداراة للانكليز ، مع انه هو حصر من الاستانة لأجل اعداد حملة على مصر ، وانفاذها من أيدي الانكليز . فصارت تتوارد من مصر الرسل الى السيد ، تعائيه على موقفه هذا ، وتبين له ما يحتاجه المصريون بحقه من الظنون ، بسبب تخلفه عن الزحف . عند ذلك استدعى السيد نوري وقال له : هوذا أنا

حاضر لاسير . فلانقصر أن تقول ان العائق كان متي . وأما اذا فثبت هذه الحالة فلا يكون
أنا المسؤول . وركب السيد وسار بالجيش . ومعه نوري قائد أول . وجعفر العسكري قائد
ثانياً (١) وكان عدد كل ما جمعه من الجنود أربعة آلاف . ولما أحس الانكليز بالحركة أخذوا
منطقة السوم ثم بقيق . وانكفأوا الى الورا . ولكنهم بعثوا الى السيد ونوري انكم إن
تجاوزتم سيدي براني الى الشرق ، فليس بيننا وبينكم الا الحرب . فتجاوز العرب سيدي
براني . ومازالوا حتى خيموا بزاوية أم الزخم غربي مرسى مطروح . وليلة ما كانوا هناك
جاء أمير الادي انكليزي يحسن العربية متزيياً بزي بدوي متجسساً فدخل على نوري وأركان
حربه فلم يعرفوا حقيقة أمره . ونظر في القوة التي معه . فراحا ضليلة . وفي جوف الليل
انسب من الخيم . فأخبر قومه بالواقع . فكانت الانكليزة جهزت ثلاثين الف مقاتل . ومعها
عدد كبير من المدافع . وفيها كثير من كوابل الفرسان . فصعدت الى القوة التي مع
نوري . فلم تقف هذه طاء . وتراجع المجاهدون الى الورا . واحتشد منهم ألقان في محل يقال
له بئر تونس . فطمع الانكليز في أسرهم . وساقوا عليهم ١٣ الف مقاتل . فأرادوا أن
يحيطوا بهم . فخابوا . وثار في وجههم العرب ودحروهم وألقوا بهم خسائر جمة . وكان
السيد أحمد الشريف بنفسه في هذه المعركة . فلما ارتد الانكليز الى الورا . رجع بمجاهديه
هؤلاء الى السوم . وأما الانكليز فقصصوا الباقي من القوة التي تحت قيادة نوري فهزموها .
وأخذوا جعفر العسكري أسيراً . وأفلت نوري من أيديهم بأعجوبة . ثم سار السيد الى
سيوه . وتقدم الى الواحات الدواخل على مسيرة سبعة أيام من سيوه نحو النجوم . فجهز
الانكليز قوة عظيمة لقتاله . فاضطر أن يرجع أدراجاً الى سيوه . فتعقبوه الى سيوه . ودافع
عن نفسه في سيوه دفاعاً شديداً . ودحروهم وخرب عدداً من دباباتهم المصفحة والطرايسون
يسمونها بالكهربات . جمع كهرباء لكونها تسير بالقوة الكهربائية . وبعد أن ارتد
الانكليز الى الورا . أجاز السيد من سيوه الى الجغبوب . وهي مسيرة ثلاثة أيام وتخص بها .
وكان الانكليز بعد أن قطعوا الأمل من سيدي أحمد . شرعوا في مخاطبة ابن عمه سيدي
أدريس ابن سيدي المهدي في الصلح . والاعتراف بامراته على برقة . والجبل الأخضر بشرط
أن يطرد نوري ومن معه من الأتراك . ويشير الى ابن عمه سيدي أحمد الشريف بالخروج

(١) هو جعفر باشا العسكري رئيس وزراء بغداد بالأمس ومن أعداء الوزاراة اليوم وهو من أعز

من تلك المنطقة ، وأبلغوه أنه ان بقي سيدي أحمد في الجغبوب فانهم مهاجون الجغبوب
و يستولون عليها . فأرسل سيدي ادريس بالخبر الى سيدي أحمد ، ففارق الجغبوب مقلداً
السير الى جالو ، وأوجله ، وهي مسيرة ١٢ يوماً من الجغبوب ، في بحراء بياب تباء ، لا عشب
ولا ماء ، وصادف رحيلهم حرارة فيض فكدوا يهلكون من العطش ، ولم يتوقف السيد أحمد
في جالو وأوجله أثناء الخلاف مع ابن عمه سيدي ادريس ، وهو أحرص الناس على الوفاق
بين السنوسية ، لاسيما بيت الرئاسة ، الذي هو القدوة لجميعهم . فقصده السيد الغرب ، ونزل
بسوكنه من برطرابلس ومعه ثلاثة آلاف مقاتل . وانعصوب حوله السنوسيون الذين
بتلك الديار ، مثل بني سيف النصر وغيرهم ، أما سيدي ادريس فلما رأى الضيق الذي وقع
فيه العرب بين الانكلاز من جهة ، والطلبان من جهة أخرى . والمخمة التي أصابتهم على
أثر صد الفارق ، بين الجبل الأخضر ومصر ، جنح الى الصلح ، وعقد مع ايطالية وانكلترة
الاتفاق الذي اعترفوا فيه بامارة برقة والجبل الأخضر ، وتقاد بموجبه ادارة أمورهما ،
ماعداء مدينتي بنغازي ودرنة ، وتعهدت ايطاليا بدفع الرواتب السنوية . وهو الاتفاق الذي
نقضته ايطاليا ، بعد حكم وزارة الفاشيستي مباشرة ، وحدثت من بعده الحرب ولما
كان شرط هذا الصلح الأصلي هو اخراج توري والأتراك من هناك ، خرج هؤلاء ، من برقة
الى الغرب لاحقين بمصرامة . وكان استبدت بأمر مصرامة رجل أصله من غمار الناس اسمه
رمضان شتيوي ، ساند بشجاعته وحزمه ومضائه ، وكان في خدمة ايطاليا أولاً ، ثم انقلاب
غلبها ، واستخلص من يدها مصرامة وما جاورها ، بعد الواقعة الشهيرة المسماة بالقرضانية ،
التي انهزم بها الطليان شر هزيمة سنة ١٩١٥ ، وكان مبدأها بين الطليان والسنوسية .
فاطليان استنفروا لمعاونتهم رمضان شتيوي وقومه ، فزحف ببضعة آلاف من رجاله ، فلما
وجد السنوسية وهم الف وخمسة مائة مقاتل قد وقفوا في وجه ١٢ الف مقاتل من الطليان ،
وأذاقوهم مرة الكفاح ، هجم هو على الطليان من الورا ، وهم على غير انتظار ، فربح
من ذلك الجيش الايطالي كله سوى خمسمائة شارد فروا الى جهة البحر . وغنم العرب جميع
أثقال ذلك الجيش . واسترجع العرب بعد هذه الواقعة جميع برطرابلس ، سوى مدينة
نرابلس المحمية بالبوارج الحربية ، واستمر ذلك من سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩٢٣ ، إذ
جهزت وزارة الفاشيستي جيشاً جراراً استرجع مصرامة ، ومسلاته ، وترهونه ، وغريان ،

وغيرها ، ثم كثر العرب عليها وأخذوها ، ثم زحف الطليان ثاقبة واسترجعوها ، والأحوال بين الفريقين لا تزال مدهةً وجزراً . وقد مثل دوراً عظيماً في هذه الوقائع رمضان شتوي هذا الملقب بالسواحل ، وجاهد في الطليان حق الجهاد ، ولكنه كان صعب المقادة ، أشوس ، مر العداوة ، وكان يناصب السنوسية العدا . فلما قدم عليه نوري مغتاضاً بما فعله سبدي ادريس ، تلفاه برأً وترحيباً ، وعززه به مركزه ، بما كان يرد على نوري من نظارة الخريبة بالاسنانة من الأموال والاعتناء ، وعلت كفته بانفساه الى الدولة ، وقبوله نوري قائداً والياً ، وان كانت في الحقيقة السكامة بقيت لرمضان في الأمر والنهي . وقد وفق الله طرابلس في أمره ، وهو أنه كان الاستاذ عبدالرحمن عزام ، من آل عزام بالخير ، ومن شيان مصر الناضحين ^(١) ذوي الحصافة والنجابة ، يجمع حكمة الشيوخ الى حاسة الشبان ، فبالحق بجاهدي العلوم يوم زحفوا لفتح الانكاز ، شهد الوقائع ثم غرب مع نوري الى طرابلس ، ولما دخل نوري مصراطه ، كان عبد الرحمن يده اليمنى ، فعرف كيف يأخذ رمضان بالحسي ، وابن بقدر الامكان من شدته ، وأصلح بينه وبين أهالي ترهونه ، وزايلين ، وأورفله ، وغيرها ، وشكلوا حكومات متحالفة ، مركزها مصراطه ، وعلى رأسها نوري باشا . وكان القاشم بأعيانها عبدالرحمن عزام المؤمناً اليه . ثم لما استدعى أتور أحمد نوري الى الاسنانة ، وولاه قيادة جيش التماقاس ، استصحب معه الى الاسنانة الاستاذ عبد الرحمن عزام ، وقال في نوري مرة هذه الجملة : واستبدلت منها على عقبيه واتصافه : « لولا هذا الشاب ، ما كان يمكنني أن أوفق في طرابلس » .

ثم لما أرسلت الدولة الأمير عثمان فؤاد ، ابن الأمير صلاح الدين ، ابن السلطان مراد ، ابن السلطان عبد المجيد خان ، الى طرابلس أميراً وقائداً عاماً عليها ، مكان نوري باشا أرسلت معه عبد الرحمن عزام المصري مستشاراً ومديراً ، فلما انتهت الحرب الكبرى وانعقدت المشاركة ومن جملة شروطها اخلاء الأتراك لطرابلس ، صدرت الإرادة السلطانية الى الأمير عثمان فؤاد بترك تلك البلاد . فذهب الى تونس ، وسلم نفسه الى الفرنسيين ، وهؤلاء سلموه الى الطليان الذين أفرجوا عنه . ولكن بقيت الحكومة الوطنية في طرابلس على ما كانت عليه ، وهي حكومة حلقية ، مركزها مصراطه ، وعبدالرحمن عزام هو الذي يدير

(١) وهو من أعضاء مجلس النواب المصري في عهد الوزارة الوفدية

أمورها ، ويرتق فتوقها ، ويؤلف بين الجهات المتنافرة ، حتى يتسنى لهم بالانقسام حفظ استقلالهم . إلا أن ثمره رمضان السواحلي ، كانت غالبية عليه ، فقصده مرة قتال أورفلة ، فغفل أهل أورفلة في وجهه الآبار ، وأنشبهه في معاطش هالك فيها أكثر رجلاه ، وقيد فيها أسيراً . ولما أرادوا احضاره إلى عهد النبي بلخير زعيم أورفلة ، قال هذا القومه : « لا ندعوه يصل إلى خوفنا من أن يغلبني الحياء ، فاستحبه » . ففهموا منه أنه يرجع قتله فقتلوه ، وبعد رمضان المذكور جعل الطرابلسيون رئيساً على حكومتهم الوطنية الحلفية أحمد بك المريتضى وهو زعيم ترهونه . وقبل رئيساً مقبلاً بمعسكر المجاهدين جنوبي البلاد التي استرجعها الطالبان .

ثم نعود إلى سيدي أحمد الشريف . فنقول الله لنا فارق بركة ، تنادياً للخلاف مع ابن عمه الذي صار أميراً على بركة ، غرتب إلى سوكينه كاسيف فأرسل إليه رمضان السواحلي قوة تقاليد ، عليها ضباط من الترك ممن كانوا مع توري باشا أخى أتور . قال سيد هزم القوة التي جاءت تقاليد ، وقتل في تلك الواقعة الضابط المدعو برتو توفيق . ولكن اشتدت الأزمة بالسيد لاقطاع المدد عنه من كل الجهات ، فلانكيز أصبحوا أعداءه وضبطوا أملاكه ، وزواياه ، في سيوه والواحات الدواخل ، وذلك لانقياده إلى الأتراك ومسيره مع توري لمهاجرة مصر . والأتراك تركوه أيضاً ، لانخيار توري باشا إلى رمضان السواحلي في مصراطه ، واعتقله به ، وهذا كل عدواً للسوسية . فوصل الأمر بالسيد وعساكره التي كانت نحو ثلاثة آلاف ، أن أخذوا يقتلون الحشائش ، وأن مات منهم خلق كثير جوعاً ، وهو صابر على هذه البلية صبر الكرام ، والازمة تزداد به ، بأجفاده يوماً فيوماً ، وهو لا يقدر أن يعود إلى الجغبوب ، خوفاً من الخصام مع ابن عمه ، وانتقاء التحرش بالانكيز . ولا يقدر أن يدخل مصراطه والبلاد التي حوطا ، لتكون رمضان السواحلي وغمره من أعداء السوسية له بالمرصاد . قال لي السيد من قد : « بلغ في الضيق من هذه الحالة ، وأنا أرى رجلى انعام غيبي موت جوعاً ، أن وصلت إلى درجة اليأس ، وقررت في نفسي الصلح مع الانكيز مستخيراً الله ، وفي تلك الليلة رأيت فيما يرى النائم ، استاذي سيدي أحمد الربيعي يقول لي : قد عرف الأخوان مرادك ، فلم يرضوا لك بما عزمتم عليه ، فارجع إلى ما كنت عليه واستأنف العمل ، فلما استيقظت من النوم أفلعت عن تلك الفكرة وحررت إلى

أنور كتاباً ، بعثت به ضمن كتاب الى توري قائلا له : احذر أن تؤخر ارسال كتابي الى أخيك . فأرسل بالكتاب الى الأستاذة ، وجاءني من أنور الجواب .

وكان السيد قبل ذلك ، بعث الى : أنا محرر هذه السطور ، بكتاب يشكو لي به من معاملة توري ، أيام كانا في السجون ، ويبدى لي شيئاً من التعجب على أنور . ولكن لم تقع له فرصة لارساله ، وبقي محتفظاً بذلك الكتاب الى أن جاء الى الأستاذة العلية ، وانتهت الحرب ، وشرعت أرساله من أوروبا الى مكانه ببروسه ، فأرسل الى بذلك الكتاب بعينه ، بعد فوات وقته ، كأنه يريد أن يطلعني على تلك الماكرات الماضية ، ولولا كون هذا الزعيم في أوراني التي تركتها في أوروبا ، لكنت أكتأت هذه القصة بنشره . ومن الغريب ، التي مع كون هذا الكتاب من السيد لم يصلني يومئذ ، فقد فتت تجاه السيد بما لم أكن لاهي زيادة عليه فيما لو وصلني كتابه اذ كنت بدأت انهم من معية أنور رائحة الوحشة من سيدي احمد الشريف ، وأسمع بعض رجال الدائرة المسماة بدائرة « التشكيلات » التابعة للبحرية يمزون السيد ، ويعزون اليه امورا ، كنت على يقين انها مهنان محض . مثل كونه يريد الخلافة انفسه ، ومثل أنه غير مخلص للدولة وما أشبه ذلك . وكان أنور دعاني مرة للافطار معه في رمضان فقلت له : « ان بعض بطانتك بدأوا يمزون السيد احمد الشريف ويتبعون عنه أراجيف يصعب تصديقها ، وهذا الأمر عمن جانبك أنت ، ولا يتحصر في السوسية ، لأن أكثر مظهرك كان بهؤلاء الجماعة . فان ظهر بعد ذلك انهم خائون ، لا سمح الله . فتكون أنت المذموم ، ويستدل الناس بذلك على كونك قائل الرأي . وان كان عندك شيء راهن يخفهم ، فصرح لي به لنعلم درجة الخبر من الصحة » . قال لي أنور رحمه الله : « حاشا ما يقدر أحد أن يتهم سيدي احمد الشريف بالخيانة ولكن الانكاي كانوا يخدعونه أحيانا » . فقلت له : « ان سيدي احمد الشريف لم يتخضع للانكاي ، وانما كان يصانعههم كما يصانعونه ، وما تلكا عن محاربتهم الا خشية الفشل ، إذ كان يعلم أن القوة التي لديه غير كافية لدخول الى مصر ، أفلا ترى كيف أن الانكاي بمجرد زحف الأربعة الآلاف مجاهد الى مرسى مطروح ، رموهم بثلاثين ألف مقاتل ، وبالمدافع ، والطائرات ، والذبابات ، ولولا لطف الله بهم لوقعوا جميعاً أسرى وأخذك من الجلبة ... » قال لي أنور : « أنا أعطينهم أوامر بأن يتجنبوا المفازل الفاحشة » . فقلت له : « يا سيدي جان الله أنت

عسكري صنعتك الحرب وأدرى منى بهذه الامور ، أفذاذا هاجم الانسان من هو أقوى منه
مراراً ، أفيني في الاختيار في الكرّ والفرّ ؟ » وانتهت هذه المحاوره باقتناع أنور ،
وتركه مؤاخذه السيد . ثم أخذت منه الاذن لسيدي عبد العزيز العيسوي ، الذي كان
معتمداً للسادة السنوسية في استانبول ، وهو من الفضلاء الاجلاء ، أن يراجعني في نظارة
الحربية ، بعد أن يقي محجوباً عنه عدة أشهر ، ثم أن يعود الى وطنه بالغواصة . فأذن له
وأعاده معززاً مكرماً ، وكتبث معه كتاباً الى السيد . وما مضت مدة حتى جاء مكيكتوب
السيد الى أنور ، حسبما تقدم . فأنفذ أنور يوسف بك شنوان بالغواصة ، فنلاقي مع السيد
وتقرر بحجى السيد الى الاستانة بالغواصة ، فركب من مرسى العقيلة من ساحل سمرت ،
فأصداً بحر الادرياتيك .

قال لي السيد : « قبل ركوبتي الغواصة ، تحدثت مع الضباط الألمان الذين فيها ،
وسألتهم عن خطر ركوبها فقالوا لي : لا يخبرو الأمر من الخطر . ولكنني ما باليت بذلك
لأنني كنت رأيت أستاذي سيدي أحمد الزيني في المنام فقال لي : الذي الفلاني ستأخذه
من « بولا » في اليوم التالي سألت الضباط هل يوجد محل اسمه بولا ؟ فقالوا لي : « نعم ان
المرسى الذي سنزل فيه من بلاد النمسا اسمه « بولا » فاعتقدت أننا بالغواصة هذا المكان ،
بحول الله وقوته » قال لي : « وقد عرضت لنا الملكة ثلاث مرات ، ونحن في البحر :
أول مرة صادفنا بوارج للعدو فقصنا تحت الماء ، ورأيت مراكب العدو يعينى ، بواسطة
مرآة يرى الانسان بها من تحت البحر ما هو فوق البحر ، وما زلنا متوارين عنهم حتى
مضوا . ومرة ثانية أصاب الآلة المحركة تعطيل ، فكنت أرى ضباط الغواصة يحسبون
ويذهبون ، وهم في حيرة عظيمة ، فلم يخبروني بالحقيقة الا بعد أن أصلحوا الآلة . ومرة
ثالثة نام فيم الآلة ، فصادمت الغواصة صخراً وكادت تغرق ، ولكن كنا على مقربة من
« بولا » وقد فصل سيدي أحمد الشريف من مرسى العقيلة بساحل سمرت في ٧ ذى القعدة
سنة ١٣٣٦ ، ووصل الى « بولا » من ساحل النمسا في بحر الادرياتيك بعد
أسبوع من ركوبه وسافر من « بولا » الى فيينا ومعهد طابيثه ، ويوسف بك شنوان .
ولما حصل في فيينا أرسل الامبراطور يفي مشاهدة السيد ، فأجاب شنوان معانفرا
عن امكان هذه المرافقة قبل أن يذهب السيد الى الاستانة ويقابل السلطان . ولكن هذا

الجواب وقع يدون اطلاع السيد ، ولما اطلع عليه فيها بعد لم يستحسنه إذ رأى أنه كان يليق
مقابلة الامبراطور في عاصمته لاسيما أنه طلب ذلك . ثم سافروا الى الاستانة ، فاستقبل في
محطة « مركه جي » بمزيد الاجلال والاكرام ، وكان أنور باشا في المحطة بنفسه . وأقبل
علماء الترك عليه ، وهنأوه بالفدوم ، وتبركوا بمعرفته . وأتت له الدولة بمراسي « طوب قبو »
مقر السلاطين القديم . وصاف وقت الاحتفال بتقليد السلطان محمد السادس السيوف ، في
مسجد أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، الذي يقول له الأتراك : « سلطان أيوب » .
وكانت العادة أن تأتي بقلد السلطان السيوف عند جلوسه ، هو الشلبي شيخ الطريقة المولوية
وسلالة مولانا جلال الدين الرومي ، فبقي الله سره . فاختار السلطان السابق محمد السادس ،
الاستاذ السنوسي النقيده سيف السلطنة في ذلك الحفل المشهود ، وألهم عليه برتبة الوزارة
السامية ، وبالشان المرحع ، واحتفى به كثيراً ، هو وولي العهد الأمير عبد المجيد ابن السلطان
عبد العزيز خان ، الذي تولى الخلافة يدون سلطنة بعد انتصار الأتراك على اليونان ،
وخرج محمد السادس من دار السعادة . ثم جعلته الجمهورية التركية أخيراً وأقصته هو وجميع
آل عثمان عن المملكة ، والسلطنة وأسقطتهم من النابعية التركية .

وكانت الحرب أوشكت أن تنتهي ، وأيقن الأتراك أن الدائرة ستدور عليهم
وعلى الألمان فتسكلم أنور مع السيد السنوسي في لزوم رجوعه بالمرعة الى طرابلس ،
وقال له كلاماً يدل على كونه آمناً في مساعي افريقية صارت أكثر منها في سائر العالم
الاسلامي . وصرح له أن السلطان نفسه ، يريد أن يعود الى بلدك القوي بك عزائم
المجاهدين ، ونحن حاضرون أن نقويك بالمال والعتاد والسلاح . وفرر أنور انطلاء السيد
(١٢) ألف بدقية مع عدنها ، و (١٠) مدافع و (٣٠) رشاشاً و (٢٠٠) ألف جنيه .
فساله السيد قائلاً « بلغني من بعض الضباط الطرابلسيين الذين في خدمة الدولة ، انكم
تبعونني أقابل ابن عمي سيدي ادريس ، لتكونه اتفق مع الانكليز والاطليان » . فقال له
أنور : « معاذ الله أن نبني منك ذلك » لأننا نعلم أنه لم يبق للاسلام في افريقية حصن
أحصن من هذا البيت السنوسي الكريم ، وإنه ان وقع لا سمح الله الشقاق في هذا البيت
فقد الأمر واضمحلت القوة السنوسية التي عليها معول الاسلام في افريقية . فكان على
ثقة باننا نبقي اتحادكم قبل كل شيء ، نصحاً بالاسلام وضماً باستقلاله ، وإن معاونتنا لكم

إنما هي محض حجة على الإسلام ، لأن تركيبا من جهتها لم يبق لها أدنى أمل باسترداد طرابلس ، ولستنا لا نحب أن نرى اخواننا مسلحي الفريقين تبعة للأجانب . - وكان أنور كما هو مشهور عنه ، متمسكا بوحدة الإسلام ، يغار عليه في أي بقعة كانت ، ولا يفرق بين عربي وتركي وهنسي الخ ، وطالما اختلف مع زملائه من أجل هذه السياسة .

وبعد أن أجمع السيد الأوبه إلى طرابلس ، جاء من قال له ان الغواصة ستلازم في ساحل مصراته ، وهي بسيد رمضان السواحي اليوم ، فلا يجوز أن تأمن جانبها ، فأخذ السيد يفكر في كيفية النزول إلى البر بحيث يظا ساحتا لا يكون فيه عليه يد لا من الطليان ولا من رمضان شقيوي ، وأذا ذلك صارت تقايع الحوادث بسرعة البرق ، فتغيرت الوزارة ، وسقط أنور ، وتقدم السيد على تأخره عن السفر ، وحاول الانسلا من الاستانة إلى النمسا ، حتى يركب منها الغواصة فافلا إلى وطنه فلما أحس محمد السادس وحيد الدين بذلك ، أخذ يدوره عن عزيمته هذه ، ويقول له : « بعز علينا أن تظارفتا في هذه الآونة الحرجة » . والسيد يظن أنه أثناء عقد الهدنة مع تركيا شدد الحلفاء على السلطان في ملاوطة السيد عن الابتعاد إلى طرابلس ، حتى إذا دخلوا الاستانة كان السيد في قبضة يدهم ، أما أنور فكان السيد يختلف إليه بعد سقوطه فكان يداور السيد في السفر معه إلى أوروبا ويقول له : « لا يجوز أولا بقاؤك في الاستانة والحلفاء على وشك دخولها » . وأما الصدر الأعظم ، المشير احمد عزت باشا ، فلما كان السفر بالغواصة ممسنا من بحر الادر بانبك ، أشار على السيد بالسفر خفية والحقاق ببلاده ، وإن لا يثالي بكلام السلطان . فلما انعقدت المشاركة ، وصار السفر بالغواصة متعذرا أشار على السيد في الذهاب إلى بروسة ، وكان هذا رأي وحيد الدين أيضا . فتنحول السيد من الاستانة إلى بروسة ، وقامت الحكومة العثمانية بكل ما يلزم له . وكان السلطان يدهم السؤال عنه وكلما تعين وال لبروسه ينفي الأمر بالذهاب إلى البلد قبل كل شيء ، والوقوف عند خاطره ، والمبادرة إلى مرضيه . فالسيد المنوسي من أول يوم قسم فيه إلى تركيا ، إلى هذه الساعة ، لم يزل من بر الأتراك وحفاوتهم واجلالهم ، سواء من حكومة الاستانة مع قلب وزرائها ، أو من حكومة انقره في مختلف صفحاتها ، ما لم يظرا عليه أدنى تغيير ، ولا اوجب التهم في فلسطين ولا كثير ، حتى كأن جميع الألبان التي قضاها بين أظهرهم يوم واحد . فكانت الأمة التركية أينما حل وكيف

ارتحل ، نهرع اليه على اختلاف الطبقات ، بدون تكلف ولا انصاع ، ولا انتظار أوامر
 حكومة . بل شعور عام أوجد في اتحاد الكلمة على نواحي هذا الرجل ، وتجرده عن
 المآرب الشخصية ، وعزوفه عن حظوظ الدنيا وانصراف همه كله الى الله عن
 بيضة الاسلام بدون غرض سوى مرضاة الله ورسوله ، وحفظ استقلال المسلمين .
 فكان كثير من الفرق ، والكرد ، والجركس ، والارناؤوط ، يقصدون زيارته ليجرد القربك
 بتقبيل يده ، والافتداء بهديه وتلقي وارداته الروحية ونفحاته القدسية ، وكثير منهم اخذوا
 عنه الطريقة السنوسية . وكانت مدة مقامه بروسه ما يقرب من سنتين تأسست خلالها
 الحكومة الانقروية ، فأرسل اليه رئيسها مصطفى كمال باشا يدعوته الى الانحياز الى الثورة .
 شدا لعنه الاسلام ، وترجيحاً لكفة الجهاد على كفة القعود . وكانت القوى المالية التي
 مركزها انقرة ، هي في الحقيقة آخر ما بقي من قوة الدولة الفعلية ، فاعمل السيد الروية في
 هذا الامر . فرأى ان حكومة الاستانة ، لا سيما في ايام الداماد فريد ، أصبحت كالمجلس
 الملقى ، لا تلك ضرا ولا نفعا ، ولا تقدر أن تفي بحق مسلم ، فضلا عن كون ثلثه في
 بروسه مع دتو اليونان منها ، يعرض شخصه للوفوق في ايدي الخلفاء ، فأزمع السيد التحول
 الى الاناضول ، واول بلدة نزل بها اسكى شهر ، حيث وافاه مصطفى كمال باشا ، ومعه رعيته
 باجمعهم ، وتلقوه برأ وتكريما ، واحتفلوا بتقدمه احتفالا عظيما . ثم ان بعض الفرق ، ممن
 لا حاجة الي بيان اسمائهم ، استطاعوا ارايه في أمر الخلافة ، وارادوه عليها ، وأبدوا واعدوا
 في اغتاعه بها ، فاعتلر عن ذلك وأقهرهم ان لا سبيل الى قبوله هذا الأمر ، لأسباب
 عديدة . فتركوا مراجعته في هذا المشرع ، وخبروه في الإقامة بأي بلد يريد . فاختار
 قونية ، وأقام بها عدة أشهر . وأثناء إقامته بقونية ثارت تلك الثورة على الحكومة
 الانقروية ، لأسباب ليس هنا موضعها ، فبذل السيد كلته في اخاد الثورة ، ونصح الأهالي
 بطاعة الحكومة المالية ، وصعد المنبر يوم الجمعة ، تحت الناس على اجتناب الفتنة ، وبصرهم
 عواقب الشقاق بينا العدو أخذ منهم بالخلق ، وبين لهم كيف أن أنقرة هي عمال الاسلام .
 وثمة ما بقي في حوضه في هذه الأيام ، فلا يجوز لهم والحالة هذه الخروج عليها ، وتوهين
 قوتها ، حتى لقد غاثه كثيرون من أهلي قونية في تشييعه لأنقرة ، وغضب آخرون . ولولا
 احترامهم لمقامه العظيم ، ونسبه الكريم ، لمسه السوء يوم سالت الدماء في أسواق قونية .

وما زال في الوعظ والارشاد ، حتى وصلت العساكر المليية فهددت شمل الثائرين وقبضت على
 ثلث منهم وحاكمتهم في ديوان حرب ، ووصلت كثير منهم ، وكانت تبطش بالثبلي شيخ
 المولوية وسلالة مولانا جلال الدين الزوي البكري الصديقي ففسد الله سره . فكان السيد
 واسطة خير وشقيعاً له ولغيره . فأخذ كثيرين واطف مصائب كثيرة ، بحسن شهادته واطف
 مواعظه ، في هذه الفتنة التي كسائر الفتن لا تصيب الذين ظلموا خاصة . ثم اتت به الحكومة
 المليية للذهاب الى بلاد الاكراد ، لاجاد بعض الفتن ، واعمال نفوذه الديني في نصيحة
 العتائر التي كانت غير راكنة . فذهب السيد الى ديار بكر ، وأقام بها وبخاردين وباورفا ،
 مدة وفدت فيها عليه زعماء القبائل العربية والكردية الضاربة في هاتيك الديار ،
 ورادوده على الإقامة بينهم ، وأظهروا له من الطاعة لأمره والانقياد لكلماته ما هو
 فوق الوصف . ولكنه أبدى لهم استحالة ذلك عليه وكونه مقيداً ببلاده ، لا بد له
 من الرجوع الى الغرب . وانما نصح لهم في الاتفاق مع الحكومة المليية ومظاهرتها
 وجهداً لكلمة الاسلام واتقاء الفتنة ، التي انما يستفيد منها العدو أثناء حرب لافح
 لا يدري ما تلد . وكان يشدد عزائم الناس ، ويحثهم على الجهاد . واحدى المرار فيها هو في
 بخاردين ، قال : « ان هجوم الأعداء سيبدأ بهذين اليومين وسيكون نصيبهم الخذلان »
 فم يرض بومان حتى ورد عليه برفقة من الغازي مصطفى كمال باشا قائلاً له : « ان العدو
 بدأ بالهجوم فسألك الدعاء . فكان ذلك مدعاة لهفة الضباط الأتراك ، الذين سمعوا من
 السيد أن العدو سيهاجم بهذين اليومين وفقدوا ذلك بالورق يوم قال لهم ، فكان الأمر
 شيق ما قال . وكان الغازي في برفقة طلب أيضاً من السيد قراءة البخاري الشريف تبركا
 واستنزالا لانصر على جيوش الاسلام ، فذهب الى المسجد الجامع بخاردين ، وشرع بالقراءة ،
 ودأبوا عليها الى أن وردت البشائر بكون العدو ارتد خاضعاً من وقعة سفاريا . ثم أقام
 السيد بطرسوس فراراً من برد الأناضول . وفي أثناءها تم الظفر الأخير بالعدو ، وأخرج من
 كل أقليم تركيا ، وجاء مصطفى كمال باشا الى ولاية أطلنة ، وزار السيد في منزله بطرسوس ،
 فباع السيد في الاحتفال به ، وقدم بعض هدايا نفيسة للسيدة الخاتون حليته . وبعد ذلك
 ذهب الى أنقرة لتهنئة الحكومة بظفرها الأخير ، واستقبال الأمر وعقد الصلح ، وكانت
 زيارات السيد لأنقرة ثلاث مرات : أولاها يوم توجه الى بلاد الأكراد بطلب من الحكومة

الملية . والثانية أثناء الحرب بعد هزيمة العدو في سقاريا . والثالثة بعد نهاية الحرب وعقد الصلح . وفي هذه المرة الأخيرة كان معه عجمي باشا السعدون ، أمير المنتفق الذي لم ينفارق جيش الدولة وترك وطنه العراق حياً بها ، ومدلومة على مبدئه . وقد كان السيد في جميع زياراته لأنقره يلقى من الغازي ومن شبة الحكومة جميع ما هو أهله من الأجلال والأكرام . وآخر مقامه كان بمرسين ، التي آثرها على طرسوس ، فزال بقية « مرسين كوي » التي كان يسكنها الأروام قبل الهجرة ، وهي على مسافة نصف ساعة وكان كولونل ايطالي قد وافى أنقره آخر مرة من زياراته طاء واستأذن السيد في ملاقاته ، فأذن له ، فتكلم مع السيد في حقن الدماء في طرابلس ، والاتفاق على أساس ناصح . فاجابه السيد بأنه لا يكره الصلح ، على شرط استقلال وطنه الحلفي وبعد الأخذ بالرد ، أمال السيد أخذ خلاصة الاقتراحات الإيطالية إلى الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويز . وكان السيد قبل أن رضي بالأخذ والرد مع هذا الكولونل قائماً : « أعنيك نفويض من حكومتك بالدخول معي في حديث الصلح ؟ » فقال له الكولونل : « كلا ، وإنما يمكن الحصول على النفويض من اليوم إلى شهر » . فقال له السيد : إذا بعد الحصول على الأذن من حكومتك ، نفويض بما تريد بيانه إلى الأستاذ الشيخ جاويز . وأوعز السيد إلى الشيخ جاويز بأن يعيد عليه الجواب . فبعد مدة جاءه الشيخ بخلاصة الشروط . فوجدتها السيد غير موافقة وقال للشيخ جاويز : « قل لهم لا تقبل أن تكون القوة العسكرية في أيديهم ، ولا أن تكون الشرطة منهم ، وكل ما نصلح مهم فيه هو الامتيازات الاقتصادية ، واستئثار البلاد حقاً لهم دون غيرهم من الأجانب . فلما حقوق الملكية فلا نزل عن شيء منها ، وسلاحاً لا بد أن يبقى في أيدينا ، وعلى غير هذه الشروط فلا سلام ولا كلام ، لأن طرابلس وبرقة ليستا ملكي لأجود به على الطليان ، بل هما ملك أهلها » . فلما عاد الشيخ إلى الطليان بالجواب علموا أن لا سبيل إلى الصلح ، فادعوا في الجرائد أن خبر مفاوضات السيد السوسى بالصلح غير صحيحة . والخال أنه قبل هذه الأذاعة بقليل ، كان ورد إلى السيد الأخير من الشيخ جاويز بأن الكولونل ايطالي قد قدم إلى مرسين لمواجهته ، كما أن هذا الكولونل لما واجه السيد وشافهه بأمر الصلح في أنقره ،

أخبر السيد الغازي مصطفى كمال بما جرى فأشار عليه بالصلح ان طاب له ووافقته شروطه .
عند ما قدمت الى الاستانة في أواخر سنة ١٩٢٣ ، وهي أول مرة دخلتها بعد الحرب
قررت لأجل الاستجمام من عناء الأشغال وترويح النفس بعد طول النضال ان أسكن بيلا
صغير تنهيا لي فيه العزلة وتسهيل الرياضة ، ويكون دانياً من وطني سورية للاحاطة بشغلي
الخاص ، ونعهد أملاكي فيها ، فأخترت مرسين ، والقيت مرصاة غريش فيها . وكان السيد
السنوسي بلغه قدومي الى دار السعادة ، فكتب لي يرغب الي في سرعة انجي ورحب بي .
فلما جئت الى مرسين ذهبت نوراً لزيارته ، فأبني الا أن ازل عنده ، ريثما اكون استأجرت
منزلاً في البلدة ، وقد رأيت في هذا السيد الأسد بالعيان ، ما كنت اتخيله عنه بالسماع وحق لي
وأنت أن أقشد :

كانت محادثة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيّب الخبر
حتى اتقينا فلا والله ما سمعت اذني بأحسن مما قد رأي بصرى

رأيت في السيد حبرا جليلا ، وسيدا غظيضا ، وأستاذا كبيرا ، من أنبل من
وقع نظري عليهم مدة حياتي ، جلالة قدر ، وسراوة حال ورجاحة عقل ، وسجاجة خلق ،
وكرم مهزة وسرعة فهم ، وسداد رأي ، وقوة حافظه ، مع الوقر الذي لا تغض من جانب
الوداعة ، والورع الشديد في غير رياء ولا سمعة . سمعت أنه لا يرفد في الليل أكثر من
ثلاث ساعات ، ويقضي سائر ليله في العبادة وال تلاوة ، والتهجد ، ورأيت مراراً تنفج بين
يديه السفر الفاخرة الملائقة بالملوك فيأكل الضيوف والحاشية ويتجزي هو بطعام واحد
لا يصيب منه الا قليلا ، وهكذا هي عادته . وله مجلس كل يوم بين صلاتي الظهر والعصر
يتناول الشاي الأخضر الذي يؤثره المغاربة . فيأمر بحضور من هناك من الأضياف ورجال
المنية ، ويتناول كل منهم ثلاثة أقدمش شاي مزوجاً بالعبر . فلما هو فيتحامى سرب الشاي
لعدم ملائمته لصحته . وقد يتناول قدحا من النعناع . ومن عادته أنه يوفد في مجالسه غالباً
الطيب ، وينسبط السيد الى الحديث ، وأكثر احاديثه في قصص رجال الله وأحوالهم ورفائهم
وسير سلفه السيد محمد بن علي بن السنوسي ، والسيد المهدي ، وغيرهما من الاولياء والصالحين
وإذا تكلم في العلوم قال قولاً سديداً ، سواء في علم الظاهر أو علم الباطن . وهو يذهب الى
تعظيم الاولياء ، ويرى فيهم الوسائل بين الله والعبد . ويشكر على الفائلين أن لا وسيلة

بين الخلق والمخلوق ، بل يقول ان الانبياء ، صلوات الله عليهم ، ان هم الا وسائل الى الله .
ويقول اذا وقع خلاف في مسألة بين علماء النضرع . و بقيت غامضة ، فالتول فيها ما يقوله
علماء الباطن أهل النصارى . وهو شديد الاعتقاد والافتداء ، باثنين : الاول عمه سيدي محمد
المهدي الذي لا يرى فوق طبقة احداً الا سيد الكائنات ، ^{عليه السلام} . والثاني استاذة ومرشده
سيدي احمد الزيني ، من أكابر السادة السوسية . وأركان هذه الطريقة . ويقول انه كان
علامة بخرأ في جميع العلوم . قرأ في فلس وأتقن العلوم بأسرها حتى الفلك والاسطرلاب ،
والهندسة ، والرياضيات . وهو يعتمد على كلامه له ، ومن جملة ذلك انه قبل وفاته ، رحمه
الله ، بأيام قال له : أما لكم جهاد طويل عريض ؟ فيلحق لك أن تجاهد ولا تقعد . وان
الجهاد يقتضي بنصركم . وإنما لا تجعل لنفسك مركزاً معيناً تلازمه ، ولا تكن مهاجراً للنقاط
المحكمة بل فح دائماً على قسم الدفاع . وإياك والصلح . فسأله السيد « اين يكون هذا الجهاد ؟ »
وكان ظن انه يعني حرباً تقع بين السوسية والفرنسيس في جهة وكادى ، لانه كان القتال
مستمراً بين الفريقين على عشرين كلك . فأجابه سيدي احمد الزيني : « كلا ! هذا
جهاد ضد عدوياً أنكم من جهة البحر ، وهو الطليان » . قال له : « وستأنكم النجدة من
استانبول . » فما مضى على وصاة سيدي الزيني شهران ، حتى نشبت حرب طرابلس وتحقق
كل ذلك . فالسيد متمسك بكلام استاذة لا يحيد عنه . وقد لحظت منه صبراً في أن يوجد
في غيره من الرجال وعزماً شديداً بلوح سياؤه على وجهه ، فبينما هو في نفواه من الأبدال ،
اذا هو في شجاعته من الأبطال . وقد بلغني أنه كان في حرب طرابلس يشهد كثيراً من
الوقائع بنفسه ، ويمتطي جواده بضع عشرة ساعة على النواي بدون كلال ، وكثيراً ما كان
يغامر بنفسه ولا يقتدي بالأمراء وفواد الخيوش الذين يتأخرون عن ميدان الحرب
مساقة كافية ، أن لا تصل اليهم يد العدو فيما لو وقعت هزيمة . وفي إحدى المرات أوشك أن
يقع في أيدي الطليان ، وشاع أنهم أخذوه اسيراً . وقد سألته عن تلك الواقعة فحكى لي
خبرها بتفاصيله ، وهو أنه كان يرفقه فيبلغ الطليان بواسطة الجواسيس أن السيد في قلة من
المجاهدين ، وغير بعيد عن جيش الطليان ، فسرخوا اليه قوة عدة آلاف ومعها كبرياء^(١)
خاصة لركوبه . اذ كان اعتقادهم أنه لا يقلت من أيديهم تلك المرة . فبلغه خبر زحفهم ،

وكان يمكنه أن يخيم عن المقاء أو أن يتحرف بنفسه إلى جهة يكون فيها بمنجاة من الخطر ، أو يترك الحرب للعرب تصادمهم فلم يفعل . وقال في « خفت أني ان طلبت النجاة بنفسى ، أصاب المجاهدين الوحل ، فداوت عليهم الدائرة ، فثبت للطلليان وهم بضعة آلاف بشدائد مقاتل لا غير ، واستمات العرب ، وصدموا العدو ، فصار رأى هؤلاء وفرة من وقع من القسلى والجرحى ، ارتدوا على أعقابهم ، وخلصنا نحن إلى جهة واقتنا فيها جوع المجاهدين . » قال في : « وفي هذه الوقعة جرح الضابط نجيب الخورائى ، الذى كان من أشجع أبطال الحرب الطرابلسية ، كان قائداً ولكنه كان يغامس بنفسه فى كل واقعة ، جرح مرتين واستشهد فى الثالثة رحمه الله . ولم يحزن السيد على أحد حزنه عليه ، لظاهر شجاعته وشديد إخلاصه . وكان السيد يكتب لى من الجبل الأخضر وافر الثناء عليه ، وهو اليوم دائم الترحيم عليه . والشهيد المذكور هو نجيب بك بن الشيخ سعد العلى ، من مشايخ بلاد عجلون ، ترك فى بلاد الغرب ذكراً نالداً .

والسيد أحمد الشريف سريخ الخطر ، سيال القلم ، لا يمل الكتابة أصلاً ، وله عدة كتب منها كتاب كبير أطلقنى عليه فى تاريخ السادة السنوسية ، وأخبار الاعيان من مريد بهم والمتصلين بهم ، بنوى طبعه ونشره فيكون أحسن كتاب يعرفه أخبار السنوسيين وأما زعمهم الانسان من مطالعة أخبار سيدى محمد السنوسى ، وولده سيدى المنهدى ، ومخادته سيدى أحمد الشريف ، ان طريقهم طريقة عملية ، تعمل بالكتاب والسنة ، ولا تستقيم الاذكار والاوراد ، دون القيام بفرائض الاسلام ، كما كان عليه الصدر الأول ، ولذلك وقفوا بجهد ووقفوا فى وجه دولة عظيمة كدولة ايطالية ، منذ ثلاث عشرة سنة ، لولاهم كانت سيادة افرا بلس وبرقة منذ أول شهر من غاراتها عليهما . ويذكر الناس ان الطليان قدروا كتموتج طرابلس وبرقة كليهما مدة خمسة عشر يوماً ، من أول نزولهم . وان قواداً من الانكابتز المحنكين فى حروب المستعمرات والبهادى ، قالوا ان الطليان افرطوا فى التفاؤل بحسبهم الاستيلاء على بر طرابلس فى ١٥ يوماً ، والحقيقة انه قد تأخذ هذه المسئلة معهم ثلاثة أشهر ... فليتنظر الانسان كيف ان المدة التى قدرها أركان الحرب فى ايطالية ١٥ يوماً ومصرها أركان الحرب فى انكابترة ثلاثة أشهر ، تناولت ثلاث عشرة سنة كاملة ، والحرب اليوم هى كما كانت فى بدايتها . وكل هذا بفضل السادة السنوسية ، ولا سيما هذا السيد

العظيم سيدي أحمد الشريف . وكان الاوربيون في عهد السلطان عبد الحميد يشكون الى السلطان حركة السوسية ، ويتوجسون خيفة من تشكيلاته وحركاته ويرون فيه أعظم خصم للسفوة الاوربية في افريقية ، وطالما ضغطت دول أوربا على السلطان لاجل أن يستدعي سيدي المهدي الى الاستانة ، ويأمره بالاقامة بها ، ولا يأذن له بالعودة الى وطنه ، ايدخلوا للاوربيين الجو في تقسيم أواسط افريقية ، وخضد الشوكة الاسلامية في تلك المدير . فكان السلطان يماطل جانبك الدول ، ويعتزل لم يصنف الاعذار ، بل كان يلاطف السوسية كثيراً بالهدايا والكتابات ، الى ان اشتد الضغط على السلطان في قضية السوسية : فارسل رجلاً اسمه عصمت بك الى بنغازي ، ومنها الى جغبوب ، بأمره سرية ، فبلغ المهدي ما عو عليه السلطان من الارشال من جهة ضغط الدول عليه في أمر الديانة السوسية ، فاجاب السيد المهدي بحسب ما قرأت في التاريخ الذي تقدم ذكره ، بكلام لا ينضم نفي ولا انجاء ، وانما تلا له آيات كريمة في معنى الانكسار على الله ولكن السيد المهدي لم يعنم بعدها ان يترك جغبوب الى واحة الكفرة ، وبني فيها زاوية الناج ، وعمر الكفرة عمارة جعلتها جنة في وسط الصحراء . والأغرب ان سبب تحوله من واحة الجغبوب ، القريبة من مصر وبرقة ، الى واحة الكفرة ، التي هي في أواسط الصحراء الكبرى ، ثم توغله من الكفرة الى ناحية قرو التي اختاره الله فيها ، وهي على أبواب السودان هما من ارضها الى العزلة ، ومين الى الثاني عن مرا كثر السلطة الرسمية ، والخروج من مناطق تأثير الدول الاستعمارية . بحيث اتبذ مرا كثر محاطة بالغابى والقفار ، مأهولة بأقوام لا يرأون على القطرة ، فاصبح حراً في بث دعوته لا نصل اليه يد ضغط ، ولا تعلو فوق كلمته كلمة ، وعكف على تهذيب تلك الأقوام ، ونشأهم في طاعة الله بعد ان كانوا يتسعون في مهامه الجهل فيبات به الأرض غير الأرض ، وانقلبت به أخلاقها تلك الأمم انقلاباً حبر العقول ، ولم يفت في الديانة الروحية على واحات الصحراء ، واطراف السوادين ، بل بث دعائه في أواسط افريقية فكان منهم مثل الشيخ محمد بن عبد الله السني ، والشيخ جودة النعلوي ، والسيد طاهر الدغماري . ورجال آخرى جاوا السوادين مبشرين وعادين ، فكان السيد المهدي هو الراحم الاكبر لجمعية المبشرين الاوربية ، المنبثة في قارة افريقية كلها ، وعلى يده وبسبب دعائه الحبيبة اهتدى للاسلام ملايين من الزنوج ، فلهذا جمعية المبشرين باسمها

نكسو حزنهم ، وبتها من نواح الاسلام في اواسط افريقية ، مثل بلاد النيجر ، والكونغو
والكامرون ، وديار بحيرة تشاد ، وتوجه أكثر شكاواها الى الطريقة السنوسية ، كما
طالعنا ذلك في مؤلفات أوربية عديدة : هذا من جهة القوة الروحية وأما من جهة القوة
المادية ، فقد كان السيد المهدي مهدي هدى الصحابة والتابعين ، لا يقتنع بالعبادة دون
العمل ، ويعلم ان أحكام القرآن محتاجة الى السلطان . فكان يحث اخوانه ومريديه دائماً
على الفراسة ، والرمية ، ويبت فيهم روح الألفة والنشاط ، ويحملهم على الطراد والجلاد ،
ويعظم في أعينهم فضيلة الجهاد ، وقد أثمر غراس وعطاء في مواقع كثيرة ، لا سيما في الحرب
الطرابلسية التي أثبت بها السنوسية أن لديهم قوة مادية تضارع قوة الدول الكبرى وتضارع
أعظمها جبروتا وكبرا ، وليست الحرب الطرابلسية وحدها هي التي كانت تظهر بطش
السنوسيين بل سبقت لهم حروب مع الفرنسيين في مملكة كانم ومملكة وادي من السودان
استمرت من سنة ١٣١٩ الى سنة ١٣٣٢ هجرية ، وحدثني السيد أحمد الشريف ان عمه
المهدي كان عنده خمسون بندوية خاصة به وكان يتعاضدها بالبح والتتظيف بيده ، لا يرضى
أن يمسحها له أحد من أتباعه المحدثين بالثياب . فبعدا وعمدا ابتعدى به الناس ويخفوا
بأمر الجهاد ، وعدته وعناده . وكان نهار الجمعة يوما خلاصا بالتمريينات الحربية ، من طراد
ورماية ، وما أشبه ذلك . فكان يجلس السيد في مرقب عال ، والفرسان تنقسم صفين .
ويبدأ الطراد ، فلا ينتهي الا في آخر النهار . وأحيانا يضعون هدفا ، ويأخذون بالرمية
حتى كنت ترى طلبه العلم والمريدين أكثرهم فرسانا ورماة ، أكثر ما كان يأخذهم بهذا
المران . وكان يجيز الذين يسبقون في الطراد أو يقرطسون في الرمي بجوائز ذات قيمة ،
ترغيباً لهم في فضائل الحرب . كما أنه كان يوم الخميس من كل أسبوع مخصصاً عندهم للتغلي
بالأيدي ، فيتركون في ذلك اليوم الدروس كلها ، ويستغلون بأنواع المهن من بناء ،
ونجارة ، وحداثة ، ونساجة ، وصحافة ، وغير ذلك ، لا تجد منهم ذلك اليوم الا عاملا بيده
والسيد المهدي نفسه يعمل بيده لا يقتر حتى يئنه فيهم روح النشاط للعمل . وكان السيد
المهدي ، وأبوه من قبله ، يهتمان جد الاهتمام بالزراعة ، والغرس تستدل على ذلك من الزوايا
التي شادوها ، والجنان التي تسقوها بجوارها ، فلا تجد زاوية الا لها بستان أو بساتين ،
وكانوا يستجلبون أصناف الأشجار الغريبة الى بلادهم من أقصى البلدان . وقد أدخلوا

في الكفرة وجعوب زراعات وأغراساً لم يكن لأحد هناك عهد بها . وكان بعض الطلبة يسمون من السيد محمد السنوسي أن يعلمهم الكيمياء فيقول لهم : « الكيمياء تحت سكة الخراف » . وأحياناً يقول لهم : « الكيمياء هي كد البعير وعرق الجبين » . وكان يشوق الطلبة والمريدين إلى الضيق على الحرف والصناعات ، ويقول لهم جداً تطيب خواطرهم ، وتزيد رغبتهم في حرفهم . حتى لا يزهدوا بها أو يظنوا أن طبقتهم هي أدنى من طبقة العلماء ، فكان يقول لهم : « يكفيكم من الدين حسن النية ، والقيام بالفرائض الشرعية ، وليس غبركم بأفضل منكم » . وأحياناً يدمج نفسه بين أهل الحرف ، ويقول لهم وهو يشتغل معهم : « يظن أهل الأوريقات والسبيحات أنهم يستقوننا عند الله لا والله ما يستقوننا » . يريد بأهل الأوريقات العلماء ، وأهل السبيحات العابدين والقانتين فكأنه يريد أن يقول للمحترفين والصناع لا تظنوا أنكم دون العلماء والزهاد مقاماً ، مجرد كونكم صناعاً وعمالة ، وكونهم هم علماء وقراء . هذا فيزبدتهم رغبة وشوقاً ، ويعلم الناس حرمة الصناعة التي لا مدنية إلا بها .

هذه الفرقة فرقة عملية لا تعتمد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل والسير . فهي تجمع بين العمل الشرعي بخلافه ، والتجرد الصوفي إلى أقصى درجاته ، وتنظم بين الظاهر والباطن ، ظاهراً لم يوفق إليه غيرها . ويظهر أن مؤسس هذه الطريقة السيد محمد بن علي بن السنوسي ، وولديه السيد المنسي ، والسيد الشريف ، وكبار أعوانهم مثل سيدي أحمد الريني ، وسيدي عمران بن بركة ، وسيدي أحمد النواقي ، وسيدي عبد الرحيم بن أحمد ، وسيدي عبد الله السني ، وسيدي أبي القاسم العيسوي ، وغيرهم كانوا على أخلاق عظيمة ودارك سامية ، تدل عليها أقوالهم وأفعالهم . حدثني سيدي أحمد الشريف أن عمه الأستاذ المهدي كان يقول له : « لا تحقرن أحداً ، لا مسلماً ولا نصرانياً ولا يهودياً ولا كافراً ، اعزك يكون في نفسه عند الله أفضل منك . إذ أنت لا تدري ماذا تكون خاتمة » . وبمثل هذه الآداب كانوا يأخذون أولادهم ومريديهم ، فكان من هؤلاء أقطاب وأبطال ، يتجمل الثارب بذكورهم . وواسطة عقابهم اليوم هو السيد أحمد الشريف الذي نحن في ترجمته . وقد ذرف السيد المشار إليه على الحسين ولكن عيته لا تدل على وصوله إلى هذه السن ، لأن سورة الشب في شعره ، وهو رائع المنظر ، بهي الطلعة ، عبق الجسم ، قوي

البينة : لا يمكن أن يراه أحد بدون أن يحله ويخترمه (١).

نق علينا شيء لابد من الإشارة اليه وهو ان الذين يقرأون هذه السيرة من الناشئة الجديدة يرون فيها مثلاً يوافق مشربهم ، من القول بالولايات والكرامات ، والاعتقاد بالكشف ، وبما فوق الطبيعة ، مما يرونه حديثاً ماضياً ، لا يليق بالقرينة العصرية التي ينبغي أن تكون مبنية على محض الحقائق الفنية . وفلما يعظم في أعين هذه الناشئة رجل ينطوي على هذه العقائد ، مهما كان عظيمها . بل قصارى ما هناك أنهم يخترمون له حسن نيته وخلوص اعتقاده لا غير .

وانتي أحب أن أجاب عن هذه الطبيعة التي قد توجه مثل هذا الاعتقاد الى هذا المقام بأن العالم المتمدن لا يزال حتى هذه الساعة متقسماً الى فريقين : روجي وهدى ، وأن الفريق الروجي هو أكبر جداً وأخصى عدداً من الفريق الهدى . بل يوجد في أوروبا وأمريكا واليابان عدد لا يحصى من غول علماء الطبيعة ، يعتقدون بوجود العالم الروجي ، وآخرون يعرفون بأن مشكل الروح لم يحل بعد ولا أكنه سر الروح واتصالها بالجسد أحد . وإذا رأينا أناساً مثل فلاماريون الفالسي الشهير وفيكتور هوغو أكبر شعراء الفرنسيين ، وسواهم من صيانة العلماء ، يعتقدون بالمتحضر الأرواح ويشهدون بوقوع المحاورات بينهم وبين الأموات ، وعرفنا أن جماعات لا تعد ولا تحصى في أوروبا مؤلفة خاصة للبحوث الروحية ، واثبتت الحوادث التي لا فعل الا بوجود شيء وراء المادة ، لم يخطئ لنا أن نعجب من اعتقاد بعض العلماء بالخوارق والكرامات والمناسبات الروحية . وإذا علمنا أن رجالاً مثل باحتور يمكنه من العلم والاكتشافات الكيميائية التي لم يسبق اليها أحد ورجلاً مثل غلامسبون في الشهرة ، وبنوقه الذهني كانوا من أشد الناس تمسكاً بالدين ومن المؤمنين بأن السيد المسيح اله وإنسان معاً ، ظهر لنا أن الاتحاد التام أو الرخص للاعتقاد بكل ما هو خارج عن المادة ، ليسا بشرط في علو درجة العقل ، ولا بدليل على التبحر في العلم . وما أوتبهم من العلم الأقل .

(١) قد كتب سعادة أمير الدين هذا الفصل من عهد بعيد وحدث في أثناء طبع المصنوعات للمرة الثانية أن وافنا أخبار الجابر بوفه السيد أحمد الشنوسي في المديسة المنورة في منتصف ذي القعدة سنة ١٣٥١ والقدس الأول من مارس سنة ١٩٣٣ راحة الله راحة واسعة وأسكنه فسيح رايته . الناشر .

الجزائر والأمير عبد القادر وفرنسا

المقدمة

ليس هنا محل سرد تاريخ المغرب الأوسط من أوله إلى آخره ، وإنما نذكر بملامحة
 الأمير عبد القادر الحسني الجزائري سبب استيلاء فرنسا على الجزائر ، وأوليات ذلك
 ومعارضة عقيدته المذمومة الذي قام به هذا الجاهل الكبير في الديار المغربية فنقول :
 لا يخفى أنه عندما استولت فرنسا على الجزائر كان هذا القطر من جهة أجزاء السلطنة
 العثمانية التي افتتحتها منذ سنة ١٥١٦ وأجلت الاستيلاء عن أكثر مدنها البحرية التي
 كانوا يحتلوها ولم يأتوا إلى ما وراءها . وكان القائم بهذا الفتح هو عروج الرئيس البحري
 التركي ، ثم أخوه خير الدين الملقب ببربروس ، أي ذي المحية الحراء ، الذي وصلت القوة
 البحرية الإسلامية في أيامه إلى أوجها الأعلى بحيث أصبحت هي سيدة البحر المتوسط بلا
 مراد ، ونضات أمامها جميع أساطيل النصرانية . وكان مركز خير الدين هو مدينة الجزائر ،
 وقد مد منها جناح سلطته باسم السلطان العثماني على سواحلها ودواخلها ، فصارت تسمى
 وما يليها ، وقسطنطينية وما يليها ، داخلية تحت الحكم العثماني ، وقد توالى بعد خير الدين
 الولاة من قبل الدولة على تلك البلاد يتولون أمورها على شكل إدارة داخلية مستقلة أشبه
 بإدارة تونس ومصر . وكان هؤلاء الولاة في شغل دائم ونصب مقبم من مكاتبة الدول
 المسيحية في البحر المتوسط ورد تقاريرها المتوالية على سواحل المغرب . ولما كان أساس
 تولد خير الدين بهذا الدير هو القوة البحرية فقد نصبت تلك الولاية مركز قوة بحرية
 عظيمة مدة ثلاثة قرون ، استغل فيها شأنها طيلة القرن السابع عشر وأدرك أمرها الخراب
 والضعف في القرن الذي بعده . وكانت الدولة العثمانية تتوكل دائماً في حروبها على أسطول
 الجزائر ، وتعمده ردها للأسطول العثماني في كل موقف خطير ، إلى أن انقلب أسطول الجزائر
 من الجهاد إلى المصا ، ومن الدفاع الشريف عن حوزة الإسلام إلى الاعتداء على الناس
 والسبي والنهب والاسترقاق ، مما أدى إلى تهديد ولا تنجح فيه الوسائل حتى ضاق بذلك ذرع
 ودل النصرانية ، وآل الأمر إلى تولي الحداشن (فرنسا) كبحر اسقاط تلك القوة واستئصالها

من شاطئها ، والاستيلاء على الغنى الذى درجت منه . فقد صارت لخصوصية البحر ، أو القرصنة ، فى أواخر القرن السادس عشر مورد رزق وواسطة كسب لحكومة الجزائر ولأهلها وأصبح هؤلاء يؤمنون المركبات وينتفون السفن ويجهزون بها بالعدد اللازمة ، وينتفونها فى البحر تغزو وتعت ، فتأخذ السفن نصيباً ونصيب البضائع التى فيها ، وتسلط على ركبها فتسوقهم أسارى من رجال ونساء وأطفال وتبيع بعد ذلك الأموال والأرواح فى أسواق الجزائر . فتأخذ الحكومة من ذلك نصيباً معلوماً ويتقسم الباقي على أصحاب السفن والبحرنة . وإذا كان الأسير من أسرة ذات ثروة أو وجاهة فمنع الغنيمة إذ كان أقرب الأسرى وحكوماتهم المتبوعة وبعض رهبانيات التنصارى يفسكون الأسرى بمبالغ طائلة . واستمرت هذه الحال دهوراً حتى عيل عبر الدول الأوروبية لاسيما فرنسا وإنكلترا وضمربتا الجزائر والمدافع سنة ١٦٥٩ و سنة ١٦٦٤ وتكرر ذلك سنة ١٦٨٢ و ١٦٨٣ ثم سنة ١٦٨٦ الى أن مكنت دوايا إنكلترا وفرنسا من صيانة سفائنها من اعتداء قرصان الجزائر وصارت تجول فى البحار بدون معارض . أما الدول التى من الدرجة الثانية مثل السويد وهولادة والدانمرك وتابولى الخ فكانت مضطرة أن تدفع لحكومة الجزائر جزية سنوية لشعري بها حرية سبر سفائنها . وكانت دولة أوستريا والمجر معفاة بوصاة خاصة من الباب العالى . ومازال الأمر كذلك حتى أيام نابوليون ، فانهز قرصان الجزائر فرصة الحروب التى اشتعلت يومئذ فى كل أوروبا وضاعفوا غيبتهم فى البحر المتوسط ، فارتفع العويل من كل جهة ، ولما نمر الصلح فزيت الدول فى (اكس لاشابل) منع الجزائر بين ثنائياً من التعرض لأى سفينة ، فلم يسمعوا لأحد كلاماً فأطلق الانكليز مدافعهم على الجزائر انتقاماً

وفى سنة ١٨٢٧ حصلت منافرة بين حسين داي والى الجزائر ودفال فتصل فرنسا فمد يدها الى الفتصل وضرب به بالمروحة ، فخصرت فرنسا سواحل الجزائر واغتنمتها فرصة فتفتح تلك البلاد ، فاحتلت الجزائر فى ٥ ايلول سنة ١٨٣٠ وكان ذلك لعهد الملك كارلوس العاشر ، وكان مراد الفرنسيين فى الأول الاحتفاظ ببعض المدن البحرية ونقرر نظام لإدارة البلاد الداخية بالاتفاق مع الدول ، ثم انقلبت الأفكار وتألفت لجنة اسمها « اللجنة الإفريقية » للتدكير فيها إذا كان الأولى ترك الجزائر تحت شروط معلومة : تنقادياً من السكان الباهظة التى يقتضيها فتح الفطر الجزائرى أو الاستمرار على سياسة الفتح والاحتلال

الى النهاية . مشكلة شبيهة جداً بمسئلة سورية اليوم بين الحزب الذي يرى تركها لأهلها خوف التورط في حروب مستقبلية أما مع العرب أو مع الترك أو مع غيرهم ، والحزب الذي يرى التمسك بسورية والسيطرة عليها لأجل نفوذ كلمة فرنسا في المشرق مهما كلف ذلك من المشاق . وفي سنة ١٨٣٤ رجح رأى الاستيلاء ، وتعين حاكم عام للجزائر ، ولكن بقي الفرنسيون مترددين في قضية الزحف الى الداخل ، وجعلوا يدخلون المدن تدريجاً ، فاستولوا على وهران ومستغانم وعتابة وبجاية . وسنة ١٨٣٦ فصدوا قسطنطينية ، وكان فيها أحد بك فهزمهم . فأعدوا حيلة ثانية في السنة التالية ففتحوها وامتدوا من هناك الى الصحراء ، وفي سنة ١٨٤٤ كانوا في بيسكرة

أما في الجهة الغربية فكان المقاومة كانت أطول أمداً ، وأصعب مراساً ، وذلك أن الأهالي اختاروا ظم أميراً قاتلوا تحت لوائه وهذا الأمير كان رجلاً من أعظم الرجال وشعر عبد القادر بن محي الدين الحسيني . أصل سلفهم من المغرب الأقصى ومن آل البيت فيما يقال . هاجروا من هناك الى تونس وهران ، واشتهر منهم رجل بالورع واقتصدت بهم الناس ولا سيما السيد مصطفى بن محمد المختار . والسيد محي الدين والد المترجم . وكانت ولادة المترجم سنة ١٢٢٣ الموافقة لسنة ١٨٠٨ ونشأ في مهده العلم والتقوى ، واعتنى بالتحصيل بعد الاعتراف ، حتى تفوق بالأدب والفقه والنوحيد والحكمة العقلية ، وكان مع ذلك لا يهمل المنافسة بالاسلح وركوب الخيل بحيث فزع من جهة عائلاً فأطلا ، ومن جهة ثانية تلقاً فريساً فجمع بين السيف والقلم . وفي سنة ١٨٢٧ وقعت مشادة بين والده السيد محي الدين وبين حسن بك حاكم وهران التركي ، فانتهى الأمر بجلاء السيد محي الدين عن وطنه . فأزاع الرحلة الى المشرق وحج البيت الحرام وكان معه ولده عبد القادر . وبعد سنتين من غيابهما عادا الى وطنهما ، فكانت بعد ذلك الحرب بين أتراك الجزائر والفرنسيين فيقال ان عبد القادر منع والده من الانضمام الى حسن بك حاكم وهران فسلم الحاكم البلدة الى الفرنسيين ، ودارت رحى القتال بين الحامية الفرنسية وبين الأهالي ، فتولى فيندة هؤلاء السيد محي الدين ، وظهر في أثناء هذه الحرب من بسالة عبد القادر وإقدامه ورباطة جأشه وإصالة رأيه ، ما جمع له محاب القلوب وعقد به آمال الناس . ولما أراد أهالي تلك البلاد مبايعة السيد محي الدين أميراً عليهم ، اعتذر بعلو سنه ، وأشار عليهم بولده عبد القادر في

٢١ تشرين الثاني سنة ١٨٣٢ فبوع بالامارة ، وقيل بالسلطنة أولا ، فتحاشى لقبها مراعاة
السلطان فاس ، واكتفى بالامارة ، وأنص هذه المبادئ المشهورة في كتاب « عقد الاجياد في
الصفات الجياد » تأليف أكبر أولاده الأمير محمد باشا .

جعل عبد القادر عاصمته مدينة المعسكر ، ورب جنوده وبشر القتال ، ولم يكن
قتاله قادرا على جهاد الفرنسيين فحسب : بل اضطر ان يقاوم حشاده ورفياده من أهل
البلاد أنفسهم ، فقام بجميع ذلك أحسن قيام ، حتى دانت له كل عمالة وهران تقريرا ، وفي
٢٦ شباط سنة ١٨٣٤ انعقدت بينه وبين الفرنسيين المعاهدة المعروفة « بمعاهدة دمبيل »
التي بها تعترف فرنسا لعبد القادر بجميع العمالة الوهرانية خلا مدينة وهران وآر زابو ومستغانم
وكان له الحق بموجب هذه المعاهدة ان يعين معتمدين (قناصل) في وهران والجزائر
ومستغانم وغيرها ، وان يستورد الاسلحة من أي جهة أراد . فعظم شأن عبد القادر وتأكل
سلطانه . وصار الأمر الشرعي لجميع أهالي الجهات الغربية من المغرب الأوسط . ثم مد روافق
ملكه على البلاد التي لم تكن داخلية في ضمن حدوده : مثل مدينة ومليانة ، ورب فيها
المساح بالرغم من احتجاج حاكم الجزائر العام ، ولما كان الحسد والمنافسة هما أقل أمراض
المسلمين . بحيث لا تثقل عليهم سلطة الغريب كما تثقل سلطة أخيهيم . ثار على الأمير قبيلتنا
الدوائر والزمان وانضمنا إلى فرنسا فطلب نسايم رؤسائهم إليه فأبى الجزال « ترزك » ذلك
فبرز عبد القادر إلى القتال واتصر على الفرنسيين في يوم القطيع (٢٦ تموز ١٨٣٥)
جرت فرنسا جيشا كمنيفاً استولى على عاصمته المعسكر تحت قيادة المارشال « كلوزل »
وكانت بقية من الأتراك لا تزال في قلعة تلمسان فناوشوه من الوراء . فانهزم هزيمة ثانية في
حرب مع الجزال الفرنسيين « بوجو » ولكنه بقي ثابت العزم متوفر القوة . وتمكن
بدهائه السياسي ان اصطالح مع الفرنسيين على شروط تضمن له أحسن مما ضمت معاهدة
(دمبيل) وذلك في معاهدة « النشة » (٣٠ ايار ١٨٣٧) التي اعترفت فرنسا له
فيها بجميع عمالة وهران وقسم كبير من عمالة الجزائر . فلما انتهت الخصام بينه وبين فرنسا
ترجع يقوى سلطته على البلاد التي ادخلت حديثا تحت حكمه . ورب مساح في لاغوات
وميجانة وزيان وخضع له أهل هانيك الاطراف ما عدا المراتب محمد السيجاني الذي
أبى الاعتراف بالامارة . فزحف عبد القادر بنفسه إلى (قصر عين ماضي) وحضره وبعد

حصار خمة أشهر افتتحه مع أنه حصن منيع لم يتمكن الأتراك طول مدة حكمهم في الجزائر أن يدخلوه ثم رتب عبد القادر جيشاً منظماً على نمط جيوش الدول ، وقسمه إلى مشاة وفرسان ومدفعية ، واستجد التعليم وتدريب ضباطاً من الجيش التونسي ومن الجند التركي الذي بطرابلس ومن القارين من الجيش الفرنسي . ومن لهذا الجيش نظاماً يتعلق بمأكله وملبسه ورواقه ومدة التعليم وسرور الترقى فيه ونيل الأوسمة وغير ذلك . وجعل دهايز لأشجار الخبواب وأنا يرثي الألقوات ومعامل السلاح ، وزعم القلاع ، ولم يغفل عن شيء مما يلزم لتأسيس الحكومات الشرعية

ولما كانت معاهدات الدول الاستعمارية مع أهالي الأقطار التي تقع نصب أعينها الاستيلاء عليها هي في الغالب محاط استراحة بين الحيلة والحيلة . ومنازل استعجاب بين مراحل الحرب لا غير بحيث لم يوفّر القوة لا لعدم عسائراً في نقض تلك المعاهدات التي لم تبرمها منذ البداية إلا على نية النقض ، وكانت في الواقع مصدقة لمولاه تعالى في هؤلاء « وما وجدنا لا أكثرهم من عهد » شرعت فرنسا بالعلل من جهة تفسير بعض فقرات معاهدة التفتة ، وازادت التفصي منها . حال كون الأمير يتقاضى العمل بها فنشبت الحرب بين الفريقين . لأن فرنسا كانت اعادت عديتها والأمير ابت نفسه النزول عما خولده أباه المعاهدة ، فرفض المارشال « فتي » و « المدوق دومال » من جهة ، وأغلقت عساكر الأمير على نتيجة من جهة أخرى . ونادى الأمير بالجهاد وذلك في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ فاستمرت الحرب من ذلك التاريخ إلى سنة ١٨٤٣ بدون انقطاع . وقام فيها الأمير عبد القادر مقامه المحمود الذي سبق ذكره الآفاق . وإن كان عديم تكافؤ القوانين المتقابلتين آل أخيراً إلى سقوط أكثر حصونه واستيلاء العدو على أكثر مدته . منسل تاغدمت والمعسكر وتالزة ووادي الشايف . فانسكفا إلى الغرب ، فزحف العدو إلى تلمسان ونواحي ندرومة واحتلها فتحول الأمير إلى الجنوب وهناك أيضاً كس (المدوق دومال) محاته (ما يسميه الأتراك بالغرار كاه) وغنم أكثرها ففت هذا الحادث في عضده وخلله أكثر أنصاره فقرأ إلى المغرب وسعى في جعل سلطان المغرب على اتصال الفرنسي الحرب فكانت بين جيش المغرب والجيش الفرنسي « واقعة إيسلي » (١٢ أغسطس ١٨٤٤)

وقد كان المغاربة لا يملكون من آلات القتال ما يملكه الفرنسيين انتصر الجنرال « بوجو » على الجيش المغربي ، وكانت بوارج فرنسا ضربت بالمندفع ثغرى طنجة و« فادور » فضيقت فرنسا على سلطنة المغرب من البر والبحر . وأجبرت السلطان مولاي عبد الرحمن صاحب المغرب على عقد الصلح (١٠ ايلول ١٨٤٤) بالشروط التي تريدها . وأولها منع عبد القادر من تجاوز حدود الجزائر . فلبث هذا نحو سنتين متربصاً منتظراً لفرصة من العدو ليمتثلها . فلما لاحت له في ثورة سنة ١٨٤٦ انقض على بلاد الجزائر ثانية وأوجس في الغارة حتى بلغ بلاد البربر المسماة عند الفرنسيين (كايلى) ، وأعاد الأمر كما بدأ . إلا أن قوة عبد القادر كانت هذه المرة قد تناقصت ، وقدم الفرنسيون في الجزائر قد رسيحت . فلم تستمر غارته وأحاطت به الجيوش من كل جهة . فأسرع العودة إلى الحدود المراكشية فعادت فرنسا تتفاوض مولاي عبد الرحمن تسليمة . وما زالت تلح في ذلك حتى ساق عليه السلطان قوة عظيمة . فلما رأى نفسه بين عرين وان أخواته المسلمين قد صاروا عليه البأس مع الفرنسيين ، اشتد به الغضب وسلم نفسه إلى الفرنسيين على يد « الجنرال لاموريسيار » (٢٣ كانون الأول ١٨٤٧) . ووقع الاتفاق على أن يخرج بعائلته من الجزائر ذاهباً إلى الإسكندرية أو عكا .

وعلى رواية أخرى وهي التي مال إليها صاحب « تاريخ الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى » لما ينس الأمر عبد القادر من النفوذ على الفرنسيين بقوته الخاصة ، حدثه نفسه بتسليم سلطنة المغرب ، والجلوس على عرش فاس ، فأوجس السلطان عبد الرحمن خيفة من ذلك ، وأرسل تلك القوة لمطاردته وخضعت شوكرته ، فبين أن يستعصى أمره . ولما كان صاحب الاستقصا بعد أن أتى أولاً على جهاده وعلا همته ، عاد فرماد أخيراً بسوء النية والفساد في الأرض . وهو في كمال الحالين لم يلغبه بالأمير بل « بالحاج عبد القادر بن محيي الدين » .

فأخذ الأمير إلى طولون حيث كان المراد نسفجه إلى الشرق بحسب العهد الذي انعقد . إلا أنه في تلك الأيام حصلت في فرنسا ثورة سنة ١٨٤٨ وسقط الملك لويس فيليب فأعلنت الحكومة المؤقتة في اطلاق سراحه وأبقته في بلادها أسيراً إلى سنة ١٨٥٢ إذ بشره لويس نابليون بنفسه أنه تقرر الخلاه سبيل . فذهب إلى الاستانة ثم أقام برصا . وسنة ١٨٥٥

استاذن في الذهاب الى الشام بعرفة الحكومة الفرنسية فأذنت الدولة العلية له بذلك ، ولما حصلت في دمشق الحادثة المؤلة المهمة بحادثة سنة الستين . التي كان متاعها من رعاي القوم ، اهتم الامير عبد القادر بوقاية المسيحيين وأخذ منهم عدداً وافراً . وان لم يكن هو المنفرد بذلك بل شاركه في هذه المبرة كثير من اعيان دمشق مثل محمود أفندي حنزة ، وبني العايد ، وبني المهايبي وغيرهم . فاستحق بهذا الفعل الجليل ثناء الجميع وبلاده الأوسمة مع عبارات الشكر من فرنسا وأكبر الدول الأوروبية . وفطن ببقية حياته في منافقة العلماء واسداء الخيرات ، وكان كل يوم يقوم الفجر ويصلي الصبح في مسجد قريب من داره في محبة العمارة . لا يتخلف عن ذلك الا لمرض . وكان يتعهد الليل ويحارس في رمضان الرياضة على طريقة الصوفية وما زال مثالا للبر والتقوى والاخلاق الفاضلة الى أن توفي رحمه الله سنة ١٨٨٣ فدفن بمقام الشيخ الأ كبير محبي الدين بن العربي في الدار الحنية . وترك من الولد الأمراء محمد باشا . ومحيي الدين باشا ، والطاشمي ، وإبراهيم ، وأحمد ، وعبد الله ، وعلى وعبد الرزاق ، وعبد المالك ، فالأمير محمد باشا وشقيقه محي الدين انتقلا الى الاستانة وبعثتهما الدولة في مجلس الأعيان الى ان توفيا وكان الثاني منهما شاعراً أدبياً ، نال الهمة ، ونال في سنة ١٨٧٠ بدون علم أبيه الى الجزائر ليرأس الثورة القبائلية التي شعلت يومئذ فلما بلغ الحرب أباه أعان سخطه عليه لأن الامير بعد أن أعطى عهده فرنسا حافظ على قوله الى المات ولما الطاشمي فبن ولده الامير خالد الذي هو على رأس الحركة الوطنية الحاضرة في الجزائر ولما الامير عبد الله فهو في قيد الحياة بدمشق ، ولما الامير على فقد كان مبعوثاً عن الشام منذ سنة ١٩١٤ في مجلس الأمة بالاستانة . وكان محرر هذه السطور قد انتخب عن حوران أيضاً وسفرنا يومئذ الى دار السعادة معاً ، فلما افتتح المجلس وصارت المذاكرة في انتخاب الرئيس ونواب الرئيس وكانت العادة أن يكون الرئيس الاول تركيا والرئيس الثاني من أبناء العرب ، واستشارني طلعت بك حينئذ ، وكنت العضو العربي الوحيد في التيم العمومي لمجلس الأمة . وطلعت هو الرئيس ، فاتفقنا على دعوة المبعوثين لانتخاب الامير على رئيساً تائياً ، وهكذا كان ، ولما شبت الحرب العامة أرسلته الدولة الى ألمانيا حيث قابل الامبراطور غيليم وأمضى منادير ألفت بها الطيارات الألمانية على العساكر المغربية ، تحمهم على ترك العسكر الفرنسي . والاتحاق باللمان خلفاء الدولة العلية ، فأخذ الفرنسيين حذرهم من

مذموم هذه المنشور ، وصاروا يؤخرون المغاربة الى الوراء بعد ان كانوا يضعونهم دائماً في
الأمم وفوداً للنار . وبعد أن قضى الأمير على مدة في ألمانيا عاد الى الاسنانة ومنها الى
سورية . إذ وجد ألكاه الأمير عمر محبوباً مع من حبسهم جمال باشا قائد الجيوش في سورية
اتته الحرب لأوراق وجدت عليه في قنصلية فرنسا ، فتشفع الى جمال في أخيه فلم يقبل
شفاعته . ونفاه هو أيضاً مع أولاده وسائر أسرة الأمير عبد القادر الى برصاية ولم يرج حرمة
جهاد والده ولا خدمة الأمير على في ألمانيا ولا قبل ذلك في حرب طرابلس الغرب ، فاشتد
عليه الغم ولم يلبث ان مرض ونقل الى الاسنانة وتوفي بها رحمه الله . وأما الأمير عمر فكان
من جهة الاعيان المشوقين . وطالما راجعنا في أمرهم وطالبنا عنهم العفو أو تحويل جزاء
القتل الى التقي فلا أمر يرده الله أي جمال باشا إلا ازعاج النفس ، فكانت من الاغلاط
السكرى التي ذقت الدولة العلية مرارة مغبتها وسهلت طريق الاجانب . ومما أئذ كره ان
جمال باشا سألني عما اذا كنت انكر عمالة الأمير عمر فرنسا مع انه هو لم يقدر على
الانكار . فأجبت له است بمن ينكر ذلك ولكن أرى وجوب الصبح عنه حرمة المحرم
والله الذي لا يخفى الله من المسكنة في العالم الاسلامي فقال لي جمال بالتركية (بكاه) أي
ومما يجيشني من ذلك . وأما الأمير عبد الرزاق فنهب شايه وكان نادراً في الكاه وجمال
الصوره والسيرة . وآخر أولاد الأمير عبد القادر هو الأمير عبد المالك قضى بضعة عشرة سنة
مجاهداً في المغرب بين القبائل النائرة على فرنسا وعلى اسبانية . ولم يزل في تلك الديار
يتحرك نارة ويكن أخرى الى كتابة هذه المظور

وكان المرحوم الأمير عبد القادر منزهاً عن العلم والادب ، سمي الفسك ، راسخ
القيم في التصوف ، لا يكتب به نظراً حتى يمارسه عملاً ، ولا يحسن اليه شوقاً حتى يعرفه ذوقاً .
وله في التصوف كتاب سماه (المواقف) فهو في هذا المذهب من الافراد الاشداد ورعا
لا يوجد نظيره في المتأخرين وله كتاب آخر جمع اسمه (ذكرى الغافل وتوبيه الجاهل)
في الحكمة والشرعة . وقد ذكر مؤرخو الافرنجة أن ملكته العلمية والدينية كانتا من
أكبر أعوانه على تأسيس الحكومة التي أسسها وأنه كان ينال بالسنن ما قد يعجز عنه
الإنسان . ولم ينكروا عليه حفاظه للعهود لكنهم زعموا انه كان لا يتوقف ان يخترها فيما
لورأى في ذلك مصلحته المنهجية في مصلحة الاسلام . قال في دائرة المعارف الاسلامية

الفرنسوية : « كان عادلا لكن على الطريقة الترفيقية ، برأ رؤوفاً ، لكن يجوز أن ينقلب
سفا كالدماء جاسياً اذا رأى ضرورة ايضاح الرعب في قلوب الاعداء »

فلما يظهر ان الاخير يريدون أن يحفظوا مزيتة خفوة العهد لدى تبيين المصلحة
لأنفسهم دون سواهم ، وكذلك سفك الدماء لأجل القضاء الرعب عند الضرورة . وحينئذ
لو حصروها في دائرة الضرورة ، بل اعمالهم في غاراتهم الاستعمارية ثم في الحرب العامة
الاوربية قد فضحت أمورهم وأثبت أنهم يسفكون الدماء في ضرورة وفي غير ضرورة .
وليس مثلهم عن الحق له أن يعتقد في هذا الباب رجلاً شهد له جميع أعماله بالوفاء كالامير
عبد القادر . ولتختم هذه الترجمة بشئ من شعر الامير الذي يدل على سمو نفسه :

تسألني أم البنين وانهن	لأعلم من تحت الدماء بأحوالي
الافاسألى جيش الفرنسي لعلمي	بأن منايهم بسببي وعسالي
ومن عادة السادات بالجيش تختمني	وفي تختمني جيشي وتمنع أبطالني

الجزائر وقبائل البربر

الأمير شكيب

بعد أخذ الأمير عبد القادر أسيراً واتفاقاً معاهدة الصلح بين فرنسا والمغرب (١٨٤٥) تحددت الحدود بين الجزائر ومراكش ، وعلت كلمة فرنسا في القطر الجزائري ، فأخذت العساكر الفرنسية تنقسم الى جهات الصحراء وتبني فيها المخافر وتؤسس المراكز وتوطد أقدامها في البلاد ، فلما تأثر بقال أبو زيان في ولجات زيبان من الصحراء ، فساكن تصيب ثورته الفشل فلما زعيم آخر اسمه الشريف محمد بن عبد الله فسيقت عليه العساكر الفرنسية فافتتحت مدينة لغوات وزحقت الى ورغلة (١٨٥٤) وفر الشريف شريداً .

وكانت البلاد المسماة (كاديلي) أي القبايلية ، اشارة الى قبائل البربر التي تسكنها ، لا تزال مستعصية على الفرنسيين شاحخة بانفها ، لا تعطي المقادة ، فوالى هؤلاء ، عليها الزحوف بقيادة « الجنرال بوجو » و « الجنرال سانت آرنو » و « الجنرال راندون » لما زالوا يغادونها القتال وبراو حونها من سنة ١٨٤٤ الى سنة ١٨٥٧ والدماء جارية من الشريفيين حتى خضعت تلك القبائل في وادي الساحل ووادي سيباو ، وانهزم أبو بغلة الذي اشتهر في تلك الحرب و بقيت قبائل الجرجورة مدة حافظة استقلالها ، الى أن أذعنتم هي أيضاً ولكن على شرط حفظ تشكيلاتها الادارية وعاداتها وعرفها ، فولت فرنسا على بلاد القبائل رؤساء مسلمين يرأف عليهم ضباط فرنسيين بمجانبيهم ، وجعلت أقلاماً عمرية في تلك الادارات ، وسمحت للقبائل بالمحافظة على عاداتهم وأوضاعهم مما هو سنة الدول الاستعمارية في الأقوام التي تبلغ منها شدة البأس وصعوبة المراس ، الى أن تكون تمكنت منها بطول عهد الحكم وازالة ما بقي من أسباب المقاومة ، فتعدل حينئذ الى اجراء الأحكام الاستعمارية على وجهها الأكمل ، ولكن الثورات في الجزائر لم تكن انتهت لذلك العهد بل كان على فرنسا أن تحمد ثورات أخرى ، كما انطلقت نار احداها اشتعلت أخرى . ففي عام ١٨٥٩ كانت ثورة بني ستامن على حدود المغرب الأقصى ، فكلفت فرنسا حملة عسكرية .

وفي جنوبى وهران كانت ثورة أولاد سيدي الشيخ التي استمرت ثلاث سنوات متتالية . واضطر بها الجنرال « فيمسن » الى تعقب الثوار الى وادى الجسر من عمى المغرب ، ولم تكن هذه الفترة الا سنة ١٨٦٧ . ولكن لما انكسرت فرنسا في الحرب مع ألمانيا سنة ١٨٧١ كانت الثورة الكبرى اذ لاحت الفرصة للجزائريين ورأوا الصيد سانحة فثار المقراني قائد ميجاته ، وضافه على الحركة مرابط يقال له الشيخ الحداد مع ولده سي عزيز ومعهم أتباع الطريقة الرحمانية ، فاشتعلت الفتنة في جميع القبائل ، وامتدت الى بعض أعمال قسنطينة وانصت ببعض محمل الجزائر ، ولكن العالة الوهرانية في تلك الآونة بقيت ساكنة لم تشارك سائر اخوانها ، أما الثأرون فأعطوا بجميع الحصون الفرنسية التي في بلاد القبائل وخربوا قرية « بالسترو » وكادوا يستولون على متيجة ، فجدت فرنسا جيوش جرارة عقدت عليها الاميرال « غوبدون » شهرته بالهزيمة والمضاء ، فدارت رحى القتال ونسبت هناك ٣٤٠ واقعة انتهت أخيراً بسبب التفوق الفرنسي في فن الحرب ووفرة اعتادها بخمسة ناز الثورة ، وسقط المقراني قتيلاً في وادى سقلاث ، خلفه في الزعامة أخوه أبو مزراق ، فزال هذا بكافح حتى وقع أسيراً بمحمل يقال له الرويسات في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٨٧٢ وكان ذلك ختام الثورة فانصت فرنسا من القبائل أولاً بأن الفت لهم استقلالهم الاداري ، ثانياً بأن اغتصبت من أراضيهم ٤٥٣ الف هكتار (الهكتار ١٠ آلاف متر مربع) ساحتها الى المنعمر بن الفرنسيين الذين يقال لهم « الكولون » ، ثالثاً بأن ضربت عليهم حرمة قادمة تجعلهم دائماً راجحين تحت أوقار الديون ، ومن بعد هذه الثورة لم يحصل من مقاومات الجزائر بين ما يستحق الذكر الا ثورة أبي عمامة سنة ١٨٨١ ، ومن ثمة ساد السكون في ذلك القطر وانقطع الأمل من القيام بالسيف ، لاسيما بعد أن لحق القطر التونسي ثم القطر المراكشي بالقطر الجزائري وحاصرت كلها مستعمرة واحدة يلقيها الفرنسيين بافريقية الفرنسية . الا أن الحرب العامة انشأت روحاً جديدة في بر الجزائر لم تكن موجودة من قبل ، وهي ان الجزائريين قدموا لفرنسا جزراً بالسيوف وفوداً للسكرات النارية أكثر من ٢٠٠ الف مقاتل في الحرب العامة قتل منهم نحو ٦٢ الفا كانوا فداء فرنسا بأرواحهم ، وكان الفرنسيين يوم نشوب الحرب العامة واحتياجهم الى عقد المستعمرات فساهموا في التملق للأهالي ، وتهدلوا جلود النمرور بأصواف النعاج ، وطاقوا

على الجزائريين يقولون انما هو وطن واحد تدافع عنه جميعا حتى اذا قرنا بما نرجوه
 قسمنا حقوقه بالمساواة بدون تمييز لفرساي عن جزائري ، ولا مسيحي عن مسلم ، وان
 ادارة الجزائر بعد الحرب ستكون شكلا آخر لا يشبه شيئا مما كان الى ذلك الحين ، وان
 المساهمين سينتمون بجميع الحقوق التي تتمتع بها الامم المستقلة ، الى غير ذلك من المواعيد
 التي كانت فرنسا وسائر دول الحلفاء توزعها جزافا على الامم المهتزمة ، ترغيبا طافي القتال
 الى جانب الحلفاء ، مما يعرفه عرب آسية اكثر من سواهم ، كيف لا وهم الذين وعددهم
 الحلفاء ، بأنهم اذا انتصروا الى صفهم في الحرب العامة أعادوا لهم السلطنة العربية بخدايعها ،
 والخلاصة مواعيد بدون حساب يندبها الناس كانت نجول في محاجرهم دموع التماسيح ؟ وهم
 يقولون علموا ايها الاقوام الى القتال في جانب الحلفاء ، النصر الحق على الباطل ، وانفروا
 حشاقا وتقاتلوا لمصلحة هذه الامة الاخلاصية العاشمة التي تريد استعباد الامم ، حال كون مخطط
 الحلفاء من هذه الحرب هو رفع سلطة القوى عن الضعيف ، وابتاء كل امة قسطنطين من حق
 الاستقلال . فما زالت هذه المواعيد نبيل ، وتلك الالفظة تكرر ونصقل ، حتى استوسق
 الحلفاء النصر وانتهت الحرب ، وقضى الأمر فقلب الحلفاء تلك الامم شهر الخين ، وتناشوا
 جميع تلك الوعود ، ونكثوا بعماسة هاتيك العهود ، وانكركوا تلك الاقوام الذين بذلوا
 ارواحهم في سبيل نصرتهم ان هذه النصرة انما كانت عليهم لا لهم ، وانهم انما اعلنوا على
 انفسهم ، وشاركوا في تخريب بيوتهم بأيديهم . ومن جهة هذه الامم اعلى الجزائر ، فتنازلت
 خواصهم وغلت قلوبهم وتجزؤوا فرنسا ما سبق من وعودها ، وذكروها بالانين والسنين
 التي قتل الذين ذهبوا منهم في سبيلها ، فبعد اللثام التي اعطتهم فرنسا حتى الانتخاب
 يعني ان تقبل اصواتهم في الانتخابات البلدية ، وكذلك حتى الترقى في المراتب العسكرية .
 بعد ان كانت لهم دائرة معينة لا يتجاوزونها مهما بلغ من نصيب خدمتهم . وكذلك تساووا
 مع المستعمرين في الاموال الاميرية ، بعد ان كان هؤلاء يدفعون مالا والجزائريون يدفعون
 أمثاله عن الارض الواحدة . وكل هذه الحقوق الجديدة ليست شيئا مما كان الفرنسيين
 يمنونهم اياد اثناء الحرب ، وما هي الا لك بعض حلفاء من تلك السلسلة الطويلة التي هم
 راسفون بها منذ نحو قرن . فلذلك قاموا يناصبون الفرنسيين الحرب المعنوية التي بدأت
 سبيل في الانتخابات والاجتماعات ، واخذت تمتد بينهم الحركة الفكرية النازعة الى

الاستقلال ، وانتشر حزب الشيوعيين في فرنسا فرصة القنوط والغضب الذين استولوا عليهم .
قبضوا عليهم الدعوة الاشتراكية الشيوعية . فتلقاها كثير من عملتهم وصعاليكهم وربما من
التمولين منهم ؟ لا رغبة فيها بذاتها بل فيما يصابها من تخفيف السطة الحاكمة والوطأة
الاستعمارية .

ولقد كان الفرنسيون يظنون ان الوسطة الوحيدة لنزع فكرة الاستقلال من رؤوس
الوطنيين . وامانة روح المقاومة ، هي ملاشاة التعاليم الاسلامي . وطمس معالم الشريعة التي
يظنونها هي وجدانها موقداً للحمية الالهية ، ومنزعا للتملص من الحكم الاجنبي . فلهذا
كانت سياستهم في الجزائر من الاول الى الآخر سياسة تساهل ديني في الظاهر ، مع التعامل
في الباطن ، فانهم منعوا ليس الفرنسيين فقط ، بل الايطالي والاسبانيون ، بل اليهودي
والسائلي ، بحقوق لم يسمحوا بها للجزائري المسلم . وجعلوا المسلمين هم الطبقة الدنيا في
السياسة والادارة والاجتماع وكل شيء . وقصروا امتاعهم بالحقوق - التي يتمتع بها كل
الخلق من سواهم - على نجفهم بالجنسية الفرنسية ، وقبوعهم القانون الفرنسي الذي
يصادم الشريعة في كثير من الاحوال الشخصية ، بحيث لا يقدر المسلم ان يقبل العمل به
الا بعد ان ينزل عن اسلامه . وجعلوا كثيراً من المنع بالنعم والاعطية والمكافآت
موقوفاً على التنصر . ولم يرق الجنرال يوسف رتبة جنرال الاعلى هذا الشرط . ومنذ
سنتين طلب أحد النواب الأحرار في البرلمان في باريس إلغاء القانون الذي تمنح بموجبه في
الجزائر الهبات العقارية للأوربي ولليهودي والجزائري الذي يرضى أن يتنصر . وهو قانون
سنه الحكومة الفرنسية منذ نحو ثلاثين سنة لا غير أي على عهد الجمهورية التي تزعم
ان الاديان عندها سواء ، وقد أوجب بمنى الحكومة يومئذ موافقاً على استهجان هذا
القانون ، ومعلنة لية الحكومة الغاءه ، لا سيما بعد التفادي الذي تفاداه المسلمون في هذه
الحرب ، ولكن است على ثقة من كونهم قرتوا القول بالفعل اذا طلقوا ولم يفعلوا ، ولم
يجتزئ الفرنسي بهذه الوسائل الرسمية لتزويد المسلمين في الاستمساك بعروة شريعتهم ،
بل فسحوا المجال للبعثات الدينية ، وعضدوا « الكردينال لا فيجري » في بث مرسليه
الملقبة بالمرسايين البيض ، والنقطوا كثيراً من أطفال القراء من المسلمين وأبتاعهم .
ونشأوهم في المدارس الدينية ، وقد جعلني الافدار في إحدى مدن إيطاليا يتألف في

الجيش الايطالي كان يرغب الى أن أرسله الى إحدى الحكومات الاسلامية لأجل الخدمة فيها
فسألته عن سبب هذا الخلق ، فأجابني انه مسلم مغربي ، وكانت سجنائه تدل على ذلك ،
فقلت له وكيف صار ضابطا في الجيش الايطالي ، فقال لي انه تربى في إحدى تلك المدارس
على أن يتحيد الاسلام ، ويتجنس بأحدى الجنسيات الثلاث الكاثوليكية : الفرنسية ،
والإيطالية ، والأسبانية . فهو يومئذ اختار الإيطالية ولكنه اليوم يبقى الرجوع الى أصله
وبأجله فإنه وإن كانت الحكومة الفرنسية غير دينية في بلادها الأصلية ، فهي في
الخارج سائرة على قول غيبا : « عداوة الدين ليست من بضائع التصدير » . وهذا مرجعه
الى سببين أحدهما أنها تعتقد أن الدعوة الدينية قد تكون عنصراً للحركة الاستعمارية ومن
هذا الباب كان جناب فرنسا يضيع الجزويت في سورية ، مع أن الجمهورية تناسب هؤلاء
العداوة في فرنسا ، والثاني أن أكثر النفوذ في المستعمرات إنما هو للقوة العسكرية ،
وأكثر أمراء الجيش يتبعهم من الحزب الكاثوليكي . وبما لا ينبغي أن ننساه أن الفرنسيين
غلبوا كثيراً من مساجد الاسلام في الجزائر ككناس . جامع القسلاوة في نفس مدينة الجزائر
هدموه وبنوا محلة كنيسة ، والمسجد المسمى بمسجد « ميزو مورتو » حولوه كنيسة ، وكثير
من الجوامع حولوها شكناً عسكرياً وانبأراً ، وكان في مدينة الجزائر يوم فتحوها ١٧٦
مسجداً وزاوية فلم يبق منها الا ٤ فقط . وأما الأوقاف وما استولوا عليه منها فذلك مفرجه
طويل ، لا يسعه هذا المكان ، وقد تقرأ في التآليف الرسمية عن حالة الجزائر ما يخجل لك
أنه وإن كان لا أثر للسواة بين الأوربيين والمسلمين في الإدارة ، ولا في القضاء ، ولا في
الحياة الاجتماعية ، فهناك شيء من الاعتناء بحالة المسلمين ، ومن النظر في رفاهيتهم وسعادتهم
ولكن إذا سألت هؤلاء أو قرأت مؤلفات الأحرار من الفرنسيين أنفسهم ، تعلم من الحقائق
ما يسوء كل ذي وجدان سليم ، وفي العام الماضي ذهب الملبو « فاليان كوتوريه » أحد
النواب الشيوعيين في البرلمان ، وساح مدة طويلة في الجزائر وتونس فنشر في جريدة
« الأومانيتيه » مقالات متعددة عن درجة احتضام أولئك الأهلين لا يبقى معهم أدنى مجال
للكبرة . وحسبك أن ستامة ألف ولد من أولاد الجزائريين لا يجدون مكتيباً يتعلمون فيه
القراءة ، من أصلهم ستمائة ألف في نفس مدينة الجزائر ، فكيف يقال ان الحكومة
تعتنى بهم .

وقد لجأ الفرنسيين الى وسيلة أخرى لتمكين قدم استيلائهم في المغرب ، وهو زرع الخلاف بين العرب والبربر ، واقناع البربر بكون أصلهم من سلالة أوربية ، وأن لغتهم غير عربية ، فلا ينبغي أن يتعلموا العربي . ومما لا يكتمه بعضهم أن على فرنسا قصر اللغة العربية ضمن حدود معلومة ، وحل جميع من أصلهم بربر على اللغة البربرية ، وهذا إنما يدعوهم ، من كونهم إنما يتوحدون في الاستعمار نشر المدنية ، لأنه مما لا مشاحة فيه أن البربرية لا تصلح للمدنية بخلاف اللغة العربية التي تعد في الدرجة الأولى من لغات الأرض شرقاً وغرباً ، وإنما هناك سبب آخر تأييدك منه بشاهد واحد :

قال « فيكتور بيكه » الفرنسي في كتابه المسجى (مراكش) Le Maroc, Par

Victor Piquet الذي ظهر سنة ١٨١٨ ما ترجمته :

« إن البربر كان منهم مجوس ووثنيون ويهود ، وفي صدر النصرانية قبلوا الدين المسيحي لكنهم أسود عند ما تمكنوا من الاستقلال . ثم دأبوا بالاسلام الذي سيطر قواعده يستميل العقل ويوسع في جميع الأمم التي تدعى » .

ثم قال : « إن البربر أسلموا اسلاماً لا يزال مشوباً بأحوال وأوضاع خاصة بهم » .

ثم قال : « إن العلم الاختصاصي في أمور البربر المسمى « دوت » الذي جال بين قبائل البربر نوه بمحاضن سجاية هذا الشعب البربري . وقال إن « مناط الآمال في شمال افريقية » . ثم قال : « أنه شعب يظهر عليه الميل من نفسه الى المدنية الفرنسية . لذلك يجب علينا قبل كل شيء أن لا نعرفه أكثر مما هو . ولا يجب بلوغ هذه الغاية يجب أن يعمل البربر على الثقافة الفرنسية ، وأن يتكلموا بالفرنساوي قبل وصول الثقافة العربية واللسان العربي اليهم . وعلى هذا الشكل يتحقق بلا ريب - أكثر مما هو مفضلون - خيالنا العظيم بمراكش فرنسية » .

ثم قال في صفحة ٣٠٢ من كتابه :

« وفي النية تأسيس مكاتب فرنسية بربرية في الجهات التي لم تستعرب من بلاد البربر . وهذا تصور حسن جداً لكننا لسوء الحظ قد تأخرنا في انشاؤه . فإذا كانت بلاد القبائل من الجزائر ليس فيها إلا بعض أقوام من البربر . فإن فساد عظمها من أهل المغرب الأقصى لا يعرفون العربية أو يتكلمون باللغتين البربرية والعربية ، وليس لنا أدنى

مصلحة أن ننشر بينهم اللغة العربية — لغة الجامعة الإسلامية — بل بالعكس » .
ولسنا من يقول إن جميع المفكرين من الفرنسيين هم على هذا الرأي من مناصبة
اللغة العربية والشرعية الإسلامية بالوسائل الممكنة ، كلا فإن فئة منهم تخرج إلى الحرية
النامة ، وتناضل دائماً عن حقوق الأهالي ، ونعتقد عظم تلك الوسائل الاستعمارية ، ولكن
مع الأسف لا تزال هذه الفئة هي الأقلية القليلة ولا تزال الدولة لاولئك ، وأنت ترى أنه مع
كل مساعي الفرنسيين في مناصبة العربية والشرعية لم يقدروا أن يمنعوا الحركة الوطنية التي
تتقوى يوماً فيوماً في الجزائر ، مع أن أكثر القائمين بمساعيهم حصلوا جميع علمهم
باللغة الفرنسية .

ونود أن نلخص هنا فصلاً من كتاب « البسيكولوجيا السياسية » لمفيلسوف
الافرنسي الشهير غسلاف لوبون وذلك فيما يتعلق بسياسة فرنسا الاستعمارية في الجزائر .
قال في صفحة ٢٢٨ مايلي :

« إنني لا أتوخى هنا انتقاد الأشخاص وإنما أريد انتقاد الآراء والمبادئ التي يتفادها
الأشخاص بقصد التفتت عنهم لأنني أعلم أن الضرر وراث السياسة لا المبادئ والنظرية هي
التي تدير أعمال رجال السياسة . فليس على الأشخاص إذاً يجب توجيه الاعتراض فإن هؤلاء
مقيدون بمبادئ وأوضاع معلومة وإن تغيرها في غاية الصعوبة . ومن انظر إلى ضاهر الشعب
الافرنسي حسبه أشد الشعوب نزوعاً لثورة ولكن الشعب الافرنسي في الحقيقة هو في
خسبه محافظ أكثر من كل شعب آخر .

« الجزائر الغرب فطر مساحته كمساحة فرنسا ولكن سكانها قليلون بالنسبة إلى سعة
أرضه . وفيه خمسة ملايين من المسلمين تؤكده التقارير الرسمية أنهم مخلصون للحكومة
الفرنسية إلا أنهم برغم خلاصهم المزعوم يحتاجون إلى مئتين ألف عسكري لتقييمهم على
الطاعة أي إلى جيش بثله تقريباً تخضع انكسرة ٢٥٠ مليوناً من الطنود من هؤلاء ٥٠
مليوناً من المسلمين أشد مراساً من الجزائريين (١) .

و بين هذه الخمسة الملايين من مسلمي الجزائر ثمانمائة ألف أوروبي نصفهم افرنسيون

(١) غسلاف لوبون يحول على احصاءات قديمة والحقيقة أن عدد أهل البلد اليوم ٣٢٠ مليوناً منهم
٧٧ مليوناً مسلمون

والصنف الآخر طليان واسبانيون وغيرهم . وهؤلاء الأوربيون لا يختلطون في النسب مع المسلمين وإنما يختلطون بعضهم مع بعض بحيث يتسكون منهم في المستقبل شعب قائم بذاته . أما المسلمون فنقلناهم بربر والثالث عرب والفوارق بينهم قليلة أهمها انضمامهم الى

حضر وبدو

« ولقد كتب المسيو « لوروا بوليو » Lorry Boulou من أساتذة مدرسة « كوليج دو فرانس » كتاباً مهماً عن مسئلة الجزائر هو زيادة التعبير عن الرأي السائد في فرنسا بشأن الجزائر والجزائريين وهو أنه يجب علينا « أن نفرس المسلمين »

أما الكيفية التي يريدون أن يفرضوا بها هؤلاء المسلمين فهي قريبة من طريقة الأمريكيين الأوائل في اغتصابهم أراضي الأقوام الجر في أمريكا وتركهم ايهم أحراراً أن يتولوا جوعاً

« نعم هذه هي طريقتنا الادارية في الجزائر وانظر كيف يصفها المسيو « فيغيون » Vignon في كتابه الذي هو من أهم الكتب في هذا الموضوع . قال :

« لما رأت الادارة أن الولاد كانوا بعد كل ثورة يضبطون جانباً من أراضي القبائل رأت أنه يمكن أيضاً اعتياد أحسن الأراضي وتسليمها للمستعمرين « الكولون » ودحر القبائل الى الصحراء . وكلما كان العنصر الأوربي في الجزائر ينعمو كانت القبائل تخرج بالغة من أراضي آباؤها وأجدادها وقد خر الى الصحاري حتى خرجت قبائل بأسرها من بلاد كانت هي أوطانها ومساقط رؤوسها . ولا جرم أن نتيجة هذه السياسة التي استمرت نحواً من ثلاثين سنة على وتيرة واحدة لم تكن غير المتظرة . فان العربي المسحور بدون انقطاع الذي ليس آمناً ولا سائماً أن يخشى نعمة تعبته فدفرت همته وأصبح لا يعتنى بحرث ولا زرع . ولو فرضنا أنه حرث وزرع فلم يكن له أن يسرجع البذر الذي زرعه في الأرض لأن القبائل كانت قد أخرجت من الأراضي الصالحة الخصبة ودحرت الى أراض جرداء محرومة من المياه لا تخرج ما يقوم بقوة الزرع ولا ما يكفي لعلف مواشيهم . وهكذا كانت تزداد بغضاء الوطنيين للمستعمرين وتزداد الهوة الفاصلة بينهما عمقاً

« ولما قرر المجلس الاستشاري سنة ١٨٦٣ أن أصحاب الأملاك يلبثون متصرفين بالأملاك التي كانت في أيديهم لم يمنع ذلك من تفبع سياسة دحر الأهالي الى الصحراء وإنما

لجأوا فيها إلى طريقة ثانية وهي تغيير الضيقة والاسم . فهي الآن تسمى « بالاستملاك لأجل
المنفعة العمومية » وطريقة هذا الاستملاك تتأثر بأمرين أحدهما أنها لا تتجد أراضي
للمستعمرين الأمن أراضي المسلمين وأنها تحدث دوائر استعمارية خاصة بالأوروبيين لا يتفق
لأنها في الجزائر المسلمين أن يسكنوا فيها كندوى أملاك^(١) الثاني أن المسلم يأخذ نوعاً
عن الأرض التي تزعمت من يده ٥٠ أو ٦٠ فريكتاً عن كل هكتار^(٢) فإذا كان الجزائري
المسلم يملك ٣٠ أو ٤٠ هكتاراً خرج منها بألف وخمسمائة فريكت . هذا كل ما يجوز له تبعثته
سواء حياته وهو مبلغ لا يقوم بأوكده أكثر من سنتين » . اهـ

قال : « ومن أغرب الحوادث التي جرت في الجزائر ونجلى قبيل استبداد الحكومة
بإفطاع شكل الاستعمار الرسمي الذي أورده الميسور فينيون أمثلة من أعاجيب الدهر من
قبل توزيع أراضي على أناس يعرفون من الزراعة بقدر ما يعرفون من لغة التفكير
وبناء دور لم يبق فيها الآن ديار وذهبت نفعاتها كلها سدى . ولم تعد هذه التجارة بيد رجال
حكومتنا أدنى عجرة لأنه من عهد قريب كان وإلى الجزائر يطلب من الحكومة ٥٠ مليوناً
ليوزع بها أراضي من أيدي العرب ويبنى فرى للمستعمرين مكان فرى كانت قد خربت
ولكن مجلسي البرلمان والسنات لحسن الخط رفعت هذا الاقتراح خفية أن يؤدي تنفيذه
إلى ثورة

« فلا عجب إذا كنا بأعمال كهذه أنفقنا على استعمار الجزائر أربعة مليارات من
الفرنك فرنسة فضلاً عن دخل بلاد الجزائر

« فأننا منذ احتلالنا الجزائر لم يوجد عندنا في أمرها إلا رأيان أحدهما أن نطرد العرب
إلى الصحراء ونأخذ أراضيهم والثاني أن نقرضهم ونصبغهم بصبغتنا . فأما العرب فلم يتهبوا
طردهم كما كان المظنون لأن الصحراء لا تذيب ما يعيش به هؤلاء وهم ملايين من النسم ولأن
طردهم قولاً واحداً لا يمكن بدون مقاومة منهم . وكذلك لم يتيسر لنا أن نقرضهم كما ظننا
لأن ثقل أمة من عقلية نشأت عليها إلى عقلية أخرى غريبة عنها شديد الامتناع
« فكل من هاتين الطريقتين مذمومة ولا مصلحة لنا بها . ولأنزال فرنسة باستعمارها

(١) أي يسكنون فيها كفعلة لا غير

(٢) ثلاث ليرات عن مساحة ١٠ آلاف متر مربع فأقل

تخسر وتضيع الى أن تفهم أن أمثل الطرائق هي ترك أهالي الجزائر على عاداتهم وعقائدهم وطرز معيشتهم كما هو عمل الشعوب المستعمرة كالانكليز والهولنديين في مستعمراتهم فهم أبسط الطرق وأقلها خساراً وأعلاها حكمة

«ولسكن الرأي العام في فرنسا ضد هذا الأسلوب في الاستعمار . وعندنا الناس لا يعرفون أهمية الأوضاع الدينية في الشرق وإن الحياة عند أتباع محمد كما عند أتباع سيوا (معبود الهنود) وأتباع بوذا (معبود الصينيين) هي كلها جارية وفق أوامر دينية . وليس عند الانكليز من يعتقد أنه لأجل حياة مبدئ يجوز أن يموت بلاد .

«فلنحن كان يجب أن تكون سياستنا تعزى الديانة الاسلامية ورجالها بدلاً من مناصبها العدا وكذلك كان يجب علينا احترام العادات والمنازع والأوضاع العربية التي هي عند هذه الأمة من الدين . فالسيو «لوروا يوليو» بسفه هذا الرأي ويقول «إن احترام منازع العرب وتقاليدهم وقواعدهم يوجب خروج جيشنا ومنعمرينا من إفريقيا . ولعمري لم نجد تعليلاً معقولاً لهذه الدعوى . وهانحن أولاء نرى الانكليز يحترمون قواعد المسلمين وعقائدهم في الهند وليس في نية الانكليز أن يجلبوا عن الهند» اهـ

ثم يذكر غستاف لوبون رأى «لوروا يوليو» في البربر وزعمه أنهم أوربيون وأنه من الممكن كثيراً أن يتفرنسوا . وهو مهزأ برأيه هذا ويرد على زعم «لوروا يوليو» أن العرب كلهم رعاة وبدو ويقول ان القبيلين فيهما بدو وحضر بحسب طبيعة الأرض وإن من العرب حضراً في الجزائر كما في سورية ومصر وجزيرة العرب . وإن قابلية العرب للتمدن ثابتة بالحضارة الزاهرة التي كانت لهم ولم يكن منها البربر

قال : «ثم يذكر «لوروا يوليو» من الأمور التي أوجبت تأخير العرب بعدد الزوجات ولا أريد الآن الخوض في هذا البحث ولكنني أكتفي بالقول ان تعدد الزوجات الشرعي عند المسلمين أفضل من تعدد النساء بدون صورة شرعية عند الأوربيين وما يندشأ عن ذلك من الولادات غير المشروعة . ولقد أنطيت هذا البحث حقه في كتابتي «تاريخ مدينة العرب» وأثبت² أنه في ممالك العرب تعمنت نسوة تحت الحجاب وبيع منهن مثلهما نبع من مدارس الاناث في عصرنا»

ثم قال : « لقد تحقق الآن ان تعدد الزوجات لم يكن في يوم من الأيام سبباً في جود المسلمين . أُلزم أن نغلب قومتنا الى أن العرب وأن العرب وحدهم هم الذين عرفونا بالعالم اليوناني اللاتيني وأن جامعات اورنة ومن جلتها جامعة باريز بقيت مدة ستة قرون متوالية تعيش بتراجم كتب العرب وتطبيقات فواعدهم العنصرية . نعم لقد كانت المدنية العربية من أبهر المدينيات التي عرفها التاريخ ولقد مالت كما مات غيرها ولكن نعاليل موتها بكونه من نتائج تعدد الزوجات ليس فيه شيء من التدقيق »

ثم قال : « وقد عدت » لوروا يوايو « الثقافة اللاتينية من جهة العوامل التي يجب أن نعتمد عليها في استجلاب العرب البنا . وهذا هو الرأي السائد في فرنسا اليوم وقد كنت أنا نفسي من القائلين به ولم أعدل عنه إلا بأسفار ومراقبات كثيرة . ومع أني لا أؤمل أن أهدى طريقاً فارتأ أفريسياً واحداً فأتى أرى الموضوع أجل من أن لا اصارح فيه بكل أفكارى . ولقد خصصت الفصل الآتي من كتابي هذا بهذا المبحث وسيجد القارئ أن الثقافة الاوربية بعيدة عن اصلاح حالة الشرقيين بل هي أجبر بأن تزيدهم بؤساً في مادتهم ومعنائهم . فان هذه الثقافة التي هي نتيجة احساسنا واحتياجاتنا نحن منذ قرون وأعصر لم تكن لتطابق احساسات أقوام آخرين واحتياجاتهم فتكون نتائج تطبيق ثقافة مخالفة لأذواقهم وشواغلهم واحتياجاتهم هي تجريدهم دفعة واحدة سواء كانوا عرباً أو هندوياً أو شرفيين آخرين من أفكارهم وعقائدهم الموروثة التي عليها قائم بناء وجودهم . فان صح حلم « لوروا يوايو » وأمثاله ممن يتبرون بنسبة العرب في الثقافة الاوربية فان الجزائر تكونت ما كانت البندقية لاوسانيا وبرلاندة لانكثرة والازناس لالمانيا

« ان مؤرخينا يتدبون فقدة الهند بعد أن كنا فتحنا جانباً منها . وأنا أقول : لا ينبغي لنا كل هذا الأسف لأنه لو بقيت لنا الهند وأخذنا نديرها كما ندير سائر مستعمراتنا الآن أي باليادي والطرق التي يشير بها « لوروا يوايو » لما زال الأمر حتى اشتعلت بها الفتنة وعم الحراب وخرجت من يدنا .

« واهل طبقوا في الهند الصينية وفي السودان والسيفال هذه السياسة بعينها أي جعل الأهالي الوطنيين على أوضاعنا وقوانيننا فجاءت بأفبح النتائج وكرهنا الى أولئك الأقوام

وأفندتنا الأموال والرجال »

الى أن قال : « لقد أثبت التاريخ ان مدينتين مختلفتين تمام الاختلاف لا تندمجان وأنه مألوفات الأمة المغلوقة متدحجة في الغلبة الا اذا كانتا متشابهتين من الأصل . فالشرق يتدمج في الشرق أما في الغربي فلا . وهذا هو سر نفوذ العرب في الشرق وفي الصين وفي الهند وفي افريقية فانهم كانوا كيفما تطلبوا صيغوا تلك الأمم بطابعهم وأعطوها صبغتهم وحيث حلت حضارة الاسلام ظهر أثرها استقرت وثبتت . فهي في الهند قد غلبت على حضارات أقدم منها وهي في مصر قد عمرت بل بدأ دخل في القس والرومان واليونان ولم يؤثروا فيها الا قليلا . وانما انجد الاسلام يتقدم في الهند والصين وفي القارة الافريقية وهذا برغم معاكسة المبشرين بالانجيل النشيط في كل مكان .

« ان الاوربيين مستعمرون ماعرون بدون نزاع ولكن من بعد رومة العظمى لم يأت مدانون بالمثل أقدر من المسلمين الذين تمكنوا من أن يحصلوا أمماً كثيرة على دينهم وشعر بعنهم وصناعاتهم

« والاوربيون نظير الانسكايز في الهند يغتربون أن يتغلبوا على شعوب شرقية هي متاخرة عنهم فاما محاولة تغيير عقلية هذه الشعوب فليست مما يبال لأن الفرق بينهم وبيننا في الأدواق والمشارب والشواعر والاحتياجات عظيم جداً لا يتأتى قطع مراحلها الا بأعصر طويلة ولأن ما يلزم لم لا يلزم . ولقد كنت أقضي العجب من أن أرى المتأدبين الشرقيين الذين زاروا أوربة هم أقل الشرقيين افتتاراً بحضارتها . وكنت أجدهم يرون دائماً الشرق أسعد وأصلح وأقوم من الاوربي مادام لم يتصل به » انتهى بعض اختصار

وفي الصفحة ٢٥٣ قال غسٹاف لويون :

« ان الرأي الذي أنا مهده في استحقاق صلب العرب بصيغتنا واقامتهم على ثقافتنا ليس هو رأياً خاصاً في بل تجده عند جميع الاوربيين الذين ساحوا في الجزائر واطلعوا على امورها حق الاطلاع ونظروا الى اخفاق كجهاى لا كما هو المألوف . وهو أيضاً رأى الأدباء الراسخين من العرب . ولقد شافيت من المسلمين عدداً لا يحصى من سراكش الى أقصى آسية ورأيتهم مجمعين على أن الغربية الاوربية للمسلمين تزيدهم عداوة لاورية وقد تكون

عداوتهم من قبل فطرة أو غير موجودة . ولند أكد لي أرباب المعرفة من المسلمين الذين
 حدثتهم ان النتيجة الوحيدة لتعليمنا قسنتهم هي افساد أخلاقها ، وإنقاذ احتياطات لم تكن
 بضرورية لها وإيجاد روح الثورة فيها . وأنا على ثقة ان التربية الاوربية ان تمت وعمت
 في الجزائر تدعون نبيجتها صوتاً صارخاً من جميع مسلميها : «الجزائر للعرب» . وذلك كما
 ان جميع الطنود المتعلمين يصرخون بصوت واحد الخند للهنود » اهـ

وفي الصفحة ٢٦٣ ينسكهم غسلاف لوبون عن عقم مساعي المبشرين المسيحيين وكيف
 ان عسك الذين نصرهم وهم هو قاييد جداً بالقياس الى الملايين والملايين التي بذلوها وان
 المنتصرين لا يكونون الا من أدنى الطبقات . ويرفض في هذا الموضوع . ثم يذكر على سبيل
 الاستشهاد الأربعة آلاف بنيم مسلم الذين رابعهم الكوردونال لافييجري في الديانة المسيحية
 فقد كانوا في محيط منطقة فيه جميع علاقاتهم مع المسلمين وقد تلقوا التربية المسيحية بكل
 معناها وما بلغوا الرشد حتى عادوا الى الاسلام دين آبائهم الا النادر منهم » اهـ

بلاد الطاغستان والشيخ شامل

الشيخ شامل

على الضفة الغربية من بحر الخزر بين ٤٣ و ٤١ من العرض الشمالى بلاد يقال لها طاغستان مساحتها نحو ٢٩٧٦٣ كيلومتر مربع وعدد نفوسها سبعة ألب و أما اذا انضم اليها جميع بلاد القوقاز الشمالية فيقال ان أهلها يبلغون مليونين الى ثلاثة. وقد فتح العرب فى خلافة هشام بن عبد الملك الطاغستان سنة ١٠٥ للهجرة ووطد أخوه مسلمة الحكم العربى فى تلك الديار ، وكانوا يلقبونها بالدر بند ، وكانت تغرا من تغور العرب ومنها انتشر الاسلام فى تلك الاقطار ، وكان الاهالى من قبل وثنيين ونصارى و يهوداً . وروى المؤرخون ان احمد ملك تلك الامة صاحب مملكة خيدان كان يقيم شعائر المائى الثلاث فيصلى يوم الجمعة مع المسلمين والسبت مع اليهود ، والاحد مع النصارى . وكان فى تلك الاقطار عدة ملوك يكون عدة شعوب صغيرة معروفه باسم الازقيين ، ولما اجتاحت المغولى بلادهم كان أكثر هؤلاء صاروا مسلمين ، ولما كانت غارة براك (سنة ١٣٩٥ مسيحية) كان أشهر شعوب الطاغستان قبيلتين أحدهما القياتاق ، والآخر القومق ويقال لهم غارى قومق ، وكان حكم القياتاق الذى يلى الدر بند فى يد السلطان طوقتاميش شرف الدين اليزدى ، وكان ملك القومق يسمى بالشامكال أشبه بلقب كبرى لفارس وفرعون لمصر ، وكان هؤلاء من أشد أخصار الاسلام وأحسبهم فى بث دعوته . وفى سنة ١٥٧٨ استولى على هاتيك البقاع الترك العثمانيون ولكن لم تطل فيها مدتهم . وأكثر أشراف الطاغستان يدعون انهم من أصل عربى وان آباءهم قدموا مع مسلمة بن عبد الملك واحياناً يخاطبون منعه بأبائهم ويحفلون قبره فى مدينة غنزاك ويقولون انه هو باني الجامع الأول فى بلاد القمق . وقد صادفت فى الروسية بعض أشراف الطاغستان فقالوا لى ان أصابهم من العرب يوم فتحوا الدر بند وهم يفتخرون بذلك . واشهر من ملوك القياتاق السلطان أحمد خان المتوفى سنة ٩٩٦ هجرية أى ١٥٨٧ مسيحية وهو الذى يقال انه باني مدينة « المجالس »

لأنه كان يجتمع فيها شيوخ الأمة ويتفاوضون في الأمور العامة . وفي سنة ١٦٤٠ انفصلت
فرقة من الفاناني وانتهجت الأراضي الواقعة جنوب الطاغستان وأمرت عليها حسين خان ،
لجعل مركز إمارة سمايان وكوباء ومن هذا الفرع ظهر في القرن الثامن عشر فتح علي
بن أمير كوبا والد بنده

وقد طمع الروس في الاستيلاء على الطاغستان منذ أواخر القرن السادس للمسيح
فلم يغامروا وهزمهم أولاد الشامكال وأخرجوهم من بلاد سولاك التي كانوا احتلوها ، ثم سنة
١٦٠٥ كروا ثانية على الطاغستان وقصدوا بلدة طاركنهو فلم يغزوا بطائل

وكان الشامكال قد خضع لآل عثمان ، وتبعه أمير تابلاران ، والأمير الآخر الملقب
بالعصمي ، فلما زحف الشاه عباس سلطان العجم على هذه البلاد سنة ١٦٠٦ انحاز إليه
العصمي رستم خان وبقى الشامكال متمسكا بالعثمانيين إلا أن رستم خان انحاز أخيراً إلى هؤلاء ،
عائله الشامكال إلى سلطان العجم ولما ضعف أمر الدولة الصفوية في فارس ثارت أهالي
الطاغستان وبنيت طاعة الروس ، واستغل سركاى خان إمارة القومق ، ثم تحالف هو
والأمير الملقب بالعصمي ، والمسلمس الحاج داود ، ممن كان مطامحاً بين العامة واستولوا على
شامكي ثم أرسلوا إلى استانبول يطلبون من الدولة أن ترسل اليهم خلع الولاية وتعرفهم من
رعاياها ، فاحتج بطرس الأكبر صاحب الروسية بأن مملكتهم تاجر روسي قد قتلوا يوم
فتح شامكي وساق جيشاً استولى على الدر بند وسائر سواحل الخزر الغربية (١٧٢٢) إلا
أن نادر شاه صاحب فارس غزا هذه البلاد واسترجع أكثرها من أيدي الروس (١٧٣٥)
وزحف نير القريم التابعون للدولة العثمانية على الطاغستان في تلك الأثناء ففشلوا ، وبقى
الحكم هناك للعجم لكن المملكة الفارسية بعد نادر شاه تضعع أمرها ، فتخلص ثلثها
من الطاغستان ، وزحف الروس ثانية فاجتاحوا البلاد سنة ١٧٧٥ وفي سنة ١٧٨٤ خضع
ثم الشامكال مرنضى علي وبعد ذلك استولوا على القوقاس ، وتمكنت قدمهم في الطاغستان
ولما استولى آل قاجار^(١) على فارس أحبوا أن يستردوا حقوق فارس على الطاغستان فاشتعلت
الحرب بينهم وبين الروس ولم تنته إلا سنة ١٨٠٦ إذ فاز الروس بالاستيلاء على هذا القطر ،
وسنة ١٨١٣ نزل لهم العجم عن كل حق لهم فيه

(١) الأسرة المالكة في إيران عند كتابة هذه السطور

ولما تغلب الترك من جهة والفرس من جهة عن الطاغستان ، عقد أمراء البلاد مخالفة فيما بينهم على مناهضة الروس فأشبهك القتال بين الفريقين ، وتجنست الروسية كلها عظيمة إلى أن تمكنت من تدويل البلاد فألغت لقب العصي من أمراء قازاق (١٨١٩) ولقب المعصوم أمير تبالاران (١٨٢٨) وجعلت لدى الأمراء الباقين ضباطاً روسيين يأخذون على أيديهم ، فاستسلموا جميعاً للحكومة الروسية ، فثار الشعب على الروس وعلى الأمراء ونولى كبر الثورة عاملاًهم وشيوخ الطريقة النقشبندية المنتشرة هناك ، وكانهم سبقوا سائر المسلمين إلى معرفة مكرهم فحرمهم من أمراتهم الذين أكرههم يبيعون حقوق الأمة بلقب ملك أو أمير ، ونسبوا كرسي أو سرير ، ورفع علم كاذب ، ولبسوا فارقاً ، باعطاء أوسمة ومرايب ، فثاروا منذ ذلك الوقت على الأمراء وعلى الروسية طامعينهم ، وطلبوا أن تكون المعاملات وفقاً لأصول الشريعة لا للعادات القديمة الباقية من جاهلية أولئك الأقوام ، وكان زعيم تلك الحركة غازي محمد الذي يلقبه الروس بقاضي ملا ، وكان من العلماء المتبحرين في العلوم العربية ، وله تأليف في وجوب تباد تلك العادات القديمة المخالفة للشرع اسمه « أقامة البرهان على ارتداد عرفاء طاغستان »

وفي ٢٩ تشرين الأول سنة ١٨٣٢ بعد جهاد طويل أحبط بغازي محمد في قرية جيمري ، واستشهد في معمة القتال رحمه الله ، فحلفه حزة بك الذي استشهد أيضاً رحمه الله بقرب غزاق بعد ذلك بستين ، فنولى زعامة الثورة الشيخ شامل أفندي المقصود بهذه الترجمة ، وهو على نمط الأمير عبيد القادر الجزائري ، خرج من المشيخة إلى الإمارة ، وتناول السيف من طريق القلم . ولم يكن الشيخ شامل في سعة علم بل فيه ولكنه كان أحسن منهم إدارة للأمور ، وبصيرة بالحروب ، فحسم عن ساق الجهاد والتف ذلك الشعب الأبي من حوله ، فلب عن حوض ملته نحو ٣٥ سنة ظفر فيها بالروس في وقائع عديدة والتي الرعب في قلوبهم . وجلاهم عن جميع البلاد إلا بعض مواقع نبتوا فيها في الناحية الجنوبية وكانت أعظم الدبرات التي وآلاها عليهم هي في سنتي ١٨٤٣ و ١٨٤٤ حيث افتتح جميع الحصون التي كانت لهم في الجبال وغنم منهم ٣٥ مدفعاً وأعتاداً حربية وموتراً وافرة ، وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى ، فجردت الروسية بعظمة ملكها وسلطانها جيوشاً جرارة ونادت هي بالجهاد في الطاغستان . ونظم شعراء الروس القصائد في وصف تلك الحروب ،

وما زالت توالى الزخوف حتى تمكنت من البلاد ولكن بقي الشيخ شامل عشر سنوات يناوشها القتال في الجهات الغربية من الجبال ولم يلم هذا المجاهد العظيم للروس الا في ٦ ايلول سنة ١٨٥٩ فعمد الروس على اثر تسليمه الى اعادة سلطة الأمراء ليتمكنوا بهم من خضد شوكة العلماء الذين لم تكن المقاومة الا بهم ومنهم . ولكن لما استتب لهم الامر بواسطة هؤلاء الامراء عادوا فخلعوهم هم ايضا كما هي العادة بأن هذه الدول تبدأ أولا باستعمال نفوذ الامير الوطني في اغراضها . وتصر في جانبها ، حتى اذا قضتها كلها رجعت اليه وثبته بيد الحصة ، وذهب يفرع سن الندم على استرساله اليها واعتماد عليها ، ففي عام ١٨٦٢ استأصلت الحكومة الروسية جميع عاكان بقي من جرائم الامارة الاصلية وأزلت اولئك الامراء حتى عن كراسيهم الذهبية . وبقى الامر كذلك الى سنة ١٨٧٧ اذ نشأت الحرب بين الروسية والعثمانية فثار الطاغستانيون وافتتحوا قلعة القوق ، ورفع ابناء البيوتات التي كانت مملكة من قبل أعلام الثورة ، واستعادوا لقب العصبي ، ولقب المعصوم ، ولكن لما دارت الدائرة على الدولة العثمانية في تلك الحرب ، تمكن الروس من قمع الثورة بدون عناء كبير

ولما انحلت الحكومة الروسية القيصرية ، وقامت الحكومة البولشيفيكية سنة ١٩١٧ محلها وأعلنت استقلال الأمم المضمومة ، وخيرت الشعوب التي كان التياطرة الروس قد أخضعوها بعد السيف بين أن تبقى منضمة الى الروسية الأصلية ، أو تنفصل عنها ، كان أهالي بلاد القوقاس أجمعين ممن أعلنوا استقلالهم التام ، فتألفت جمهورية في كرجستان ، وأخرى في انطاغستان ، والثالثة في آذربيجان ، والرابعة في أريغان ، وأوقفت كل من الجمهوريات الأربع وفودها الى الاستانة لمفاوضة الأتراك والألمان في الاعتراف بهذه الجمهوريات الأربع ، وصار الحديث في ارتباطها بعضها ببعض بشكل حلقى ، وكان الوفد الطاغستاني المركبى مؤلفاً من عبد المجيد بك ، وعلى بك ، وحيدر بك يمانى الذى كان ناظر الخارجية الطاغستانية . وما مضت مدة قصيرة حتى داخل الكرج الدولة الألمانية وطلبوا حمايتها فاعترفت لهم بالاستقلال دون غيرهم واحداث ذلك خلافاً بين الأتراك والألمان لأن تركيا نفاضت حليفتها المانيا الاعتراف باستقلال الجمهوريات الثلاث الباقية حتى ان طلعت باشا الصدر الأعظم يومئذ سعى لدى ألمانيا في معرفة استقلال جمهورية أريغان الارمنية التي كانت

تتقرب من الدولة العلية ، وكان رجال الدولة يريدون مساعدتها اصلاح ذات البين بينهم وبين الأرمن فتقدم أنور باشا الى هذا العاجز أن أذهب الى برلين وأنكم في هذا الموضع وأقنع نظارة الخارجية الألمانية بلزوم المساواة بين جمهوريات الفوقس كلها ، والا لم يكن مناص من الاختلاف ، وكلفني الوفد الطاغستاني أيضاً أن أهتم بقضيتهم نوعاً لأنهم حسبوا أن الترك قد يصرفون معظم عنايتهم في مصلحة جمهورية أذربيجان التركية فقط وبذلك في تلك الأيام جهدي مع نظارة الخارجية في برلين في تمهيد الخلاف ، وكان أكثر الكلام مع فون روزنبرج الذي كان مديراً لأمور الشرقية ، وهو هو اليوم بينما أحرر هذه الأسطر ناظر الخارجية الألمانية . ولم يلبث أن حضر الى برلين طلعت باشا والكونت برنستورف سفير ألمانيا في الاستانة ، واشتركتنا في حل هذه المسائل جميعاً وتم الاتفاق لولا أن الحرب في الجبهة المقدونية جاءت بما لم يكن في الحساب . وطلبت بلغاريا الهدنة ، وابتدأت نهاية الحرب فوقف كل شيء من جهة ألمانيا وتركيا ، واحتل الإنجليز الفوقس ، وعاقب الفوقس يون عامة آناهم بالنكارة أنها تعترف باستقلالهم وتوطد لهم حكوماتهم ، لاسيما أنها كانت تعطف على الطاغستانيين قديماً أثناء مقاومتهم الطويلة للروس فكان الأمر بالعكس إذ حصرت انكارة جهودها في مناهضة البولشفيك وإعادة الحكم الامبراطوري على أصله وأمامت الجنرال دينيكين علوه هؤلاء بالمال والسلاح ، فابتدأ الجنرال بالحرب مع البولشفيك حتى غزا الطاغستان وحاول القضاء على استقلالهم فحزت بين الفريقين الوقائع الدامية ، وما زالت الى أن انقضى أمر دينيكين . واستتب الأمر للبولشفيين أنفسهم ، فجرد هؤلاء جيوشاً على جمهوريات الفوقس الأربع . فقبضوا على أزمتهما وأخضعوها بحكومة موسكو خلافاً لوعدهم الأول ، وثار أهالي الطاغستان عليهم فتغلبت الحكومة البولشفية على النوار وقبضت على بعضهم وألقنهم في السجون ، وشرذ قسم من رؤساء الحكومة المستقلة ، ومنهم عبد المجيد بك وصديقنا حيدر بك بابت الى أوروبا ، حيث يواصلون مساعدتهم لأجل قضيتهم القومية الى يومنا هذا .

وببلاد الطاغستان متعددة اللغات فمنها لغة الآقار ، ولغة القومني ، ولغة الفارتاق ، ولغة الدارغا ، ولغة تابازاران ومنهم من يتكلم بلغة فارسية ، وفي البرديند والسواحل يتكلمون بالتركية الاذرية أي الجغتاي ، وهي أرقى جداً من اللغات السابقة الذكر ،

ولكن لسان العلم في جبال الطاغستان هو اللسان العربي . وهو اللسان الذي يتكلم به
أشهر تلك الأمة ، وقد صادفت سنة ١٩١٩ الوفد الطاغستاني الجركسي في « بن » قاعدة
هو سيرة ولزمتهم مكانيات في رؤساء بلادهم . فكلفتني حيدر بك بامات بتحريرها فلم
بالعربية الفصحى . وكثير من علماء طاغستان معهودون من علماء العربية .

وهو حرير تاريخ الطاغستان كثير من مؤرخي الألمان والروس والفرنسيين المذكورة
أسمائهم في دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية . ولدينا الأستاذ عزيز بك مكبر ناموس
سفارة التركية الحالية بموسكو وأحد فضلاء الأمة الجركسية . رسالة باللغة الفرنسية وأقية
أخبار تلك الأمة . وميرزا حسن أفندي ابن الحاج عبد الله أفندي الأفندي الطاغستاني
تاريخ بالهجة الأذربية اسمه « كتاب أخبار طاغستان » طبع في طهران سنة ١٨٩٥ ولم
يصح الروس بنشره إلا سنة ١٩٠٢ بعد رفع المراقبة عن المطبوعات . ومحرر كتابنا
تاريخ كان من الشراك بثورة ١٨٧٧ ونفاذ الروس مادة جديدة .

وهو عرفت في المدينة الثورة بين الحرب العامة بأشهر كامل سنة حبيب المرحوم
سبح شمس . واعتقدت بهذا الوجه لما رأيت من حسن أخلاقه بأولنا بيت الحرب
كثيري استعنته الشهرة إلى الامتلاء وكانت له مواقف في خدمته نيف . بمن كان حفيدا
بذلك الحمد الأجود .

المهدي المنتظر

المهدي

اتفقت الأديان السماوية الثلاثة على ظهور واحد في آخر الزمان . فاليهود لآبراهون
منتظرين المسيح الذي يحدد ملكهم قبيل اقراض الدنيا . والنصارى يرون في عيسى عليه
السلام المسيح الذي بشرت به الأنبياء ويقولون يرجوعه في آخر الوقت لإبادة الدجال الذي
ينفي به يوحنا . والمسلمون أيضاً عندهم المهدي الذي يظهر قبل قيام الساعة ليملأ الأرض
قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً . ويروون عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما بعد
لا تقوم الساعة حتى يخرج من ذريتي رجل اسمه كاسمي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً
ويظهر الاسلام على الدين كله . وبعضهم قال ان المهدي الذي سيظهر في آخر الزمان هو
عيسى عليه السلام . وبعضهم قال بل هو علي بن أبي طالب . والشيعه الإمامية يقولون أنه
محمد الحجة ابن الحسن العسكري . بن علي النقي . بن محمد الثاني بن علي الرضا بن موسى
الكاظم . بن جعفر الصادق . ابن محمد الباقر . ابن علي السجاد بن العابدين . ابن الإمام
الحسين السبط . ابن سيدنا الإمام علي رضي الله عنه وعنهم جميعاً . وان محمد الحجة عند
دخل مع أمه صغيراً سردياً بالخلعة من أرض العراق واختفى فهم ينتظرونه الى الآن . قال
القلقيندي في صحيح الاعتق : ويقال أنهم في كل ليلة يقفون عند باب السرداب بغير
مشودة ملجئة من الغروب الى مغيب الشفق . ينادون أيها الإمام قد كثر الظلم . وظهر
الجور . فأخرج البناء . وروى ياقوت أنهم كانوا في قلشان من بلاد العجم يركبون كل
صباح الى لقائه . وذلك في أواخر القرن الخامس للهجرة . وروى ابن بطوطة انه لما مر
بالخلة رأى مسجداً ممدولاً على بابه سجن من الحرير . وأنه كان يأتي كل يوم مائة رجل
منغلدين السلاح فيصلون العصر . ثم يذهبون الى قائد البلد . فيعطيهم بغلة ملجئة
مسروجة فيطوفون بها . وهم يطالبون ويصرخون : حتى اذا انتهوا الى باب ذلك المسجد
نادوا : يا عالم الزمان اخرج قان الظلم قد ظهر . والفساد قد كثر . الخ

والفرقة الكنيسية يجعلون المهدي محمداً بن الخليفة^(١) وينظرونه ويقولون انه لم يمت وانه مختف في جبل رضوى ، بين المدينة وينبع . وكان عند ملوك الطغوية في العجم عادة . وهي اسراج رأسين من الخيل معدن دائماً في القصر لاستقبال المهدي وعسى ينتظر مجيئهما كل ساعة . وهذا يشبه عمل بعض اليهوديين من الافرنج الذين يقيمون بالقدس ينتظرون مجيء السيد المسيح ويوم الدينونة . روى هوارت Huart الفرنسي صاحب تاريخ العرب المطبوع سنة ١٩١٣ أن انكليزيا ورد بيت المقدس وأقام بالوادي الذي يقال انه ستكون به الدينونة ، وشرع كل صباح يفرغ الطبل منتظراً الخضر . وسمعت أن امرأة « انكليزية فيما أظن » جاءت القدس وكانت تغلي الشاي كل يوم لأجل أن نفسها بالسيد المسيح ساعة وصوله وحدث لأمريتين الشاعر الفرنسي العظيم في رسالته بحبل لبنان أنه رأى في قرية جنون السيدة استبرسناهب البنة أختي بيت Pitt الوزير الانكليزي الشهير رأى عندها فرساً مسرجاً دائماً ليكون ركوبة للسيد المسيح المنتظر وصوله .

وقد استخدم قضية المهدي كثير من الدول الاسلامية ليرويج دعوائها فالدولة العثمانية عند ما ظهرت بنو نيس ادعت أن عبيد الله مؤسسها هو المهدي ، ونجد بن تومرت لما قام بمصودة في المغرب قام بالدعوة الى المهدي ، وبها تأسست دولة الموحدين في عهد مؤمن . وقام في أيام الدولة المرينية بفاس رجل اسمه التويرزي أقام من توزير من تومرت ادعى أنه المهدي واعتصم برباط حصين اسمه (ملا) بالوس الأقصى . واعتصم حوله زملاء صنهاجة فقتله المصامدة . وكذلك ظهر رجل آخر اسمه العباس بن سفي ٧٠٠-٦٩٠ هـ هجرة في نواحي الربيع من المغرب وقال انه المهدي وأثار معه جماعة فقتل واستشهد أمره . ظهر في السيفغال سنة ١٨٢٨ ميلادية رجل ادعى أنه المهدي وأحدث ثورة ثم انكسر وهرب ريثه . ولما احتل الفرنسيون مصر في زمان بوناپرت قاتلهم بين دمنهور ورشيد رجل مغربي من طرابلس ادعى أنه المهدي ومازال يقاتلهم حتى قتل .

وبعد ثورة أحمد عرابي بمصر ظهر في السودان رجل اسمه محمد أحمد ادعى أنه المهدي ويقال ان والده كان يسمى عبيد الله وأمه كانت تسمى آمنة ، وكان له أخوان أكبر منه سنان السفن في النيل الأبيض ، فأرسله بحصل العلم في نواحي الخرطوم ، ولما بلغ الخامسة

(١) أحد أولاد سيدنا علي

والعشرين من سنة اتقطع الى العباد في أحد الكهوف . وظهر من ورعه وزعمه ما تحدث
 به الناس فأتبعته قبيلة البقارة وهي قبيلة عظيمة عربية الأصل من جهة فتصرت وقال انه
 هو المهدي . وأعان هو ذلك سنة ١٣٠٠ هجرية . وكان رؤوف باشا والي السودان
 المصري أرسل ٢٠٠ جندي لقميض عليه ، فقتلهم جماعة محمد أحمد جميعاً ، واتحار هذا الى
 جبل هناك والقبائل حوله السودانيون فرددت الحكومة المصرية جيشاً تحت قيادة جيفر
 باشا البافري فهاجمه نحو ٥٠ ألف سوداني وأبادوه ، ونزح من المصريي سوى ١٢٠ رجلاً
 فحصل المهدي الأبيض سنة ١٨٨٣ في ١٧ كانون الثاني وجعلها كبري حكمة . فخرمت
 الحكومة المصرية جيشاً آخر بقيادة هيكس باشا فأباده السودانيون أيضاً وأخسراً أبادوا
 ثورة غوزدون باشا في الخرطوم . واستولوا على السودان كله . وبعد موت المهدي خلفه
 التعاليشي أحد زعماء قبيلة البقارة . واستفحل أمره فأشار الانكليز على مصر « والإشارة
 هنا بتمام الأمر » أن تسحق عن السودان وتتركه وشأنه ، ولم يكن ذلك الا توجه القنوجهم
 هم للسودان . فانهم ما لبثوا أن جردوا جيشاً من المصريي بقوده ضباط انكليزي رؤسهم
 الجنرال كينز فاستقنحوا السودان رجال مصر ومال مصر ، وعادوا يقولون للمصريي ان
 السودان مشترك بيننا وبينكم ، والحقيقة أن لاحق لهم بهذه الشراكة ، لأن السودان كله
 لمصر ولا تسحق عنه مصر طرفة عين فضلاً عن كون هذه الشراكة هي اسمية ، لأن كل من
 في السودان هو في يد انكليزة ، ومن ولي أمر السودان فقد أخذ بمخفق مصر ، لأنك
 هذه مع أن تصعد نفسك ، ولذلك مشكلة السودان هذه هي العقدة الكبرى المعقدة الواقعة في
 وجه حل المسئلة المصرية بين انكليزة ومصر ، وإذا تحلت مصر عن السودان فقد تحلت
 عن نفسها .

افغانستان

للإمام شكيب

هنا ، وقف عظيم من أعظم مواقف الإسلام في العالم ، ومعتزك شهير من أجل مخلصاته
 فيها حدث ، فضلا عما تقدم ، ولعمري لو لم يبق للإسلام في الدنيا عرق يعض ، لرايت عرقه
 بين سكان جبال الجلايا والهندكوش نابضاً ، وعزمه عنات ناعضاً ، ألا والله من هناك غزا
 الفتح العربي محمد بن القاسم في صدر الإسلام الهند ، وفتح الهند (٧١٢ ميلادية) ووصل
 إلى حدود الملتان ومن تلك الجبال انحدرت تلك الجيوش الكبيرة استنصر الإسلام ، وحامي المعارف
 والعلوم في عصره ، الساطان محمود بن سبكتكين الغزنوي التركي ، في أوائل القرن الحادي
 عشر الميلادي ، ودوخ الهند من أفصاها إلى أفصاها ، وتآب عليه رجاوات (ملوك) لاهور ،
 والافغان ، ودعلي ، واجير ، وفنوج ، وغنابلور ، وكالنجار ، ولودجين ، حرمه واحدة ،
 ووقف العلم البراهمي بلزاء العلم الاسلامي ، واصطفى الاقران ، وانتصب الميزان ، فبالله
 العلم الاسلامي من العلم البراهمي في واقعة «بانداه» ، وتفرق شمل الرجاوات كل ممزق ،
 وفتح محمود كنسمر ودعلي ، واقام ولاية من قبله في لاهور ، وجعل راجا فنوج من أتباعه ،
 «أمكن توطيد ملكه في جميع البنجاب» ، وغزا كالنجار تلك المدينة الموصوفة بـ «منعبد»
 «فبالله ملوك تلك الديار صاغرين وفصد كوجرات وحطم الصنم الأعظم المعروف بسومناث
 وفتح بهاضية ذلك الفتح الذي تحدثت به الركبان ، وكتب فيه تلك الرسالة الطليقة شيخ
 الكتاب أبو الفضل بدیع الزمان ، فقال انه «الفتح الذي قضت أمامه الفسوح ، وأنت
 دابة الملائكة والروح» الخ وذكر عن الهند وعجائبها وعظمة الخلق التي فيها ، ما عرف
 غير تلك الفسوح التي أنانها الله للإسلام على يد أمين الدولة وبين الملائكة^(١) قال الميوس
 ر بنه غروسه René Grousset صاحب تاريخ آسية الذي ظهر سنة ١٩٢٢ في ثلاثة مجلدات
 شخصاً من روايات أكابر المحققين ، وذلك في بحث الهند لعهد الإسلام ، ما يأتي تعريبه :

(١) هو لقب السطان محمود الغزنوي

« ان محمود اقام بصليبية اسلامية ^(١) استمرت الى القرن الثامن عشر وكانت كسائر الصليبيات ، جامعة بين روح الدعوة الدينية وروح الطمع في السحت ، وان محمود آتيت ضرورته العالية مشرفة على ثمانية فروع ملائي بالفنوجات ، لأن الجهاد الذي كان هو أول أولاده ، لم يبلغ حده النهاية الا في فجر العصر الحديث بعد أن عرفت أرض اليراهة من جهات خلايا الى سواحل كور وماندل ، اسم الله تعالى ودانت لسلطين الترك المغوليين »

وافتنى آخر محمود بن سبكتكين التركي ، محمد الغوري الأفغاني ، الذي استولى على سلطنة آل سبكتكين وغزا ملهم الهند ، وسنت في واقعة « نالوار » الثلاثة ألف فارس والثلاثة آلاف قبيل التي حشدتها لقتاله ملوك الهند ، وافتتح دهل ، وفنوج ، وميراث ، وآخرا ، وضمها الى مملكته (١١٩٤ ميلادية) وأتم عمله بمملوكة آبيك التركي الذي فتح بارس ، وخرب الجزيرة على ملوك كفالابور ، وبافان ، وافتتح كوجرات ، وكالنجار ، وضم الى المملكة بوندلكاند . ثم القائد بختيار الأفغاني ، الذي افتتح مغدلا ، والبنغال ، وأزال الدولة البوذية من تلك الأفطار فكان عمل هؤلاء الفاتحين مقدمة سلطنة اسلامية عظمى قاعدتها دهل وقد بسطت جناحها على الهند بعد انجزها ، واستندت من القرن العاشر للمسيح الى أوائل القرن التاسع عشر ان غرمت وعمجرت وانقرضت على أيدي الانكليز كما هو معلوم . وليس المراد هنا تاريخ الدول الاسلامية التي تعاقبت من ذلك الوقت على الهند ، ولكن المراد هو ذكر العلاقة الدائمة التي بين اسلام الهند وبلاد الأفغان التي منها انحدرو الفاتحون المسلمون سواء كانوا من العرب ، أو من العجم ، أو من الترك ، أو من الأفغان واليات ان تلك الجبال كانت ولم تزال على ما يغلوها من الثلوج مستوفدة حامية ، ومسال حية . وموطن فتوة ، ومعدن فروسية ، واليك ملخص تاريخ علاقاتها مع الانكليز منذ وضعوا أيديهم على الهند الى يومنا هذا :

قل الميسير لومارشان Le Marchand أحد ضباط الجيش الفرنسي ومن أعضاء الأكاديمية العسكرية في كتابه « حرب الانكليز مع الأفغان » الذي ظهر سنة ١٨٧٩ ما يأتي تعريجه ملخصا :

(١) يعنون بذلك سلسلة حروب أشبه بحرب الصليب

« ان مبدأ علاقة انكلترة مع افغانستان كان في القرن التاسع عشر ، وذلك عند ما أرسل نابليون الأول « الجنرال غاردان » لمفاوضة العجم في عقد محالفة بينها وبين فرنسا . لأجل فتح الهند ، فلما بلغ الانكليز ذلك أسرعوا بإرسال وفد الى كابول ليبتذلوا من الأفغان رده أخذ العجم . وكان يومئذ في كابول أمير عليه لقب شاه مثل شاه الفرس خضعت عليه ثورة ، واستولى على الملك أخو الصدر الأعظم الذي كان عند ذلك الشاه وفر أخو الشاه الأفغاني الى الهند . ملتجئاً الى الانكليز مستعداً نصرتهم لاسترداد ملكه كما ان أمير الأفغان الجديد ، وهو المسمى دوست محمد خان ، عقد حلفاً مع الروس فكان محمد هذا كافياً لتجريد حملة انكليزية على افغانستان ١٨٣٩ . وكان قد سبق الحملة الى كابول السائح الانكليزي المشهور برنس Burnes ليقاوم فيها دسائس الضابط فيكوفيتش الروسي فعاد برنس الى الهند أقنع « اللورد اوكلاند » بوجود الخلف واعداد الشاه القديم ليجاء اليه . ولكن ما أعيد الشاه المذكور حتى وجد الانكليز حاجة ماسة الى تعزيزه بحسن عظيم ، لما كان قد انتشر في البلاد من الفوضى . وشهر من عدوان الأهالي للانكليز . وفي سنة ١٨٤١ شتت نار الثورة في كابول ، وقتل فيها المعلم البريطاني . وعدد من ضباط الانكليز ، ثم اضطر القائد الانكليزي ، بالنظر الى تخرج موقعه ، الى طلب الأمان على نفسه وعلى جنده ، على أن يخرج من البلاد بدون توقف لا يتولى على شيء . وعسكرنا خرج في أشد زمهرير الشتاء ، وكان ما كان من المنحمة المشهورة التي استأصل فيها الأفغانيون ١٦ ألف أو ١٧ ألف جندي انكليزي ليس منهم سوى ٥ آلاف مقاتل ، وذلك في كمين نصبوه لهم في « خورده كابول » فلم ينج سوى الطبيب العسكري « بر بدون Brydon » الذي فر الى جلال آباد ليخبر قومه بالفاتحة العظمى . ثم ان الأفغان تقدموا وحاصروا جلال آباد التي كانت فيد حامية انكليزية . فقاومتهم زهاء شهرين الى أن رخص الجنرال بولوك « من الهند فأنقذها » ثم بعد مدة رخص الانكليز بحماية عظيمة على كابول وسبقوا فلاحها ودار الملك وأخذوا يبايعهم عما سبق (قال) : وقد أردنا الإشارة الى هاتين الحادتين اللتين تقدمتا للانكليز في افغانستان لما لحما من العلاقة بالحرب الحاضرة (١) كما أنه لا يتخلو من الفائدة معرفة ما يعترض جيشاً أوربياً يريد التوغل في تلك الديار من العقبات

الصعاب وما يستجلب النظر من كون كتاب العباكر الأفغانية التي كان الانكليز قد كتبوها واستخدموها وظنوها أصبحت من جملة جيشهم قد انقلبت عليهم وكانت أسد أعدائهم وطأة في تلك الحرب » انتهى

نقول ما استأصل جيش أوربي قوة وطنية في آسية أو إفريقيا ، وخطر حال مؤرخ أوربي أن يذكر ما هناك من الاعتذار المشروعة ، والأسباب المعقولة ، التي فسدت بالظلمة للأوربيين على الوطنيين ، مع ما بين الفريقين من التفاوت في الاعتدال الحرب ، والاختراعات الفنية ، والمعرفة بعلم التعبية ، وأصول القتال ، فإذا أتاح الله وأفعد بالعنفس قضى فيها تغلبة الوسطى على الأوربي أسرع المؤرخون الأوربيون إلى نحو « تلك الذرة بالناس لأسباب الخففة ، والاعتذار المتنوعة ، التي لا تسكك تخلو منها هر عند وذلك حرصاً على الشرف الأوربي أن يحده نقص ، وعلى المسكاة الأفريقية أن تتزعزع في نظر الوطنيين . فالجيش الانكليزي في خوردي كابول وهو ١٧ ألفاً قد أغنى على كره أسوة . سواء كان كده مقاتلين أم كان بعضه مقاتلاً والآخر طاملاً لمخبرة . والانكليز قد عرفت من تلك الواقعة أن ينظروا إلى الأفغان بغير العين التي ينظرون بها إلى جيرانهم الهند وعرفوا ان الأفغان لا ينام على النار ، ولا يقبل أن يظأ الأجنبي بوطنه ولا يواظف العساة على استقلال بلاده . كما حصل من كثير من أمراء المسلمين الذين كان الواحد منهم يسعى بين يدي القوة الأجنبية ، ويدلأ أمامها من كيب قومه ، بلعاً في أن تلبسه ثاجاً موهوياً أو تركبه عرشاً اسمياً ، كلا . ان الأفغان منذ أول احتكاكهم بالانكليز أفهموا أخطاهم هؤلاء أنهم ليسوا من طينة غيرهم من جيرانهم ، وأن المتافسة فيما بين أمرائهم على الملك لا فصل إلى حد الاجتراف بالاستقلال ، والمساخنة بأمور الملك ، وأن الوفاء بالعهد تساهم لا يبلغ درجة تواظف الرجل مع الأجنبي على قومه ، ومقابلة الجاني الأفغان جندياً أفغانياً آخر يذب عن حوض وضنه ، بسبب كون الأول يأخذ جرياً من ذلك الأجنبي ، كما فعل كثير من سلاطين الاسلام ورؤسائه واجناده ، واشتروا بالنعمة الزائلة والجارئة الموقنة التي تلبث أن ألفت بكاهم دماً ، وأكلهم اناملهم ندماً ، بعد انقضاء الوصر ، واستتباب الأمر للفتح الغريب ، مما لا تحصى ولا تعد أمثاله ، سواء في آسية أو في إفريقيا . ونقول مع الأسف ان الاسلام ما يبيل تماماً من هذا المرض ، وأنه ان كان ورد في أثر الشريف أنه لا

يلدغ المؤمن من جحر مرتين فترأه اليوم يلدغ من جحر واحد مائة مرة ولا يتوب . وقد رأينا أن أكثر فتوحات اوربا في بلاد المسلمين والشرقيين عموما إنما انست لها على أيدي المسلمين والشرقيين ، فأوربا اعتادت أن تستعين عليهم بهم وأن تضرب الأخ بالأخ وأن تفرغ النبع بالنبع ، وإن تجرد على الاقطار التي تتوى استعمارها جنوداً من أعالي المستعمرات ، تخططهم بزر من جنود اوربسة ، وتضع على رأسهم فؤاداً أوربيين ، وتلك تلك مناهج ، وفي حرب افغانستان هذه ، وفي التي تليها ، قد استعملت من أجناد الهند ورجلها وجاها وأفيالها ، ومن العساكر المتقدمة من ميوكها وأفيالها ، حتى من نفس ملك الاسلام في الهند ، ما لا حاجة الى احصائه هنا ، كما أنه في ثورة الهند الكبرى سنة ١٨٥٧ وهي التي اشقت انكساراً فيها أن تغسر الهند بأسرها ، يعترف المؤرخ المتقدم ذكره وغيره أنهم يكن بقي في جميع الهند سوى ١٠ آلاف جندي انكليزي لحفظ ١٩٠ مليوناً ، ويرد فيها لواء واحد من متطوعة البنجاب ، وأنه في تلك الأزمات ظهرت مهارة الماورد لورانس باستنظار بعض الزعماء لتسكين جنود من الأهليين ، اجتمع منهم فيما بعد فيلق جرار ، كان هو السبب في حفظ انكسار لا للبنجاب فقط بل لجميع الهند ، فالهند هم الذين في الحقيقة فتحوا أنفسهم بأنفسهم ضد انكسار أولاً وآخر ، وقد حاولت هذه الدولة أن تجري على هذه الطريقة في افغانستان فلم تنسج لها لا أولاً ولا آخر ، ولو كان الأفغان مثل الهند أو البلوج أو غيرهم من الأمم التي علفت في الخبائل الاوربسة كانت افغانستان اليوم ولاية من ولايات الهند أو إمارة يلبها بالاسم أمير من أهلها والحكم الحقيقي فيها لوزير المقيم أو للمعمد أو للمعمد كما يسمونه ، ولم يكن في عرض البلاد وطولها بندقية واحدة يتق بها أفغان ذل العبودية ، بل الشعب كان يومئذ كله أعزل مقم الأقطار ، والقوة العسكرية التي تكون عنده يومئذ عبارة عن حامية انكليزية مؤلفة من برطانيين وهنود وأفغان يخدمون في بلادهم على بلادهم ، يدراهم معبودات . هكذا كان شأن الأفغان لو تبعوا خطة غيرهم من الأمم الشرقية العاقبة ، أو لو اقتدوا بنوابي « ايسا كى » و « تالك » و « تالو » و « خان » خطا السير خوفاً وغيرهم من أمراء الهند الذين كانت لهم اليد العنوى في فتح الثورة الهندية الكبرى . بن محمد السيو لومارشان يقول في الصفحة ٢٨٩

من المجدد الأول من تاريخه « ان القبيلة السورانية التي هي نكث الأفغان ومنهم الأسرة المالكة عددهم من الاعتراف بفسادهم وفجورهم ما يجعلهم مؤثرين لأى أمير كان مهما كان من السيرة ، على الحكم الأجنبي ، ولم يكونوا يأسفون على سقوط الأمير ونشر يده مع عثرته على شرط أن يكون لهم الخيار فيما بعد في اختيار حكومتهم »

ثم نعود الى ذكر غزاة الانكيز في بلاد الأفغان فنقول : ورد في دائرة المعارف الاسلامية المحررة بالتراسوية بقلم المسيو هونسمه Honsma ورفاقه خلاصة تاريخ الأفغان مستخلصة من نحو مائة مصنف بالفرنسية والفارسية والانكليزية والفرنسية والألمانية ومن جملة ما فيها أن الانكيز بعد أن دخلوا بلاد الأفغان للاحذ بشأر جيشهم سنة ١٨٥٣ ومنعوا اجلاس الشاه شجاع الملك على عرش تلك المملكة ، وأول ما هناك من صعوبة المراسم ، وانعزل البغداد ، وهجم على شجاع الملك من قتله ، فأزعم الانكيز اخروج من تلك البلاد وأخذوا معهم فتح جنك ابن الشاه المقتول ، ثم تمسكوا الى مصالحة دوست محمد خان الذي علموا أنه هو الملك الوحيد الذي يمكنه أن يضبط زمام الأفغان ، فانهض الصلح بين الفريقين على شرط أن الانكيز يحترمون حدود الأفغان ، وانصرف دوست محمد خان الى قصبين بلاده ، واسترد بلخ ، وكولم وفندز ، وبخشان ، ولما اشتعلت الثورة الهندية الكبرى سنة ١٨٥٧ ألزم الحيات ، ولم يهنبل تلك الغرة لفتاة الانكيز . ومات دوست محمد سنة ١٨٦٣ فثار الخلاف بين أولاده وتقاتلوا مدة طويلة ، والانكيز ينظرون اليهم من بعيد معتزلين الخلاف كله لعدمهم أنهم لو أشتبوا أظفارهم فيه انعرضوا لخسائر لا تحصى كالى عرقوها من قبل ، ولما كان آل الأمر الى اتحاد الأفغان كانهم بدأ عليهم ، فلم يزالوا مترددين الى أن استوسق الأمر لشير علي خان أحد أولاد دوست محمد خان ، وأطلق أحد أبناء الانكيز كلمة « عزلة رئيسية » على خطة الحكومة البريطانية يومئذ وسارت مثلاً ، فلما أجمع الأفغان على طاعة شير علي اتفق معه الموردي لورانس أولاً ثم خلفه الموردي ماير فايد اتفق سلمه على شروط معلومة ، أولها أنه لا يدخل عسكري انكليزي واحد بلاد الأفغان لأجل إطفاء ثورة أو تدويج قبيلة غاصية (١) وأنه لا يرسل ضابط انكليزي معتمداً في مدينة من مدن الأفغان

(١) هذا خلاف طلب الذين توافقوا مع الانكيز على أن يدخل هؤلاء بلادهم ويخمدوا لهم الثورات ويخمدوا لهم العصاة ثم بعد استيلاء الطاعة يحبون عن البلاد برغمهم

وأنة لا يكون للامير راتب معين من السككنة مشهورة ولا مستترة . وقد توارث أولاد دوست محمد خان هذه العبرة الشديدة من رؤية الأجنبي في بلادهم من والدهم الذي كان يقول لما ورد لورانس سنة ١٨٥٦ ما يأتي : « ان كنتم تريدون أن تبقى أحراراً فلا تتركوا على علي قبول ضباط انكليز في بلادى »

ويقول المؤرخ لومارشان السابق الذكر « انه قد بقيت العلاقات بين الانكليز وغيره على حدة على هذه الصورة ، الى أن دخل الروس خيوة سنة ١٨٧٢ فراح ذلك غير على حال . وأول من قبله من يسير شعور الحكومة الهندية فيما لو وصل الروس في الاعتداء الى بلاده ، فورد له الجواب بقول رأى التجاذه ان جرى عليه اعتداء بدون حق من جهة الروس ولكن الدولة التي وضعت لأجل القيام بتلك التجاذه لم تكن لترضيه » .

قلت : ان صاحب حربه تاريخ الاسكيز والأفغان أشغل ذكر هذه الشروط عمداً لأن من أول هذا التاريخ الى آخره مؤيد لسيرة السككنة ، إلا أنه بالبداهة يدرك القارئ أن الشروط التي وضعها الانكليز ولم تعجب شير علي في حال احتياجه اليهم لا بد أن تكون مره شاق على أمير بهمه أن يبقئ ملكته كراً لا قطعها فسلم أجنبي . ولا شك ان أول شرط منها كان إقامة مستطرين السكيز في أفغانستان . ووضع حاميات انكليزية في بعض المواقع الأفغانية وربما يكونون اقترحوا عليه قبول الحامية البريطانية . ليصبح كأحد نواب الحكام أو نظام حيدر آباد ، فهاهنا أنهم يستفيدون من فرصة أزمته هذه بسط حايته لا تزال حولهم أنفسهم بها . ولكن لننظر الآن ماذا فعل شير علي خان . يقول لومارشان

« انه لما ورد جواب الانكليز نفي وامتنع وصارت علاقاته مع الانكليز في جنور مستمر ، وأتى الساج بالمرور لطباط انكليزي أرادوا انفاذه الى حدود شاف أفغانستان لمخصص عن حالة الحدود ، وكذلك ، بأن لنسير دوغلاس فورسيت Douglas Forsyth العائد من كاشغر الى الهند . ورفض قبول مبلغ من النقود كان الاسكيز يعطوا اليه . وبمكس ذلك كانت علاقته ودية مع الحاكم الروسي في تركستان . ووقع هذا الجفاء في أواخر أيام الماورد نور تيروك ، فلما جاء الماورد لينون خلفاً لنور تيروك بذل الجهد المستطاع لتأليف ذات البين مع شير علي ، واقترح عليه ارسال جرى من قبل السككنة هو السير بلي Pelly لمفاوضة في كابول في رغبته ومراضيه ، فأبى شير علي قبول هذا المعتمد ، واقترح هو ارسال معتمد الى بشاور للمفاوضة في النقطة

الواقع الخلاف عليها ، وهي تدخل انكثرة بينه وبين ابنه يعقوب خان ^(١) وخطتها في
مسئلة حدود سنجستان ، بين افغانستان والعجم ، وارسال حاكم الهند هدايا رأساً الى أحد
أمراء الافغان ، مع أنه تابع لمملكة شر علي ، ورفض انكثرة رأي التحالف معه
والاعتراف بتولية عهده ابنه عبد الله خان الى غير ذلك . عرضت انكثرة بهذه القفوفة
في بناور ، لكنهم نجح شر علي الى مطالبه واعتات عن كل منها بسبب ، فز يسر ذاته
المؤتمر عن أدنى صائل . ثم ان هذالك مسئلة القبائل الافغانية العانية المعادة لمهند فان هذالك
القبائل بأجمعها تعترف برئاسة الأمير ، وليس منها واحدة خلا قبائل البلوچ التي الى الحسوب
تقر سلطان انكثرة عليها أو ترضى باختيارها وطأة قدم انكثري لأرضها . وان جميع ما
عند الانكثري من المعلومات عن هذالك القبائل أو عن منازلها لم يتيسر لهم الا بواسطة
الخزفنيين والمخططين الذين كانوا تابعين لمجيش أثناء الحالات العاصدة التي حياها الانكثري
على تلك الديار ، ومن الغريب أنه مع شدة غيرة هذه الأقوام على بكارة بلادهم ، وحرصهم
على أن لا تطأها قدم انكثري تجددهم يحولون من بلدة الى بلدة في الهند وينجرون مسا
يريدون في أسواقها ، ويخدمون جنوداً في الجيش البريطاني ، وتجد منهم عند الانكثري
عمالاً وأمورين يتقنون الروائب الجزئية ، فلا يبالغ الإنسان اذا قل أنه لا يكاد يجدوا في
في البنجاب من ضابط أو من ضابط متعبد من أبناء هذه القبائل . وترى منهم ضابط في
مدارس ويمبای وحيدر آباد . وبالرغم من كل هذه الأسباب التي كان ينبغي أن تجعل
المحمة بينهم وبين الانكثري شديدة ، فلا بد من الاعتراف بأن هذالك الحالة منذ مستوى
الانكثري على البنجاب وجاوروا تلك القبائل لم تتغير تقريباً .

فلما ان الوستيين في أكثر البلدان ، الا من رحم ربك ، عودوا المستعمر من أنهم
من قبلوا وظائفهم والنقدوا اروائهم جاورهم في جميع مقاصدهم وتبعوهم في كل مر منهم .
حتى فيما هو على الفاء من مصلحة قومهم . وفيما يس استقلال وطنهم ، وأكثر ما سقطت
البلدان المستعمرة تحت السلطة الاوربية إنما كان على أيدي ماجورين من أنفس الأغنياء
بييعون أوطانهم بخس الخظام وقليل المتاع . ولهذا تجد المؤرخين الأوربيين نظائر لومارشان
هذالك يقضون العجب من ضليع هذه القبائل الافغانية المعادة لمهند كيف أنها مع شدة اختلافها

(١) كان ثار عليه وأخذت انكثرة تحية

بالانسكايز وارتفاها بأموالهم ووضائعهم ، توأطى* الانسكايز على بلادها ، ولم تمكن لها في أرضها كما صنع كثير من غيرها ، فهؤلاء قد خالفوا العادة الجارية من غيرهم ، وهذا الأمر يدهش الأوربيين كثيرا .

و يقول هذا المؤرخ « ان القبائل البلجيكية هي على خلاف ذلك فلهذا إدارة السند كانت دائما أرفق وأهنا من إدارة البنجاب . أما القبائل التي بين جبال ماهابون وجبال بوزدار فمنها نحو خمس عشرة قبيلة ، منها ثلاث عشرة سالت الدماء غزرا آيضا ، وبين الانسكايز ، وساق عليها هؤلاء ، لا أقل من ٣٠٠٠ جندي (١) فمن هذه القبائل قبيلة الجاندون يسكنون المنحدر الجنوبي من جبل ماهابون وقوتها تقوم بنحو ٥٠٠٠ مقاتل ، وكانوا إذا شنوا الغارات على الأراضي الهندية اكتفى الانسكايز بحصرهم . وسنة ١٨٦٣ جردت عليهم حملة بقيادة السير هاردي هاردي العساكر أمرا جها الاغادوا هم الى الثورة . ثم قبيلة اليونارفل وهم من أشجع أمراء الانسكايز وقعت الحرب بينهم وبين الانسكايز سنة ١٨٦٣ خسر الانسكايز في مصارعهم ٩٠٠ رجل قتلوا بلوه من مر كفاهم . وبعدهم قبيلة السواقي الذين ساق عليهم الانسكايز سنة ١٨٤٩ وبقتل نحو ٢٥ ألف مقاتل . ثم قبيلة برايزاي وقد غزاها الانسكايز مرتين سنة ١٨٥٢ وعددهم ٣٠٠٠ مقاتل . ثم قبيلة غلمان كيلي (٢) وعددها ١٠ آلاف رجل اشتدت وطأتهم على الانسكايز ، حتى جردوا عليهم ثلاث حملات واحدة عام ١٨٤٩ بقيادة الكولونيل برادفورد ، والثانية عام ١٨٥٢ بقيادة السير كولين كامبل ، والثالثة سنة ١٨٦٦ بقيادة الجنرال دونسفورد . ثم الى الجنوب من هؤلاء قبيلة الماهروند الكبيرة وهي تسمى أن تحشد ٢٠ ألف مقاتل ، وقد ناجزها الانسكايز سنة ١٨٥٠ و ١٨٥٢ ثم بعد ذلك بسنتين تجددت الفتنة بينهم وبين أحد أئمتها وسنة ١٨٦٤ نشبت بين الفريقين معركة في سهل شو كودور

« وجميع هذه القبائل تنزل نهال مصيف خير الشير بالجبال التي تناحمت الهند الانسكايزية ويوجد الى الجهة الغربية ، قبائل أخرى لا تقل عن هذه شدة بأس ، وصعوبة مراس ، مثل الباجوري والسيفقاري وغيرها ، ولكن مرادنا الكلام على القبائل التي يجاورها تتحوم الهند كانت الحروب متواصلة بينها وبين الانسكايز ، فبين مصيف خير وكوروم منازل

(١) هذا الى عام ١٨٦٩ فما ظنك بما جرى من الحملات منذ سنة الى اليوم

(٢) معنى كل قبيلة أو رعية

قبيلة الافريدي التي تعد ٢٥ ألف محارب ، وهي على ما يظن أهم قبائل الترخوم وقد تبارزت مع الانكليز مراراً عديدة ، وساقوا عليها زحواً سنة ١٨٥٠ و ١٨٥٣ و ١٨٥٥ وأخيراً سنة ١٨٧٧ بقيادة الجنرال كايس والجنرال روس

« وكذلك قبيلة الميرزاى التي تجهز نحو ٥٠٠٠ محارب تبارزت مع الانكليز سنة ١٨٥١ و ١٨٥٥ و ١٨٦٩ وقبيلة النورى وهي تعادل الأولى في العدد ، غزاها الانكليز سنة

١٨٥٦

« ثم الى الجنوب من هذه نجد قبيلة الاوراكزاي من ١٥ الى ٢٠ ألف مقاتل حتى غلبها الانكليز سنة ١٨٥٥ و ١٨٦٨ و ١٨٦٩ بقيادة شامبرلين وجولس وكايس ، وبين مصطفى كوروم وغومول ، تسكن قبيلة الدافري قانها الجنرال كايس عام ١٨٧٢ ، ثم قبيلة الوزري الشهيرة التي زحف عليها الانكليز سنة ١٨٥٢ بقيادة نيكولسون سنة ١٨٥٩ بقيادة السير نفيل شامبرلين ، سنة ١٨٦٩ بقيادة كايس لردعها عن الغارات والعدايات على حدود الهند . « وعلى جاني غومول تسكن قبيلة المسود وزيري التي طالت ألفت راحة الترخوم الهندية ثم قبائل البيوزدار ، والساكاراي ، والسيوراني ، التي هي دائماً في جدال مع الجنود الانكليز .»

« وتسكن الى الجنوب من هذه قبائل أخرى كانت دائماً في ونام نام مع الانكليز . الى الكران ، والكوزار ، واللاغري ، والقورشاني ، والماري ، والبوغني ، ويقولونهم ان سبب هذه المسألة هو حب هذه القبائل للمال وإشتره على ماسود ، لانكليز تاجروهم بالدواء الذي رأوه الانجع فيهم » انتهى

ومما لا يخوز أن نلاحظ أن الإحصاءات التي أوردتها هذا المؤرخ عن عدد هذه القبائل إنما هي عن الوقت الذي كان فيه عدد سكان الهند ١٩٠ مليوناً بدلاً من ٣٢٠ مليوناً عند كتابة هذه السطور فلاحظ صحة الحساب ينبغي إضافة ٣٥ في المائة على الأقل الى الأعداد التي أوردتها ، كما أنه قد وقعت منذ ٤٠ سنة معارك كثيرة بين البريطانيين وهذه القبائل من بعد الوقائع التي ذكرها ، واليك شاهداً ما جرى مع الافريدي :

ورد في دائرة المعارف الإسلامية الآتية الذكر « أن الافريدي هم عدة أئمة هم آدم كليل ، الذين منهم الجافاكي المجاورون لطريق كوهات ولسبيلة خاتاق هم الأكافاكي

الممتدة منازلهم من آكور الى باراه. ثم السكوكي ككيل والكمبر كيل والزا كاكيل ،
والسالكين كيل ، والكامركيل ، والسبباه ويقال هؤلاء الافريدي الخيريون ، يتجمعون
في الصيف الميادين في ناحية تيراه ، ويتزلون في الشتاء الى السهول ، وهؤلاء الخيريون
معدودون في هذه القبائل عشراً وتوحتاً ، وأصعبيهم مغادة ، ولا يزالون يشتون الغارات
على السهول ولا سيما الزا كاكيل الذين هم أقبحهم سيرة . وكانوا الى تاريخ سنة ١٨٩٧
ينباهون دائماً بأن أرضهم لم تطأها قدم فتح ، ولكنهم في تلك السنة نفها رأوا العساكر
الانكليزية الهندية نجوس خلال ديارهم كلها^(١) »

ثم يقول « انهم كانوا ينتقدون مبالغ من المال لأجل أن يتركوا المضائق مفتوحة
للباقية ، وبعد أن استلحقت انكثرة بلاد بشاور لم تعرض لاستقلالهم ، وبقيت تؤدي
اليهم هذه الأعطيات لأجل حرية المرور ، ولكن مضيق ككوهات كان أكثر الاحيان
مسدوداً بسبب المنازعات التي بينهم بحيث ان الانكليز غزوا الجبال كي منهم في غربي
مركوهات سنة ١٨٧٧ و ١٨٧٨ ولكن لم تطال مدة الاحتلال^(٢) ثم انه في سنة ١٨٩٧
أعلن أحد المشايخ الجهاد في بلاد الشينفاري ، فاقبل الصريح بالافريدي والماهموند ، وهاجم
لكارون قلعة لاندى كوتالي وافتتحوها ، وكذلك دخلوا عنوة المواقع العسكرية التي في
جنوبي بلاد الاورا كراي ، جرد الاسكاز جيشاً بقيادة السيرلوكارت ، فاصطلت معارك
حامية دامية ، وأصيب الجيش بخسائر ثقيلة ، ولكن جميع زوايا الديار قد جبت ، وجميع
الفصائل العاصية قد اختص منها . وبعد موقف طويل في ناحية الميادين ، عاد الجيش الى
سهول بارا . ثم جردت حملة ثانية الى أودية خيررو بازار ، وبعد ذلك أطاع الافريدي كافة
وجاروا ينتظمون في جيش الحدود ، ولكن سنة ١٩٠٨ عاد الزا كاكيل الى عيشهم المعتاد
فسبق عليهم جيش الى أودية بازار وبارا ونكل بهم »

ثم ورد في دائرة المعارف « أنه بموجب المعاهدة المتعقبة سنة ١٨٩٣ بين انكثرة والأمير
عبد الرحمن خان ، تخلى الأمير عن بلاد الافريدي وسنة ١٨٩٧ أرسل هؤلاء وفوداً الى

(١) ينبغي أن يعرف أن محور هذا الفصل من دائرة المعارف هو السكازي

(٢) لا بد أن يكونوا قلوباً منهم غداً ، وأيضاً ، لأن عدم حالة الاحتلال لا سيما في نقطة كهذه لا تنطبق

في عادة الانكليز

كابول يستنصر وله على الانكيز فلم يلب ثلثهم « انتهى
فيظفر أن حالة هذه القبائل ومرودها على العرب والاخلال براحة الحدود الانكيزية
منذ استولى الانكيز على الهند . ولا سيما على البنجاب وديار بشاور كانت تدعو الحكومة
البريطانية الى التجزئ بأمير الأفغان المتجزء حرباً تكون عاقبتها اعترافها بالسلطة على
منازل هذه القبائل المتمكن بذلك من الاخذ بنواصيها . وعصاها حصل من الانكيز
حشدها بحيث عظمها عام ١٨٧٨ وقاموا بتجهيزات لا يقصر عليها غيرهم . وتطوع معهم
كثير من أمراء الهند ومن المرتقة من القبائل التي في شمال البنجاب . ومن أمه السيك
الهندية المشهورة بالسلطة والتي لا تقبل في خدمة البأس عن قبائل البانسان السابقة الذكر وزحفوا
بعدد وعدد انضم لهم نخب الخركه . فبعد وقائع عديدة دخلوا كابول بقيادة الموردي
دوريس . وفر شير علي خان الى مزار شريف في القسم التركي من مملكته حيث مات
سنة ١٨٧٩ وكان شير علي قد غضب على ولده يعقوب خان لمقاومته له . وشار « في هرات .
هو يقصر عليه . فأمه ريتا صرف جنوده . وأظهر له العفو عما سلف . فاستدعاه الى
حضرته وأمنه . فمما قدم اليه ألقاه في السجن وبقى مسجوناً الى أن دخل الجيش البريطاني
الهندى كابول فأخرجوه من سجنه . ونصبوه أميراً وعقدوا معه معاهدة غاندامق التي نفى
لهم فيها عن بعض الأراضي بجوار مضيق بولان ورواندى ككورام . وتعهده بقبول بعضه
بريطانية تقم بعاصمة الأفغان فلم تمض على هذه المعاهدة أشهر فلان حتى جرت ثورة في
هذه العاصمة . ودمج الأغالي أعفاه . هذه البعثة بأجمعهم . فعاد الموردي روبرنس بجيشه
ودخل كابول ثانية . إلا أن الأفغان جهروا من خلفه وجاءوا لخصوه في كابول . فخرج
الانكيز يعقوب خان وأشخاصوه الى الهند ودخلوا الامير عبد الرحمن خان بن أفضل خان بن
دوست محمد خان في قبول الامارة . وكان جيش انكيزي في قندهار . فزحف الى كابول
على أن يكون من هناك جلاء جميع الجيوش الانكيزية عن أفغانستان . فلاقاه في الطريق
قبيلة أحد كليل وأذافوه علقم القتال فلم يخلص منها الا بشرى الانفس . ثم حشد أيوب خان
ابن شير علي جيشاً في هرات وزحف به الى قندهار فالتقى بعسكر انكيزي فمكسره .
فأسرع الموردي روبرنس الى قندهار واضطلت الحرب مع أيوب خان . وأدرك الانكيز بهاده
التجربة الثانية انه لما كل جراد مرة وان الأولى اخلاء أفغانستان بأسرها فانفقوا مع الامير

عبد الرحمن على أن يكون هو الأمير وجاؤا مريفاً عن البلاد . فأدار الأمير عبد الرحمن الأمور بحكمة سلم له بها أعالي الشرق والغرب ، ورتب فتوح بلاده وأقام العدل وأرخف الخد في المفسدين ، ووظف نفوذ الحكومة وأسس معمل السلاح ، وأصلح بقدر إمكانه نهر ب الخيش ، ووسع حدود البلاد من جهة الشرق ، واستولى على ولاية كافرستان التي حدى الله أهلها على يده إلى الإسلام فسماها نورستان ، وبالأجل فقد ذاقتم ملكة أفغان في زمانه طعم الراحة ، وعرفت معنى الوحدة . وبما زال يد أمورها إلى أن قبضه الله إليه سنة ١٣١٩ هجرية وفق ١٩٠١ ميلادية . وهو معدود من أفضل ملوك هذا العصر في سداده وحكمه ومضاء عزه . وبلغني أن له تاريخاً مطولاً بالفارسي ذكر فيه ما جريات حياته . وخلفه ولده الأمير حبيب الله خان الذي خاطبت الحكومة البريطانية بألقاب ملك ، وإن كان لم يتمكن من تأسيس علاقات خارجية مع غيرها مما بقي معه استقلال أفغانستان مأوياً بشئ من التقصير لم ينقله قيده الأهمية ولده من بعده .

ولما نشبت الحرب العامة أحب الأتراك والألمان أن يجتنبوا الأمير حبيب الله عن إلى جهنهم وسارت بعثة ألمانية إلى كابول ونالسته في ذلك فكان يعتقد أنه لو ناضى فخرات هذه الحرب لجنى على نفسه وعلى وطنه فمات بأذى حركة أعيط الانسكاز ، وقد يعد عمله هذا مستحسناً لأن حفظ العهد أمر محمود ، والنظر في العواقب من أجل المثاقب . إلا أنه عفا الله عنه ، كان يقدر أن ينتهز تلك الفرصة لطالبة انكسار بكتير من حقوق الأفغان التي ألهمتها أثناء ما كانت أفغانستان في الضيق وذلك نظير أخذ البلاد التي ابتزتها أيها بدون حق والحجر الذي وضعته عليها في الأمور السياسية الخارجية وكمنعها من الحصول على بحر بحري تكون حرة فيه يوردانها وصانراتها . فأهل الأمير حبيب الله ذلك ، ومضى في سياسته على مقتضى مكارم الأخلاق الشرقية التي نأى مياجة العدو في حالة ضيقه ، لا على مقتضى السياسة العمالية الأوروبية التي لا تعرف هذه المكارم بل تعدها من قبيل الخيالات الشرعية ، أو مبادئ الفطرة الأولى التي ليست في شئ من مبادئ المدنية الخاطرة المبنية على الحقائق الراحنة ، وذلك بخلاف ما يدعى الأوروبيون من كون الشرقيين لا يحترمون سوى القوة ولا يتأخرون عن نقض العهود إذا آتسوا من عدوهم الضعف . فيرمون الشرقيين بما هو في الحقيقة دأب الغربيين . ولقد ذهبت أمانة حبيب الله خان مع انكسار سدى إذا

بعد أن وضعت الحرب العامة أوزارها لم يبق من الانكليز أدنى مكافأة على وفائه وكيف
يشال وجميع الخلفاء صاروا بعد الحرب غير ما كانوا أثناء الحرب وسوا عهدهم مع كثير
من الأمم التي نصرتهم في الحرب نصراً عزيزاً . وفي سنة ١٩١٩ وجد حبيب الله خان في
مشناه بجلال آباد مقتولا ولم يعرف قتله ، ولا سبب قتله ، وتنوعت الأقوال ولم يزل من هذه
الغيلة مجهولا ، وسمعت أن مصطفى الصغير الجاسوس الهندي الانكليزي الذي افتضح أمره
أخيراً في انقرة بعد أن قدمها جاسوساً في ثياب صديق ، قد زعم أثناء محاكمته التي آلت
إلى قتله أنه هو الذي دبر مؤامرة اغتيال حبيب الله خان بإشارة من الانكليز ، ولا أعتقد
بصحته ذلك إذ لا يمكن أن دولة عظيمة كدولة انكلترا تقدم على أفعال كهذه ليس فيها شيء
لأمن حفظ الكرامة ولأمن الحكمة ، والانكليز موصوفون بهذين الأمرين . وفضلاً عن
هذا فالمرحوم حبيب الله خان كان للانكليز صديقاً وفياً . وابت بهم صول مدة ماسكة برا
حفياء ، فلا يمكن أن تكون هذه الضرر به منهم بل الأنيق بالعقل أن يكون قتله وقع بمؤامرة
أشخاص متحمسين تقموا عليه شدة محافظته على ولاء الانكليز ، واضاعت فرصة الحرب العامة
التي كان يمكنه في أثناءها أن يسترد كثيراً من حقوق الافغان المقتصة . وإن الذين عرفناهم
من رجال الدولة الافغانية يكتبون زعم مصطفى الصغير . ويقولون ان هذا لم يكن يومئذ
هناك ولا الأمير قتل في المكان الذي عينته من جوار كابول ، بل استشهد رحمه الله في جلال
آباد . وقد ثبت أن مصطفى الصغير هذا افترى روايات كثيرة في تضاعيف استنطاقه في انقرة ،
لا يعلم إلا الله مقصده منها ، ومن جعلها فتحام نفسه في حديث هذه المؤامرة . ثم إن الأمة
الافغانية بعد استشهاد الأمير عوات على مبايعة جلالة ولده أمان الله خان ، مع كون ولي
العهد هو نصر الله خان أخاه الأكبر ، فن حسن الحظ أن عدول الأمة عن ولي العهد إلى
أخيه لم يحدث شيئاً من التلق ، ولا حجة تبي من الكوارث مما يدل على تعقل كل من
الأميرين الآخرين الذين أحدهما لم ينهض إلى الحسام ، ولا أسرع إلى الفتنة لأجل الملك ،
والثاني لم يعادل أخاه الأباخسي ، ولا حجة الحاضر منه على التضييق عليه ، كما كان يفعل الملوك
السابقون . فاستتب أمر الدولة الافغانية على أحسن ما يرام ، والفتنة الكالحة ، ولكن
الأمير الجديد لم يسو على عرش كابول حتى أرسل إلى الانكليز بمطالب أمته التي منها إعادة
الأراضي التي اقتصبوها من ضمن حدود أفغانستان الجنوبية ، والتفرغ عن مرفأ بحري

تكون الدولة الافغانية فيه حرة ، وحق تأسيس العلاقات الخارجية رأساً مع سائر الدول بما كان الأفغان لا يقتلون مطالبون به ، فأبى الانكليز التسليم بهذه الشروط وجر ذلك الى زحف الجيش الافغانى ومن ضافره من قبائل البوتان السابقة الذكر ، واختراقهم حدود الهند ، ودارت رحى الحرب فكانت سجالاً ، وصادت خروج بريطانيا العظمى من الحرب الكبرى ومالى الشعب الانكليزى من سفك الدماء وبذل الفناطير المقتطعة ، وعلم الانكليز بانهم من العقبات فى حرب الافغان وانها ستكون أشد عليهم من الحروب السابقة فجنحوا الى السلم ، وعرضوا على الافغان الهدنة ، وذهب محمود ترزى حين تافى الأمور الخارجية فى كابول الى الهند وانفق مع الانكليز على متاركة السلاح ، وأوفدت انكلترة وفداً الى عاصمة الافغان للتفاوض على شروط الصلح أثناء كون الجيوش من الطرفين سرباطة على العهد ، فالتقد الصلح فى سنة ١٩٢١ على شروط ، أولها استقلال الافغان فى الأمور الخارجية كما كانت مستقلة فى الأمور الداخلية والثانى حق اصرار السلاح من مرقى الهند والثالث تحديد منطقة متحايدة من بلاد قبائل البوتان لان تكون ملكاً لا لانكليز ولا لافغان . ولم ينتظر شاه افغانستان عقد المعاهدة لتأسيس سفارته لدى المهلك لاسيوية والأوربية بل قبل الصلح أرسل سفيراً الى طهران ثم سفيراً الى أنقرة . وعقد مع الأتراك معاهدة متينة لاسلم والحرب ، ثم معاهدة مع حكومة موسكو ، وأرسل اليها سفيراً ثم أول سفرائه فى أوروبا ، وهو الناضل النبيل محمد خان . ثم أوفد الوزير الجليل الجنرال آندولى خان بعثة فوق العادة الى أوروبا لتأسيس سفارته فى عواصمها فبدأ بفارسوفيا عاصمة بولوفيا ثم قدم برلين ، ثم ذهب الى رومنة ، ثم الى باريس ، ثم الى أميركا ، وأثناء مقامه بواسطون دعاه سفير انكلترة فيها باسم حكومة بريطانيا العظمى أن يزور لندن وبمى الدعوة ، ولما جاء الى العاصمة استقبله رجال حكومتها برأ وترحيباً ، الا أنه رأى وزير المستعمرات يفاوضه فى بعض المسائل ، فأبى محمدولى خان الدخول فى أدنى مفاوضة مع وزير المستعمرات ، كما سمعت ذلك من فده ، وقال : لاشغل لنا الامع فطارة الخارجية . فاعتذروا عن هذا الخطأ غير المقصود ، وشرعت الخارجية لتفاوضه فى عقد معاهدة الصلح فأجاب : انما ذلك هو عائد الى الحكومة الافغانية فى كابول ، وهى فى مذاكرة مستمرة مع الوفد البريطانى الذى هناك . ولما تم عقد الصلح أرسلت الحكومة الافغانية عبد الهادى

خان من أئمه نبها، شبانها سفيراً الى لندن، كما انها جعلت غلام صديق خان من أنجب نجبائها أيضاً سفيراً ببرلين، والامير شير أحمد خان سفيراً في رومة، ثم عندما استقال الوزير الجليل الفاضل محمود ترزى خان من نظارة الخارجية التماساً لغروب النفس في أوروبا، بعد ان الثالث مزاجه لكثرة الاشغال التي عاناها عينه الامير سفيراً له في باريس، وهو عن قاموا بتجديدات جلالت لا ينساها له تاريخ الافغان. فانتدب الامير نظارة الخارجية محمد ولي خان الصديق المذكور. ثم ان من قام بخدمة الحكومة الافغانية في أوروبا محمد أدب خان من أجل أدبه دمشق اذ كان هو الممثل للدولة الافغانية في برلين لأول تأسيس السفارة الى أن تعين مؤخراً معتمداً طاً في وطنه الاصل دمشق. وقد كان لحرر هذه السطور حظاً معرفة غزلاً، الاماني باجمعهم، وعندما قدم الوفد الافغاني برلين، احتفلنا بهم في النادي الشرقي الذي برئاسة هذا العاجز ورأينا من ذكائهم وشهامتهم وحبهم ما صدق لنا السوارج المأثورة عن جنسهم. أما الوزير محمود ترزى خان فقد سبقت لنا معرفته منذ مدة مديدة اذ كان وقع بين والده المرحوم غلام خان وبين المرحوم الامير عبد الرحمن خان نفور أدى الى هجرة غلام خان وطنه واقامته بالشام وهناك أسعد الخط بمعرفته عرضاً فكان له نقوى عاطفة أبوية، وأهداني مرة تذكراً نفياً وهو مسج خطه بالفارسي في نهاية الحضرة النبوية، عليها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وكتبه مدحياً بخطه الانفي. وكان رحمة من صناديد الكتاب والكتاب، وابطل الحرب والحراب، وذرف على التسعين، وهو يشوه الفجر ويصل في الجامع الاموي، لا يتخاف يوماً واحداً، وكان معه ولده محمود ترزى خان الذي هو اليوم سفير افغانستان في باريس، وهو الوطني الذي حرر مدة طويلة جريدة «سراج الاخبار» وجاهد في ترقية ادارة بلاده وتنقيف قومه بالفنون العصرية، بقامه البليغ ورأيه الاصيل، ما لم يوفق الى مثله غيره.

ولقد باشر شاه الافغان الحالي تنظيم ادارة البلاد الملكية، وتعليم الجيش وتسلحه على الطرق الحديثة وتوسيع معمل السلاح الذي في كابول، وأرسل عدداً وافراً من الطلاب للتحصيل في أوروبا، من جنسهم أولاده واخوته الصغار، فجعل قسماً منهم في برلين والقسمة الآخر في باريس، وانتدب عدداً من ضباط الانراك لتدريب الجيش، وبعدها من الاساندة والمتخصصين الاوپيين لترقية التعليم والادارة، واستدعى طائفة من المهندسين

لتنظيم الطرق الحديدية ، واستخراج المعادن واستثمار خيرات البلاد فشمسلكة الافغانية
سائرة في أيام الامير امان الله خان الشاه الخاني سيراً حثيثاً الى الامام بحيث يحكم العارفين
أنه لا تمضي ٢٠ سنة على أفغانستان ، حتى نصير أعز دولة في آسية الوسطى ، ونعود ركناً
لشرق والشرقيين . وهي الآن تحتوي على ثيف واسعة ملايين من السكان ، ولما انعقدت
المعاهدة بين كابول وموسكو سنة ١٩٢١ كان من جملة شروطها تغيير ولاية كوشسكة في
الرجوع الى الأفغان ، وهي ولاية على حدود تركستان كان الروس اغتصبوها منذ نحو
أربعين سنة ، وصبر عبد الرحمن خان على ذلك خشية أن يتهور في حرب مع دولة عظيمة
كأروسية لا طاقة له بها . فبعد استرداد أفغانستان بهذه الولاية يتأخر عددها ٦ ملايين نسمة
بعلاقات الدولة الافغانية جيدة مع جميع الدول ، الا أنها متضامنة مع تركيا اضمناً دائماً ،
حتى الأمير أن يصرح السفير انكثرة عندما عقد الصلح معه في كابول وأن يخاطب نفس
ملك الانكليز ، بأن أفغانستان لا يمكنها أن تخلص اليد لانكثرة ما دامت هذه تنصب
العدوان لتركيا مانحاً الخلافة الاسلامية . واعمرى انه لا يوجد في العالم الاسلامي فرد فيه
أرة من العقل الا وهو يمتحن الوثام بين انكثرة وبين تركيا ، وأفغانستان ، ومصر ،
بلاد العرب ، وسائر بلاد الاسلام ، لما لانكثرة من المصالح الشائكة والعلاقات الكثيرة في
الشرق ، وما في الائتلاف بين هذين العنصرين من المنافع الجزية طامعاً . ولكن ما دامت
انكثرة سائرة على الطريقة التي اتبعناها منذ ٢٠ سنة ، وهي السعي في تفكيك أوصال
الاسلام ، واباحة حياه من كل جهة ، استئصالاً لثقافة فونه السبانية ، وتقليد الجميع أنفاده
أن تعدنه نفسه بأدنى وقوف في وجه قوة استعمارية ، وما دامت هي آخذة على نفسها
القيام بمعظم هذه العداوة ، فإن أمد الصراع بين هاتين القوتين لا يزال طويلاً ، وليس من
الرجوع أن الانكليز هم الذين سيمحون في هذه التجارة .

أما القبائل المار ذكرها فقد ازدادت الوقائع بينها وبين الانكليز بعد الحرب العامة
ولا يمضي شهر واحد حتى تأتي جوائب الأخبار بمعركة أو واقعة ، وقد عول الانكليز على
أن هذه القبائل بالطيارات القاذقة من على الكرات المشوبة ديناميتاً ، وهي طريقة عمدت
بها أوربا بعد الحرب الكبرى التي ترقى فيها فن الطيران الى هذا الحد ، فصار لكل
دولة مستعمرة أسراب من هذه الطيارات مرصدة أكثرها لتشكل بالافواام التي تنود على

السيطرة الاستعمارية أو تطالب بحق استقلالها ، أو لا تريد أن تطيع الأحكام الجائرة الجارية عليها . ولا ينحصر عمل هذه الطائرات بالفرق النائر أو العصابة الخارجية ، بل الطريقة المتبعة هي أنه عند ما يبدو من ناحية علامة عصيان أو مقاومة ، ترسل الطائرات فوق القرى أو المدن فتقتل عليها أرحاماً من الديناميت نصف الدبابة وتقتل النساء والأطفال ، ولولا يكن لأحد من أهالي تلك المدن أو القرى أدنى صلة مع النائرين إنما هو الإرهاب ، والقضاء الرعب في القلوب ، وإجراء المثلث هؤلاء ليخشى أولئك . وقد وجدت دول الاستعمار هذه الطريقة أقرب مثلاً وأقل نفقة من تجريد العساكر وتعب الثوار إلى مكائدهم . ولاتكثرة وزارة خاصة بالطيران تنفق سنوياً خمسة ملايين جنيه إنكليزي على طائرات الشرق التي هي مرصدة للبهائل البوتان وأهل الهند وأهل جزيرة العرب والعراق ومصر الخ . كما أن عند فرنسا أثراً مؤلفه من هذه الطائرات تستخدمها في المغرب وسورية . ومع هذا فكل من هاتين الدولتين يدعي أن استلخام هذه الوسائل الجهنمية وقتل النساء والأطفال إنما هو لأجل المدنية



من بعد صدور هذا الكتاب طبعت الأولى جازت في بلاد الأفغان حوادث ذات بال خلاصتها أن الشعب انتفض على أمان الله الملك الذي تولى المملكة بعد والده حبيب الله بن وهزم الثوار جنداه فالتجأ أمان الله إلى القرار من كابول إلى قندهار ومنهم إلى الهند حيث ركب البحر من بمباي وجاء إلى أوربة واختار الإقامة برومه . وتولى عرش الأفغان من بعده نادر خان الذي كان ناصر الحربية لأمر الله عهد أمان الله ثم صار مستقبر لأفغانستان في بار بر ثم استعفى واعتزل وأقام مدة سنوات بمدينة طولون

وتحرير القصة أن أمان الله تولى فيه الميل إلى التفرج والافتداء بالاور بين في كل شيء وأعجبه في هذا الباب مالك مصطفى كمال المستأثر بأمر تركيا ووجد في مصطفى كمال حجة على من خالفه في هذا الرأي وكثر كلامه في القضاء على العادات الإسلامية القديمة ولا سيما حجاب النساء . وكان يزعم ما يزعمه رجال انقرة اليوم من أن التمسك بهذه العادات هو الذي أفضى بالاسلام إلى هذا الضعف وأن طريق النجاة الوحيد للمسلمين هو الافتداء بالاور بين في ما أخذهم ومتاركهم ولباسهم وطعامهم وجميع ما عولوا عليه . وبالاختصار فكل ما رآه الأفرنج حسناً فهو حسن ولولا أن يدون الأفرنج أفندر على معرفة

الحسن من غيره ما كانوا ينجحوا هذا النجاح الباهر الى غير ذلك من التعليقات الانقريية الواهية المردودة بالبداهة وبحجة ان علماء الافرنج أنفسهم معترفون بأن رقي الأمم اللاتى لا يتم الا ضمن مقوماتها الروحية ومشتخصاتها الاجتماعية وبدليل أن الافرنج تقدموا هذا التقدم فى العلوم والمعارف والفنون والصناعات ولبنوا عاصمتين بالتواجد على تقاليدهم المسيحية لا يخرجون عنها وقد يكونون أشد اعتصاما بها من المسلمين بتقاليدهم

فأما ان الله حين أعجبته خطة مصطفى كمال فى هذا الموضوع ويقال ان محمود ترزى خان الذى هو أبوزوجته وناظر الخارجية عنده كان يزى له هذا المسلك وان العلاقة الوثيقة التى كانت بينه وبين الحكومة التركية السكالية هي التى كانت أكثر السبب فى جموحه الى هذه الخطة

وسنة ١٩٢٨ أراد أمان الله أن يقوم بزيارة أوربة والبلاد الشرقية فجاء الى مصر ومعه زوجته الملكة تريا ووافاه اليها محمود ترزى خان حواء قادمًا اذ ذاك من أنقرة . فظهر ان مصطفى كمال كان أرسل الى أمان الله بوجوب الظهور فى مصر بظهر التفرنج سوى كان الغازى قد حل عليه أهل تركيا وجاء ثقيلًا على الشعب التركى ورأوا أنفسهم مفتردين عن العالم الاسلامى فكان من جملة سياسة مصطفى كمال أن ينشر عادة سفور النساء وليس القبعة وعادة الرقص المختلط وغير ذلك من الأمور التى أوجبها على الأتراك وأن يعمل عليها المسلمين من غيرهم كما جرى منه مؤخرًا فى تقاضيه من سفير مصر بانقرة عبد الملك بك حجة أن يتخلع طربوشه فى حفلة رسمية مما أدى الى منازعة بين مصر وتركيا وصارت مسألة دولية بينهما فلا شك فى أن محمود ترزى وصل الى مصر متزودًا تعليقات مصطفى كمال باشا الى أمان الله خان بأن يبدأ بفيد التقاليد الاسلامية من مصر لأن الناس حطوا من الملكة تريا دخلت الى مصر متحجبة على عادة نساء المسلمين وانها بدأت بالسفور فى مصر . وكذلك بدأ أمان الله بلبس القبعة فى مصر وأفضى الى الصحفيين بتحديث معناه وجوب غلب الشعوب الاسلامية عن أزيائها الحاضرة . وذهب أمان الله خان الى الجامع الأزهر بالقبعة فبعد ان كان العلماء قد اجتمعوا هناك اعظاماً لتدويمه عندما ما شاهدوه آتيا بالقبعة الصرغوا مشمزين ولكن ملك الأفغان لم يكن عنده يومئذ الا الرغبة فى تقليد مصطفى كمال وهذا الذى هوى به عن عرشه

ثم جاء أمان الله إلى أوريته مع الملكة تريا وزار عاصمة إيطاليا ثم عاصمة فرنسا ثم عاصمة سويسرة ثم عاصمة ألمانيا ثم موسكو ثم انقرة وغيرها ولقي في كل مكان إكراماً وحفاوة إلا أنه كانت أخبار نشرته وسفور زوجته قد وصلت إلى أفغانستان وهاجت عليه رجال الدين والشعب الأفغانى

واند كان أمان الله يكره علماء الشرع الإسلامى في مملكته ويحب خضد شوكتهم افتداء بجده عبد الرحمن خان لكن جده كان يقهر رجال الدين ويحط من مكاتهم وفي الوقت نفسه يحافظ على الدين من حيث هو وعلى العوائد الإسلامية فلم هذا أمكن عبد الرحمن خان أن يقهر علماء زمانه بدون أن يتعرض لخطر الثورة في بلاده بخلاف حفيده الذى بافداه على ما أقدم عليه من نيل العوائد الإسلامية والتشبه بالافرنج في السكى والجزئى قد حاج عليه حتى العلماء وأوجد لهم عليه طريقاً فهاجوا عليه القبائل وأشاعوا أن الملك استخف بالدين واستهتر واقتدى بالافرنج في ما خذ ومثاركة وبدأ الهيجان على أمان الله في غيابه إلا أن الثورة لم تشتعل عليه إلا بعد أوبته إلى كابول ولم تنحصر أسبابها في التفرنج وحمل النسوة على السفور بل انهم الملك أعداؤه بأنه غلى من مال الدولة وذهب إلى أوريته يتفرقه وينفق على لذاته بينما قد مضى أشهر على الجند وهم لا يفيضون أرواقهم ولا روائهم فتغصرت عليه قلوب عسكره . وعند ما أثار العلماء قبائل الأفغان على الملك كان أكثر الناس قد افضوا من حوله وضربت الحرب فانكسر الجند الذى كان يقى معه ونار رجل اسمه ابن السقا أصلى أبيه سقاء من رعاى الناس وهو نفسه كان من قطاع الطرق فاعصوب حوله كثير من الدعار ومن كانوا يتبعون بالملك الدوائر وهاجوا كابول وكادوا يدخلونها ففر الملك إلى قندهار التى هى مركز عشيرة الدراية التى ينسب إليها بيت الملك وترك الملك لأخيه الأكبر غياث الله خان ظاناً أن المشكل ينحلّ بزوله هو عن العرش . وبايع رجال الحكومة أخاه وبقى ملكاً تحوياً من ثلاثة أيام إذ دخل ابن السقا هذا بأهواله لعموده أيضاً ولحق بأخيه ونسلم ابن السقا زمام الأمر وقتل وقتك وحرض القبائل على قتال أمان الله والزحف إليه في قندهار فأحس هذا بنقل الجثة وفر بالطيارة إلى الهند ومنها هجر إلى أوريته وأول مدينة صعد إليها رومة واستقر بها لسبب لا نعلمه

أما ابن السقا فقد عضد رجال الدين واستوسق له الأمر وبقيت الأمرة بسده عند أشهر وربنا كان قد طال حكمه لولا ما حدثت به نفسه من مبايعة الناس له أميراً غير مكثف

بالوزارة . ولم يكن الافغان يقيموا السقا اميراً لئلا ينفذ على نفسه . وذهب نادر خان من
 طولون ومعه اخوته وزحف الى كابول بالقبائل الموالية ليثالث وعضده رجال الدين الذين
 كانوا لا يرضون بالسقا اميراً ولكنهم يخشون رجوع امان الله فنهزم جنود السقا وقبض
 عليه وقتله ومزق شمل ابياعه واستوسق له الامر وسار بالرعية سيرة الامير العادل الخازم في
 غير عطف ، الشقيق في غير ضعف واقتنى سنن امان الله في الاعتناء بالعلم والتعليم وتنظيم
 الجيش وترقية وسائل العمران الخفي لكن بدون تعرض للمسائل الاجتماعية ولا اثبت
 احداث انقلابات في الارباب والعوائد والتقاليد كما أراد أن يفعل ابن عمه امان الله . ولقد
 خرجت بلاد الافغان من هذه الثورة منهوكة القوى فشرع نادر خان برأب الصدوع
 ويضمم الجروح ونرى جميع الناس يتمنون له النجاح ويرجون الخير والفلاح لهذا الشعب
 الباسل المجيد الذي هو في طبيعة الشعوب الاسلامية في الزكاة والحيمة وكرم المهره وشدة البأس
 اما امان الله فبقى مدة يترقب ان يدعو نادر شاه الى الاستواء ثانية الى العرش
 ولكن نادر شاه احتفظ بالعرش لنفسه لا لمجرد حبه لامارة ولا مطاوعة لنفسه الامارة بل
 نزولاً عند ارادة الالهالي وعلماء الشرع . فكان ذلك مما أحفظ امان الله خان وأحدث بين
 المسلمين السابق واللاحق من الخفاء ما كل انسان يود به .

ولما كانت الحوادث التاريخية التي نهم التاريخ العام أقرب الى الثقة فيما اذا استقناها
 الراوى من منابعها الاصلية وجدت فيها عن اصحاب الشأن رأياً رأيت ان اختم هذا البحث
 عن افغانستان برواية ما جرى من الحديث بيني وبين جلالة امان الله بعد نزوله عن العرش
 الافغانى

كنت جسد معجب بامان الله في الدور الاول من امرته كما يتضح من الفصل الذى
 كتبت عنه في الطبعة الاولى من هذا الكتاب وذلك لكونه تم استقلال الافغان واجتهد في
 ترقية شؤون تلك الامة وكانت لى علاقة بغير آخر ورحله يوم كنت رئيساً للنادى الشرقى
 في برلين سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٢٣ ولما تألفت جمعية لثانية افغانية في تلك العاصمة والتخبط
 لها رئيس أول من الالمان انتخبت أنا لها رئيساً ثانياً . وكانت ترد لى الكتب من كابول
 متضمنة الشكر من جانب امان الله خان عما كنت ابدله من الجهد في خدمة الدولة الافغانية .
 ولهذا لما سمعت بخبر قدومه الى الغرب كنت متحفزاً لاستقباله وتقديم الواجب لجلالته
 كرجل سبقت له معه علاقة الا انى لما علمت بما ظهر منه من مصر ثم في اوروبا من مشايعة

السياسة الانقرية التي لم أوافق ولن أوافق عليها وعلمت ان الملك فؤاداً تصحح بالحفاظ على أوامره قومه وعوائلهم ولم يسمع نصيح جلالة الملك فؤاد أمست عن السلام عليه حتى بعد حججه الى لوزان حيث كنت مقبلاً ونكرت عتاب طائفة الى على ذلك ولم أفعّل . وكنت متوقفاً ان لا تطول اقامة امان الله بعد هذه المظاهر التي ظهر بها في بلاد كافرستان أهلها شديداً الاستمساك باوضاعهم الدينية والقومية .

في شهر رمضان سنة ١٣٤٥ هـ جاء الملك امان الله الى سويسرة ومعه أديب مان الاديب المسمى الذي في معه محبة من ايام برلين وهو خال الملكة تريا ونزل في مونترو وكافني أديب خان بالهاتف لأجل السلام على الملك فذهب من لوزان الى مونترو وسلمت عليه وتطقت هو فاعاد الى الزيارة بمنزلي بلوزان . وحررت بيني وبينه عدة محاسن تخلينا فيها جميع المسائل التي أوجبت الانقلاب الذي جرى في افغانستان ولم اكتم عنه شيئاً من الانتقادات التي وجهتها على سياسته وحررت بها بعض مقالات في الجرائد العربية فكان جوابه عن ذلك انه قسم ما عزي اليه من الامور الى ثلاثة اقسام قسم أقر فيه بالخطأ والتسرع وقال ان مجلس وزرائه لم يفهمه له . وقسم قال انه حرت فيه مبالغة كثيرة بحسب عادة الرواة في المبالغة . وقسم أنكر وقوعه منه بشاناً وقال انه من باب الافتراء عليه . واخذ يذكر لي متعدد خدماته للامة الافغانية . وأجبت بان هذه الخدمات لم ينكرها أحد ولكن الناس يتصورون لو اتفق مع ابن عمه نادر خان حياً براحة هذه الامة التي أتعبت القننة التي وقعت فيها واستمرت أكثر من سنة .

ثم ذكر لي رغبته في اداء فريضة الحج الشريف وقال ان الوقت لم يسمح له بادائها يوم جاء الى اوزبكية ماراً بالشرق الادنى مع انها كانت في نيته فبينت له ان ذلك كان أيضا من جهة ما أخذ الناس عليه ولكن من الممكن تلافي هذا الأمر . فايدى لي رغبته في الكتابة بخلاصة ابن سعود في عزمه على الحج ذلك العام . فقلت له ان مثل جلالاته ينبغي في الحرمين الشريفين كل الاجلال الملائق بمشأله وان الملك ابن سعود من أحسن خلق الله وفادة ومعاملة لكل قادم فكيف اذا كان القادم ملكاً من ملوك الاسلام . ومع هذا فقد كتبت الى جلالة ملك الحجاز ونجد بنية الملك امان الله الحج تلك السنة . ولما توجه الى الحجاز اداء الفريضة بمأمله الملك ابن سعود معاملة الأخ لاخيه وعاد الملك امان الله من مكة الى رومة حيث هو مقيم الآن وحيث لا يرى الناس لاقامته بها وجهها .

المسلمون في الصين

المقدمة

مسلمو الصين^(١) كانوا يسوا من هذه الدنيا فلهذا نمت عنهم قليلة والروايات بشأنهم متناقضة وإلى هذه الساعة لم يعرف المؤرخون كيف كان وصول الاسلام الى الصين. أوصل إليها بحر أم سريفي الطراد أم وصل برأ بطريق تركستان وما وراء النهر كما أن الجغرافيين وعلماء الاحياء الى اليوم لم يتفقوا على عدد المسلمين الصينيين فمنهم من يجعله عشرين مليوناً ومنهم من يجعله خمسة وعشرين مليوناً ومنهم من يقول ثلاثون ومنهم من يقول أربعون وكثيرون أكدوا القول بأن في الصين ٦٠ مليون مسلم ومن هؤلاء بعض علماء من مسلمي الصين جاءوا الى الاساتذة ومصر وأكدوا أن المسلمين هناك لا يقفون عن سنين مليوناً وكلمات روى لي مستشار سفارة الصين في برن قاعدة سوريسرة وبخلافه قال غيرهم فأكدوا أن مسلمي الصين لا يزيدون على عشرة ملايين وأن بعثة أولون Mission d'Ollone التي أرسلت بمساعدة نظارة المعارف الفرنسية وهدت بعض أقطار الصين لا تجد المسلمين يزيدون على خمسة ملايين في جميع بلاد الصين وإن كانت تقول أنها لا تقدر أن تحزم بشئ* .
وأما دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ، فتقول انه لا يمكن الاعتماد على قول ونيف من جهة العدد ولكن برو ومهال Broomhall أرسل سؤالاً الى نحو ثمانمائة شخص من أهل الصين فجاءه نحو ٢٠٠ جواب من أما كن مختلفة فأستخلص ما يأتي :

ولاية كانسو أقل ما يقدر فيها مليونان من المسلمين ومعظم ثلاثة ملايين ونصف مليون . والمسلمون في كانسو كثيرون في غربي هذه الولاية ومواليدهم تزيد بالنسبة على مواليده الصينيين ويوجد نواح خلت من الاسلام بعد الثورات التي جرت في « ليانغ شوفو » « يني سوي » ٧٠ مساماً . وفي « هسي تشنغ فو » يوجد ٢٥٠ ألفاً وفي « لان شوفو » قاعدة الولاية ٢٥ ألفاً ولهم جوامع عظيمة وربما منعهم بسبب الثورات الأخيرة من السكنى في داخل المدن فسكنوا في الضواحي وكانت لهم جوامع فيها كما هو الحال في

(١) راجع صفحة ٢٤٤ و ٣٠٠ من الجزء الأول

« نينغ هيا » و « نينغ ايانغ » .

ولاية « شنسي » كان فيها قبل الثورات مليون مسلم ولا يظن أنه باق فيها اليوم أكثر من خمائة ألف . ويوجد في « سونغ فو » سبعة جوامع وفي (تشونغ فو) ثلاثة ولاية شانشي يقال ان فيها ٢٥ ألف مسلم .

ولاية (تشيلى) الاحصاءات تختلف كثيراً فيها ما يجعل مسلمي هذه الولاية ٢٥٠ ألفاً ومنها ما يجعلهم مليوناً وفي باكين من ٣٠ الى ٤٠ جامعاً ومنها المسجد الأعظم (نين شيه) الذي يدرس فيه على رضا التركي . ويقدر عدد المسلمين فيها بعشرة آلاف . وفي أرباضها مسلمون كثيرون . كذلك في الشمال من جدار الصين الكبير عدد وافر من المسلمين .

ولاية « شانتونغ » هم فيها من ١٠٠ الى ٢٠٠ ألف نسمة .

ولاية (هونان) هم فيها أكثر من ٢٠٠ ألف نسمة في مدينة (هوى شينغ فو » أربعون ألفاً والقرى المجاورة كلها مسلمة وفي (شينغ شو) عشرة آلاف وأعلى « هوى نين شى » كلهم مسلمون ومساجدهم كثيرة .

ولاية (كيانغ سو) مفلون أن فيها ٢٥٠ ألف مسلم . وفي « لانغ كينغ عشرة آلاف لهم ٢٥ جامعاً

ولاية « سنشوان » ليس عندنا معلومات راضية الا عن قسم منها فيه ٥٠ ألف مسلم والمفلون أن الولاية كلها نحوى ٢٥٠ ألفاً . ومركز الاسلام هو في الشمال الغربى من البلاد مثل (سونغ بان نينغ) ويتمو الاسلام كثيراً على حدود التبت . وبلدة (كيوشياو) فيها ١٢ اماماً و ١٠٠ أهونغ (أى عالم)

ولاية (كوى تشوا) لا يوجد فيها أكثر من عشر آلاف مسلم وطهم أربعة مساجد .

ولاية (ينان) يختلف الاحصاء فيها من ١٦٠ ألفاً الى مليون . وقد نسخت الثورات من بلاد الاسلام فيها جانباً كبيراً وان مدناً كثيرة صارت قاعاً صفصفاً . ويقال ان مسلمي ينان يخفون عددهم الحقيقي اجتناباً لمخاوف الحكومة الصينية . ولا يختلف مسلمو ينان عن الصينيين لا في المذهب ولا في الفكر ويظن دافيز Davies أن المسلمين في السهول هم أضعاف

مضاعفة عمالهم في الجبال وانهم ثلاثة في المائة أي ثلاثمائة ألف نسمة لا غير . وأما سوليه
Soulie ففي مجلة العالم الاسلامي سنة ١٩٠٥ حزرهم من ٨٠٠ ألف الى مليون وكذلك
المفسر رود يقول ان في شان مليوناً من المسلمين وعلى كل حال صاحب Thiersant
صاحب كتاب (الحمديّة في الصين Le Mahanachisme en Chine) بأن مسمى شان هم
أربعة ملايين هو بعيد .

ولاية « هوبه » ليس فيها أكثر من عشرة آلاف وفي (فوشانغ) ثلاثة مساجد
في (هانكو) مسجدان

ولاية (كيانغ سي) هم أكثر قليلا من ٢٥٠٠

ولاية (آن هوي) فيها أربعون ألفا ويكثرون في شمالها وفي العاصمة (انكينغ)
سنة آلاف ومسجدان

ولاية « تشيكيانغ » فيها ٧٥٠٠ فقط . ومدينة (حانغ تشوفو) التي يدكرها
جغرافيو العرب وشاهد فيها ابن بطوطة محبة اسلامية عظيمة غنية لم يبق فيها اليوم الا
ثلث من العائلات ونحو أربعة مساجد .

ولاية (كوانغ تونغ) فيها ٢٥ ألفا وأما هانسو التي يسميها جغرافيو العرب
تشان . وابن بطوطة يقول لها (سيني كالان) فلم يبق فيها سوى ١٠ آلاف مسلم وخمس
مواقع .

ولاية (كوانغ سي) فيها من ١٥ الى عشرين ألفا منهم ثمانية آلاف في العاصمة
(كوي لين) وفي هذه المدينة وفي (فوتشو) ستة جوامع .

ولاية (فوكيين) فيها ألف مسلم فقط وهم مساجد في (آموي) وفي (فوتشو) وفي
(تشانغ تشوفو) ولا يوجد في آموي أكثر من أربعين الى خمسين مسامحهم من طبقة
أموري الحكومة .

ولاية منشوريا فيها ٢٠٠ ألف مسلم منهم في مدينة موكدن ١٧ ألفا .

ولاية مونتغوايا : المسلمون فيها هم في الجنوب واحصاؤهم متعذر .

أما التركستان الصيني وان لم يدخل هنا فلاحصانيون يجعلون فيه من مليون الى
مليونين وأربعمائة ألف مسلم .

ونتيجة هذه الاحصاءات ان حدها الأصغر هو ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف وان حدها الأعظم هو سبعة ملايين واربعمائة ألف . ومن أغرب الغرائب ان الفرنسيين الاوربيين يناقض بعضهم بعضاً في الشهادات في مثل ان بعضهم يذكر وسطاً اسلامياً عظيماً فيه المدارس والمساجد والآخرين يقولون اننا لم نشاهد من ذلك شيئاً . « انتهى نصري عن الانسيكاو بيديّة الاسلاميّة » .

على أن نرسلان صاحب كتاب (الحمدية في الصين) الواقع في مجدين يحصى المسلمين ٣٥ مليوناً في الصين وكذلك الجغرافي الفرنسي الشهير البرنار ككنوس يقول في جغرافيته العامة ما يأتي :

« ان المسلمين هم بال كبير في المملكة الصينية وقد حزرهم سكانشكوف بعض من مليوناً ولكن هذا العدد يظهر ضئيلاً بالقياس الى اقوال مؤرخين آخرين من الصين ففي ولاية كانسو كان المسلمون هم الأكثرية كما أنهم كانوا في كثير من نواحي شمال الصين نحو ثلث السكان ويجب أي نحسب معهم البوغيان وسائر مسلمي دونغاريه وكوچو و تركستان الشرق لأجل أن نعلم أهميتهم وبرايم الانسان أعلى درجة من سائر أجناسهم وأحر نفوساً وأصرح نظراً وفي ولايات غربي الصين يقتلون السلاح وهم لا يشربون المسكرات ولا التبغ ولا الافيون فتجددهم أصبح اجساداً من أبناء الملأ الأخرى ويوجد بينهم ظلمن يجعلهم أسعد حالاً وأعظم روة من غيرهم ويفرضون على جماعتهم ضريبة معلومة نظير العشر من الدخل لأجل اتفاقية في مصالح الجماعة وهذا في ولايات كانسو وشنسي وفي بلاد ينان عندهم مدارس يتعلمون فيها العربية ويفهمون معاني القرآن كما ان الصلاة هي في كل مكان بالعربية وفي كانسو يوجد مئات من الجوامع هم ان التجارة في الشمال تكاد تكون منحصرة في أيديهم لاسيما تجارة المواشي فتجددهم هم الذين يبيعون باكين وسائر المدن الشمالية الساحلية الخ » .

وفد همت مسألة إسلام الصين دول أوربا كثيراً لأنها توجست ولا تزال تنوجس خيفة من انتشار الاسلام في الصين الى حد أن يصبر هو الغالب على تلك المملكة التي عددها يزيد على اربعمائة مليون فإذا قدر الله دخول هذه المئات من الملايين في الاسلام حصل انقلاب في وجه العالم .

الاسلام في الصين

والاسلام قديم الهجرة في بلاد الصين بذكر الصينيون أن أول ظهوره بين قهرايينهم كان لعهد السلطان (تايستونغ) وذلك في القرن السابع للمسيح وإن أول داخل من المسلمين إلى تلك الديار رجل من عصبة النبي يقال له ابن حزة جلا إلى الصين بثلاثة آلاف مهاجر ونزلوا في (سنغان فو) وأنه جاء على أثرهم مسلمون آخرون من طريق البحر وأقاموا بجهات يوانان . ويذكر مؤرخو الصين أنه في نواحي سنة ٧٥٨ أقبل على بحر الصين السفلى من العرب بأختون كل سفينة غصبا فعانوا في تلك البحار وجاسوا خلال الديار واكتسحوا ضواحي كنتون واحتلوا على مافي الأهرام السلطانية التي هناك . وهذه تياشير دخول العرب لتلك البلاد بحسب ماورد في تواريخ الصين .

ولم أجد إلى الآن في الكتب التي طالعته من كتب العرب أثرأ لقصة ابن حزة هذا ولا ما يوافقها وإنما روى المسعودي في تاريخه قصة تحكيها من بعض الوجوه تؤيدها الاختصار . وهي أن رجلا من فرينس من ولد هبار بن الأسود . خرج إلى مدينة سبراف . كان من أرباب البصرة وذوي الأحوال الحسنة . ثم ركب منها في بعض مراكب بلاد غنات . ولم يزل من مركب إلى مركب . ومن بلد إلى بلد . إلى أن انتهى إلى بلاد الصين إلى مدينة (خانقو) ثم دعتهم همة إلى أن سار إلى ديار ملك الصين . وكان الملك يومئذ عاتية جدان وهي من كبار مدتهم فأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب . فأمر بعد هذه المدة الطويلة بإزالته في بعض المساكن والراحة العلة بما يحتاج إليه . وكتب إلى الملك المقيم بخانقو يأمره بالبحث عنه . ومسألة التجار وعمه يدعيه من قرابة بني العرب صلى الله عليه وسلم . فكتب صاحب خانقو بصحة نسبه . فأذن له الوصول إليه ووصله بمال واسع وأعادته إلى العراق .

ويظهر من كتب العرب : أن أول صفع عرفوه من بلاد الصين هو كاشغر . وذلك سنة ست وتسعين للهجرة إذ غزاها قتيبة بن مسلم الباهلي في خلافة الوليد بن عبد الملك الأموي . قال ابن الأثير الجزري في تاريخه أنه سار وحمل مع الناس عيالانهم ليضعهم بسمرقند فلما عبر النهر استعمل رجلا على معبر النهر ليمنع من يرجع إلا يجواز منه .

ومضى الى فرغانة وأرسل الى شعب عصام من يسهل الطريق الى كاشغرة وهي احدى مدائن الصين فغنم وسبي وأوغل حتى بلغ قريب الصين فكتب اليه ملك الصين أن ابعت الى رجالنا من يفتا نخبرني عنكم وعن دينكم . فانتخب فتية عشرة رجال لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصالح فأمرهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخبز والوثني وكان منهم هبيرة ابن مشمرج السكلافي فقال لهم اذا دخلتم عليه فأعلموه اني قد خلقت اني لا أنصرف حتى أمأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم . فساروا وعليهم هبيرة فقال لهم ملك الصين قولوا لصاحبكم ينصرف فاني قد عرفت قوة أصحابه والا بعث اليكم من يهلككم . قالوا : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وأخرها في منابت الزيتون . وأما نحن فلك ايأنا بالقتل فان لنا أهلاً اذا حضرت فآكرمها القتل لئلا نكرهه ولا نخافه . وقد علمت أن لا ينصرف حتى يطاء أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية . فقال فأننا نخبرجه من يمينه وتبعث تراب أرضنا فيطأه وتبعث اليه بعض ايماننا فيختمهم وتبعث اليه جزية يرضاه . ثم أجازهم وتبعث بما ذكر اني فتية فقبيل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطئ التراب . فقال سواد ابن عبد الملك السلوي :

لا عيب في الوقسد الذين بعثهم للصين ان ملكوا طريق المسج
كسرو الخفون على الفدى خوفا الردى حاشى الكرىم هبيرة بن مشمرج
ادى رسالتك التي استدعيت فأناك من حنت اليمى بمخرج

ووصل الخبر الى فتية في هذه الغزاة يموت الوليد ثم قتل فتية في السنة نفسها ولا يبعد انه لو بقي حياً لاستألف الكرة على الصين لما هو معهود من بعد همنه في الجهاد . ولا شك أن الاسلام كان قد دخل في البلاد منذ ذلك الوقت وكثرت أتباعه ومازالوا على نمو وازدياد يلحظ ذلك من تضاعف الحوادث المذكورة في تواريخ العرب فقد ذكر ابن الأثير انه في سنة أربع وستين ومائتين ظهر ببلاد الصين انسان لا يعرف جمع غماراً من العامة وأهل الثمر وقصد بهم مدينة خائفو وحصرها . فل وهي حصينة وطمانهر عظيم وبها عالم كثير من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس وغيرهم من أهل الصين . هذا في القرن الثالث للهجرة وأما بعد ذلك فترى الأخبار عن مسلمي الصين كثيرة : نقل الامام أحمد القلقشندي المتوفى سنة ٨٤١ عن الشريف حسن بن الجلال السمرقندي وكان من السفار ومن جال الآفاق

ودخل الصين وجلب آفاقه وجلس خلاله انه قال ان من عجائب ما رأي في مملكة القان (أي الخان) انه مع كفره في رعاية من المسلمين أهم كثيرة وهم عنده مكرمون محترمون ومنى قبل أحد الكفار مسلماً قتل القاتل الكافر وأهل بيته ونهبت أموالهم وان قتل مسلم كافراً لا يقتل به بل يطلب بدنه ودية الكافر عندهم جاز لا يطلب بغيره .

ولم يدخل الاسلام بيت الملك في تلك البلاد الا ما كان ببلاد المغول في ذرية جنكيزخان وفي كاشغر . قال ابن خلدون في الجزء الخامس من تاريخه عند ذكر الترك انه كانت لهم دولة ببلاد تركستان وكاشغر وان ملوكهم أساموا بعد حذر من الخلة على بلادهم وملوكهم وكان بينهم وبين بني سامان القاشغريين فيها وراء النهر بدولة بني العباس حرب وسلم .

قال يحيى بن أحمد بن علي النسائي كاتب جلال الدين خوارزم شاه في تاريخ دولته ان مملكة الصين منقسمة من قديم الزمان على تسعة أجزاء كل جزء منها مسيرة شهر ويتولى كل جزء منها ملك يسمى بلغتهم خان ويكون نائباً عن الخان الأعظم وكان جنكيز أحد الخانات المذكورين فتغلب عليهم جميعاً وصار الملك الأعظم . وفي كتاب ابن فضل الله تحكيميا عن صاحب عطاء الدين عطاء ابن دينة ودين قومه كان الجوسية حتى ملكوا الأرض واستفحل دولتهم بالعراق والشمال وما وراء الهند فأسلم من ملوكهم من هداه الله للاسلام . وذكروا ابن خلدون في السكلام على ملوك بني جغتاي تركستان وكاشغر وما وراء النهر انهم كانوا أولاً كافراً على دين الجوسية يعرضون عليها بالفرجة فصار الملك الى ما بين منهم أسلم سنة خمس وعشرين وسبعمائة وجاهدوا وأكرم التجار المغردين .

وذكر الملك المؤيد صاحب جلاء في تاريخه في خبر الملوك بني دمرش خان وهو من أولاد جنكيز خان انه لما مات دوشى خان ولى مكانه ابنه فاشو خان ثم مات وولى بعده درصو خان ثم مات فولى بعده ابن أخيه واسمه بركة فأسلم على يد شمس الدين البخارى وكان مقبلاً ببخارى كتب اليه بدعوه الى الاسلام فأسلم وان بركة هذا أتمم الرحلة الى لقاء شمس الدين فلم يأذن له في الدخول حتى تطارح عليه أصحابه وسهلوا الاذن ببركة فتدخل ووجد اسلامه وعاهد الشيخ على اظهار الاسلام وأن يحمل عليه سائر قومه لحملهم واتخذ المساجد والمدارس في بلاده وفرب العلماء والفقهاء ثم ذكر المؤرخون اسلام أربك بن طغرلجاي من ملائمتهم واسلام تسكدار بن هولاءكو وخربندا بن ارغو ثم أحمد بن هولاءكو .

وفي مختصر الدول لأبي الفرج الملقب بمسورة كتاب كتبه إلى سلطان مصر في ذلك الوقت جاء فيه « بقوة الله بإقبال قائل فرمان أجد . أما بعد فإن الله تعالى بسابق عنايته وبتور هدايته قد كان أرسلنا في عنقوان الصبا ورعان الهداية إلى الأقرار برؤيته والاعتراف بوحدة الله والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته (إلى أن قال) وأنقذنا أفضى القضاة قطب الدين والاتبك بماء الدين وهما من ثقات هذه الدولة القاهرة ليعرفاهم طريقتنا وينتفق عندهم ما ينطوي عليه عموم المسلمين جيل سفتنا وبنينا لهم أنا من الله على بصيرة وأن الإسلام يجب ما قبله الخ » .

وقال القلقشندي (في صبح الأعشى) أن أول من أسلم من ملوك هذه المملكة ترمشيرين فأسلم وأحسن إسلامه وأخلص وأيد الإسلام وقام به حق القيام وأمر به أمراء وعساكره وذكر أيضاً عن بكدار أنه أسلم .

وقد بنى الإسلام في أعقاب الأويغور طائفة جنكيز خان إلى يومنا هذا . وفي جغرافية البرز ركلوس أن الأويغور والطائغون سكان بلاد كالمو كانوا قديماً من عبدة الألاما ومن النساطرة فأسلموا وأسلم بهم جميع سكان الشمال والغرب من مملكة جغتاي ثم ازداد عددهم بمهاجرة المهاجرين من أهالي التركستان الشرقي ومسلمي المغول الذين بقوا من عهد تيمورك وبهذا صارت الأغلبية للإسلام في هذا القسم من مملكة الصين .

ولما دخل ابن بطوطة الصين على ما ذكر في رحلته كان الإسلام فيها غنياً وافراً حسب ما يفهم من كتابه فهو يقول في الجزء الرابع من رحلته : وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين يفردون فيها بسكنائهم ولهم فيها المساجد لأقامة الجاعات وسواها وهم معظمون محترمون .

ولما ذكر مدينة زيتون قال : وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للإنسان بها البستان والأرض وداره في وسطها كمثل ما في بلدة سجلماسة في بلادنا ومهدا عظمت بلادهم والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة . ثم قال عمن تعرفه من صدور تلك البلاد وجاء إلى قاضي المسلمين تاج الدين الأردوبي وهو من الأفاضل الكرماء وشيخ الإسلام كمال الدين عبد الله الأصفهاني وهو من الصالحاء وجاء إلى من كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزي أحد التجار الذين استندت منهم حين قدومي على الهند وهؤلاء التجار اسكنهم في بلاد

الكفار اذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح وقالوا جاء من أرض الاسلام وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنياً كواحد منهم .

وقال عند ذكره مدينة صين كلان ان بعض جهاتها بلدة المسلمين لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولهم قاض وشيخ ولابد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الاسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة اليه وقاض يقضي بينهم وكان تزول عنده أوجع الدين التجارى وهو أحد الفضلاء الأكابر وذوى الأموال الطائلة .

وذكر عند وصوله الى مدينة قنجنغر ان المسلمين فيها يسكنون داخل السور الثالث وانزل عند شيخهم ظهير الدين القرلاقي وقال عن الخنساء انها ست مدن كبار وان بالمدينة ثمانية منها مسكن اليهود والنصارى والترك وبالثلاثة مسكن المسلمين وبها المساجد والأولاد ثمان بن عفان المصرى وهم كبار المسلمين فيها زاوية تعرف بالعثمانية وبها طائفة من الصوفية والمسلمون كثيرون في هذه البلدة .

والظاهر أن الاسلام ما برح ينتشر في آفاق الصين حتى بلغ عدد أهله عشرات من ملايين . زعم سكانشوف أنهم عشرون مليوناً فقط وذهب الأكترون الى أن عددهم فوق هذا بكثير وأحصاهم صاحب كتاب (Mhaumetisme en Chine) المخرجة في الصين) حنة وعشرين مليوناً وزعم بعضهم أنهم أربعون مليوناً وقال آخرون أنهم يربون أيضاً على ذلك وان السواد الأعظم في ولاية كانسو هو منهم وهناك مدينتا سالار وكنسكياو يحيط بهما رجال الطلاب والمتفهمين من جميع أقطار الاسلام الصينية . وقد أحصى عدد المساجد في بعض مدن كانسو فبلغ مئات وهو ما لم يعهد إلا لعواصم الاسلام الكبرى مثل الاسناتة العالية ودمشق والقاهرة وان كثيراً من ولايات الصين الشمالية كلها من المسلمين وهم أهل التجارة والسكك والعمل ولذلك تجدد ما بينهم أجيال وأزواج من طائفة الصينية وكثيراً ما يأخذون أولاد الفقراء من الوثنيين ويربونهم في حجر الاسلام خصوصاً عند حصول الجماعات الشديدة . وقد شدد فقهاؤهم عليهم في أداء الزكوات فيجمعونها في صندوق لكل بلد ينفقون منها في شئائهم ويسدون بها عوز محاييهم فتجد المعدمين منهم البائسين ولهم بعضهم على بعض حنان ورأفة وحفيظة فيما بينهم وعلى عدوهم لا توجد في الأمم التي نسا كنهم كذلك بسبب تباينهم الأفيون وأنواع السكرات تجدد أجسامهم أحسن

من اجسام غيرهم فهم بفوفون جيرانهم الصينيين صودة ومعنى ويسمى بالصينيون «هواي هواي» وهذا لقب طائفة الاويغور في الماضي وأما هم فيؤثرون أن يسموا «كبا ومن» أي أهل الدين عطفاً على «ان الدين عند الله الاسلام». ومسامو بلاد يونان الجنوبية يعرفون باسم «يانلي» وجميع المسلمين هناك يتميزون عن سائر الأهالي بملاحمهم وشاراتهم ووحدة ملبسهم ويلوح عليهم من النعرة والأنفه مالا يلوح على سواهم وكلهم من أهل السنة والجماعة ولكنهم في الفقه فئتان الحنفية والشافعية وهم يكرهون جداً الاختلاط بالوثنيين ولا يزوجونهم وأما يأخذون من بناتهم في الأحياء شراء بالدرهم.

وقد وقعت لنامي الصين في هذا القرن مع أهل تلك المملكة حروب تنبى على الأطفال إذا استقصى خبرها المؤرخ لم نكفه فيها الجملات وملخصها أن أول ثورة حصلت هناك هي في بلاد يونان بسبب عمالة من الفريقين كانوا يعملون في أسد المعادن فأشعر القتال عن الغلب للناميين وتكررت الحوادث والظهور لهم حتى بلغ الخلق من ولادة الصين مبلغه فاستنفروا اليهم الوثنيين قاطبة ونادوا باستئصال شأفتهم ونعفية آثارهم وذلك في يوم معين من شهر ايار (مايو) أحد شهور سنة ١٨٥٦ فاستشعر المسلمون ذلك فبسل وقوعه وأخذوا له أحييتهم وجروا واستلأموا فلما وقعت الواقعة توفرت الطائفة لجهتهم ولم تنس الحكومة منهم مأرباً الا في القرى التي مساموها قليلون. وتكررت الوقائع وصمد الفريقان بعضهم لبعض من أكثر جهات البلاد والمسلمون في غلبة وظهور حتى افتتحوا عنوة مدينة «طالي فو» وهي متباعدة حصينة من الطراز الأول في حدود الصين وفتحوا منها طريقاً الى برمانيا يسربون منه اليها البيرة والسلاح ثم استولوا على مدينة «يونان فو» جاذرة البلاد ومضى على دولتهم هذه وهبوب ريحهم بتلك الأرض ثلاث عشرة سنة والصين لا تزاد أمامهم الا اتخذوا حتى أبقت أن لا قبل لها بقهرهم بذياب السيف فالت إلى أعمال الخيلة والدسائس وجاذبت زعماءهم حبال الرشوة ومنتهى الأمانى وأدرت عليهم العطايا الوافرة سرّاً وولدهم الأعمال الخطيرة حتى قصمت بحرى اتحادهم وحلت بنفثات سحرها عصفه جامعتهم بل استأثرت بعض رؤسائهم أن وففوا في صفها يقاتلون بني ملتهم فبديهي أن تفحل بعد ذلك عصبيتهم ونفشل ريحهم وأن يزرع الصينيون فيهم الانتقام حتى يهلك منهم ثلاثون الفا بخد السيف ويلحق اقوام منهم بمملكة برمانيا.

أما في شمال الصين فاستطاع تمرير الفتنة سنة ١٨٦٠ وذلك في « هوا تشيو » شرق « سينغان فو » وكانت الدائرة على الصينيين وتأثرهم المسلمون في كل سهل وجبل يقتلون ويسبون ولكنهم عجزوا عن دخول « سينغان فو » لثناعة أسوارها ثم امتد هيب الثورة في تلك البلاد ونادى منادى الاسلام بينا للثارات فقاموا قيامة الرجل الواحد وفر الصينيون والمغول من أمامهم واتهم المسلمون في أثرهم يسألونهم شلا ويستقصونهم أسراً وقتلاً وامتلأت ولايات شالسي وفانسو عينا ودمارا والنجا الوثنيون الى الكهوف والمغاور وظنوا انها ما لغتهم فلم تكن بماعتهم واشتمل الخراب على تلك البلاد حتى لم يبق قرية الا خوف على عروشها ولم يبق المسلمون الا على المسيحيين ولم يبق عامراً من تلك الجهات الا الامصار الكبيرة بما أدير عليها من سياج الأسوار . وقد ترعد الذين هلكوا في هذه المعركة باللايين . وحدث بعض مؤرخي الافرنج أن من المسلمين من بلغ منه الخلق أن قتل أولاده وامرأته لينوفروا على الجهاد . والحاصل أن هذه الفتنة كانت من أكبر الفتن واستمرت حتى عسر عاماً كاد ينقطع أمل الدين في خلاها من استرداد البلاد ولكن لم يثبت التفاف ان دخل بين المسلمين فأدخل عليهم الوهن ونشفت عصاهم قطعاً قتالت منهم عساكر الامبراطور واسترجعت الشانسي ثم الكانسو ثم معاقل نيان شان وبددت شمل الباقين من الثوار في دز ونغاريا ولكنهم لا يزالون الى الآن أهل صولة وشوكة وشأنهم على ازدياد وجمعهم في صعود ومنهم كثير من الحكام وقواد الجيش . وكثير من المؤرخين الأوروبيين يظنون أن لهم وحدهم مستقبل السلطان في الصين . وقد بعثت الدولة الروسية مرة بعثاً عاماً جال في الصين وجاب آفاقها واطلع على دسائل أمورها فكان من جملة ما قرره تحذير الروسية من مستقبل الاسلام في تلك الممالك لأنه يعمو ويتقدم واذا أخذ يوماً بزمام الدولة انقلب هيئة الشرق الأقصى انقلاباً عظيماً لأن الصين اسلامية ليست كالصين وثنية (وأتم الاعلون إن كنتم مؤمنين) ^(١)

(١) كان محرر هذه السطور قد نشر مقالات متتابعة في مجلة المقتطف عن الدين وأحوالها في سنة ١٩٠١ وعقد فصلاً خاصاً بالاسلام في الصين يعني إعادة نشره عن التبعث والتقييد في كتاب ورحلات كثيرة لأنه يحسن تمحيصاً جيداً (وهو هذا الفصل المتقدم) فذلك قلناه بعينه عن مجلة المقتطف جزء تموز (يوليو) سنة ١٩٠١ . وضيف اليه التعليقات التي جددت بعد هذا العهد مثل أقوال بدلة أولون وكلام الانبياء كوكو بيدية الاسلامية مع ملاحظتنا عليها .

ولقد ذهبت بعثة أولون الفرنسية بثلاث في كثير من بلاد الصين من سنة ١٩٠٦ إلى سنة ١٩٠٩ ونشرت عن مشهوراتها وما اتصلت اليه من المعلومات كتاباً ذكرت في مقدمته أن أصل إرسالها كان من نظارة المعارف لأجل فحص عام عن أحوال الصين . ولكن بعض العلماء استجلبوا نظر النظارة المشار إليها إلى موضوع اسلام الصين بنوع خاص . فلذلك وجهت همها إلى التحقيق عن أحوال المسلمين في الصين ونشرت ذلك الكتاب الذي تضمن خلاصة تدقيقاتها .

وعلى أن المسلمين لم يكونوا يؤلفون في كل ولاية وحدة مستقلة قائمة بذاتها وإن بين مسلمي الصين مذاهب مختلفة خلافا لما كان بظنه السباح من قبل وإن الطرق الصوفية معروفة لديهم . وظهر لبعثة أولون هذه في آخر أيام سياحتها وجود علاقات سرية بين مسلمي الدين ومسلمي الشرق الأدنى .

وبعد تحرير بعثة أولون ما حررته عن مسلمي الصين ظهر كتاب انكليزي اسمه (الاسلام في الصين) لاسمحه بر ومبال وذلك في ٢٥ يناير سنة ١٩١١ وهو كتاب قضى صاحبه ١٩ سنة في السياحة في الصين والبحث والتنقيب وأخذ عن نحو ٢٠٠ رجل أمموي معلوماتهم . فتباينت على قراءته رجال بعثة أولون لعلمهم بحسب شئنا لم يخصصوه في كتابهم فاذا به يزعمهم لم يكشف شيئاً جديداً فانهم وإذا هو لا يخرج عن كتاب ليرسان Thiersand الفرنسي .

وبحسب تحقيقات بعثة أولون كان ظهور الاسلام في ولاية ينان وربما في كل الصين على يد الرجل الملقب « بالسيد الاجل » وهو سيد شريف من آل البيت اسمه شمس الدين عمر دخل في خدمة دولة الصين ونصح لها وكان من أفراد الرجال في جميع المزايا فتقدم في الدولة وتولى المناصب العالية وانتهى الامر بأن السلطنة عاهدت اليه بولاية ينان فأفاض الخير ونشر الامان ووزع العدل وأتى من الماترحال يزال الصينيون يلتهجون به إلى هذا اليوم وكان دخول الاسلام إلى ينان في عهده .

وجاء في تاريخ « كيو سين تاغ شو » انه في صدر الاسلام ورد الصين عسكر عربي عدته ثلاثة آلاف ومن ذلك الوقت دخل الاسلام في الصين ويظن ان هذا الحادث وقع سنة ٧٥٦ مسيحية .

ويقال ان أصل مجيئ المسلمين الى الصين هو لأجل معاضدة سلطان مغولوع من
سلطين الصين . ومن ذلك الوقت صاروا يخدمون قواداً وأجناداً في بلاط السلاطين وبقيت
هذه العادة الى عصرنا الحاضر فيجد الانسان توابير نائمة من المسلمين يقودها أمراء من
المسلمين في دولة الصين .

وأما السيد الاجل فقد اطلعوا في بنان على تاريخ محرر في سنة ١٦٨٤ يقال فيه
انه لما رحل جنسكيز خان الى الغرب جاء السيد الاجل عمر بألف فارس وقدم له الطاعة
فأكرمه وجعله من بطاقته (١٢٠٦ - ١٢٢٩) ولما آل الأمر الى السلطان أوغوناي
(١٢٣٠ - ١٢٤٢) ولاد ثلاث ولايات وهي « فونغ » و « تسينغ » و « يون ناي » ثم
استدعاه الى باكين وعهد اليه بمنصب عال . ثم لما تولى السلطان نانغو (١٢٥١ - ١٢٥٩)
عهد اليه بإدارة ست نظارات بالاشراك مع (تا اول هوان) ثم جعله مديراً عاماً لمقاطعة
(يان كينغ) فأحسن الإدارة جداً فعهد اليه بنظارة الاستخبارات . ثم لما رحل السلطان الى
بلاد (تسو تشوان) جعله ناظراً للبرة العسكرية فقام بها أحسن قيام فلما تولى السلطان
فويلاي أعطاه رتبة الوزارة وجعله عضواً في مجلس أمانة السر الأعلى . وكان كلما تقلد
عملاً ظهرت فيه فضائله وحاز رضى السلطنة . وسنة ١٢٧٤ تقدم اليه السلطان في ان يقبل
ولاية بنان وكانت أحوالها مختلفة وكان أهل بنان شديدى الغباوة والجهل فلما ذهب الى
هناك وجد القيادة في يد أمير من بيت السلطنة تخاف هذا منه واراد أن يجاذبه الجبل الا ان
السيد الاجل بحكمته وحسن سياسته استأله اليه وصيره صديقاً . وكانت تلك الولاية في غاية
الانحطاط والبلاد خراباً فنشر السيد الاجل العلم وبنى المدارس واعتنى بتهديب الاخلاق
وكذلك وجه همه الى عمارة الارضين فهد الطرق وبنى المعابر والجسور والسدود لأجل
المياه مما تلافي به خطر الفيض فكانت بعض الانهار تطلق على الاراضي فتذهب بها زروع
الفلاحين فجعل لها حواجز تقى من ضرر الطغيان . وكانت أراضي أخرى تعطش في الصيف
من قلة المياه فبنى خزانات وحياضاً احتياطاً من وراء العطش . وأزال المغارم والمظالم وأبطل
السخرة وشيد ملاجئ للرياح والعجزة وخفف المكوس وأحدث النموذجية زراعية يحتذى
على مثاها وحفر الآبار وأقام الأسواق وأدخل في طاعة الدولة مالا يعد ولا يحصى من الأقوام
وأبناء وجوده في تلك الولاية عمر مساجد للإسلام ولكنه شيد أيضاً هياكل لكونفوشوس

ولبوذا . وكانت ولايته تضم عشرين مقاطعة فيحدها من الشرق سونغ ومن الغرب
بيرمانيه ومن الشمال التبت ومن الجنوب آنام . وتحسن سياسة السيد الاجل خضع ملوك
التونكين وآنام لسلطان الصين .

ومن نوادر حكمته أن ملك لوبان ثار على السلطنة ، فصدر الأمر الى السيد الاجل
بالزحف اليه فلما سار بالجيش رآه الناس حزينا كثيراً فسألوه عن سبب كآبه فاجاب :
لست كثيراً لمدوني ذاهباً الى الحرب بل لكوني أتصور منكم كثيراً سيهلكون في هذه
الملحمة بدون ذنب اقترفوه وأنهم سيقتلون وينهبون أناساً كثيرين موادعين لا ديب
لهم أيضاً . ولما وصل الى مكان الثورة أرسل الى الثوار يعرض عليهم التسليم فلبثوا ثلاثة
أيام لا يجاوبون فهاج العسكر وطلب القواد الاذن بالهجوم فلم يأذن لهم بل راجع رئيس
الثوار في أمر التسليم فأظهر هذا الطاعة لكنه لم يسلم البلدة فونب رؤساء الجند على البلدة
فغضب السيد الاجل واستدعاهم وقال لهم : ان ابن السماء أمرني أن أتولى بلاد ينان وأحكم
فيها بالعدل والأمان لا بالقتل والعدوان فلا أرضي أن تهاجوا البلد ما دام الثارون وعدوا
بالطاعة فان أيمنم الاسفك الدماء خزاؤكم القتل . ثم أوثق الضباط الذين أرادوا الهجوم
خلفاً لأمره . فلما سمع الثوار بما حصل جاءوا وسلموا وسكنت البلاد وأطاعت على
بكرة أبيها .

وكان سائر العمال يفتقدون بسيرة السيد الاجل وينباهون بأعماله فأمنت السواحل
واستراحت الرعية وساد العدل وقاضت الطبرات وعمرت البلاد وصار يقال ههنا البلاد ينان .
أما آثاره في الزراعة فلا تزال بقاياها الى الآن وإن كثيراً مما بناء من الجسور لا يزال قائماً
الى يومنا هذا .

وكانت بلاد « تشاوتيان » تطلق عليها الأنهر فتتحول الى بحيرة ، فخر السيد الاجل
نهرأ حذر اليه تلك المياه كلها فصرفها عن الأراضي التي كان الماء يغمرها من قبل . وحفر
ترعاً كثيرة وخلصا لسقيا البقاع المحتاجة الى الري . وجعل يريداً مؤلفاً من ٣٦٠ فارساً
وحراساً بقصد رهم يسهرون على السدود بحيث اذا حصل فتق في أحدها أسرع البند
باخبار الحكومة فجمعت الحكومة الاهالي ونهضوا لرتق الفتق .

ومات السيد الاجل رحمه الله سنة ١٢٧٩ (مسيحية) فكان له ماتم عم الصين

باسرها وبكاه أهل ينان كما يبكي الأولاد أباهم . وعم الحدود البلاد المجاورة الى بلاد سونغ وتبت وغيرها وذيحت القرابين في البلاط السلطاني .

وخلف خمسة أولاد و ١٩ حفيدا فكان خلفه في الإمارة ابنه ثم ابن ابنه وتداول أحفاده الإمارة وكانوا جميعا أعضاءا للسلطنة .

وفي أيام دولة « مينغ » راجع السلطان « ناي تسوكاو هوانغ تي » (١٣٦٨ - ١٣٩٩) تراجم وزراء الدولة السابقة فلم يجد بينهم في الحكمة والعدل والرفق بالرعية ووفرة آثار العمران مثل السيد الاجل فأمر بتسجيل سيرته في كتاب خاص بقية المآثر اسمه « ين تشو شو » وأن يدرس هذا الكتاب للطلبة وينشر في المملكة وقد ثبت هذا السلطان لقب السيد الاجل وهو « الأمير الأمين المحسن » وأمر ببناء حياكل تدعى فيها القرابين عن روحه .

وسنة ١٤٠٥ صدر أمر الحكومة الصينية بتأليف سيرة السيد الاجل بقلم « تشينغ هو » ويوجد في بلاد ينان حياكل باسم الأمير « هيان يانغ » وهو لقب السيد الاجل عند الصينيين . ولا تزال أعقاب السيد الاجل الى اليوم وأمرته معروفة منذ ٨٥٠ سنة . ولما أولاده الخمسة فاوهم نصير الدين والصينيون يقولون له « ناسولا يانغ » صار وزيرا للدولة ثم واليا على شنشي ثم على ينان ومات سنة ١٢٩٢ والثاني حنين صار قائدا عاما لجيوش « كوانغ تونغ » والنسالة حنين صار وزيرا للدولة ثم واليا على ولاية « كيانغ سي » ثم واليا وقائدا عاما لولاية ينان بعد أخيه نصير الدين والرابع شمس الدين عمر كان مديرا عاما لقاطعة « كيين تشانغ » من ولاية كيانغ سي والخامس مسعود والصينيون يقولون له « ماسوهو » وصار وزيرا ثم واليا على ينان .

أما أحفاده فأشهرهم « بايان فنشان » من أولاد نصير الدين صار وزيرا للدولة ثم واليا عاما على ينان بعد عمه الحسين وقد نال ألقاب جده كلها وأسرع لتجدة الامبراطور في باكين قتال لقب الأمير الأمين المجتهد . وهو الذي رمم المسجد الأعظم في مينغان فو ونال للدين الاسلامي من الدولة الصينية اسم « الدين الطاهر الحق » . ومن أولئك الاحفاد عمر والصينيون يقولون له « قوما أول » وكان من وزراء الدولة وصار واليا على « كيانغ تشو »

ومنهم جعفر كان قائداً عاماً لعمساكر « كينغ هو » ومنهم حسين صار وزيراً للدولة وخلف أخاه بايان تشيان على ولاية ينان ، وشادى صار حاكماً فى إحدى مقاطعات ينان ، وأيوب والصينيون يقولون له « ايونغ » وكان مدير فلم التشرىفات فى دار القرايين ، ويانغشار صار وزيراً للقلم الأعلى ولقبه الامبراطور بالجاني الأكبر . وبرهان وصار حاكماً فى « يونان سين » و « كولى » وكان قائداً عاماً لعمساكر هونان

ومن أحفاد أحفاد السيد بعده بسبعة بطون رجل يقال له حاجى والصينيون يقولون له « مى هانشى » أدى اليه سلطان الصين مبالغ من النقود بى بها مساجد فى لانسكين وسينغان فو . ومن أعيان هذه الأسرة رجل اسمه يوسف بينه وبين السيد الأجل ١٤ بطناً ولد فى نحو سنة ١٦٠٠ والصينيون يسمونه ماشيكو يوغ وكان عالماً فاضلاً ذهب الى ياكين سنة ١٦٦٥ واستشاره الامبراطور فى الأمور الدينية والعكرية وصار مدرساً فى مدرسة « كوو تشوكيين » وسنة ١٦٨٥ نشر كتاباً اسمه « بوصلة الاسلام »^(١) ومنهم فى عصرنا هذا أمير ألاي كان فى الجيش الصينى سنة ١٩٠٧ . ومنهم رئيس جماعة مساعى « ينان فو » وتاخر أوقافهم . ورأس هذه الأسرة اليوم هو « نافات سينغ » امام جامع ماشوكيا .

ويوجد أسر أخرى هاشمية فى الصين فان كتاباً اسمه « حياة محمد » ألفه صينى اسمه « ليوتشي » فيه مقدمة من فلم رجل يقال له سايو من ذرية ارسول ﷺ وتاريخ هذا الكتاب سنة ١٧٧٥ .

وسنة ١٤٤٥ كان فى مدينة سينغان فو أسرة شريفة ابوية منها حافظ بن كولى محمد ابن الشريف بدر الدين بن شمس الدين . والذي يظهر أن الثورات التى قام بها المسلمون فى القرن الماضى قد أضرت بهم وأوقفت تقدمهم ولولاها كانت لهم الكلمة العليا فى حكومة الصين . وقد ظهرت ابعثة أولون آثار الفتنة الأخيرة ورأت بعينها الخراب الذى أصاب الديار وحظت النفس الذى لحق بالنفوس والسمرات وعرفت أن كثيرين من المسلمين لا يزالون تحت المراقبة . وقد سألت بعثة أولون أحد أدباء « لان تشيو » واسمه « فوق بين » فیل لها انه أعلم من يوجد بأخبار هذه الثورة فقص لها ما بأتى : —

(١) البوصلة ابرة القمطاس التى يعتمد عليها البحارة

« سنة ١٨٦٤ تارت فتنة في الشرق والغرب من الصين أصلها اثنان « مياو باي لين » و « ماهو الوونغ » فأخذوا يعيشان فساداً في كانسو واتصل الثاني منهما بشوار كانوا أعضاء في جنوبي شنسي وشمالها فأثار أهالي « نينغ هيا » وأهالي « شان هوا » وأهالي « مينغ نيا و لينغ » وحاصره هي مدينة في شمالي سور الصين فسافت الحكومة جيوشاً على نينغ هيا وحاصرتها وقتلت خلقاً كثيراً ثم افتتحتها عام ١٨٦٥ بعد حروب طويلة . إلا أنه سنة ١٨٦٨ عادت الثورة فاشتعلت فسافت الحكومة جيوشاً وسفكت دماء كثيرة واستردت كثيراً من المدن العاصية . وسنة ١٨٧١ أمرت ماهو الوونغ وزعيما آخر اسمه مايا نسيو وصابينهم وحاجت مدن هونشيو وسينينغ وسوتشيو وأخذت الثورة في جميع بلاد شنسي و كانسو . وسنة ١٨٧٢ زحف جيش « ليوكين تانغ » وجيش « كين شوان » قاصدين زعيم الدين « باي بن هو » وحاجا « تان نسي بن » أو كاشغر فانهزم الزعيم الى أرض الروس وقتل هناك كاشغر وتحدث حدود « سين كيانغ » أي التركستان الصيني من الشمال والجنوب . وصلت الصين ليوكين تانغ وإلياً غاماً على كاشغر انتهى

فظهر من هنا أن ماهو الوونغ الثائر المسلم حمل كبر الثورة مدة ستة سنوات ولولاه لم ينسحب يغرب بك سلطان كاشغر فيعمل شيئاً وأن سلطنة كاشغر لم تستمر ١٣ سنة إلا بفضل ثورة ماهو الوونغ المذكور وقد لعب الدور الأعظم في قتال المسلمين الجنرال « تونغ فوسيانغ » وهو هو الذي ترأس ثورة اليوكسر الشهيرة على الأور بين سنة ١٩٠٠ ولما طلبت دول أوروبا من الصين تسليمه فر الى كانسو ونجياً بها . وكانت له قصور شاهقة وأراض واسعة ومات سنة ١٩٠٧ وأعيدت اليه بعد الموت الألقاب التشريفية التي كانت دولة الصين تزعمها منه إجابة لطلب الدول وكانوا يظنون في أوربا هذا الجنرال مسلماً وذلك لوجود عناصر كثيرة من المسلمين يلبسون العمام في جيشه فالتبس عليهم الأمر والحقيقة أن هذا الجنرال كان أعصى أعداء الاسلام وأنه من شدة خيئه ومكره ضرب بعضهم ببعض وأوقع بأسمهم بينهم لا سيما بواسطة القائد المسلم « تان لينغ » الذي قتل كثيراً بأبناء ملته .

وأما ثورة تان فاستمرت من سنة ١٨٥٥ الى ١٨٧٣ وانتهت بالويل على المسلمين . وسبب انكسارهم اختلاف رؤسائهم وعدم تذكهم قوله تعالى « ولا تتأزغوا فتفشلوا وإن ذهب ريحكم » فإن الثائر « توفنسيو » نودي بسلطانا في « تالي » ولكن الزعيمين

« مانوسين » و « ماجولونغ » قاتلاه وانتصرا لحكومة الصين . وكان للنائر ما هو لونغ شيعة يقولون انه قتل الوقت وان القطبانية انتقلت بعد وفاته الى خلفائه . وقد خلفه صهره « ماناغي » وفي سنة ١٩٠٨ كان عمره ٥٥ سنة وحفيده « ماول هي » وكان عمره ثلاثين سنة تبع كلا منهما حزب الا أن حزب الصهر أعظم . ومركز الصهر « شاكيو » ومركز الحفيد « نانغ كياوتشوان » وهذه هي ناحية عظيمة الشأن في اسلام الصين فيها مدرسة كلية لهم في « ينغ لينغ » وهذه الفرقة تلقب سائر المسلمين بالظاهرية . ويقولون في كاسو ان الخلفاء الراشدين الأربعة أسسوا كل منهم طريقة فأبو بكر طريقة الخفية يذكرون بصوت منخفض والثانية الجمهوريّة يذكرون بصوت عال وهي طريقة عمر والثالثة الكبريّة أو الكبرويّة وهي طريقة عثمان لأنه كان كبيراً مسناً والرابعة القادرية وهي طريقة علي . والحاصل أن الانقسام الذي يراه السياح الآوربيون ورواد حكوماتهم بين مسلمي الصين ويقولون له النأويلات بحسب عاداتهم هو عبارة عن فرقة القائلين بالنسبة المحضة بدون نظر الى التوصل وفرقة القائلين بالتصوف والآخدين بالطرق على أنها لا تنافي الشريعة . فالآوربيون مثل بعثة اولون يرون في ذلك ديانتين .

ومن عادة مسنمي الصين أن يشترى أولاد الوثنيين ويربهم في الاسلام روى ذلك تيرسان صاحب « الحمديّة في الصين » وغرونارد Girard وقال بعثة اولون انها لما مرت من هناك كانت في الصين محضة شديدة فكان الصينيون يبيعون أولادهم والمسلمون يشترونهم لأن المسلمين يتأسكهم أيسر حالا من الوثنيين . وفي ثورة البوكر قتل أنوف من المسيحيين ونهبت أموالهم وبيعت نسائهم وأولادهم فاشترى مسنمو « ينغ هي » عددا منهم وهذا محقق لأن مطران مغولية كان يسقى في استردادهم .

وفي شمالى ينغ هي عاد الاسلام ينمو ويزداد وجميع المسلمين بنجرون بالجلد والصوف وكل نواتية الأنهر لاسيما النهر الأصغر هم منهم . والمدينة التي على هذا النهر المسماة « باوتار » شغلها كله في أيديهم . والمدينة المسماة « كوكوكوتا » أي الزرقاء التي فيها من كل الأجناس يسكنها ٢٠٠٠ أسرة مسلمة . ويقول اولون انه صادف فيها رجلا مسلما يعرف وجود الخليفة في الاساقفة لأنه كان ذهب الى باكين وتلاقي مع علي رضا وحسن حافظ ورجع معه صورهما وصورة راية الخليفة . قال اولون : على أنه اذا انبثت هذه الدعوة هناك

دخل الاسلام الصينى في طور جديد . ولكن أولون لم ينتظر الى هذه الأيام اعرف أن
كثيراً من حزب التجديد في الأتراك يرون الخلافة ضرراً عليهم ولذلك قد ألغوها
وأخرجوها من الاستانة .

وكان السلطان عبد الحميد أرسل من الاستانة حسين حافظا وعلى رضا فأسسا مدرسة
في مسجد نيوكيى كان فيها ١٢٠ طالبا وأقبل المسلمون عليهما لالساكنين قادمين من قبل
خليقة المسلمين لأن هؤلاء في الصين لم يكونوا يعرفون هذا الأمر وإنما احتفلوا بهما لأنهما
أتيان من الآفاق التي ظهر فيها النبي صلى الله عليه وسلم . وقد بث هذان الداعيان روح
الانتماء الى الخلافة ورفعوا العلم العثماني وزارا بلاد غوثان وغانغ عواى وكوانغ تونغ أعظم
الخواضر الاسلامية ونشروا في الصين الجرائد الاسلامية منها عثمانية أو تركية ومصرية
وروسية وبغارية ويوجد اليوم جريدة اسلامية في بكين اسمها « تشينغ تشونغ نغاي
كوبو » أى الجريدة الوطنية .

وفي بكين ٢٩ جامعا أكبرها « نيوكيى » ومنها جامع « سيتان باى ايو » كان
عكلا وثانياً الى سنة ١٩٠٠ فلما ثارت ثورة اليوكسير جعلوه مركزا لهم فلما زحفت جيوش
الدول الى بكين خاف الصينيون أن يحرقوه فعرض أحد علماء المسلمين أن يتحوله جامعا
ويرفع منه الأضنام حتى يظنه الأوربيون مسجدا للإسلام فلا يتعرضوا له فرضى الصينيون
بذلك ولما انتهت الحرب أبغوه جامعا وهو من أعظم جوامع بكين .

أما بلاد كاشغر فبعد أن خربت فيها الثورة أخذت الدولة الصينية ادارتها بيدها
وجعلت في كل من مدنها الكبار مغوضاً أمير طورياً وقائداً عسكرياً . فمن غربي كاشغر
هى كاشغر وباركند ويانغى حصار وفوطان . وأما مدن شرقي هذا القطر فهى أوش واكسو
وكوانشور وبيديجان وهالى وضورقان وغار اشار . والجميع إحدى عشر مدينة كل منها يتبعها
سبعون عهدة فعين السكك منها فاض انصل فضايا المسلمين ولا يد لكلى هؤلاء أن يذهبوا كل
سنة مرة الى العاصمة كما أنه يأتى كل سنة مفتشون من العاصمة للتفتيش عن أحوال
المسلمين .

أما الانسيكاو بديعة الاسلامية فتذكرنا ملخصة : أن أصل دخول الاسلام في الصين
هو لأجل التجارة لأن المسلمين بعد أن تاملت دولهم في بغداد سارت سفنهم من خليج

فارس الى الهند والصين وعرفوا تغور الصين من صدر الاسلام كما أنهم من الجهة الأخرى دخلوا الى شمال الصين بواسطة الترك من زمان جنكيز خان وأعقابهم فان جنكيز لم يكن يعبأ بالدين وكان يجمع حواريه من جميع الملل ودخل في جندته كثير من الترك والأفغان والباكتان وأناس من الفرس وفي زمان فو بيلاي خان دخل جماعة من الفرس في خدمة دولة الصين وذكر منهم ابن بطوطة أناساً في رحلته وأشار اليهم السائح الابطالي ماركو بولو وكان كل هؤلاء مسلمين فنشروا الاسلام في الصين . وكان في زمن جنكيز اتصل بخدمة بلاطه رجل من بخاري يدعى أنه من آل البيت اسمه السيد الأجل ولهذا الرجل تراجم عديدة ذكرتها الأنسيكلو بيرية ونقلت منها تنقياً وقالت ان ماركو بولو تكلم على ابنه صهر اثنين ووروث كثيراً من أخباره عن رحلة أولون واليه والى ابنه هذا تعزو ظهور الاسلام في بنان .

أما حالة المسلمين الاجتماعية فهي كما هي في سائر بلاد الاسلام والعمل إنما هو بالشرع الشريف . على أن تيرسان يروي أن مسلمي الصين مضطرون في أمر الزواج أن ينقبضوا بقانون المملكة الصينية ولو خالف الشرع ولا تعلم مبلغ ذلك من الصحة . ويقول أولون ان الحجاب غير معروف عند نساء المسلمين في الصين بل النساء يخرجن سافرات وهكذا يقول غيره من الاثني مستثنى من ذلك نساء الأغنياء . وفي هونشو ينقشب النساء المسلمات بنقاب أسود تحت الاعين . وعادة وضع القدم في الغالب انصغره معروفة عند المسلمين كما عند سائر الصينيين وفي كانسو يتنافس بها المسلمون أكثر من سواهم . ويتزوج المسلم بالصينية بل يستحب أن يأخذ غير مسلمة لعل الله يشرح صدرها للاسلام ولكن لا يحل مسلمة أن تتزوج بغير مسلم . ومع التشديد في منع ذلك يوجد حوادث مستثناة فان الامبراطور « شيسين لونغ » كان متزوجاً بأمة تركية مسلمة . أما العقدة وطهارة العرض فهما محفوظتان عند المسلمين أكثر مما هما عند سائر الصينيين .

واحترام الآباء والاجداد معروفة عند مسلمي الصين . وزيارهم يحفظون شجرات الانساب كسائر أهل الصين . ولا يوجد عندهم تفاوت في الطبقات الاجتماعية الا ما كان من تعظيم آل البيت وتمييزهم ولكن مسألة ادعاء النسب النبوي غير فاشية هناك كما في سائر بلاد الاسلام لذلك عدد أصحاب هذه الدعوى قليل وكان منهم الزعيم النائم هو الوونغ . أما

سحنة مسلمي الصين فهي في الغالب كسائر أهل الصين وإنما يجد فيهم الرأي كثيراً من
السحنات العربية والتركية بسبب المهاجرة ومجيء الطرء . وعلى كل الأحوال فالسواد
الأعظم من مسلمي الصين هم من السلالة الصينية ولغتهم هي لغة الصين وكتابتهم هي كتابة
أهل الصين وإن كان يوجد في طبقة نطقهم ما لا يخفى منه مكان من الاختلاف بحيث يعرف
الصيني المسلم من الصيني الوثني من طبعته . ولا شك أن اختلاف الدين أوجد بين الصيني المسلم
والصيني الوثني تبايناً كبيراً فالسلمون يرون أنفسهم أعلى جداً من الصينيين وهؤلاء يلقبون
المسلمين باسم « هوى هوى » والمسلمون يكرهون هذا اللقب ويحبون أن يقال لهم
« باي شان » أي أصحاب العائم البيض . ويوجد في الصين جنس من الإسلام هم مبانون
سائر مسلمي الصين والصينيين في اللغة والسحنة وهم قوم يقال لهم « السالار » يسكنون
على الضفة اليمنى من « هوانغ هو » وما جاوره فهؤلاء يشبهون أتراك كاشغر في الخلقة
ولغتهم من التركي المحرف ومذهبهم حنفي ويعرفون الحروف العربية ولا يوفدون البخور
ولا يضعون أسماء سلاطين الصين في جوائزهم وهم يجيرون في الصلاة وقد ظهر بينهم مرشد
في نحو سنة ١٧٥٠ اسمه « مامينغ هين » أو محمد أمين وهو الذي يقادونه إلى الآن .

ويعتاز مسلمو الصين على سائر الصينيين بقوة الجسم فتجدهم من أجل
ذلك مشغوفين بالخدمة العسكرية وتجد عدداً كبيراً من ضباط الجيش الصيني مسلمين ومنهم
كثير في المناصب المدنية إلا أنهم في المناصب العسكرية أرغب . وأما المهن فإن بعضها يكاد
يحصص فيهم وذلك نظراً لكاراة وقيادة الموائى ويقال لصاحبها « مافو » فإن هذه المهنة
هي فيهم خاصة وكذلك حرفة الخانات والاماكن المعدة للسافرين فهي مما يختص بهم .
وبالاجمال تجد الصينيين أقوم من المسلمين على الزراعة وتجد المسلمين أقوم من الصينيين
على تربية الموائى

وأهل الصين ينظرون إلى المسلمين بعين الخذر ويعتقدون أنهم يريدون تأسيس
سلطنة ضمن السلطنة ولذلك تجد المسلمين يميلون إلى الأور بين بعض الميل ويحبسونهم
أشواناً بأزاء الصينيين . وإن كنت تجد في فواد الجيش الصيني من المسلمين من اشتهروا
بفض الأجناب فالعامل فيه هو غطرسة الأجناب الأور بين لا التعصب الديني . ومما لا ينكر
أن مسلمي الصين يلجأون إلى جميع الوسائل لأجل زيادة عددهم فيتمشرون في الخنافس مئات

ألف من أولاد الوثنيين ويربونهم في الإسلام ويخضعون إلى دينهم كثيراً من الصيديات بواسطة الأزواج . وضباط الجيش من المسلمين يهبطون إلى الإسلام كثيراً من جنودهم . وقد أخبر أولون أنه صادف جمعا من الذين أسلموا حديثاً . نعم إن ثورات المسلمين الأخيرة وقضت سبيل الإسلام بعض الشيء ولكن بما لا يزعج فيه وبما اتفق عليه جميع سياح الاور بين الذين سبروا غور الصين أنه لا بعد مستحيلا دخول الصين في الإسلام لا سيما بعد أن أعلن الصينيون المجنحون سنة ١٩١٢ كون المانديشو والمغول والمسلمين والتبتيين والصليين كلهم متساوين ويذهب بعض الاور بين إلى إمكان حصول ديانة جديدة يخرج فيها الإسلام بعقيدة كنفوشيوس لا سيما أن في العالم الإسلامي حركة دينية ظاهرة نحو التجدد .

أما الحركة الدينية الحاضرة في إسلام الصين فهي عبارة عن أن « ماهو الوغ » الذي تقدم ذكره قام بطريقة خاصة من قواعدها الجهر في الصلاة وارتداء الأبدى بدل القبط والاعتقاد بالأولياء وزيارة القبور وتزعم بعثة أولون أن المسلمين الصينيين اتسموا بذلك إلى قسمين : أحزاب الديانة القديمة ويقال لها « لاوشياو » وأحزاب الديانة الجديدة . ونسبى « سين شياو » وعقبت على ذلك الانسيكو بديلة الإسلامية بقولها إن هذه الحارة هي في سائر بلاد الإسلام فإن هناك من يتسلط بالأولياء والأقطاب ويعتقد بتصرفهم في الكون بأذن الله ومنهم من لا يعتقد بذلك ولا يخرج عن ظاهر الشرع

ثم ذكرت الانسيكو بديلة أن السلطان عبد الحميد فسكر في الاستفادة من مسلمي الصين بإنجاد علاقات معهم باسم الخلافة فأرسل إلى الصين سنة ١٩٠٠ أحد القواد وهو أنور باشا^(١) هذه القاية فأخفق أخفاقا تاما . ثم إن الاهونغ^(٢) والفرع هاوران الياس عبد الرحمن مغني باكين قدم إلى الاستانة فالتمس من السلطان إرسال بعثة إسلامية إلى الصين فأرسل اثنين هما علي رضا وحافظا فأسسا مدرسة سنة ١٩٠٧ . وجاء في بعض بلاد الإسلام « ولكن الحكومة الصينية قضت على المدرسة التركية » فالنتجأ ذاك التركيان إلى سفارة المانية في باكين ووعدت سفارة المانية في الاستانة بأن تحمل سفارة المانية في الصين على حمايتها ولكن الحكومة الصينية لم ترد أن تسمع كلاما فلما رأى المرسلان المذكوران أن السلطان

(١) غير أنور باشا الشريد ناظر الحربية

(٢) الاهونغ عند أهل الصين العالم المسند

تركهمما التجأ إلى سفارة فرنسا فغصتهما ثم عادا إلى الاستانة ولا يزال في تركية الدستورية
به تأسيس سفارة في باكين وهي جنة ليست على ما يظهر فريبة التحقيق (كذا).

ثم أردفت ذلك بقولها : انه وإن كان المستقبل لا يأذن بالتكهنات . فيمكن مع ذلك
أن يقال ان استيلاء الاسلام على الصين وظهوره على سائر أديانها مما شجع لا يفيد المسلمين
سوى الخراب والخسار . ولكن اذا كان بتسلسل حوادث غير منتظرة تحققت آمالهم في
عد الأمر ولو لمدة مؤقتة فتكون مصيبة على الصين لأن الاسلام ليس بدين مدنية والاسلام
هو قبل كل شيء عدو للدينية الأفريقية حال كون استعداد الصين إنما هو لاقباص عدوه .
إن كان المسلمون يريدون الاشتراك في حركة التجديد الصيني فلا بد من أحد أمرين : إما
أن ينقادوا إلى الأفكار الجديدة ويسيروا مع دعاة الإصلاح الصينيين إلى تجديد مملكة صينية
على قاعدة التوحيمة الصينية وبذلك يكونون غير مجرمين . ولما أن تبقى في قلوبهم نيات
سلط على سائر الصينيين فبمجرد ظهور هذه النيات يستحقهم الصينيون سحقاً لأن
المسلمين عددهم قليل جداً في وسط رؤساء الحركة الإصلاحية وإن الأمة الصينية تحسن عملاً
الخير من العناصر الإسلامية التي في داخلها وفي منع نمو الاسلام في الصين بشراء أولاد
صينيين . انتهى بالحرف .

وقد يأخذ القارئ العجب كيف إن دائرة المعارف الإسلامية تصرح بمثل هذه
الأقوال التي فيها من النجاسة واليغضاء وسوء النية بحق المسلمين ما لا يمكن المراء فيه . ولماذا
سأل السلطان عبد الحميد بعثة تهذيبية إلى باكين بعد « دسيسة » وبعثت الدول الأوربية
أن هي مائلة للصين والشرق والغرب لاتعد « دسائس » ؟ ولماذا وجود سفارة تركية في
كين بعد جنة حال كون أولى الأمم بأن تكون لهم سفارة عند الصين هم التزك نظراً
لتجاور الترك مع الصينيين ولوحدة الأصل ثم لماذا يجب على الصين هذا الخسران من
الاسلام والاسلام دين قسم واخر من أهلها ولا يجب عليها الخسران من الافرنج الذين ما نسبوا
أصابعهم في مكان الا انتهى الأمر باستيلائهم عليه واستعبادهم لأهلها ولماذا الدين الاسلامي
عدو للمدنية وقد شهد كثير من أعظم أوربا وتخبئة المستشرقين انه خدام المدنية ؟ وأخيراً
لماذا يغار هذا الكتاب على الصينيين أكثر من غيرتهم على أنفسهم فأنهم تسامحوا مع
المسلمين في تركهم يأخذون أولادهم في المساعب ويربونهم في حجر الاسلام وهذا الكتاب

لا يسمح في ذلك .

ولكن من علم أن محرر هذا الفصل من الانسيكلو بديّة الاسلاميّة الفرنسيّة هو الأستاذ المستشرق مرتين هارتمان الألماني بطل عجيبة . فإن هذا الأستاذ قضى حياته في محاربة الاسلام والاجتهاد في اظهار معايبه والتحاميل عليه في كل فرصة وهو أشبه بلامنس اليسوعي يكون كل منهما استشرق في مدينة بيروت ووقف عمره على مجادلة الاسلام وأسلس في هذه السبيل العنان طواه واحدة صدره . عرفت هارتمان هذا وأنا طالب في مدرسة الحكمة في بيروت لم أتكلم في الخامسة عشرة سنة من عمرى ثم لقيناه بعد ذلك باثنين وثلاثين سنة في برلين وهو محرر في مجلة « الشرق الجديد » أثناء الحرب . وكان يتردد الى « ولم أكن أعرف حقيقة مشربه ولا اطلعت على كتاباته اذ ذلك الا أنه قيل لي مرة ان الأستاذ هارتمان كان من أعداء الأتراك لا يفر عن الطعن فيهم فاباه عاد الآن بمحمد طر بنهم أترى ذلك من أجل كون الترك حالفوا الألمان ؟ فيحدث عن السبب فعلمت أنه رضى عن الأتراك بمجرد ما علم أن فئة منهم تسير في خطه غير اسلامية وطذا كان معجبا بعبادى ضياء كوكب ألب وأمثلة . وحدثني المرحوم الشيخ صالح التونسي أنه جرى اجتماع في برلين أثناء الحرب حضره كثير من المسلمين فقام هارتمان وعرف الجهاد عند الاسلام بكيفية تقشعر منها الأبدان فابهرى له الشيخ صالح ونكّم في حقيقة معنى الجهاد وفند دعوى هارتمان في الأمور التي زعم أن الشرع يجيزها للجهاد فأجاب هارتمان أن ما يقوله الشيخ صالح هو شيء جديد غير ما في الشريعة . فرد عليه الشيخ صالح بقوله بن هذه هي أحكام الشريعة وان هارتمان يحفل الشريعة وظالت المشاحة بينهما وفصل بينهما الأستاذ المستشرق ميتفوخ وقال ان حد الجهاد هو ما قاله الشيخ صالح لا ما قاله الشيخ هارتمان .

ومن أغرب شواهد النهور الذي كان عليه هارتمان هذا في احتقار الاسلام أنه في مقالة من الصين هذه أشار الى الحديث النبوي الذي نقله المستشرق المجري غولدميهر وهو : « اتركوا الترك ما تركوكم » فهزأ به وزعم أنه حديث موضوع يقصد به اضافة العرب الى النبي ﷺ وتعظيم قدره والخال أنه قد يكون محمداً لم يسمع يذكر الترك في حياته . ولو أن كون هارتمان قد مات بعد الحرب بقليل وقيل أن اطلعت على جلده هذه السكت الشهيرة ما فيها من قلة المعرفة وعدم التمييز وفساد الاستشراق واثبت له أنه لا يصح أن يعد مستشرقاً

من يعتقد أن سيداً من سادات العرب — بصرف النظر عن النبوة — لا يعرف وجود الترك في الدنيا مع أن العرب في الجاهلية كانوا يعرفون الترك والروم كما يعرفون العجم. وكان اسم الترك معروفاً لديهم واردة في أشعارهم ولم يكن جهل العرب واصلًا إلى حد أنهم يجهلون وجود الترك. وإنما القول بأنهم كانوا بهذه الجهالة هو عين الجهالة وقلة العقل والظن بأن محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب ربما لم يسمع في حياته بوجود أمة اسمها الترك هو منتهي السفارة والضعف ولا يشابهه إلا أقوال لامنس اليسوعي التي بأسف من يقرأها على نصرة أناس أطماعهم الغرض إلى هذا الحد لدعوى الاستشراق وتضديهم للكتابة عن الشرق بالاسلام. وقد صنف السيوديته Dinet و سليمان بن ابراهيم كتاباً بالفرنسية اسمه « انك في واد وأنا في واد » أظهر فيها ما في تأليف لامنس من السخافات والآراء الخيالية التي لاثنين الا صاحبها ولا تنقص الا كاتبها.

هذا ويعود إلى موضوع الاسلام في الصين فنقول ان أحد أدباء الصين ورد مصر في العام الماضي فنقلت جرائد مصر عنه أحاديث عن بلاده من جعلها أن في الحكومة الصينية الخاضعة أربعة وزراء مسلمين وهم الجنرال محمد كاشونغ ناظر الخربة ثم الجنرال غاد شيسانغ ناظر الطرق وناظرين آخرين أحدهما وزير الزراعة والثاني وزير الأمور الدينية الاسلامية التي هو بمثابة شيخ الاسلام. وقال هذا السائح ان مسلمي الصين متفقون مع حكومة الصين في مبدأ تعزيز الرابطة الشرفية. وذكر أن عدد المسلمين في الجيش الصيني هو نحو نصف مليون منهم ٥٠٠ ضابط وأخير تن وجود جريدة اسلامية في الصين اسمها « راية الاسلام » والله أعلم.



ولقد اطلعنا على كتاب اسمه « مسلمو يunnan » Les musulmans du Yunnan لكتاب افرنسي أقام بجنوبي الصين عدة سنوات اسمه المسمى « كوردييه » Cordier من أعضاء اكلاديمية علوم المستعمرات قال فيه ان مسلمي الصين يبلغون عشرين مليوناً أي واحد من عشرين من الأمة الصينية لكن هذه الاقلية الاسلامية هناك شأن لا يستهان به

ولما كان صاحب هذا التأليف عالماً مؤرخاً فيما يظهر من كلامه أحياناً ان تأثر عنه بعض معلومات تم بها فائدة هذا البحث

فهو يرى أن دخول الاسلام في الصين بدأ من القرن الاول للهجرة وذلك ان الفاتح العربي فتية كان بين سنة ٧١١ و ٧١٤ قد وصل بفتحاته من سمرقند الى كاشغر وان قد وجد في المجموعة الكبرى الصينية صور الكتب التي وردت من ملوك بخارى وسمرقند وتركستان الى عاهل الصين لذلك العهد يستخرجونه لانقاذهم من العرب . ومنها يستدل على الرعب الشديد الذي حل بالترك اوائله من سطوة العرب ^(١) وان فتية بعد أن حصل تلك الشعوب التي أطاعته على الاسلام أرسل الى ابن السماء رسالة يدعو الى الاسلام و يشرح له عقيدة القرآن و بحسب قول مارغولبول قد راع عاهل الصين الاخبار التي جلت عن قوة العرب فارتضى بأن يرسل الى فتية بالجزيرة

والمسيو كورديه ينسب في تأدية عاهل الصين للجزيرة نظراً للمعهود من كبرياء ملوك الصين ولكنه يرى محققاً أن عاهل الصين أعجب جداً بشجاعة العرب واقدم قائدهم فتية لانه سنة ٧٥٩ كان نار أحد العصاة المسمى « آنلوشان » على العاهل « سونسونغ » واستفحل أمر النار هذا فأرسل العاهل الى الخليفة أبي جعفر المنصور يستنجد على التوار فأمدّه بجيش أربعة آلاف مقاتل من العرب فذهبوا الى الصين وأخذوا الثورة وأعادوا الى الامبراطور ملكه بعد ان كاد يذهب من يده . ولما سكنت الحال استقر هؤلاء الجنود العرب في بلاد الصين ونزجوا ونزلت منهم طبقة خاصة وهذه بلا نزاع النواة الأولى للاسلام في الصين

وهل كان بحجى هذه النجدة العربية للامبراطور « سونسونغ » بحراً أم برأ ؟ الجواب هذا غير معلوم الا أنه مما لا شك فيه ان مدينة كانتون كان فيها مسالمون من القرن الأول للاسلام مؤلفون من بحارة العرب والعجم الذين كانوا في تردد دائم على سواحل الصين وقد كثرت عددهم الى حد انهم سنة ٧٥٨ ناروا على الحكومة بسبب ضريبة أزهقتهم فنهبوا البلدة وأحرقوها وخرجوا . ثم لم يطل الأمر ان رجعوا الى هناك لان العلاقات التجارية لم تنقطع بين سيراك وكنشون وكانت المحطة بينهما جزيرة سيلان

وسنة ٨٧٢ وصل الى كانتون السائح العربي ابن وهب وقصد بلاد العاهل وأراه هذا صور الأنبياء نوح وموسى وعيسى ومحمد وصور حكماء الصين . وبعد هذا التاريخ بسبع

سنوات نار تأثر اسمه « هوانغ تشاو » ونهب كنتون وقتل فيها مائة ألف مسلم
وبعد ذلك نسكت التواريخ الصينية عن ذكر المسلمين في الصين الى زمن نورانيهم
الآخيرة اه

قلت : اما ارسال قتيبة بن مسلم الباهلي فاتح بلاد الترك رسالة مع وفد انتخبه الى ملك
الصين فقد ذكره ابن الأثير تفصيلا كما سبق لنا نقل ذلك في الطبعة الأولى من هذا الكتاب
والذي يظهر هو أن ملك الصين راعه الامر ووجد العرب قد كادوا بطأون بلاده فأرسل
الغزيرة الى قتيبة خلافا لما ذهب اليه كورديه من أن كبير ملوك الصين أعلى من ذلك . وتو
كن الكبر يمنع مثل هذا الامر لما استنجد عاهل الصين أبا جعفر المنصور وبينهما مسافة
بعدة أشهر

وأما ذهب ابن وهب من البصرة الى كنتون ثم الى بلاط ملك الصين وكون هذا أراد
صور الأنبياء والخكاه فهذه القصة واردة في كتب العرب
والذي يظهر أن العرب كنزوا جدا في كنتون صدر الاسلام وكانت السفن لا تنقطع
من مرافق الاسلام ومرافق الصين

جاء في كتاب « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » قال :
« حدثني القاضي احمد بن سيار قال حدثني شيخ من التجار بعمان قال : كنت بالابلة أريد
المرج الى البحر فرأيت سائلا بباب الجامع فصيح اللسان مليح المسألة فرقفت له وأعطيت
لهم صالحة وخطفت في الوقت الى عمان فقصيت بها شهورا ثم قضى لي أن مضيت الى
الصين فدخلتها سالما فإذا أنا يوما أطوف فإذا الرجل بعينه قائما في السوق يتصدق فتأملت
معرفة فقلت له : ويحك سائلا بالابلة وسائلا بالصين . فقال : قد دخلت الى هذا البلد ثلاث
دفعات وهذه الرابعة اطلب المعيشة فلا أجدها الا من الكدبة فأرجع الى الابلة ثم أرجع الى
ههنا . قال فعجبت من شدة حرمانه » اه

والذي أريد استخلاصه من هذه النكتة أن كنتون كانت لعهد دولة العرب أشبه
بمساي الهند اليوم بالنسبة الى البصرة أو الى الكويت أو الى البحرين الخ
وكورديه يرى أن الاسلام دخل الصين من الطريقين البحري والبري . اما مقاطعة
« بئان » فيذهب هذا الرجل الى ان الاسلام جاءها من الشمال عن طريق مقاطعة

« شانشي » كما أنه يجوز أن يكون جاء المسلمون من الهند الى يرمانيا الى ينان . ولكن هذا الاحتمال ضعيف . وبحسب الروايات المأثورة في الصين دخل الاسلام في ينان في أيام دولة « تانغ » ثم ازداد في أيام جنكيز خان الذي غزا جنوبي الصين وكان في جيشه مسلمون فستوطنوا تلك البلاد . وكان السيد الاجل مغولياً مسلماً من هؤلاء فاعتنى بتكوين المسلمين هناك وطلب اليه وصل السائح الابطالى الشهير الى « يوتان فو » ذكر أن أهلها مزيج من وثنيين ونصارى وساطرة ومسلمين . وزعم الجنرال « فيتش » Fitch في محله « ادنبورغ ريفو » ان الامبراطور « هويو تسونغ » من عائلة « تانغ » عند ما حصلت عليه ثورة « تغاوشان » استجده العرب في قمع الثورة فأرسلوا اليه عشرة آلاف مقاتل أخذوا له الثورة ولكنهم لم يرجعوا الى بلادهم فأسكنهم الامبراطور في ينان . ولم يذكر الجنرال مصدر هذه الرواية . وذهب « جون آندرسون » John Anderson الى أن مسلمي ينان هم من سلالة العرب ومعهم عنصر تركاني هبط اليهم من شانشي وكاسو

وذهب « بورن » Borne الى أن مسلمي ينان هم قسبان : جماعة « ناليفو » وجاءه « لينغان » فالأوائل هم سلالة عسكر جنكيز خان . والأواخر هم من مهاجري شانشي . قال وقد أسكن الأوائل في غربي ينان الأمير « هيان يانغ فانغ » المعروف بالسيد الاجل وذهبت مادام « ماسال » Madame Vassal في كتابها على « ينانغو » الى أن أصل مسلمي ينان هو من الملاحه العرب الذين جاءوا الى كستون في القرن السابع المسيحي ونهبوا هذه البلدة ثم تفرقوا في جبال ينان . ولكن كورديه يقول : كيف لم يترك هؤلاء آثاراً اسلامية في طريقهم بين كستون ونيان

قال كورديه : وكيف كان أصل وجود الاسلام في ينان فالمسلمون لم يزالوا ثمة في ازدياد بصورة منتظمة ولولا الذين ذهبوا منهم في الثورة الأخيرة من سنة ١٨٥٦ الى سنة ١٨٧٣ لسكان عندهم عظاماً جداً . أما عدد الذين ذهبوا منهم في المذابح التي وقعت في المدن الكبار مثل « كين تسينغ » و « تشنغ كيانغ » و « سين هينغ » و « كوانغ يي » ولا سيما « تالي » فيظن أنه ثلاثمائة ألف نسمة . وقد قتل في تالي وحدها ٣٠ ألفاً . وهذا هو تعديّل الأب بورياس Pournas الذي كان معاصراً للثورة .

أما عدد مسلمي ينان في الوقت الحاضر فقدير معروف بالناس فبعثة «أولون» D'ollon لا يزيدهم على مائتين وخمسين ألفاً . وقال «دافيس» Davies انهم ثلاثمائة ألف . وقال «كاراي» Carey انهم ثلاثمائة وخمسون ألفاً وقال «سوليه» Soutie انهم من ثمانمائة الى تسعمائة ألف . وجعلهم «تيرسان» Thersan من ثلاثة الى أربعة ملايين . قال كورديه : أما أنا فقد سألت المسلمين أنفسهم محلة محلة وبلداً بلداً وقابلتها مع المعلومات التي عندي من المبشرين المسيحيين فوصلت الى عدد يتراوح بين ٣٠٠ ألف و ٤٥٠ ألفاً .

وأهم المراكز الاسلامية هي «بناسن» و «شانيين» و «نشاوتونغ» و «تونغ تشوان» و «سين هينغ» و «تالي» و «يونغ تشانغ» و «يوييل» و «يويهي» و «سماو» و «يون تشيو» . ثم حرر كورديه جدولاً تقريبياً عن عددهم في كل بلد ثم قال : ولا أضمن مع هذا ان هذا العدد هو الصحيح الا بالبدن ان اراد ان يعرف ذلك ان يقيم في ينان مدة سنتين بالأقل وهو يفحص في كل ناحية وفي كل كورة .

ثم ذكر كورديه انه قد اختلف السباح كثيراً في هذا الأمر وان «موير» Muir ذهب الى انه يوجد مسلمون منتشرون الى حدود اثبتت . والحال ان مسلمي ينان اكدوا لكورديه انه لا يوجد مسلمون وراء «لي كيانغ» وقال «موريسون» Morrison انه يوجد قرى اسلامية متعددة في الجبال . ويقول ان في «نشاوتونغ» ثلاثة آلاف عائلة مسلمة وان فيها شارعاً ملائناً بالمساجد وكلها نظيفة وان تجارة الجلود في تلك الناحية كلها بأيدي المسلمين .

وقد ذكر موريسون انه صادف في أحد الجوامع «ملا» أي شيخاً يقرئ بعض الاحداث فأخذ يحادثه فوجد انه لا يعلم شيئاً عن الخارج . وسأله عما اذا كان جامع فرطبة وجامع القرويين بقاص أجل أو أكبر من جوامع نشاوتونغ ؟

ثم قال كورديه : ان الاسلام انتشر في وقت واحد في «كوانغ تونغ» و «سشوان» و «شانشي» و «شنسي» و «كانسو» و «ينان» ولكن ثورات المسلمين لم تنفع الا في المقاطعات الثلاث الأخيرة . وليس ذلك للأسباب الطبيعية . فولاية «كانسو» هي قطعة مستطيلة بين «الغوي» و «البت» يحدها الجبل من جهة والمقارة من أخرى . قالصينيون بهمهم

أن تبقى هذه الولاية بأيديهم لأنها نقطة الاتصال بين الشرق والغرب ومنها يتمكنون من
ردع قبائل التركان عن التجاوز . والمسلمون أيضاً تهمهم هذه الولاية لأنهم بها يتصلون
بإخوانهم مسلمي التركستان وفي الوقت نفسه بمسلمي سنشوان وبتآن . ويأملون أن يركبوا
سلطنة من هذه الولايات الثلاث . فمن هنا كثرت الثورات فيها

وبتآن نفسها معدودة كأنها قطر منفصل عن الصين تحدها أعالي التبت وحراج
برمانيا والتونكين العليا والمسلمون فيها يقدرون أن يكونوا على اتصال بمسلمي الهند

ولكن هذه التعليلات لا يقبلها الجميع ومن الناس من يقول ان ثورات مسلمي الصين
لم يكن لها منشأ الا الظلم . فالأب داود يقول ان مسلمي شانسي لا يفكرون أبداً في إنشاء
حكومة ولا يريدون الا الذب عن حياتهم وماطم وأن يعينوا بسلام وأمان وان كانت الثورة
امتدت واشتدت فما ذاك الا من عسف العسكرية ونهبهم للأهالي . ثم قال : « وليس مسلمو
الصين متعصبين كمسلمي الغرب وجميع اسلامهم الاعتقاد ببعض مبادئ اسلامية والحنان
والامتناع عن أكل الخنزير . وقبل من شيوعهم حجوا الى مكة واذا قرأوا القرآن
يفهموه » وذهب جون أندرسون الى أن ثورة بتآن كان سببها ظلم ولاية الصين . وهكذا قال
« برومهال » Broadhal قال ومن سنة ١٨٣٤ الى سنة ١٨٤٠ نشبت ثورة أساسها فتى
حاكم « شوانغ تشنغ فو » لألف وستائة مسلم في « مونغ ميان تشنغ »

وذهب « كارنيه » Garné الى عكس ذلك ووصف مسلمي بتآن بالشداء والفسوء
والافراط في العصبية ومزيد الجراءة وقال انهم هم البادئون بالشر . وهكذا زعم الاب بورياس
الذي كان سنة ١٨٦١ في بتآن فأكد ان المسلمين هم الذين أشعلوا الحرب وطمحوا الى
الاستقلال وان بلاد بتآن كانت تقريباً في أيديهم وكانت طاعتهم للحكومة اسمية وكان
الصينيون يتقون شرهم فأنت ترى اختلاف الآراء وتناقض الروايات في هذه المسئلة . وقال
فرنسيس غارنيه Francis Garnier ان المبشرين الكاثوليك أعطونا عن أسباب الثورة
معلومات يعارض بعضها بعضاً بحسب الاماكن التي كانوا فيها

وقال « كولبورن باير » الانكليزي : ان مسلمي بتآن هم من أصل واحد مع
البوذيين وغيرهم من الصينيين الاصليين . وقال الكاتب جونستون وغيره من السياح ان
التعصب الديني لم يكن السبب في الثورة

ولقد كانت ذكرت بعثة « أولون » أنها لم تحب في ينان كثرة الاختلاط بالمسلمين والاحفاء في الاسئلة خشية إيجاد الوسواس عند حكومة الصين التي لا تطمئن اليهم وقد أدهش كورديه هذا الكلام . وقال انه بعد سفر بعثة أولون بقليل جاء الى ينانغو وظاظ المسلمين وذهب الى الخوامع وأخذ صوراً فونوغرافية وأحرق ما شاء في أسلحة شيوخ الدين وطلبتهم ولم يثر ذلك أدنى شبهة عند مأموري حكومة الصين . وربما أثار الشبهة بحقي بعثة أولون أن رجالها كانوا كلهم عكريين . ومرة أراد أحدهم وهو يزي مدني أن يزور دار السلاح في ينانغو ووجد من سار به اليها أشبه بمنفرج . وكان مدير دار السلاح أراد أن يطلع على كل ما فيها الا أن هذا الضابط لم يلبث ان عرف بنفسه وصرح بكونه ضابطاً وان رتبته كذا . فعندما اشبه مدير دار السلاح بالامر وبعد ان قدموا الى المنفرج الاقرنسي الشاي والحلواء بحسب العادة اعتذر واله عن اطلعه على المعمل بحجة ان العملية كانوا في العطلة وما أشبه ذلك

ثم قال كورديه — ويظهر انه هو كان هناك مدير مدرسة — انه لم يجد أدنى فرق في السحناء بين الصينيين المسلمين والصينيين البوذيين وانه كان عنده في المدرسة ٢٥٠ طالبا منهم ٥٠ كانوا مسلمين ومع شدة تحديقه وتدقيقه لم يجد في خلفتهم فرقا . فهو يرى انهم ياجعهم من سلالة واحدة . وأما الاب داود الذي صاحب ككثيراً في ينان فبقول انه رغم وجود دم عربي ودم تترى في مسلمي ينان فالغالب عليهم السحنة الصينية

ثم ذكر كورديه ان مسلمي ينان يدخنون ومنهم من يشرب الأفيون ومنهم من يشرب المسكرات لكن سراً . وهم في هذا ككسائر الصينيين لكن الاجماع عندهم واقع على اجتناب لحم الخنزير

قال : وليس للمسلمين هناك مهنة خاصة بهم بل هم أرباب أشغال وحرف مختلفة كغيرهم . وقد كانوا في القديم يحبون الجندية وكان القواد المسلمون يستكثرون منهم . فلما تحول الجيش الى النسخ الجديد قل عددهم فيه لأنه في الجيش لا يقدر الجندي المسم عارسة شعائر دينه في الوقت الذي يريد ان كانت الخدمة المنظمة تقيده بواجبات أخرى

وقال كورديه : كل من يعرف الجزائر يحار من شدة المشابهة التي يجدها بين هيئة بيوت مسلمي الجزائر وهيئة بيوت مسلمي ينان . فجميعها مساكن تحيط بدار في الوسط

وأمام المساجد كن أروقة يمر بها الإنسان من محل إلى محل بدون أن تصيبه الشمس أو المطر وليس للجوامع طرز بناء خاص يميزها عن غيرها إلا ما ندر كما على باب جامع ينانغو الذي فيه شيء من الزينة مع كتابة عربية . وليس للجوامع ما تزين كما في سائر البلدان . قال كورديه : وفي ينانغو ستة جوامع . ويقال إن في تاي ١٥ جامعاً وإن في شرق ينان ووسطها ٣٥ جامعاً . ثم قال : إن بين جوامع المسلمين وجميع البوذيين يوناناً عظيماً من جهة النظافة فإن هنا كل الصينيين ليس فيها شيء من النظافة التي نجدها في مساجد الإسلام سواء في ذلك داخل المسجد أو خارجه . ولعل السبب في هذا أن المساجد هي دائماً متغولة بالصلين على حين أن الهياكل لا يأتونها أهلها إلا في الأعياد . قال : وإذا دخل الإنسان جامعاً لم يقدر إلا أن يشعر بخشوع أكيد لا سيما إذا قاسمتها بمعايير الوثنيين بما فيها من أدوات وموازين وأصنام بشعة المنظر وآلهة سمجة البسم . وأشد ما يكون الخشوع إذا اجتمعت جماعة المؤمنين للصلاة يدخلون بلباسهم البضاء فيتركون نعالهم عند الأبواب ويتوضأون وهم يقرأون شيئاً بصوت منخفض ثم يتقدمون وبدأوا إلى الصلاة صفوفاً وراء « الاهونغ » (الامام) الذي يؤمهم .

والاهونغ لا يمارس الإمامة عندهم إلا ثلاث سنوات فقط . ولكن إن شئت الجماعة تمده له هذه المدة . وامام الجامع الأكبر في ينانغو مضى عليه ٢٥ سنة وهو في هذه الخدمة . ومعاشات الأئمة هي من جماعة المؤمنين لا يستثنى منهم إلا الفقراء . وعلى الاهونغ خدمة ثانية وهي تعليم الأحداث العقيدة الدينية واللغة العربية في جانب كل جامع مكتب للولاد . وفي بعض المساجد يوجد مدارس تعلم فيها الآداب الصينية وغيرها من مواد برامج المدارس الابتدائية .

وليس لهذه المدارس امتحانات رسمية لكن متى رأى الاهونغ تلميذه قد أتته دروسه يأمره في أحد الأعياد أن يفسر آية من القرآن أمام جماعة المؤمنين . ومن ثم ينحى هذا الدارس الذي أتى تحصيله أن يلبس الثوب الأخضر وينتقل فعال الحمل الأسود ويتعمم بعمامة بيضاء تدور بطربوش ذي قزعة . وهذه الخواص يشتريها له جماعة المؤمنين أو الذين انفتحوا على تحصيل هذا الطالب إلى أن صار متنبهاً . ثم إن هذا يعود فيقرئ غيره العقيدة والعربية

وليس للأئمة معاش محدد بل معاشهم تابعة لدرجة غلة أوقاف المساجد التي يقومون عليها . وقد يخصص للامام مقدار من الارز من غلة اراضي المسجد . ثم ان المؤمنين يؤدون اليهم شيئا عند عقد الأكلحة وفي الجنائز

وعدة أعشار المسلمين هناك لا يعرفون من العربية الا « سلام عليكم » و « بسم الله » و « الله أكبر » وبعض كلمات . وأما الأئمة فليسوا بعلماء في العربية

قال كوردي : حدثني أحد الاخوان ان ٣٠ في المائة من المسلمين يقرأون العربي بدون أن يفهموه . وخمسة أو ستة يقرأون العربي ويفهمون بعض الكلمات . وواحد في المائة يقرأ العربي ويكتبه ويفهمه كما يلزم . لكن ليس في الالف واحد يفهم أن يتحدث كما يريد باللغة العربية . ويقول كوردي : الله يحفظ عند الأئمة اجتهاداً في نشر العربية كتابهم يخشون بنشرها المزاجحة على وظائفهم

قال كوردي : وكل مرة كان الاخوان يفتشون في بائية من القرآن كانوا يتلونها باللغة الصينية . ويقال للأستاذ منهم في علم التوحيد « هوانفو » ثم اذا ارتقى قيل له « هوانغ » وهو من « اخوند » بالفارسية . واذا ذهب الى الحج قيل له « اولتش » والشيوخ الكبار من هؤلاء يقال لهم « سوفو » ويوجد من يقال لهم « أوسوتو » أي الأستاذ . وهؤلاء هم الذين حصلوا العلم في « تلوأشيو » أو « بين لينغ » من مدن كانسو وهناك مدارس أساسها من خريجي الأزهر بمصر . وليس في شان الأستاذان من هذه المرحلة أحدهما درس العربية مدة ١٨ سنة منها ١٠ سنوات في كانسو . وهو الآن مدرس في « شانيين » . وقال كوردي : الله يعرف

ثم قال ان مسلمي الصين هم سنيون على المذهب الحنفي . وبلاد « هينكيانغ » و « كانسو » و « بنان » أهلها هم أشد المسلمين تمسكا بالسنة

قال كوردي : ولم أرهم يتوضأون بالنديقي الذي يتوضأ به مسلمو المغرب والجزائر لأن الصيني بفطرته يكره الغسل والاغسال . وهذه الامة الصينية بأجمعها هي كما قال الدكتور « سفيث » Suihl الانكليزي أمة فئرة (كذا)

قال : والصدقة والزكاة جنريتان . وجميع الشرقيين يفترونهم يحبون الصدقات الا أنهم لا يحبونهم يحرون أحكام الزكاة الشرعية بحرفها . فالحكم الشرعي هو أن على المسلم أن

يؤدي للزكاة واحداً من ٤٠ من نفوقه ورأس بقر من كل ٣٠ رأساً وخروفاً من كل ٤٥ من الخراف والخمس من المعادن الخ لا أن مسلمي ينان أفقر من أن يقوموا بكل هذا وإن كانت هذه الأمور جارية في سائر بلاد الاسلام . والضيافة أيضاً أمر مقدس عند المسلمين وكل غريب أو ابن سبيل يقدم الى محل يقال له ضيف الله ويطعم ولا يسأل . وكان محمد صلى الله عليه وسلم يوصي بالصدقات الخفية ولكن غلب على التصديق حب الظهور

قال : وأقل أركان الاسلام نفوذاً في الصين الحج نظراً لبعده المسافة الى مكة فلا يستطيع الحج الا الأغنياء المترفون . ومن كل ينان لا يحج في السنة الا خمسة أو ستة . ومن كانوا عشرة . ومن « ستشوان » عشرة

نعم ذهب سنة ١٩٢٣ من ينان ١٠ حجاج الى مكة وفي السنة التي بعدها بلغ عددهم ٢٣ حاجاً

ثم ذكر كورديه شيئاً غريباً وهو أنه قد بلغ مسلمي ينان أن فرصة أحسنت معاديتهم مسلمي تركيا أكثر من انكسارهم فالوا الى فرنسا سنة ١٩٢١ جاء منهم ٢٢ شخصاً فأخذوا تواصي من قنصلية فرنسا ولم يذهب الى قنصلية انكلترا الا واحد فقط

وطريق الحج من ينان الى التونكين حيث يبحرون من « هونغ كونغ » الى سنغافوره الى جدة

ثم ذكر كورديه بعض عادات المسلمين هناك فقال : إذا ولد المولود استدعوا الاهونغ فقرأ له بعض الأدعية وأعطاه اسماً عربياً ولأجل أن ينتخب الاسم يفتح كتاب الله ويقلب الصفحات سبعة بسبع ثم ينتخب الكلمة السابعة من السطر السابع . وبعد ثلاثة أيام من الولادة يكون ما يسمونه بالحلم الثالث . ويومئذ يقدم الأصحاب هدايا من ثياب وعقود للمولود ويعمل أهله خبزاً خاصاً من دقيق وسكر معجوناً بالزيت . وأما سنة الختان فيجرونها اذا كان الولد في السابعة أو الثامنة . وأما في الزواج فلا فرق في الأعراس عن البوذيين غير أنه في اسئلة الزفاف يأتي خمسة من الاهونغات ويختصمون الى العروسين ويلقون عليهم ما نضائح ويدعون لها

وأما الجنائز فبعد ما يحتضر الانسان يستدعي الاهونغ ليقرا له ما تبشر وبعد الموت يوضع في نعش هو النعش العام لجميع الموتى من المسلمين . وعند الخروج بالميت يكون

يحملون على الأكتف الرأس الى الامام والأرجل الى الوراء لكنهم في الطريق يعكسون الأمر ويجعلون الأرجل الى الامام . وعند الدفن يكشف الأهلون عن وجه الميت ويضع في الحفرة والوجه متجه الى مكة . وبعد الموت بثلاثة أيام يوزعون في بيت الميت خبزاً معجوناً بالزيت

وعلى وجه الاحمال لا تجد عند مسلمي ينان شدة التمسك التي عند مسلمي تركيا أو افر يشبه باسلامهم ولا ترى ما تراه في الجزائر مثلاً وهو أنه متى جاء وقت الصلاة أينما وجد المسلم خر ساجداً

وفي ينان طائفتان من المسلمين « كوكياو » و « سين كيانو » واختلافهما انما في بعض الآراء الدينية لافي الشعائر . والفئة الثانية هي الضعيفة والفئة الاولى هي الجماعة

والخيرية الدينية تامة في الصين وقد أعلنت رسمياً في القانون الأساسي الذي أعلن سنة ١٩١٣ و بعد ذلك نشرت الحكومة وصايا أدبية في كتاب خاصة فيها : « إن الصينيين والمغول والمندشو والتبتيين والمسلمين كلهم أبناء جمهوريتنا الصينية بدون تفرق بين أجناس ولا أديان . والسكل أن يعتقد ببوذا أو عيسى أو محمد فليس للدولة ديانة رسمية بل الديانة حرة والحرية هي عبارة عن مجموع الحقوق المدنية السكل إنسان في شخصه وأمواله وشرفه وعقيدته فسكل ذلك بحماية القانون »

وبرغم هذا فقد أحدث الانقلاب الجمهوري في الصين ثورة في الافكار والمبادئ نشأ عنها اعتداء على الاديان والعقائد . وأراد بعض دعاة التجدد جعل مذهب كنغوشوس هو دين الدولة الرسمي وهدموا هياكل للديانة البوذية والديانة الطاوية وأقفلوا هياكل وبنعوا شعائر . ولم يعلم المسلمون من بعض الاذى وحلت بعض الجرائد عليهم . ولكن هذه الثورة عادت عكست^(١) ورجع البوذيون يبنون هياكل و يقيمون شعائرهم وكذلك المسلمون تمنعوا حرمتهم في اقامة شعائرهم الدينية ورجع الولاة في الصين ورجال الدولة يعززون مذهب بوذا

ولقد استفاد المسلمون من هذه الحرية الدينية وصاروا يجاهرون بشعائرهم أكثر من ذي قبل وصاروا ينقشون على أبواب المساجد الآيات بالحروف العربية والاعلانات بأن

(١) هذا شيء شبيه بما جرى في فرنسا يوم الثورة الكبرى سنة ١٧٨٩

هنا مدرسة لحفظ القرآن وهنا جمعية خيرية وهم جراً
يقول كوردية : لو أن الحكومة الصينية أظهرت من السماح الديني منذ مائة سنة
ما أظهرته منذ سنة ١٩١٣ لما كان جرى شيء من هذه الثورات التي نالها المسلمون في
كانسو و تركستان و ينان

وبما لا شك فيه أن المسلمين ناضلوا في كثير من شعائرهم في الماضي مراعاة للحكومة
الصينية ولدين الأكثرية . ومن الجلة اصطلاحهم على عدم بناء المآذن في جوامعهم . .
يكن لهذا سبب سوى ضعفهم . ولهذا يمكن القول بأن الانقلاب الذي حصل في الصين قد
أفقدتهم

وفي أوربة كانوا يحبون أن يعرفوا كيف كانت حركة المسلمين بازاء هذا الانقلاب
في الصين ؟ والحقيقة أن هذا الانقلاب لم يدخل فيه غير رجال العسكرية وأن الشعب سواء
كان بوذيًا أو مسلماً لزم الصمت وكان الناس قابعين في بيوتهم من الخوف أربعة أيام الثورة
ولما استوسق الأمر للجمهورية واستقر الحكم الجديد زين الناس منازلهم وقسموا النهبان
للحاكم . وكان المسلمون من الجلة فقد زينوا البيوت والجوامع واشترکوا بالأفراح

ويقال كوردية إلى القول بأن ستكون مسلمي ينان الزائدة ولزومهم العزلة التامة أصلاً
الحول الذي كان عكس فعل الثورة التي أبادت خضراءهم منذ خمسين سنة . ومن ذلك
الحين صاروا لا يتعرضون لشيء من الأمور العامة . نعم لهم بعض رؤساء من الأخوان
أو من التجار نالوا هذه الرئاسة لما بصفتهم الدينية أو بخدمتهم لجماعتهم أو بكونهم من
حجاج البيت الحرام . وقد عرفت من هؤلاء الزعماء رجلاً موسراً اسمه « ماسين كين »
عمره ٣٨ سنة ليس لرعايته سبب غير ثروته . أما شروائهم القدماء الذين كان لهم الحول
والطول في الماضي فلم يبق منهم أحد

ثم ذكر لجود مسلمي ينان وخولهم أسباباً أخرى هي فاقة اتصال بعضهم ببعض
وبسائر مسلمي الصين ثم استدلاء الفقر عليهم مما يعرف من الأرزاق التي يقدمونها للأئمة
وخدمة المساجد فانها كلها ضئيلة وأكثرها من الحبوب والأرز والزيت والنقد نادر . وكثير
من المساجد في حال الخراب وقبر السيد الأجل الشهير هو بحال الخراب أيضاً وليس من يرعاه
وبالجلة نفموه مسلمي ينان نائم عن خوفهم من السلطة الصينية لقرب عهدهم

النورة الكبرى التي جرفت منهم نحواً من ثلاثمائة ألف نسمة
ثم إن نظام الخربة في الصين أفاد المسلمين من جهة أخرى وهو أنه نشأ عندهم كما
نشأ في تركيا وغيرها من بلاد الاسلام فكرة التأليف بين العلم والدين وبين العقائد القرآنية
والمنازع العصرية وإن القائمين بهذه الفكرة وإن كانوا لا يزالون فئة ضعيفة فإنهم ماضون
في عملهم يرون أن بقاء المسلمين على هذا الجود الذي هم فيه يؤدي الى ثلاثي الاسلام
ورأس القائمين بهذا العمل هم المسمى « شا » امام جامع باب الجنوب في « ينافو »
والمسمى « ما » مدير المجلة الاسلامية المنشورة في ينان

وهذه المجلة هي لسان هذه الفئة الناطق بالاصلاحات التي يريدونها
وبرنامجهم هو ما يلي :

(١) تأليف جمعيات اسمها « جمعيات الترقى » وقد تألف منها في ينان ستون جمعية
لكنها في غير ينان لا تزال قليلة

(٢) إيجاد علاقات بين هذه الجمعيات كلها لتوحيد المساعي

(٣) نشر جرائد اسلامية بقدر الامكان . وكان في الصين ثلاث جرائد اسلامية
الأولى في بكين والثانية في شنغاي والثالثة في ينان . والاوليان احتجبتا وبقيت
الثالثة (١)

(٤) تأسيس مدارس منظمة يقوم عليها مديرون مسلمون

(٥) إيجاد وحدة تامة في العمل واشتراك في السعي والوصول الى تأسيس شيء أشبه
بجمعية الشبان المسلمين

ويقول السيد « ما » ان الذي أبقانا بحال التأخر ولم يساعدنا على تبوء المقام اللائق
بنا هو أن المثقفين في حزبنا قليلون وانما أشبه بمشركي الكاثوليك لم نقدر أن نستجلب
لينا الا الطبقة الدنيا من الشعب . فيجب علينا العمل لبث المعارف بكل جهودنا حتى يتسنى
للمسلمين أن يرشحوا لمناصب الحكومة رجالاً أكفاء فانه في ينان اذا استئلفتنا الجترال
« ما تسونغ » وثلاثة من معاوني الحكم يبقى جميع المأمورين المسلمين شاغلين وظائقه
صغيرة .

(١) المصروع أن قد صدرت الآن مجلات وجرائد اسلامية جديدة

ثم قال كوردية : ان كلام السيد « ما » هو الصحيح فاللغة التي لا تتألف الا الجملاء تبقى في حال الاحتفاظ . ثم قال كوردية :

ان الاسلام انتشر في أوربه بالقوة الفاعلة باديء ذي بدء ^(١) لكنه ما لبث أن نبع من أبنائه علماء وفلاسفة كانوا هم الوصلة بين العالم اليوناني اللاتيني القديم والعالم المسيحي الجديد وكان جامعات العرب العلمية في قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة تأثر عميق في المدنية الأوربية . ثم قال : أما جيوش جنديزخان فانتشرت في تلك آسية بدون أن تعنى بنى من الفنون العلمية أو الأدبية أو الصناعية

ثم ذكر أن انتشار الاسلام في الصين كان بواسطة طبقة اخند فالتحضر في أوساط غير راقية وأنى به الجود على منازعه وعوائده القديمة الانتشار في جميع الأوساط ولا يتكر أنه وجد قواد مسلمون كثيرون في الجيش الصيني ولكنه لم يوجد ولادة وحكام كثيرين

ونقل كوردية عن مجلة العالم الاسلامي الافرنسية أن الجود هو الذي أوقف سير الاسلام في الهند أيضاً وهذا الجود كان مصدره الآداب الاسلامية (؟)

ثم قال ان تأخر الصين كلها كان منشؤه الآداب الصينية أيضاً لأنه كما قال « ركلوس » Reclus (الجغرافي الافرنسي) أخذ أدباء الصين بقواعد كنفشيوس فلا يقدر أن يتصوروا وجود أحسن منها ولا أن يعدلوا عن البحر الى السواقي بزعمهم . وما زالوا على هذه الأفكار الى أن بدأت تذهب بالتعليم الجديد

ثم قال ان لجنة « شا » و « ما » هذه وان لم يكن عملها عظيماً الى الآن فليس مما يستحق به . وهي مادية في توحيد الحركة الاسلامية الصينية . ومنذ الثورة الجمهورية الصينية تحمى مسلمو الصين كما تحمى غيرهم من أبناء وطنهم وأنوا لجأناً كل منها مستقلة بذاتها لكنها في صلة دائمة مع أخواتها . وقد كان رئيس الجمعية الاسلامية في يانغو الجنرال « فانغ » ثم صار مكانه الجنرال « ماتسونغ » وهذه الجمعية فروع في النواحي . ولها رئيسان معاونان ثم للجمعية مدير ادارة وهو امبرالاي الآن ويده ادارة دار السلاح . ولهذا معاون أيضاً وهو اليوم أحد تجار الملح واسمه « ما »

وهذه الجمعية نفاد عظيم في جاعة الاسلام هناك فهي التي تزيد أو تنقص عدد الأئمة

(١) هذا من كوردية وم وعدم تحقيق

وتؤسس المدارس وتفصل الخصومات الشرعية

وكان السيد « ما » القائم بحركة التجديد قد أصدر مجلة اسمها « مجلة الجوامع » وتوفقت مرتين بسبب قلة المشتركين وهي الآن تظهر للمرة الثالثة (سنة ١٩٢١)

ثم قال ان هذه المجلة ملحقاً اسمه « السراج المثالي » وذكر أن الجريدة تقبل جميع ما يكتب اليها العلماء والمفسرون والفهاء ولا تؤدي اليهم بمقابله مقالاتهم شيئاً سوى أن الجريدة ترسل اليهم مجاًناً وان الجريدة تنشر رسوماً ونصاً ويرتكفي من يتفلسفها وانه ان أعان الجريدة أحد بشيء كتبت اسمه ونشكره على مهنته وان كان مبلغ الاعانة طافلاً نشر صورته

ثم نقل كورديه بعض آخوذجات من منشورات هذه المجلة . مثلاً : أن نفوذ الوعظ في الجمهور هو على نسبة تبحر الواعظ في المعارف فعلى المسلمين أن يتعلموا

واليك مثلاً آخر : ان المعارف في أوربة ما نمت ورفعت الا بعد ظهور البروتستانتية . ولولا الاسلام كانت أوربة قبلاً في جهل وكانوا يقصدون بلاد العرب لتعلم

واليك مثلاً آخر : بينا المسلمون في الغرب مظلومون مغبورون نحن معاشر الاسلام ان الصين أحرار تتمتع بالحقوق التي يتمتع بها سائر أبناء وطننا . فلنعلمك على التعلم المذهب وبذلك نكون بملأنا لأجل عظمة الصين

واليك مثلاً آخر : اذا كنا لا نعلم الا العربية أصبحنا كالصم البكم في بلادنا . وان كنا لا نعلم غير الصيني لم يتيسر لنا أن نتفاهم مع الخارج . فوجب علينا اذا تعلمنا لغتين . ان مدرسينا لا يعرفون الصيني كما يجب فلذلك ان خسروا وضايقهم صعب عليهم حتىيل معيشتهم

وفي أحد الأعداد يدعو الى ارسال مرشدين لوعظ النساء ولارشاد الأحداث الذين يجهلون القراءة

وفي عدد آخر يعلن أن الجريدة فقيرة تعيش من الاعانات وان من النفقات ما لا يد منه فيجب على المشتركين أن يؤدوا ما عليهم

وفي عدد آخر يقول : تقاؤون تذكرون « توفتسيو » زعيم الثورة الهنانية (١)

(١) من سنة ١٨٥٦ الى سنة ١٨٧٣

وتنسبون أنه ما قام إلا ليخلع سلطنة المانتو وأنه كان في جميع أحواله يتحنو حتى الملوك القدماء الخ

وفي أحد الأعداد يتساءل : هل يلزم تعليم البنات ؟ فيجيب بالإيجاب قائلاً : إن قوة الأمم الأوروبية ناشئة عن كون الجميع متعلمين نساء ورجالاً
وفي أحد الأعداد يقول انه ليس للأديان أن تعني بالظواهر الجذابة بل يجب أن تعني بتعليم الحقائق .

قال : ولهذا فاقوى الأديان البوذية والبروتستانتية والاسلامية

قال كورديه : وإن لجنة إدارة المجلة كانت مؤلفة من الجمعية الاسلامية ومن مجالس الأوقاف ومن جمعية طلبة المسلمين القدماء ومن جامعة المدرسة العربية في عاصمة ينان ومن أئمة المساجد ومن ذوي الحجة

أقد أحيينا أن نلخص هذا الكتاب الذي ألفه المسيو كورديه في التعريف بمسلمي ينان لأنه أشبه بصورة مصغرة عن مسلمي الصين بأجمعهم ولأن ينان ولاية من ولايات الصين والبلاد هناك متشابهة والمسلمون بخاصة يشبه بعضهم بعضاً أكثر من جميع الأمم ولو تباينت أصولهم . ثم اتنا نقلنا أمائيل من كتابات جريدة المسلمين في «ينان» لأن الجرائد من أندية الأمور على عقليات الشعوب وطرز تفكيرها وعلى اختلافاتها الروحية

ورأينا فيما أترناه عن هذا الكتاب ما فيه كفاية عن تلك البلاد بالنسبة إلى ما يهم القراء معرفته عنها . وبقى من هذا الكتاب القسم المتعلق بثورة ينان العظيمة الشهيرة قبله قد اكتفيتم منها بالخلاصة التي أسلفناها^(١) وبالاختصار كان المسلمون قد غلبوا على ولاية ينان واستبدوا بأمرها وأصبح زعيم النوار سلطاناً بالفعل واستمر استقلالهم ثلاث عشرة سنة إلى أن تمكن الصينيون من ضرب بعضهم ببعض وإيقاد الفتنة فيما بينهم فتنازعوا وقتلوا وذهبت ريتهم كما حصل في كثير من مواطنهم وانتهى الأمر بتجزرة قلماً سبع التاريخ بتمامها . وإلى اليوم لم يقم مسلمو ينان من هذه الجزرة التي أبادت منهم مئات آلاف ولقد ختم كورديه كتابه هذا باللمحة دالة على الاسلام في الصين بأزاء الباطن الاسلامي أي الجامعة الاسلامية ولم يقتصر فيها على مسلمي الصين لحسب بل تناول مسلمي الهند ومسلمي

(١) راجع صفحة ٢٢٧ من هذا الجزء

الجاوى وتوابعها ومسلمي الفيليبين. ونحن ملخصون رأيه في حالة الاسلام بهذه الأقطار الأربعة

رأى كوردية في حالة الاسلام

في الصين والهند وجاوى والفيليبين

قال: ان حركة ابن عبد الوهاب في قلب الجزيرة العربية خيلت لأوروبا ان هناك نهضة عربية واسعة النطاق لاستئناف عظمة السلطنة العربية الا أن جيوش محمد علي قضت عليها ثم قال: ان كثيرين من المؤرخين الأوربيين وفي مقدمتهم «لوزوب ستودارد» يذهبون الى أن «العالم الاسلامي في انخفاض شديد وان المائتين والحسين مليون مسلم المنتشرين من مراكن الى الصين ومن تركستان الى الكونغو يتخلجون تحت تأثير أفكار جديدة واتهم سيدخلون في طور جديد قد يحدث انقلاباً في العالم كله» يقول كوردية: ان فرنسا لا ينبغي لها أن ترافق حركات مسلمي الجزائر وتونس ومراكش فقط بل حركات مسلمي آسيا أيضاً. نعم ان المسلمين الذين في مستعمرة فرنسا في الهند الصينية هم عدد قليل الا أن مركز هذه المستعمرة الكبيرة هو واقع بين الصين والهند وماليزيا والفيليبين والاسلام في جميع هذه الأقطار راسخ القدم كما لا ينبغي فيجب على فرنسا أن ترافق سير الأفكار الاسلامية في آسيا لتعرف ما ينشأ منها من اتصال لأن أكثر الثورات انما تنشأ عن اتجاهات فكرية جديدة

ثم ذكر كوردية حركة الاسلام في الهند وقال: ان المسلمين في الهند كانوا وقفوا وراء الهندو الذين يتطلعون الاستقلال التام ويناديون «بأنديمتاران» أي سلام على الوطن الأم. وذلك لأن معنى هذه الكلمة عند الهندو هو الخراج كل غريب من الهند والاسلام من الكلمة. ولذلك كان المسلمون في البداية عضداً للإنكليز. فلما حصلت الحرب الكبرى وانتهت بتقسيم الإنكليز تركيا ورأى المسلمون ان انكلترا أرادت القضاء على الخلافة وازادة تركيا غضبوا وانضموا الى الهندو. وهي أول مرة اتحد فيها هذان الفريقان بسوء سياسة انكلترا

فأما في بلاد اندونيسيا أي المستعمرات الهولندية جاوى وسومطرة وتوابعها فبعد أن ذكر كوردية تاريخ دخول الاسلام فيها وصل الى الحالة الحاضرة التي عليها مسلمو هذه الجزائر فقال: ان اسلامهم ليس بشديد الصبغة وان العالم الاسلامي لم يزد منهم الا زيادة عدد

فقط . وإن إدارة هولاندة هي من التسامح بحيث لا تجعل لانقاضيهم سبباً . قصارى الأمر ان مسلمي اندونيسيا يشدون العلم والتعلم ويجهدون بواسطة العلم أن يحصلوا على حق إدارة أنفسهم بأنفسهم . ولم يحقق الأمر من وقوع ثورات هناك كما جرى في بلاد « اتشين » وهذا فيها قديم يقال ان أصل من أغلاط الهولانديين وأخطئهم البرى بذنب المجرم وارنسكابهم في تلك البلاد الظلم وسفك الدماء

نمذكر اسلام الفيليبين فقال : ان ظهور الاسلام في تلك الجزائر التي يقال لها « مينداناو » وفي أرخبيل سولو كان في وقت ظهور الاسلام في بورنيو . يقال ان تجار العرب نشروا الاسلام هناك فقبل لهم « المورو » كما كان يقال لمسلمي الأندلس . ونعم من بعدها مسلمي الفيليبين . وقد بدأ وجود الاسلام في هذه الأماكن من قبل سنة ١٥٠٠ وكان سلطان بورنيو تزوج بأبنة سلطان مينداناو فأنس سلطنة سولو التي استعجل أمرها . وما كان بين الاسبانيول وبين المورو عدواة من عهد الأندلس فقد غلظوا على المسلمين وأخرجوهم فبدأت الثورة في « لوسون » من سنة ١٥٧٦ وصارت الحرب متصلة بين الفريقين من جهة المسيحيين الحرب الصليبية ومن جهة المسلمين الجهاد في سبيل الله

وكان سلطان سولو أحد أمراء المورو مقاومة فاعترف الاسبانيول باستقلاله سنة ١٨٣٦ لكنهم عادوا ففقدوا سنة ١٨٤٤ و ١٨٥٠ ثم تصالحوا سنة ١٨٦٠ ولم يكن لهم في سلطنة سولو الى حد سنة ١٨٧٦ الامياد اسمية

أما اميريكيو الولايات المتحدة فلما انزعوا الفلبينيين من أيدي الاسبانيول استخفوا بأمر سلاطين المورو فعرفوا عاقبة خطئهم لأن هؤلاء كانوا لا ينهاهون عن الغيت والقتل والفساد في الأرض حتى ملئت الحكومة الاميريكية منهم . وكان الاميريكيون يرجون بواسطة التعليم وفتح المدارس أن يصلوا الى السلام ولكنهم أسرعوا في التغاول وكانوا وعدوا الفلبينيين بالاستقلال الداخلي لكنهم استعجلوا في الوعد^(١)

قال كورديه : ان جميع هذه الثورات لم تنشأ عن بابسلامسيم ولا عن ارتباط عام بين المسلمين ولا عن مجرد بغض وشتان للأجانب . بل هذه ثورات منشؤها هموض الأهالي بطلب حقوقهم من الأمم التي نساطت عليهم . ولا يوجد مسلم واحد لا عالم ولا جاهل يحلم بجمع

(١) ذلك انه في أواخر هذه السنة المصرفة سنة ١٩٢٢ قرر مجلس النواب الأمريكي استقلال الفلبين

بلاد الاسلام تحت سلطة أمير واحد واستئناف دولة الخلفاء . نعم لما كان أكثر المسلمين وقع تحت عبودية الأجانب فتجدد بينهم يخنون بعضهم الى بعض بسبب اتحاد العقيدة والنشأة في المصيبة الأجنبية الواقعة عليهم . ولا يرى أدنى عجب في هذا الأمر

ثم عاد كوردية الى ذكر منشأ الاسلام فقال : انه لم توجد ديانة من الديانات الكبرى لا الزرداشقية ولا البوذية ولا النصرانية انتشرت بسرعة انتشار ملة محمد . فانها بدون عقد استمدت في ثلاثة قرون من الجيران الى حلايا ومن قلب آسية الى قلب افريقية . ولم تكن أسباب سرعة هذا الانتشار سوى ضعف ملكتي بزنطية وفارس وحماة العرب الفاتحة وفروسيتهن الباهرة وسداجة العقيدة التي نشروها . ثم باختلاط الغالبين بالمغلوبين تولدت هذه الحضارة الاسلامية التي لمعت لمعانا شديداً بينما كان العرب هائماً في الظلمات (١) الا أن لعان الاسلام لم يحسن طويل الأمد . بل بدأ بالانحطاط من القرن العاشر (المسيحي) الى أن قال : انه من سنة ١٠٧١ تغلب الترك على الفرس وانتهت دولة العرب ومع أن الترك كانوا محاربين أشداء فلم يكونوا أهل ملكة عمرانية . وفي سنة ١٢١٣ سقطت خلافة قرطبة بتغلب النصارى . ثم في سنة ١٢٥٨ سقطت بغداد في أيدي المغول فاضمحلت القوة الاسلامية . ثم استأنف الترك السلطنة وأخذوا بزنطية وبلاد البلقان والمجر وشمالي افريقية والشرق الأدنى فصار لهم من فارس الى مرا كيش . إلا أنهم من بعد خذلهم أمام اسوار فيينا (سنة ١٦٨٣) تراجعوا القهقري

وكان جاء عصر التجدد في أوربة « رينسانس » واهتموا الأوربيون الى كشف أمريكا فانتسعت مولد تروتهم وامتد ظل سلطانهم . ومن ثمة لم يكتفوا بدفع المسلمين عن بلادهم بل تجاوزوا عليهم وأخذوا يفتحون بلاد الاسلام قطراً قطراً فانقضت بلاد اليونان ثم رومانيا ثم بلغاريا عن تركيا . واستولت انكلترا على مصر والهند . واستولت روسيا على القوقاز وآسية الوسطى . وبسطت فرنسا يدها على شمالي افريقية . وهم جرا وعند نهاية الحرب العامة لم يكن بقي مستقلاً من ممالك الاسلام غير تركيا . وهذه أيضاً كانت معاهدة فرساي أخذت على استقلالها

اسكن ان كانت قوة الاسلام العسكرية والسياسية قد سقطت فإن قوته الأدبية لم

(١) قال هذا كوردية بالحرف

تسقط ومن القرن السابع عشر الى الآن نراها على ازدياد

ثم مثل كوردييه نمو قوة الاسلام المعنوية بانوهابية ثم بالسوسية التي هي أقوى الفرق
الاسلامية بعد الوهابية. وذكر ان امامها الحالي هو السيد أحمد الشريف ابن شقيق
سيدى المهدي

وعاد نغم كلامه بذكر اسلام الصين قائلا ان ثورات شانسي ونيان هي كما قال
قارنيه والأب دلود واندرسون وغيرهم لم تحصل عن تعصب ديني بل عن حسن المحافظة
على النفس. وكذلك ثورات كاسو سنة ١٨٦٤ و ١٨٩٥ كانت لاسباب نفسها وانتهت
صلحا. وبقيت مقاطعة منشوان التي هي بين شانسي وكاسو ساكنة ساكنة مع
اشتغال أربع ثورات من عن جوانها

قال : ولقد كثر بكهنة العلماء والمؤرخين على مستقبل اسلام الصين وكل منهم
أدلى بدلوه وقال « فاسيليف » سنة ١٨٩٧ : اذا انتشر الاسلام في الصين كما انتشر مذهب
بوذا ينقلب وجه العالم

وقال « دورسان » صاحب كتاب « المهدية في الصين » انه ان تقسمت الصين
وفقدت وحدتها السياسية استفاد المسلمون في المفاضعات التي أكثرها منهم واستقلوا.
وتكون مدة استقلالهم تعجب حسن ادارتهم ومشيئة الله. وان ترقى الصين في العلوم
والمعارف وصارت دولة من أعظم دول الكرة الأرضية كان لا مناص لها من أن تترك
أضاليلها وعقائدها الوثنية وأن تأخذ بديانة تعبد بها الواحد الأحد ولن نجد لها حقيقيا
أقرب من الاسلام الذي يدين به عشرون مليوناً من أبناءها. ولكن لنكن أوروبة من
حادث كهذا على ثقة انه لن يحدث انقلاباً لأن اسلام الصين سيكون مصطبغاً بصبغة
مسيحية (؟) لا يهجه الا السلام ونشر المذنية الحق (؟). وقد انتقد كوردييه هذا الكلام
وقال : هذا حلم من الأحلام. فمن يقول ان اسلام الصين سيصطبغ بصبغة مسيحية ؟

ومن تخوفوا من مصير الصين الى الاسلام الكاتب الانكليزي آر تولد

قال كوردييه . وقد مضى خمسون سنة على هذه الآراء ولم يتقدم الاسلام في الصين
شبراً وذلك لأن الأمة الصينية ليست بأمة ذات اشتغال بالعقائد وانما هي أمة مادية لا يهملها
الا الحياة الدنيا

وقال « أولون » ان النورات كثيرة في الصين والاتقلابات مستمرة فان وصلت
ثبوتية الى قائد مسلم وتمكن من الاستواء على العرش لا يبعد أن ينحول قسم كبير من
الشين الصين الى الاسلام

وعندنا أيضاً خطأ بحسب رأى كوردية لأن الجنرال « ماسونغ » في بنان هو مسلم
هو القائد الأول فيها وما أسلم على يده واحد . وكذلك الجنرال « ما » المشهور
والنهاية بحسب رأى كوردية ان مسلمي الصين يقبلون على تبار التجدد نظير أبناء
وطنهم الصينيين وان جميعهم مع ذلك يغلب عليهم السكون بمقتضى فطرتهم . انتهى

تعليقات على مبحث مسلمي الصين

مقالات وأحاديث للصينيين أنفسهم

أحبينا لأجل زيادة شفاء الغليل من مبحث اسلام الصين أن ننشر خمس مقالات
اجداها ظهرت في جريدة الأهرام تاريخ ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣١ والثانية ظهرت في الأهرام
أثنا سنة ١٩٣٣ والثالثة والرابعة في جريدة الفتح تاريخ غرة رمضان و ٦ ذي القعدة
سنة ١٣٥١ والخامسة في الجامعة العربية بتاريخ ٢٤ شوال سنة ١٣٥١
فالأولى تتضمن حديثاً لرئيس البعثة الصينية في الجامعة الأزهرية والثانية تتضمن
حديثاً احام صيني نزيل نكية السككني بمصر والثالثة هي محررة بقلم السيد محمد مكيين الصيني
من المجاورين بالأزهر

حديث لرئيس البعثة الصينية الازهرية

الاسلام والمسلمون في الصين

فصدت في صبيحة أمس الى الدار التي اعدتها وزارة الاوقاف ليلسكن فيها أعضاء البعثة الصينية التي أوفدها حكومة الصين لدراسة العلوم الدينية والمدنية في الجامعة الازهرية وسألت عن أعضائها وعن رئيسهم فأخبرت بان ادارة المعاهد الدينية قد أعدت لهذا اليوم لاختبارهم في اللغة العربية وفي القرآن الكريم وفي الخط العربي والاملاء والانشاء ، فذهبت الى مقر لجنة الامتحان في الجامع الازهر وظللت أنتظر حتى انتهوا ، ثم تقدمت الى مدير البعثة وطلبت منه أن يحدثني عن الحالة الاجتماعية في الصين وعن الاسلام والمسلمين في تلك الديار النائية القاصية فابتسم وقال لك عندي كل شيء واني على استعداد لارأى أحدث معك في كل شيء إلا السياسة فاني لا أعرفها ولا أكنف نفسي عنها الغوص في اسرارها وبواطنها واكتناها ، فقلت له وهل محظور عليك ان تتكلم في السياسة ، وهل السياسة عندكم شيء ثانوي أو كافي لا يعني به الا بمقدار ، وهل بلغت الصين في السياسة شأوا بعيدا ونالت كل ما تصبو اليه الأمم من الحضارة والمدنية فأضحت لا تنظر الى السياسة الا كما تكون المحية عند الرجل الديني المتعمق في معاني الايمان ؟ فنظر الى رئيس البعثة نظرة ذات طابع صيني وقطع على حديثي وقال : اني يا سيدي رجل ديني فقط : وأرأس معهد دينية فقط ، وهناك قوارق متعددة بين الدين والسياسة ، ولقد درسنا الدين في بلادنا الى درجة محدودة وجئنا نطلب المزيد هنا ، وما اتصلت ولا اتصل أحد من أعضاء البعثة بالسياسة ولا جالسنا أحد الرجال السياسيين لاننا نرى في مزرعة وهم يرعون في مزرعة أخرى . وما أبعد الفارق بين المزرعتين . وسكت . فقلت وهل لنا أن نتحدث عن الناحية الاجتماعية والدينية في الصين ، فقال لك هذا ، وجلس ، وجلس حولنا أعضاء البعثة وجرى بيننا

هذا الحديث :

قلنا — ما هو عدد المسلمين في الصين وما هو عدد غيرهم من الطوائف الاخرى ،

وهل هناك تنافس ديني بين المسلمين وغيرهم من تلك الطوائف ، ولاي سبب يرجع ذلك التنافس ، اذا كان موجودا ؟

قال — أما عدد المسلمين في الصين خمسون مليونا ، وعدد السكان أربع مائة مليون ، والمذاهب الدينية في الصين متعددة كالكونفوشيسية ، والبوذية ، والسيحية ومع ذلك فان أكثر أهل الصين لا دين لهم ، وهم يعبدون أشياء متعددة ، كالجمال والنور والنار ، وبعضهم يعبد الماشية والدواب ، وهناك مذهب ديني قليل الانتشار يسمى « التوفينية » نسبة الى رجل يقال له « لوتزا » وأصحابه هم المنصوفة المنصفون الزاهدون الذين لا يتزوجون طوال أيام حياتهم ، ولا ينظرون الى المرأة ولا يتصلون بها أي اتصال وانى أقررت ان بين المسلمين وبين أفراد الطوائف الأخرى تنافسا دينيا بعيد المدى شديد الأثر ، وذلك لأن الطوائف غير المسلمين تفتننا وترميننا في اعتقادنا الديني ، وهم منعصبون ضدنا كثيرا . ويرجع السبب في أغاب المعارك الدموية الداخلية الى ذلك التعصب الديني ولكن الأديان في الصين أمام القانون سواء وحرية المعتقدات مكفولة والحكومة لا تناصر طائفة على طائفة ولا تؤازر مذهبيا دون مذهب فهي لا دينية ولا تنفع خططا دين معين

قلنا — وهل يوجد بين الموظفين في الحكومة أفراد مسلمون ؟ وما هو عددهم ؟ ؟
قال — نعم يوجد بين الموظفين في الحكومة أفراد مسلمون . منهم خمسة قواد في الجيش ومحافظ لأحدى عواصم المقاطعات ، وبعضهم يشغل وظائف في المجالس البلدية والمحلية وبعضهم في وظائف التسير يس ، وهناك مسلمون كثيرون في الجيش كجند لانهم مشهورون بالشجاعة والأقدام . وأما في الوظائف الملكية المدنية فعددهم قليل جدا .

قلنا — أليس هناك قانون عام للتجنيد ، وكيف نكون أكثرية الجنود من المسلمين مع أن القانون عام ينفذ على الجميع ؟ ؟

قال — المسألة نسبية . والقانون حقيقة عام ولكن عدد المسلمين في بعض المقاطعات الصينية أكثر من عدد أية طائفة من الطوائف الأخرى لأنى اذا قلت لك ان عدد المسلمين في الصين خمسون مليونا لوجب أن يكون عدد كل طائفة من بقية الطوائف الأخرى أقل من ذلك بكثير وفي الصين أكثر من خمسين دينيا ومذهبيا

قلنا — هل لك ان تحدثني عن نظام الزواج والطلاق عندكم ؟ ؟

قال — ان جميع المسلمين يتزوجون ويطلقون وفق ما جاء به القرآن الكريم والزواج عندنا لا يتم الا بعد موافقة الزوج والزوجة ورضائهما عن بعضهما رضا تاماً موثقاً به . ووثيقة الزواج واشهاد الطلاق عندنا تسجل أمام المجالس البلدية والمحلية . ومن يتزوج أو يطلق من غير أن يثبت زواجه أو طلاقه أمام تلك المجالس يعاقب بالسجن

قلنا — يؤخذ من هذا أن ليس هناك محاكم شرعية لكي تفصل في المنازعات

الزوجية التي تحدث بين الزوجين المسلمين بمقتضى أحكام الشريعة الإسلامية ؟ ؟

قال — لا ، لا ، ليس عندنا محاكم شرعية لمثل هذا النوع من القضايا ، بل ان المنازعات الزوجية عندنا وما اليها من المشاكل الشخصية تدخل ضمن المسائل المدنية . ويفصل فيها مجلس قضائي مؤلف من أعضاء متعلمين ومنخبين انتخاباً حراً عن طريق التصويت المباشر وهو يصدر أحكامه في المسائل المدنية التي تدخل ضمنها مسائل الزواج ، والحكومة ملزمة بتنفيذ أحكامه

قلنا — أليس للمسلمين في الصين رئاسة دينية ؟ ؟

قال — نعم ليس للمسلمين عندنا رئاسة دينية وليس لنا رئيس ديني ، وليس هناك من يشرف على التقاليد والأصول الإسلامية غير الجمعيات الأهلية المحلية والتي لأذكر لك هنا أن لمسلمي كل مقاطعة نوعاً من التقاليد مصطلحاً عليه ، ومقاطعة يونان فو ، هي أشد المقاطعات حرصاً على الاسلام ، وغيره على آداب وتقاليده

قلنا — هل المسلمون في الصين منفقون تنقيفاً علمياً عصرياً يسمح لهم بأن يزاولوا أو يتقنوا الوظائف المدنية الراقية ، وما هي نسبة المتعلمين منهم ؟ ؟ وهل أحوالهم المالية تسر على وجه العموم ؟ ؟

قال — إني آسف لأن أقرر هنا ان عدد المسلمين المتعلمين تعليماً عصرياً قليلون جداً ، والأغلبية منهم أمية ، واما نسبة المتعلمين فهي اثنان في المائة أو أقل من ذلك في بعض المقاطعات ، والمسلمون في الصين فقراء كثيراً وحالهم المالية لا تسر على وجه العموم قلنا — هل الذي يرتكب جريمة هتك العرض مثلاً ، يعاقب عقاباً دينياً ام

مدنياً ؟ ؟

قال — ان الذي يرتكب أية جريمة جنائية يحاكم أمام المحاكم الجنائية التي لها قانون مدني أهلي

قلنا — وهل المسلمون متمسكون بدينهم ، وهل هناك مساجد للصلاة
 قال — أعود فأكرر الأسف إذ أقول ان مسلمي الصين لا يفهمون الاسلام على
 الوجه الصحيح ، وذلك يرجع الى جهلهم وعدم تعليمهم ، وعندنا مساجد كثيرة يبنى بعضها
 منذ دخل الاسلام في الصين ، وأول من بنى مسجدا هو الملك « طان » الذي أسس مسجد
 كوانتونغ ، ومع أن المساجد كثيرة إلا انها خربة لا يؤمها إلا القليلون
 قلنا — ما هو مركز مصر الديني عند مسلمي الصين ، وما هو مقام الأزهر
 عندهم ؟؟

قال — ان مركز مصر الديني عندنا هو مركز كبير لا يسمو عليه أي مركز في
 الوجود ، واننا نحب مصر من قلوبنا ونعدها قبة الاسلام ، وبخاصة لأنها بلد الجامع الأزهر
 الذي نعتقد فيه أنه منبع الاسلام الصحيح
 قلنا — وهل المرأة الصينية متحجبة أم سافرة ، وهل لها حقوق مدنية مقررة في
 دستور البلاد ؟

قال — ان المرأة الصينية سافرة وحالتها الآن أحسن بكثير من ذي قبل وهي تتمتع
 بالحقوق المدنية التي يتمتع بها الرجل ، إذ ان لها حق الانتخاب والتوظيف في القضاء
 والادارة وفي المجالس البلدية والمحلية

وانتهى الحديث بنا الى هذا القدر وشعرت انه متعب فاستأذنت في الانصراف
 وشكرته وودعني بتأييدو عليه من الحياء والتواضع

أحمد عبد الحليم العسكري

حديث عالم مسلم صيني

نزول تكية الكلاشني في مصر

في صباح الخميس أول يوم من عيد الفطر المبارك قدمنا نحن الثلاثة زيارة هذا العالم الذي قرأنا بعض أخباره وآثاره في الجرائد والمجلات المصرية ، فلما بلغنا شارع تحت الربع صعدنا الى باب التكية واستقبلنا مقام الكلاشني وبه وجهة مصنوعة من الفسيفساء الجيدة الألوان المثقنة الصنع ثم اتجهنا ذات اليمين وصعدنا درجاً فسيحاً وبالذور الأعلى وجدنا غرفة عليها منظر البساطة والزهد وبها سريران وصندوق مملوء بالكتب والأوراق وفي وسطها رجل في نحو الستين من عمره قصير القامة نحيف البنية أصفر الوجه عاقل الجبين بارز الفك الأعلى لا نبات بعارضيه ويكاد يكون شعر شاربه عذرا ويجواره فتى في نحو العشرين من عمره غنيهما باللغة العربية فريد العالم تحببنا بعربية فصحي وأظهر سروراً عظيماً بزيارتنا في هذا اليوم المبارك ثم أجلسنا وقدم لنا الشاي الصيني الخفيف في آتية صينية ثم قدمنا إليه أسماناً ودار بيننا الحديث الآتي . قال العالم :

« اسمي « واي ون كين » وترجمته بالعربية سعيد الياس وصناعتني عالم اسلامي وللمم بلدي تنسين ومحرر جريدة تنسين وقد سافرت من بلدي منذ عام وغائتي من هذه السياحة الاطلاع على أحوال الأقطار الاسلامية والاستشارة بالآفكار الجديدة الموجودة في الشرق الأوسط والشرق الأدنى فزرت بلاد الهند وها أنا في مصر وسأزور سوريا والأناضول والامانة ثم أعود الى وطني »

قلنا — كم عدد المسلمين في بلادكم وما هي حالة تعليمهم وشنوونهم الاجتماعية

أجاب — يبلغ عدد المسلمين في الصين نحو سبعين مليوناً وكلهم يقومون بواجباتهم الدينية وفي بلدي نحو أربعين مسجداً ومعظمهم يقرأون الكتب العربية ينطقون صيني ما عدا العلماء الذين يتعلمون العربية منذ الصغر . ويؤدون الصلاة باللغة العربية . ونعدد الزوجات وإن يكن مباحاً بالشرع في الدين الاسلامي الا أنه مفقود من عادتنا فلكل رجل امرأة واحدة بحكم عادتنا والطلاق نادر جداً ويكاد يكون معدوماً . وقد درست في صغري

وشياي الفقه والحديث والسنة وعلم الكلام والتصوف والتوحيد وآداب اللغة العربية

سألتاه — هل يوجد ليوندا وكونغوشيوست أنباع كثيرون في الصين

أجاب — ان ليوندا منبع في بلاد الهند فقط وقد ذكره عندنا قليل أما كونغوشيوست فله أنباع كثيرون في الصين ويطلق عليهم اسم « أصحاب كونغوشيوست » ولم يكن هذا الزعيم المصلح نبياً مرسلاً ولم يغفل بذلك هو نفسه أو أحد من أصحابه بل كان حكماً وكل تعاليمه خاصة بشؤون هذه الدنيا وتدير الأمور المادية والسياسية والإدارية وأصحابه ليسوا مفكرين بعبادة إله معين فهم يعيشون ما يشاءون كأجدادهم فيعبدون الأشجار والأنهار وبالجملة فانهم مشركون .

سألتاه — وما حجة الصين منذ دخول الحكم الجمهوري في البلاد ؟

أجاب — ان الشرقي عامة محتاج الى حكم قوى يكون مصدره العدل والحكمة وحب الخير واسكن الحكماء الذين من هذا القبيل لا وجود لهم في هذا الزمان وأفضل مثال لهم الخلفاء الراشدون في صدر الاسلام ونحن المسلمين في الصين نعتقد في أن الاسلام دين شوري وديموقراطية وقد جاء فيه « وشاورهم في الأمر »

سألتاه — هل حصل تقدم في البلاد في الأعوام الأخيرة ؟

أجاب — نعم فقد أبطلت عادات كثيرة من العادات الرديئة مثل تعذيب أقدام الفتيات ومنعها من التمرقظناً بأن هذا أثر من آثار الجلال وأصبح هذا الفعل معافياً عليه وبدأت بلاد الصين تشعر بوجودها القومي وتسرده المقاطعات التي كانت اغتصبتها منها بعض الدول الأجنبية وهي سائرة ببطء لأنها أمة عظيمة ومسلكتها مترامي الأطراف .

سألتاه — وما هو شعوركم نحو الدول الأجنبية

أجاب — ان اليابان وان كانت من جنسنا الا أنها دولة قوية وميالة لالتهامنا فهي كما وجدت فرصة للإقتراض علينا فلا تتأخر وهذا دليل على أن اتحاد الجنس والدين لا يقف في سبيل المصلحة السياسية فنحن نبغضها . أما الدولة المحبوبة لدينا فعسلاً فهي الولايات المتحدة وهي التي نفسج على منوالها كل شيء وهي تظهر لنا المحبة وكل معاملتها معنا كانت بالاقوال والكتابات لا بالأفعال الحمجية كغيرها مثل الحرب أو الاستيلاء على بلادنا

سألناه — ما رأيك في علماء مصر ممن زرتهم وزاروك

قال — لم يزرنى أحد منهم ولا أعرف الا اسماعيل بك رأفت والشيخ طنطاوى جوهرى. وقد عرفت كثيراً من العلماء بالكتب مثل الشيخ محمد عبده وأظنه كان من أعظم رجال العالم فاطبة ولا يقتظر أن يجود الزمان بشيء في الوقت الحاضر فقد كان عالماً دينياً وسياسياً واجتماعياً وليس في مصر من يخلفه. واسم مصطفى كامل باشا معروف جداً لدينا في الصين لأنه أسس الحركة الوطنية في مصر كذلك اسم مصطفى كمال غير أننى غير مستغل بالسياسة ولا بهمنى أمرها الا من حيث تهتم ترفية شؤون قومى وقد ترجمت كتباً كثيرة من اللغة العربية الى اللغة الصينية مثل تاريخ مصر القديم أما التاريخ الحديث فليس معلوماً لدينا ولم نصلنا كتب عنه ونحب أن نكون علاقة مصر بعلمى الصين قوية

سألناه — هل يستطيعون وتودون أن تلقوا محاضرة باللغة العربية عن حالة المسلمين

بالصين من الوجهة الدينية والاجتماعية في جمهور من المتعلمين المصريين
 أجاب — أستطيع ذلك على شرط أن أولقها بالكتابة أولاً ثم أقرأها لأننى لا أستطيع أن أرتجل خطبة. فشكرناه واستأذناه في الانصراف ونرجو من وزارتى الأوقاف والمعارف وعلماء مصر وأديانها أن يعتنوا بزيارة هذا العالم واكرام وقادته فقد قال لنا عند ذكرك مصطفى كامل انه يعلم أن شعار انصريين هو — « أحرار في بلادنا كرماء اضيوفنا »
 (الأهرام)
 (رؤوف — ح . رمزى — لطفى)

الاسلام في الصين - غابرة وحاضرة

- ١ -

بساتني دائماً اخواننا المسلمون عن أحوال الاسلام في الصين ، و يسرني غاية السرور عنايتهم بالدين ورغبتهم في العلم ولوفي الصين . فأكتب بحول الله هذا الكلام الوجيز لفضاء حاجتهم الشديدة وتوطيد التعارف والتفاهم بين شعوب الاسلام وأسأل الله تعالى أن يوفقنا لما فيه الخير وهو القريب المحيى

تاريخ دخول الاسلام في الصين

حتى دخل الاسلام في بلاد الصين ؟ هذه مسألة غامضة فيها روايات متعددة مختلفة وعلى الرواية المشهورة عند المسلمين الصينيين أنه في سنة ٦٣٧ م (قبل وفاته عليه السلام) وعلى رواية أخرى كان ذلك في سنة ٥٩٩ م (قبل الهجرة النبوية) وعلى تحقيق حجة التاريخ الاسلامي الصيني البروفسور جنيون أن أول وارد من الدولة الاسلامية الى الدولة الصينية أوفد سنة ٦٥١ م (في عهد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه) وقال البروفسور : ان مناط الاختلاف في ذلك تباين التقويم الصيني مع التقويم العربي لأن السنة الصينية سنة قمرية شمسية بالسنة الشمسية في كل سنة بسيطة ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً كالسنة القمرية تماماً ، وأما السنة الكبيسة فيزداد فيها شهر واحد وتكسب السنة مرة في كل ثلاث سنوات ومربعين في كل خمس سنوات وسبع مرات في كل تسع عشرة سنة لتتفق مع السنة الشمسية ، واستعملت الحكومة الصينية التقويم العربي سنة ١٣٨٤ م وهي توافق سنة ٧٨٦ هـ فطرحت ٧٨٦ سنة من التقويم الصيني ليعرف مبدأ التقويم العربي بالنسبة الى التقويم الصيني ، فوقع الخلاف ، وهذا كلام معقول مرجح عندنا . والله أعلم

العلاقة بين الدولتين الاسلامية والصينية

ذهب في عهد الخلفاء الراشدين الى الصين الوفود الاسلامية والتجار المسلمون من العرب والفرس متعاقبين ، وكانت الجالية الاسلامية في عاصمة الصين وحدها عددها أربعة

آلاف شخص وهي أكثر من الحالية الأفريقية الموجودة الآن في بكين ، وعلى أعضاء
البروفسور جينون بعثت إلى الصين في عهد أسرة «تان» وأسرة «سون» من سنة ٦٥١
إلى سنة ١٢٠٧ م الوفود الإسلامية ٧٦ مرة واستتجد سنة ٧٦٢ م عاهل الصين بالمسلمين
على الثأر القائد شيجو في

العظماء المسلمون المتقدمون

كان عواهل الصين يتعاملون بالمسلمين . وفي عهد أسرة «يون» وهي أسرة جنكيزخان
(سنة ١٢٧٧ - ١٣٦٧ م) كان للمسلمين منزلة عالية سياسية واجتماعية ، والأعيان المسلمون
المسجلة أسماؤهم في سجل طبقة الأعيان الملكي كانوا أكثر من مائة نفر . وكان السيد
جاسر الدين والياً عادلاً على ولاية يونان ، وحفر في نواحي عاصمتها قنوات كثيرة لازالت
باقية مفعلة ، وبنى فيها لأغلبها الكافرين هيكلاً للفيلسوف الأكبر كونفوشيوس ، وهو
أول هيكل بني لذي ولاية يونان . والسيد جاسر الدين ذكر خالد عند سكانها فأقيموا تمثالاً
في هيكل الحكاء (البانيون) في عاصمتها وقد تولى ابنه السيد بان رئاسة الوزراء سنة
(١٣٣٣ - ١٣٤٠ م) . وألف الأديب المسلم جنس بضعة عشر مؤلفاً ، ومازال ديوان
البار المسلم دنها في منتشر حتى الآن . وكان تخدير مهندساً في بناء سور القصور في بكين
ونال سنة ١٣٣٣ م عشرة من الأدباء المسلمين الشهادة العلمية الملكية العليا وفي أسرة
« مين » (سنة ١٣٦٥ - ١٦٤٣ م) استعمل التقويم العربي فقام الشيخ محمود بنرجه
الكتب التقويمية العربية وأرسل العاهل سنة ١٤٠٦ م الطوائف المسلم جنبها قائداً الأساطيل
الصينية المؤلفة من ٣٧٠٠٠ بحري إلى جزائر الهند الشرقية وسيلان وسواحل الهند
الجنوبية والعراق وسواحل جزيرة العرب وسواحل أفريقية الشرقية ليدعو سكانها لأداء
الخراج لعاهل الصين وإهداء التقدّم ، ومن رفض دعوته هدمه بالقوة والسلطنة . وجاء
وأبود كانا حاجين ، ومسقط رأسه في ولاية يونان . وصنف العلامة صالح ليوجلين (رحلته)
في آخر القرن الثامن عشر باللغة الصينية كتاب (سيرة سيد المرسلين) وكتاب (شريعة
الاسلام) وكتاب (أسرار الاسلام) وهذه المؤلفات هي التي تبين بها الصينيون أن الاسلام
دين حنيف لا يخالف مبادئ الفيلسوف كونفوشيوس بل يؤازرها ، فأدخلت في دار الكتب
الملكية فانكشف ستور الاسلام في الشرق الأقصى . ومسقط رأس العلامة صالح ليوجلين

ومدفونه في نانكين عاصمة الصين الجديدة وقد زرت روضته الطاهرة سنة ١٣٤٧ هـ وألب العلامة يوسف مافوسو (رحمه الله) باللغتين العربية والصينية مؤلفات مفيدة في العربية والعلوم الاسلامية وطبع مؤلفات العلامة صالح ايوجدين (رحمه الله) بعد التصحيح فازدهر الاسلام مرة أخرى . وطلع عقبه المعلم العظيم الحاج نورالحق ماجيان (رحمه الله) فتمخرج في مدرسته العلماء العالمون أفواجا ، وسقط رأسهما في ولاية يونان

ثورة المسلمين

كان طغاة الأميرة المنشورية (سنة ١٦٤٤ - ١٩١١ م) قد اضطهدوا المسلمين باسمهم خسفاً وزاد عليهم في اضطهاد المسلمين الأمراء المنشوريون الظالمون في ولاية سنكيانج (التركستان الصينية) فأخذوا أمواظهم وقضحوا عيالتهم ، فقام المسلمون بدافعون من أنفسهم وأعرضهم ، ف وقعت الثورة الهائلة في مائة سنة تقريبا (سنة ١٧٥٨ - ١٨٧٣ م) خمس مرات ونهيك بالكتب التاريخية الأميرية في هذه الثورات وعدد أجزائها كالآتي :

- (١) تاريخ ثورة سويسان في ولاية كنسيو (سنة ١٧٥٨ م) ٢٠ جزءاً
- (٢) تاريخ ثورة مامزين في ولاية كنسيو (سنة ١٧٦٨ م) ٢٠ جزءاً
- (٣) تاريخ ثورة جنقغ في ولاية سنكيانج (سنة ١٨٢٥ - ١٨٢٧ م) ٨٠ جزءاً
- (٤) تاريخ ثورة سلمان دوولسيو في ولاية يونان (١٨٥٥ - ١٨٧٣) ٥٠ جزءاً
- (٥) تاريخ ثورة يعقوب في ولايات شانسى وكنسيو وسنكيانج (سنة ١٨٥٥ - ١٨٧٥ م) ٣٣٠ جزءاً

آثار الاسلام

هي كثيرة ، وأهمها ما زرتة سنة ١٣٤٦ هـ وهي كالآتي :

- (١) ضريح سعد بن أبى وقاص في خارج ريش مدينة كنتون بني هذا الضريح وسط القرن السابع تقريباً
- (٢) مسجد مدينة كنتون ، وهو أول مسجد في الصين أسس وسط القرن السابع تقريباً أيضاً وفيه منار شامخ عليه مسحة من جبال الفن العربي
- (٣) المسجد الأعظم في عاصمة ولاية شانسى بني بنفقات الخزانة الملكية سنة ١٤٤٣ م

على نحو ما وصفه النصب التذكاري الحجري الموجود الآن فيه
(٤) مسجد فاشكين بنى سنة ١٣٨٨ م بنفقات الخزانة الملكية أيضا

أسباب انتشار الاسلام في الصين

انتشر الاسلام في الصين انتشاراً سريعاً مذهناً والأسباب في ذلك أربعة وهي :

- (١) تجارة المسلمين : هي سبب دخول الاسلام في الصين الأصلية في عهد أسرة « تان » (سنة ٦١٨ - ٩٠٥ م) وازدهار الاسلام في عهد أسرة « سون » (سنة ٩٦٠ - ١٢٧٦ م) وأسرة « مين » (سنة ١٣٦٨ - ١٦٤٣ م)
- (٢) الفتوح الإسلامية : هي سبب اسلام سكان ولاية سنكيانج (التركستان الصينية) في عهد أسرتي « سون » و « مين » فظلا عن أنها كانت سبباً في اسلام التركستان الروسية في عهد أسرة « تان »

- (٣) تناسل المسلمين : هو سبب ازدهار الاسلام وازدياد المسلمين في الصين الأصلية بعد أسرة « يون » (سنة ١٢٧٧ - ١٣٦٧ م) وأسرة « مين »
- (٤) اختلاط الكافرين بالمسلمين وتأثرهم بأديانهم : هو سبب اسلام أبناء التتار في التركستان الصينية والروسية

لا عجب في السببين الأول والثاني وأما السبب الثالث فهو من خواص الاسلام اذ يحرم للمسلمون الشكاح بينهم وبين الكافرين ليحفظوا اعتقاداتهم التوحيدية وعاداتهم الاسلامية فتوارثوا دينهم جيلاً بعد جيل ، بخلاف الكافرين اذ يمكن أن يعتنق أفراد أسرة من أسرهم أدياناً مختلفة فإذا مات المعتنق انقطع دينه عن أهله وجواز تعدد الزوجات عند المسلمين من أهم أسباب زيادة ألسلهم أيضاً . وأما السبب الرابع فلا يوجد الا في الاسلام مثلاً تغلب في القرون المتوسطة الميلادية التتار بسيفهم على المسلمين وأسر أبناءهم من بعد تهذيب وتأثير المسلمين ، وما أعجب قوة تأثير الاسلام

و يوجد في ذلك سوى الأسباب السابقة المبينان الآتيان :

- (١) عدم اذاعة الدعوة الى الاسلام . لأجل هذا نامنى الاسلام بخسد الكافرين . فلم يوجد قط في تاريخ الاسلام في الصين ما حصل بين التروية والبوذية زمن الأمر الست (سنة ٢٢٠ - ٥٨٨ م) وأسرتي « تان » و « يون » من النزاع الشديد ، ولم يصب الاسلام

بأصحاب الأديان الأخرى من اضطهاد كما حصل (سنة ٨٢١ - ٨٤٦ م) إذ حتم اتباع كنفوشيوس هدم الأوثان . وليس في الاسلام أوثان يلزم هدمها . وزد على ذلك أن الكافرين لم يفاوضوا المسلمين كما فاضوا أصحاب الأوثان لأن المسلمين ما كانوا يدعون الناس إلى الدخول في دينهم كما كان يفعل أصحاب الأوثان فظهرت عند اتباع الفيلسوف كنفوشيوس فكرة هدم الأوثان خشية أن يكثر معتنقوها

(٢) عدم نقد مبادئ الفيلسوف كنفوشيوس : المسلمون لم يتخذوا مبادئه التي ثبت وجود الملك الحق وتعلم الناس بحكام الأخلاق ، بل أسس السيد جابر الدين خيكله لمن يتأدبوا بأداب هذا العلم المعظم واستعمل العلامة صالح ليوجين (رحمه الله) مبادئه على بعض أسرار الاسلام ، ولذلك تعايش المسلمون مع اتباع كنفوشيوس بالألفة والمودة فلم يسمع أحد ينقد الاسلام كما نقدت البوذية في عهد أسرة « نان » والسيحية في عهد أسرة « مين » والحدثة الحكيم العليم

— ٢ —

عدد مسلمي الصين ومساكنهم

المسلمون في الصين يزداد عددهم عاماً بعد عام حتى بلغوا خمسين مليوناً يتفرقون في ولايات كنها وأكثرهم في ولاية كسيو ثم ولاية يونان ثم ولاية هانان ثم ولاية شانتونغ ثم ولاية هاني . وعدد سكان الصين أربعائة مليون فالمسلمون ثمنهم

لغة مسلمي الصين ومذاهبهم

المسلمون في ولاية سينكيان يتكلمون باللغة التركية لأنها منشأ الأتراك ، والمسلمون في الصين الأصلية يتكلمون باللغة الصينية . وأما الكتب الدينية فأكثرها العربية وتليها الفارسية ولذلك يعرف رجال الدين هاتين اللغتين ولكنهم في المطالعة أقوى منهم في الخطابة وبعبارة أخرى أنهم يفهمون كثيراً ويعبرون قليلاً . والسبب في ذلك أنهم يتوارثونها من أساتذتهم الصينيين الذين يعلمونهم الترجمة ولا يعلمونهم الانشاء ، وانهم ينقطعون عن التكلمين بهما فلا يجدون فرص الممارسة . وزد على ذلك أنهم يقرأون الكتب الدينية

ولا يقرأون الكتب الأدبية ، فضعفت الثقافة العربية يوماً فيوماً بطبيعة الحال . وأما
منهم فكلهم أخاف

مهنة المسلمون

المسلمون في المدن يعملون التجارة وأهم تجارتهم في شنغهاي و بكين و تيانجين
جواهر وحجارة كريمة وتخف قديمة . وفي الولايات المجاورة لسور الصين الكبير قراء
وأصواف وأوبار وخيل ومواش . وفي ولاية يونان جلود وأرز وخوم شجرية . والمسلمون
في التري والارياف يشتغلون بالزراعة وتجارتهم وزراعتهم مشهورون بالاجتهاد والاقتصاد

مكانة مسلمي الصين

الأدبية والاجتماعية والسياسية

المسلمون هناك أكثرهم لا يملكون من الرزق إلا كفاف حاجتهم . والسبب في
هذا ان في مشاركتهم مع الكافرين عسراً في الأكل والشرب ، مع أن رؤساء دينهم
ينصحونهم دائماً بالزهد والقناعة ، فيكتفون عن التكاثر والتسابق . ويعلمون درس اللغة
الصينية لاعتقادهم أن اللغة العربية لغة الكتاب والسنة فيجب على كل مسلم أن يدرسها
ويفادسها . وأما اللغة الصينية فهي لغة الكفرة لانهم من العناصر المخالفة لديننا حتى قال
بعضهم من قرأ الكتب الصينية فقد كفر والنتيجة من ذلك ان صار رجال الدين في الصين
أُميين في اللغة الرسمية إلا نادراً ومن يعرف القراءة والكتابة من المسلمين واحد في المائة
أو أقل ومن الكافرين تسعة في المائة أو أكثر فكيف يمكن المسلمين أن يناقشوا غيرهم
في معركة الحياة وان قررت في الدستور الصيني حرية الدين ومساواة الشعوب في الحقوق

الجمعيات الاسلامية الصينية

أنشئت (جمعية التقدم الاسلامية الصينية العمومية) سنة ١٣٢٩ هـ في بكين عاصمة
الصين والجمعيات الفرعية لها في عواصم بعض الولايات ، وازدهرت هذه الجمعيات الفرعية
سنة ١٣٣٢ هـ بسبب من الأسباب السياسية فابقي منها الا ما في ولاية يونان ، فمثل جمعية
التقدم الاسلامية الصينية كمثل شجرة ذابلة فروعها الا فرع واحد لولاد لحكم على الشجرة

باليس وهذا الفرع الناضر هو (جمعية التقدم الاسلامية الصينية) في عاصمة ولاية يونان وقد أنشأت فيما يكثره المسلمون من المدن والقرى في ولاية يونان جمعيات فرعية كثيرة ، وأنشأت أيضاً واحدة في حدود ولاية كوينجو وواحدة في حدود ولاية سيچيو وان وواحدة في رنجون (ميناء بروم) وفيها ادارات للعارف والهداية والصلح والافتاء ، ولها نفوذ ماض على جمعياتها الفرعية بأسرها وثقة كاملة عند الحكومة المحلية حتى انها تستبهرها فيما يتعلق بالمسلمين ووكالت اليها نسوية الخلاف بين المسلمين وهي الصلة الوحيدة بين الحكومة والمسلمين فهي ترفع شكاية المسلمين وعرائضهم الى الحاكم وتبلغ قوانين الحكومة وأوامرها إلى المسلمين وتصدر منها (مجلة المنب الاسلامي) باللغة الصينية بتغفات جمعياتها الفرعية الشهيرة وهي أول جمعية اسلامية صينية استأذنت صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشريف في ارسال أعضائه البعثة الصينية الأولى الى الجامعة الأزهرية ليتفقهوا في الدين وايتفروا قومهم اذا رجعوا اليهم فارجع الفضل في محرم البعثات الصينية الأزهرية متعاقبات الا الى رحابة صدر الأزهر الشريف وجهد هذه الجمعية العظيمة ولما رجع فضيلة الأستاذ الجليل الحاج خلال الدين هاديچين من مصر الى الصين أنشأ مع زملائه في شنتهاي سنة ١٣٤١ هـ (الجمعية العلمية الاسلامية الصينية) لاداعة دعوة الاسلام وإحياء العلوم الدينية وتنظيم التعليم الاسلامي وتوطيد كتلة المسلمين بوساطة مجلسها وأنشأ المرحوم الجنرال مافوسيان وبعض كبار المسلمين في فانكين عاصمة الصين المخرومة سنة ١٣٤٥ هـ (نقابة المسلمين) باذن الحكومة المركزية

المدارس الاسلامية الصينية

لمجد كل ريف يكثره المسلمون مدرسة دينية أولية يدرس فيها الأولاد بالحروف الهجائية العربية ، ثم بعض السور القصيرة ثم كتاب يشتمل على الدعوات الكثيرة للاستعمال في العبادات ، ثم بضعة أجزاء من القرآن الكريم ، ثم كتاب في أسئلة الإيمان وأجوبتها يسمى (أربعة فصول) وكتابان في الفقه الحنفي يسمى أحدهما (المهمات) والآخر (عمدة الاسلام) . وهذه الكتب الثلاثة كلها باللغة الفارسية ، وكذلك دروس مدرسة البنات التي تدرسها المعلمات ، الا أنه يدرس فيها بعض الحكايات والقصص الاسلامية مثل قصة موسى عليه السلام وقصة عيسى عليه السلام وقصة زواج نبينا محمد عليه السلام

تخريج رضى الله عنها ، وقصة زواج ثابت والد الامام الأعظم أبى حنيفة وما شا كل ذلك
والمسجد كل قرية أو مدينة يسكنها المسلمون . منستان ثانوية وعالية يؤمهما الطلبة
من الأرياف والقرى ويدرس فى الثانوية الصرف والنحو وكتب الدراسة فى الصرف
(قسم الصرف) للعلامة يوسف مافوسوا ، و (مقتضح المراح) للحاج نور الحق ماجيبان ؛
و (مراح الآر واج) لأحمد بن عتي . وفى النحو (قسم النحو) للعلامة يوسف مافوسوا ؛
و (حواصل النحو) للحاج نور الحق ماجيبان و (الكافية) لابن الحاجب . ويدرس فى
العالية النحو والمنطق والبلاغة والتفسير والفقه والكلام ؛ وكتب الدراسة (شرح الكافية)
و (قسم المنطق) و (قسم البيان) و (شرح التلخيص) و (تفسير الجلالين) و (شرح
أوقية) و (شرح العقائد النسفية) والمدرس هو إمام المسجد غالباً ويسكن هو والطلبة فى
أروقة المسجد ينفق عليهم الأشباه من المساعين الغيارى . وإذا أتم الطالب دروس الأقسام
بعد بضعة عشر سنة خلع عليه أستاذه خلعاً ، وهى جبة خضراء من الجوخ ، وأهدى اليه
لومرون نقفات السفر فرجع الى وطنه فارغاً مفتخراً ، فأقام له أهل بلده حفلة التكريم
بعد أن استقبلوه خارج البلد وكتبوا اليه منصب الامام أو الخطيب أو المؤذن أو المدرس .
وأما الذين لم يحظوا بمنصب من المناصب الدينية فمنهم من يشتغل بالزراعة ومنهم من يعيش
بالصدقات من تلاوة القرآن الكريم فى المساجد . هذا هو نظام المدارس الاسلامية القديمة فى
وطنى ولاية يونان ، ويغرب من ذلك ما فى سائر الولايات ؛ بيد أنه يدرس فى مدارس ولاية
كنيسيو (تفسير البيضاوى) و (تفسير حسين) باللغة الفارسية و (الدر المختار) وكتاب فى
أصول الدين يسمى (المكنوبات)

ولما شعر حضرات رؤساء جمعية التقدم الاسلامية الصينية فى ولاية يونان بنقص
النظام القديم أنشأوا فى عاصمتها سنة ١٣٢٦ هـ القسم الأولى والقسم الابتدائى للمدرسة
الاسلامية وقسمها الثانوى سنة ١٣٣٩ هـ ويدرس فى هذه المدرسة اللغة الصينية واللغة العربية
والعلوم الدينية والعصرية اللازمة وقد قررُوا منهاج الدراسة ونظام الامتحان ومدة
الدراسة ؛ وسجلت وزارة المعارف العمومية الصينية اسمها فى سجل أسماء المدارس القانونية
سنة ١٣٢٩ هـ . وأثناء المرحوم الجنرال مافوسيان على هذا النظام (مدرسة المعلمين الاسلامية
الثانوية) فى عاصمة ولاية شانغونغ سنة ١٣٤٣ ثم نقلت فى السنة التالية لسبب من الاسباب

الى بكين عاصمة الصين المنسوخة سنة ١٣٥٠ هـ وكذلك أنشأت الجمعية السككية الاسلامية الصينية في شينغهاي سنة ١٣٤٥ هـ (الأكاديمية الاسلامية) التي تخرجت فيها سنة ١٣٥٠ هـ بعد ما أخذت شهادة المدرسة الحكومية الثانوية في عاصمة يونان سنة ١٣٤٣ هـ . وأنشأت في ولاية سيچوان سنة ١٣٤٥ (مدرسة المعلمين الاسلامية الثانوية) وهذه المدارس الأربع على المدارس الجديدة لتدريس اللغة العربية والدين الاسلامي ، وتقوم كلها على الصدقات والطلبات الشخصية ، وأما المدارس القديمة فما زالت باقية في القرى والمدن . وأما المدارس الالزامية فسكها على قانون وزارة المعارف العمومية وقد يعلم فيها شيء قليل من المعلومات الاسلامية ونسكاد نعم القرى والمدن التي يسكنها المسلمون

المجلات الاسلامية الصينية

لما سمع اخواننا الصينيون أبناء النهضة الاصلاحية في الممالك الاسلامية قاموا بنفيا يقومون ويتفاخرون باصدار المجلات لاشاعة هذه النهضة ، فتظاهرت متابعة كل نورق الأشجار بعد مطر الربيع ، ولكن فلة المال وأدت بعضها قبل البلوغ وأشهر باقيتها (نشارة الخلال) في بكين و (المنبه الاسلامي) في يونان و (نور الاسلام) في تشينجبي و (مجلة العلوم الاسلامية) في كانتون وهذه المجلات ما زالت ضعيفة بسيطة بالنسبة الى سائر المجلات الصينية لقلة التغذية المالية والعلمية ولو صاغتها اليد البيضاء لكانت الصلة الوثيقة لاتحاد المسلمين في الصين مع اخوانهم في الدنيا مشارفها ومغارها

النهضة الجديدة والخلاف بين المسلمين

كان العلماء في الصين يبالغون في ثواب النوافل ، فاشتغل المسلمون بها عن الواجبات وأكثروا لا يصلون ولا يصومون ولا يزكّون ولا يحجون ، بل يهتمون بالقلمة المسماة ويدعون اليها رؤساء الدين والمعلمين ايضاً كل واحد منهم سوراً من سور جزء عم أو جزءاً من أجزاء القرآن الكريم ، وليصلوا على النبي عليه السلام بالترجيع والتغريد ، ثم تقدم اليهم الوايمة الفاخرة والصدقات الجزيلة ، وإذا جاء مولد النبي عليه السلام أو مولد السيدة فاطمة رضي الله عنها أقاموا حفلة الذكري بصدقات المسلمين وعملوا الولائم في أروقة المسجد فحضرها المسلمون والمسلمات جميعاً يسمعون القرآن والصلوات والوعظ وإذا كان

وقت الصلاة صلى بعضهم وبعضهم يأكلون ويشربون . فلما وجد بعض علماء الدين الخطر في هذه العادات المتبذعة فصحوا المسلمين بأداء الواجبات بدلا عن التواكل ، وأخذوا يحرمون الطعام والصدقة لأجل تلاوة القرآن ، فعادضهم المتعصبون والمتنفعون بهذه الحال ، وانشقت عنانهم ووقعت الفتنة بينهم غير مرة ، وهذه الخصومة تميل الآن الى الضعف والنفذان بحول الله ، وأسأله تبارك وتعالى أن يوفقنا للاتحاد وبعضنا من كل خصم وشقاق انه جواد كريم

كتب أحد سفلة الكتاب الكفار في (مجلة الآداب الصينية) حكاية فكاهية بهيمية خلاصتها أن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير لأنهم أبناء الخنزير وطبعت المطبعة الحديثة بشنغهاي هذه الحكاية كتاباً مستقلاً ، فقام المسلمون في شنغهاي يتشاورون في الجمعية العالمية الاسلامية الصينية في هذا الأمر الخطير فاتفقوا على أن يقدموا احتجاجاً على إدارة المجلة ، فوجد رئيس تحريرها أن ينشر في الجرائد اليومية المشهورة اعتذاره الى المسلمين ويصحح الغلط في الحكاية في العدد الأخير من نفس المجلة ويضمن أن لا يقع فيها مثل هذه الحادثة مرة أخرى ويحرق بحضرة المسلمين الباقي من العدد الذي فيه الحكاية . ولكن المسلمين في بكين لم يقنعوا بهذه التسوية ، فاجتمعوا وتشاوروا في لجنة الدفاع عن الاسلام وفي أثناء الاجتماع قطع السيد الغيور « ليهييتين » سباً بته فسال الدم منها فكتب بدمه هذه الكلمة : « دافعوا عن دينكم ! » فبلغت حاسة المسلمين الحاضرين ذروتها ، وغضبت الغيوم مناء المجلس ، فتحالف الحاضرون أن يدافعوا عن دينهم الى النهاية مهما كلفهم الأمر ، وأجمعوا على أن يرفقوا الى المسلمين في البلاد كلها ويوفدوا أربعة مندوبين الى نانكين ليشتكوا الى الحكومة الصينية المركزية ما في هذه الحكاية الخبيثة ، وقد شاركهم في ذلك المندوبون من قبل المسلمين في شنغهاي ، والرسائل البرقية طارت الى الحكومة الصينية المركزية بشكاية المسلمين من أقطار الصين فأمرت ^(١) الحكومة الجمهورية الصينية بمعاونة الكاتب الملعون وتعطيل مجلة (الآداب الصينية) وإغلاق (المطبعة الحديثة) وسنّت قانوناً خاصاً لحماية الأديان توطيداً لما في الدستور من حرية الدين ومساواة الشعوب في الحقوق ، وأعلنت أن المسلمين من العناصر المهمة للامة الصينية ولهم تاريخ مجيد في خدمة

الوطن و يحترمهم أبناء الأمة كل الاحترام ، فانهي الأمر بذلك واستقبل المسلمون في محطة سكة الحديد بشغهاى المندوبين وأقاموا لهم في الجمعية العامة الاسلامية الصينية حفلة التكريم شكراً لهم على جهدهم وإخلاصهم للدين الحنيف والكرامة الاسلامية جزاهم الله عنا وعن دينه خير الجزاء

هذا ولأجل أن يقف قراء الفتح على مبلغ ما كان هذا الحادث من الأثر في الصين ننقل لهم من تعليقات جريدة « شينيو » أكبر جرائد الصين اليومية العبارة الآتية :

قد ورد في أمر مجلس التنفيذ للحكومة الجمهورية الصينية « المسلمون عناصر خطيرة للأمة الصينية وقد اشتهروا بخدمة الوطن واحترامهم أبناء الأمة جميعاً » ، وإنى لمعجب بالحداد كثة المسلمين وحاسنهم الفائقة في الدفاع عن دينهم ، وإنى لمعتقد أن أبناء وطننا لو كان لكل واحد منهم في الدفاع عن الوطن مثل هذه الروح لكانت مكانة وطننا السياسية أحسن مما هي عليه الآن ، ولما سقطت منشوريا في أيدي اليابانيين ، وإن اخواننا المسلمين ما صاروا عناصر خطيرة للأمة الصينية إلا بتأديب القرآن ، وقد قل الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة « **وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ وَالْقِتْلَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ** » ، لم يكن اعتداء اليابانيين في منشوريا أشد من القتل الموقم ، ولما قام ولادة الأمور منا يدافعون أعداءهم كما أوصانا القرآن لما سبق اليوم ثلاثون مليوناً من اخواننا تحت حوافر خيول اليابانيين ، فأرجو من اخواننا المسلمين أن يعملوا بأمر الله تعالى في الدفاع عن الوطن كما يدافعون عن الدين ، لترسم ما أثرهم ومفاخرهم في تاريخ الأمة ولنحترمهم أمة العالم جميعاً . انتهى كلام الجريدة الصينية

يأيتها القراء الكرام جاهدوا في سبيل الله على حسب الامكان بعد ما تعرفون قدر الجهاد عما تقسم ؟

محمد مكين الصبي

المسلمون في الصين

وأحوالهم الاجتماعية والسياسية

حديث الشريف الوفد الصيني المسم مع مندوب « الجامعة العربية » بالقانس

« وبنما كنا نحرر هذا الكتاب قدم وفد من علماء مسلمي الصين الى مصر ومعهم عدة من الطلبة الجدد يريدون انظام في الجامع الأزهر وأقبل على هذا الوفد مندوبو الجرائد يستعلمون منه عن أحوال مسلمي الصين . وقد جاء رجال الوفد المذكور الى القانس الشريف وأخذت منهم جريدة الجامعة العربية المعلومات الآتية فأثرها هذا لأنها أحدث حديث في الشرق الأقرب عن مسلمي الشرق الأقصى » . أما المذاهب التي أجراها الجسجال الصيني المسيحي هوونغبانغ واستأصل بها أوفو وأوفو من المسلمين فقد كنا أول من بثه الناس هذا يوم وقوعها وذلك بمقالات في جريدة الشورى بمصر واقترحنا حينئذ على المسلمين أن يرفعوا احتجاجاتهم الى دولة الصين وإلى الدول وعلى جمعية الرابطة الشرقية أن تفحص عن هذه الفادحة وتوسط لدى الصين والدول وكل هذا لم يحرك من أحد سا كنا وبالاحف واننا لا ندر أن نشكر هذه الحقيقة المؤلمة »

أما حديث الوفد الصيني لجامعة العربية فهو هذا :

اغتصمت فرصة وصول الوفد الصيني المسم الى القانس المؤلف من السيدان الحاج عبد الله الصديق جالو بين سكرتير مدرسة المعلمين الاسلامية في بكين ومدير مطبعتها ومكتبتها ومحرر مجلة نظارة اطلاق في بكين ، والحاج عبد الرحيم ماسون تين إمام جامع تونسيباكو في بكين ووكيل مدرسة المعلمين الاسلامية فيها . فتقدمت اليهما باسم جريدة « الجامعة العربية » حيث يقمان بالزاوية النفسانية ملتصقا بهما ان يتفضلا على قرائها بحديث عن رحلتيهما وعن حالة اخواتنا مسلمي الصين ، فأجابا ملتصقي بكل نشاط وسرور . وقد ازداد ابتهاجهما نفسيهما أطلعتهما على العدد الأخير من الجامعة العربية المشتعل على مقال عن مسلمي الصين وبعض معلومات عنهم ، وإلى القراء موجز الحديث الذي اشترك فيه السيدان المذكوران :

غادر السيدان الحاج عبد الله الصديق جالو بين والحاج عبد الرحيم ماسون تين مدينة

بكين عاصمة الصين السالفة في أول شهر شعبان الماضي على رأس بعثة صيفية مؤلفة من خمسة طلاب من مدرسة المعلمين الاسلامية في بكين فوصلوا الى القاهرة في الثالث من شهر رمضان المبارك ليدخلوا البعثة المذكورة في الازهر الشريف لتعلم العلوم الدينية الاسلامية والقرآن الكريم واللغة العربية.

أما أعضاء هذه البعثة العلمية فهم : سعيد ونجش دين ، علي علي خون كوي ، شعيب جندان كوي ، الساعيل ماجن يوم ، سليمان جنبشو . وقد دخلوا في الازهر الشريف ونحوها كل مساعدة من الحكومة المصرية والشعب المصري

والسيدان المذكوران يتريان زيارة بلاد الحجاز لقضاء فريضة الحج ، وذلك من أسباب رحلتهم الفرنسية كما ان من أسبابها أيضا زيارة بيت المقدس والمدينة المنورة والتعرف على اخوانهم المسلمين في هذه الاقطار والوقوف على أحوالهم

ويبلغ عدد المسلمين في الصين نحو خمسين مليوناً وهم آخذون في الازدياد بالتدريج وأكثرهم يقطنون في الولايات الغربية والشمالية وفي ولاية « يوننان » في الجنوب . أما حالتهم فسيئة وتقدمهم بطرد . وحالتهم المادية متوسطة وحالتهم العلمية بالنسبة الى أغلب الصين عامة في المقام الاول . وأكثر أهل الصين بوذيون وكونفوشيوسيون وقيل منهم اعتنقوا الديانة المسيحية ولكن أعداد النصارى آخذ في الازدياد بسبب كثرة الارشادات الدينية الاجنبية والوقت المادي التي تلجأ اليها هذه الارشادات . والمسلمون والنصارى في الصين في درجة عمية واحسنهم أرقى على وجه العموم من البوذيين . أما الكونفوشيوسيون فهم منعلمون أكثر من الجميع .

ومن الغريب في المذاهب الصينية ان البوذي أو الكونفوشيوسي الذي يعتنق النصرانية ، يقوم بالطقوس الدينية المسيحية في الكنائس ثم يقوم أيضا بالطقوس البوذية والكونفوشيوسية في المعابد الوثنية ، فهم يخاطبون بينهما خاطبا عجيبا . والكتب الدينية النصرانية كالتوراة والانجيل مترجمة الى اللغة الصينية . أما المسلمون فهم مستقلون في شؤونهم الدينية معتمدون بآدابهم وعباداتهم وزياراتهم وعباداتهم ومعاملاتهم ونفائسهم الاسلامية . ولا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر والنسكاح فيهم محصور بالمسلمين والمسلمات وفادر من المسلمين الذين يتزوجون من غير المسلمين ، وإذا حدث

حادث مثل هذا فلا يحمّل المسلم زوجته غير المسلمة على اعتناق الإسلام وهي بعد زواجها منه لا بد أن تصبح مسلمة كما أن المسلمين لا يستعملون الآنية التي يستعملها غير المسلمين والمسلمون في الصين غير مكروهين من قبل بقية الطوائف الصينية وهم وطنيون

بكل معنى الكلمة ويعيشون مع مواطنيهم بكل وفاق ويتعاملون معهم أحسن التعامل وعلماء المسلمين في الصين يقرأون القرآن وكتب الفقه والحديث والتفسير والتوحيد وبقية العلوم الدينية والإسلامية باللغة العربية ويفهمونها ولكنهم لا يحسنون التكلم بها ، وكذلك يدرسون علوم الصرف والنحو والبلاغة بالعربية ويدرسونها في المدارس ويستعملون الحروف العربية ، كما أنهم يقرأون اللغة الفارسية .

ولهم مساجد كثيرة . وفي كل مسجد مدرسة ابتدائية ، أما المدارس الثانوية والعالية فقليلة عندهم . ومدرسة المعلمين الإسلامية في بكين تتألف من ٦ صفوف ابتدائية و ٦ ثانوية ، على أن هذه المدارس خاصة بالمسلمين يجمعون أمواطا من أنفسهم . وهم في الوقت نفسه يتعلمون في مدارس الحكومة العمومية .

وهم يقيمون الصلاة بواسطة الأذان ولكن ما ذنبهم غير مرتفعة والوضوء عندهم يكون بالماء الساخن والمساجد تحتوى على ماء ساخن للوضوء . وهم يعنون بالنظافة . وأكثرهم يشتغلون بالتجارة والزراعة

وقبل نحو سنتين عند ما اشتد ساعد الجنرال فونغسيانغ الصيني الملقب بالمسيحي الذي قام ضد حكومة الصين وشق عصا الطاعة وقاد الجيوش للزحف عليها ، قتل مسلمو الصين على ولائهم لحكومتهم وصعدوا في وجه الجنرال فونغسيانغ السفاح الذي حاول اجتياح ولاية كانسو الإسلامية وذبح كثيراً من أهالى المسلمين وارتكب فيهم شتى الفظائع وكان هذا هو السبب الظاهري لتلك المذابح . أما السبب الحقيقي فهو تعصب الجنرال المذكور ومقته للمسلمين ليس الا .

ومسلمو الصين أهل نخوة وشجاعة ، وهم رجال حرب وفتال وكثير منهم جنود في الجيش وفيهم قواد وجنرالات كبار مثل الجنرال عماد الدين ماحون كوى حاكم ولاية كانسو الذي تحت امرته جيش مؤلف من خمسين ألف مسلم صيني . ومثل الجنرال مانشن جن حاكم ولاية شنغاي — كوكونور — فان جيشه مؤلف من ثلاثين ألف جندي مسلم ، ومثل

الجزائر ماخو بين حاكم ولاية تنغشاي فان جيشه مؤلف من عشرة آلاف جندي مسلم ، وغيرهم . ومسامو الصين يشاركون مواطنيهم غير المسلمين في مقتهم لليابان التي اتخذت ظلم الصين والاعتداء عليها ديدنا لهم . وهم لا يوافقون على استقلال منشوريا الذي تم بمساعدة اليابان وفصلها عن جسم الصين .

والمرأة المسلمة في الصين لا تحتجب وهي تتمتع بالحقوق التي يمنع بها الرجل وحالتها آخذة بالانقراض .

ورئيس الجمهورية الحاضر غير مسلم ولكن ليس في دستور الحكومة الحاضرة ما يمنع من أن يكون الرئيس مسلما . وفي الوزارة وزيران مسلمان أحدهما محمد ماقوشيان وزير منقوايا والتببت وقد توفي المرحومة الله وهو والد الجزائر عماد الدين ماخون كوي حاكم ولاية كانسو . والثاني وزير المعارف واسمه ما جنغ وو .

وليست للمسلمين في الصين رئاسة دينية وإنما تقوم الجمعيات المحامية بالانصراف على التقاليد الاسلامية .

وقد ختم السيدان القاضلان حديثهما بأشهاد شديد رغبتهما باتخاذ الاسباب والوسائل السكامة لحفظ الصلات وتوثيق الروابط بين مسلمي الصين الذين هم اكبر كتلة اسلامية بعد مسلمي الهند ، وبين بقية اخوانهم المسلمين في العالم الاسلامي .

ثم أنقبا التناء المستطاب على سماحة المفتي الاكبر السيد محمد أمين أفندي الحسيني وقالوا إن أعماله الباهرة وخدمته للمسلمين قد فطرت ألباؤها الى الصين وانهم هناك معجبون بسماحته كل الاعجاب ، ثم تمنيا أن تفرز مشروعاته الجليلة بالخبر والفلاح

مسلمو الروسية

في عهد البلاشفة

لنذكر كيب

عند ما ذهبت الى موسكو في حزيران أو يوليو عام ١٩٢٩ ، انحصص الأحوال ، عن قرب ومعرفة ما اذا كان ممكناً فعلاً الانتفاع بالشرق من الروسية الحاضرة ، وما هي درجة هذا الانتفاع . سألت عن أحوال المسلمين في الروسية ، وتلاقيت مع بعض أديان الطاجيك والقرغيز ، فاستقصيت منهم عما أريدوه وقيل لي : ان موسكو بضعة عشر ألف نسمة هم مسجدان جامعان ، وكذلك في بتروغراد كان نحو عشرة آلاف منهم ، ولهم جامع يدعى البناء . وكنت في إحدى الجمع أدبت الصلاة في أحد جامعي موسكو ، حيث يؤم في الجامعة الشيخ عبد الودود فتاح الدين فاضل المسلمين في موسكو وبتروغراد ، ويتبعه في القضاء المسلمون الذين في ولايات « باراساوة » و « خور » و « بقالومنه » و « بلدي » « إيفانو » و « جنيسكي » والأخيرة بلدة معاملة فيها خمسة مسلمون كثيرون . ويقولون له هناك « حضرة عبد الودود » ويسمونه المحنس . ومعنى المحنس عندهم : هو الذي ينظر في الأمور الدينية ، ويرجع اليه أئمة المساجد . فالاستاذ عبد الودود فتاح الدين هو المحنس في جميع البلدان المار ذكرها . ومرجعه المجلس الاسلامي الأعلى الذي بمدينة أوقا . وقد رأيت منه علماً فاضلاً ، مطلعاً على الأمور ، بصيراً بأمور قومه ، وقيل أن تحدث معه سمعت خطبته في صلاة الجامع ، فالعادة عندهم هي أن يبدأ الخطيب بخطبة بالتركية القازانية لسان القوم ، يعظم فيها ويتكلم في أهم الأمور التي تناسب الحال ، فإذا انتهى من هذه الخطبة صعد المنبر ، وخطب الخطبة الرسمية بالعربية . فحضرة عبد الودود وقف بخدا المنبر وشرع يخطب بالتركية ، وبقى يشكلم أكثر من نصف ساعة ، ومع كون تركية التتر تختلف بعض الاختلاف في الألفاظ وتصرف الأفعال عن تركية العثمانيين فقد كنت أفهم كل ما يقوله تقريباً ، وأعجبني جداً وعظمه ونسبي خطابه ، وعلمت أنهم مدركون الاحتياجات

العصرية : منهم من لم يحب أن ينسبوا إليه . ولما انتهت من خطبته بالتركي صعد المنبر أخوه ، وهو مشد من العلماء فخطب بالعربية بالتسجيع على نمط خطباء بلادنا . ولكن بأعراب صحيح ولفظ فصيح لا تفرق عن لفظ خطباء العرب في شيء . مما جعلني على الظن أن هذا الخطيب كان مجاوراً في مكة أو في المدينة مدة طويلة . حتى أمكنه أن يخرج الحروف العربية خارجها كأحسن المجودين من العرب . إذ لم أعرف في أمة الترك من يقدر على ذلك إلا من نشأ منذ صغره في بلاد العرب . فانه قد يتفنن الفارسي التركي علم التجويد ، ولا يزال معروفاً من لفظه أنه تركي . ولا يبرح عاجزاً عن اخراج الحاء والعين والواو ، مثلاً ، خارجها الصحيحة إلا إذا ربي بين العرب . فأما خطيب جامع موسكو ، فسمعت منه لفظ خطيب عربي ، فدهشت عندما عرفت أنه لا يعرف بلاد العرب ، وإنه إنما تعلم التجويد في قازان ، وقد ازدت دهشاً لما سمعت بعض القراء يقرأون كقراء العرب لغمة وترتيلاً ، بدون أن يكون أحد منهم مجاور في الحرمين ، ولا عرف البلاد العربية . مع أن اختواتنا الترك العثمانيين يتعلمون التجويد ويحفظون القرآن . ويتقنون كل ذلك ، ونبقى لغمتهم على ما هي عليه .

سألت حضرة عبد القدوس بعد الصلاة وقد دعاني إلى الشاي في منزله المتواضع للمسجد ، عما هم عليه في عهد البولشفيك . وما هو الفرق بين الإدارة القيصرية السابقة والإدارة الشيوعية الحاضرة ، فأخذ يقص لي المحاسن والمساوي . إلا أنه قال : « أما من جهة الحرية الدينية فقد حسرنا في بحبوحة عظيمة ، إذ أن البولشفيين لا يسألون الإنسان عن عقيدته ، ولا يعرفون إلا كلمة « روسي » أيأ كان دينه ، وكان السخول في الإسلام ممنوعاً لعهد الحكومة السابقة أما الآن ، فالحكومة لا تعترض أحداً ، وإن كثيراً من هاتين السنتين سلموا على يدي . بل كان أهالي مائة قرية من جوار قازان قد حلتهم الحكومة القيصرية إلى النصرانية فسرأ منذ مائتي سنة وحولت مساجدهم كنائس وأرسلت إليهم القسوس ، وكانوا لا يزالون في الباطن مسلمين ، لكن لم يقدروا أن يظهرُوا إسلامهم إلا بعد أن سقطت القيصرية وجاء البولشفيك ، فعادوا إلى الإسلام وأعادوا مساجدهم إلى أصلها . »

ثم سأله عن تشكيلاتهم الشرعية فقال : إن قازان وسيبيريا وبلاد الباشقرد والقرغيز ، المدن التي فيها مسلمون من جوار موسكو ، هيئة لها مجلس إسلامي أعلى مركزه بمدينة أوكا . وهذا المجلس مؤلف من أربعة قضاة ، يرأسهم المفتي الأعظم . والمفتي الأعظم اليوم هو

العلامة جان بارودي بن محمد بارودي ، وهذا الرجل هو من خول العلماء وله تصانيف ، وكان أصلح أصول التدريس الاسلامي في الروسية ، وأيقظ المسلمين ، فلهذا نفاه القيصر الى سيبيريا ، ولم يعد من منفاه الا بعد سقوط القيصرية ، فانتخب مفتياً أعظم في أيام اليواشفيك أما القضاة الأربعة اليوم فهم ، العلامة رضا الدين بن عمر الدين من المشهورين في البلاغة والتاريخ ، وكشاف الدين نرجاني امام قازان سابقاً ، وصابر جان الحسني امام أوقاف والسيدة مخلصه بوبيا ، وهي سيدة عالة فاضلة قد اقترحت الحكومة البولشفية ادخالها في المجلس الأعلى بقولها : ان النساء هن نصف البشر ، وانه من العدل وجود امرأة فيه للمحافظة على حقوق المسلمات (١) . فهذا هو المجلس الاسلامي الأعلى ، وفيه تنحل جميع المسائل الشرعية . ويتبع هذا المجلس تسعون ناحية ، كل ناحية منها فيها مجلس محاسب مثل الاستاذ عبد الودود ، فالمحاسبون مرجعهم المجلس الأعلى ، والأئمة في المساجد مرجعهم المحاسبون . وأما تركستان فلها تشكيلات دينية ، ومفت أعظم مركزه طاشقند . وكذلك يوجد مفت أعظم لمسعى القوقاس ، ومفت لمسعى القريم .

سألت حضرة عبد الودود عما يقال من عدد مسلمي الروسية كلها فقال لي : هـ في ولايات قازان ، وأورنبورغ ، وأوقاف وتوابعا ، مع الباشقرد ٥ ملايين . والغربغيز ٥ ملايين . ونتر سيبيريا نصف مليون . وولايات تركستان ، طاشقند ، وسمرقند ، وخوقند الخ ١٢ مليوناً . وبخارى مليونان وخمسة مليون واحد . فهذه ٢٥ مليوناً ونصف مليون . هـ فقلت له ، وفي القوقاس ثلاثة ملايين الى أربعة طاجستانيون ، وجركس . وثلاثة ملايين في اذربيجان وكرجستان . ونصف مليون أو أكثر في القريم . فهذه نحو ٣٣ مليوناً . فوافقني على هذا القول ، وسألت غيره حتى بمن كانوا من أعضاء مجلس الدوما الروسي ، فقالوا ان عدد مسلمي الروسية نحو ٣٥ مليون نسمة .

وفي بولونية نحو ١٥ ألب نسمة مسلمون ، يقطنون عدة قرى . وفي مملكة ليتوانية من ممالك البلطيك المستقلة بعد الحرب نحو ١٠ آلاف نسمة ، لهم بعض قرى ، وعندهم مساجد ، ولكنهم لا يعرفون لا العربية ، ولا التركية ، وانما يتكلمون بالليتوانية والروسية وكان يحسن أن يؤخذ منهم بعض طلبة الى الاستانة وآخرون الى مصر لأجل تعليمهم العربي والتركي . وكان منهم طالب أديب في برلين ، جعلناه عضواً في النادي الشرقي .

(١) روى الطبري أن كثيراً من الفقهاء أجازوا قضاء المرأة

السيد جمال الدين الافغانى

حكيم الشرق

تلاميز شكيب

فيلسوف الاسلام ، وعلم الاعلام ، وكوكب الاصلاح ، الذى اطلعه الله فى افق المشرق
 بعد أن اشتد به الظلام ، حجة الشرق الناهضة ، وآية الحق الباهرة ، الذى قال عنه ارنست
 رنن ، الفيلسوف الفرنسى المشهور بعد أن عرفه : « كنت أثقل أسمى عند ما كنت
 تطلبه ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين » . قد بلغ من
 شهرته ، والهجته بذكره ، والضاووة بعفريتته ، ولاسيما بقصر والشام ، وسائر البلاد العربية ،
 أن لرجة حاله تكاد تكون احدىثة الجميع ، فلا حاجة الى الاطالة بتجميع تفاصيلها ، ولا الى
 اطلالة بغيرها وحجوها ، قصارى ما لى الأمر ان هناك حوادث لم تكتب الى اليوم ،
 من الروايات فخرت فى أسرى أحدها ، هل هو افغانى مولود فى افغانستان ، أم فارسى
 مولود فى همدان كما زعم بعضهم . والثانى . هل هو فيلسوف الهى أم مسلم ، أم فيلسوف
 ملى معطل . وعلى الأمر الأول نقول : ان كل من عرفوا السيد جمال الدين علموا منه
 من افغانستان ، وأنه من سادات كثر الحسينية المشهورين فى تلك الديار ، ووالده
 سيد صفير وكان مولده فى امد آباد بقرب كثر سنة ١٢٥٥ هجرية وفقى ١٨٣٨ ميلادية
 وبذلك عرف به كبير تلاميد ، الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، مفتى الديار المصرية ،
 فى مصر رسالة الدهريين تأليف السيد جمال الدين . ولقد لقيت فى المدينة المنورة قبل
 الحرب العامة بأشهر السيد حسيناً أحد ولادة افغانستان . ومن سادات كثر المشار اليهم ،
 ومن أفاضلهم ، وعلمت منه ان السيد جمال الدين رحمه الله هو منهم ، كما لى سمعت ذلك
 من جميع رجال الدولة الافغانية وسفرائها ، الذين جعلنا بهم التقدير فى اوريا بعد تأسيس
 سفرائهم بها ، فلا أعلم كيف تنفق كل هذه الروايات من أهل تلك الديار ، على كون المترجم

أفغاني الدار علوية حبيبية ، من أسرة نسبهم كالشمس ، ومقامهم في بلاد الأفغان أنور من أن ينوء به ، ويكون في الحقيقة من همدان ومولوداً بها ، ونقول على الثاني : ان الأستاذ الشيخ محمد عبده أعرض الى ادخاض هذه التهمة أكثر من مرة وعرب من الفارسية بمساعدة عارف افندي أبي تراب الأفغاني رسالة « التبشيرية » أي التبشيرية التي رد فيها السيد جمال الدين على الملحدة والمعتلة ، وقيم العقيدة الاطية على أساطير المنطق ، والحكمة العقلية ، ونبت صحة الوحي ، وينتهي الى ايضاح البراهين الحمدية ، كل ذلك بملكة قل أن تتاح قوتها لفيلسوف غيره ، ولكن بعض الناس ولا سيما العلماء الخنوية . أبوا أن يروا في الفلاسفة الا ملحدين ومعتلين ، ومن هذا جاء قولهم العامي : من تخلفك ترندق . ويثقل هذه المبادئ السخيفة والكلمات الخزقة ، أضلوا العوام ، ووضعوا عقائدهم في خصوصية دائمة مع الخلفاء العامة ، وجنوا على الاسلام جناية كبرى ظهر أثرها في الانحطاط السياسي والاجتماعي ، الذي نراه عليه الآن . واذا قم مصالح أو مجدك بشكل باسم الحكمة والعلوم العالية ، ويبحث على النظر ، وينتهي عن التقليد ، ويبين مصداق الجود ، كان أول ما يسرعون اليه رمية بالزندقة ، وانهاهم يوهن العقيدة . وقد يصادف ذلك هوى في افئدة من يميلون الى التعطيل فعلاً ، فيقفون ما يسمعون من هذا القليل بدور تشبه ، ويشارعون الى اداعته بين الناس ، لأن من أحب شيئاً أحب أن يرى كبار الرجال يشاركه فيه ، ولهذا صدر الأستاذ الشيخ محمد عبده رسالة الدهريين ، التي أسلفنا ذكرها . بمقدمة في ترجمة حال استاذ السيد جمال الدين قال فيها تقريراً ما يأتى : « يحمانا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل مانراه من اختلاف آراء الناس في أمره ، ونضارب أقوالهم في حقيقة حاله . حتى كأنه قوة روحية قامت في كل ذهن بما يلائمه ، أو حقيقة كلية نزلت في كل عقل بشكل يشاكله ، والرجل على صفاء جوهره ، وزكاء مخبره لم يتناول وضع الوضاعين ، ولا حزر الخراسين الخ » . ثم شرع بترجمته على الوجه الصحيح ، الذي هو أدري به من كل مترجم غيره ، يمكنه من خلطة السيد الاستاذ ، وماله به من تمام الخبرة ، ومعه من [طول العشرة ، قد ذكر نسبه ، وحسبه ، ومولده ، ومشاؤه ، ورحلته ، ومذهبه في السياسة ، ومذهبه في الفقه ، وقال في هذا : « انه حنفي حنف مع ميل الى مشرب السنة الصوفية ، رضى الله عنهم » . وذكر عن مذهبه السياسي انه كان جل اجتهاده ، في أن

يرى إحدى الدول الإسلامية ، في صف كبريات الدول الأوروبية ، وأطال في وصف مواهبه العقلية ، وقدرته العلمية ، إلى أن قال : « وبالجملة فلو قلنا إن ما أولييه من الذكاء ، هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء ، لكننا غير مباليين » . ووصف شأله الباهرة ، وأخلاقه العظيمة ، وعظمه العالية ، وشجاعته التي لا تعرف لقوت معنى ، وعلمه مهالاه بالدنيا ، وانتهى إلى قوله : « ما أتذكر : » وهو حلیم یسع حلمه ماشاء الله أن يسع ، إلى أن يدنو أحد ليمس دينه ، أو عرفه ، فينقلب إلى غضب ، تنقض منه السبب ، فيدنا هو حلیم أبواب ، إذا هو أحد . « باب » . قلت وسعني عاقبة غفنيه عندما أهانه الشاه ناصر الدين ملك العجم ، والصورة الفجيرة التي انتهت بها ذلك الخلاف ، مما سترويه لك في آخر هذه الترجمة . وقد اتفق رايك النظر في هذا العصر ، على أن قدوم السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر كان مبدأ الحركة الفكرية ، التي بدأت في البلاد العربية وسائر الشرق الأدنى ، ولم تزل تنمو إلى الآن ، رامية إلى تحقيق الشرق بالمعارف التي ساد بها الغرب ، ورفع سيطرة هذا عن ذلك ، وإعادة الشرق سيرته الأولى من الرقي . ولم يقرأ السيد جمال الدين على أحد بالأزهر ، ولكنه كانت له حلقة خاصة في منزله انتظم فيها عدد من أدباء القطر ، يستمعون بحر حكامه ، يستمعون صوابه ، اشتهر منهم الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سامان ، وإبراهيم اهتدي القاني ، والسيد وفا القوي ، وسعد باشا زغلول ، الذي قيل في أنه أدرك آخريات أيام السيد بمصر ، ولازمه ثلثه من أدباء الشام ، النازلين بمصر مثل أدب اسحاق ، وسليم النقاش ، وسعيد البستاني ، وغيرهم وانفتح مر يدوه وجاه علمه ، يكتبون وينظرون ويمشون إلى الملا ما التقطوه من فوائد ، وانتظموه من فرائده ، وكان ذلك أساءة غالبة لا عهد للناس بأمثاله ، وأسلوباً رافياً انقطعت منذ قرون عديدة نسبة رجاله ، فأحدث في الأمة حركة أفكار لم تكن من قبله ، وانفتح فيها روحا سرية ظهر عليها طابع عرفانه وعمله ، فنشطت هم واستجبت عزائم ، وهبت قوى وفاضت فرائح .

وقال الشيخ محمد عبده في وصف تلك الحركة ما يأتي تقريرا : — لأن نص كلامه ليس بيدى الآن . فاستنارت الأبواب ، وامتنعت البصائر ، وانحلت عقول الأوهام عن فوائدهم العقول . إلى أن قال أنه لم يكن بمصر للكتابة قبل جمال الدين شأن يذكر ، ولم يكن يعرف من الكتاب سوى عبد الله باشا فكري ، وخيري باشا ، وفلان على ضعف

فيه ، وفلان على اختصاص فيه ، وبقية من بقي فلما ساجعون في المراسلات الخاصة ، ولما مؤمنون في بعض الكتب الأدبية الخ ، ولم تكن الثورة التي أحدثها السيد جمال الدين في السياسة بأقل منها في المعارف ، ولعمري هاتان توأمان ، فقاما انتشر العلم في مكان إلا هتف بالحرية. وأول أثر ظهر لجمال الدين في ميدان السياسة ، هو الحركة التي هبت في أواخر أيام الخديوي اسماعيل باشا وآلت إلى خلعه من الخديوية ، وكان للسيد اليد الطولى فيها ، ولما جلس توفيق باشا على كرسي مصر شكر لجمال الدين مساعدته ، لكن لم يطل الأمر حتى دبت عقارب السعاية في حقه ، وجاء من دس إلى الخديوي الجديد أن السيد لن يفيد هذا الحد ، وقد تحدثت نفسه بثورة ثانية ، وبإقامة حكم جمهوري وما أشبه ذلك ، مما لا يعني تنمية السعاة والمتملقين ، فصدر الأمر بخافة بنفي جمال الدين وأخرج إلى السويس ، ومنها ذهب إلى الهند ، ولم يدخل بعدها مصر . وجرت الحركة العربية في غيابة ، واحتل الانكليز مصر . وبما لا مرأى فيه أن المبدأ الوطني ، الذي رأس تلك الحركة كان من زرع هو ، وإن كان عب على ذلك الزرع ، من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية ، ولقد من الدساتير الأجنبية ماصوح نضرت ، وأذهب ثمرته ، شأن تلك الدساتير على كل نهضة تحدث في الشرق أو حركة اصلاح تستفي من ورائها الدول أن تمزق حجب الغباوة التي هي أصدق عوامل الاستعمار إلا أن ذلك الزرع لم تذهب بزرته من الأرض ، وعاد فأخرج شطاء ، وما زال ينمو حتى استوى على سوقه ، فوجب جمال الدين لو عاش إلى اليوم ، وبغناط به الذين لا يرحون محاطلين في الجلاء من مصر ..

وفي سنة ١٨٨٥ ذهب جمال الدين إلى أوروبا ، وأول مدينة سعد اليها للمرة ثم تحول منها إلى باريس حيث وافاه الشيخ محمد عبده أ كبر تلاميذه ، وأكمل وعاء علومه ، فأصدر فيها « العروة الوثقى » التي بلغت من إيقاظ الشرق وهز أعصاب العالم الاسلامي ، ما لم تبلغه صحيفة سيارة قبلها ، ولا بعدها ، ولكن لم يسعهما الوقت أن يصدرا منها إلا بضعة عشر عدداً ، فعاد الشيخ محمد عبده إلى بيروت حيث كان منفاه على أثر الحادثة العربية ، وبقى جمال الدين في أوروبا يحول في مدنها وينافن أهل العلم فيها إلى أن تلاقى بالشاه ناصر الدين صاحب فارس بلقني أنهما تصادقا في منيخ عاصمة بافاريا ، فدعاه الشاه أن يكون بمعيته لما شاهد من وفرة علمه وفطنه ، وتقدم اليه في الذهاب معه إلى طهران ، فلبى السيد دعوته ،

وأكرم الشاه نزهة في عاصمة فارس ، وما زال في علياء عنده ، حتى نفس عليه الحساد منزلة هذه لدى الشاه ، ولما كان السيد جمال الدين لا يكتم فكره ، ولا يختلط من قوة نفسه ، أن يجهر بكل ما يجيش به صدره ، وكان بعد ذا وذا يجد في إدارة أحكام العجم ، مالا يطيق عليه صبراً أقل منه بكثير ، في الهمة ، وإباء الضيم ، وصحة الوجدان فاشتكى رجل نظيره . لم يصعب على أولئك المفسدين ، أن يحكموا الوشاية ، ويوقعوا العداوة بينه وبين الشاه حتى انتهى الأمر باعتقاله وحمله ، ثم بإخراجه مهاتماً من فارس إلى بغداد ، حيث خاطب المجتهد الكبير ، ميرزا محمد حسن التبرازي رأس الشيعة في وقته بكتاب شهير ، عدد فيه مساوئ الشاه ، وأساليب العتد على عقله ، وشرح فيه مضرة امتياز شركة التبناك ، الذي يقضي استئثار الأجانب بأهم محصول بلاد العجم ، فكان هذا النداء ، من أعظم أسباب الفتوى التي أفتاها ذلك الامام بطلان هذا الامتياز ، واضطرت الحكومة الفارسية خوفاً انتفاض العامة إلى الغائه . ولكن السيد جمال الدين لم يشف غليله بهذه الحركة وحدها ، وأخذ بها كس الناد وحكومته بكل وسيلة ، وكان كلما تذكر اهانة الشاه له ، وبين جنبه تلك النفس العظيمة ، التي لو قلنا ان أنف الملوكة في جنبها تعد أنف سوقة ، لكننا غير مغالين حاج به هائج الانتقام ، وتقصد الأخذ بالثار ، لا سيما أنه كان رأى بعينه في إيران ، من آثار الاستبداد والظلم وجفاف العصف والغشم وذهاب مصالح الأمة العامة في سبيل أهواء أفراد ، وشهوات آحاد ، ما يمكن في خلدك فكرة العمل لقلع الشاه من مركزه . وصادف بعد ذلك أنه ذهب إلى بندرة مرة ثانية ، فحرر في مجلة سماها « ضياء الخافقين » مقالات على أحوال درس نقيم وتقع ، وكان السلطان عبد الحميد قد دعا السيد جمال الدين إلى الاستانة وذلك في سنة ١٨٩٢ جاءها وكانت هذه المرة الثانية لدخوله هذه العاصمة . إذ كان قد عرف الاستانة مرة قبلها في زمن السلطان عبد العزيز . هذا ولما كانت سبقت تحرر هذه السطور معه مراسلات بواسطة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده كان أول من سألت عنهم عند سفرى الأول إلى أوروبا سنة ١٨٩٢ المذكورة ، هو المرحوم السيد جمال الدين فقيل لي أنه قصد الاستانة وأظهر لي الشخوف على مصيره في الاستانة هنري روشفور ، الكاتب الفرنسي الشهير ، الذي عرفته وهو منفي ببندرة . وكان روشفور يحب السيد جمال الدين ويحترمه ، وقد وصفه في كتابه « ما جريات حياتي » بقوله هكذا على أسلوبه الخاص به في الكتابة :

« السيد جمال الدين الأفغاني من سلالته النبي ، والمعصوم هو أيضاً أنه أشبه بنبي » ثم قال :
« انني شعرت نحو هذا الرجل بعاطفة الحب التي أجدها في بطني لكل داع إلى ثورة أو
مقاومة لسلطة . »

ولما ورد السيد جمال الدين الاستانة أمره السلطان منزلاً كريماً ، في دار صباه خاصة
بها في شان طاش : وأجرى عليه الأرزاق الوافرة ، وكان يدخل على السلطان ويصلي جلا
الجمعة معه . ومضت مدة وجمال الدين حظي عند أمير المؤمنين ، لا خوف عليه ولا هو يحزن
وكان المولم يسفر بينه وبين السيد أبي الهادي الصيادي فبدأ ذلك أجل القصص بحمد إلى
السلطان ، والمحا كانت تلك فترة لا يعبأ بها ، إذ ساعته الأستاذ الصيادي أن وجه عليه جلا
عند مولاه ، واندفع بينهم جمال الدين بالكفر والزندقه ، كما هو ديدن هؤلاء ، في شأن كل
من أرادوا تنقص من الحسكاه ، وقد اطلعت على نشرة من جانب السيد أبي الهادي تتناول
ثلاثة من أعدائه وهم السيد فضل العلوي الحضرمي ، أمير طشار ، والشيخ ظافر الدين
الطرا بلسي شيخ الطريقة الشاذلية ، والسيد جمال الدين الأفغاني ، وثلاثهم كانوا من
انقر بين إلى السلطان ، وكان لكل منهم نصيب وافر من الشتم والوقيعة في هذه النشرة ،
وحصة السيد جمال الدين كانت مهمة الإلحاد وفساد الاعتقاد . ومن جلة الشواهد على ذلك
كونه قال مرة : « أنا أطوف بأشجار الهند طواف الخبيث بالكعبة » . والبشار هي
السدود بالركية وذلك أنه يوجد بحن نزاهة بظاهر الاستانة قد سد السلاطين العظام فيه
أودية بحيث تكونت منها بحيرات اسفيا العاصمة ، وقد أحاطت بتلك البرك غابات ملتفة
بديقة ، فعليه ما يقال أن جمال الدين عبر عن نزاهة ذلك المكان بعبارة شعرية ، فاستخرج
منها أبو الهادي الحاداً وصكفراً . وكان جواسيس السلطان يحصون عليه جميع حركاته
وسكناته ، ويقدموا ذلك إلى السلطان ، فما يروى أنه كان هو وعبد الله نديم الكاتب المصري
المشهور في منزله « الكاخنة خانه » ، فصادفا الجناب الخديوي عباس حامي ، وسلم بعضهم
على بعض ، وتعادثوا نحو ربع ساعة تحت شجرة هناك . فيقال أن السيد أبا الهادي قسم
تقريراً للسلطان بأن جمال الدين وعبد الله نديم تواعدا مع الخديوي على الاجتماع في
الكاخنة خانه . وهناك عند الاجتماع بايعاه تحت الشجرة ، لكن السلطان بحسب قول جمال
الدين لم يحض بهذه الوشاية . ولكن هذا الخلاف مع أبي الهادي لم يزعزع مكانة جمال الدين

من السلطان ورثا زاده لديه رثى ، وانما أدى الى وحشة الخليفة منه ، استمراره في مجالسه
الى كانت تقاتلها الناس دائماً على القدح في شاه العجم مما جعل سفير ايران على رفع الشكوى
الى السلطان ، فاستدعى السلطان اليه السيد جمال الدين وقال له : « ان سفير العجم يرجاني
أن أسكنكم معك في السكك عن الوقعة في الشاه وأنا بناء على أملي فيك وعدته بأنك
سكنك معه » وفقد روى لي السيد رحمه الله هذه القصة عند ما رجعت من تور ما الى الاستانة
في أواخر سنة ١٨٩٣ ، فقال لي هكذا بالحرف : « فقلت لسلطان ما كنت ناوياً أن أترك
شاه العجم حتى أتركه في قبره ، ولكن بعد أن أمر أمير المؤمنين بالسكن عنده ، فلابد من
طاعته . » بمثل هذا كان المترجم يخاطب الملوك ولا يبالي عن موقع مثل هذا الكلام
مهم ، مع أن أحدتهم حشراً ووسواساً كان السلطان عبد الحميد ، فلا عجب ان وقع في
غيبه شيء منه . ولكن ليت السيد كلف بالفعل عن أدنى الشاه ، اذ لم يلبث أن عاوده الغضب
الذي هو العيب الذي عوذ الله به حسنة العبيدة ، والذي جرّ عليه كثيراً من المضايك ،
حي قال الشيخ شمس عبيد في وصفه : « وكثيراً ما خدمت الخدمة ما رفعتة النظرة » . ففى
حد الأيام قدم على جمال الدين رجلى من العجم ، باقى المنصب ، اسمه رضا آقاخان ،
سأف أنه وجد مع جمال الدين في حبس واحد في قزوين عندما اعتقله الشاه ، خلصت
سبباً بحجة أكيدة تم تفارقه عندما أخرج جمال الدين من الحبس ونفى الى بغداد ثم أغلى
سبيل رضا آقاخان ، ولما بلغه بحسن السبيل الى الاستانة جاء يزوره فيها ، فسر به السيد
كثيراً ، وكان دائماً يحاذره ويتسكلمان على شقاء الأمة الإيرانية بسوء ارادة ساطانها ناصر
الدين . فقال رضا آقاخان يوماً انه هو حاضر أن يغدى نفسه لتخليص أمته فقال له جمال
الدين : « ان كان كذلك فانهب وافعل » فذهب رضا آقاخان ، وبعد أشهر بينا ناصر الدين
شاه في جامع عبد العظيم في طهران اذ دنا منه هذا الرجل وقتله غيلة وقال له : « بدى ان
جمال الدين » أى خذها من يد جمال الدين ووردت الأخبار الى الاستانة وتحدث بها الناس
كما لا يخفى ، فأبدى السيد جمال الدين مزيد سروره بهذا الخبر وشرع يقول : « قد تحقق
لأن أن الأمة الفارسية لم تمت وانما أمة لم تنقطع منها الآمال ، لأن الأمة التى يقوم من
أبنائها من يأخذ بشايعها ويقتك بالمطاعى الذى على رأسها ، لا تكون قد فقست جرائم
الحياة » . وكلاماً من هذا القبيل كان يردده . ثم لما ورد عدد من مجلة « الايلوستراسيون »

التدويرية الفرنسية ، وفيها صورة القاتل رضا آقاخان معلوماً معلقاً ، والناس ينظرون من حوله هتف : « علو في الحياة وفي المات . وقال : انظروا كيف علقوه غالياً عليهم حتى يكون ذلك زمراً الى أنهم كلهم كانوا من دونه » . وكان الجواميس ينقلون الى السلطان كل كلمة يقود بها السيد ، فلم يشك عبد الحميد في كون قتل الشاه كان بسبب جمال الدين ، وأنه لما رأى وراء الشاه حتى « أنزله في قبره » كما قال . ومن الغريب أن الشاه بعد أن خلى سراح جمال الدين ، وذهب هذا الى أوروبا بلغ الشاه أن المترجم كان يسى في تدبير مكيدة مع بعض الايرانيين ، فخلع الشاه أو لفته ، فتقدم جداً على اقلاته ، ويقال انه هو الذي بعث الى السلطان عبد الحميد يرجو منه استخدام جمال الدين اليه ، ووضعه تحت المراقبة أماناً من شر غوائله ، فاستقدم السلطان يكتب من فلم أبي الطدى . ولما ورد الاستانة أمر بالمبالغة في بره وإكرامه ، ليلهي عن مداوة شاه العجم ، فكان مع ذلك ما كان ، ولا يمنع خبر من قدر . فلما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضباً شديداً ، وأمر بتشديد المرافعة على المترجم ومنع أى أحد من الاختلاط به الا بإرادة ساطانية ، فأصبح السيد في قصره محبوساً . وكانت الحكومة الايرانية تسرع في تحقيق حادثة القتل هتف لديها اغراء جمال الدين لرضا آقاخان بالاشتراك مع شخص فارسي آخر اسمه رضا آقاخان أيضاً ، وشخص بغدادى اسمه الشيخ إبراهيم . فطلبت الدولة الايرانية من السيد العالي تسليمها هؤلاء الثلاثة ، فالسلطان عبد الحميد أبى تسليم جمال الدين . ولكن الشخصين الآخرين بلغنى أنه جرى تسليمهما وقتلا في إيران بحجة اشتراكهما بالمؤامرة . ثم ان التضييق بلغ حده على المترجم حتى أرسل الى فيس موريس مستشار سفارة انكلترا يلتمس منه ابعاله الى باخرة يخرج بها من الاستانة ، فحضر فيس موريس اليه ونعهد له بما طلب ، واذا ذلك بلغ السلطان الخبر ، فأرسل اليه أحد حجاجه يستعلم خاطره باسم الاسلام أن لا يرضى بمس كرامة الخليفة الى هذا الحد ، ولا يلتمس حاية أجنبية . فثارت في أفقه حية الاسلام ، وبعد أن كان زماً حقائبه للسفر قال لفيس موريس انه عدل عن السفر ، ومهما كان فليكن . ولكن المراقبة عليه كانت لم تزل باقية ، وكل من أراد أن يشاهده فلا بد له من إذن خاص . وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر في حنكه مرض السرطان واشتد عليه ، فصدرت الإرادة السنية بإجراء عملية جراحية بثولها فبورزاده

اسكندر باشا ، كبير جراحي القصر السلطاني ، وكان هذا مغرباً جداً الى الحضرة السلطانية ، فأجرى له العملية فلم تنجح ، ومالبت الا أياماً فلائيل حتى فاضت روحه الله وعفا عنه . وهنا تقول الناس أشكلاً وألواناً في قضية هذا السرطان وهذه العملية الجراحية ، لقرب عهد المرض بحادثة قتل الشاه ، وما كان معروفاً من وسائس عبد الحميد . فقبل ان العملية الجراحية لم تعمل على الوجد اللازم لها عمداً ، وقيل لم تلحق بالتطهيرات الواجبة فنا : بحيث انتهت بموت المريض . وحدثني صديقي الكونت لاون أوسترووروخ : المستشرق العلامة ، مترجم كتاب الأحكام السلطانية للناوردي ، وحديثه هذا كان لي في هذه الأيام الأخيرة في لوزان (شهر يناير سنة ١٩٢٣) . أن المترجم كان صديقه فدعاه اليه بعد اجراء العملية الجراحية وقال له : ان السلطان أتى أن ينوب العملية الا جراحه الخاص ، وأنه هو رأى حاله ازدادت شدة بعد العملية ، فبرحو منه أن يرسل اليه جراحاً فرنسياً ، مستقيل الفكر ، بظاهر الذمة ، لينظر في عقب العملية . فأرسل اليه الدكتور لاردي ، وهو رجل لا يزال حياً واقامته بخيف من سوء سيرة ، فوجد ان العملية لم تنجر على وجهها ، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة ، وان المريض قد أشقى بسبب ذلك ، وعاد الى أوسترووروخ ، وأنبأه بهذا الأمر المخزن ، وما مضت أيام حتى فارق جمال الدين الحياة . وقال لي واحد ممن كانوا في خدمة عبد الحميد وقد رويت له هذه القصة : أن قبور زاده اسكندر باشا كان أطهر وأشرف من أن يرتكب مثل تلك الدناءة ، ولكن كان رجل عراقي اسمه جراح طبيب أسنان يتردد كثيراً على جمال الدين ويعين له أسنانه . وكانت نظارة الضابطه قد استألت جراح هذا بالذراعهم وجعلته جاسوساً على المترجم ، فصار له عدواً في تباب صديق . قال لي صاحب هذه الرواية : فارت مرة أن أ منع جراحاً من الاختلاط بجمال الدين فأشار الى ناظر الضابطه اشارة خفية بأن اتركه ، وفهمت من الاشارة انه يذهب الى هناك ويطلب أسنان السيد يعلم من النظارة والسيد لا يعلم بشئ من ذلك . ويستخلص جراحاً ويثق به . قال فلا أعلم ماذا فعل جراح بواسطة طبي وثقة جمال الدين به ، فصارى ما أعلم انه لم يخلص عدة أشهر على حادثة الشاه ، حتى ظهر السرطان في فك السيد من الداخل ، وأجريت له عملية جراحية فلم تنجح ، وجراح هذا ملازم للمريض . وبعد موته كنا نراه دائماً حزينا ، كئيباً ، كاسف البال ، واجم الوجه ، خزيان ، مما جعلنا نشبهه أن يكون ذا يد في افساد الجراح بعد العملية ، أو في

توليد المرض نفسه من قبل يوسف من الوسائل ، فلما مات السيد أخذ بعده وجدانه على حياته هذا الرجل العظيم ، الذي كان وثق به ، قال ولا أجزم بكونه حكماً فعل . ولكنني أجزم بأنه كان جاسوساً على السيد ولأنه من وراء العلم . وكانت وفاته رحمه الله في ٩ آذار سنة ١٨٩٧ وصلى عليه في جامع القنصلية في لندن طائشاً ، ودفن في مقبرة على مقر به منه . ولى في جريدة الاحرام يومئذ مقالة بين يدي فقده ليست في يدي الآن لمراجعة تاريخها . وكنت لماعداً من أوروبا إلى الاستانة سنة ١٨٩٢ ، ذهبت إليه في نهار وصولي ، فاستقبلني براً وترحيباً ولزمته ثلاث المدة إلى أن اضطررت إلى السفر إلى وطني سورية ، ففارقته أسفاً وأنا أسنى نفسي بالعودة إلى الاستانة ، لمشاهدته والاستفادة منه . وسألتني مرة عما شاهدته في أوروبا وأي نتيجة استخلصتها من كل أولئك القوم ، لأنه كان فيلسوفاً تماماً لا يرى الجزئيات الا من خلال الكلليات . فلما أردت أن أبدي له ما يعنني في هذا الباب ، وكنت يومئذ في أول شبابي لم أجوز الثانية والعشرين من العمر ، فلبثني مهابة حكيمته وخشيت أن لا أصيب الخبز ، فتحوطت الكلامي بشئ من السكر النفس واستكبر أن يكون مني ممن يجوز أن يتكلم بحضرة مثله . فلما رأيته الانهض وأمسك بيدي وحذف قائلاً : « أنا أهني أرض الاسلام التي أنقذت » . فسمع الناس هذه الجملة وما زالوا يتناقضونها . وما خلا فصددها إلا الحظ بضمي إلى الأمام ، وجبر ما نقص من فوق المعنوية . وشكيت له مرة أن احسني جرائد اميركا بحثت في موضوع اكتشاف تلك القارة ، فقالت يروي أن العرب غاصوا الاوقيانوس الاطالانتيكي تالفيدين البر الذي وراءه ، ومات هل عند مؤلفي العرب بشئ من هذا الخبر ، فعربت ذلك جريدة النشرة الاسبوعية في بيروت ، وألفت السؤال نفسه على علماء العرب وكنت في باريس ، فلما اطلعت على القضية ليبت ذلك النداء وراجعت في المكتبة الوطنية كتب الشريف الادريسي الجغرافي العربي الشهير ، ونقلت من كتابه ترجمة المشتاق إلى اختراق الآفاق ، خبر الاخوة المغرورين ، الذين ركبوا سفينة من أشبونة وجعلوا فيها كل ما يلزمهم من الزاد والماء ، وغاصوا بها بحجر الطائشات إلى الغرب حتى وصلوا بعد مسيرة شهر إلى جزيرة خالية لم يجدوها بها الا الوحوش ، فركبوا البحر متجهين إلى الجنوب ، وبعد نحو شهر أيضاً نزلوا بجزيرة فيها أناسي ومالك يحكم عليهم ، فقتلوا من عنده منجحين شرقاً ، حتى نقلوا بعد مدة إلى مرسى اسنى بالمغرب الأقصى . فلما اكملت له الرواية

وانني حررتها جواها على البشرية الأسبوعية ، وقد أثر بها عنها جميع الجرائد العربية ، التفت الى قائلا : « لا أريد أن أسمي المسامح بكلمة . هؤلاء قوم كلما قال لهم الانسان : كونوا بنى آدم . أجابوه : ان آباءنا فكانوا كذا وكذا ، وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم غير متفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة ، لا يننى ما هم عليه اليوم من الخول والضعف . قال : ان الانسان اذا بنى قصرا مستنقفا جميع شروط البهاء والنيقة ، ولم يفتحه فيه شيء من الرفعة والسرعة ، فهو يفكر حينئذ بأن يأتي الى قصره بالرباط الفلاني النادر من القطر الفلاني ، ويتكلم زينة قصره بالآية الفلانية التي لا يسكنها الا القليلون ، وأن يجعل في حديقة القصر هذه الزهرة البديعة ، ولك الزخانة العجيبة . فلما وهو قصر متداع الى السقوط ، وانحصر بادل الى الأرض ، والسقوط قد هوت من كل جانب ، وهو لا يقدر على ترميمها ، فحين يخطر بباله أن يأتي لا كمال زينة قصره بهذه الآنية ، ولك الزهرة ، وهاتيك الدبابجة ، كلاه . تعمري ان من أعور له الضروريات ، لا حاجة به الى السكايات . قال لي : « وأنا أقول لك لماذا حققت عن قضية جد العرب لا كنتف أمركا ، ولكنني أقول لك ان الشرقيين قد أصبحوا بهذه المثابة ، وهي كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخول الخاصر ، قالوا : أهلازون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم ربه لا ، ولكنكم أنتم أولادكم كما أنتم . فلا ينبغي بكم أن تذكروا مفاخر آباؤكم الا أن تفعلوا فعلهم . » وكأنه ينظر بهذا الى قول القائل :

بنى كما كانت أواله
تبنى وتفضل مثلهما فعلا

وكان من شدة ما يجد من الألم خلال الاسلام ، فخطر له خواطر نادرة في هذا الموضوع . فقال لي إحدى المرات : « قد فسدت أخلاق المسلمين الى حد أن لا أمن بأن يصلحوا ، الا بأن يبتأوا خلقا جديدا ، وجيلا مستأفيا ، فحينئذ لو لم يبق منهم ، الا كل من هو دون الثامنة عشرة من العمر ، فعند ذلك يتلقون تربية جديدة يسر بهم في طريق السلامة . » وقال لي توبة أخرى : « لم يبق في الاسلام أخلاق ، فهذا محمود سامي (البارودي الشاعر الكبير ، رئيس النظائر أثناء حرب عراني) عاهدني ثم نكث بي ، وهو أفضل من عرف من المسلمين . وقال لي أيضا : « ان المسلمين قد سقطت همهم . ونامت عزائمهم ، وماتت خيوطهم ، وقام شيء واحد فيهم وهو شهواتهم . » وكان يندد هذا التمدد كله لما كان فيه من الوجود لاسترداد الاسلام بحده القديم ، ولما كان يراه من غفلة المسلمين عن الأخذ بأسباب

الرفق ومن السبب العميق الذي أمتعوا فيه ، على حين صاح صائح الجهد بسائر الامة هيا على
 القلاح . ومن قرأ مجموعة العروة الوثقى التي كانت ترجمان أفكاره ، بقلم تلميذه الشيخ محمد
 عبده رأى انه أنياً منذ أربعين سنة بما سيؤول اليه حال الاسلام ، وما ستكون معه سياسة
 الدول المستعمرة ، مما تحقق كله فيما بعد ، حتى كأنه كان ينظر الى الحوادث المستقبلية في
 مرآة . وكان في أطوار حياته ، فيلسوفاً كاملاً ، عالماً عاملاً ، فلا يقول ما لا يفعل ولا يكتفي
 من الحكمة بالنظر دون العمل ، كما هو شأن كثير من العلماء الحفائين الذين فلوهم في
 واد وألسنتهم في واد . فكان يغطي نفسه عن الشهوات ، ولا يرى من اللذات الا اللذات
 العقلية العالية . وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يعلق قلبه بالمال والبنين ، ويشتغل بربته
 الدنيا وراوده على الزواج ، فأبى وأعرض ، وقال له : قضيت حياتي مثل الطير على القصب ،
 فلا أريد في آخر أيامي أن أتعلق بعائلة . وكنت سامراً مرة عنده وعن هذا الموضوع ، فقال
 له أحد المستقيين : يا مولاي لماذا لا تتأهلون ويكون لكم الذرية الصالحة ؟ فلم يعجبه قوله ،
 ولما انصرف الرجل أقبل على السيد وقال « لم تدخل روح الفلسفة في هذه الامة » .
 وليس مراده بذلك التزهيد في الزواج ، وإنما تقر بر حقيقة وهي أن الفلسفة لا تنال باليسر
 والذرية ، وان الفلاسفة فلوهم في شغل شاغل عن ذلك ، وكان ينظر الى أمثال نظره الى
 القرب فلا يدخره ، ولا يعرف معنى تنميره ، ولا يتناول منه الا ما هو ضروري للحياة .
 ولما كان في الاستانة ، كان عنده فهرمان هو الذي بيده الحساب والقبض والصرف ، أما
 هو فلا يدري من ذلك شيئاً ، وحاول السلطان أن يعطيه رتبة عالية كرتبة قاضي عسكر
 مثلاً ، فأبى أن يقبل الرتبة ، وأن يلبس كسوتها المزركشة بالقصب ، وكذلك رفض قبول
 الوسام مهما كان عالياً ، فسأله عن ذلك فقال : أكون كالبعغل يحتمل على صدره الجلاجل ،
 وبالجلد فلم يكن يؤخذ لا رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد كان راغباً عن الدنيا بخلافها
 عموماً عن زينتها معرضاً عن زخرفها كما مر بك . وأما الرهبة فلم يكن يعرف الخوف الى
 قلبه سبيلاً ، وفيما سردنا لك من قصصه ما فيه مفتح . وعرض حديث أجيالته فيه ذكر
 الشيخ محمد عبده فقلت ، انه من الأفراد بمصر ، فاجابني : « لا يوجد مثله بمصر » . وكان
 هذا قبل أن صار الاستاذ في منصب افتاء الديار المصرية ، ونال تلك الشهرة العظيمة .
 نحرصنا في ترجمة حال هذا الحكيم الكبير ، هذه الدقائق لأنه مما لا مشاحة فيه ،

أنه هو الموفق الأعظم للشرق ، وإن صريته سترداد انتشاراً ، ومباداته ستطبق في يوم من الأيام الشرق بأجعه ، فبسال الخلف عن أحوال حياته ، ويستقصون عن خواطره ، ويتحدثون في جمع آثاره ، كما نرى الأوربيين اليوم يحرسون جد الحرص ، على اكتشف أقل نبي يعزى إلى عظيم من عظمائهم ، سواء من خير أو أثر . ومن غريب ضرائب البشر أنهم لا يحرسون على آثار عظمائهم في حياتهم معتلز ما يحرسون عليها بعد ذهابهم ، وكنت أسأل مرة مارسل كاتلين ، وجان لوفيه ، وجاعسة من رؤساء الاشتراكيين الفرنسيين ، عن جوريس نافذة السوفيالست في هذا العصر ، فبعد أن حدثوني عنه ساعة قلوا لي : « لم تكن نفاذه فصره في حياته كما نفاذه فصره اليوم » وأنفن الحال كذلك مع رنان ، ومع فيكتور هوغو ، ومع سبنسر ، ومع بشارك وجيع الأعظم . فإن أقدارهم تزداد بالموقاة ، والولع بأثارهم يتضاعف مع تقدم العهد . وهكذا شأننا مع جمال الدين ومحمد عبده ، وغيرهما من كبار المصلحين ، كما تقدم عليهم العهد ، حرص الناس من آثارهم على اللفظة الشاردة ، والكلمة الفاردة ، ليكتبوها عنهم بماء الذهب . ولجان الدين تاريخ للأفغان ، ومغالات متفرقة كان عندي منها مجموعة ، سطا عليها نص علم ، وآخر ما نشر له : رسالة السهر بين التي سبق ذكرها . وبالجملة فلم يكن يحفل بوفرة النصائيف ، وإنما كان مؤلف أسم ومصنف محلات .



ومن ترجم السيد جمال الدين ، العلامة غولام سيهر المستشرق المجري المشهور ، شيخ المستشرقين في العلوم الشرعية ، وصاحب النصائيف العديدة . فقد رأيت له في دائرة المعارف الإسلامية ، المحررة باللغة الفرنسية ترجمة خاصة بالترجم السيد جمال الدين ، جاء فيها بالترجمة :

« السيد محمد بن صفير ، من أعظم رجال الإسلام في القرن التاسع عشر ، كان بحسب رأي براون فيلسوفاً ، كاتباً ، خطيباً ، صحفياً . وقبل كل شيء ، كان رجلاً سياسياً يرى فيه مريدوه وطنياً كبيراً ، وأعداؤه مهيجاً خطيراً . وقد كان له تأثير عظيم في حركات الحرية ، والمنازع الشوروية ، التي وجدت في العشرات الأخيرة من هذه السنين ، في الحكومات الإسلامية وكانت حركته ترمي إلى تحرير هذه الممالك من السيطرة الأوربية ، وإنقاذها من الاستغلال الأجنبي ، وإلى ترقية شؤونها الداخلية بتأسيس إدارات حرة .

وكذلك كان يفكر في جمع هذه الحكومات بأجمعها ومن جعلتها إيران الشيعية ، حول الخلافة الإسلامية . لتتمكن بذلك الاتحاد من منع التدخل الأوربي في أمورها . فقال الدين بقلعه ولسانه ، كان أصدق ممثل لفكرة الجامعة الإسلامية . وأسرته الشريفة تنتمي إلى الحسين بن علي بن أبي طالب بواسطة المحدث النهر الترمذي ، فهو من أجل ذلك يلقب بالسيد . « ثم يقول انه بعد اكمال تحصيلا بكابل ، ذهب إلى الهند ، ثم حج البيت سنة ١٢٧٣ هـ أو ١٨٥٧ م وبعد اوبته من الحج ، دخل في خدمة دوست محمد خان أمير الأفغان ، ورافقه في حصار هرات ، وما توفي دوست محمد خان ، دخل في خدمة محمد أعظم الذي استوزره إلى أن كان سقوطه والسبيلاء ، سير علي خان على المملكة . فرحل السيد جمال الدين إلى الهند (١٨٦٩) ومنها قدم القاهرة حيث أقام أربعين يوماً ، ومنها قصد الاسكندرية ، فاقبل عليه وزرأوها وعلمائها ، وأجروا فدره ، وعرفوا فضله ، وعينوه الدولة عضواً لمجلس المعارف وصار يلقى بعض الدروس في أياصوفيا والسلطان أحمد ، ودعى سره إلى إلقاء خطبة في دار الفنون على فوائد النبوة ، فذكر النبوة من جملة الوظائف الاجتماعية (١) فأدى ذلك إلى أن حسن افندي فهمي شيخ الاسلام رماه بالزندقة ، واضطر إلى مغادرة الاسكندرية فحداً مصر . فأجرت الحكومة المصرية عليه معاشاً شهرياً ١٢ ألف عرش بدون أن تسكفه إلقاء درس خاص ، وإنما كان يقرأ على حلقة من الطلاب في منزله ، واجتمع حوله كثير من العطاش إلى مناهل العلوم العالية الخ .

وذكر غولدم سيهر سائر ما يعرف من أحواله بما حرره الشيخ محمد عبده ، في حشر رسالة الرد على الدهريين ، وما هو بمعنى ترجيئه في هذا الكتاب ، الا أنه يقول انه لما نفي من مصر إلى الهند جعلوا اقامته بجيدر آباد الدكان ، وهناك كتب رده على الدهريين ، والله قد زعم ويلفريد سكافن بلونت وهو محام لم يذكره غيره من مترجبيه ، أن جمال الدين ذهب

(١) حفيظة هذه القصة أن السيد بوشه شبه الاجتماع الانساني بنسب أعضائه الصناعات المختلفة . تشبه الصنعة الفلانية باليد ، والفلانية بالرجل . وحسنه بالعين ، ونك بالاذن ؛ ثم قال وأما الرأس المدير هذا الجسم ، فهو إما النبوة أو الحكمة ، والفرق بينهما أن النبوة وحى إلهي معصوم من الخطأ ، وأن الحكمة وضع بشري قد يخطئ ، وقد يصيب . وكان حسن فهمي افندي شيخ الاسلام بوشه ، نادياً على الأفغانى قراراً سابقاً في مجلس المعارف ينال من رزقه ، فاشير فرصة هذا الخطاب ليقول ، ان الأفغانى جعل النبوة من جملة الصناعات

من الهند الى أمريكا ، وانه منها جاء الى الهند سنة ١٨٨٣ .

وذكر غولد سيهر مناقشة جمال الدين مع رنان ، في أمر قابلية الاسلام للعالم ، فقال ما يأتي بالحرف :

« وقد فتحت له أشهر الجرائد وأعظمها نفوذاً أبواب المراسلة ، فتميز فيها مقالات متعة ، عظيمة القيمة على السياسة الشرقية ، التي كانت تنبذ عنها انكثرة والروسية ، وعلى أحوال تركيا ومصر ، وعلى معنى حركة المهدي السوداني . وفي ذلك الوقت جرت بينه وبين ارست رنان ، المناظرة التي أسامها محاضرة ألقاها رنان في السوربون على الاسلام والعلم . فعمل الدين أراد تضيق مزايع رنان بعدم قابلية الاسلام للتوليد العلمي ، وذلك في مقالة بتبريد « الدنيا » ترجمت أيضاً الى الألمانية . ثم بعد ذلك بقليل ، ترجمت محاضرة رنان ، مصححة ، برد من فلم حسن أفندي « علم الحق » .

مذكر غولد سيهر العروة الوثقى ، وكيف شهدت الحكومة الانكليزية بمنعها من أول عدد صدر منها من الدخول الى مصر والهند . وقال انه سنة ١٨٨٥ : بالرغم مما اشتهر به المترجم من عداوة انكثرة ، داخله الانكليز بإشارة المستر بلونت في أمر إيجاد حل لمسألة المهدي السوداني ، ولكن لم يفترون شيء من ذلك بالعمل . ثم زعم أن الشاه ناصر الدين دعاه بالبرق سنة ١٨٨٦ الى محاضرة ملكه بتهران ، وأكرم منواه وبالبحر في الاحتفاء به ، ولكن خشية الرقباء حلت جمال الدين على الاساتذات من الشاه والذهاب الى الروسية ، حيث أقام مدة وجازت له علاقات كثيرة ، وان لقاءه للشاه في منبج كان في المرة الثانية ودعاه هذا الى الرجوع الى طهران . وذلك سنة بحجى الشاه الى معرض باريس (١٨٨٩) وذكر غولد سيهر أن سبب الفتنة بين جمال الدين والشاه كان الصدر الأعظم ميرزا علي أصغر خان الملف بأمرين السلطان ، نفاسة على جمال الدين بالمسكانة التي أحرزها في ايران ، وان جمال الدين النجا الى مقام عبد العظيم الذي هو أشبه بحرم من دخله فهو آمن ، وأقام سبعة أشهر والناس تتردد عليه ، الى أن أرسل الشاه كتبية ، ٥٠ فارس ، اخذوا حرمة الحرم وأخذوا السيد منه عنوة ، وساقوه مكبلاً بالحدود الى خاتقين (١) .

ثم استوفى بقية خبره ، وكيفية معاشاته لحكومة الشاه ، ثم حجته الى الاسناتة ، وموته فيها على الوجه الذي حررناه .

الاسلام والجنود السوداء

مقالة روجر لابلون والتعليق عليها

لبلون

- ١ — الاسلام الاسود
- ٢ — الاسلام عند السنغاليين
- ٣ — الخلاصة
- ٤ — الجنس الاسود والاسلامية

انه مما يجدر بأن يطالع عليه الشرقيون عامة والمسلمون خاصة ، ما يصدر في أوروبا في الآحياء من الكتابات المتعلقة بهم ، والتصانيف الباحثة عن مصيرهم ، والمقالات المصورة لأحوالهم وشؤونهم بلون مخيلات الكتاب الذين حرروها ، الناطقة عن هوى الأحزاب التي ينتمي هؤلاء الكتاب اليها ، بحيث يعرف منها الشرقي أو المسلم أو المستضعف المغلوب على أمره كائناً من كان ، ماذا يطبخ له في الخفاء ، وماذا يدس تحته تحت الستار ، وماذا يدبر عليه بدون علمه مما لا يطعم عليه الا في الندى ، وما هو رام الى ادامة استغلاله ، والاحتياط من وراء اساره ، وتأبين رسفاته الأبدى في سلاسل العبودية ، فن هذا القليل وما نورد مثلاً : مقالة مشبعة ظهرت مؤخراً في مجلة من أشهر المجلات الفرنسية هي مجلة باريز Revue de Paris في عدد أول ابريل سنة ١٩٤٣ ، لكتاب فرنساوى اسمه روجر لابلون^(١) Roger Laboutie عنوانها « الاسلام والجنود السوداء » كشف فيها النقاب عن جميع ما يتوى بعضهم في حق المسامين الذين تحت يرا الافرنجة عامة وزير الفرنسيس خاصة ، وتوحي عدم حصر ذلك في الميدان السياسى والادارى ، بل تجاوزه الى الميدان الدينى والاجتماعى ، مما لا يتجاوز انتهاون به ولا الاغضاء عنه ولو لأجل العلم به على الأقل . وقد جرت عادة المثاليين والمباحكين ومخدرى الأعصاب من الاوربيين ، عندما يتحدثون انسان بشأن مقالة

(١) راجع الصفحة ٣٠٦ من هذا الجزء

كقده أو مصنف من بابها ، أن يكون جوابهم أبداً بأن هذه هي آراء أفراد ، لا يؤبه لها ولا يلتفت إليها ، وليست الحكومات المستعمرة لتقيم لها وزناً . وكلمات كلها من هذا النمط ، فليحذر الشرفيون وجميع المسلمين من قبول هذه الأقاويل ، والاسترسال الى هذه التوسيمات ، لئلا يندبوا عاقبة سداجتهم وحسن ظنهم . ان المبادئ والآراء التي في المقالة الآتية تعريبها ، وفي مئات بل في ألوف من أمثالها الصادرة تباعاً في العالم الأوربي هي عقيدة حزب كبير جداً في أوروبا . بل يمكننا أن نقول هي عقيدة السواد الأعظم من أهالي الممالك الاستعمارية ، لا يخرج عن هذه العقيدة سوى الأحزاب الاشتراكية ، والشيوعية ، وعلاوة الراديكال ، ومن ند لعلة من العدل من جمهور الأحزاب الأخرى المتوسطة والمتباعدة ومن يليها . وذلك كعالم كبير طاهر الوجدان ، أو فيلسوف كامل واسع الفكر صادق الانسانية ، أو سياسي عتق راجع العقل يغلب ادراكه هواه . ويعلم بما في هذه الأفكار من النهور وما يترتب عليها من الاخطار ، وما يكون لاجرائها بالتعلل من سوء العاقبة . وما عدا من ذكرناهم : فالغالب من القوم هو على هذه العقيدة فلا ينبغي أن نتخاضع أنفسنا ، بأن نساق عن الحقيقة لذة بالنفاق كمن يكتم مرضه ، فانه اذا كان فيصح بالمرء أن يغش غيره ، فأقبح منه أن يغش نفسه . نحن الأمور التي لا يجوز أن نعش أنفسنا بها ، المذهب في كون هذه المبادئ الضارة بالشرق والعالم الاسلامي هي مبادئ الفتن القليلة ، وأن تلك حكومات غير ماضية بموجبها . والحقيقة أن ليس هناك الا الفرق بين عدو حقيقي يمتعه حيله . وتر بأه رويته ، عن المجاهرة بتكثرون فكره ، وافلاق خواطر الأمم المستعنة بصراحة نيته ، وعمدو مشهور غلبت عليه حرارة صدره وبذرة طمعه ، حتى باح بكل ما يؤوله تأييد عبودية تلك الأمم المقهورة ، لاسباب المسلمين ، الذين يرونها أشد خطراً من الجميع بما بنقت القرآن في روعهم ، من روح العزة ونهوين الموت ابتغاء الحياة الكريمة . وهذا القسم الثاني هو نظير روجر لا يون هذا الذي تأنيك بمقاله معرباً بالحرف قل :

— ١ —

لمحة على حالة الاسلام الحاضرة

« نجد الناس في فرنسا ينظرون بدون قلق ، الى القلاقل والى حركات العصيان

لا م ٢٠ - ثاني »

البادية في العالم الاسلامي . بل ربما ينظرون اليها مع شيء من الشبهة أو السخرية ببعض جيراننا ، الذين لا يوصفون بخلوص النية ، ولا بكرهون أن تستد وتمتد عندهم هذه الحركات ، ويعتقدون أن مجرد التزم إلى الشعوب الاسلامية ، وادعاء المحافظة على حقوقهم ، مما قد يزعج عنا نحن هذا الخطر الذي يتهدد غربنا . ثم انهم لا يريدون أن يسمعوأ كلاً من المتشائمين ، الذين نهجس في صدورهم علاقات الاناضول مع التونسيين والجزائريين والمراكشيين ، والمساسس الجارية على الحدود الشرقية من سيطتنا الافريقية . ينقلبون مخاوفهم عنده بتصرعات الاتراك ، الداعية إلى الركون والطمأنينة . ويعتصرون على القنصل الذي اذيع اعلان تركيا الجهاد في الحرب العامة بمعاونة المانية . ثم يسليهم اقترح ، الذي يبريه لنا المسعون من جراء خطتنا الحاضرة ، ويستخدمون بكل سهولة بظاهر الشرق ، الذي من شأنه كتابان سربرته تحت ستار الادب الغض ، والكياسة الزائفة . ويسبون أن الاسلام المبني على قاعدة الخضوع للقوة الغالبة . تصليح له الصراحة وسياسة الخزم ، اكبر من سياسة التودد والمراماة عن حقوقه .

نعم ان السكون الذي نرى رواقه الآن ممتداً على ممالكنا الاسلامية ، قد يصوبه اخطئة المتبعة عندنا ، لانه على ضد ما هي الحالة في الريف الاسبانيولي ، وبرقة الايطالية ، ومصر الانكليزية . ولكن النار توشك أن تصل اليها ان كنا لا نريد أن تلتفت جهة الشرق الذي منه اتبعنت الحرب ، والذي حوالاته الحاضرة ليست الا مقدمات لما هو اعم وأهم .

سنة ١٨٩٧ أثبت كويولا في وديونت Cappelani et Depont في كتابهما عن الطرق البربرية الاسلامية ما كان من التأثير لا تنصار الترك في نساليا ، فقالا ان الامم الاسلامية كلها ماتت ضرباً لبشائر النصر الذي أحرزه أبناء ملتهم . ولكن هذا الغليان لم يكن يومئذ ذاباً . لان أوروبا كانت يومئذ قوية ثابتة متحدة ، وكان المارد الرومي ماقباً بكلكه التفتيل على جميع العالم الشرقي والاسلامي . فلم يكن ليجراً أحد من المسلمين على أقل حركة بالرغم من دسائس عبد الحميد ، ومن مظاهرات غليوم الثاني الولايتية للاسلام في الارض المقدسة . أما الآن فقد تغير كل هذا ، فان أوروبا قد ضعفت ، وجراً المثلثين قد قضا عفت ، والحركة القومية تعمل عملها في الشعوب ، وموسكو بدلا من أن تكون هي ذات البس الضاغطة على المسلمين اذا هي التي تعظم هذه الحركة وتظاهر أصحابها على التملص من اليد الاجنبية .

ان الاهتمام الذي يراقب به العالم الاسلامي حركات التأثيرين من مساعي آسية ، لاجل التخلص من ربة الغرب ، هو ارجاس لا يجوز الاستخفاف به . فان فوز شعب اسلامي على حكومة اوروبية لا يخلو ايدياً من رد فعل يتم الى أقصى البلدان عن مزرع المعركة ، فلو رأيت جرائد الاستانة أيام انكسار الاسبانويول في الريفه كيف كانت تهلل وتنكبر ، وتنتشر في صفحاتها الاولى شائء نصر المراكبيين المسلمين ، وخرائط ميادين الحرب ، انقضت العجت ، وانك لتري أقل اضطراب يقع في برقه أو تونس أو سورية أو الهند مبالغاً فيه أشد المبالغة في الصحف التركية .

مع ذلك سياسة محاسنة الاسلام لا تزال ناشئة ، على ما فيها من تفاصيل الافهام . ونجد النضاج المبني على التجارب ، ولا يبرح بعضهم معتقدين أن لا خطر من هذه السياسة ، وان كان ثمة من خطر فيكون على جيرانه فقط . ولقد اشتدت مجاري الحب والبغض بعد الحرب ، الى حد أن أصبح الانسان يرى الصواب في عدم احتجام ثمرتها ، وبدلاً من أن بين الخطأ الفطيع الذي دل عليه الاختيار الطويل ، تجسده يجزئ ، بالتعديل الخفيف ، منتظراً أن تأتي الحوادث بما يبرد حرارة تلك الاهواء .

وانا في هذه المسائل التي يوشك أن يصل اليها اذاها ، نحس بشائير برلين ، فهناك نادى الشرقى المؤسس سنة ١٩٢٠ ، تحت حاية مجلس برلين البلادي والجنرال لودندورف ، صدر جريدة لواء الاسلام بالعربي والتركي والفارسي ، التي الغاية منها بث الدعوة ، وتفسير حوادث اوربا وآسية بالشكل المناسب . ويضاف الى هذه العوامل الناشئة عن حالة الحرب ، عوامل أخرى للمهيجان ، هي غير واردة لواء ، بل هي من فطرة الاسلام نفسه . فقد تكرر مراراً ان ديانة النبي تحتم على اتباعها الاستسلام للقوة ، وانها تجعل القوة خاصة لطيفة تحب طاعتها ولو كان صاحبها كافراً ، فالقوة من الله ومن ذا الذي يقدر أن يناهض قوة الله .

وان هذا المشرب الخالف لبدن الاوربيين ، الذين يدفعون بعامل العاطفة ، هو السبب الوحيد فيما نجده من اعتقاد أشد الأمم الاسلامية للفتاح الاجنبي . واكثر ما يحدث من

الاغلاط في سياسة هذه الأمم ناشئ عن الجهل بهذه الحقيقة (١) فالاسلام لا يخضع بظهوره
 الا لسلطة القاهرة - والسلطة والعلاء عنده توماني . وعند ما كانت أوروبا متحدة وكان
 هناك ما يسمونه بالمجتمع الدولي ، كانت مكانة أوروبا فوق أن تنازع ، وكانت الشعوب
 الاسلامية واحداً بعد واحد تلقى السلاح ، ولم يكن ثمة منها الا بعض حركات عارضة .
 ولورات منحصرة ، فكانت قوة التأثير ، من مهدي وزعيم لا تبسط ولا على جميع
 القبائل المجاورة . ولما جاءت الحرب الكبرى ، كنت ترى بنجالي لاغور ، وهنود البنغال ،
 وكافنبور ، ومصري وادي النيل ، والاعراب ، والبرابر ، والمراكشي ، والبيماره (٢)
 يجندون تحت رايات دول الخلفاء ، وان مليوناً ونصف مليون مقاتل من المسلمين ، قاتلوا
 بتزويد الساسة عساكر خليفة استانبول وقيصر برلين . وهذا النفوذ التركي الذي يعدوه
 الآن عنصراً ضرورياً للمنظام والكون في العالم الاسلامي ، لم يحد له أدنى دور يذكر في
 الحرب العامة ، ولا استجلب للألمان أدنى حليف من المسلمين ، ولا أحدث أدنى مشقة
 للحلفاء . بل تبادى المشايخ في مراكش والمغرب ، على نشر الفتاوى المضادة لآبناء ملتهم
 من الأتراك . فلما مضيت متاركة مودروس ، ووقف جيش الخلفاء الظاهر عند الدانوب ،
 وجيش الانكليز عند الفرات . كانت ديار آل عثمان تخرج بالعساكر الاسلامية المقاتلة
 تحت ألوية الخلفاء ، وفتوى شيخ الاسلام ودعوة الجون ترك لم يسعهما أحد . وكان
 الشرق كله يتوقع أحكام أوروبا التي أبطأ صدورها ، وكان موطناً غصه على الطاعة ، لكن
 لم يطل الأمر حتى انصرف الجيوش ، وظهر الضعف والتردد في عزائم الخلفاء . فعادت
 الحركة الى الشرق وعاشت آمال أهله ، وعرفت ذلك احدي جرائد انقرة بقولها : « ان
 أوروبا حل بها الوهن بسبب التنازع ، ويد الله أخذت على أيدي الصليبيين الغالبين ، وما
 كانوا على وشك اغراق المؤمنين بسيلهم » ففشط الاسلام ، ونزعت تركيا ومصر والعراق
 وأفغانستان والهند الى الثورة ، وعجل في ذلك التحالف مع البولشفيك ، وشعرت الدول
 الغربية على أثر الخسائر التي أولتها الحرب بخور القوى ، وبال حاجة الى مداخلتها التأثيرين
 في أمر الصلح ، وجنح الجميع الى الطوادة . فانكثرة نالت الى الفرق بأفغانستان وفرنس

(١) أي كون الاسلام عبداً للقوة

(٢) جيل من أوائل بلاد السودان ينزلون بن سحراء إفريقيا من الشمال وأما إلى السيفان من الجنوب

والعراق . وفرنسا أبدت التساهل في كليكيا . وإيطاليا سلكت سلك التؤدة في شرابلس الغرب والبالانية . فسكنت الأمور وعدأت الأحوال ، ولكن سقط جاد أوروبا في نظر الاسلام وتجمع التأثير . ورأيت هذه الثورات بأجمعها مطبوعة على غرار واحد ، فانه يوجد على رأسها دائماً بعض مفكرين ، ينحون برعهم الشاخي الغربية ، آخذين ببعض معلومات قراؤها ، وأساتد عظمها عقولهم مع قلة الخبر وشدة الكبر ، ثم من كنههم أمة جاهلة ليست على سوية واحدة ، ذات أخلاق حسنة ، لكنها لا تحسن شيئاً غير اظهار احتياجها الى النظام والاسلم . على أن لها من بشر نادر عصبتها من الشاخي والمرايطين المستولين على العقول والافئدة .

وقى مصر ازداد عدد المتعلمين من أطباء ومحامين ومهندسين وتحتفين ، ممن يريدون تحرير بلادهم ويتفقرون على محل الانسكاز الموظفين ، فتخرج بذلك مركز انكثرة . ومما لا شك فيه ، أن مبادئ الوطنيين جذيرة بالاحترام ، لكننا نراهم لا يريدون أن يعترفوا بفضل الاحتلال الانكليزي ونجددهم متمسكين بكلمات فارغة غير متوقفين عن انتقاد الأحوال الضرورية التي هي بذات التجربة ، ولا متجنبين أخطار التعصب وعسكرة الاغالب ، بل مجتهدين في تاتمين مبادئهم هذه ذلك الفلاح الذي أرى بيعه فطنه يودانيين في الثارته ، على ادارة ذاق بها طعم الراحة والسعادة .

هذا هو تاريخ الحركة المصرية ، وهذا ما يمكن أن يكون شدا سير حركة الاستقلال في بلدان نهما أكثر من مصر . فان المسألة الوطنية القومية قد بدأت تنمو وتتقوى عند جميع شعوب الشرق ، لا سيما العرب . ومن العيب أن تتجاهل ذلك ، ونحن الآن بعد مضي ثلثة سنة على فتحنا افريقية ، أخذنا ندرك الخطأ الذي ركبناه ، في طريقة ضممت لنا الفتح الحربي والفوز السياسي ، لكنها أهملت الفتح المعنوي الذي كنا نراه من القسم الاستحيل . ومن أهمل هذا الفتح المعنوي ، تأق الشعب كلما اشتد الهيجان في العظم الاسلامي . ففي الجزائر بالرغم من الصداقة والأمانة اللتين أظهرهما الجيش الوطني أثناء الحرب كانت نتيجة انتخابات ١٩١٩ مما يوجب قلق الفكر فان السائة ألف وطني ، الذين آلتناهم حتى الانتخاب بموجب أمر ، شباط ، رشحوا بأجمعهم كل من عرف ببغض فرنسا ، وكان

من جماعة الأمير خالد^(١) وكذلك الشهبان ، الذين حصلوا العلم في مدارسنا ، وتلقوا تربية أوربية ، كانوا أشد الناس مناهضة لقضية تجنيد الوطنيين . فلما العامة ، فهي باقية بعيدة عنا جداً من الجهة المعنوية ، ومنذ خلق العلم الفرنسي فوق مرسى الجزائر ، تكون بين هذه الأمة وناس لم نعرفه من قبل .

لقد عظمت الأخطار التي ارتكبتها ولاذ الأمور التي تسببها مقاليد الجزائر ، بالغائهم العمل بعادات البربر وعرفهم القديم ، وحلهم طراً على شريعة الفرنسيين ، ومن المسموع ، أنه كان في ذلك الوقت ٨٠٠ ألف بربري غير مسلمين ولا مستعربين ، فالولاة من الفرنسيين مراعاة للشرط الذي وقع عند تسليم الجزائر ، من عدم مس الشعار الإسلامية ، تجنّبوا إلى حد المبالغ ، الإخلال بكل ما يخالف هذا الشرط ، وظنوا أنه صار من واجبهم حل البربر على أحكام مخالفة لعاداتهم وعرفهم ، وبدلاً من أن يجعلوا هذه العادات القديمة الباقية للبربر من عهد الرومان قوانين مرعية نافذة ، عدلوا بهم عنها إلى أحكام التمرع التي يأبى القضاء والمراطين ، وهكذا أوجدوا وحدة عربية قومية ، عجز فاتحو شمال إفريقيا^(٢) منذ ١٢ قرناً عن إيجادها . ولقد دخلت الأهواء والعواطف في هذه المسئلة ، فلم يبدأ احتسكا كنا بالإسلام ، حتى جعل الاسلام يستفيد من أصحاب العقول الناذرة عندنا ، ومن دعاة البيع والأمور الغربية ، الذين أخذ بعقوهم ما في حياة اتباع محمد من الكرامة والرحمة ، وما في الصلاة فوق ركام الرمل ، من السساجة المقررة بزعمهم بالوقار والهيبة . وكانوا يستحلون تلك الحركات البسيطة الخلية ، التي تريد جالا وجلالا في نظرهم ، هيئة برانس المسلمين أثناء صلاتهم . نعم استغل هؤلاء المفتونون بحب العرب بالأمور الصورية عن الأمور المعنوية ، وتناسوا حالة العربي النفسية ، وما عنيده من الكراهة لكل مخلوق غير مسلم ، وما هناك من عقيدة القضاء والقدر التي هي عقيدة الجنود ، والتي لا تتخرج مع الاحتياجات العصرية .

إن هؤلاء المفتونين بالاسلام ، الذين يرمون بأقطاره سراخا ، يذكرون دين الرسول

(١) ابن الأمير الهاشمي ابن الأمير عبد القادر

(٢) الفاتحون المسلمون

عزيمه الاطراء^(١) سنة ١٨٣٨ نهت جريدة « الدنيا » عن نصير المسلمين بحجة أن ذلك يقتضيه صفتهم المحلية ، وأن ذلك مخالف للصلحة . وفي أيامنا هذه كاتب شهير^(٢) يلوم على نصير البنت المسمات في سان لويس (في السيفغال) ، بحجة أن الراهبات يفرن هن ملاسهن الوطنية التي هي أليق بهن . فأحكام كهذه مستعجلة ، لا تزال نفوى عاطفة الميل عند الأمة الفرنسية إلى المسلمين ، الذين منهم عسله عظيم في تبعية فرنسا ، وتحول دون رغبة شعوب الدين الاسلامي ، المستورة بطواهره الشعرية ، فلفظه اسلام ومغرب وحجاز وما أشبه ذلك ، كادت تكون ألفاظاً صوفية تأخذ بلب بعض الناس .

على أننا لا نكون هيجماً على الاسلام ، ولا تعرضنا لهذه الشعوب الاسلامية في عقائدها المحترمة اذا كنا ننبه الناس إلى أخطار ديانتهم من جهة برنامجها الحرب المقدسة ، وعداوة غير المسلم ، والتوحيد بين الشرع الديني والقانون المدني ، مما يجعل الامتزاج صعباً . ولما هيأت أن الشرع الاسلامي يمنع الزواج بين المستعمرين الأوربيين والنساء السلمات ، قد وقف سداً دون كل اختلاط بين الفريقين ، مع أن الجنس اللاتيني هو غير الجنس الانكاثوسا كسوني ، فإن الجنس الصا كسوني حينما حل بأمر بكاز بلانده الجديدة واسرائيل لاشي العنصر الأصلي هناك ، أما اللاتيني فهو يهوى الامتزاج مع العناصر التي جعلها أمماً ، فجيوش ترانكوس اللاتيني امتزجت بأقوام الدانوب وتكونت منها أهالي رومانيا الحاضرة ، وأما بربر شالي افريقية الذين هم ذوو قرين مع اللاتين ، فلم يكن بينهم وبين هؤلاء امتزاج أصلاً ، بل تجد الفرق تنبع يوماً فيوماً بين الفريقين . كذلك ترى تقدم ببطء جداً ، في الأمم الاسلامية التي في شرقي أوربا وآسية ، لأن فقد حرية البحث خصي على روح الانتقاد ، ويعزز عقيدة الاستسلام والرضى بأي شيء كان . لا نكون لهذا الدين الاسلامي اذا بينا حالة التأخر التي عليها الأمم التي دانت به ، لاسيما اذا تركت شأنها . فإن الاسلام يعارض التقدم العصري بحواجز قوائمه الفدية والدينية ، وحصون شرائعه الاجتماعية ، وما هناك من الأوامر والنواهي . فلو كان بربر افريقية يتبعون غير

(١) ودكتور الكاتب هنا اسم رجل من هذا الفريق اسمه دوكلستري De Clastries له مؤلف في الاسلام

(٢) ذكر اسمه وهو السيد آدم P. Adam ، في كتاب اسمه قرطاجنة Carthage

دين الاسلام لكان مركزنا هناك أقوى مما هو اليوم ، وإذا قررنا هذه الحقيقة فلا يكون مرادنا منها الافتداء برومة في حلها الأمم المغلوبة على قبول ديانة الفاتحين .

ان تلك الآراء الفاسدة المتعلقة بالاسلام ، هي عبارة عن استنتاجات غير صحيحة ، من مقدمات واهية صارت عند البعض حقائق كلية . ومن جهة هذه النتائج الباطلة ، كون المسلم لا يصبأ عن دينه . فبهذه الفكرة مع خشية فوران التعصب مما هو وهم بحث ، حذر رجال الحكومة الفرنسية في الجزائر منذ بداية فتح فرنسا طينا القطر ، على معارضة مساعي جمعيات التبشير الفرنسية ، الرامية إلى تنصير المسلمين . حتى انهم كانوا يجعلون حراساً على أبواب الكنائس تمنع المسلمين من غشيانها . وكان فيس عربي من سوادنا دخل الجزائر وحار له نفاذ عظيم بين أبناء جلدته ^(١) فطرده السلطة الفرنسية من هناك . وبالطلة فقد حصلوا الأهالي على الخضوع لأسكام القضاة القرآنية ، وتوقف بذلك سر حركة التنصير : التي كانت قد بدأت بين البربر غير المتدينين . ثم لقيت مجاهد الراعي جلابرت (Le Pastour Galabert) في مدينتي القصور وبجاية ، ومساعي الكردينال لافييجري في افريقية لأجل التقريب بين الوطنيين والأمة الفاتحة حشراً شديداً وأصبحت تلك المشروعات على شفا السقوط ، ولم يفهم بعضهم فوائدّها ولا غاياتها الانسانية ، بل كانوا من شدة خوفهم أن تكون حركة دينية ، يضعون العراقييل في وجه هؤلاء المشرّين ويطعنون في المتنصرين . ويسمونهم بجميع عيوب قومهم ، مضافة اليها عيوب الأمة التي دخلوا في دينها فزعوا أن الرجال من المتنصرين هم من طبقة التكبريين المذمّنين ، وأن النساء المتنصرات هن من الغانيات المشهكات ، وغاب عنهم ان الطبيعة الاجتماعية الاسلامية مع ما هي عليه من شدة التسرّ فيها عيوبها ، وأن عيوب المتنصرين ، كان تحفّ جداً لو كثر سوادهم وصاروا جماعات . بعد أن مضى قرن على فتح فرنسا للجزائر ، تضاعف عدد الوطنيين فيها واضمحلت العداوة التي كانت بين العرب والبربر . وترانا لانقدر أن نعتمد على أقلية غير مسلمة كما يعتمد الانكليز على القبط بمصر . ولهذا مثيل في مستعمرات هولانده ، التي صار فيها مركز هذه الدولة حرجاً ، فقد كان مسلمو الجاوى ويزورنيو وسومطره لأول فتح هولانده تلك الجزائر ، خمسة ملايين ، فصاروا اليوم ٣٠ مليوناً ، ولم يكن للاسلام ثمة بادى ذي بدء ، الا

نبح قليل ، فصار الاسلام في هذا الزمان سيد ثلاث البلاد . وتجد المسلمين هناك تحت ادارة فئة قليلة مستنيرة من ذوي الاطماع ، متحضرين مرفس وصاية هولاءه الأبوية . فأما أرخبيل القبلين الذي أهله تنصر والعهد الاسبانول ، فإن مطالبهم الاستقلالية بارزة بشكل معقول بخلاف بلاد الاسلام التي تلاقى حركة الرقي فيها ، روح القوضى والاختلاط التي هي من خاصيات الجماعات الاسلامية إذا تزكت وشأنها . ان شيان الاسلام في آسية الغربية ، يريدون أن يشبهوا قابليتهم لتترقى بقابلية اليابان ، ويدعون أنهم بقدر ون على ماقدور عليه اليابان في الأمور الاجتماعية والاقتصادية ، ويسنون أن اليابان لم تكن لتترقى بهذا الرقي العجيب لو بقيت مقيدة بأثقال العقائد القديمة ، ويعفون عن أن التحدد السياسي لابد أن يسبق التجدد الاجتماعي .

ماعداء مدة قصيرة للأمويين في اسبانية وللعباسيين في بغداد ، لم يوفق الاسلام في وقت من الأوقات الى تأسيس مدينة خاصة به ، بل جميع أجيال أمة محمد لم تلاحق مجهوداً بأذن لها بتوليد عقول كبيرة . بل ان الخصائص التي اشتهرت بها هي لخصائص التدمير ، سواء للدينيات التي وجدتها أمامها ، أو التي حصلت في داخلها . ومادام السيف في يد الاسلام كان الاسلام قادراً أن يجري أحكامه ، فلما قضت الأيام بأن تصبح قوة السيف قوة أخرى هي قوة العلم ، سقط الاسلام . واليوم لأجل أن يزحزح نير الغرب عن غنقه ، نراه يدرسه قيمة العلم ويقدر قدر الثقافة الأوروبية ، ولكن أكثر ما يريد أن يأخذ من أوروبا هو صناعة السلاح . ثم ادعوا أن صناعة الأدوات الحربية لا تكفي ، عاد يطلب الأسلحة المعنوية فصارت المطبوعات تلمح سبغاً ذا طبع آخر يستلهم فوق رؤوس غير المؤمنين . وتجد الجرائد الاسلامية تتكاثر بمصر ، وتركيا ، والهند ، والجاوي ، والمستعمرات الانكليزية والفرنسية وكذلك جرائد أخرى تصدر في الولايات المتحدة ، والبرازيل ، والارجنتين ، عربية سورية وأرناؤوطية . وفي برلين يظهر لواء الاسلام ، وفي باريس ولندن ورومة تصدر جرائد اسلامية جديدة أيضاً ، تبعث في الشؤون الاسلامية . ومنزعج هذه الصحف تختلف باختلاف المراكز التي تصدر فيها ، جرائد الشرق وجرائد أميركا وبرلين تمتاز بشدة المهجة وفرط العداء ، وأما جرائد العواصم الأخرى فحريتها ، اعطت المهجة وبراعة الطلب والكلام المعقول ، ولكن الهدف واحد ولو تنوعت الأساليب ، وهذا الهدف هو تقوية روح

التكافل بين الأمم الاسلامية ، ونشر الاسلام وتحرير أبنائه وزرع بذور الشقاق بين الدول الغربية لأجل تسير قوز المشرق .»

— ٢ —

الاسلام الأسود

قال بينغر Binger : ان درجة حرارة السمل الأسود هي على قدر ظاهريته ، فالعصبة الدينية العميقة التي تجدها عند المغاربة والأقوام السامية الأصل ، الساكنة في جهات نهر النيجر وبحيرة تشاد ، لا تجدها عند المسلمين من أبناء اللون الأسود ، مثل البامبارة Hambara والسيرة Sere و البورو Baros ، الذين عندهم تساهل عجيب في ممارسة شعائر دينهم . ويأخذوا حركات محدودة من آثار دعوة المراطيين ، ومن اجتهادات الحاج عمر و احمد و بين السنغاليين والفولبي Follis ، والسونينكة Soninke ، الذين فيهم شيء من الدم البربري ، لم تصادف في افريقية السوداء حراً دينية ، ولا مقاومة أصلها غفيدة القضاء والقدرة .

وان غفيدة السنة والجماعة في افريقية الغربية : مختلطة عند الأهالي مع عاداتهم القديمة ، ومع الأوضاع التنشيطية كالطاسم والرفي . وقد أورد بينغر مثلاً على ضعف حرارة السمل الأسود قضية ساموري ، الذي بالرغم من كونه مسلماً دينياً ، أكل بدون تخرج من لحم ثور ذبحه العسكر السنغالي ، على شكل يخالب الأوامر القرآنية ، فقتل هذه المخالفة بعد أنما كبيراً عند مسلمي الشمال . ثم ذكر بينغر مثلاً آخر وهو أنه كان أسود مسيحي يظهر الاسلام أحياناً ليستفيد من الرخص الممنوحة للمسلمين في عيد لنولد النبوي أو العيد الكبير .

فهذا الفتور في تمسك الزنجي بديانة يتمسك بها بأقصى الشدة ، السامبون والتورانينون ، يعدد بعضهم دليلاً على انحطاط عقل الزنجي وفقد قوة التمييز عنده ، والصحيح هو غير ذلك . بل الزنجي رجل حليم ، واسع المشرب ، سهل القياد ، قريب المأخذ ، مع حسن صادق ومنزع عملي ، ويميل الى الخير ينحصر بأبناء ملته من البيض والأسفر أن يقتدوا به . وهو يمتاز بعدم التشدد في إقامة شعائر دينه ، وبالقساهل مع أبناء الأديان

الأخرى ، وفطرته السليمة تمنعه أن ينظر الى الأبيض نظره الى رجل ذاهب الى النار . بل هو يرى الأوربي من الرق والتفوق ، بحيث لا يصدق أبداً أن مثل هذا الأبيض يمكنه أن يخطئ . ولا شك في أنه بحسب مباله للانقياد والالتطباع لوصار به قليل عناء ، لكان يتقبل دين سيده الأبيض . الفاتح لبلاده ، بشرط أن هذا الفاتح يدعو لذلك (!) وإن كنت تراه يدين بالاسلام فهذا لظنه أنه ينال بذلك رفعة ، مع أنه أولى به أن يتنصر إذ الأوربي عنده أعلى من المسلم ، ومهما كان يرى من عزة المسلم ، فهو يعلم أنها ليست شيئاً بالمقاييس الى عزة أوربي .

وعليه فينبغي أن نعلم أن اسلام السودان حوسطحي ظاهراً بصور ظاهرة فقط ، ولأجل تعامل هذه القضية التي لا توجد الاثمة ، زعموا وجود غالي أخرى غير ذهنية الزنجي نفسه ، فتذكروا تأثير الافليم والعادات والبيئات ، وقالوا ان البازد النهائية من الكرة هي غير مساعدة على انتشار الاسلام ، لأن طول النهار المشرق وقصر النهار المشرق يتحدثان اختلاطاً عظيماً بعلم الميقات الفرائي ، فصلاة الظهر وصلاة العصر تخاطبان مع صلاة المغرب وصلاة العشاء هناك ، فينطرق الشك الى قلب المؤمن ، ففي أواسط افريقية الحارة أيضاً هي مشابهة لتلك الحارة ، فالأنهار والشجر الكبير التي يعد بها القرآن المؤمنين ، هي في هذه الأصقاع من الكفرة بحيث يصح هذا الثواب لا قيمة له . فالاسلام لأجل نجاح دعوته محتاج الى صحارى واسعة تنجلي بها عظمة امة تعالى كصحارى آسية الوسطى ، أما في خط الاستواء فالاسلام مركزه قلق ، لأنه ينحصر ثمة في الآفاق الضيقة بين الغابات الملتفة ، حيث يصعب على المؤمنين معرفة القبلة ، فيعملون عن شعائر الدين . على أنه مهما فرضنا كون شعائر الاسلام سليمة في الظاهر نقسأل : هل يوجد لنا مصلحة في تمكينه بتمدد وينتشر بين هذه الأقوام ، لا بل في أن نعرف به ديناً رسمياً لمن دان به منهم ، سيحصل لعمري في غربي افريقية ما قد حصل في الجزائر ، ويمتد الاسلام وينتشر بسببنا (!) ونحت حماية أسلحتنا عند أقوام أشداء لم يزالوا منذ قرون يرفضون الاسلام ، الذي يأتيهم به تجار الرقيق من العرب ويحبطون فتوحاتهم الدينية والعسكرية . ونحن ككنا أوغملنا في تلك الدوار ازداد الاسلام بسطة . وقد أرادوا تأويل ذلك بأسباب عديدة منها ، كون العربية لسان الرسول القرشي هي لسان التجار الجائدين بتلك الأفطار ، ومنها أن مبادئ الاسلام تطابق عقيدة

الاسلام للقدر التي عليها الزنجي : ومنها أن هذا يعيل إلى بساطة الاعتقاد وتجنبه سداجة الشعائر ، وقالوا أن ممارسة هذه الشعائر ، سهلة طبيعية ، ثم هناك لذات النعيم التي يجلبها هؤلاء ، المصيح عامل آخر ، ومعلوم أنه لأجل أن يكتب المرء مع السعداء ، يكفيه لفظ كلمة لاله لاله ، فإنه بها يصير مسلماً بدون أن يشعر . وعززوا هذه الأقوال بأن عقائد الأوربيين تنافي البساطة ، وأن شعائرها صعبة ، وإن آدابهم كثيرة التجريد ، وفيها تحريج كثير على الذات الحسية ومنع لتعدد الأزواج ، وبالجملة فقالوا أن الاسلام وجد ديناً موافقاً للزنجي كما وجد موافقاً للعربي ، ومن العبث الاجتهاد في وضع دين آخر يحل في تلك الأصقاع . فهذه الظنون التي صارت قضايا مسلحة لم توضع موضع الحك والنقد ، ولو محنت ثبت أن ليس صحيح كون الاسلام هو العقيدة التي تلائم الأسود الخالص أكثر من سواها ، فإن أقلية مهمة من السيفاليين قد أمكن تنصيرها ، وبلاد الأوغانده صار أغلبها كلهم نصارى . أما كون العرب والبربر يأتون كل دين غير الاسلام ، فلنا من القبط والحشة مثال كيف لانيات كون الاسلام ليس ذا تأثير عليهم إلى ذلك الحد .

ثلاثة أرباع الحشة وهم جنس أمبار Ambars . ومعهم أقلية بربرية وزنوج . لبثوا متمسكين بالتصراية بالرغم من تلاطم أمواج الاسلام في جوانبهم . وأحسن من ذلك أن بلاداً بأسرها مثل حرر كانت أسلمت بعد ثورة الدراويش ، فعادت إلى التصراية بعد ظفر التجاني منليك بالأمير عبيد الله سنة ١٨٨٤ . ولقد بقيت الديانة المسيحية والقومية الحشية متحدثين كما هو الشأن في الشرق ، بأن الديانة والقومية نيران معاً . وحفظتا استقلالهما أكثر من ألف سنة . وبينما قبائل بربرنا في الجزائر وأمم البويل Poulis والنولبي Fulbés ، الذين هم من جنس بربر الحشة مشتمون على منشورا بسبب عقيدتهم الدينية ، الداعية إلى الكسل والحوار ، رأيت الحشة بأمانتها لدينها ، واقفة في وجه الفتح العربي . وتمكنت المسيحية أن تعيش في وسط هذه الأمم الزنجية والبربرية ، وإن كانت شعائرها هناك لا تزال معقدة ، لأنها بمنزلة عقائد يهودية ، وعادات يزرطية ، فلا كبروس (طينة القسيسين) له في الحشة نظام صارم ، وهو تابع للكنيسة الأرثوذكسية في الزواج ، وعزوبة الكهنة ، ويخرج القسيس في المراسم الدينية بالألوان المزركشة بالفضة بين فرع الطبول ونقر الدفوف . فالجيش بهذه العادات هو بعيد إذا عن سهولة الشعائر الاسلامية

وهو بصوم صوم المسلمين السابق . وإذا بلغ الكبر برهب في دير . فمن هنا يظهر إطلاق قول البعض « أن النصرانية شديدة التعقيد » شاقة التكليف ، كثيرة المعاني المجردة بالتسعة إلى مدارك الزنجي الباذخ . فهي تخالف ظروف حياته وتبطل نظام اجتماعه ، ولذلك فالأسود المنحصر هو أسود مغلول من أصله ، حال كونه الأسود المسلم هو مسلماً بطبعه . « فالت ترى أن النصرانية قد رسخت عند الامهاره ، الذين هم من قبيل السيفاليين والبربر والبويل بدون أن يكونوا مغلولين من أصلهم ، وتجدوها تنمو هناك كما ينمو الاسلام . وعقيدة أو توكيوس ^(١) تنلوي هناك مع الزمان والمكان كالاسلام الذي يناسب الأمم القطرية مثل الأمم السوداء ، وإذا كان عمل البشر من شأنا في البلاد السودانية والاسلامية ، فالت هو السكونهم بدون وضع عقيدة لهم رافية جداً محل عقائد أفوامهم في أدنى المراتك (تأمل) : أما النصرانية ، كما كانت في القرون الأولى ونصرانية الحبشة الخاضعة . فاشترعها يمكن بسهولة نشر الاسلام ، الذي كان نجاحه بسبب المستوى العنلي الذي عند تشرعه ، لا بسبب معالي عقائدهم (تأمل أيضا) .

لا شك أن الزنجي عند ما يدين بالاسلام يتقدم تقدماً محسوساً ، فبعض أرباب الخبالات الذين لا يحبون أن يروا الا المحاسن ، يجسسون في الاسلام الامتناع عن المكرات ، وتهايب الاخلاق ، وترقية سوى الحياة ، واعلاء حال المرأة في الاجتماع ، فيشبهون بالسي في نشر الاسلام بين الأمم القلتيش في مناطق خط الاستواء ، وكأن من طبيعة هذا العصر ، ان الناس يفسرون قدر المذهب بنسبة درجة تحضره بدون تأمل فيما يحجر اليه من العواقب ، حامل الزنجي على الاسلام هو من باب الرفع الى أسفل ، وهو من قبيل المداواة بالاطلاس والرفق ، مما هو وخيم العاقبة (تأمل) . ان أساس الدين الذي يدين به المسلم وتصطبغ به نفسه مهما كان حليماً ، والذي لا يعرفه الا ذوو الخلطة والخبرة الطويلة ، ان هو الا عامل ثورات مستقبلية ، من مصلحتنا ان لا نتركها تفعل مفعولها . حتى ان هؤلاء المتحمسين بالاسلام أنفسهم ، يفتنون حيارى احبائنا عند ما يرون من الجماعات الاسلامية ، تلك المظالم التي لا تقف عند

(١) عاش في القرن الخامس للمسيح وكان يقول ان ليس في المسيح سوى طبيعة انسية ، خلافاً لقول نسطور ، الذي كان يقول ان ليس فيه الا طبيعة بشرية وكما حرمت الجماع قول نسطور ، حرم الجماع الحفيدوني قول اوتوكيوس وفرر الطبيعيين . والسكن القبط والحبشة يأمرون بذهبه

حد ، وهاتيك الاحقاد المتأصلة في نفوسهم .

أما البعض الآخر فقد هالهم هذا النزوع الاسلامي الى الثورة ، فانتقدوا طريقنا في بناء المدارس والمؤسسات الاسلامية والترغيب في لغة القرآن ، وأوضحوا عظيم الخطر الناجم من تضامن الشعوب الاسلامية ، ودهشوا من فضيلة ارسال معلمين جزائريين لتعليم العبيد الدينية في جنة وتمبكتو^(١) وهؤلاء الكفر يقولون انه لا يكون من باب مس كرامة الاسلام . ولا من السعي في لفض مبادئه ، ولا من حجب الحرية الدينية اذا اتخذنا التحفظات اللازمة بازاء أخطار الحالة الحاضرة ، لاسيما ان هذه المسامحات التي لا يجبرنا عليها أحد لا نغري زلجي الى الأمم الاسلامية ، وانه ليس للحكومة أن تدخل في حياة رعاياها الخاصة ، بل عليها أن تأخذ حذرهما من ديالة ، هي فيما عدا بعض مبادئ نادرة فيها شيء من السباحة ، بتكثك أن تختصرها بهذه الجملة « قاتلوا الكفار واستعبدهم واطرحوهم في الأرض »^(٢)

فبين آراء المقاومين المتشددين وآراء المتوسمين المعتدلين الى الاسلام ، يوجد مكان لعمل معتدل حازم ، وهو انه لا ينبغي أن يسار على سياسة اسلامية واحدة ، بل على سياسة متعلقة بالظروف ، بالبلدان وبدرجة حرارة الاهلين ، فيمكن تنكب طريق فهم الاسلام بدون السعي في تأريده . واذا ايدنا في مستعمراتنا سلطة ادارتنا الملكية ، وجعلنا فوق الشريعة الاسلامية ، كان ذلك خطوة أولى في منع انتشار الاسلام بين الافواه ، التي لم ترسخ قسمة بينهم . ولكن مادام القاضي الاوربي يرسل القضايا المعضلة ، التي يعجز عن حلها الى القاضي المسلم ، وفي المسائل التي يتناكر فيها الخصمان ولا تمكن معرفة الصحيح بينهما ، يحيل القضية على اليمين كما في القرآن ، وهي طريقة بسيطة تكفي أولئك القضاة مؤونة التدقيق لتهمة الحكم ، فتسكون قد جعلنا للقضاء الشرعي نفوذاً ليس من الحكمة في شيء ولا سيما في هذا الوقت . كذلك تتحتم المرافعة الخفية للمشايع والمرايطين ، الذين بين النزوح المستعدين لقبول الدعوة الى الثورة ، قائم كما قال سنة ١٩٠٥ الحاكم العام يوتني Poincy .

(١) تمبكتو في أول السودان الغربي مشهورة ، اما جنة فهي مدينة بالسودان على مسافة ٢٠٠ كلم من الى الجنوب الغربي من تمبكتو ، وعلى ١٦٠ كيلو متراً الى الشمال الشرقي من سينو وسيكورو ، وأول أوربي دخل جنة هو رجل فرنساوي اسمه رينيه كالبه سنة ١٨٢٨

(٢) أين وجد هذا ؟

زيارات الغرباء القادمين من المشرق بحجة المسقات مضررة ، إذ هؤلاء يجوبون بلاد
السنغال واليويل والسويفسكة ، دعاة كثيراً أو قليلاً إلى الجامعة الإسلامية ، ويدعون
إتباعهم شرفاً ، ويطلبون عمام خضراء ، وكلما حدث هيجان إسلامي كانوا هم المشجعين لقراره ،
والمشجعين للأراجيف ، ولا نلحس حرج مكة فاته في الآونة الحاضرة ، يؤثر تأثيراً مضرراً منا
بين رعايانا المسلمين ، ومع هذا ، فالبعض غافلون عن منع حج رعايانا إلى مكة وعمما يحدث
هذا الضر من أسباب لشوئس أذهانهم ، لما يستمعون فيه من الأخبار الملتقة من واقع
البلاد الإسلامية ، فتنى آتوا إلى ديارهم عادوا أقل ميلاً إليها ، فإن الحاج يسمع في الحجاز
أخبار عن جميع العالم لم تطبع في صحيفة والأوربي مصور فيها بشكل ظالم غاصب (استغفر
الله ...) لا تحصى سيئاته والمسلم مصور بشكل غالب ظافر لا بد أن يأخذ بناره ، كما أن
الطوائف التي أحرزها بعض الشرفيين تروى هناك بالمبالغة والغلو ، ويتفادون فيها بعودة
الأيام ، التي كان فيها العلم الأخضر منصوراً خلفاً فوق رؤوس الأمم ، المغلوته ، وهناك
المشعوذون المتمرنون بنصرات الغازي (أي مصطفى كمال) وإهلاك الكفار كما أهلت
السمون قريشاً يوم بدر ، وكل هذه الوقائع تبرز فيها قوتها الخيلية الشرفية بشكل رائق
رائع ، فيذهب الحاج من مستعمراتنا أمينا لنا ويعود غير ما ذهب ، بل تبدل نفسه ،
ويصير مبتهجا بنصرة أبناء ملته ، وتقوى فيه روح التضامن الإسلامي ، فيخرج بفوز
أتباع محمد ، ويتمنى لهم الظفر النهائي ، وبعد إياها إلى وطنه يستحيل أن لا يلقى إلى بعض
أهل بلده ولو نجيا ما سمعه في مكة ، وحيث يكون نال لقب حاج فلا بد له من الاجتهاد في
إثبات أهليته لهذا القرب ، عند عدا ما يحمل معه من القصائد والجرائد والحاسيات التي
يوزعها على أبناء وطنه ، وإن كان ممن يعرف الكتابة راسل من تعرف بهم من الحجاج
مكرراً لهم آيات الكتاب المقدس حول الحبر الأسود .

و ينضم إلى هذه التأثيرات السيئة نفوذ الطرق الصوفية فإن دورها مهم ، وربما كان لها
القول الفصل فيما لو هبت العاصفة المتهبته دائماً لمهوب في جو الاسلام ، فإن أتباع عبد القادر
الجيلاني ولي بغداد مالتون إفريقيا ، وهم هؤلاء النيجانية ، الذين كانت لهم اليد الطولى
في ثورة السنيغامبيا عندما قام بها الحاج عمر ، ولهم زوايا في بلماكو ، وبافولاب ،
وسيقو ، وجنة ، ونمبكنو ، ولهم وسيلة مع السنوسي في طرابلس ، فكل هؤلاء المتحمسين

دعاة ثورة وعداوة للاوربيين . لا ينكر أن بعض الطرق قد أفادتنا في الجزائر ومراكش
والغربي افريقية ، وكان نفوذ رجالها السعي موافقاً لنا ، وهؤلاء ، مثل الشيخ سيديا ،
والشيخ سعديو ، والمختار الكنتي ، الذين هم في موريتانيا (غربي مراكش) وبلاد
النيجر . فقد كانوا معنا في فتح تلك البلاد ، ولكن مساعداتهم هذه هي نوع من الأعمال
التجارية ، التي يريد أصحابها دائماً بقاء التوازن لأجل استمرار فائدهم . وأما الخطر الأعظم ،
فهو خطر الطرق الاسلامية التي مراكزها الأصلية في غير مستعمراتنا ، كبلاد العرب
والعراق وطرابلس لأنها خارجة من يد نفوذنا .

هذه على وجه الاجال العوامل المضرة التي سلبتتنا افريقية معرضة لها . ولاتقاء
ضررها وصف الناس أدوية كثيرة ، منها علاج جمع كل الآراء وهو نشر اللغة الفرنسية .
فهو أمر ضروري وهو رأي لوشالييه Le Châtelier الذي يقول : « يوم لا يبقى اللسان
العربي هو لغة التجارة في افريقية ، لا يبقى خطر من جهة الاسلام لأن مدارس نصير
قنرة » . وهذا هو رأي بول برت Paul Bert الفسيولوجي المعروف القائل : « حل المسألة
العربية هو في الكتاب ، وأتخى أن أرى في كل قرية مغربية معلماً عربياً ومعلماً فرنسياً »
وهو أيضاً رأي الرجل قاتل أمور افريقية عاماً ينفر . وهو كذلك مشرب الكردنيال
لافيجري مؤسس جمعيات التبشير الذي قال : « لا حاجة بنا الى الدعوة لنفس الدين ، بل
الحاجة هي الى التعليم والتمريض »

وإذا نظرنا الى درجة انتشار لغتنا في الشرق بين أولئك الأقوام والأمم المختلفة ،
نأسف كيف لم نقدر أن نشرها في مستعمراتنا كما هي منتشرة في الشرق ، وأعرب منه أنه
لو كان عامنا انشر في مستعمراتنا بالسهولة التي انتشر بها في السلطنة العثمانية ، لربما كان
أناس يحتاجون على ذلك قائلين ، يجب على حكومتنا أن تبقى متحايدة . مع أنهم يرون أن
البعثات الفرنسية في البلاد الاسلامية ، التي كالأفاضول وكردستان والعراق وفلسطين قد
نجحت نجاحاً تاماً بدون ايراث أقل فلق في سلطنة آل عثمان السكرية ، الرحبة الصدر ،
وقد حصرت عنها في تعليم لغتنا للروم والأرمن والكرج واليهود والمسلمين والكنائس ،
وجميع هذه الأجناس التي جمعناها في عالم ثقافتنا . ولم يزد ذلك في البلاد التركية ، ولا العربية
ولا الشامية شيئاً من العصبية التي خيف من اثراتها في الجزائر . ثم هذه مصر التي هي

تحت الحكم البريطاني ، نعرف لغتنا كما نعرف لغتها العربية . أما الجزائر فاتها نجهل لغتنا عربياً . ليس مقصدنا بهذا أن نوجد في مستعمراتنا نخبة علماء ومفكرين ، إذ يجوز أن يبلغ فيها أدباء راسخون ، وأرباب عقول سامية ، لكن يتخفى أن يظهر من هم متعلمون نصف تعلم تكون لهم مظامع وما آرب (نأمل) إنما المقصد هو وضع لغتنا التي هي عامل مدبنتنا موضع لغة أخرى ، (أي العربية) هي قاعدة ثقافة أخرى وفكرة أخرى ، ان عرض معرفة العربي على عمالنا في المستعمرات هو حسن ، لكن انشاءهم عن العربي تعميم اللغة الفرنسية كما في الشرق هو أحسن .



— ٣ —

الاسلام عند السنغاليين

توجد السنغالي في بيته كما هو في نابوره : مرن الأفكار بعيداً عن الدين المشهود عند الجزائري والمراكشي ، اعتقاده بالخرافات أكثر من اعتقاده بالدين ، منهم الامانة بأمور معينة أكثر من اهتمامه بالمذهب الديني . ونرى أنه في جميع مواطن الحرب لم تطلع لدى السنغاليين دعوة الجامعة الاسلامية ، وقد احلك هؤلاء بالاسلام في البلاد العربية (١) ولم يحدث بذلك عندهم أقل الخراف ، بل بقي السنغالي بسيطاً ، طيب السريرة أميناً رؤسائه ، ولم تؤثر فيه تحريكات شيوخ الدين ، الذين طاموا أثروا بعساكر الهند الانكليزية وفر هؤلاء على أثرها ، فالسنغاليون لم يشر منهم ولا واحد الى العنوسة ، لا في سورية ، ولا في كينيا ، ولا في جميع الشرق الأدنى .

ان العرب والتورانيين يزدهرون بالاسود ، وهذا الاسود يغالبهم على ذلك بالانقصال عن ديارهم عند ما يختلط بهم ، وهذا أمر واقع سواء في الشرق أو في شالي افريقية . وتري السنغاليين في الاستانة والأناضول لا يدخلون الجوامع ، ولا يخاطبون المشايخ ، ولا المثبتين ولا يحملون في حقائبهم أوراقاً مضررة ، ولا بطاقات من وارد بلاد الاسلام متضمنة مدائح الغازي غالب الكفار . وان العداوة بين الأهالي والسود في شالي افريقية وان لم تأخذ

(١) أي في سورية والأناضول والاستانة

شكلاً حاداً ، هي السبب الكافي عدم امتداد دعوة سياسية بينهم . وفي نفس السنيغال لا في الجيش فقط ، لم يمكن التعصب الاسلامي احدث أقل عدوان لفرنسا ، بل بالعكس ، الاسلام في تلك البلاد الى الورا لا الى الامام .

على أنه اذا كانت سداجة هذا الجنس وسلامة عقولهم ، لا تجعلان في جيشنا خوفاً من دعوة الجامعة الاسلامية ، فلا يجوز أن نهمل التحولات اللازمة لاتقاء روح سارية في أماكن أخرى . فالأطباء يعلمون أن أحسن وافي من أمراض المشعمرات ، هو تعاطي الاسباب المانعة لظهورها ، فكما أن العمال في بلادنا الاسلامية يجب أن يعملوا متنازع ديانة الأقوام الذين يولون عليهم ، كذلك القواد الذين دأبهم تعليم الجنود المسلمين يجب أن يعرفوا القواعد المبني عليها الاسلام ، وما ذا يوجب في أدمنه أتباعه . وعلى القائد أو الضابط أن يميز جيداً بين الاسود الذي هو مسلم حقاً ، من الاسود الذي اسلامه سطحي . فينبغي أن نعرف عناصر الاسلام المختلفة في ممالكنا الافريقية ، لتمييز بين العناصر القابلة منهم للاندثار ، والتي هي غير قابلة لها ، ثم أن نعمل في السنيغال احياء تجديد حركي من اللاجناس والأديان ، لتعلم تطورات الاسلام هناك ، والميول الروحية التي عندنا كونا السنيغالية . ومن المهم أن نعرف ما هو اعتقاد الجزائريين بالسنيغاليين ، لأن هؤلاء ، في نظر أولئك ، هم القوة التي وكل اليها توطيد السكينة في شمالي افريقية ، ولا ترى ذلك محدثاً عندهم أدنى غضب لأن من طبيعة المسلم أن يطيع دائماً القوة القاهرة ولا يخفق من التدابير المنخفضة بحقه ، والجزائري ولو كان يحتقر الاسود ، ينظر بدون حقد ، بل بعين الرضى الى ترتيب نوابير السنيغاليين وبالأجمال المسلم السنيغالي في سلك الجندية لا يمارس فرائض دينه . وقد جرت العادة الى اليوم بان لا يعارض في أمر دينه كصوم رمضان ، والاحتفال بالأعياد ، وإقامة الصلوات ، وأن يترك هذا كله لارادته . وكلما قل التعرض له في هذه الأمور كان خيراً . وكذلك لخطأ أنه من العيب حمله على مراعاة فروض دينه ، أما باستمالة المسلمين بهذه الوسيلة ، فليس أثراً ، الخدمة يفهم الضرورات التي تمنعه من أداء تلك الفرائض ، وهو يتعجب من اهتمام الأوربي بديانة المسلم أكثر من اهتمامه بديانة نفسه . انه من الواجب اذاً أن يراقب من العساكر السنيغالية من يفرطون في مراعاة شعائر

ديهم^(١) ولعمري ، أي فرصة أحسن من وجودهم في الخدمة العسكرية لتعلم لغتنا ، إنها أحسن من كل المعلمين الذين يريد ينقل رسالهم الى غربي أفريقيا . والذي حصل الى اليوم من النجاح في هذا الباب ليس بقليل فاذا كان الضباط في الجزائر مضطربون أن يتعلموا لغة جنودهم ، ففي السودان الضباط يجهلون لغة جنودهم ، هؤلاء مضطربون أن يتعلموا لغة الضباط ثم هناك ضرورة أخرى لتعلم الفرنسيون ، وهي جهل الجنود أنفسهم بعضهم لغات بعض لأنهم من أصناف وألسن مختلفة ، فلا حيلة لهم أن يتفاهموا الا باللغة الفرنسية . وما جرت عليه القيادة ، اجتناب تكتيب الكتائب ، على صورة يكون فيها العنصر الاسلامي غالباً ، فتجد السنغاليين مشككين بين الجماعات الفتشية والمسيحية . وهاك على ذلك مثالا : في مدينة فيلبييل بالجزائر رابط الآلاي الخامس عشر السنغالي ، الذي عدده ١٧٠٩ جنود ، فتجد فيه ٥٤٢ مسلما و ١٣٢ مسيحيا و ١٠٣٣ فنيشيا أو غير تابع للذهب خاص . والتابور ١٣٦ الذي بمدينة الجزائر ، الذي عدده ٤٨٩ جنديا فيه ١٤٥ مسلما و ١٨٢ مسيحيا و ١٦٤ فنيشيا ، فازدياد عدد المسيحيين من يوم الى آخر هو ثمرة مساعي المبشرين والمؤسسات الخيرية . ونجد في بيسكرة (بالجزائر) راهبات مسكن في لافييجري برين صغار السنغاليين . انه الى يومنا هذا لم ندخل حكومتنا بصورة رسمية في قضية تنصير السنغاليين ولا تزال مظهره الحياد في هذا الموضوع ، لكن مع ملاحظتنا الوجهة السياسية فقط ، يحق لنا أن نتساءل هل من مصلحة مستقبلنا سوق الجماعات الفتشية الى الاسلام أم الى النصرانية وعلى كل حال ، فقد دلت التجربة في الجزائر ، على ان المجري الديني الاسلامي دخل في حكم هذه القواعد البدعية التاريخية التي يتلقاها الخلف عن اللف بدون أدنى تحريف ولا تعديل ، فعساكرنا السنغاليون ، مع صكونهم غرق في بحر جماعات كلهم مسلمون ، لم يبدوا حتى اليوم أقل انجذاب الى الحمديّة . ولقد شهدوا مواطن حربية عديدة كان الهياج الاسلامي فيها شديداً ولم تترزع صداقتهم ، مما هو جدير بكل تقدير ، وهو مما يبعثنا على الاكثار من تحنيدهم ، وعلى تأمين طرق مكافآتهم المالية ، واعطائهم رواتبهم في أوقاتها انه عندما انتصر الترك في ازمبر ، أشار الدكتور اسماعيل صديق بك أحد كبار الوطنيين المصريين الى الحفلات التي اجريت يومئذ بمصر . والاجتماعات التي تداعت اليها

(١) انظر الى هذه الدعاة ...

الأعلى على صوت الطبل فقال : « هذا الطبل ، يؤذن بان أبناء مصر يتصرفون أن يحرروا مصرأ ، مثلما حرر اخوانهم الترك بلادهم » .
فتنحن لنا الثقة التامة في شعوبنا العربية الكريمة ، ولا نعتقد انها تمحرك بما يسوله لها المسيحيون في يوم من الأيام ، ولكن لا شك بأن أمانتهم تكون أمتن ، اذا صارت مبنية على قوة ، لا يمكن الدعوة ، ولا الديانة أن ترزعزعا .

الخلاصة

ان أحد المؤامرين البلجيكيين المدعو المسيو كوليه Collet ، بعد أن أتيح له أن يدفق بديقاً عميقاً في حالة تطور الاسلام ، في الهند البريطانية (١) ألف كتاباً قال فيه : « ان التفاؤل الى حد التأمل بأنه يمكن احتكار قوة الاسلام الحيوية في سبيل منفعة دولة أوربية هو حلم لذيذ ، لكنه غير مبنى الا على مطالبات كثيرة من ذوي العقول السطحية » .
فهذه الكلمات هي ذات أهمية في هذا الزمن ، الذي يظن فيه بعضهم ان التوردة الى الاسلام هو العلاج الأفضل . ولقد سبقت ألمانيا الى هذه الفكرة ، لكن لا تصريعات غلبوم الثاني في الأرض المقدسة بعددائه للتلاثمائة مليون مسلم ، ولا سياسة برلين التركية لم تعدنا أقل اضطراب في مستعمرات الخلفاء الاسلامية ، ولا انضم شعب اسلامي واحد .
عند تركيا الى ألمانيا ، بل جميع البلاد العربية انضمت الى الخلفاء ثم بعد المشاركة حاولت ايطاليا أن تعلن صداقتها للاسلام ، ووضع الدكتور انريكو انساباتو Enrico Insubato مصنفاً في ذلك قائلا : « ان دولة غير مسامة ، اذا عرفت أن نهيج خطه ولاء للمسلمين وتعطف عليهم ، أمكنها أن تصبح صديقة لكل البلاد الاسلامية » فلم تلبث نتيجة هذا التأمل أن ظهرت بالعبكس ، اذ بعد أشهر قليلة فسر زعماء طرابلس الغرب بحسب أهوائهم القانون السمع ، التي جاءت به عليهم ايطالية ، وطالبوا بالاستقلال التام ، فعدلت عندئذ ايطالية الى طريق أخرى عبر عنها المسيو آماندولا وزير المستعمرات الايطالية بقوله : « أرجو أن يعهد العصاة الى المفاوضة ليكون ذلك واسطة لتدوين القطر ، ولكن الحكومة ان تعاملهم كذئ قبل » .

(١) مستعمرات هولانده

وفد سارت في البائية الحوادث سيراً مشابهاً لهذا . ولا ننكر أن مبادئ المسيو
 انساباتو ، يمكنها أن توجد بين أمة أوربية والاسلام ، علاقات حسنة مبنية على حرمة
 متبادلة ، وعاطفة متقابلة ، لكن هذا يجب أن يكون مبنيًا على فكرة نظام ثابت ، وراحة
 موطدة . وهذا هو رأى المستشرقين الحقيقيين ، الذين سبروا غور أفكار المسلمين
 باقامتهم سنين طوالاً في بلاد هؤلاء ، نابذين الأغراض الشخصية والخيالات المرسلية بدون
 تحقيق ، فقد قال أحد هؤلاء : « ان القوة هي وحدها علة بقائنا ، وإذا أتيننا بأقل علامة
 على نقص قوتنا ، فتحنا على أنفسنا باب الثورات » . وقال آخر : « نحن المال ،
 والصلاح ، والعقل ، والعدل ، فإذا خسرتنا هذه المستعمرات نكون خسرناهما برضانا » .
 فهؤلاء المحققون الذين استبطنوا ثانياً دقائق النفس المحمدية في غير الكتب والحكايات ،
 لا يستحسنون فرج الاسلام الفرنسي سوى بنصرت الأتراك الأخيرة . فإن جداول التبرعات
 التي جرى الاكتمال بها في الجزائر وفلس وداكل (١) وتلمسان (٢) لاغاة الترك الغالبين
 والأدعية في المساجد بفوزهم ، والتهاني التي وردت على أنقرة من ٣٠٠ مليون مسلم ،
 هذه كلها مقدمات حوادث تالية . وكذلك حال هؤلاء المدققين ، ما شاهدوه من تأثير
 الوفاق التركي في تونس ، وصفاقس ، والقروان ، وسوسة . فقد وردت برفقة من المهدي
 نقيب أن الشعور الذي كان يحصل من تلك المظاهر الخفيفة ، هو أن الشعب التونسي
 معجب جداً بالشعب كالثعب التركي يأخذ حقه بقوة الدفع . أي أن التونسيين
 مطمعون ، بأن يأخذوا هذا الحق قريباً بالواسطة نفسها . ليس عامة الوطنيين هؤلاء ،
 الساذجون طيبو السرائر . المقصدون فدر السعادة التي هم رانعون في بحبوحتها .
 والعارفون فضل الأمان والأطمئنان . هم الذين نحن منهم على حذر . بل ليس الاسلام
 نفسه ، الذي عرف أثناء الحرب العامة أن يعلى نفوس رعايانا هؤلاء ، إلى أن تحملوا
 ما تحملوه من الرزايا الفادحة بصير الأبطال ، هو موجب عدم ركوننا . بل حذرنا
 لما هو من تلك الفئة القليلة ، التي عليها مسحة التربية الأوربية ، والفئة الغربية ،
 الذين قرأوا ما هضمته عقولهم هضمًا سيئاً ، غلبت عليهم المآرب ، واستغروا هم التعصب ،

(١) أحد موانئ الشيفال

(٢) مدينة بحرية في ماداغسكار

وأحبوا وطنهم ، ولكن أحبوا أكثر منه منافعهم الشخصية . فهؤلاء الشبان المسلمون لا يتلعون عن غيبتهم مهما جرى ، ومهما أعطوا من الحقوق . ومهما أجرى معهم من التاميع ، فلا يكون ذلك الا طريقا لتوقيف الأوربي عند حده ، وأخذهم مكانه .

ففي وجه التضامن الاسلامي ، الذي يزداد كل يوم كلما ازداد نجاح اتباع الاسلام ، نجد الحصن الذي كان الغرب يتمتع به بدأ يتهاوى وعلاقات أوربا بعضها مع بعض تسوء . فإذا كنا لا نقدر على تلافي هذا النزاع الغربي ، فعلى الأقل يجب علينا في وسط مستعمراتنا أن نوحّد الجبهة بأزاء المسيحيين والمفلّحين^(١) بتدابير عامة شاملة ، وبإلزام أن تمنع مريان العدوى الى الجيش ، فإن السكون الخاطر في ملكتنا الافريقية ، لا يجوز أن يصرف أنظارنا عن مشاهدة الغيوم المتلبدّة في الشرق .

إن صور أبطال الاسلام مائة أسواق مصر وبيوت فلاحي الأرياف ، فهذه حالة روحية ، قد تسرى الى مستعمراتنا لاسيما تونس شمالا ، وممالك بحيرة تشاد جنوبا ، وإذا نالت مصر استقلالها صارت مركزاً لتحرير الاسلام .

لا أحد يمكنه أن يتكهن على درجة هذه الحركة ، لكن من راقب الحوادث الجارية تهيأ له الاستنتاج بأنه لا يجوز التفاؤل المفرط ، كما لا يجوز التشاؤم بدون سبب . فالجائحة تستدعي الاكثرات وإن لم تكن التهلكة محققة الوقوع ، فعلى أي الأحوال يتعين حفظ القوة العسكرية التي لا يعتبر المسلم شيئاً غيرها ، هذا مع الحزم والعدل ، وبسط الأمان وتيسير المنافع المادية . انتهى



إدحاض الأباطيل والمفتريات

اعتنينا بتعريب هذه المقالة بحرفها حتى لا نترك مجالاً للسكارة ، ولا محلاً للناكرة . وكنا نود لو تركناها كما هي تكفي بنفسها مؤونة الرد عليها ، ولولا أن يكون في الشرق سوء الحظ ، من ينلق كلام كل أوربي تقريباً حقيقة رياضية ، أو قضية مسلّمة ، ولولا أنه لا يزال عندنا من حسن الظن في هؤلاء القوم ، ما يجعل التنبية فرضاً ، والتمحيص حتماً . نعم أن اقتتان الناشئة من الشرقيين بعدل أوربا ، وانصافها ، ومعالي نزعاتها ، قد خف كثيراً بعد الحرب العامة عند ما تجلت عرائس الحقائق على مناص المذاهب ، وقشعت رياح الحوادث غيوم الأوهام ، التي كانت متلبدّة في الشرق ، من جهة تلك القضائي وهانيك المعالي ،

(١) أي طلاب الحرية ...

ونمكن مع الأسف نقول ، انه لم يبرح لهذا المرض عندنا عقابيل كافية للضرر ، وبقيت
جارية للارتكاس في الخطأ ، والارتكاس في المرض ، فلم نر مندوحة من انحاض ما في هذه
المقالة من الأباطيل ، وانهار ما فيها من التناقضات ، لا أكثرنا بنفس محررها ، بل
بصكونها نظرية الأكثرين في قومه وأمثال قومه ، ولو كان بعضهم يكتتمها والبعض
الأخر يعلنها .

بدأ الكاتب بتخطئة الأوربيين ، الذين شمت بعضهم ببعض عندما تقوم على فئة
منهم ثورة اسلامية ، قائلاً ما معناه : ان كل ثورة اسلامية هي خطر على جميع دول أوربا ،
فالتي لم تصل اليها النار حالا فصلها فيما بعد . فهو من أنصار توحيد الجبهة الأوربية في وجه
الاسلام والشرق أجمع . والخلل أن هذه المسئلة غير محتاجة في أوربا الى تنبيه من حضرته ،
بل هي قاعدة أساسية ماثية عليها الدول الاستعمارية ، منذ وجد الاستعمار ، وانفسطت يد
العرب الى الشرق . فانها مهما اختلفت هذه الدول وتناهدت في أوربا ، تقف صفا كالبنيان
المخصوص في وجه الشرقيين ، لاسيما المسلمين منهم . ولو شئت استقصا ، الشواهد والأدلة على
ذلك لم نكفنا المجلدات ، فلا نغني أنفسنا بالاستشهاد بتواريخ لانتهى وانما نقول اذا طرأ
بعض الأوقات عوارض بسيطة تخالف هذه القاعدة الاستعمارية الكلية ، فتكون عوارض
جزئية محدودة لأسباب مجبرة لا مناص منها ، وضمن الدائرة التي لا تخرج بالانضمام الأوربي
العام في وجه الشرق ، وهو التضامن الذي لا يزال دستور الاستعمار الأعظم . مثلاً : لما
أسقطت فرنسا الحكومة العربية في الشام وطردت الملك فيصل خلافاً للعاهدات التي كانت
بين فرنسا وانكلترا ، وبين هاتين الدولتين والعرب ، ارتفع عويل العرب الى السماء ،
واشتدت مشاكتهم لانكلترا ومطالبتهم لها بمنطوق المعاهدات ، وصادف أثناء ذلك ، أن
سبى العراق أعضت وعز حلقها ، فأرسلت انكلترا فيصلاً الى العراق فيما يخصه مما تعهدت
به للعرب ، وتوفيراً للمال والرجال على نفسها ، لأنها بقيت تقابل في العراق مدة سنتين بمائة
وعشرين ألف جنسدي والنار لا تزداد الاشتعالا . فكان نصيبها لفصل ملكا على العراق
مخالفاً لهوى فرنسا ، التي قابلت هذا العمل بعقد اتفاق مع الأتراك بشأن كيكيا ،
وأعادت تلك الولاية الى تركيا بدون أن تستشير في هذا الوفاق حليفها انكلترا . فعند
بعضهم هذه السياسة من الحليفتين مخالفة لقاعدة التضامن الأوربي الاستعماري ، وليس

الأمر كذلك ، فإن انكسار لم يكن ليتمكن أن تستخف تماماً باليهود التي قطعنها للامة العربية ، والى حد أنها لا تفكر أن ترضى هذه الأمة بشيء ، مع استمرار الحرب في العراق وامكان نشوبها في أماكن أخرى ، ومع ما كان يبدو لها من علامات تقرب العرب الى الترك لا سيما بعد أن خذلت العرب في الشام ، ولم تبد على اسقاط فرنسا للحكومة العربية بدمشق أدنى اعتراض ، فكان ارسالها قبضاً الى العراق نوعاً من الكفارة لبعض تلك البشائر . وكذلك فرنسا أنفقت على كيليكية نحو مليارين ، وخسرت فيها بضعة عشر ألف جندي ورأت نفسها مع خرج الحالة المالية وانصرافها الى تقاضى ألمانيا ، التعميمات التي ليس استبقاؤها بالأمر السهل ، عاجزة عن متابعة الأعمال الحربية في كيليكية . وحظت من جهة أخرى ان انكسار تستمر بحساب نفوذها في الشرق مجاهد فرنسا في قتال الأتراك . فعدلت عن تلك الخطوة الأولى وجنحت الى مسألة الترك ، وتركزت لهم ولاية هي في الواقع تركية ، وكان من أصعب الأمور على فرنسا أن تقدر على حفظها بدون جيش جرار . وبذل المليار بعد المليار . فبالانكسار حاولوا ارضاء العرب في العراق حباً بالعرب . وده الفرنسيين حاولوا ارضاء الترك حباً بالترك . بل التزاماً من كل من الفريقين لمصلحتهم تحت ضغط الحوادث . ومع هذا ، فلم يحدث انفراد كل منهما بسياسة هذه أدنى نقطة في جدار التضامن العام بآراء الشرق . لأنه لا الانكسار عضدوا العرب على فرنسا مع كثرة ما ناداهم العرب للحفاظ على عهودهم المقطوعة للعرب . ولا الفرنسيين أعانوا الأتراك على الانكسار في شيء ، يذكر مما ظهر في مؤتمر لوزان ، المنعقد أثناء تحرير هذه السطور ، اذ جبهة الحلفاء كانت فيه واحدة من الأول الى الآخر في وجه الترك والعرب والمصريين الخ . وكل ما جرى في أثناء هذا المؤتمر من الاختلافات الأوربية وأوطأ مسألة الزور ، لم يزغزع في شيء بناء التضامن العربي بآراء الشرق . وبالاختصار فكل ما يقع من اختلاف النظر بين الدول العربية بشأن المسائل الشرقية ، يبقى محصوراً في دائرة ضيقة ، لا يمكن أن يكسب صفة عامة ونسبي القاطعة عندهم ، هي : ان نجاح أي عربي في أي بقعة كانت من الشرق هو نجاح للجميع والعكس بالعكس .

أما الذين يشبه اليهم روجر لايون من كونهم يشعرون بحيراثهم ، أي الفتنة التي من الفرنسيين تفرح بمشكلات انكسار في مستعمراتها الاسلامية ، فهؤلاء أكثرهم من

الشيوعيين والاشتراكيين وهؤلاء كما تقدم أصدقاء الاستعمار ، لأنهم يقولون ان الاستعمار قضية عائدة على الطبقة المتمولة ، وهم لا يريدون أن يفسكوا دماءهم في افريقية وآسية ، ويموتوا بحميات هاتيك الاصقاع النائية لأجل زيادة ثروة المتمولين في بلادهم ، فاعليك أن طبقة العملة تشبه أهالي المستعمرات تكون القريشين مستضعفين هؤلاء ، من الخارج ، وأولئك من الداخل ، فبين القريشين جاذب التضامن الذي بين الضعفاء والمظلومين ، وما عدا هؤلاء ، فيوجد غلاة الحزب النيمالي الذين يحبون الحرية كما لا يخفى ، وجميع هؤلاء لا يدعون الا فئة قليلة بالقياس الى بقية الأحزاب ، وان وجد من غيرهم من الفرنسيين من يشمت بالانكليز في مشكلاتهم الاستعمارية اما حسداً أو نفاسة ، أو على أثر اختلاف دولي اشتد بين الامتين ، فلا يتعدى ذلك بعض كلمات فارغة ، ولا ينشأ عنه شيء بالفعل أبداً ولا يدخل أصلاً في برنامج الحكومات السياسي .

فيعد أن تقرر وجود هذا التضامن اتين بين جميع الأوربيين في وجه الاسلام والشرق بأسره ، لا عجب أن يكون هناك تضامن بين الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً لاسيما أن بين هؤلاء رابطة دينية ، لا يمكن زوالها غضب روجر لابون أم رضى . وقد كان يمكن أن نترسخ هذه الرابطة الاسلامية بالعدل والاحسان من قبل الدول المستعمرة ، إذ كان لا يوجد شيء نستطيع به قلوب الأعداء مثل العدل ، وكان الانسان كما يقولون أسير الاحسان من أى جهة أتى . فالسؤال المستعمرة بدل العدل والاحسان ، لم تعرف في مستعمراتها سوى الضغط والظلم ، واهتزاز الوطنيين والكييل لهم بكميال والاوربيين بكميال آخر ، والحجر على حريتهم ، والتصرف بحقوقهم ودمائهم ومرافقهم ، وابتزازهم أرضهم ، وهذا ما امتازت به فرنسا أكثر من غيرها بدليل نسق استعمارها بالجزائر وتونس مما لا يحتاج الى بيان ، ومن شاء زيادة الوقوف قليلاً كتاب «تونس الشهيذة» ليعلم ماذا يجري هناك أو قليلاً بعض كتابات الفرنسيين أنفسهم ومن جملتها ما كتبه الميسو فاليان كوتورييه Vaillant Couturier أحد أعضاء البرلمان الفرنسي من الحزب الشيوعي ، على أثر سياحة طويلة في الجزائر وتونس أجراها في العام الماضي ونشر خلاصة مشاهداته في جريدة الاومانيتيه ، بل فليعلم النظر في المبادئ التي يوصي بها لابون نفسه والمرء مؤاخذ بأقراره فيعلم درجة الضغط الواقع على أولئك المساكين ، وبأى نظر تنظر الأمة المستعمرة اليهم ، فليست اذاً الرابطة الاسلامية وحدها

هي التي تجمع قلوب الجزائريين والأتوانسة والمراكشيين وغيرهم الى قلوب اعدائهم الأتاتورك
بل هناك رابطة المستضعفين بعضهم مع بعض ، ورابطة الأخ الذي تحت نير العبودية مع
خيه الذي تمسك من رفع ذلك النير عن عنقه . هذه لعمرى روابطة طبيعية لا تزول
ولا تنفك ، لا بالسهر ولا بالمراقبة ولا بالحجر ولا بالحجز ، ولا يمنع القضاء بالأحكام القرآنية
كما يشير به لا يور ولا بالتعب في تنصير المسلمين كما يريد اذ كل هذه التدابير لا يكون لها
نتيجة سوى أن تزيد النار اضطرابا . بل الوسيلة الوحيدة لالازالة تلك الرابطة لأنها
لا تزول أبداً ، بل لحصرها ضمن حدود لا تضر فيها بمصلحة فرنسا ، هي معرفة فرنسا
حقوق الوطنيين المسلمين ، ومعاملتهم على سوية واحدة مع الأوروبيين وعدم التدرع
بأي الوسائل لوضع اليد على أملاكهم ، وتجنب استغلالهم كما يستغل الانسان حرته ، وعدم
القف بهم في الثغور والمهازل ، ليكونوا فداء عن أبناء فرنسا وهم غير متمتعين بشيء
من حقوق المساواة مع أبناء فرنسا الى غير ذلك من الشروط التي لو توفرت لعاش الوطنيون
المسلمون في دعة وراحة مع الفرنسيين ولم يضرروا لهم الحق ، ولكانوا يرتبطوا معهم
برابطة محبة أكيدة بخلاف ما هي الحالة الآن ، اذ الرابطة الوحيدة التي تربط شمال إفريقيا
بفرنسا هي قوة السلاح ، وهذه كما لا يخفى مهمما طال وجودها ، فقد يأتي يوم يتقونها
الدهر فيهم ، فتذهب وتخل محلها قوة أخرى ، والدهر لا يدوم لأحد .

ثم يقول « ينسلون بالفرح الذي يبدية لنا المسلمون من جراء خطتنا الحاضرة »
فم نفهم ما هي خطتهم الحاضرة التي تستوجب كل هذا المن على المسلمين ؟ هل هي اعادتهم
كليبكيا الى تركيا ؟ فهذا قد بينا أسبابه ، وان فرنسا لم يمكنها أن تعمل غير ذلك في الآونة
الحاضرة أم اعطاهم حق الانتخابات لمسلمي الجزائر ، وهو أدنى ما يمكن أن يكافأ به قوم
قدموا لها نحو ٣٠ ألف مقاتل في الحرب العامة ، تلف منهم ٦٢ ألفا . فبدلا من أن
نسويهم باليهود أو المالطيين على الأقل ، كان أقصى ما منحهم من الحقوق أن يكونوا
ناخبين لأعضاء المجالس البلدية . أم سماحها بزيادة عدد الوطنيين في التصوة التونسية ، لكن
بشرط أن لا يكونوا الاغلبية وان لا يكون لهم الحق في التعرض للأمور السياسية أبداً ،
وان لا يمساوا بشيء المبادئ الاستعمارية الناشئة عليها حكومة تونس ؟ أم أخذها السورية
التي ثلاثة ارباعها مسلمون نقضوا شكل عهد وميثاق ، وتعديا على حقوق الامم وخلافا

لنصير بحاتها أثناء الحرب ، ثم معاملة سورية بصفة مستعمرة ، واستنزاف أموالها ، والخلل بوحدةها ، وإثارة الاحتقاد الدينية التي كانت ساكنة فيها منذ زمن طويل ، وحبس مفكرها ونهبائها لمطالبهم إياها باستقلال بلادهم ، واعتبار سورية أرضاً فرنسية مع الطرز بأهلها بأنهم هم مستقلون ، وإنما هي إنما انتدبتهم جمعية الأمم للوصاية عليهم لترشدهم وتعلمهم كيف يدرون فيما بعد أنفسهم بأنفسهم . . . أم الحرب القائمة بينها وبين أهالي مراكش والتي لولا حسن إدارة المارشال ليونى بنفسه ، لسكانت غير منحصرة في بعض جهات تلك السلطنة بل كانت عامة لجميعها ؟ ما هي خطتهم الحاضرة إذاً ، وماذا فيها من هذه الأيادي البيضاء على المسلمين ؟ لما انتصر الأتراك على اليونان لم ترد فرنسا أن تقتصر لليونان كما أراد لويد جورج ، لسكونها من النزاع مع ألمانيا في شغل يستغرق كل قوتها فالت إلى الصلح ولم تكن في ذلك وحدها ، بل كان رأى الجميع والانسكاب أنفسهم الذين أسقطوا لويد جورج وضع حد لهذه الحرب في المشرق ، ومع هذا فقد أجد الناس كلهم — ألا اليونان فقط — سياسة الدول السنية وسياسة فرنسا من الجيلة ، وأظهر لها ميامو المغرب الشكر على سداد هذه السياسة ، التي هي كلها في مصلحة نفسها في الواقع ولكن لم تلبث أن تقاضت بدل مآلئها هذه التي لم تكن فيها بالمنفردة مطالب اقتصادية ثقيلة على الأتراك ودعاوى خارجة عن العدل والنصفة ، ومن جعلتها التحريض على الترك في التزول لها عن حق سيادة الدولة العثمانية على سورية .

إذاً بماذا تمن فرنسا وأعدت على المسلمين ؟ حتى يشرع لليون بعض عقلاء قومها بأنهم كانوا مسرورين من مظاهر الرضى التي أبدتها مسلمو المغرب .

ثم يحذر أبناء جفسه من الاغترار بمظاهر الشرقى الذي يخفى الحقد ويهدى الولاء . ولا تشكر أن هذا من الأمور التي يتجاوز بها الشرفيون الحد المعقول ، والتي كانت السبب في كثير من المضار ، لأن الأفرنجي من شأنه أن لا يحمل الإفراط في الكياسة إلا بحمل الضعف وأنه كلما تواضع الإنسان أمامه احتقره واستصغر شأنه ، هذا محرب فيهم الاماندر . ولكن الشرفيين مفلطرون على الجمالة ، فتراهم يظهرون التودد إلى أقوام استولوا على بلادهم واستعبدوهم ، فهؤلاء الذين عرفوا جيداً ماذا فعلوا بهم ويعرفون أن سياستهم معهم لا توجب أدنى مودة ، يعتقدون أن هذه الظواهر هي كلها كذب وملق ورتاء ، وأنه كامن

وراءها الحق واليقين اذ لا يعقل أن الانسان يحب من أساء اليه . فليحضر الشرفيون والمسلمون من أن يأتوا بتصادق كلام هذا الرجل ، وليجعلوا للمجاعة حداً لئلا يتهموا بالراء والخذاع . فلقد كان من الافراط بهذه المجاعة من النتيجة السيئة في احتلال سورينة ، وادعاء أن أهلها هم الذين طلبوا ذلك ما ليس هنا محل بيانه وما طالما نسينا اليه . أمادعواه بأن الاسلام مبنى على الخضوع للقوة القاهرة فكذب محض ، واختلاق منه ، فإن الاسلام أمر بأوامر ونهي عن نواه لا يد للمسلم أن يجري عليها إذا أراد أن يبقى مسلماً ، مهما وقف في طريقه ولو ذهبت بذلك نفسه . وهذا مبسوط في كتب الشريعة التي يغترى عليها لا يرون بدون علم ولا حياء ، وليس للمسلم أن يتقى في دينه الا في بعض نقاط لا يكون فيها خطر على وجود الاسلام ، ولو كان المسلم مأموراً بالاستسلام للقوة الغالبة ، لما قاوم الرسول صلى الله عليه وسلم قريشاً وهي أقوى منه ، ولما قاوم الخلفاء الراشدون تلك الأمم كلها ودوت خوفاً ، وهم لم يكونوا شيئاً بالقياس الى ما كانت عليه تلك الأمم . كلا ، فالاسلام مبنى على العزة وعدم المبالاة بالخيانة والاهمال في الذب عن شريعة الاسلام ، وان القرآن ملآن بذلك والحديث الشريف مستفيض به ، وما سقط الاسلام الا بعد أن فتر عمل أهله بتلك الآي ، وغلبت عليهم « كراهية الموت وحب الدنيا » وفقاً للحديث النبوي الذي أنبأهم بالخلة التي وصلوا اليها ، والأسباب الداعية الى حصولها ، وهو حديث « يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل جنب تداعى الا كلمة على الفصاع الخ » .

ثم يقول ان ابتهاج الاسلام بعضه بفوز بعض لم يكن من قبيل ذا بال ، نظراً لقوة أوربا واتحادها في وجهه بخلاف ما هي اليوم ، والروسية التي كانت أعظم ضاغطة على الاسلام صارت في هذه الآونة تناصره وتند أزرها . والجواب أن تضامن أوربا كلها على الاسلام ، كاف بدون الروسية ، ولاشك أن الحرب العامة قد استنزفت قوى أوربا والروسية ، وكرهت الحرب الى السواد الأعظم من العالم فاستفاد الشرفيون كلهم من هذا الضعف بدون نزاع وهبوا للطالبة باستقلالهم ورفع الانيار عن أعناقهم ، ومن يلومهم على ذلك الا الذين لا وجدان لهم مثل هذا السكاتب والحزب الذي هو منه ، على أنه لو فرض أنها لم تحصل الحرب العامة لما كان الشرفيون راضين بأن يسقوا عبيداً الى الأبد .

أما ابتهاج الأتراك بل المسلمين أجمع بنصرة المراكشيين على الاسبانيول فليس فيه

نبي من العجب ، فقد كان الأوربيون كلهم مبتهجين بانتصار البلقانيين على الأتراك
ابتهاجاً أنساهم كل ماركسكة البلغار واليونان والعرب من الفظائع في تلك الحرب ،
وكان أحلى ما يروى للأوكليز يومئذ وقائع الجبل الأسود التي نجحت فيها بسالة ذلك الشعب
الصغير الأثني ، أفلا يحق للمسلمين أن يبتهجوا بنصر فئة قليلة من المغاربة ، كلهم قبائل
متطوعة ، على دولة عظيمة ساحت عليهم ٢٠٠ ألف مقاتل ، فاستأصلوا منهم نحو ٣٠ ألفاً
وغنموا ١٧٠ مدفعاً و ٧٠ ألف بندقية وانتهى الأمر بأن عاد الأسبانيون كاجلاء ولم يقووا
بمقاتلة . أن فرنسا وقتئذ مع بعضها لاسبانية والمنافسة بينهما على طنجة وغيرها ، لم يسرها
فوز الريفيين ، بل أوجست منه خيفة وتوافت اسبانية بها أمكتها . وإن الأمير محمد عبد
السكرام أرسل وفداً إلى لندن يلتمس وساطة انكاثرة في الصلح ، فلم تقبل انكاثرة هذه
الوساطة ، مع شدة ادعائها بحبة السلام . فإماذا لعمري ؟ الجواب بسيط ، وهو لأجل التكافل
الأوربي في وجهه الاسلام . وكذلك المسلمون يفرحون بفطر الريفيين ، أولاً ، لكونهم
أخوانهم في الدين ، ثانياً ، لكونهم فئة قليلة مظلومة ، غلبت فئة كثيرة قوية فتالة ، طامحة
إلى استبعاد تلك الفئة القليلة العدد الأبية للضم .

أما ما ادعاه من كون النادي الشرقي يربلن هو من مراكز دعوة الجامعة الاسلامية ،
وأنه يصدر جريدة لواء الاسلام لبث هذه الدعوة ، فلما كان محرر هذه السطور هو رئيس
النادي الشرقي يربلن قد نشرنا في بعض الجرائد تكديبا لدعواه هذه ، ولكون النادي هو
تحت حماية مجلس يربلن البلدي والجنرال لوندوروف ، كما افترى علينا كذبا ومهتاناً ، وبيننا
أن النادي هو محفل اجتماعي ليس له شغل بالسياسة ، نأسس بجمعنا للشرقيين من كل
الأجناس والأديان ، ففيه أتراك ، وعرب ، وجركس ، ونفر ، وافغان وفرنس ، ومصريون
وهنود ، ومغاربة ، وفيه مسلمون ، ونصارى ، ويهود ، وبراهمة الخ . وأن جريدة لواء
الاسلام ليس لها أدنى علاقة بالنادي الشرقي . فإذا كانت كل معلوماتنا هي من قبيل
هذا الخبر فيكون مقصده التيهيج فقط ، لا بهام أبناء جلدته وجود حركة اسلامية ألمانية ،
توسل بها إلى زيادة الضغط على المسلمين .

ثم زعم أن ليست نتائج الحرب العامة هي العاملة فقط في هياج المسلمين ، بل هناك
عوامل من طبيعة الاسلام نفسه ، لأن الاسلام لا ينضع بزعمه إلا للقوة . فكرر هدياته

الأول الذي لم تعلم على أي شيء بناءً ، إذ سئلت الأمم كلها أنها تخضع للقوة وتنتشر عند قدمها ، لم يختص الاسلام وحده بذلك . بل الاسلام والشرق فيهما بقايا من كرم الأخلاق ، والعفو عند المقدرة والسجادة ، وترك الانسان حقه لمجرد علو الهمة ، والميل الى المساكين وهذه كلها منافع يهزأ بها الغرب ولا يفهم لها معنى ، بل يسمعون ويقرأون نوادر كثيرة عن الشرقيين لا سيما العرب منهم ، وينقلونها في كتبهم من باب الكرم العريض والابتشار على النفس وعفو الموتور عن الوائر بمجرد دخوله بيته ولو كان قتلاً ، انه فلذة كبده ، وكم من والد سامح يقتل ولده ووالدة سمحت بقتل ولدها المحبي القاتل الى بينهم مستصحفاً ، وكم من تجاوز عن القود وعن الدية معاً ، فهل سمعنا أو قرأنا أن فذاً أوربياً فعل مثل ذلك مما يقع عند العرب كل يوم تقريباً ؟ وكم في التاريخ للاسلام من نوادر عفو عند المقدرة ، قد عرف منها الافرنج شيئاً كثيراً باحتكاكهم مع عرب الاندلس ، وفي أثناء الحرب الصليبية مع صلاح الدين الأيوبي الذي كانت سيرته بهم بعد سبهم بالاسلام عند دخولهم القدس سبب عار لا يمحي للصليبيين ، (١) كما أقر بذلك المؤرخون المنصفون من الافرنجة ، لأنها أظهرت ما هناك من سعة الفرق في علو النفس ، ورقة الاحاس ، بين الأمم الاسلامية والأمم الأوربية . أفيتقال بعد هذا ان المسلمين لا يخضعون الا للقوة القاهرة ، وانهم لا يؤثر بهم حسن المعاملة ولا العدل . بل العامل الوحيد الذي يؤثر بهم ويصكف طاعتهم هو ارهاق الحد ؟ كبرت كلمة تخرج من أفواه هذا الكتاب وأمثاله ، ان يقولون الا كذباً .

والحقيقة هي أن القوة المسلحة هي العامل الوحيد الذي يؤثر بالافرنج ، وأقرب شاهد على ذلك مثل الترك الذي لا حاجة لبيدته ان كل أحد يعرفه ، فقد أصمت أوربا آذانها عن جميع ما نادوها به من العهود والمواثيق والمشاركات والحقوق الدولية ، الى أن أثبتوا قوتهم بالغلبة على اليونان وغيرهم ، فعرفتهم حينئذ بشرأ ، ورضيت أن تجالسهم في مؤتمر لوزان وأخذت تصانعهم وتداريهم . وهناك مثل اليابان التي لم تعتبر عندهم دولة متمدنة الا بعد أن فهرت الروس ، وأثبتت قوتها العسكرية . كان أحد كبار الوزراء اليابانيين يحدث على

(١) قتلوا ٧٠ ألفاً في المسجد الأقصى ولم يمتوا عن النساء ولا الأطفال ، فلما استرد صلاح الدين القدس

لم يقتل منهم أحداً

نظامي باشا سفير تركيا في رومة مؤخراً فقال له : « ان شئت أنتم الأتراك أن تكونوا
متمدنين في نظر أوروبا ، فاجتهدوا أن تكونوا أقوىاء لا غير . فأتنا نحن اليابانيين كنا
بلغنا مبلغهم ، وتجاوزنا أمدهم في العلم والصناعة ، وصرتنا تصنع من الأمتعة ما يضاهاى الذى
يصنعونه ، ونبيعه بأثمان أرخص من أثمانهم ، ولشوا يعدوننا مع البرابرة . الى أن هجمنا
في يوم من الأيام على الروسية ، ونسحقنا لها بوارج بدون اعلان حرب منا مخالفين بذلك
الحقوق الخربية الدولية ، ثم تابعنا الحرب الى أن اقتصرنا على الروس نهائياً ، وعرفوا
أننا نعرف أن نقتل ونهلك وندمر مثلما يقتل الأوربيون ويدمرون ، صرتنا عندهم دولة
عظيمة وصاروا يعدوننا متمدنين » . هذا كلام وزير ياباني كان تولى الصدارة في اليابان ،
وان شاء الشرق أن يفهم جيداً ما هي أوروبا فليستظهر دائماً هذه الامثلة . ويعلم الله أننا
لم نكن لتوضيح كل هذا من شأنهم في تقديس القوة المادية والتنمر على الضعيف
والنصبص للقوى ، لو لم يكونوا دائماً يذفوننا بهذه التهمة عينها ، فقد تكررت منهم
هذه الكلمات بحق الشرقيين الوفا من المزار . وتنفذ كل مناسبة ، نجدهم يقولون :
الشرقيون لا يعرفون الا القوة . الشرقيون لا يفهمون الا بلغة السيف . الشرقى لا يأتى
الا بالارهاب . لا تنسى أنك تخاطب أمة شرقية . اعلم أنك في الشرق . وما أشبه ذلك .
والحق أن القوة المادية هي معبود الغربيين قبل الشرقيين . ثم ذكر أنه في الحرب العامة ،
انقضت أكثر الأمم الاسلامية الى الخلفاء ، وقاتل منها مليون ونصف مليون مقاتل تحت
راياتهم . ولم يعبأوا باعلان الخليفة الجهاد ، وتبارى علماء المغرب في القتيا بعدم وجوب
الحرب في جانب الأتراك والألمان الى غير ذلك .

والجواب عليه ان كان يعنى بالأمم الاسلامية البامبارة والسيفاليين وأمثالهم فهؤلاء
مساكين لا يقدرون على شئ ، ولا يعرفون شيئاً ، بل تراهم كلاً نعلم يساقون الى المجزرة
ولا يشعرون حتى يصل السككين الى أعناقهم ، ولم تترك فرنسا في سبيل ابقائهم في أدنى
درجات الجهل والخيولة بينهم وبين الشريعة الاسلامية واللغة العربية واسطة الا استخدمتها
لأجل أن تلعب بهم الكرة ، وتقتلع منهم كل شئ اسمه ارادة ، فهؤلاء لا كلام فيهم . أما
الجزائريون والتونسيون والمراكشيون ، فمع كون الجهل أيضاً نجحاً على عانتهم ان لم يكن
في نسبة السيفاليين فقرباً منها ، ومع كونه لا يصعب على فرنسا شراء ضائر كثيرين منهم

فقد طاف عمال الفرنسيين عليهم يخطبون ويعظون ويعتقدون الجامع ويخادعون العامة والزعماء أثناء الحرب وفي كل أحاديثهم وخطبهم ، يصرحون بأن هذه الحرب هي حرب تحرير الأمم ، فكل من قاتل فيها وبذل دمه نال بعد الحرب استقلاله ، وكل من تخلف عنها لاحظ له من الخسيرة ، وإن هذه النوبة هي نوبة الجزائر وتونس لئيل الحكم الذاتي بحيث لا يبقى بينهما وبين فرنسا اصلة حلف فقط ، وإن الألمان الذين هم أشد أعداء الاسلام ، قد خدعوا تركيا ، بل استمالوا فرقة الجون ترك فقط ، وهي الغالبة على الأمر والأخذة على يد السلطان الخليفة ، فأعلنت هذه الفرقة الحرب بدون علم الخليفة وبلا علم الأمة ، وكذلك القوي بالجهاد هي تزوير من فرقة جون ترك ، هذه التي هي مارقة من الاسلام تهين الدين وتباهر بمعدوانته (١) وسيكون نصيب تركيا فيما لو انتصرت ألمانية ، السقوط بين أيدي الألمان الذين سيقضون على الاسلام القضاء المبرم بعكس الخلفاء الذين هم أحباء الاسلام ، ولا يريدون بأهل الا خيراً (!) فبعد أن يتفق النصر للحلفاء ستضع فرنسا الحكم الذاتي في جميع مستعمراتها الاسلامية ، وستعطى انكسار مصر استقلالها التام وسيساعد الخلفاء العرب على تأسيس سلطنة عربية ، تأت من سورية وفلسطين والعراق وجزيرة العرب ، وعلى استئناف مجد الخلافة العباسية . وقالوا لأهل الهند انهم سينالون الحكم الذاتي بأجمعهم ، وأقسموا لهم جهاد أيماهم انهم ولو انتصروا على تركيا ، فلا ينال تركيا من الخلفاء أدنى سوء ، بل كل ما يريدونه من تركيا هو الانفصال عن هذه الدولة الألمانية التي تنوي وضع اليد على تركيا ، هذه التصريحات والناكيدات كمررها الخلفاء أوفاً من المرار على أهالي مستعمراتهم الاسلامية ، لا سيما الجزائر وتونس ومراكش ومصر والهند ، وعلى الأمة العربية ، ولبثوا يكررونها الى السنة الرابعة من الحرب العامة ، اذ قوى أملهم بالنصر النهائي فعمد ذلك تغيرت نعمتهم ، وبدأت تلك الأمم التي انقادت لوساوسهم تلحظ انها إنما وقعت في شرك ، وانها كانت من تمويهاتهم في غرور مبين . ولقد أصابت إحدى الجمعيات السورية في أمريكا بوصفها الخلفاء أثناء الحرب العامة وهم يفتنون الدعوة لقضية تحرير الشعوب بزعمهم . فقالت في منشور أذاعته بعد الحرب : «فلو رأيت الخلفاء ودموعهم

(١) واستشهدوا على ذلك بأشياء

نسبيل ، وهم يستنهضون الأمم لنصرتهم في هذه الحرب التي لم يشابعوها بزعمهم إلا لأجل تحرير الأمم كافة ، وفهر التسلط الألماني الخ » نعم بقي الحلفاء يشنون هذه الدعوة ودموعهم نسيل رقة وحناناً (١) إلى أن قضوا وطرحهم ، فقلبوا ظهر المحن لكل من علونهم وقابل في صفوفهم ، وجفت دموعهم إذ ذاك ، وعادوا ذئاباً بعد أن كانوا حلافاً ، وتنافسوا كل ما تعهدوا به أثناء الحرب بدون أدنى خجل ولا وجل ، فذلك حاجت أحفاد تلك الأمم التي خدعوها بزخرف القول وخناؤها بمواعيد ، لم تعد مواعيد عرفوب عندها شيئاً ، وقاموا عليهم من كل جهة ، فتهضت مصر نطالب باستقلالها التام ولم تزال فاعضة ، وحنق أهل الجزائر من خلف المواعيد الفرنسية حنقاً دل عليه صنيعهم في انتخابات ١٩١٩ ، التي لم يرشحوا فيها واحداً موالياً لفرنسا . ولا تزال الحركة الوطنية تقوى فيما بينهم بغضل سوء السياسة الاستعمارية لا بدسائس الأفاضل ولا بتحريكات الجامعة الإسلامية ، وازدادت ثورة المراكشيين امتعالا ، وهي منذ خمس سنين مضت من بعد الحرب العامة لم تكن يوما واحداً ، وثارت الهند ثورات مختلفة الأنواع ، منها بالسلاح كما في شمال الهند وكثيرة الموبازة في المليار وغيرها ، ومنها بالسياسة كالمؤتمر الوطني الذي انعقد ممثلاً من جميع شعوب الهند وأديانها ، وكاتحاد المسلمين والهندوس ، وكقيام جمعية الخلافة ، وكقادة المتاجر البريطانية بحيث قصت في الهند نحو ٣٠ في المائة . ثم قام أهل العراق في وجه الانكليز ، الذين كانوا أعلنوا لهم يوم دخولهم بغداد سنة ١٩١٧ ، أنهم لم يأتوا ليجلبوا بلادهم ، بل ليعيدوا إليها الحكم العربي كما كان ، فلما استولى الظفر لانكفارة حاول الاستيلاء على العراق والحاقها بالهند ، فثار العراقيون بها مدة سنتين أذاقوها فيها عرق القربة ، ولم يضعوا السلاح حتى مكنتهم من تأسيس حكومة عربية ، اشترطوا أن تكون مستقلة استقلالاً تاماً ، ولن يرحلوا حتى يروا استقلالها تاماً ، وأما أهل تونس فترك القول لهم ، فقد ورد في كتاب « تونس الشهيدة » المطبوع في باريس سنة ١٩٢٠ في خلاصة الكتاب ما يأتي :

« كانت مفاداة الشعب التونسي بجانب فرنسا ، في الحرب التي اكشحت العالم المتعدين ٦٥ ألف مقاتل و ٣٠ ألف فاعل من أمة لا تزيد على مليونين من النفوس ، وقد قتل وجرح من الخمسة والسبعين ألف مقاتل ٥٠ ألفاً ، وكانت لنا نفة تامة في الحصول

على أمانتنا القومية على أثر ظفر الحق (١) والعدل بين الأمم ، وتنفيذ مبدأ تعيين الشعوب لمصيرها ، الذي كان أعظم رجال الدول نادوا به ووعدوا بهذه الشعوب أمام الله والناس . فهذه الثقة هي التي خلّصنا على القيام بواجب المشاطرة الوجيعة بدون قيد ولا شرط في الحرب العظمى العائدة خلاصنا فكان دينا على فرنسا اعطائنا حريتنا من وجهين ، الأول الحباث التي تحملناها من أجلها ، والثاني المواعيد الشهيرة التي قطعتها لنا ، فقد نالت الشعوب الصغيرة حتى من التي كانت في صفوف الأعداء حريتها ، أما نحن فقد ادخرت لنا فرنسا لأجل المكافأة على خسارتنا طريقة من أغرب ما يتصوره العقل ، وذلك بتهيئة برنامج استعمار جديد زيادة على القديم ، تمكن به من غصب أملاكنا وهضم حقوقنا ، فقد اغترمت إيطان فئة من صغاليك الفرنسيين ومعترتهم ومحاولتهم في بلادنا ، وتيسير أسباب معاشهم من مائتنا وتقديم الأراضي اللازمة لهم من أرضنا . فما هي فائدة فرنسا لعمري من متابعة خطتها هي من سنة ١٨٨٩ ، وعلى الخصوص من سنة ١٨٩٢ حتى اليوم مصدر كل عمل تأنيدي في تونس وبدلا من أن تعدل عنها ولو على وجه المكافأة لزيائنا من أجلها ، تكون النتيجة ، أنها بعد انتهاء حرب الحق والعدل (١) تزداد فيها توسعا وتفننا الخ .

لا نطمع أن نتقل هنا كل ما ورد في « تونس الشهيدة » من الحقائق الرسمية ، التي ثبتت الى أي حد وصل الفرنسيين من استعمار تلك البلاد ، واستعباد أولئك العباد ، وكما تقدم كانت مكافأتهم على الخسة والأر بعين ألف رجل الذين فقدوهم فداء لفرنسا ، أن قررت الحكومة الفرنسية إرسال كل المحاولات والسفحة والأفاقين الذين في بلادها الى تونس ، واعطاءهم أراضي فيها من أملاك الحكومة التونسية وأوطاف التونسيين ، والاتفاق عليهم لعمارة تلك الأراضي بواسطة فرض يعقد باسم تونس ، ويدفع قاضه أهل تونس ،

وبالجلاء فإذا شاهد المسيور روجر لابون ومن على شاكلته هيجانا في العالم الاسلامي فليبحث عن أسبابه في نظام الحكومات الاستعمارية ، وتكتلها بمواعيدها ، وخيبتها هذه الشعوب بعصا العنف ، واستنارها بأراضيهم ، وأمواطم ، ووضعهم تحت أقدام المستعمرين حقارة وإهانة فالشعوب الاسلامية والشرقية مهما بلغ بها الضعف قلن تقر في يوم من الأيام على العبودية للأوربيين ، يلزم أن يرفع الأوربيون خيال تأييد هذه العبودية من رؤوسهم وأما زعمه أنه بعد معاهدة مودروس كان الاسلام بأسره قد استخذى ، وصار منتظرا أي

حكم يصدر من أوربا لطبيعته ، وإن السبب في كونه رفع رأسه فيها بعد ، واستأنف آماله ، وعاد الى المحاصرة ، هو ما رآه من انصراف الجيوش من الشرق ووقوع المنازعات بين الحلفاء فهذا كذب محض ، وبهتان بحث ، ينقضه التاريخ وتكذيبه القیود الرسمية ، فقد وضعت الحرب أوزارها ، ومصر والاسنانة والعراق والأناضول والقوقاس وسورية ملأى بجيوش الحلفاء التي لبثت مرابطة في هذه البلدان مدة طويلة . وعندما أهالي مصر نهضوا لطلب استقلالهم كانت مصر تخرج بالجيش الانكليزي . وإن أهل العراق هموا لمقاومة الكثرة غير هيايين المائة والعشرين ألف جندي ، التي ساقها عليهم ، كما أنه لما نهض مصطفى كمال في الأناضول كانت الجيوش الانكليزية في الاسنانة والأناضول والقوقاس بعشرات الألوف ، وكان جيش فرنساوى نحو ٥٠ ألفاً في كيليكيا ، وجيش آخر في الاسنانة وجوارها ، وكان جيش للارمن في حدود أرضروم ، وبعد ذلك زحف ١٥٠ ألف يوناني ، فأطبق الأعداء على الأناضول من كل جهة ، ومع هذا فلم يزد الترك ذلك الاثباتا . فكيف يقال انهم تشجعوا بانصراف الجيوش عنهم . وأما في سورية فبلغ عدد الجيش فرنساوى ٧٠ ألف مقاتل ولم يمنع ذلك أهلها من مقاتلة الفرنسيين ، ولا صرفهم الخوف من كثافة الجيوش عن طلب حقهم الذي لا يزالون يطالبون به ، وأما شمالي الهند فلما زحفت عليه القبائل الأفغانية وجيش كابول ، أصد الانكليز لمقابلتهم ٣٠٠ ألف مقاتل ، فكيف يكون المسلمون قد طمعوا وتجرأوا بانصراف الجيوش عن بلدانهم . وكذلك فارس أجبرت الانكليز على الجلاء عن بلادها ، والجيش البريطاني منتشر في أكثر البلاد .

ثم يقول كان أكثر الناس مناهضة القضية تحييد الوطنيين هم الذين حصلوا العلم في مدارس فرنسا . إذا فالفرقي الذي تلقى تربية اسلامية والفرقي الذي تلقى تربية أوربية كلاهما واحد في طلب الحرية ، وهذا أمر يدهى ، إذا لا الاسلام يرضى لأبنائه بهذا الاهتمام ، ولا أوربا تميزه على أمة من أبنائها ، وكلا التعليمين ملتقيان في نقطة الاستقلال وإن البسطة التي معناها أن المسلم لا بد أن يكون تحت حكم أوربي لاجل انتظام سير المدنية التي دياره تمتعه منها ، هذه لا يقبلها المسلم العتيق ولا الجديد ، بل لا يقبلها أوربي عنده وجدان سليم ، وما هي الا أكذوبة خلقت لتسويغ الاستعمار واقتناع الأحرار من الاوربيين ، الذين يقولون : « ما لنا وطولاء القوم نهضم حقوقهم ، ونحكم فيهم ، ونذهب

فقتلهم في عقر دورهم « فبريد حرب الغزو والاستعمار أن يجاوبهم : « ان هذا ليس في
شي من الظلم ، لأن هؤلاء القوم لا يزالون عصاة على المدنية ما داموا مسلمين » . ثم يقول
وهو من أغرب ما سمع في باب القحة انه « منذ خفي العلم الفرنسي فوق مرسى الجزائر
تكون بين هذه الأمة ونام لم تعرفه من قبل » . وفي محل آخر يندب قصور عمال فرنسا في
تأريث نار الشقاق بين العرب والبربر كما كان من قبلي . وقلما سمعنا أن قوما يدعون
أنهم في أرقى طبقات المدنية يأسفون من كونهم لم يحسنوا التفرقة ، ولم يحكموا العداوة بين
الأمم التي ساء تحتها بسقوطها تحت أيديهم ، ويعلمون أنفسهم وتدمهم من جراء هذا
الاهمال . على أن كلامه هذا هو كذب محض ، فإن عمال فرنسا في الجزائر لم يهملوا وسيلة لتسديد
العداوة بين العرب والبربر الا توسطوا بها ، ولكن التي جمع بين العرب والبربر هو رابطة
الاسلام ، ورابطة الظلم المحيط بالفرقتين . وإذا كان عمال فرنسا منذ أول احتلالهم لسورية
أي منذ سنة ١٩١٨ الى ساعة تحرير هذه السطور ، لم يفتروا يوما واحدا عن تأريث
الضغائن الدينية بين المسلمين والنصارى في سورية وبين النصارى والدروز في لبنان ،
بعد أن كانت هذه الضغائن والدخول قد سكنت وتلاشت تقريبا ، فتجد سورية ولبنان
اليوم في أسوأ حال من هذه الجهة مما يقتره يد الاحتلال ، التي ظنت انها لا تمتد الا على بساط
شقاق ، ولا تتمكن الا من خلال فتنة ، فما ظنك بما كان يفعله عمال فرنسا في الجزائر من
تخريث الاخوان بين العرب والبربر الذين ليسوا في مستوى أهل سورية ، لكن
فرنسا لانكلام بيد الا وتأسوا بخير ، فكل ما زرعه عمالها من الشقاق بين ذينك الجيلين
في المغرب ذهب بفضل الظلم والغصب والامتهان وسوء الادارة ، التي وحدهما . وهذا شأن
كل من حاق بهم خطر عام . وليس بصحيح انه لما دخل الفرنسيون الجزائر كان فيها ٨٠٠
الف بربري غير مسلمين ، فالاسلام دين البربر قاطبة منذ أكثر من الف سنة ، والمسلمان
العربي هم يعرفونه جميعا الا ما قدر من جهلائهم . وقد اجتهد عمال فرنسا كثيرا في فتنتهم
في دينهم ، ووقفوا الى بعض ما قصدوه وذلك بأن أدخلوا عليهم الشكوك في عقائدهم ،
فأصبح بعضهم معطلين أو ملحدين ، ولكن لم يتمكنوا من نقلهم من الاسلام الى النصرانية ،
ولا ينكر أن كثيرا من الفرنسيين ومن عمالهم أيضا ، هم من ذوي الوجدان والاستقامة
وارباب العقل والحكمة فذهب عن استقامة طبع وطهارة وجدان ، تأبوا أن يزعموا مسلمي

الجزائر في دينهم وان يسكنوا بعهد المحافظة على حرية الدين الاسلامي ، ومنهم عن حسن تدبير ، وبعد ادراك نخبوا أن يتعرضوا للجزائريين في عقائدهم وسريعتهم خوفا من انتقاضهم ، وتغاديا من زيادة نفورهم ، فهؤلاء هم الذين روجوا لا يزل يندبهم ، وبقبح عملهم ، ويزعم أنهم كانوا يعززون الاسلام ، ويعاونون على تأييده ، وليس الأمر كذلك فما من فرنسي على وجه الأرض عزز الاسلام أو سعى في نشره ، وإنما هناك فئتان احدهما ، ترى التعرض للمسلمين في كل شيء حتى في دينهم ، وأخرى ترى ذلك من قبيل اللعب بالنار وتوحيش من ورائه الثورات والفتن ، فلا تحب أن تعرض للدعوة الدينية ، ولا أن تثير هذا الساكن ، وان رضيت بشيء من ذلك تنسكت فيه الطرق الرسمية ، على أن تميز غير المسلم على المسلم في شرق افريقية وسائر مستعمرات فرنسا ، ليس مما تحسن فيه فرنسا الضراء ، وناهيك انه من نحو عامين فقط ، اقترح أحد نواب الولاية ليست في البرلمان الفرنسي إلغاء قانون : بمقتضاه لا تعطى مكافآت عقارية لدوى الخدمة النصوص الاسلاميين واليهود ، ومن ينصر من المسلمين . وهذا قانون ليس بقديم العهد ، بل وضعه مجلس نواب فرنسا منذ ثلاثين سنة ، وقد أجابت الحكومة على اقتراح النائب الاشتراكي بأنه يلحق إلغاء هذا القانون بعد الخسائر الجليلة التي تحملها الجزائريون فداء لفرنسا . فأتت ترى كذب دعوى هؤلاء ، الذين يزعمون أن الحكومة الفرنسية قصرت في احتقار الاسلام واحتضامه في الجزائر . نعم هناك فئة قليلة من الفرنسيين ترى هذا الضغط ليس التدبير ، ولعمري كل عاقل في الدنيا يحكم هذه الفئة بالصواب في رأيها .

ثم يفترى على الاسلام بقوله انه ماديان به شعب الا نأخر ونهقر ، وانه نافع ، بقوانينه الدينية من الترقى الاجتماعي . والحال أن الاسلام ليس فيه شيء يمنع الترقى ، ولا توجد ذريعة في الدنيا تقديس العلم وتعلي شأن العرفان وتجعل العلماء تلو الأنبياء كذريعة الاسلام ، واذا كانت الأمم الاسلامية قد انحط شأنها في القرون الأخيرة لأسباب عديدة من جهتها : تكالب أوربا على بلادها ، وظواهرها على استئصال قوتها فلم يكن نفس الاسلام هو باعث القهقري بل كانت لذلك بواعث أخرى لم تخل منها أمة ومثال ذلك أن أوربا بقيت منحلة جاهلة ، متغشمة ، مفلوكة في حنادس الحمجية ، من بعد ما انتصرت بألف سنة . وبلغ من جهلها وانحطاطها أن مائة عربي افتتحوا قسبا من ايطالية وقسبا من سويسرة

في أوائل القرن العاشر : واستولوا على أكثر الجبال والمضايق ، وبنوا القلاع والأبراج ، وجانبوا الجبل جميع ملوك تلك الأطراف ولبسوا ما لكان هاتيك الحصون والقلاع ، صار بين على أهالي تلك البلاد الذلة والمسكنة نحو قرن تام ، ولم يكن عددهم أنى ما عمو وأكثر ما كثروا بزهد على ألف رجل ، تجزى بهذا الفتح العجيب عن ذكر فتوحات العرب للاندلس وجنوبي فرنسا وجنوبي إيطاليا الخ ومهديهم أهالي جميع الممالك التي احتلواها وغلبوا عليها . فكما أن حمجية أوربا لذلك العهد لم يكن السبب فيها الدين المسيحي ، فانحطاط الاسلام اليوم ليس السبب فيه الشرع الحمدي . وإنما هي أدوار تتعاقب ، وتلرات تتناوب ، وكل مملكة أو كل مدينة تطرأ عليها أحوال من داخلها ومن خارجها ، فتسقى وتسد ، ثم تعود فتسقى ثانية ، ثم تعود فتسد ثانية وهلم جرا . ولقد سعت قرطاجنة ثم شقبت وكان دينها واحدا ، ولقد علت رومة في أيام الوثنية ثم سقطت في أيام النصرانية ، فهل كان الدين المسيحي هو السبب في سقوطها ؟ كلا . ثم هذه إسبانية منذ أربعمائة سنة ، كانت أقوى مملكة وأزهر مملكة ، وكانت اكتسفت أميركا وصارت في بسطة مستعمراتها نظير انكثرة الحاضرة ، ثم لم تزل ترجع الى الوراء حتى عادت كالعرجون القديم ، وصارت تعجز عن قبائل الريف ، ولما كانت في عنجهية عزها كانت نصرانية ولما وصلت الى حالتها بقيت نصرانية . وكان النصر غالين على الروس وملوك الروس يؤدون الجزية الى أعقاب تمرلك احقابا متطاولة ، ثم أصبح النصر كلهم رعيا الروس ، وصارت الملوك الباقية لهم اتباعا وخولا لفيصر الروس ، ولما غلا النصر كانوا مسلمين ولما انحط الروس كانوا نصارى والآن تغيرت الأحوال ، وكل باق على دينه . والدولة العثمانية الاسلامية وصلت الى بولوبند واستولت على المجر ، وحاصرت فينا ، وصارت ملاذاً لفرنسا وناهضت أوربا بأجعتها فزونا عديدة ، وكانت هي مسامة ، وكانت أوربا نصرانية أكثر مما هي اليوم . فن العبت أن نقول ان الدين المسيحي أو الدين الاسلامي ، هو سبب تأخر هذه المملكة أو تقدمها وإنما التأخر أو التقدم نكون له مقدمات وأسباب نراكم فتعمل عملها ، وناهيك أن اليابان أمة شرفية وثنية ، بلغت باجتهادها وصدق عز عنها أن ضارعت أقوى دولة أوربية لا بل . ففهرت أقوى سلطنة مسيحية وهي الروسية ، فلما كانت لم تزل في دور الانحطاط جاعلة مجهولة علوا ذلك في أوربا بكونها أمة غير أوربية ، وغبر مسيحية ، كالعالمون اليوم أسباب تأخر

عالمك الاسلام فلما نهضت اليابان نهضتها هذه ، وكذبت فلسفتهم المبنية على الاهواء
والمآرب ، لم يشدروا أن يدعوا أن اليابانيين تنصروا حتى أمكنهم أن يتقدموا ، ولولا
تنصرهم لما بلغوا هذه الدرجة فزعموا أن اليابانيين وان لم ينصروا فقد نصرنا ، ولولا
يتفردوا لم يصيروا الى هذه الرتبة . وبعضهم لم يجروا أن يقول ان اليابانيين تفردوا فقاتلوا : ان
اليابانيين قاموا بانقلاب اجتماعي في داخل بلادهم حتى رفوا هذا الرقي . ان هذا المعمرى
كلام فارغ ، فان كل أمة تعتمد على العلم والعرفان ، وتعمم المدارس في بلادها ، وتنتشر
الانوار من حيث أنت ، يحصل بها انقلاب اجتماعي بطبيعة الحال ، فاليابان نشدت العلم
وأخذت ما عند الأوربيين من المعارف والفنون واكتنبت بقيت شرقية في كل شيء ، بل
بقيت على دينها مذهب سبقتو مع مذهب بوذا ، لم تحدد عشما ، ويخطئ من يظن أن اليابان
بعد أن تعلمت وترقت ، أصبحت بلادين أو استخفت بالدين . فان كان من أهلها دهريون
أو قائلون بالطبيعة ، أو بوجود قوة مبدعة خسب ، فهؤلاء يوجد منهم في كل أمة .
وبالاختصار فيمكن الاسلام أن يرقى رقى اليابان ورقى أوروبا ويبقى مسلماً ولكن الفئة
المستعمرة من الافرنج يريدون أن يلبثوا مستطمين على بلاد الاسلام ، فلا يزالون يفتحون
تدعيمة سلطتهم عليها أعالي ومعاذير ، من جعلها أن الاسلام دين جنود أو مشار فوضى وخلل
فلا يترك وشانه ، كما كرر ذلك هذا الرجل عدة مرار كذبا ومينا .

ومن غريب ما رواه ان قريبا من سورية جاء بلاد الجزائر وجازت له مكانة
عند أبناء جلدته عرب الجزائر ، فأولو الأمر من الفرنسيين هناك حرصا على عدم تنصير
المسلمين طردود من الجزائر ، والذي يظهر لنا ان كانت هذه الحكاية صحيحة ان هذا الفرنسي
بسبب كون لفته هي العربية ، أراد أن يدخل مع المسلمين في مباحثات ومناظرات دينية ،
وربما يكون تجاوزا الجدل الى النبل من الاسلام بما أدى الى هييجان الأفكار ، ورفع
بعض المسلمين القضية الى أولى الأمر ، خافوا الفتنة وطردوا الكاهن المذكور وبرهتوا
بطردهم اياه على عقل وحكمة . ولو أن داعيا مسلما دخل بين جماعة من النصارى الذين
تحت حكم الاسلام ، وطقف يجادلهم في دينهم ويشير خواطرهم ، وكنت واليا في ذلك المكان
اطردته ، وكان في ذلك عين المصلحة . أما قول هذا الفرنسي أن الكاهن السوري كان
عند أبناء جلدته عرب الجزائر فهو غريب فان الفرنسيين بعد دخولهم سورية جعلوا العرب

غير السوريين والسوريين غير العرب ، واجتهدوا في اثبات كون السوريين هم من سلاسل الآراميين والفينيقيين وانهم ليسوا من العرب ، حال كون السوريين هم في الأغلب من العرب الذين أوطنوا سورية قبل الاسلام وبعده ، والذين هم من أصل فينيقي هم عرب أيضا لثبوت هجرة الفينيقيين من جزيرة العرب والذين هم من سلاسل الآراميين عددا كونهم ساميين أبناء عم العرب فقد ذهب الأكثرون من محقق علم التاريخ في أوربا ، ان آباءهم الآراميين جاءوا أيضا من جزيرة العرب مهد الأمم السامية بأسرها .

ثم ادعى أنه لم تنسق للاسلام مدينة تذكر الا مدة قصيرة أيام الأمويين بالأندلس والعباسيين في بغداد أي نحو ثمانمائة سنة في الأندلس ، ونحو خمسمائة سنة في بغداد فهذه الأدوار رآها قصيرة تعزير برعائه القاسط ، مع أنها أطول على كل حال من مدينة أوربا ، التي لم تبدأ الا منذ أربعمائة سنة وفي القرون الوسطى كانت كدنية أوربا اليوم . وبعد أن اتهم الاسلام بالجوذ والجول ، وعدم القابلية للتباهة ، زعم أنه أخذ اليوم يتوسل الى العلم ، ويجتهد في صنعة السلاح ، ولم يقف عند السلاح المادي بل تجاوزته الى السلاح المعنوي ، الذي هو الطبع والذشر وصارت له جراند كثيرة في الشرق والغرب قائمة بدعوة اتحاد الاسلام . أذن الاسلام لم يكن جامدا كما يدعى هؤلاء الناس . ثم يتكلم على اسلام السودان وأنه مشوب بخرافات فتيشية ويتغافل بذلك خيرا ، وأكثر هؤلاء على هذا النمط من التناول بعدم تحقق السودان بالاسلام الحقيقي ، فلا أكاذ أقرأ لكاتب أو شائع أوربي كلاما على اسلام الزنوج أو الجاوي أو الصينيين أو غيرهم ممن أسلموا حديثا الا رأيتهم يجتهد في اثبات كون اسلامهم ليس تاما ، وأنه لا تزال عندهم عقائد وثنية أو عادات وثنية . وكأن هؤلاء الأوربيين يسألون أنفسهم بذلك من قبيل ، اللهم اتنا لا نسألك دفع القضاء ولكن نسألك اللطف فيه . فعداوتهم لمذهب بوذا ومذهب سبنتو ودين براهما ، بل لعبادة الصنم نفسه ، ليست بدرجة عداوتهم للاسلام ، الذي كله توحيد وتنزيه . وأما قوله ان الزنجي لم يسلم الا لئال رفعة ، ولما كان يرى الأوربي أعلى من المسلم كان الأولى أن يتخذ دين الأوربي لنفسه . فنحن لا يسؤنا أن الاسود الفتيشي يصير نصرانيا كما يسؤ أكثر الأوربيين صيرورة الفتيشي مسلما ، لاتنا نعلم أن النصرانية ترقى عقله وخلقه ، وترفع سويته الاجتماعية عما كان . ولكن الزنوج الفتيشين بالرغم عن جميعات التبشير التي

لا تعد ولا تحصى وعن نفوذ أوروبا التي يكتنفها سواد من الدول الكاثوليكية أو البروتستانتية ، وعن « كون الأوربي هو أعلى وأقوى من المسلم » في نظر الزنوج ، فبلا يزال هؤلاء يرجحون الاسلام ، ونحو . . . ما يونا من هؤلاء ، كانوا به في القرن الماضي ، وفي هذه المدة ، بدون بعثات ، ولا جمعيات ، ولا دول تعضد الجمعيات . ولا نذكر ان كثيرين من هؤلاء الزنوج النتيشيين تنصروا ، وقد أحسنوا بذلك صنعاً ، لكن هؤلاء ، فئة قليلة في جانب الذين أسلموا كما يعرف بذلك سياح الأوربيين ، الذين جالوا في أفريقيا وكتبوا عنها ، وأنفس المبشرين والرهبان الملحقين بالرهبان البيض وغيرهم ، ممن كتباتهم ملأت الدنيا بهذه القضية .

ثم قل : ان البلاد الضاربة في الشمال هي غير مساعدة على انتشار الاسلام فيها ، لان طول النهار المفرط وقصره المفرط ، بعدان خلال بمواقيت الصلاة ، فينطرق الشك الى قلب المؤمن . الى غير ذلك من التهمم والرقاعة مما كنا نحجب أن لا نجاوله عليه لسخفه ، ولكن قلنا حيث اتنا خطنا في هذا الموضوع قلنا ناوله بأطرافه فنقول :

ان أحكام الصلاة والصوم جعلت لاغلبية البلاد التي فيها النهار تهاو والميل ليل ، فلا ضرر تلك الأحكام بعض أقسام من الكرة هي من النادر الذي لا يعتد به . على ان الفقهاء مرروا انه في مثل هذه الاصقاع النادرة ، التي يطول فيها النهار هذا الطول المفرط أو يقصر هذا القصر المفرط ، يكون العمل في الصلاة والصوم مقبلاً عليه في أقرب بلد من تلك الجهات ، وانحل بذلك الاشكال ، وليس في الاسلام حرج بل هو أوسع وأسمح مما يشمله هؤلاء القوم أو مما يريدون أن يخيلوه لأبناء جلدتهم . وان القرآن الكريم ليس بكتاب جغرافية ولا قوسموغرافية ، بل كتاب توحيد وتنزيه ، وتهذيب نفوس ، ونظهير أخلاق ومع هذا فلم يرد فيه شيء يخالف قواعد العلم بل وجدت فيه آيات يمتاز بخارج غير المؤمن بلوحى من شدة مطابقتها للتحقيقات الحديثة سواء في علم الفلك ، أو في علم تكوين الأرض مما كان في عهد نزول القرآن مجهولاً ، وذلك منل آية « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففلقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، تأمل ما في هذه الآية من الانطباق على جميع النظريات العلمية الحديثة التي معناها ان الأرض والاجرام الفلكية كلها كانت كتلة واحدة فأنفصل بعضها عن بعض ، وكذلك ان الحياة بدأت في

المياه . ثم تأمل هذه الآية « وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » التي تثبت انه لا يوجد في الفلك جرم غير متحرك على الاطلاق مع أن الفلكيين في عصر القرآن كانوا يقولون بالسيارات والنوابت حتى التجأوا يومئذ عند تفسير هذه الآية الى التأويلات والاحتمالات البعيدة ، الى أن تقرر في علم الهيئة الجديد كون الاجرام الفلكية بأجمعها متحركة ، وصدقت الآية بدون أدنى تأويل . وانظر الى قوله تعالى « مَنْ كُلٌّ زَوْجٌ بِزَوْجٍ » وكيف كرر ذلك مراراً حتى يفهم الانسان ان الخلق كله من حيوان ونبات وجماد ، مبني على الازدواج حتى النبات فيه ذلك ، والجماد فيه القوتان السلبية والايجابية مما لم يكن شئ منه معلوماً في زمن البعثة ، فم يفهم العلماء بعد مرماه الى أن تكشفت به التحقيقات العصرية . وأمعن النظر في قوله « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » مما هو المثل الملازم لكيفية دوران الأرض مع سكونها الظاهر وتدبر قوله « إِنَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَنُكْشَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ » الآية التي ينسب فيها الى القوة الكهربية وغير ذلك من الآيات التي تدعش القارئ المتعلم ، بما فيها من الحقائق العلمية بشرط أن يكون ذا ملكة عربية ، يقدر بها أن يتدبر عمق غور تلك الآيات لا أن يكون أجنبياً عن أدب العربية . وقد ألفت العلامة الفلكي العظيم ، المتشطح النظير في علم الفلك والطبيعة والتقويم المرحوم الغازي أحمد مختار باشا كتاباً في تطبيق الآي القرآنية على العلوم العصرية ، جمع فيه نحو تسعين آية كريمة ، وأوضح ما جمعت من القواعد العلمية بأوجز لفظ وأقصر تعبير يعجز عن مثله البشر ، كما أنه شرح هذه النظريات كلها حسبما اتفق عليه علماء العصر الحاضر ، وأخرج منها وجود المطابقة طالعة كالشمس ، وبلغني ان أحد الضباط الأتراك ممن نبغ في علم الفلك والهيئة ، نبوغاً باهراً قد ألفت كتاباً ممتعاً جليلاً أجاد فيه الى الدرجة القصوى تطبيق قواعد هذا العلم على القرآن ، فعلمت بكتابيه هذا بعض جعيات النبشير المعهودة ، فأخذوا يراودونه في أن يبيعهم إياه بشمن جزيل لأجل أن يحرقوه ، ويخفوا من الأرض كتاباً فنيا يستدل به على فضل القرآن المجيد ، وانطيافه على العلم . وليس هذا بعيد عن هذه الجعيات المشهورة . ولولا كوثنا تتجاف عن المناقشات الدينية ، ونكرها واعتقد ضررها ، ونوجب حرمة الكتب السماوية التي تملك بها أديان محترمة كالدين المسيحي وشرعية موسى ، لأوردنا في مقابلة نهكم هذا الرجل بالقرآن أقوال العلماء المحققين من أبناء جللته الفرنسيين

في اطلال نظريات التوراة من جهة تكوين الارض وبدأ الخلق ولكننا نؤثر اجتناب كل قول يس عواطف هذه الملل الكريمة التي ترى أعظم خدمة للإنسانية إيجاد الوثام بينها وبين الاسلام . ولكن ان أتى الا المراء تخيله على كلام أ كبر فلكي فرنساوي المسيو فلاناريون الشهير ، في خاطراته من صفحة ١٧٠ الى صفحة ١٧٨ حيث يذكر أنه كان مؤمنا معتقداً ناشئاً نشأة دينية ، وبقى كذلك الى الثامنة عشرة من عمره ، اذ بدأت تخالجه الشكوك وذكر أسباب هذه الشكوك وأظهر أن أصلها هو عدم الانطباق بين الفن والدين ، وأتى هناك على قصة كوبرنيك ، ثم غاليليه الفلكيين العظيمين ، والحرم الذي صدر بحق الاول ثم الثاني . وان شاء التوسع في ذلك فليقرأ كتاب « اختلاف العلم والدين » للعلامة درابر الامريكاني وغيره مما لا شأن لنا فيه ، لانتا نحن هنا في مقام سياسي لا نتب أن نخرج عند رأتنا نكره المناقضات الدينية ، ولستنا على رأي النهايت على الكتب السماوية بالانتقاد والتخطئة كلها وردت فيها عبارة تخالف قاعدة علمية أو حقيقة فلكية فنتا نقدوها ، لان هذه الكتب إنما هي لغرض آخر أروى ، ولا بد من أن ينتظر فيها الى طاقة العوام في الفهم والآفات الغرض المقصود منها ، فضلا عما في آيات هاتيك الكتب المقدسة من السكنايات والمجازات المألوفة في اللغات التي جادت بها ، فلا بد لفارمها من أن يلحظ هذا الامر .

ثم قال ان الاسلام لم يوجد ليوجد الا في صحارى آسية الواسعة التي تتجلى فيها عظمتها ، ولا يصلح بين الأنهار والبحار التي تحده الاغنى بينها ضيقا كما في بلاد خط الاستواء حيث فصعب معرفة القبلة . وأيم الله قد وصل هذا الكتاب من الرفاعة ، الى حد أن صار الانسان لا يتنزل الى الجواب على كلامه أصلا ولقد ثبت أن الاسلام منتشر في خط الاستواء أكثر من كل مذهب آخر ، ولكن قد ظهرت نيته من هذه الماحكات ، وهي أن تحمل الحكومة الفرنسية على عدم الاعتراف بسلام السود ، ومعاملتهم كزوجة فتيشين انصرف الحكومة بهم كما نشاء في العقيدة كما أنه يوجد في جزيرة ماداغسكار قبائل كثيرة أسلمت بواسطة البطارئين على تلك الجزيرة من عرب زنجبار وجزر القمر ، فلم تشا الحكومة الفرنسية السيطرة على الجزيرة أن تعرفهم بصفة مسلمين ، بل بقيت تعددهم وثنيين ولا تعتبر مسلمين الا المسلمين الغرباء النازلين بالمواني ، وما المقصود من انكارها اسلامهم الا التعرض لهم في عقائدهم ورددهم عن الاسلام فسرا .

ثم لاجل ترغيب الحكومات الأوروبية في تنصير الزنوج ومنع انتشار الاسلام قال :
 ان اقلية ذات نال من السنغال صارت مسيحية ، وان اهلالي الاوغانده صاروا كلهم
 نصارى ، فليس الاسلام هو الدين الطبيعي للسود كما يقال دائماً . ونحن نجاذبه ان كانوا
 نصارى ، فهو افضل جداً عند الاسلام من أن يبقوا قسيسين يعبدون الوثن أو النار ،
 مظهر من مظاهر الطبيعة فان التصوراتية تزلهم من الانسانية وتبعث فيهم روح القسبية
 وتنتابهم من ذلك التوحش الذي كانوا فيه . وذلك بخلاف ما يمتنى كثير من الأوربيين ،
 الذين أعمى الغرض قلوبهم من أن يبنى الزنوج على القسبية ولا يصيروا مسلمين ، مع أنهم
 في دوائر ضايرهم يعلمون مزايا الاسلام العالية ورغبة أهالي افريقية فيه أكثر من غيره .
 أما قوله ان جميع أهالي الاوغانده صاروا نصارى ففيه مبالغة وهو مثل قوله ان بلاداً بأسرها
 مثل هرر صار أهلها نصارى . وهناك ما ورد عن الاوغانده في انسيكلو بيسية المسيو موريس
 قال Maurice Wale التاريخية الجغرافية ومؤلفها من غول شعاع ، فرنسا ، وهو مفقش
 المعارف العمومية في المستعمرات أي خير بأحوالها فهو يقول عن الاوغانده : « انها فطرت
 الشمال الغربي من بحيرة فيكتوريا نيانزا ، مساحتها ١٥٠ ألف كيلو متر مربع وأهلها مليون
 نسمة ، قد حصلت فيها قلاقل على أثر موت الملك متيزا بسبب المناظرات الدينية بين المسيحية
 والكانتوليك والبروتستانت ، وقد تغلب البروتستانت على الآخرين بعد صياط الانكار
 طم ، والاوغانده هي تحت حاية انكلترا » انتهى . فلنا ان الانكار اقتطعوا الاوغانده من
 أصل السودان المصري استبداداً من عند أنفسهم وضموها الى مستعمراتهم ، ولم يرضوا أن
 يبقوها من حلة السودان المصري ، لأن السودان المصري هو يزعمهم تحت حكم مشترك بين
 انكلترا ومصر فالانكار مضطرون أن يقبلوا ولو بالاسم بقاء حصة لمصر في حكم السودان
 المصري ، لكنهم يريدون أن ينفردوا وحدهم بتلك الاوغانده ، وقد عززوا البعثات
 البروتستانية هناك بكل قوتهم ، ولكنهم لم يقدروا أن يستأصلوا الاسلام من تلك الأرض .
 وأما عن هرر فيقول المسيو فال « انه قد افتتحها منليك نجاشي الحشة سنة ١٨٨٧ ، وكانت
 من سنة ١٨٧٥ تابعة لحصر ، وان أهلها ٣٥ ألف نسمة مسلمون شيعة . أما في دائرة المعارف
 الاسلامية فيقول ان أهلها ٥٠ ألف نسمة ، منهم الثلث من أهل البلاد الأصليين ، والباقيون
 بين سوماليين وأحبشاش وهنود وسوريين وأرمن وروم وأوربيين . الى أن يقول ان

الاسلام دخل حرر منذ سنة ١٠٠٠ للمسيح ، فهو فيها قديم جداً ولا يزال يطرأ عليها أناس من جزيرة العرب ومصر و يشنون دعوة الاسلام من حرر في بلاد غاللا Italia الوثنية ، وقد انقضت هذه الدعوة قليلا بعد مجيء الحبش المسيحيين ، لكن مسمي حرر لا يزال من معبودين من المشركين في دينهم » وقد ذكر السيوطي موريه Morie الفرنساوي في كتابه تاريخ الحبشة المطبوع سنة ١٩٠٤ . أن الأمير طور مثليك بعد أن فتح حرر وبدد جمع الأمير عبد الله على عبد الشكور ، هدم الجامع الأعظم في حرر وأقام محلة كنيسة . ولم يقل أن أهل حرر تركوا الاسلام ، ولا أحد قال انهم تركوه .

ثم قال انه كان عمل المشرى شافاً في البلاد الاسلامية ، فهذا من أجل كونهم يحاولون وضع عقيدة أمم رافية جداً محل عقائد أقوام هم في أدنى الدرجات . فنحن نساك لفر عن الرد على هذه الفقرة التي لا تدل على شيء سوى قحة كتابها على حين أن الاسلام هزأ بهذه المطامع على أن لا يكون يجعل نصرانية القرون الأولى (١) أيضاً من قبيل الاسلام من ملائمة للمستوى العقلي المنخفض ، فليشأمل الانسان وليتدبر في قحة هؤلاء الناس حتى على الدين الذي ينتمون اليه ، ويريدون بث دعوتهم بزعمهم .

وبعد أن أشار بالتضييق على التعليم الاسلامي ، ومراقبة من يواظب على صلاته من مسلمي السنيغال ، وبين مضار الحج ، وحرض على جميع هذه التدابير ، التي يعلم منها مبلغ احترام هؤلاء القوم للحرية الدينية ، عاد فأشار بالطرق الآتية الى قلع اللغة العربية من شمال افريقية ، وجعل الفرنسية لغة الأهالي .

ومن الغريب أنه استشهد على وجوب هذه الطريقة ، بكلام بول برت الذي يقول : أن حل المسألة العربية هو بالكتابة ، وأتمنى أن أرى في كل قرية من قرى المغرب معلماً عربياً ومعلماً فرنسياً ، فكلام بول برت كلام رجل عاقل مجرب لا غبار عليه ، وليس منا من ينكره أن يتعلم مسلمو المغرب وافريقية اللغة الفرنسية ، بل نود ذلك من جميع أقطابنا . وانما الذي يعارضه المسلمون بكل قوتهم هو أن نحل اللغة الفرنسية محل اللغة العربية ، وتعتبر هي لغتهم القومية ، إذ لا يوجد في الدنيا قوم يرضون بسلب لغتهم مهما كانت ، فما ظنك بالناطقين بالعربية التي يفشخربها كل منسوب اليها ، ويحل قدرها

(١) أي النصرانية التي هي قرية العهد من الزيد المسيحي والحواريين

حتى الغرباء عنها . وأما استشهاده بانتشار اللغة الفرنسية في الشرق وزعمه أنه قد تعلمها الأكراد والترك والعرب والأرمن والكرج الخ ، فمع كونه بالغ في دعواه هذه مبالغه عظيمة إذ ليس الأمر كما يقول ، وإن تعلم الفرنسية منحصر في الطبقة الراقية فقط ، فإنه لا ينطبق على الغرض الذي يتوخاه ، لأن مقصود هذه الفئة المستعمرة أن تتجسوا اللغة العربية تدريجاً من المغرب ، وتحصل الناشئة الاسلامية منذ الصغر على اللغة الفرنسية توسعاً بذلك الى نحو الاسلام ، القائم هناك باللغة العربية . مع أن الأمم الشرقية التي يذكر أنها كلها تعلمت اللغة الفرنسية لم تجعل هذه اللغة لسانها القومي ، بل جعلتها في مقدمة اللغات الأجنبية التي يناسب تعلمها لا غير ، فلذلك لم يحدث من تعلم الفرنسي أدنى محذور ما دام تعلمها اختيارياً لا يضر باللغات القومية ، بل يزيد عليها عاماً . ولكن متى حاولت فرنسا عمداً وفصداً قلع اللغة العربية رأساً أو تدريجاً ، وقصر المغاربة على الفرنسية ، قامت عليها القيامة في جميع تلك الأقطار وفي غيرها ، وأظن أن العقلاء في فرنسا يدركون استحالة ذلك .

ولقد تقدم في هذه العجالة ما يكفيننا مؤونة الرد على سائر كلامه ، الذي نخذه كثيراً ما يتقضى بعضه بعضاً ، ومن جهة تناقضاته أنه بعد كل جلالة الشبهة على الاسلام يقول انهم لا يحذرون في تونس من عامة الأهالي الراعين في السعادة والامان^(١) ولا يحذرون من الاسلام نفسه ، الذي أعلى نفوس هذه الأقوام ، حتى تحملت ما تحملته من الخطايا الفادحة . فعرف هنا أن الاسلام يعلى النفوس ، ويتنفض بالهمم . قال ولكنهم يحذرون من تلك الطبقة المتعامة الذين قرأوا أشياء فساءت هضمها عقولهم . ولعمري ما من أمة في الارض قام بتحريرها الا نبهاؤها والطبقة المتعامة منها فاما إذا قام الأروام أو البلغار أو الصرب أو الأرمن أو الكرج الخ ، بطلب استقلالهم كانت الطبقة النباهة منهم محل إعجاب اوربا وثنائها ، وعظفت جميع تلك الدول المتعددة عليها ، فإذا جاء الدور الى أمة مسلمة تطلب تحريرها ، قامت أوربا سداً في وجه مطالبتها ولو كانت هي اليوم أرقى من هذا نيك الأمم عند ما نهضت للاستقلال ؟ ماذا كل ما هب قوم من الشرقيين والمسلمين اطرح جر

(١) كما هم راضون أهل سورية الآن بل أهل سورية لا يزالون أسعد حالاً لأن اليد لما تقهت الى غصب أراضيهم وأوقافهم

العبودية عن أعناقهم رموا بالتعصب والتعنت ، وكراهية الأوربيين ، وقيل ان ذلك هو من عمل القرآن في قلوبهم ، ومن تحريض رجال الدين ، وان كان المطالبون منهم هم من الفئة التي طلبت العلم في أوربا ، وانصفت بعدم التدخين ، قيل انهم طبقة قد قرأت أشياء لتحسن هضمها ، هذه الجلالة التي لا تزال تجد دعا في كلامهم بكثرة وأصيلا ، كما نكلموا عن أمة اسلامية أو شرقية يطالب تهاوها بتحريرها قتلوا عنهم هذه الجلالة : قرأوا أشياء أساءوا هضمها .

أجل الكلام أنهم غلبوا على هذه المستعمرات واستعبدوا هذه الأمم ، فريدون أن يخطوا لأجل تأييد ساطانهم عليها بجميع الوسائل ، ولا يقفون عن شيء في سبيل احكام سلاسل هذه العبودية ، ظانين أنهم يحفظونها راسخة في هذه الأصناد الى الأبد ، فتراهم يشكرون في تهية الأسباب لاستئصال كل ما يخشون وقوفه في وجه ما آربهم البتة ، من دين ، ولسان ، وقومية ووطنية وما هم بقادرين على شيء من هذه المكاييد الشيطانية ، التي لا يزيدهم استعماطا الا خبلا . وان كان ثمة أمل بحسن العلاقات وتمكن الألفة بينهم وبين تلك الأمم ، فلا يكون الا سياسة العدل والمساواة ، واحترام ديانتهم ولغتهم ، والعدول عن تلك الأساليب الاستعمارية الخبيثة مما هو برنامج أحزاب الشمال منهم .

وان كان ظن هؤلاء الجماعة أن تصير السودانيين أو المغاربة ، يؤمنهم أيديا على تلك المستعمرات ، ويكفيهم شر استقلالها بما صرح به بقوله : « لسا في الجزائر كالانكليز بمصر انهم يعتمدون فيها على أقلية قبطية » . فهذا وهم عريق في البطلان ، لأن هؤلاء الأمم سواء كانت مسلمة أو نصرانية ستطلب استقلالها وتأخذ وأنت ترى أن أمما كثيرة ثارت على أمم كانت تسودها ، ولم يمنع من ذلك اشتراك السائد والمسود في الدين ، ولديك امبراطورية النمسا أعظم شاهد ، وان قيل ان ذلك يكون في أوربا المتقدمة لاني أفريقية أينما لك بمثل الخبث مع انكلترا ، ثم مع إيطاليا ، أفتحملت اللجنة حكم الطليان لكونهم نصارى وكونها هي نصرانية ؟ كلا . ثم يقول لسا كالانكليز الذين يتوكلون بمصر على أقلية قبطية . فهذه لعمرى مكابرة في المحسوس ، اذ يكاد أن يكون الأقباط بمصر أشد تمسكا باستقلال مصر وجلاء الانكليز عنها من أنفس المسلمين ، فأى توكلؤ نوكانه انكلترا عليهم ؟ وأعجب من هذا أن الزنوج الذين تنصروا في غربى أفريقية يكرهون الأوربيين

كما بكرهم الزنوج المسلمون وتجد الفريفيين متحايين يود بعضهم نجاح بعض ، وقلة تلاقى بعض المسلمين مع بعض كبار السودانيين التصارى في لندن ممن هم حكام في بلادهم تحت سيطرة الأوربيين ، فوجدتهم يتعنون فوز المسلمين كما يتعنون فوز أنفسهم . وفي العام الماضي تقابلنا في جنيف بأثنين من رجال جمهوريّة ليبيريا في غينية^(١) وكانا من الأوربيين يمثلان ليبيريا في جمعية الأمم ، فأخبرانا ان هذه الجمهورية التي تأسست سنة ١٨٢٢ لتعبد الذين تحرروا في أميركا ، واعترفت الدول باستقلالها سنة ١٨٤٧ ، يسكنها اليوم مليون ونصف مليون نسمة ، منهم مليون ومائتا ألف مسلم ، وثلاثمائة ألف مسيحي وبقية ٥٠٠ أوربي فقط . والمسلمون والمسيحيون هنالك يعيشون كالأخوة ، ويفارون جميعاً على وطنهم . فهذا سيكون مصير افريقية في يوم من الأيام بازاء المستعمرين ، ولا ينفخ الأهالي كون أهل افريقية من هذا الدين أو ذاك الدين .

ولأت بشاهد آخر على نيات الفرنسيين بحق مسلمي مستعمراتهم ، وهو كتاب للمسيور بر يفيه J. Harvie ، وإلى بلاد النيجر الفرنسي ، الذي عليه صفة رسمية ولا يمكن أحداً أن يماري بقوله انه كاتب مفرد برأيه الخاص ولا انه نال من الصبغة الحكومية . فانظر ماذا تقول جريدة الاوفر L'oeuvre ، المعروفة انها من الجرائد الحرة ومن حزب الراديكال في عددها المؤرخ في ٢٢ يونيو سنة ١٩٢٣ . تحت عنوان :

الجنس الأسود والاسلامية

قد نشر المسيور بر يفيه حاكم مقاطعة النيجر كتاباً ممتعاً ، يشرح فيه المقاومة الناجحة التي تبديها الأمم السوداء للإسلام في السنين الأخيرة ، حال كونه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، غلب الاعتقاد بأن جميع الأجناس الزنجية صائرة الى الاسلام لاحالة ، فلآن مشهودة حركة بالعكس ، وبالرغم من الوعظ والارشاد الذين يقوم بهما المبشرون المسلمون تجد الزنوج متمسكين بعقائد آبائهم وعادات أسلافهم .

فالمسيور بر يفيه في كتابه المسمى « الاسلامية ضد الطبيعية . في السودان الفرنسي » *Islamisme contre Naturalisme au Soudan Français* يعترف أنه مهما كان من مدنى القتيشين في درجات الحضارة فليس من المستحيل عليهم الترفى والتندن ضمن دائرة

(١) افريقية الغربية

قوميتهم وخارجا عن الاسلام . ففي السنين الأوائل من استيلاء فرنسا على غربي افريقية كان عمالنا بسبب معرفتهم المذهبية الاسلامية يميلون الى دعاة الاسلام الذين أمكنهم هكذا ان يتوا بكل امان نعاليم هي في الظاهر أرقى من عقائد الفتيبيين (نأمل) ثلما الآن فتقهقر لدعوة الاسلام ، أمر لم يبق فيه شك . وان احصاء عدد الناشئة المتعلعة من المسلمين يتنافس في بلاد النيجر ، كما انه لم يتقدم الى الامام في سائر البلدان التي امتد اليها الاسلام من قبل . وقد عزا المسيو بر بفيه هذا التقهقر الاسلامي الى تنافس عدد الزعماء . والى ازاياد عدد مدارسنا التي زاحمت مدارس المنايخ المرابطين ، والى الغاء تجارة الرقيق التي هي من الأركان الاقتصادية عند تجار المسلمين ، والى الأمر بعدم مراجعة قضاء الشرع .

فلآن سياستنا عامة بهذه المبادئ ، وقد توزع بلاع على مأموري الادارة مصرح فيه بما يأتي : « يجب التزام الحياد مع الانتباه التام بحيث ان كلا من فريق الاسلام والفتيشية يمكنه أن يترقي وينمو في وسطه بدون تسلط هذا على عقيدة هذا » .

وقد وجد الأنسب حفظ تلك الهيئة الاجتماعية ، التي كان لها في الماضي زعماء تمثل عاداتها ، والتي هي الصورة الحقيقية لمزج ذلك العرق الأسود وابقاء تشكيلاتها البلدية البنية على مبدأ الشيخة ، والعمل بأحكام قضائتها ، الذين كان يضرب بعضهم مثل حتى يقال ان الحكم الذي قد استوفى شروطه : « هذا حكم من أحكام البامبارة القديسة » .

والحقيقة أن الغرض هو احياء عادات الزنوج القديمة وتقاليدهم الموروثة التي نشأوا عليها ويقول المسيو بر بفيه : « انه يوجد من ذلك فواعد قضائية كافية لأجل حل المشكلات الاجتماعية وفصل الخصومات الفردية ، وهي من وجوه كثيرة لانقل متانة عن الشرع الاسلامي . وانه يجب علينا أن نجتمع تلك الهيئة الاجتماعية ، التي توشك أن تنحل ، والتي هي منفردة أشتانا حول تلك الأصول القديمة . انتهى » .

فليسمح لنا الفاري أن نأخذ من هذا الكلام النتائج الآتية :

أولا - ان كتاب ماكم مغاطعة النيجر الفرنسي ، والمنشور الرسمي الذي أشار بصورته الى مأموري الادارة يدلان دلالة واضحة على كون فرنسا قد بدأت تقاوم انتشار الاسلام بنفوذ الحكومة ، وان عبارة وجوب الحياد مع الانتباه لمنع تسلط عقيدة أمة على أخرى ، هو من قبيل التموه ، فانه ولا في وقت من الأوقات تسلط الاسلام بالقوة في المستعمرات

الفرنسية على عقائد الفتيشيين ، كما أنه ولا في وقت من الأوقات روج عمال الحكومة الفرنسية في المستعمرات الدعوة الإسلامية ، بل غاية ما هناك ان عمال الادارة الفرنسية لم يكونوا يناصرون الدعوة الاسلامية العداء ظاهراً ولم يجتهدوا في منع انتشارها كما هم يجتهدون اليوم ، وذلك كان منهم عملاً يبدأ الخربة الدينية المشهور ، فلأن لما هاهم تقدم الاسلام بين الزوج فرروا توفيف نموه فعلاً ، بحجة أنهم لا يسمحون بتسلطه على عقائد الفتيشيين . ونحت هذه الجلة « منع تسلط عقيدة على أخرى » ، يعملون ما يشاءون لمنع الشايخ المرابط من بث دعوة الاسلام بين السودانيين ، واقفال المدارس التي يمكن أن يفتحها المسلمون في قري الوثنيين ، وغير ذلك من التدابير التي ليس على الفرنسيين فيها من رقيب ولا حسيب هناك ، ولا ينتظر القارى أن يجدها مكتوبة على الورق وان كانت جارية بالعمل . ولا شك ان اغتباط حاكم النيجر بعدم تقدم الاسلام ، في هذه السنوات الأخيرة فيما بين الزوج ، ونفاؤه بحسن المستقبل ، هما من آثار التدابير الحكومية التي اتخذتها فرنسا لمنع انتشار الاسلام ، والتي يشربها روجر لابون وأمثاله ، لوقف الدعوة الاسلامية في غربي افريقية وأواسطها . وثقد ظهر هنا اننا كنا على صواب في قولنا ان آراء روجر لابون لم تكن آراء فرد مستقل بفكره ، بل هي آراء الحزب الأغلب بفرنسا بدليل كتاب الميوري فييه هذا ، والأوامر الرسمية الصادرة في هذا المعنى .

ثانياً - يظهر جيداً من قول الحاكم المذكور ، وكلام جريدة الاوفر ، أن الفرنسيين عولوا على احياء عادات الفتيشيين وعقائدهم ، واجراء الأحكام بموجبها ، ومعلوم انه لم يكن ذلك اعجاباً بها ولا اعتقاداً بأنها تشبه الشريعة الاسلامية في شيء ، بل من باب اختيار أهون الشرين عليهم ، فانهم لما رأوا دعوة التبشير الأوربي غير ناجحة بين الزوج كما يرومون ، والله لانسية بين ما يكسبه الاسلام وما تكسبه النصرانية في افريقية ، بسبب كون الأسود يكره الأوربي فطرة وينفر من تقليده في دينه ، عادوا فرأوا ان بقاء الفتيشيين على عقائدهم الوثنية هو أوفق لمصلحة فرنسا من تدنيهم بالاسلام ، فوجدوا الاحزم أن يعملوا لتأييد الفتيشيين ، ويعملوا عاداتها وعرفها قوانين جارية معمولاً بها ، ويعترفوا بأفضية الفتيشيين ، وبالجملة فسكل شيء يهون عند الأوربي — الا التندر الاندر — بالنسبة الى فوز الاسلام ونجاح دعوته .

ثالثا - من كلام الميسور ينيين أنهم بدأوا بقصر القضاء الشرعي الاسلامي ، لقوله ان من جهة أسباب تناقص التنش الاسلامي ، هو « الأمر بعدم مراجعة قضاء الشرع » فانت ترى ما في ذلك من الاخلال بمبدأ الحرية الدينية ، ومن معارضة المسلمين رأسا بأمور دينهم ، على حين ان الفرنسيين في الوقت نفسه يريدون احياء أفضية الوثنيين ، ويجعلون اصطلاحاتهم القديمة قوانين وأصولا يرجع اليها في الأحكام . ولا يبعد أن يكونوا قد اجبروا أنفس المسلمين على مراجعة قضاء الوثنيين توهينا لنفوذ الشريعة الاسلامية ، الذي هو هدفهم المرمي المتجلى وراء كل حركة من حركاتهم وتدابيرهم . وان لم يكونوا اجبروا جميع المسلمين على ذلك ، فلا بد أن يكونوا ساقوا الى ذلك الزنج ، الذين أسلموا حديثا ، لأنه ظهر ان الحكومة الفرنسية عولت على ان لا تعترف باسلام من يريد أن يدخل في الاسلام من الآن فصاعدا من الأمم السوداء ، وقد أسلمت قبائل كثيرة في باداغسك ، فلم ترض السلطة الفرنسية في تلك الجزيرة أن تعصمها في المسلمين ، ولا أن تعدها مسلمة بوجه من الوجوه ، واحتجت لعمليها هذا الخلف لسبب حرية دينية ، بأن اسلام تلك القبائل هو خليط بعقائد وثنية . وربما يكونون اجبروا على التقاضي عند قضاء القبائل الوثنية من كان قد أسلم من هاتيك القبائل بحجة أنهم كلهم من أصل واحد ، فأنتم « البامباره » هذه المنتشرة في السودان الفرنسي ليست بأجمعها وثنية ، بل منها قسم كبير لاسيا أهل كارنا Karna مسلمون . والا فامعنى قول الميسور ينيين ان من جهة أسباب تناقص الناشئة الاسلامية ، الأمر بعدم مراجعة قضاء الشرع الاسلامي ؟

رابعا - قيد نوه الميسور ينيين حاكم النيجر وتابعته جريدة الاوفر بحسن قضاء البامباره ، ومثانة أصولهم وأوضاعهم ، وظهر أن الفرنسيين يريدون أن يجعلوها دساتير الاحكام وصرح الحاكم المذكور انها لا تقل عن الشرع الاسلامي مثانة ، وغير ذلك من المزايم التي حملهم عليها مجرد رغبتهم في منع العمل بالشريعة الاسلامية . والحقيقة انه ليس عند البامبارة شيء من هذا ، فالبامبارة جيل من السودان الفرنسي يحصد بلادهم شمالا السودان الذي يسكنه المغاربة من كولودوغو Koulougu الى تامباكاره Tambakara وجنوبا السفيغال الأعلى من مدين Medine الى بافولابه Bafoulabe أي بين ١٣ الى ١٤ من العرض الشمالي و ٦ الى ١٠ من الطول الغربي (من باريز) وهم أهم أجيال الجنس

المالدى . وقد وصفهم السباح الأوربيون بالعمل والحرص ، والاقتصاد ، أما عاداتهم وأوضاعهم ففطرية ، إذ الأب هو رئيس العشرة والمتصرف بها كما يريد ، والأولاد إلى سن الرشد أرقاء له ، وهو يزوج بنته بدون علمها كما أن الثبوت متى تزوجت صارت أمة لبعليها ، والطلاق عندهم مباح ، كذلك تعدد الزوجات ، والأثر ينتقل من الأخ إلى الأخ . وكانوا ينقسمون إلى طبقات ثلاث ، الاعتراف وهم المحاربون ويقال لهم تونتيقي ومعنى تونتيقي قوائم ، هم الفلاحون ، ثم العبيد ، أما الآن فبرأسهم الامر الملوكية القديمة مثل بنى «كاروبالى» و «دياره» و «ماسامى» ويأتى بعدهم طبقة يقال لها «نومو» أى الخدادون ، ثم طبقة يقال لها «غارالعوى» أى صناع الجلد ، ثم طبقة السحرة ، ثم الأرقاء . وكل قرية من قرأهم ، لها زعيم يفصل فيها الخصومات بموجب أصول ينوارها الخلف عن السلف . وهذه القرى المرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً واجباً لا تشد أو أخيه فيما بين البامبارة إلا عند قتال عدو عام ، كما حصل في حروبهم مع الاسلام . وللبامبارة لغة اسمها «البامانكا» هي من جملة لغات امه المالدى ، وهي في منتهى الاختصار ، فليس من حالات للاسماء ولا للأفعال ، بل هي تلزم حالا واحدة في المفرد والجمع والمذكر والمؤنث والحاضر والماضي والمستقبل . والكتابة عندهم قليلة وإنما يستعملون لها الحروف العربية ، وليس لغتهم آداب ، وإنما هي اختبار وفحص لا تنتهى إلى أبعد من القرنين الأخيرين ، وبعض أغاني يرفصون عليها . وأما ديانتهم فهي وثنية محضة ، وكل عائلة عندهم لها حيوان معبود اسمه تنة Tene لا يفسرون ان يقتلوه ، ولا أن يأكلوه ، ولأن ينظروا إليه أجيالا له . ويعتقدون ان الأسلاف ، هم حافظون للاخلاف ، لذلك يدفنون موتاهم في دهايز بيوتهم ، ويضعون اشارات على مدافنهم كصور وجوه أو أيدى ، ويقدمون عليها القرابين ، ومن قبل كانوا يذبحون الأسرى . وكثيراً ما يعبدون أشجاراً يذبحون أحامها الحيوانات قرباناً ، من غنم وكلاب وديكة ، وربما قدموا لها الفواكه والخبوز . وهم يسيجون مثل هذه الأشجار المقدسة بالعقيق . وأما السحرة ، فهم عندهم بمثابة الكهنة يخرجون من طبقة الخدادين . ولهم جمعيات سرية ، ويتكهنون بالمغيبات ويفحصون احشاء الحيوانات التى تغرب يذبحها ، ويطوفون في الليالى بين القرى مرتدين البسة مخيفة يقصدون بها لقاء الرعب . وليس للبامبارة تاريخ معروف سوى انهم كانوا من جملة الاجيال

التابعة لسلطنة مالي الإسلامية ، فلما سقطت هذه السلطنة أصبحوا مستقلين بأنفسهم ، وأسس أحد زعمائهم المسمى « كالاديان كور وباري » على البلاد الواقعة على ضفتي النيجر مملكة واسعة ، وقام من بعده أولاده فتنازعوا فيما بينهم حتى آل الملك إلى أحد أحفاده المسمى « ينو » ، فجمع تحت حكمه جميع بلاد البامبارة وملك مدة ٣٠ سنة ، وخلفه ابنه فوسع مملكته ، ثم جاء ملك اسمه « نقولو » فوسع مملكته حتى حدود تمبوكتو . وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر كان منهم ملوك أعزة في « سيفو » و « ماسونغ » و « دودبارة » تغلبوا على بومبارية « كارتنا » وضربوا الجزية على أهل « ماسينا » و « فوتا » (١٨٣٠) وكان لهم إمارة أخرى في « السكا آرتنا » أسسها في أواسط القرن السابع عشر « ماسا كالا » ابن كالاديان كار وباري ، ثم انتقل الملك من أعقابيه إلى إمارة أخرى صاحبها « سبه ماسا » استمرت في أعقابيه إلى أواسط القرن التاسع عشر في « نيورو » هذا هو ملخص تاريخ البامبارة .

وفي أواسط القرن التاسع عشر ، ظهر الحاج عمر الشهير ملك « النيكولور » فاستولى على السكا آرتنا وأزال ملكها ، وزحف إلى مملكة سيفو ، وكان ملكها قد تحالف مع ملك ماسينا ضد الاسلام ، فسقط كلاهما ودخل الحاج عمر إلى سيفو في ١٠ مارس سنة ١٨٦١ وأقام بكر أولاده ملكا عليها . ولكن البومبارة اتفقوا عدة مرات على المسلمين ، وفاز منهم قوم « البلديغو » بالاستقلال ، وقطعوا ما بين سلطنة النيكولور ومملكة سيفو ، ودام ذلك النزاع إلى سنة ١٨٩١ ، إذا وصلت الجيوش الفرنسية واحتلت البلاد وأزالت سلطنة النيكولور الإسلامية ، وجاء في دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية ، أن البومبارة يتلون في السودان الفرنسي ، العنصر المخاصم للإسلام . وقد أيد هذا القول كلام حاكم النيجر في كتابه السابق الذكر ، وسياسة الحكومة الفرنسية التي يظهر أنها تريد لتجني العداوة التي كانت عند هذه الأمة للإسلام . وتجعل البامبارة سداً في وجه المسلمين . فلما الأصول والعادة التي أشار المسيو بريفييه إلى منازعتها من تقاليد البومبارة ، فقد مر بك من خلالها ما تعلم به انحطاطها وانحطاط عقائد أولئك القوم ، الذين يعبدون الحيوان والشجر ربما أشبه ذلك ، ولا يخجل المسيو بريفييه من أن يقول : « إنها لا تقل عن الاسلام متانة وإن تعاليم الاسلام هي - في الظاهر - أرقى من تعاليم الفنيشين » . ومعنى كان الوالي من

ولاية الفرنسيين على تلك الديار ، يبلغ به التعصب وموت الضمير حد أن يقول مثل هذا القول ، فإذا تأمل من عمله وانصافه بين هاتيك الرعية ...

خامساً - تحقق هنا بالرغم من تمويه الأمر الرسمي الذي يوصى بالمساواة ، أن فرنسا تحاول هناك بنفوذها وفوتها ، وكل وسيلة لديها ، أن تمنع انتشار الدعوة الإسلامية ، وتفضل ، أن يبقى الزنوج على عبادة الحجر والشجر والكلب والهر وغير ذلك ، على أن يدسوا بهذه الديانة السامية النقية ، التي هي الاسلام . وهذا لعمري منتهى الغلو في العدوان ، إذ لا يشك أحد في كون المسلمين يريدون ان كان هؤلاء الزنوج لم يشرح الله صدرهم للاسلام ، أن يدين هؤلاء بالنصرانية ، ويردوا شرعة تهذيبها ، ولا يستمروا على تلك العقائد التي لا تليق بالانسانية . ولقد تذكرنا بهذه القضية قصة رواها المؤرخون ، ونقلها المستشرق الفرنسي العلامة البارون « كارادوفو » Karadovaux في كتابه « ابن سينا » وهو أن الخليفة المأمون العباسي سينا كان مرة غازيا بلاد الروم ، مر ببلدة حران ، فالتقى أناس بزى غريب وأتواب ضيفة يرخون ذواتهم فأسلمهم : من أتم ؟ فقالوا : حرانيون . فقال : أنتم نصارى ؟ قالوا : لا . قال أفيهود أتم ؟ قالوا : لا . قال أعضدكم كتاب اهل آبر لكم رسول ؟ قالوا : لا . قال لهم : ان كنتم لا ترغبون في الاسلام ، فتنصروا ، أو تمهدوا ، واتخذوا ديناً يعرفه الاسلام . فانت نرى أن المسلمين لا يضيق صدرهم بنصرانية الوثنيين ، ولكن الأوربيين يفضلون كل انحطاط فتنى على كل معالى الاسلام ، وهم مع هذا يدعون خدمة الانسانية والمدنية .

ونختم هذا المقال بكلام قاله الحاج عبيد الله الجزائري نزيل برلين ، في مقالة نشرها في مجلة العالم الاسلامي الألمانية ^(١) وذلك على « الآباء البيض » الذين أسس رهبانيتهم الكردنيال لا فيجري ، وأرسلهم يطوفون في بلاد الاسلام بأفريقية بزى المسلمين ، ويدخلون في كل ناد وشعككون بكل عائلة ، ويتوسلون بكل وسيلة لاجل بث دعوتهم بين الناشئة الاسلامية ، متسلحين لذلك بنفوذ الحكومة الفرنسية ، التي هي عضدهم أبنا ذهبوا وكيفما انقلبوا . فبعد أن أفاض الحاج عبيد الله الموما اليه ، وهو من خبرة رجال العلم والادب ، والمتكئين من اللغة الفرنسية في ذكر الفتن التي أحدثها هؤلاء الآباء البيض

(١) التي كان يمدحها أثناء الحرب الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويز والاستاذ عبد الملك بك حزة

في وسط الأسر الإسلامية بالمغرب ، والعقائد التي تخلخلت على أيديهم ، والبشوق التي انفتقت بواسطة منهم ، وكيف أن الحكومة الفرنسية - التي يقولون أنها لا تقوم بدعوة دينية - كانت تميز المنتصرين على غيرهم ، وتعفيهم أحياناً من العقوبات ، وتستغنيهم مما لا تستغني منه غيرهم ترغيباً لهم ، في أن يصبأوا عن دينهم قال ما يأتي : « نحن لا نريد أصلاً بهذا أن توجه أدنى طعن على الدين الكاثوليكي ، ونحن نعلم أن جميع الأديان جيدة ، وأن كلامها يدعو المتمسكين إلى الفضيلة وحسن التربية ، ولا تعرض فيما لو كان المسلم يصبأ عن دينه باقتناع وجداته ، وإنما دعوة الآباء البيض لها شكل آخر ، قائمهم يهجمون على الإسلام في كل مكان ويحولون بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، ويخربون نظام العائلات فيضطرون الأب أن ينسكروا له ، والأخ أن يهجر أخاه ، والعشرة أن تبرا من بعض أبنائها . وغالباً يخرج مثل هؤلاء الذين اجتنبهم الآباء البيض مفسدين لا هم من الحياء لا في الإسلام ولا في النصرانية . »

ونحن نرى أن إرخاء العنان للآباء البيض في بث الدعوة الدينية بين مسلمي إفريقيا ونحرض فرنسا بهذه المسائل ولو من تحت ستار مما يضرها في سياستها ، ويجر عليها من المتاعب أضعاف ما تنوحي ربحه ، فإنه لا يهيج الاحقاد ولا يورث الضغائن شيء ، مثل المتازعات الدينية ، التي لا يفلح قوم جعلوها قطب ربحي سياستهم .

الاسلام في افريقية^(١)

لبنكريس

من أعظم الكتب المؤلفة في هذا الموضوع كتاب

« الاسلام والنصرانية في افريقية » تأليف المسيو بونيه موري

L'Islamisme et le Christianisme en Afrique G. Bonet Maury

وقد نقل عنه المستر ستودارد بعض أشياء ، ونحن نلخص منه ما يأتي ، لأنه جمع
فاوعى في تاريخ مسابقة الاسلام والنصرانية في القارة الافريقية . قال :

« ان الاسلام انبسط على افريقية الشمالية الغربية ، فتحولت هذه الاقطار دار
اسلام رغبة أو كرهاً ، لكنه افتتح افريقية الشرقية سلباً . وكان مبدأ ذلك بواسطة تجار
العرب والهنود الذين كانوا يقدون على تلك الديار زرافات ، فوصلوا الى رأس Guardafui
والى جنوبى Capricorne . ولقد وجد منذ القرن الألف بعد المسيح مسجونون فى كيلوان ،
على أكثر من ٢٠ من العرض الجنوبي أدنى من زامبازو Zambeze » الى أن يقول :
« فى أواخر القرن الحادى عشر (للمسيح) طغت أكثر الكنائس الارثوذكسية التى
كانت ممتدة على ساحل افريقية الشرقية ، ومن مصر الى المغرب الا بعض جماعات البنت
أشبه بجزر صغيرة مجهولة ، فى وسط الافيانوس الاسلامى . ولكن هناك كنيسة بقيت قائمة
على صخرة المثانة معنصمة بجبالها ، وهى الكنيسة الخبشية التى يركزها وشجاعة أبناءها
الجبليين ، صلت جميع غارات الاسلام . وقد كان هؤلاء الأحباش من أتباع الكنيسة
المنشقة ، لا يعرفهم الكاثوليك الرومانيون ، ولا الارثوذكس البيزنطيون » .

ثم قال : « بعد أن وطد دعاة الاسلام دعائم هذا الدين فى جميع سواحل افريقية
الشمالية ، قصدوا داخل البلاد ضاربين الى الصحراء التى يسكنها البربر ، وفاقفوا فى ذلك
أساففة افريقية اللاتينية الذين فى أوج عزهم وسلطانهم لم يفكروا فى نشر الدين المسيحى
فى تلك الجهات . فزنوج السودان تلقوا القرآن من جهتين احدهما البربر المسلمون ،
والثانية قوافل العرب ، التى كانت تتفرق فزان والواحات الى تمبوكتو . فبلاطين دولة المرابطين

(١) راجع صفحة ٣٠٦ و ٣٠٢ من الجزء الاول

وكانوا منحمسين جداً في الاسلام ، خرجوا من مراکش فاصدين أواسط افريقية لجل أهالي بلاد غانة ومالي على الاسلام ، فظهر أبو بكر بن عمر من أعوان الملك سني على ، وهو بربري الأصل ، وشهد مملكة السونغاى في غانة سنة ١٠٨٧ ميلادية وهؤلاء السونغاى هم من الجنس التوبى ، رحلوا من مصر العليا عند الفتح العربى ، وكانت لهم دولة لم تبدأ بالانحطاط الا في زمن فتح المنصور (السعدى) سلطان مراکش لمسودان .

فقد رواقى سلطانه الى أبعد من زاوية النيجر ، وجيع البلاد المعروفة الآن بساحل الذهب ، والداهومى ، وبلاد نيجيريا الى بحيرة تشاد . وقد كانت هذه السلطنة تنقسم الى أربع ممالك ، وكانت فاعلتها جنة Djenné التى كنت ترى فيها التجار والعلماء من المغرب الأقصى والجزائر ومصر ، وكانت سفائن هذا السلطان تسرى في النيجر ، وفوافل الصحراء تحمل البضائع الى أطراف هذه السلطنة ، فنقل الذهب والعاج والنحاس والمك ، ودين شمد . وانهت المراتلون في القرى ، يعلمون القرآن والكتابة بالعربية . وكان أبناء المشايخ يأتون الى تمكتو لتحصيل العلم ، فلم تكن تمكتو سوقاً لتجارة أواسط افريقية فقط ، بل كانت دار علم انتشر ذكرها حتى سواحل البحر المتوسط . ولما مات أبو بكر بن عمر في سنة ١١٢٠ ، كانت بلاد النيجر أو نيجيريا الى حدود الكونغو اسلامية .

هذا ما كان من جهة البربر وأما العرب ، فإن إحدى فصائل بني حلال تقدمت من نواحي طرابلس الى واحة « ودان » ومن هناك الى « والانه » ثم تقدمت نحو السودان ، فتلاقفت مع البربر الآتين من الشمال العربى واختلطت بهم ، وصارت تمكتو التى اختطها الطوارق في سنة ١٠٧٧ ، مركزاً للدعوة الاسلامية نبت منها الى كل الجهات .

وفي الجنوب الغربى وصل الاسلام الى اليامبارة bambarras والمادينغ Madinges والبله Peulls ، الذين في القرن التاسع عشر صاروا أشد حمانه وأجهد دعائه ، في بلاد النيجر والسينغال الأعلى . وكان في بلاد المادينغ المسماة بلاد المل Mele قد أسلم الزعماء والأشراف والتجار منذ القرن الثانى عشر ، وبقى العامة فتمشيين . ووصل الاسلام في الجنوب الشرقى الى بحيرة تشاد ، في القرن الثالث عشر . وأما في الشمال الشرقى ، فكانت الغالة Gallas والتوبة ، قد دخلوا في الاسلام بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٣٥٠ .

ثم قال تحت عنوان « مساعدة الاسلام على تدوين افريقية » ما يأتى :

« لم تنظر الى الآن نتائج الفتح العربى الامن الوجهة الدينية ، مع انه يجب أن نعرف هل كانت للمسلمين في هذه الصفحة الأولى من استيلائهم (٦٣٨ - ١٠٥٠) يد في مدينة افريقية الشمالية أم لا ، وهل كان لهم سهم في نشر العلوم والآداب والصناعات ، أم لا . ففي هذا المقام يلزم أن نفرق بين مصر والمغرب ، لأن الفرق بين مدينتي هذين القطرين الذي أولاهما أخذ عن اليونان ، والثاني عن الرومان ، لم يخل من التأثير في ثقافته الاسلامية .

فلننظر أولاً الى مصر وقبل كل شيء يجب أن نصحح خطأ شاع طوال القرون الوسطى ، وهو أن العرب أحرقوا مكتبة الاسكندرية بأمر الخليفة حمير . والحال أن العرب في ذلك العصر كانوا أشد إعجاباً بعلوم اليونان وفنونهم ، من أن يقدموا على عمل كهذا . كما أنه معلوم أن قسماً من تلك المكتبة ، كان احترق في أثناء ثورة الاسكندرانيين ، التي احترق فيها أسطول فيصر ، وأن قسماً آخر أحرقه المسيحيون في القرن السادس . واحتفظ العرب القبط طائفة وتركوا للقيط بنفس ، ولم يعرضوا القبط في دينهم ولا عاداتهم ، وأطلقوا لهم الحرية في انتخاب البطريرك ، وبناء الكنائس . وغاية ما أبطل عمرو من العادات القديمة ، هو ما كانوا جارين عليه من زمان الوثنيين ، من رمي قناة في النيل كل سنة التماساً لفيضانه .

وبعد أن انفصلت مصر عن بغداد ازدهرت المعارف والفنون في مصر ، وتأسست بمصر المدرسة الجامعة الباقية الى اليوم ، وهي الأزهر . وكان لها مكتبة فيها ٦٠٠٠ مجلد ، وكرتان تمثلان الأرض ، وبني مرصد فلكى ، اشتغل فيه علماء من الطبقة الأولى مثل ابن عيين صاحب الزيج الحاكمي . وصحح العرب معارفهم الفلكية وبتدقيقات سباحهم ، أكثر نظريات الجغرافيين اليونانيين ، ويكفيك ذكر المسعودي وابن حوقل وابن بطوطة وأبي الحسن لظهور شأو العرب في علم الجغرافية ، وإن من الأسباب التي دعت الى احتفال العرب بهذا العلم ، ما فرضه القرآن من الحج ولو مرة واحدة الى مكة . أما في صنعة البناء فمع كون العرب احتذوا شيئاً على مثال البيزنطيين ، لا ينكر أنهم تركوا فيها آثاراً خالدة مثل قصر الخلافة في القاهرة ، ومثل القبة ، وزينه بقرب بلرمو (في صقلية) ، ولا ننس من المساجد جامع الحسن ، وجامع عمرو ، والأزهر . الى أن قال :

أما انتشار العلوم والآداب في المغرب ، فقد كان بطيئاً في البداية بسبب مقاومة البربر لها ، والفتن التي وقعت بين أمراء الاسلام . ولكن فيما بعد شيدت المدارس والمساجد

في القيروان ، وبجاية ، وتلمسان . وكان في بجاية في القرن الثاني عشر علماء نوابغ ، وفيها كان المتصوف الكبير أبو مدين ، وفيها تعلم ليونارد بوناكسي الحساب والجبر والهندسة . وكان في تلمسان أيضا مدرسة شهيرة أقرأ فيها ابن خلدون وغيره . وفي القرن الماضي تخرج فيها محمد السنوسي . وهناك جوامع شهيرة في الحسن مثل جامع سيدي عغبة ، المبني على مرقف الفاتح المذكور ، وجامع سيدي أبي مدين في ضواحي تلمسان ، ثم الجامع الكبير في القيروان . وكل هذه لانداني في الزونق والبيها ، جوامع مراكنش . (وأطال في وصفها)

وخلصة قصار هذا هو ما يأتي :

« ان حصة الاسلام في مدينه افريقيه كانت أقل من حصة النصرانيه فيما يتعلق بتثقيف الأهالي وتربيتهم ، ولكنها أهم في العلوم الصحيحه وصنعة البناء » .
ثم قال تحت عنوان « قيام النصرانيه لأخذ النار » تنقيحاً ملخصاً لطول شرحه :
« في القسم الاول من القرون الوسطى ، أهملت أوروبا المسيحيه افريقيه ، الا ما كان من مساعي بعض الباباوات . ولكن تألفت فيها بعد الزهانيات وحدثت الحركه الصليبيه ، وكانت سيره مسلمي المغرب ومصر والشام الى ذلك الوقت تجاه النصارى ، سيره تسامح وتساهل ، لا بل سيره ولاء واحسان ، بخلاف الآمهم المسيحيه التي كانت سالكه تجاه الاسلام خطئه البغض والعبدوان ، بدون رحمة ولا هواده . ثم لما وقعت الحرب الصليبيه استمد مسلمو المشرق مسلمي المغرب لقتال الصليبيين فشظف المغاربه عن هذه النجده لسبيين ، أحدهما كون المغاربه بربراً أكثر مما هم عرب ، فلذلك كان اسلامهم قاتراً ، الثاني كون جيرانهم الفرنج ذوي علاقات تجاريه معهم ، ولم يكتفوا بطالبونهم بمالك وبلدان كما كانوا يطالبون مسلمي الشرق ويتقاضونهم أن يتخلوا لهم عن بيت المقدس . ثم بلغت العلاقات بين ملوك المغاربه والافرنج ، أن كان أمراء تونس ومراكش يستخدمون في جيوشهم جنوداً من الافرنج يأذنون لهم بإقامة شعائر دينهم علناً ، في السكن التي ينزلون بها ^(١) ، وكانت قد انعقدت عدة معاهدات بين الأوربيين والمغاربه في القرن الثاني عشر والثالث

(١) يقال ان المؤمن أحد سلاطين الموحدين كان عنده عشرة آلاف جندي افريقي ، وكان قد شيد

لهم كنيسه في عاصمه مراكش

عشر، أشهرها معاهدة بين جمهورية ييزا، وساططان المغرب، وأمراء تلمسان، وجزر الباليار — عند ما كانت للعرب (٢٥ يونيو ١١٣٣) — . ومعاهدات بين جمهورية جنوى، والسلطان عبد المؤمن (١١٣٥). فكانت هذه المعاهدات تضمن للفرنج دناءتهم وأموالهم وتيسر لهم أن يتحالفوا عند قناصلهم، وأن يقيموا شعائر دينهم جهرا وكان ملوك الاسلام هم الذين يعطونهم عرصات الأرض اللازمة لبناء الكنائس والمقابر، ومن الوثائق المشهورة الشاهدة بعظم التسامح الذي كان عليه ملوك الاسلام لذلك العهد، المعاهدة التي عقدها أبو عبد الله المنتصر صاحب تونس مع فيليب الجرى ملك فرنسا، وشارل دوق انجو، وتيسو ملك نافار سنة ١٢٧٠ وذلك بعد وفاة القديس لويس ملك فرنسا، والتي جاء بها في الشرط السادس « ان الرهبان والقسوس المسيحيين، يمكنهم أن يقطعوا في ممالك أمير المؤمنين ونعطي لهم الأرض اللازمة، لبناء الكنائس والاديرة، ودفن الموتى. وللرهبان المذكورين أن يقيموا شعائر دينهم، ويلقوا المواظ علناً كما لو كانوا في بلادهم ». فكثر بذلك عدد النصارى في بجاية وسر دوينة بقرب القيروان، وكذلك في المغرب الأقصى، حتى كان لهم مطران يقيم بفاس. ثم تحول الى مراكش (١٢٢٣) وبقي هناك كرسي للمطران الى القرن السادس عشر. ولما استولى جوان الاول ملك البرتغال على سبتة (١٤١٨)، جعل هناك اسقفية ثانية. وكانت كنائس كاثوليكية عديدة في وهران، وتلمسان، وعنابة، وبجاية والمهدية، وتونس، وطرابلس وكان يخدم فيها الرهبان الفرنسيون والدومينيكان، ولكن بت الدعوة المسيحية بين المسلمين كان محظوراً.

وكما كان عند بعض سلاطين الموحدين جند من النصارى فكان أيضاً عند السلاطين المرينيين أخلافهم مثل هذا الجند، حتى ظمعو أن يستأثروا بحراسه بعض الثغور البحرية مثل طنجة، وسبتة، وسلا، وكتب البابا اينوشنسيوس الرابع (١٣٤٦) الى السيد ملك المغرب كتاباً طويلاً، حاول فيه افتناعه باعطاء الجند الافرنجى الذي عنده قلعة من هذه الفصاع البحرية تكون في عهدهم، وذلك بأن للملك المنار اليه أعداء أقوياء يمكنهم أن يباغثوه، ويسلبوا ملكه، وان أصدق أنصاره هم الجنود النصارى الذين عنده وما داموا في خدمته، فاللؤل النصرانية كلها تنصره، ولكن قد نظراً حوادث غير منتظرة وتغلب

الكثرة على الشجاعة ، فكان من المصلحة أن يعطى هؤلاء الأجناد المسيحيين بعض المدن البحرية المسورة ، ليعتصموا بها عند الضرورة فالسلطان السيد لم يسمع كلام البابا وجاء مطران مراکش الى رومة (١٣٥٠) وجدده السعي ، فكتب البابا الى السلطان المرقسي خلف السيد يلح عليه في إجابة ذلك الطلب والا فهو يمنع المسيحيين من الدخول في خدمته فلم يعبأ سلاطين المغرب بهذا الوعد ولا ذلك الوعيد ، ولا رضوا بأن يسلموا المرتزقة الافرنج الذين في جيئهم قلعة على ساحل البحر ، وبقى مع هذا عندهم أجناد كثيرة من الافرنج .

أما سيرة مساهي الشمال الشرقي من افريقية ، فكانت تخالف في هذا الموضوع سيرة مساهي الشمال الغربي ، اذ من المعلوم أن الزخفة الصليبية الخامسة التي كان أكثر رجالها من الحجار والامان ، والزخفة السابعة التي قام بها القديس لويس ملك فرنسا كانت وجهتهما مصر ، فأثارت الحفيظة الدينية عند أهلها بعد أن كانوا أولا في غاية التساهل مع المسيحيين فلما استرد المصريون دمياط (١٢٢٨) ، هدموا كنيسة مارمرقس في اسكندرية وهدم السلطان قلاوون عند توليه عرش مصر جميع المدن البحرية ، من الاسكندرية الى طرابلس الغرب وطررد الافرنج من هذه المدينة . بعد أن كان مضى عليها نحو ١٤٠ سنة وهي في حوزة امراء النورمانديين أصحاب صقلية . وفي ذلك الوقت استقر فرسان ماريونخا المطرودون من فلسطين ، ومن افريقية ، في جزيرة رودس . وبلغ البغض أقصاه بين المسيحيين والمسلمين واضطر نصارى الثوبة والغالة (Cathars) أن يدخلوا في الاسلام في القرن الرابع عشر . ولكن الأحباش ازدادوا تمسكا بالنصرانية ، وأرسل النجاشي زيرا يعقوب وفدا من قبله الى مجمع فلورنس (١٤٥٢) بلتمس توحيد الكنيسة الحبشية مع الكنيسة الرومانية ، ولما كان التعصب المذهبي شديدا بين الشرقيين والغربيين ، نرصد الأقباط هذا الوفد عند ما آتهم من ايطالية وقتلوه .

وكان كثير من أسارى الافرنج أرقاء في بلاد الاسلام ، يشتغلون في مزارع كبار المسلمين وهم في أقصى درجة من الفاقة ، حتى كان بعضهم يصبأ عن دينه طمعا في الخلاص من الرق . فأنشأ الفرنج جمعيات رهبانية لفداء هؤلاء الأسارى ، أشهرهم العصابة المسماة بالقراء Alfraker من رهبان مار يعقوب الاسبانويين ، وطائفة الثالوثيين Trinitaires

ورهبان سيدة مرمسى Notre-dame de la Mercy وهاتان الطائفتان من الفرنسيس . وقد كان تأسيس نظام الثالوثيين سنة ١١٩٨ ، على يد رجل اسمه يوحنا منى من البروفانس في جنوبي فرنسا ، وكان أتباعه يمشون على أقدامهم ولا يؤذن لهم بالركوب الا اذا مسهم الاعياء ، فيركبون الحير ، ولهذا لقبوا بالاخوان ذوي الحير . وانتشرت دعوتهم في كل أوربا ، وكان لهم في فرنسا وحدها ١٥٠ ديراً . وقيل ان عدد من أنقذوا من أسرى المسيحيين من سنة ١١٩٨ الى القرن الثامن عشر يبلغ ٩٠٠ الف . وأما النظام الثاني المنسوب الى سيدة مرمسى ، فكان غرضه منع الأسرى الفرنج من الدخول في الاسلام وهم في الأسر ، وكان من مبادئه انتخاب استعمال السيف اذا الجأ الأمر لأجل الدفاع عن النصرانية ، وقبول الأسر والبقاء رهناً عند العدو ، لأجل منع الأسرى من التحول عن دينهم . وكثير منهم ألقوا بأنفسهم في التهلكة ، وعاشوا سنين في الأقياد والأصفاد عند امراء الاسلام ، لأجل المحافظة على ديانة أسرى قومهم . وبلغ عدد أسفارهم الى مدينة الجزائر وحدها من جراء فداء الأسرى ٧٣ رحلة ، وعدد من أنقذوا ١٢ الفا وخمسة أسير ولكن بعض الرهبان تجاوزوا حدود الحية الى النهور وقام في أذهانهم دعوة المسلمين الى النصرانية فلم يقدروا على تحيير مسلم واحد ، ووقعوا من أجل ذلك في البلاء . ومنهم من ذهب فتبل خفة عقله ، وهؤلاء مثل الطلون ريقولي ، ودانيال بلغدير ، وريموند تول ، وهو أشهرهم . وكان يعقوب الأول ملك أراغون قد استرد جزيرة ميورقة من أيدي العرب سنة ١٢٦٩ ، فوجد تول هذا هذه الجزيرة مركزاً صالحاً لبث الدعوة المسيحية في المغرب ، وبنى ديراً للفرنسيسكانيين في الجزيرة وجعل القرض منه لتدريس العربية لامكان بث الدعوة ، وكان هو متضلعا في العربية وقصد نفسه مبشرين في هذا الدبر ، يهدف بهم في بلاد الاسلام للغاية المذكورة . وذهب هو بنفسه الى تونس ، وأخذ يناظر علماء الاسلام ، ويقتطف بالرسول أمامهم فالقوه في السجن ولولا رافة أمير تونس به ، لأوردوه حقيقه . وبعد ذلك خلوا سبيله ، فناء الى الجزائر ، بشرائه ثم الى بجاية حيث ضاق ذرعهم به فقتلوه (٢١ يونيو ١٣١٥) . وبالجملة ، فان النصرانية أمكنها بواسطة المعاهدات التجارية وحسن المعاملة ، أن تطلا أرض المغرب ، ولا تجد الثغرة التي وجدها في مصر وطرابلس الغرب على أثر الحروب الصليبية

بما يدل على كون المظف والمحاسة ، أوفى بالمقصود من العنف والمخاشنة .

وفي تلك الأيام حصلت حركة دينية عند البربر ، وظهرت عندهم الطرق الدينية المشابهة للرهبانيات عند النصارى ، وترجع هذه الحركة الى سبيين ، أحدهما ، عقيدة التصوف التي ترمي الى الغناء في الله ، والثاني دعوة أهل البدع والاهواء ، وغير المسلمين ، الى الاسلام . وأتباع هذه الطرقت يسهبون الرهبان في الانقطاع للعبادة ، وكثرة الصلاة ، ومنهم من هم نظير الرهبان العسكريين ، يعتقدون أنهم مكلفون باستعمال السيف لنشر الدعوة ، ولستهم يفترون عن رهبان النصارى بعدم البتولة ، وعدم فطم النفس عن النساء^(١) ويقال لحمل اجتماعهم رباط ، ولرئيس الطريقة مرابط . ولذلك لما قام عبدالله بن ياسين ، بالدعوة الدينية طهارة البربر من لتونة وغيرها ، اجتمعت حوله عصابة سموها بالمرايطين ، وكانت لهم دولة وصولا بلغت أوجها في زمان يوسف بن تاشفين (١٠٥٠) . وقام مقام المرابطين الموحدين ، وكانت لهم دولة عظيمة ، وكان الشرفاء أعقاب ادريس ، من أتباع العقيدة الصوفية ، وكانت هذه العقيدة تقرأ في فاس وتونس ، وهما أعظم مراکز العلم بأفريقية ، وقد أخذ بها خلق كثير . وكان عبد القادر الجيلاني المولود في جيلان من فارس ، مشهورا عظيما زكى الشأه كثير التعظيم لسيدنا عيسى ، متساهلا مع النصارى الذين كان يقول انهم أهل كتاب وان الله سينير عقولهم يوما ، فأخذ بالوعظ والارشاد ومات في بغداد سنة ١١٦٦ ميلادية ، وله أتباع لا يحصى عددهم ، ووصلت طريفته الى اسبانية ، فلما زالت دولة العرب من غرناطة انتقل مركز الطريقة القادرية الى فاس . وبواسطة أنوار هذه الطريقة زالت البدع من بين البربر ، وتمسكوا بالسنة والجماعة . وكان هذه الطريقة هي التي في القرن الخامس عشر ، اهتمت على يدها زنوج غربى افريقية . أما الطريقة الثانية فهي الشاذلية نسبة الى أبي الحسن الشاذلى ، أخذ عن عبد السلام بن مشيش ، الذي أخذ عن أبي مدين ، وكانت ولادة أبي مدين في اشبيلية سنة ١١٢٧ ميلادية وقرأ في فاس ، وحج البيت الحرام ، ثم استقر يعلم التصوف في بجاية . وتبعه خلق كثير انقسموا بعده الى ثلاث فرق ، الأولى الشاذلية المنتشرة في الجزائر والثانية الدرقاوية الذين مركزهم في مراکش

(١) لارهبانية في الاسلام كما لا يخفى

والثلاثة المدينية الذين هم كثيرون في طرابلس الغرب. قال : (وبعد أن أفاض في بحث الطرق والزوايا وتنكباتها وأوضح المشابهة التي بينها وبين الرهبانيات في القرون الوسطى)

ان العرب لم ينتظروا تشكيل الطرق حتى يشعروا بالدعوة القرآنية في السودان ، بل منذ أواخر القرن السابع كانوا اخترقوا فزان ودخلوا السودان ، وكانت في غاية لأوائل القرن الثامن للميلاد اثنتا عشرة مدرسة للقرآن ، ولكن الاخوان (اتباع الطرق) هم الذين هم على يدهم اسلام القسم الأعظم من مسلمي أواسط افريقية ، وهم الذين أوقفوا الحجة الدينية بعد أن كادت تقرب ، وأدخلوا معظم السودان في الاسلام بالارشاد والتعليم ، وبالأخذ والعطاء ، وبالمصاهرات مع ملوك الزنج . وقد تقدم ذكر أبي بكر بن عمر المتوفى الذي امتاز بنشر الاسلام في السودان ، حتى دانت له جميع الأقطار السيفية والنيجرية الى الكونغو . كذلك بنو حسن من عرب بني هلال ، توجهوا جهة ودان جنوب طرابلس وتقدموا منها في الصحراء الى والاته ، فتلاقى هناك العرب مع البربر وامتزج بعضهم ببعض ، وجاءت من هذا الاختلاط القبائل المشبهة بالمشدوف (هذه القبائل ليست هي المشدوف فقط بل المشدوف والدويش وغيرها وقد ألف على هذه القبائل السيوطي جورج بوله Georges Poullet كتاباً اسمه « مغاربة افريقية الغربية الفرنسية » بحث فيه عن تاريخها الماضي والحاضر ، وعن أحوالها الاجتماعية من كل نوع ، ونظراً لكون المؤلف من مأموري المستعمرات فقد أتبع له أن يطلع على وثائق لا يطلع عليها غيره ، فجاء كتابه بغاية التدقيق . والمغاربة المذكورون منهم من أمقاب بني حسن الهلاليين ، ومنهم من صنهاجة وغيرها من البربر ، وبينهم اشراف ينتمون الى آل البيت ، وبجالاتهم من الساقية الحمراء جنوب في السوس الأقصى ، الى نهر السيفال ، وهم خمس طبقات الأولى ، أهل الحرب وهم بنو حسن . والحرثون وهم أشبه بالرعية ، لكنهم أحرار . والمرابطون أي طلبة العلم . وصنهاجة الذين يدفعون الضرائب . ثم العبيد . وأشهر القبائل المذكورة الطرارة وهم نحو ٨٠ ألف نسمة ، كان أميرهم لعبد تآليف كتاب السيوطي بوله سنة ١٩٠٤ ، هو أحمد بن سلوم . ثم البراكنة وهم أولاد عبد الله وعددهم ٤٠ ألفاً ، وأميرهم أحمد وولد سيدي علي .

ثم الأبكاك وعددهم ١٦ ألفاً ، وأميرهم بكار ولد سويدي أحمد . ثم الشرايطي وهم ٢٠ ألفاً ، وأميرهم المختار ولد أحمد . والقبائل الساحلية منها آل سيدي محمود وهم ٤٠ ألفاً ، وأميرهم سيدي المختار ولد محمد محمود . ثم أولاد مبارك وهم ١٨ ألفاً ، وهم مع أولاد ناصر من سلائي بني حسن الحلالين ، وعددهم أولاد ناصر ١٢ ألفاً . ثم الكونتة وهم خمسة آلاف . ومن قبائل الساحل المشدوف وهم أكثرها عدداً ، وينقسمون إلى عدة فرق السكى منها زعيم ، وزعيم الزعماء ، محمود مختار وهناك قبائل ساقية الجراء مثل أولاد دليم ، والزعديات ، والعروسي ، والقيلاي ، والضمالي ، ورئيس هذه القبائل الشيخ ماء العينين المشهور . وقد تخن المسيو بوله عددهم جميعاً ثلاثمائة ألف ، وكانت بين أمراءهم وبين فرنسا معاهدات لذلك العهد ، أضحت أنها صارت الآن في خبر كان لاسيما ما كان مع أمراء القبائل التي في السذغال) .

ثم قال المسيو موري تحت عنوان « اكتشافات البرتغاليين على سواحل افريقية واستئناف البعثات الكاثوليكية » :

لا يخفى ان العرب ومن معهم من البربر كانوا افتتحوا اسبانية ، واجتازوا جبال الپيرانه ، ولوغلوا في بلاد الغال (فرنسا) ولولا انتصار شارل مارنل عليهم في هوانيه ، لكانت فرنسا اسلامية ، ولاصاب الكنيسة الغالبة مأصاب كنيسة افريقية وكنيسة اسبانية على أنه في نفس اسبانية ، كان البرتغاليون ، وأهل ناغاز ، واستورقة ، لايزالون يتأومون العرب . ولاسيما البرتغال ، فقد كانوا أول من طرد العرب من بلادهم . ولم يكتفوا بذلك بل شنوا الغارات على العرب في أرضهم ، فافتتحوا سبتة ، وطنجة ، ونظاوان . ثم امتدوا على ساحل افريقية الغربية حتى عرفوه كله . وأشهر من قام منهم بهذه الاسفار والفتوحات ، هو الأمير هنري ابن الملك جوان الأول الذي كانت أمه أميرة انكليزية ، فإنه ترك اسبونة دار الملك وانتقل بنفسه مكاناً في ساغر بقرب رأس سان قنسان ، يحيط به بعض اليهود وبعض علماء المغاربة من فاس ومراكش ، الذين كانوا علماء العالم لذلك الوقت وأخذوا ينقبون في جغرافيات العرب وغيرها حتى عرفوا المكان الدوران حول افريقية . ورسم الأمير هنري هذا الرجل العظيم الذي كان له الفضل على جميع أوربية ، خطة سير السفن عليها ، فاجتازت ، رأس بوجادور (١٤٤٢) ، والرأس الأخضر (١٤٤٤) على أنوار غابات (م ٢٤ - ثاني)

مادار Moulènes ، التي استعمر بها الخريف سبع سنين الى أن بلغت سياره ليون Sierra Léone . سنة ١٤٧١ بعد موت هنري أيضا ، واطب البرتغاليون على الاقبال في الافيانوس حتى قطعوا خط الاستواء وجازوا زاير (الكونغو) ، ثم رأس الزوايع الى ميناء آلقوا (١٤٨٦) . وفي ٨ يوليو عام ١٤٩٧ وصل فاسكو دوغاما الى موزامبيق ، ومنها الى ماليندي وبقى سنة تزل في كاليكوت من الهند الشرقية .

ولما تمت هذه الفتوحات ، شرع البرتغال بنشر الدين المسيحي وتأسيس الاسقفيات واختاروا لهذا الامر الجزر البحرية ، لما فيها من الوفية . فعملوا كرسياً أسقفياً في إحدى جزر الخالدات ، وآخر في جزيرة مادرا ، وآخر في جزيرة امام الرأس الأخضر ، وآخر في جزيرة بازا زاير ، ومنها صعد الدومينيكيون الى بلاد الكونغو وشوا دعوة الانجيل ، وتجهجوا نجاحاً جل البابا على وضع أسقف في صان سلفادور (١٥٩٥) . وبعد ذلك بنحس وعشرين سنة أرسل ملك الكونغو الفارس الثالث ، بعثة الى البابا يلتمس بها مبشرين وأرسلوا اليه الكوشيين فكان تجاحهم باعراً . وظفهم الجزويت ، فأسسوا مدارس في صان باولو ، وصان سلفادور (١٦١٩) وصاروا يتقدمون الى داخل البلاد حتى بلغوا كازانغي على ٢٠٠ ميل من الساحل ولكن هذه البعثات كلها سقطت في أواسط القرن الثامن عشر لاسيما عند الغاء رهبانية الجزويت ، وحولت جمعية البعثات الخارجية في باريز (١٧٦٠) أن تقوم مقام الجزويت في الكونغو ، فلم تفلح . مع هذا بقيت لذلك التعليم آثار ، وكان ألوف من الزنوج يقرأون ويكتبون .

وبعد قرن كامل من انقطاع التبشير هناك جاء « آباء الروح القدس » وأحيوا ما كان درس من آثار الجزويت والدومينيكيين (١٨٦٧) ، وساعدوا على الغاء تجارة الرقيق وعلى الاكتشافات الجغرافية ، وأدخلوا في هاتيك الاصقاع زراعات وصناعات كثيرة وكان البرتغاليون قد بشروا بالانجيل في افريقية الشرقية ، وانحدوا مركزاً للدومينيكيين في موزامبيق (١٦١٤) وأقام القديس فرانسيس كسافارس مدة في موزامبيق ، وفي ماليندي ، وفي جزيرة سقطرة . وأسس فاسكو دوغاما ديلا للتبشير في جزيرة زنزيبار ، وامتدت منه البعثات الى مومباسا ، والساحل ، ونمت هناك دعويات مسيحية عديدة في القرن السادس عشر والسابع عشر ، ولكن سنة ١٦٩٨ جاءت غارة عربية من سقط

اخذت على تلك الكنائس ، ورفعت علم الاسلام وحده . وسنة ١٧٢٨ ، حاول المبشرون استئناف العمل ففشلوا ، ولزم انتظار القرن التاسع عشر لأجل الرجوع الى بث الدعوة المسيحية في هاتيك الاقطار .

وكان جوان الثاني ملك البرتغال سنة ١٤٨٧ اخذ اثنين من رجاله الفونسو بايفا ، وبيرو كوفيلهام ، من طريق مصر الى الهند للبحث عن رجل هندي مسيحي يزعمون أن اسمه القسيس يوحنا ، فأت أحدهما المسمى بايفا بمصر وذهب كوفيلهام الى الهند ، ثم عاد الى افريقية ووصل الى الحبشة ، فأكرم النجاشي موصله ، ولكنه لم يسمح له بالخروج . فأخذ هذا الرجل يرسل بلاده ويخبرهم بما رأى ، فأرسلت حكومة البرتغال وفداً من الأشراف والكهنة ، ومعهم عدد من الحاديين ، والنجارين ، والبنائين ، والأطباء الى بلاد الحبشة ، واستمرت هذه العلاقة بين الممالكين دهرًا طويلاً ، حتى أن راهبا يسوعياً برتقالياً اسمه يوز حول النجاشي سوسينيوس الى الكنييسة (١٦٢٤) . وغفل ان أكثر الاحباش كانوا مستعدين للإلتصاف الى الكنييسة الرومانية لولا عناد بطرك الملائين ما ندر Mendez الذي لم يأخذهم بالتؤدة ، بل حاول جعلهم على جميع العقائد والشعائر اللاتينية دفعة واحدة وأراد تأسيس ديوان تفتيش ، لمراقبة الذين يأبون الانقياد . فحزت من ذلك ثورة ذهبت فيها حياة المبشرين البرتغاليين ومن تابعهم من الحبش (١٦٤٠) ، وحاول القسيس التبشير في الحبشة تحت حاية فناصل فرنسا ، فلم يفلحوا ، وقتل المبشرون الذين أرسلوهم الى سواكن ، ومصوع . ولكن الفرنسيين كانيين الطليان أسسوا مراكز لهم في بلاد الغالة (١٨٣٩) ، ثم توجه اخوان فرنسيان انطون ، وأرنولد أبادي ، ومعهما راهب عازاري اسمه ساينتو من قبل مدرسة البروباغنده في رومة ، التي أردفتهم بثلاثة آخرين فأقام أحدهم جا كوبيس في غدوة بقرب النجاشي ، وذهب ساينتو الى غندار للتبشير في بلاد الآماره . وكان أحدهم مونبوري قاصداً للسودان المصري ، فبعد خمس سنوات من وصولهم ، أسسوا عدة كنائس . وفي سنة ١٨٥٣ كان عند الحبش الكاثوليك خمسة آلاف ، بالرغم من مقاومة أبونا سلامة رئيس الكنييسة القبطية الحبشية . وبقيت هذه البعثة ناجحة حتى تولى النجاشي تيودوروس ، فأراد استئصالها وحل جا كوبيس على الأدهم ، فأت في الحبش سنة ١٨٦٠ . وبعد وفاته قام مقامه المطران بيانشي ومعه

الظفران ماساية ، ووجهها عززتهما الى التبشير في بلاد الغالة ، وبواسطة الحكومة الفرنسية مع الباب العالي أخذوا فرماناً بتأسيس مركز في جزيرة مصوع (١٨٦١) ، واستؤنف العمل الديني في الحبشة . ولكن لم يطل الامر حتى وقعت المنافسة بين فرنسا وإيطاليا في هاتيك الجهات ، وأسست إيطاليا مستعمرة الارترج ، وجعلت مركزها مصوع وأقربتها بأحققية ، وطردت منها المبشرين الفرنسيين ، ولم يبق لهؤلاء سوى رعويات في ابغرى ، وبلاد الآماره . وكانوا شادوا مدارس ، ومسنشفيات ، ودوراً للصناعات ، وملاجئ ، للاريتام والمجانيم . ونشر الطلاب الدعوة المسيحية في بلاد الغالة ، وهم جبل أذكيا ، أشدك ، يكتنون بين الحبشة وبحيرة فيكتوريا نياتزا . وصارت هناك رعويات مسيحية زاهرة وامتدت الى بلاد كافا ، ثم دخلت الى هرر ، بالرغم من معارضة أمراء الاسلام هناك . ولتنظر الى الدعوة المسيحية في جهات أخرى فنقول ، ان مار فنان دو بول الفرنسي كان وجه عمله نحو جزيرة ماداغسكر ، التي بسطت يدها عليها فرنسا في أيام الوزير ريشليو ، فانتشر في سواحلها تجار الفرنسيين وأرسل الرهبان العازريون اثنين منهم سنة ١٦٤٨ ، فأخذوا بالتبشير وصبروا على المشاكه ، ومناخ تلك الجزيرة لم يؤاتهما ، فأتا بعد أن نصرا ٦٠٠ نسمة من الوطنيين . ثم ذهب بدلا عنهم أربعة آخرون فأتوا بالحمى . فأتى ذلك عزيم الرهبان ولا سيما عزيم مار فنان دو بول ، الذي بقى يخرضهم على السفر للتبشير ، فذهب آخرون وزرعوا هناك الانجيل ، وتحملوا من الانتقام والعذاب ما تحمّلوه ، ولكنهم تغلبوا على الوتفة مع تهادى الأيام ، فلآن الجزويت ، والبرونستات ، الفرنسيون ، والكويكرس ، والنورويجيون يستغلون مازرع العازريون من مائتي سنة في تلك الجزيرة العظيمة .

ثم تألفت رهبانية آباء الروح القدس ، سنة ١٧٧٨ أبحر الابوان بروتو وغليكور الى السنغال ، فأخذوا ينصرون الزنوج في سان لويس وجزيرة غوري Gouri وفي سنة ١٨٤٨ اندمجت هذه البعثة في بعثة قلب مريم الاقدس تحت ادارة يهودى متنصر اسمه ايرمان ، أحسن التدبير ، وربط الدعوة الكاثوليكية بالحكومة المدنية ، فأنشأت مؤسسات هذه البعثة في افريقية ندرينجا ، فشيخه لها مرا كز في الكونغو البرتغالي ، وفي غامبية ، وفي مستعمرة سيرا ليونه الانكليزية ، وزنجبار ، ولها في المستعمرات الفرنسية اسقفية ، كرسبها داكار Dakar التي فيها ١٥ ألف متنصر . ومركز في كينا Kita في السودان

السيفيالى ، وآخر فى كونا كرى من غينية الفرنسية . واسقفية فى غابون Gabon من الكونغو الفرنسية . وأخرى فى أوبانجى Oubangui من الكونغو الأعلى . ولم يقتصر هؤلاء الرهبان على التبشير بالانجيل بل نشروا العلم ، وأحيوا الزراعة ، وأنوا بنباتات جديدة ، وأدخلوا حيث وجدوا صناعات مفيدة ، وهدىوا الأخلاق وأبطلوا كثيراً من قبيح العادات .

ثم أتى بعد رهبان بنى العازرين والروحيين ، بعنة ليون الافريقية وبعنة الآباء البيض . فى سنة ١٨٥٦ أسس المطران دوماريون برازيلك أصله من الدعاة فى الهند الشرقية ، مدرسة لتخريج المبشرين المراد إرسالهم لتبشير الزنوج . ثم عين هو أسقفاً فى سيارا ليون ، فذهب معه عدد من الرهبان فهلكوا بالحمى الصفراء ، فقلوع غيرهم للقيام مقامهم ، وما زالوا صابرين ثابتين حتى أفلح عملهم ، فدرى لهم اليوم كراسى فى ساحل العاج ، والنيجر الأدنى ، وساحل الذهب ، والداهومى ، وبنين . وقد وفقوا توفيقاً كبيراً فى ساحل العاج وفتحوا سبع مدارس منها مدرسة دينية فى دابو وقد أجدوا طابع أهل تلك البلاد من السكينة وحب العمل ، بخلاف أهالى داهومى ، الغلاظ الشداد ، المتعصين للفتشية ، ثم أسسوا مدرسة زراعية فى توكيو ، وأسقفية فى بنين Benin

وأخر رهبانية تأسست لنشر الدين المسيحى فى افريقية هى الآباء البيض ، أسس هذه الجمعية الكردينال لا فيجورى مطران الجزائر سنة ١٨٦٩ ، ولما كره فى هذا المشروع المارشال ما كهاون ، الذى كان رأيه أشبه برأى الشركة الانكليزية فى الهند من تجنب الدخول فى قضية التنصير ، لئلا يحصل مشكلات للإدارة الفرنسية ، فالكردينال كان يرى غير هذا رأى ، ويقول انه يجب الامتزاج بالأهالى واستجلاهم اليك ، لئلا يلبثوا على عقيدة القرآن ، التى تجعل بيننا وبينهم فاصلة كبرى . فما زال الكردينال مصرراً على فكره حتى أنشأ هذه الرهبانية وراعى فيها عادات القوم ، وأردفها برهبانية أخرى للنساء اسمها « الراهبات المبشرات اسيدتنا العذراء » (١)

(١) الحقيقة ان كلام رهبان بنى الآباء البيض والراهبات المذكورات ، نالت عهد الحكومة الفرنسية فى كل شئ . وارتفعت منها شكوى الجزائريين ، وغيرهم من سكان المستعمرات الفرنسية بدون فائدة . وليس هنا مقام تفصيل ذلك

وميادين عمل الرهبان البيض هي أولا الجزائر وتونس . ثانيا الصحراء والسودان .
ثالثا بلاد خط الاستواء من افريقية . رابعا بلاد نياسا غربي الموزامبيق التي فيها كرسى
أسقفية (١).

وبلاد خط الاستواء الافريقية وبلاد نياسا كاتهما من المستعمرات البريطانية
والبرتغالية . فلاتهمنا الا في الدرجة الثانية . ولكنهما مع ذلك لا تخلوان من العمل ،
فما يتعلق بمقاومة الاسلام ومنع الرق (٢) . فان قرار مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ بمنع الرق ،
قد قلومه تجار العرب بالسلاح واضطرت الدول الى قمع ذلك بالقوة (٣).

أما في الجزائر وتونس ، فلما كان الحكم لفرنسا لم يكن من حاجة الى استعمال القوة
فرهبانية الآباء البيض تلجأ الى الوسائل السلمية لا غير . فهي تؤسس بقرب كل محطة
مستوصفا طبيا ، وصيدلية . الأول منهما ، يصف العلاجات والثاني يعطيها مجانيا . ثم مدرسة
و دار أيتام . وليس الا بعد وقت طويل وبأذن أهل الأولاد ، يلقن الآباء هؤلاء الأولاد

(١) لسائل أن يسأل : لماذا يمتدون في تونس والجزائر ولا يمتدون في المغرب الأقصى ؟ والجواب
دور الآباء البيض وراهبات القديس ، يترك في المغرب الأقصى بعد أن يتم الخصاع الكامل في جبال
الامانس وزرع السلاح من أيدي القنائل . أما الآن والثورة لا تزال قائمة . فالحكومة الفرنسية
تبقى في هذا الامر وإن كانت لا تهمل .

(٢) ان الرق ليس من الاسلام بل ان الرق عادة قديمة عرفتها الحضارة والاسلامية وغيرهما .
وما حجب الاسلام شيئا الى الناس أكثر من تحرير الرقيق الذي هو من أفضل القربات شرعا . ثم لما امتد
أوروبا بخلاوة الرقيق تارفت في وجهها شعوب مسيحية كثيرة مثل البوير في جنوب افريقية ، وكل أحد
يعلم أن أمريكا انقضت قديم في أمر العبيد ، ولما رت الحرب بين الفريقين أربع سنوات ، فلجئوا بعض
مؤلفي أوروبا بالساق الرق بالاسلام خاصة . هو من حملة التحامل على الاسلام ، كما اني وإن كنت أحمد
صنيع الدول التي ساعدت على إلغاء الرق ، لا أنكر أن معاملة العبيد السود في بلاد الاسلام ، هي أفضل
بكثير من معاملات الأمم المستعمرة لرباهاها البيض ، نعم ان هذه الأمم لا تبجح أهالي الجزائر . وتونس .
وتونسكين . وغيرهم ارفعوا في الأسواق ، ولكنها لا تعترف لهم أدنى حق بلزاه الأوربيين ، وهي تمنع
يدعا على ما شاءت من أراضيتهم ومعادن الملاحم ، وتستعمر أراضهم ودعهم وعرق جسيمهم قسرا بدون أن
يكون لهم بذلك أدنى خيار فهل الرق سوى هذا ؟ .

(٣) يذكر المؤلف هنا مقاومة العرب وليس مقاومة المجلس الأوربي في الترشفال .

التعليم الديني^(١) أما اليتامى فيعلمون التعليم الديني فرضاً . وقد تقدم الآباء البيض الى الداخل فصار لهم مؤسسات في لافوات (١٨٦٨) وفي أوارغله (١٨٧٣) ، وفي نوغورت (١٨٧٨) الخ ولما دخلت العياكر الفرنسية مدينة تمبكتو سنة ١٨٩٤ في ١٠ يناير تحت قيادة الكولونيل بونيه والقومندان جوفر ، أسس الآباء البيض مركزاً في تمبكتو وستة أخرى في جوارها .

وبخلاصة ما قامت به الرسائل الكاثوليكية من ارتقال ، وطلبان ، وفرانسيس ، في القارة السوداء ، هي انها حاجت هذه القارة من الجانب الغربي ، ومن الصحراء ، ومن الكونغو ، ومن جهات البحيرات الكبيرة ، نعم انها لم تقدر أن تترك العصبية الاسلامية ، لكنها هذبت قسماً عظيماً من الأمم القشتالية ، ونوفقت الى ابطال كثير من عاداتهم البربرية .

ثم ذكر المؤلف ، اشتراك السياح والمبشرين في تهذيب افريقية فقال : ان لغستون في أحد تقريراته يقول : « ان نهاية الاكتشاف الجغرافي هي بداية العمل التبشيري . وهذه حقيقة كلية اذ من المحال أن نكتشف أراضي جديدة بدون أن ينبئ ذلك فينا شوق دعوة أهلها الى الانجيل ، هذه البشارة التي أعطتنا السلام والعزاء والرجاء » . فلقد رأينا المبشرين الكاثوليك ، يتعمقون آثار البحارة البرتغاليين والفرنسيين واليطاليين ، ويؤسسون أوطاناً مسيحية في سواحل افريقية الغربية والشرقية ، منخذين هذه المراكز في سواحل شرقي افريقية محاطة في طريقهم الى الهند ، ولكن كل هذا ما عدا الذي جرى في الحبشة : لم يتجاوز مناطق معلومة من سيف البحر . ولكن جاء فيما بعد ذلك السائحون الجوابون في الربع الأخير من القرن الثامن عشر والأربعاء الثلاثة من القرن التاسع عشر فدخلوا من مصاب الأنهر . ونوغلوا في البلاد ومنهم من ذهب قتيل جرأته فكانوا هم ضالعة المبشرين ، وعلى آثارهم سار هؤلاء ، وبالأجال فداخل افريقية التي تولى منها هؤلاء الجوابون الى باطن هذه القارة ، هي أربعة أو خمسة ، أولها النيل لامتداد طريقه من مصر الى أقصى منابعه . الثاني نهر الغامبية ثم نهر السفيغال . الثالث ، رأس الرجاء المعروف

(١) غير مفقود أن يسبح المسلمون أهل الاولاد بتفقيهم تشيخاً دينياً غير الاسلام بمجرد رضاهم ، بل هذا أحد أمرين ، اما أن يكون أهل الاولاد لا يعسرون على الاعتراض أو يكونون هم أنفسهم تركوا الاسلام

بالكتاب نظراً لأهمية هذا الموقع التجاري . الرابع ، الجزائر منذ استولت عليها فرنسا ،
طرابلس . الخامس ، جزيرة تونزيبار بسبب علاقاتها مع السواحل التي تحاذيها .

وأول من توغل في افريقية من جهة النيل هو جيمس بروس James Bruce
الاكوسى المتوفى سنة ١٧٩٤ ، وصل الى مصر سنة ١٧٦٨ ، وصعد الى الأقصر وشاهد
آثارها ، ثم الى اسوان ومنها الى القصير ، ومنها أجاز الى جده وزكب البحر من جده الى
مصوع ، ومن هذه صار الى الحبشة مزوداً بتوصية من بطريرك القبط في مصر الى الرأس
مبشل ، وأقام مدة بمدينة غندار قصد منابع النيل ووطن أنه وصل الى رأس نبع النيل الأزرق
، والحقيقة أنه لم يصل الا الى العبادى ، وهو ملتقى أنهر من النيل لا أصل نبعه . ثم عاد الى
مصر من طريق اسوان . وبعد ١٢ سنة من سياحة بروس هذا جاء الى مصر فولتاى
الكتاب الفرنساوى الشهير ، ولقت أنظار قومه الى وادى النيل قائلاً : « يجب للاستيلاء على
وادى النيل ثلاث حروب : الأولى مع انكلترا . الثانية مع العثمانية . الثالثة وهى أشدهن
مراسم مع الاسلام . لأنه هو السائد في هذا الوادى . وربما كانت هذه العقبة غير قابلة
الجواز » (كذا) وكان نابليون بونابرت قد قرأ كلمات فولتاى ، فكانت مما استفزته الى
غزو مصر . ولم يكن تجسيم فولتاى صعوبة هذه الحملة الا ليزيد فيها رغبة بونابرت ، في
غرامه بافتحام الصعاب وعشقه للمجد ، فكانت تلك الغزاة الشهيرة التى ظهر فيها من مزايا
نابليون العسكرية ماضهر ، وانما لم يقدر الناس قدر مهارته السياحية ، استجلابه
خواطر المسلمين وامتزاجه بهم في عقائدهم وعاداتهم ، وقبيل كانت غزاة مصر هذه من
سنة ١٧٩٨ الى ١٨٠١ ، مبدأ لاسفار ورحلات صوب منابع النيل استمرت الى ١٨٤١
وقد حذا حذو نابليون بونابرت في سبيل الاكتشاف والبحث ، أمير مصر
الكبير محمد على فى زمانه ، وصل فريدريك غالوب Gailland الى طيبة وواحة
سيوه ، ثم صعد بحرى النيل الى أن وجد خرب العاصمة القديمة مرويه Meroë
(١٨١٨ الى ١٨٢٠) الى ان بلغ الدرجة ١٠ من العرض الشمالى . وبعد هذا ببضع سنين
وصل عالم المانى الى النوبة العليا ، وكان أول أوربي دخل كردوفان غربى النيل الأبيض ، ثم
أنفذ محمد على بعثة وصلت الى درجة ٤ من العرض الشمالى فى غوندوكورو . وامتد عمل
السياح الى الحبشة وبلاد شوا وبلاد الغالا ، فكان ممن اشتهروا بذلك روشه دبريكور

Rochet d'Hericourt وتيوفيل لوفافير Théophile Lefebvre (١٨٣٩ إلى ١٨٤٣) ، وأبناء آبادي D'Abbadie (١٨٣٣ إلى ١٨٣٨) وهؤلاء من الفرنسيين ثم الإنكليزي شارل بيك Beke والالمانيان كرايف وايزمان ثم ان الالمانيين أرهاودت وريمان ، هما اللذان توغلا في اصفاع البحيرات الكبرى ، ووصلا الى قنن الثلج من بلاد كينيا Kenia والكيلمانجارو Kilmandjaro (١١ مايو ١٨٤٨) ومن هناك انفتحت الطريق التي انطلق منها سمونيل باكر (١٨٦٤ إلى ١٨٧٣) والكولونيل غوردون ، وأمين باشا ، ولبنات بك وغيرهم . وكان هؤلاء السياح أثر بعيد الصبت في تهذيب الزنوج ، واجتهد سمونيل باكر وأصحابه بالغاء الرق ، مستظهراً على ذلك بأمر الخديوي ، وهلك غوردون في الخرطوم بيد المهدي ، بعد أن أقام بضعة عشرة سنة يرفى من أخلاق السودانين .

ولم يكن شيء ينابه همة هؤلاء السياح الأبطال في شرق افريقية ، سوى همة أعضاء تلك الجمعية الانكليزية المسماة African Association التي تأسست سنة ١٧٨٨ في لندن وكانت الاطالس الجغرافية الى ذلك الحين لا تمثل أواسط افريقية الا برفعة بيضاء متسعة ، لأن الجغرافيين لم يكونوا يعرفون عنها شيئاً . وكما كان السياح الذين ساروا من مصر غرضهم منابع النيل ، كان السياح الذين صعدوا من نهري السنغال والسنغامبيه يقصدون تمبكتو ، تلك المدينة الشهيرة عند العرب . فالساجور داتال هوغتون Houghton ركب نهر السنغامبيه ، ووصل الى مدينة Médina ، ومنها الى عاصمة بامبوك Bambock (١٧٩١) ، لكنه لم يبلغ نهر النيجر ، وانقطع خبره . أما مونغاو يارك Mungopark الاكوسي ، فصعد من بلاد غامبيه ، فوصل الى النيجر عند سيجو Segou وعاد من حيث أتى ، ثم بعد تسع سنوات ، عاد فصعد النيجر ووصل الى تمبكتو ، ثم أوغل الى بوسانغ ، وهلك فتبلا سنة ١٨٠٦ . وكان رفيقه الفرنسي موليان Mollien قد اكتشف منبع نهر السنغال ، ومانبع نهر الغامبية ورپوغرانده سنة ١٨١٨ .

ثم ان ريفيه كاليه René Caillié الفرنسي ، لم يزل يحجوب تلك الأفطار حتى وصل الى تمبكتو بعد مشاق لا توصف ، وذلك في فبراير سنة ١٨٢٨ ، وبعد أن أقام بها مدة

لحق بقافلة مغربية عائدة الى فاس ، فوصل الى هذه العاصمة في ١٢ اغسطس ، ومنها ذهب الى الرباط وأبحر الى فرنسا ، وأكرمت الحكومة والجمعية الجغرافية ، لكونه أول أوروبي وصف تمبكتو وصفاً عن عيان (١) .

وسافر الضابط لغ Laming الاكوسي من طرابلس الغرب ، قاصداً تمبكتو في ١٦ يوليو ١٨٢٥ ، فبلغها في ١٨ أغسطس ١٨٢٦ ، ولكنه قتل أثناء إقامته . وأما الاكوسي كلاپرتون Claperton فاكشف بعيرة تشاد ، وملكة الفلاتة ، وزار مدن كانوا ، وكازينال ، وسوكوتو ، ومات في سوكوتو سنة ١٨٢٧ وكان معه رفيق اسمه ريشاد لأندرس فاكشف مصب النيجر ثم أكل اكتشاف مجرى النيجر الدكتور بابكي الاكوسي وجماعة ، وذلك من سنة ١٨٥٤ الى سنة ١٨٦٤ .

فهؤلاء السياح وأمثالهم هم الذين يفحص أسفارهم حاجوا شوق مبشرى الكنيسة الانكليكانية واليودية الانكليزية ، وكان الانكليكانيون منذ سنة ١٨٠٤ أسوا مراكم لهم في سيراليون Sierra Leone واقتدى بهم الميثوديون بعد ١٠ سنوات من ذلك التاريخ ، وفي سنة ١٨٦١ ، كانت لنصارى الزنج في تلك الأفطار كنيسة مستقلة بذاتها .

وأما طريق الكاب فهي الطريق الثالثة التي دخل منها المبشرون الى باطن افريقية ، والمبشرون هنا لم يسبقهم السياح بل كانوا هم السابقين ، بدأ بذلك جورج شמיד سنة ١٧٣٧ ، ويانسن سنة ١٨٠٠ ، فوصلا الى بلاد الهولندوت ، ثم ان الدكتور نيودور فان دير كيب الهولاندى ، ذهب الى بلاد الكافر من ناحية بور البراب . ثم الدكتور فيليب الانكليزى وصل الى بلاد البوشمن Bushmen ، الذين هم أشد أولئك الأقوام توحشا ، وقد تكلم هؤلاء المبشرون عن فسوة طائفة البوير نحو السود ، ولا سيما الدكتور فيليب هذا ، الذي كانت له اليد الطولى في إلغاء الرق بتلك الديار ، وكان هو السبب في إعطاء الهولندوت حقوق رعاية المستعمرات .

ومن ذهب للتبشير في بلاد الكاب بيسو Bissau الفرنسي اوى أحمد دعاة البعث الانجيلية الباريزية ، وصل الى وادى شارون Charron فوجد هناك أربعة آلاف مستعمر

(١) أما العرب فكانوا يعرفون تمبكتو منذ قرون ، وبقيت هذه المدينة والممالك التي تجاورها أعصرا طويلا جزءا من سلطنة المغرب الأقصى ، ووصول السائح العربي الى تمبكتو ، لم يكن له من الشأن أكثر من وصوله الى إحدى مدن المغرب .

فرنسي من أعقاب الهوغنوط (برتسانت الفرنسيين) ، جاؤا الى هناك عند طردهم من فرنسا ، ولكنهم كانوا نسوا اللغة الفرنسية تماماً ، ولم يبق عندهم من آبائهم الا بعض لسان فرنسية من التوراة . ثم ان اثنين من بروتسانت باريز فير Lemaire ورولان Roland وصلا سنة ١٨٣٣ الى لونتو Lonsanto ، وصار هذا القطر من ذلك الوقت مركزاً للدعاية البروتستانتية الفرنسية . وبعد هذا التاريخ بخمسين سنة ، تقدم أوجين كويليار Eugene Coillard الفرنسي الى بلاد زمبازو العليا ، ونصر كثيراً من زئوج المارونزي Maratse . ولكن الاكوسيين أحرزوا قصب السبق في تهذيب أهالي تلك الأقطار ، اشتهر منهم موفو Mofu الذي قضى زهاء نصف قرن ، يجتهد في تنصير أمة البيشوانا Bechuanaland وترجم التوراة الى لغة البيشوانا Silsechuanaland ، فأوجد في لغة أولئك المتوحشين أدباً لم يكن معروفاً ، وازوج موفو ابنته ، من ليفستون الشهير المولود سنة ١٨١٥ ، وكان هذا رحلة ومبشراً معاً ، بدأ سياحته بين نهر الأورانج وزمبازو ، ثم دخل أواسط القارة الافريقية ، ومنها خرج في لواندا Luanda بساحل الكونغو ، ومنها ذهب الى كايان Quelimane بساحل الموزامبيق ، وهو أول أوربي أطلع على مجرى نهر زمبازو ، وهذه رحلته الأولى من سنة ١٨٥٣ الى ١٨٥٦ ثم بأشر رحلته الثانية (١٨٥٨ الى ١٨٦١) فعرف بها مجرى النهر الأدنى ، ودخل بلاد الشيرى Shiraz ، واكتشف نياسا Nyassa من البحيرات الكبرى في أواسط افريقية . وأما في رحلته الثالثة : فخاب الاقليم الواقع بين بحيرة نياسا وبحيرة تنغانيكا ، وعرف طرف التنغانيكا الجنوبي ، وسنة ١٨٦٨ اكتشف بحيرة بانغولو Bangwelo ، وفي هذه السنة انقطعت أخبار الغنستون المذكور ، فقلق بال الناس عليه نظراً لباهر اقدامه وجرائه ، فأرسل مدير جريدة النيويورك هيرالد أحد الأخباريين المدعو هنري ستافلي ستافلي Staffly أنار الغنستون ، فسافر ستافلي من باريز سنة ١٨٧١ ، فالتقى الغنستون بعد ١٠ سنوات في محل يقال له أوجيجي على ضفة بحيرة التفانيفاء ، ومات الغنستون بعد ذلك بستين أي عام ١٨٨٣ على ضفة بحيرة بانغولو . وكانت للغنستون هذا حمة عالية ، وعزلة راسخة ، استخدمهما في الغاء الرق ومنع تجارة الرقيق ، وتعرض من أجل ذلك مراراً للإخطار .

أما الطريقان الباقيتان الى داخل افريقية فهما (الجزائر وطرابلس) اللتان كانت تذهب

منهما القوافل إلى باطن القارة السوداء ، وكانت هذه القوافل تحدث عن بحيرة عظيمة في الداخل يقال لها واتغراه ، وكانت جمعية الشركة الافريقية في لندره أرسلت الملاجور يدعى Peddie والضابط ليون بين سنة ١٩١٦ وستة ١٩١٩ فهلك الاول، وعجز الثاني عن تجاوز فزان ولكن قنصل انسكرترة في طرابلس كان يؤكد لملك الشركة أن الطريق من طرابلس إلى برنو هي مفتوحة نظير الطريق من لندره إلى ادنبرغ (١).

فأرسلت الشركة الافريقية بعثة عقدت عليها الملاجور دنهام ، فسارت من طرابلس في آخر مارس عام سنة ١٨٢٢ فرت من فزان ووصلت إلى كوكا عاصمة برنو في ١٧ فبراير عام ١٨٢٣ وتوغل كلاير تون أحد أعضاء هذه البعثة إلى بحيرة تشاد وزار كانو ، وسكوثو . ثم أرسل الانكليز بعثة ثانية تحت قيادة جيس رينار ، وكان معه الالمانيان أوفر فغ Owerveg وبارت Barth قساروا من طرابلس في خريف سنة ١٨٥٠ ، واخترقوا فزان إلى العاير ووصلوا إلى بحيرة تشاد . وسنة ١٨٥٢ مات الالمانى أوفر فغ ولكن زميله بارت لم يفتر عزمه بل أوغل في بلاد الاداموتة في الجنوب وعرف أن نهر ينوى Binou هو من شعب نيجر . ثم ذهب إلى سيكوتوفى الغرب ، ومنها صعد وادى النيجر إلى الشمال الغربى حتى بلغ نمبكتو فاقام بهذه المدينة من سبتمبر سنة ١٨٥٣ إلى مايو من السنة التالية وعاد من نمبكتو ، إلى برنو ، ومنها عاد إلى أوروبا سنة ١٨٥٥ .

وأما الفرنسي فبعد فتح الجزائر ، بدءوا يجوبون الصحراء ، فكان اسماعيل بودريه ترجمان القلم العربى في «الاقوات» أول من أتى بالمعلومات الحقيقية عن الصحراء وعن التوارق الذين بين واحدة وارغله ، وغات وذلك في نحو سنة ١٨٥٠ وعقبه في سنة ١٨٥٩ هنرى دو فافيه فجاء بمعلومات كثيرة عن التوارق . وبعد ذلك بسنتين أرسل الكورديناك لافيجرى رهبانه الالباء البيض إلى اقاصى الصحراء ، حيث أسسوا مراكز للتبشير وفتحوا

(١) الحقيقة أن هذه الرحلات التي قام بها السياح الاوربيون في باطن افريقية ، وعندها أهل أوروبا متأثر بحفرة ، ووضع أصحابها في صف أعظم الدهر ، كان العرب من سياح وتجار ومراويز ، قاموا بأشغال أصنافها منذ قرون ، ولكن بدون بأو ولا نحر ولا ضوضاء عظيمة بل بكل ساطة لا يرى الواحد منهم في الذهاب إلى بحيرة تشاد أو إلى السكفو من الغزابة ، أكثر مما يرى في الذهاب من تونس إلى غدامس . ولا وصل الاوربيون إلى تلك الأقطار التي ظنوا أنها مجهولة عند كل العالم ، لم يجدوا من مجاهلها مكاناً إلا فيه عرب ، أو آثار للعرب واللغة العربية .

مدارس للتعليم .

ومن المداخل المهمة التي كانت للاكتشاف والتبشير جزيرة ممباسا Mombasa ونوابها ، وقد كانت مستعمرة برتغالية أو برتغالية ، فاستولى عليها امام مسقط ، ثم سلطان زنجبار . ولما كانت منفذاً للفواقل الواردة من الداخل رأت فيها جمعية التبشير الانكليكانية محلاً مناسباً لبث الدعوة . وسنة ١٨٤٤ م ، جاء رجل الماني من ورتمبرغ اسمه كرايف . فسكن في راباي بقرب ممباسا ، ثم انضم اليه جواب آخر الماني اسمه ريمان ، فأزعا السير والنظر في داخل البلاد ، وكان أهم ما اكتشفاه ، جبلان مغطاة فتنهما بالتلج الابدي جنوبي خط الاستواء ، وهما كينيا وكيليا تجارا (١) وتقدم هذان الرجلان في بلاد جافا (Java) وكان أهلها من أشد الزوج توحشاً بأكلهم لحوم البشر فاختار كرايف وريمان يرشدهم ويهديهم من أخلاقهم ، وفي إحدى المرات أراد أحد ملوك تلك الناحية أن يكافئ كرايف على هدايا قدمها له فوهبه عاجاً وموائى وعدداً من العبيد فقال له كرايف : أما العبيد فلا أقبلهم لان العبودية هي خلاف القانون الالهي ، وأما الموائى والعاج ، فما جئت الى بلاد نورامبارة لاجل حطام الدنيا ، فإذا شاء الملك يعطيني بعض أولاد غير ارقاء آخذهم معي الى رباي وأربيهم . ولما علمت جمعية لندن الجغرافية باكتشافات هذين الجوابين أرسلت بعثة عقدت عليها اصابطين من الجيش الانكليزي الهندى وهما ريشارد بورتون ، وسبليك ، فسافروا من زنجبار سنة ١٨٥٨ م واكتشفوا بحيرة تانغانيك (٢) ثم بحيرة نياسا التي لم يروا الا قسماً منها واطلقوا عليها اسم بحيرة فكتوريا ثم توغل سبليك ورفيق آخر معه في شمالي خط الاستواء الى الغرب ، فصادقا نهراً ظناً أنه من أصول النيل ، ثم سارا في نحو الشمال فوصلوا الى غوندوكورو في بحر الجبل ، وولافيا مع صموئيل باكر وأمرأته الماتين كافا يبعثان عن منابع النيل آتين من الخرطوم .

وبعد عشر سنين من هذا التاريخ تلاقى هانرى ستانلى مع ليفينغستون في أوجيجين على شاطئ التانغانيك . والصابط كامرون خرج من زنجبار سنة ١٨٧٣ فلقى في الطريق قافلة الزوج الامناء ، التي كانت آتية بجنة ليفينغستون وأوراقه الثمينة ، وسار

(١) ١١ مايو عام ١٨٤٨

(٢) ١٣ فبراير ١٨٥٨

من الشرق الى الغرب مخترقا جميع قارة افريقية واكتشف مجرى لوكايا Loukaya ولوالابه Loukadei ونفذ الى ساحل بنقويلا Benguela على سيف الاطلاتيك (١٨٧٨) . ثم ان هانري ستانلي تمكن من نقل مركب بخارى الى بحيرة فيكتوريا نيازا ، خلال في جميع اقسام هذا البحر الداخلي وأقام مدة ببلاد اوغاندا Ouganda ، ثم ضرب الى الغرب ، فوصل الى أعلى نهر الكونغو وعرف الشلالات التي سميت منذ ذاك الوقت باسمه . وأما الضابط البرتغالي مربيا بنيتو Serpa-Pinto فاخترق هذه القارة من الغرب الى الشرق ، اذ سار من بنقويلا في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٧٧ ، وأوغل في مجاهلي ناتو ، وهيرامبو ، وبيهي ، ووصل الى الزامبيز الاعلى ومنها الى بلاد المانيبييه Maniche ، والترانسفال .

فاسفار هؤلاء السباح حاجت شوق جميعات التبشير الى بث الدعوة الدينية ، لاسيما كتاب ستانلي الى مسيحيي انكلترا الذي حرره من مقرميسه Mesa ملك الاوغاندا (١٨٧٨) فقد أحدث هياجا عظيما ، ورأيت جميعات كليات اكسفورد ، وكلمبريدج ، ودبلن ، وجمعية الكنيسة الانكليكانية ، والاباء البيض ، والمبشرين الالمان ، يقاسمون الى رود هاتيك الارباب والدعاة فيها .

وهذه الاسفار أيضا كان لها التأثير الأكبر في اهتمام الدول الأوربية بمنع تجارة الرقيق المخجلة^(١) وكانت انكلترا هي السابقة في هذه الخلية ، ولما كانت جزيرة زنجبار هي أعظم مركز لهذه التجارة فقد اجبر الانكليز سلطان زنجبار عام ١٨٧٣ على الغاء تعهد بمنع تجارة العبيد ، وأخذت مراكب انكلترا تضبط جميع مراكب العرب التي تجر فيها عبيداً ، وكثر عدد هؤلاء المنتقلين ، فعمروا اطم مكانا يشتغلون فيه فساد جزيرة ممباسا سنة ١٨٧٦ انعقد مؤتمر جغرافي في بروكسل ، انتخب فيه ليوبولد ملك البلجيك رئيسا للشركة الشعوبية لتحضير افريقية ، وهذه الشركة ، هي التي أوجدت حكومة الكونغو الحرة .

وسنة ١٨٨٥ ، انعقد في برلين مؤتمر لتقسيم افريقية بدعوة ايرنس سيسارك ، وخرج في نصيب المانية حصص صالحة مثل مستعمرات الكامرون ، وتوفو ، وزنجبار ، ونقرر بين الدول المتشديد في إلغاء الرق ، والتعهد بحماية رسالات التبشير الساعية في تهذيب

(١) اوافق على أنها مخجلة

السود بدون تفريق بين المذاهب والأجناس ، كما ان حرية الأهلئ الدينية بقيت مضمونة وقد أيد قرارات مؤتمر برلين هذا مؤتمر انعقد في بروكسل عام ١٨٨٨ ، تداعت اليه جميع الدول النصرانية وأرسلت اليه بعض الدول الاسلامية مثل تركيا ، وإيران ، وزنجبار معتمديها ، وتقرر إنشاء دائرة دولية في زنجبار لمراقبة ابطال الرق .

الرسالات البروتستانتية في افريقية

لم تصل البعثات التبشيرية الى افريقية الا بعد البعثات الكاثوليكية بقرنين ونصف قرن ، وهو أمر طبيعي لأن البروتستانتية قبل أن تفكر في نشر دعوتها في خارج أوروبا ، كان عليها أن توطد قسمها في داخل أوروبا . ولكن البروتستانتين بعد أن بدأوا في التبشير سبقوا أقرانهم الكاثوليك في الاجتهاد والنجاح . وكانت الدول المسيحية يادئ ذي بدء أرادت حل النزوح على النصر بنفوذ الحكومات ، وسارت زماما على هذه الخطة ، ولكن دول انكلترا وهولانده ، والداينمارك ، رفضت في النالئ هذه الطريقة خشية حدوث الثورات في مستعمراتها ، وتركزت ابناء مهمة النصر للجمعيات غير الرسمية .

وان أكثر الأمم رسالات دينية في افريقية هي الأمة الانكليزية ، فانها تنفق بقدر ثائ نفقات الرسالات البروتستانتية بأجمعها . ولكن الذين بدأوا بالتبشير لم يكونوا الانكليز بل الألمان والداينمركيين . وقد كان أول من افتحم هذه الأخطار من الألمان هو المورافيين حاولوا الدخول من أربعة أبواب معا : الجزائر ، والشاغرة ، وساحل غينية ، والكاب . ففشلوا في الثلاثة الأبواب الأولى بسبب تلك أهل الاسلام بدنيهم ، وبتافست بهم الحئ ن غينية ، فقد كانوا يرسلون الفوج بعد الفوج ، فتحصدهم الحئ نباعا حتى عدلوا عن رسالة غينية ، ولم يستأنف العمل هناك الا بعد ستين سنة بواسطة جمعية (بال) من سويسرة ألمانية . أما في بلاد الكاب ، فقد كانت هم اليد الطولى في تهذيب الهونتوت والكافر Kafres ، وتخفيف آلام المجنومين ، ولما توطن البشر الألماني جورج شميد في بافانز كوف على ٥٠ ميلا شرقي الكاب ، كان الفلاحون الهولنديون « البوير » يحتقرون الهونتوت الى حد أنه هو قرأ امام عدة كنائس الاعلان الآتي « ممنوع دخول الهنتوت والكلاب الى هنا » . وسنة ١٧٩٢ أسس المورافيون في تلك البلاد مركزاً أطلقوا عليه اسم وادي الرحة Guadental ، وفي سنة ١٨٠٠ صار هذا المركز قرية ذات ١٢٠٠ نسمة

فيها صناعات وأشغال مفيدة ، واليوم هي من أزهر بلاد الكاب ، وفيها ثلاثة آلاف هوندتوتى مسيحي . ثم أوغل المورافيون في بلاد الكافر إلى مسافة ٦٠٠ ميل شرق الكاب . وعاشت أعمالهم حروب الانكايير مع أمة الكافر ، لكنهم ثبتوا في موقفهم وصبروا على الشدائد من سنة ١٨٢٨ إلى سنة ١٨٨٥ ، إذ وقفوا إلى تأسيس مركز في شمال بحيرة Nyassa في الجنوب الغربي من المستعمرة الألمانية الشرقية . وكان للبعثة المورافية عام ١٩٠٢ نحو ١٢ مركزاً ، ٢٢ مدرسة ، و ٢٠٠٠ تلميذ ، ونحو ١٠ آلاف متنصر وعلموا الأهالي البناء والحرث . ولكن أهم عمل قاموا به هو معالجة المجاذيم ، فان الانكايير منذ سنة ١٨١٨ بنوا مستشفى لجنوبي الهوندتوت وسلموا خدمته إلى المورافيين ، وكان مستشفى واسعاً ذا جدران عالية وباب واحد ، فلبثوا يخدمون هذا المستشفى ٤٤ سنة ، وكان الدكتور لايتز مدير المستشفى متعزياً عنه وفاته ، بأنه وجد من المجاذيم ٩٥ رجلاً قبلوا الدين المسيحي . ولما أرادت الحكومة الانكاييرية استبدال فسوس انكايير بهم ، خرجوا من ذلك المعهد الصحي ياكين ، ومن الغريب أنه لم يسب ولا واحد من المورافيين بالجلد مع شدة عدوى هذا المرض .

ويأتي بعد المورافيين دعاة جمعية بال (أو بازل بالألمانية) فقد نطحوا إفريقيا سنة ١٨٢٨ بطلب ملك الدانمرك ، فذهبوا إلى ساحل الذهب وكانوا سبعة ، فأت منهم خمسة بالي ، والتجأ أحد الاثنين الباقين إلى أحد الجبال حيث الهوا نقياً ، فجعل هناك مركز رسالة ومصحة معاً ، وسنة ١٨٣٥ أسس في اكروينغ كنيسة لتصاري السود ، وكانت مبادئ العمل في غاية المشقة إذ مضت ٣٤ سنة ولم ينتصر سوى ٨٠٠ شخص ، ولكن منذ سنة ١٨٥٧ أخذت الرسالة تنجح وعدد المتنصرين يسمو ، حتى كان مجموعهم سنة ١٩٠٢ نحو ١٨ ألفاً . وهذه الرسالة اليوم ممتدة إلى بلاد الاشانتي التي قاعدتها كوماسي ، وإلى حدود مستعمرة طوغو الألمانية . ولها أيضاً تسعة مراكز في مستعمرة الكامرون الألمانية ، حيث بلغت حولها نحو ثلاثة آلاف نصراني كامروني ، وعندها في الكامرون ١٣٧ من الكتائب ، يختلف إليها نحو ٣٢٠ ولد . وقد ترجم رجال هذه البعثة النوراة إلى اللغة المسماة دوالا Donalla

ثم جمعية برلين الإفريقية وهي إحدى جمعيات برلين الانجيلية ، أسسها ديستكامب

Diestelkamp سنة ١٨٨٦ للتبشير في شرقي افريقية ، فأرسلت دعائها الى الجنوب الغربي من مملكة الاورانج ، والى غربي غريكا ، والى بلاد الباسوت في الترانسفال ، والى شمالي بحيرة نياسه ، فيوجد لها في هذه الأيام ٢٧ مركز دعاية و ٢١ ألف منتصر ، وازهر مؤسساتها مدينة بوتشابيلو ، التي عدد سكانها ٤ آلاف كلهم نصارى ، وفيها صناعات ومهن في غاية الفائدة .

ثم جمعية الكنائس الانجيلية في بلاد الزين أرسلت دعائها للتبشير في بلاد الهوتنتوت ، ثم نظمت بلاد الناما Xaumas ، والهريرو Herreros الذين هم من أشد القبائل عشواً والافامبو الذين بين نهر الاورانج والكوفين ، ثم إن أحد البيوتات التجارية الألمانية من برآم أسس محلاً تجارياً في اونجيمبنغه Oujimbenge فأمده هناك الامان وجعلوا لأنفسهم مستعمرة سموها مستعمرة الجنوب الغربي الافريقي ، فالرسالة الانجيلية الربنة عندها في هذه الأيام في مستعمرة السكاب ٢٥ مركز دعاية ونحو ١٦ ألف منتصر ، وفي مستعمرة الجنوب الغربي المذكورة ٢٤ مركزاً ونحو ١٢٥٠٠ منتصر .

ثم جمعية شمالي ألمانيا التي مركزها برآم ، وجمعية هرمانسبورغ التي مركزها هانوفر هما أيضاً تشغلان في الدعاية بافريقية ، فالأولى تخدم هذا المقصد في ساحل العبيد وعندها نحو ٣ آلاف مرید ، والثانية تشغل في بلاد الباسوتو شمالي الترانسفال ، والباسوتو قوم كان البوير يعاملونهم معاملة أرقاء . ثم تقدم دعاة هذه الجمعية الى بلاد الزولو ، وشرعوا في التعليم والتبشير ، فن نصف قرن الى اليوم صار عندهم نحو ٤٣ ألف منتصر .

ثم تأتي جمعيات السويد والنرويج ، فلاسويد جمعية تبشر في مستعمرة ايطاليا بالاريفرد ، وفي بلاد كوتانه ، ومقاطعة خازره ، شمالي الحبشة الى الغرب ، وكان عندها سنة ١٩٠٢ عشرة مراکز و ٥٠٠ مرید و ١٤ مكتباً للصغار . أما النرويجيون ، فقد أسسوا في ماداغسكير رسالة في غاية العظم ، فانتخبوا مقاطعة بنسيليو للعمل بالاتفاق مع جمعية لندن التبشيرية ، ثم تقدموا الى بلاد ساكالاف في الساحل الغربي من ماداغسكير ، والى الساحل الجنوبي الشرقي . وبعد جهد استمر ٣٠ سنة ، كان عندهم سنة ١٩٠٠ خمسة مائة مكتب ، وواحد وخمسون ألف وثلثمائة مرید ، ولهم أيضاً مدرسة علمية عالية ، ومدرسة لاهوتية ، ومدرسة طبية تابعة لمستشفاهم بتاناناريف .

ثم الجمعيات الهولندية ، وأول من اعتنى منها بالتبشير ، جمعية تأسست سنة ١٧٩٧ في روتردام ، اسمها جمعية جنوب افريقية لتوسيع مملكة المسيح . وكان بطلاها ثيودور فان دركامب وكيشمرر ، فذهبا الى بلاد الكاب وباشرا العمل في بلاد الهولنتوت وعند ذلك اشنت عزيمة الكنيسة الهولندية في الكاب ، فقامت بتأجير عابها من التبشير بين زلوج بلاد الأورانج والفرانسغال . ولما دخلت بلاد الكاب تحت سلطة انكلترة سنة ١٨١٥ ، انطلقت أيدي الجمعيات التبشيرية الانكليزية في العمل لاسيما جمعية التبشير بالانجيل المعروفة بهذه الأحرف الثلاثة S.P.G. فقد بنت البداية بين الأهالي مهمة المطران غراي ، وستة ١٨٦٤ دخلت هذه الجمعية ماداغسكير ، وأُسست كرمي اسقفية في تاناناريف ، وصار عندها ١١ الف مرشد .

ثم برزت الى الميدان جمعية رسالات الكنيسة الانكليزية المؤسسة عام ١٧٩٩ ، وكان معظم همها مصر وفا نحو افريقية ، وكانت كلمتها « ينبغي رجال ذوو عقل ديني لا كمال عمل روي » وفي البداية كانت تكتب أكثر دعايتها في ألمانية ، فقد أخذت من مجمع مدينة بال وحده ثمانين داعياً كلهم من الطراز الأول . وكان ميدان عملها الكاب ووادي النيجر الأوسط ثم مومباسه ، ثم الأوغانده حيث وقع الخلاف بين المبشرين الكاثوليكين والمبشرين البروتستانتين وجر الى معارك دموية ، ومع هذا ، فإن هذه الجمعية جمعت حولها ١٦٤ الف متنصر في الأوغانده وحدها وكان يوجد هناك نحو ٢١٢ الف زنجي كاثوليك ، و ٤٠ ألف مسلم . ولا يزال نحو ٣٨٠ الف زنجي على عبادة الأصنام ^(١) فالرسالة الانكليزية بواسطة هذه الجمعية تمكنت من تأسيس خمس عشرة اسقفية وهي ماياقي : اسقفية الكاب (١٨٤٧) سياراليون (١٨٥٢) نانال (١٨٥٣) ، غرامستاون (١٨٦٣) ، بلومفونتن (١٨٦٣) ، الزولو (١٨٧٠) سان جان في بلاد الكافر (١٨٧٣) تاناناريف ومدغسكير (١٨٧٥) ، بريتوريه (١٨٧٨) ، زنجبار وشرقي افريقية . خط الاستواء . بلاد النيجر . نياسه وماشونه في روديزيا Rhodésia . ويضاف الى هذه الاسقفيات مدارس للعلوم والمهن كالخداة ، والتجارة ، وجر الأثقال ، وغيرها ، وأشهر هذه المعاهد الذي في غراهامستون ، ثم الذي

(١) قرأت في بعض الكتب الفرنسية أن الانكليز عززوا قوة البداية الانكليزية بالسلاح في الأوغانده وضاهوا الكاثوليك والمسلمين

في بلاد الكافر ، ثم الذي في جوار الكاب ، ثم الذي في كيبوزي .

ولقد اعترف بحلائل أعمال هذه الجمعيات أبعد الناس عن الدعوة الدينية . فقال البره
ركلوس الجغرافي الفرنسي الشهير : انه بتأثير دعاية الجمعيات الانكليزية دخل كثير من
زنوج سيرااليون في النصرانية وصار منهم أكثر الوعاظ والمبشرين ، وأقبل الناس على التعلم
وتحرر الأرقاء ، وتأسست ملكة سوداء حرة .

ثم جعية رسالات لندن المؤسسة سنة ١٧٩٥ ، أرسلت دعايتها الى بلاد البوشمن في
الأورالنج الأعلى ، والى ماين بلاد الكاب وبحيرة نافي ، والى جزيرة ماداغسكار ، وأسست
سنة ١٨٧٧ مرا كثر بقرب تنقانيكا ، واورامبو ، واوليجي . وقد كان مریدو هذه الجمعية
بلغ عددهم سنة ١٨٥٠ في بلاد الكاب ٣٥ ألف نسمة ، وأما في سنة ١٩٠٢ فكان عددهم
٩٦ ألفاً عدا رعية كنيسة نانال . وتنصر على يد لبقفستون أحد أولاد ملوك بلانغواتو
الدعوكامبا ، فنع استعمال الأشرية الكحولية بين الأهالي .

وقد افتتحت بالكنيسة الانكليكانية الكبرى الكنائس التالية ، فالكنيسة المعمدانية
نشرت دعوتها في خليج غينية وجعلت لنفسها مركزاً في جزيرة فرناندويو الاسبانية ،
ثم بنت دعايتها في الكامرون حيث بنت مدينة فكتوريا التي صارت قاعدة مستعمرة
الكامرون الألمانية ، وتركت في تلك البلاد مآثر عظيمة من تركية الأخلاق . والقضاء الرق
وابطال السحر واسقاط السحرة الى أن صاروا يتوارون في الغاب وصارت الفيشية سخرة
يهزأ الجميع منها . ولما استولى الألمان على الكامرون لم يرتاحوا الى وجود المبشرين
الانكليز فيها ، فتخلوا هؤلاء عن مؤسساتهم لجمعية بال الألمانية (١٨٨٧) ، ولبت التصاري
الوطنيون مستقلين بكنائسهم . وتحولت الجمعية المعمدانية من الكامرون الى الكونغو
حيث كان البرنقاليون قد أدخلوا كثيرين في الكنيسة ، فاجتهد الانكليز المعمدانيون في
استمالة قسم من أهل الكونغو ، ولكن الى اليوم لايزيد عدد المنتصرين على أيديهم على
أكثر من ٦٠٠ نسمة (١٩٠٦) .

ويرجع الى هؤلاء المعمدانيين الفضل في تنبيه الأفكار ، الى ما كان يجريه عمال
البلجيكي في الكونغو من المظالم والفظائع ، التي نشمئز منها الطباع ، والتي شاع ذكرها فيما
بعد ، فصدر أمر ملك البلجيكي ليوبولد حينئذ بالتحقيق عن هذه الفظائع ، وثار من أجل

ذلك غضب أولئك المستخدمين الذين افترضت أعمالهم لكن المبشرين قاموا بواجبهم تجاه
انصرانية والانسانية جميعا .

ثم الكنيسة المسماة بالميثودية Wesleyenne ou Méthodiste ^(١) بدأت بالتبشير
في سيراليون سنة ١٧٩٩ ، ونجحت نجاحاً عظيماً حتى بعد مريدها اليوم بنحو ٧٥٠
ألف نسمة منهم ١٥٠ مبشراً زنجياً وعندها فروع ممتدة من غامبيه الى النيجر . والكنيسة
الميثودية هذه رعية في بلاد الكاب ، والكافر ، والزولو وعصى مريدها هناك بنحو ١٠٠
ألف نسمة . وفيما بين الزنوج الميثوديين ظهرت الحركة المسماة بالانيوية Ethioisme
التي معناها نزوع المسيحيين السود من أمة البانتو Bantous في جنوب افريقية الى ادارة
الكنائس الأهلية بدلا عن الأوربيين ، عملاً بقاعدة « افريقية للأفريقيين » ، وقد
بزغت هذه النزعة سنة ١٨٩٩ في الترانسفال ، وأخذت اسم الانيو بية بحجة ان أصحابها
يريدون الانتماء الى الكنيسة الانيو بية أي الخبشية ، لأنها كنيسة مسيحية أصلية في
افريقية تأسست منذ أيام الخواريين . وهم يرمون المبشرين الأوربيين بكونهم غالبا
يجعلون التبشير مصيدة للدنيا ، وغرضا من أغراض السياسة والتجارة ، ولا يفهمون
حقيقة احتياج الروح السوداء ، فرماهم تأسيس كنيسة افريقية حرة لا تحت سيطرة
المبشرين الأوربيين ، ولكن أصحاب هذا المشروع كان ينقصهم العلم اللازم والقوة الكافية
لتحقيقه ، فراجعوا الكنائس السوداء بأمر كالأجل مساعدتهم ، فلم يفوزوا بطلبات يذكر
فانضموا سنة ١٩٠٠ الى كنيسة الكاب الانجليكانية ، واتخذوا لقب الجمعية الخبشية
وعددهم نحو ١٠ آلاف ، ^(٢)

ثم الكنيسة البرسبترية Eglise Presbytérienne في بلاد الايكوس لها مراكز
دعابة في بلاد نائال ، وعندها مدرسة في بليشفورد . وكذلك الكنيسة الايكوسية الحرة لها
مراكز في بلاد الكافر ، والزولو ، وعندها مدرسة صناعية في لوفيدال ، فيها نحو ٥٠٠

(١) كنيسة پروتستانتية أسسها في كنفورد يوحنا ويلي John Wesley سنة ١٧٢٩

(٢) يعلم القارىء المفكر من هنا ان نزعة الاستقلال تحت جميع الأمم حتى السوداء ، وصارت الى
المسائل الدينية أيضاً كما قد قسم من الزنوج يتصورون على أيدي الأوربيين حتى نهضوا يظليون استقلالهم
الكنسى ، ويغنون الى الحبشة التصاري ، ملتمسين الانضمام اليهم لأنهم امرغيون في الجنس .

طالب ، و يفتحها مزرعة نموذجية ، تبلغ غلتها كل سنة ألف قنطار من الحبوب
وبالاجال فالرسالات الألمانية امتازت بالتدقيق في اللغات الافريقية ، وبالنبات وحفظ
النظام ، ولكن الرسالات الانكليزية والايكوسية امتازت بالجرأة وبعد الهمة ، وبالصدق
في تحرير الزنوج ، ومنع المظالم الواقعة عليهم من المستعمرين ، على ان كلا الفريقين
ادخل في افريقية الشغل اليدوي ، والصناعة والزراعة ، مقرونة بالتعليم الديني والتهذيب ،
فصرت ترى من هؤلاء السود زراعا وعشفاً^(١) وممرضين وميكانيكيين وقوانين على
التلغراف .

أما البروتستانتيون الفرنسيين فقد أرادوا الاقتداء بغيرهم من أبناء سائر الكنائس
الانجيلية ، وتأسست لهم جمعية تبشير في باريس سنة ١٨٢٨ ، وأرادت بث دعائها في العالم
الوثني مبتدئة في ذلك بالمستعمرات الفرنسية مثل جزر الانتيل ، والبونديشيري ، ولكن
الكاثوليكين أبوا ذلك ، فلم يسمح كارلوس العاشر ملك فرنسا للبروتستانت الفرنسيين
بالتبشير في تلك الأصقاع ، فاعمل هؤلاء همهم في بلاد الكاب لاسيا عند جيل يقال لهم
الباسونتو Bassontes وقد مضى على دخولهم تلك البلاد سبعون سنة هذبوا فيها أخلاق
هذا الجبل ، وأوجدوا بينهم العلوم والمهن ، وأسسوا مدارس وكنائس ومطابع ،
وعندهم الآن ٣٠ ألف مسيحي من الأهالي و ١٢ ألف ولد في كنائس الجامعة ، وقد جمع
المبشرون لغة هؤلاء القوم في معجم ، وألقوا لها نحواً وصرفاً وآداباً ، ورجعوا لها
النوراة .

ولما تأسست في فرنسا الحكومة الحرة أذنت لهم بالتبشير في المستعمرات الفرنسية ،
فذهبوا الى السنغال سنة ١٨٦٢ ، والى الكونغو الفرنسي ، والى زيمبيزية العليا ، والى
ماداغسكير . فأما الرسالة السنغالية فكان عليها أن تتجادل خصمين عنيدين . المناخ الوبي ،
والتعصب الاسلامي . وبالرغم من ذلك ، تمكنت من تأسيس مركزين أحدهما في سان لويس
والآخر في بونديسور . أما في الكونغو الفرنسي فكان أولاً المبشرون الامريكيون من
الكنيسة البرسيبيترية ، فلما قضت الحكومة الفرنسية بتعليم اللغة الفرنسية بصورة اجبارية
دعا المبشرون الاميريكيون جمعية التبشير البروتستانتية الفرنسية لأخذ مراكزهم (١٨٩٢)

(١) جمع عشيق أو عشوق وهو الذي يسوى رباحين الخدائق

وأسسوا أربعة مراكز جديدة ، وشرعوا في الوعظ بين قبيلتين أحدهما يقال له الغيلوه Gailous والثاني الباهوين Patonius . وأما في زمبزيه العليا فأنهم جعلوا ميدان عملهم بلاد الباروتري Barotsis ، فتجسجسوا نجاحاً عظيماً ، ومن لم يقنصر من هؤلاء القوم ، فقد تهذبت أخلاقه بالاحتسكال مع المبشرين ونشر التعاليم المسيحية ، ومنهم لقانبكا ملك البلاد الذي أمر بمنع الأشرقة الكهوية في مملكته ، فالبعثة الفرنسية الانجيلية عندها هناك ستة مراكز مع مدارس وكنائس عديدة . ولكن بدأت تراجعها منذ سنوات في ذلك القطر الجمعية الحبشية المار ذكرها ، والتي ميدها « افريقية للأفريقيين » .

ولما استوت فرنسا على ماداغسكر بتامها سنة ١٨٩٥ ، كان التبشير في هذه الجزيرة الكبرى في يد الجمعية النور ونيجية ، ورسالتين انكليزيتين احدهما رسالة لندن ، والثانية رسالة الكويكرس . فلما زحفت العساكر الفرنسية ، انهم بعض دعاة رسالة لندن بتحرير امة الخوفا Havas على المقاومة ، فطلبت الحكومة الفرنسية نخلي رسالة لندن عن قسم من مؤسساتها لرسالة فرنسا الانجيلية ، وكان لرسالة لندن حينئذ خمسمائة كنيسة ، وثمانمائة وخمسة وسبعون كتاباً للأولاد . ولم ينخل هذا الأمر من احداث شكوك وشبهات في افكار الماداغسكريين المنتصرين حديثاً فاحتبل الجزيرة بهذه الفترة لتحذير الحكومة من البروتستانتية ، وزعموا ان بروتستانتى هو مرادف انكليزى ، وان كاثوليكي مرادف لفرنسى أو محب لفرنسا ، فمساعدت بعض ضباط الفرنسيين ألقوا في السجون عدداً كبيراً من القسوس الانجيليين من الوطنيين ، وانزعجوا منهم نحو مائة كنيسة ومدرسة ، وسلموها الى الرسالة الكاثوليكية . وما زال هذا الاعتداء واقعاً حتى تولى الجزيرة الجنرال غاليانى ، فأبطله . والآن تحت يد البعثة الفرنسية الانجيلية في ماداغسكر في مقاطعة اميرينه Imérina ٣٤٢ كنيسة يختلف اليها ٧٧٧٥٨ مؤمناً وفي مقاطعة بستيليو Bestileo ١٨٧ كنيسة يختلف اليها ٣٣٣٢٩ مؤمناً ، هذا عدا المدارس الابتدائية والعالية ، ودور المعلمين والمعلمات ، ومستشفى للجذام .

ولا ننسى مساعى الكنيسة الانجيلية الميثودية الفرنسية في بلاد البربر Kabylie من جزائر الغرب ، فقد ذهب الى هناك مبشر اسمه جلابرت عظيم الثبات والمهارة بفعل مركزاً في المن Mathen ، وآخر في الفصور ، وآخر في بجاية ، ونشر عدداً من المسلمين

أكثرهم من البربر ، فظهر أن نصير المسلمين لاسيا من أمة البربر ، ليس من الصعوبة بالدرجة التي كانوا يظنونها .

ثم إن الأمريكيين قد تعاطوا أيضا التبشير في افريقية وذلك ، أن سود امريكا اهتموا باخوانهم سود افريقية من قبيل فطامن الجلدة ، وإن البيض تذكروا انهم هم الذين كانوا قد أتوا يهودا ، السود واستخدموهم واستعبدوهم ، وأذا فوجهم العذاب ألوانا ، فرسالهم التبشيرية إلى افريقية ، هي تكفير جناية الاعتداء على الإنسانية مما ارتكبه آباؤهم بحق الافريقيين .

فللأمريكيين في افريقية ثلاث رسالات : الرسالة الميثودية ، والرسالة المعمدانية ، والرسالة البرسبيترية . فلما تأسست مستعمرة ليبيرية في ساحل غربي افريقية وجاءها الزوج من امريكا (١٨٢٠) أوانت الكنيسة الميثودية أن تؤسس في ليبيرية مركزاً فلم تتمكن من ذلك ولكن سنة ١٨٥٨ أسست أسقفية وجد فيها وعظ مشهورون مثل بورنس وتايلر . (١)

(١) سنة ١٩٢٢ كان محرر هذه السطور من مجلة الولد السوري ، المطالب باستقلال سورية في جنيف لدى جمعية الأمم ، تحب العادة كنا نطلب من جميع الوفود الدولية بدون استثناء ، الملائمة معهم لبسط القضية السورية لهم ، فكانوا في الغالب يسيرون سؤالا ولما كانت جمهورية ليبيرية هي من جهة أعضاء عصبة الأمم ورد لنا الجواب من مندوبيها أيضاً بتعيين موعد للملافة ، فتعبت أنا وزميلي احسان بك الجابري . ونذكرنا ساعة ذهابنا ، كيف ان حكومة أمة سوداء زنجية تكون حرة مستقلة وعضواً في جمعية الأمم ، وإن قطراً مثل سورية وفلسطين هما من أقدم وأشرف أقطار العالم ، وأمة ككلامه العربية تكون محرومة استقلالها ، ولا يكون لها حق أن تساوى هذه الأمة الزنجية الصغيرة ، في الجلوس على كرسي في عصبة الأمم . ولما وصلنا إلى المحلل الذي فيه مندوبو ليبيرية اللذان اتانان أوربان ، تسكلامعنا بالفرنسية ، وعرفنا منهما انهما مندوبان تلك الجمهورية ، فشرحنا لهما قضيتنا وانتمنا منهما كالعادة ضم أصواتهما إلى أصوات الذين يطالبون باستقلال الأمم ، فاعتذرا بأنهما يخافان الضرر من غرمائنا الفرنسيين والانسكليز فيما لو رفعنا أصواتهما باسمائنا في مطالبنا ، إذ قال لنا ان جمهورية ليبيرية صغيرة ومجاورة لمستعمراتهم ، فيمكنهم الانتقام من الليبيين ، ونحن في الباطن عذراهما ، ولكنهما قال لنا ، انهما يمتنان لنجاح قضيتنا ونجاح كل البلاد الاسلامية فأنشأناهما وهل في جمهورية ليبيرية مسلمون ؟ فالتفت أحدهما وقال مؤكداً : « ان جمهورية ليبيرية سكانها مليون وخمسة ألاف نسمة ، منهم ثلاثمائة ألاف نصارى ، ومليون ومائتا ألاف مسلمون ، فأنشأناهم كم عدد الأوربيين في ليبيرية ؟ فقال : الأوربيون التابعون لليبيرية هم ٥٠٠ نسمة لاغير . فلم نرد في السؤال على ذلك ، ونظن ان ازدياد عدد المسلمين هناك أمر حديث العهد . »

أما الرسالة المعمدانية الامبركية فلها مراكز في موتر وفيه ، وسيرايلون ، وفي ليبيريا ، وفي بلاديوروبه ، وقاعدتهم في هذه لانتوس على ساحل غينية . وقد عضدهم في مساعدتهم كلها مبشرو الجمعية المعمدانية السوداء .

وأما الكنيسة البرسبيترية الامريكية ، فقد وجهت نظرها من الأول الى مصر (١٨٥٤) ، وساعدها الخديوى سعيد باشا في مشروعاتها ، فبثت مدارس في القاهرة والاسكندرية وسنة ١٨٦٣ ، استت الكنيسة القبطية الانجيلية وصارت لها شعب في أسبوسة ، والاقصر ، والمنصورة ، وسنة ١٨٩٥ ادخلت النصرانية في اسوان بعد أن كانت انقرضت من هناك منذ ١٢ قرناً ، فالأقباط الانجيليون اليوم (١٩٠٦) يبلغ عددهم ٢٥ ألفاً وانهى المسيحيون موري كلامه الملخص هنا بقوله : ان نجاح هذه البعثات الانجيلية كلها في افريقية ، دليل على كون قوة الدعاية النصرانية لا تغلب فيما لو تجردت من الأغراض السياسية ، فانه لا يوجد آفة على التبشير أعظم من المآرب الاستعمارية ، اذ بذلك الأهالي يجعلون التبشير لجميع الآثام والموبقات ، التي تصدر من عمال الحكومات المستعمرة .

نهضة الاسلام في افريقية وأسبابها

ووسائل دعوتها

(١٧٩٠ — ١٩٠٠)

قال : ذكرنا مجاهدات الرسائل الكاثوليكية والبروتستانتية في افريقية ، سواء ، لأجل إعادة الأقباط والاحباش الى حظيرة الكنيسة الرومانية ، أو لأجل تنصير الزنوج ، وفي علينا استئناف الكلام على امتداد الاسلام في افريقية .

فقد رأينا كيف ان الاسلام بين سنة ٦٣٨ و ١٠٥٠ مسيحية في دوره الأول فتح سريعاً شمال افريقية وأدخلها في دينه ، وامتد من ساحل البحر المتوسط الى السودان امتداداً كان بطيئاً ، لكنه كان أميناً . وقد توقف سير الاسلام قليلاً في القرن العاشر بسبب ثورات البربر ، وحروب الروم ، وقتل ملوك المغرب بعضهم مع بعض ، ولكنه استأنف همته وأدخل في حظيرته نصارى النوبة ، وأمم الغالة ، والسواحليين (سواحل زنجبار) ، وفبائل الصحراء ، ثم أسس في السودان ممالك عزيزة ، ومراكز

عظيمة لبث الدعوة ، وهذا في دوره الثاني .

أما في الدور الثالث من سنة ١٧٥٠ الى ١٩٠١ فقد نهض نهضة تالفة ، على أيدي مشايخ الطرق أو الإخوان ، وذلك انه في أواخر القرن الثامن عشر ، لما دخلت الدعوة السبر ونسائية من كل نوع الى افريقية ، وضاعفت الكنيسة الكاثوليكية فيها مجاهديها بسائق المنافسة ، كان لابد من أن يتنزه الاسلام لمقاومة النصرانية ، وان يشتد الصراع بين هاتين القوتين المتقابلتين ، مقرونا ذلك بالاهواء السياسية ، التي تزيد شدة وحدة .

وأكثر أسباب هذه النهضة الأخيرة ، راجعة الى التصوف ، والاعتقاد بالأولياء ، و بظهور المهدي .

ثم ذكر المؤلف كيفية دخول التصوف في الاسلام عالم نأثره ، لأن مؤلفي الاسلام أدركوا بهذا الموضوع ، وأشار الى عقيدة الأولياء قائلًا ، انها مخالفة أشد المخالفة لروح القرآن وان نبي الاسلام ﷺ كان نظره عاليًا جسدًا الى السماء ، ومجتهدًا أن يعلو الى آفاق بعيدة بانظار المؤمنين و بصلواتهم ، ولكن المؤمنين لم يلبسوا أن شعروا بالاحتياج الى الوسيلة عند الله ، واتخذوا متوسطين نديد تعالى ، يكونون أقرب متناولًا . فلم يأت القرن الثالث من الهجرة حتى ظهرت في الاسلام العقيدة بالأولياء ، وابتدعت زياره قبورهم ، وصاروا يعتبرون لهم خصائص ، ويعزون اليهم الكرامات والخوارق وأصبح تسكل منهم أنباع ومريدون ، وأشبهت القضية العتيقة الكاثوليكية من هذا الوجه ، فالولي الفلاني يشفي من الرياح كما كان القديس فيا كر يشفي مرض الباسور . والشيخ محمد أبو طالب ، يقصده الناس لأجل لقبان الخواص الضائعة ، كما كانوا في النصرانية يقصدون القديس انطوان بادو والامام الشافعي ، يستغيث به طلاب الأزهر ، للنجاح في دروسهم والولي الفلاني هو شفيع المجامين مثل القديس ايف Yves . والآخر مستغاث السباح ، يقيمهم من المصوص في الطريق .

وأفاض المؤلف في ذكر الأولياء والقبور ، والقبب المشيدة للزيارات وأداء النذور بما

لا يحتاج القارىء الى معرفته ، ثم وصل الى عقيدة المهدي فقال :

معلوم الدور الذي أخذته عقيدة المسيح المنتظر في اليهودية وظهر فيما بعد أنها مستعارة من الفرس . كذلك المسلمون يعتقدون بظهور رجل في آخر الزمان يقال له المهدي

بلا الأرض فسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ويستدلون على ذلك بأحاديث للنبي ﷺ .
 ثم ذكر المهديين الذين ظهروا في الاسلام وأدعوا المهادوية فعد منهم ابن تومرت ،
 الذي ظهر بدولة الموحدين في القرن الثاني عشر للمسيح . ثم قال ان كثيرين من مسلمي الهند
 اعتقدوا في أكبر خان المغولي سلطان سلطنة الهند في القرن السادس عشر انه المهدي
 المنتظر ثم قال انه سنة ١٨٦٢ ظهر واحد من أمة البله Pahlavi من بلاد ماسينا في أواسط
 افريقية كان درويشاً من أتباع الطريقة التيجانية ، فزعم انه المهدي وأسس في السودان
 مملكة مستقلة ، ألا وهو الحاج عمر الذي سيأتي ذكره (١)

قال وأشهر المهديين في عصرنا محمد أحمد الذي ظهر في السودان سنة ١٨٨١ فشد
 خمسين ألف مقاتل من المؤمنين المتحمسين ، وهزم العساكر المصرية المرسله لقتاله في عدة
 وقائع ، واستولى على الأبيض قاعسة كردوفان وعلى بربر مفتاح بلاد النوبة ، ثم حصر
 الخرطوم عاصمة السودان المصري الواقعة في الزاوية المتشكلة من فرعي النيل الأبيض
 والأزرق ، وكان فيها قائد أكويسي اسمه غوردون فدافع عنها دفاع الأبطال ، ولكنه لم
 يقدر على المهدي ، فدخل هذا الخرطوم وقتل غوردون وأطاع له جميع السودان (١٨٨٥)
 لكنه لم تطل حياته بعد هذا الفتح فمات في ٢٨ يونيو سنة ١٨٨٥ تاركاً سلطنة عظيمة
 تمتد من اسوان الى النوبة الى دنقلا الى كردفان الى واحات دار فور . وخلفه عبيد الله
 التعايشي فوسع الفتوح التي كان فتحها المهدي وما زال حتى تغلب عليه الجنرال كينغز في ٣
 أغسطس سنة ١٨٩٩ في واقعة أم درمان ، وبقيت للمهدي أشباع تقايل في الأطراف ، إلا
 أنهم انقضوا شيئاً فشيئاً .

ولم يعترف جميع مسلمي افريقية بمهادوية محمد أحمد وكان من جملة المعارضين له رئيس
 الفرقة السنوسية ، (٢) ثم قال المسيو بونه موري مصنف الكتاب الذي نقلنا عنه كل هذا
 النقل ما يأتي ملخصاً :

- (١) هو الحاج عمر الفتوح قال في سيدي احمد الشريف انه كانت له صلة مع السنوسية وانه زار الجبلين
- (٢) هذا صحيح فان المهدي السوداني محمد احمد دعا سيدي محمد المهدي السنوسي للاعتماد معه ووعده بأن
 يجعله مقدم رجاله ، فرفض دعوته واحتج على دعواه ، وبينهما مراسلات في هذا الشأن أنبتها سيدي احمد
 الشريف في تاريخ جده وعمه الذي سبشره ، وقد اطلعت السيد المثار اليه عليه في هذه الأيام الأخيرة

انه في القرن الثاني عشر والثالث عشر للمسيح تأسست طرق الدراويش كأنها من نوع المقابلة للرهبانيات النصرانية في القرون الوسطى ، وللمحروب الصليبية . وفي القرن الثامن عشر والتاسع عشر حصلت نهضة جديدة عند أتباع الطريقتين القادرية والشاذلية ووجدت طريقتان هما النيجانية والسوسية .

القادرية

القادرية مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني انتوفى في بغداد (١١٦٦) ، وكان له حرمة حقيقية للسيد المسيح وكان يقول : « يلزم أن ندعو لائقنا فقط ، بل لكل من خلقه الله مثلنا » . فلذلك امتاز أتباعه بروح التسامح مع النصارى واليهود . والقادرية كثيرون جداً في المغرب وزاولتهم الكبرى في « عزراوات » أسسها الشيخ مختار الكبير . وبعد وفاته انقسمت القادرية الى ثلاث فرق : الاولى القادرية اليكالية الذين مركزهم الزاوية المذكورة ، وقد انتشروا الى تبككو . الثانية القادرية الذين في آدرار^(١) ، والثالثة القادرية الذين في والاته وقد انتشروا الى السودان الغربي فلهم مراكز في كانكان ونيمبو ، من بلاد فوناهلون^(٢) وفي مورساردو من بلاد الماندنق ،^(٣) ومن هذه النقطة امتدوا الى الجهات المجاورة فعمروا ديار بلال الله ، وذكر الله ، ومدينه . وما زالوا حتى وصلوا الى مقاطعة سيرايليون^(٤) وبالأجمال فالقادرية هم أحسن مبشرى الدين الاسلامي في غربي

(١) آدرار واحدة من الصحراء الغربية عرقى الرأس الأبيض على مسافة ٤٠٠ كيلو متر شمال السنغال أهلها بربر وغرب وأهم قراها ، شقيط ، ووادان ، وانار ، عرقها الاوربيون منذ سنة ١٨٥٠ بواسطة بر بولد ياند

(٢) أحد أقسام السودان الفرنسي واقع بين عينة الفرنسية والسودان المعروف بهذا الاسم والسنغال وعينة البرغالية وهو بلاد جبلية سكن ارتفاع أعلى قممها عن سطح البحر لا يزيد على ١٣٠٠ متر . ومنها نزع نهر البيجر والسنغال والغاللي والغامبية . ومناخها لا بأس به . وفيها معادن ومن مصلاتها الزيت والقطن والمنقط أي الكاوتشوك ، وأهلها سبائة ألف نسمة من جنس الجالوغة والبلة والثرينولور ، وكلهم مسلمون وامراؤهم يخال لهم النمل من جنس البلة . وعاصمة البلاد تيمبو وهي تحت حماية فرنسا ، يعرف عنها والى غنية الفرنسية . عن معجم موريس فال Maurice Wahl مفاش المعارف في المستعمرات الفرنسية (٣) جبل من الزنج في غربي افريقية ينسب اليهم قبائل البامبارا والمالينكة والسونكة

(٤) مستعمرة انكليزية على ساحل غينية يحدها غينيا الفرنسية شمالا والسودان الفرنسي من الشمال الشرقي والشرق ، وجمهورية ليبيريا من الجنوب ، والاقبالوس الاطلانتيكي من الغرب . عدد سكانها ١٢٦ ألف نسمة ، ومناخها وفي لكثرة مستقعاتها

افريقية من السبيل الى بنين ، التي يقرب مصب النيجر . وهم يفسرون الاسلام بطريقة سلمية أى بالاستعمار والتجارة والتعليم ، وتجد النجار الذين من السونينكة والماندجولة المنتشرين على مدن النيجر وفي بلاد كارنا Kaneta وماسينا Macina ، كلهم من مريدي الطريقة القادرية ومن مريديهم من يخدمون في مهنة الكتابة والتعليم ويفتحون كتابات ليس في زوايا الطريقة فقط ، بل في كل القرى فيلقنون صغار الزنج الدين الاسلامي أثناء التعليم ، ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا الى مدارس طرابلس والقبرون ، وجامع القرويين بفاس ، والجامع الأزهر بمصر فيخرجون من هناك طلبة مجازين أى أساتذة ، ويعودون الى تلك البلاد لأجل مقاومة التبشير المسيحي في السودان .

الشاذلية

أما الطريقة الشاذلية فقد تأسست في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي ، وهي من أوليات الطرق التي أدخلت التصوف في المغرب ، ومركزها يوزيت في مراکش . وكان من أشياخها سيدي العربي الدرقاوي (المتوفى سنة ١٨٢٣) ، الذي أوجد عند مريديه حساسة دينية شديدة امتدت الى المغرب الأوسط ، وكان للدرقاوية دور فعال في مقاومة الفتح الفرنسي . وبما امتاز به الدرقاوية هو شدة الطاعة لأشياخهم ، فان الدرقاوي المار الذكر كان يوصيهم ساعة موته قائلا : « يجب على الاخوان أن يكونوا في يد المرشد كالجثة بين يدي الغاسل » . فاشبه هذه المبادئ حتى في صيغة التعبير نفسها بمبدأ رهبانية اغناطيوس دولوبولا .

التيجانية

وهناك الطريقة التيجانية ، مؤسسها أحمد بن محمد التيجاني المتوفى في فاس سنة ١٧٨٢ ، وكان يتظاهر بالنساج مع غير المسلمين ، ومع هذا ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تنفك التيجانية عن استعمال القوة في محاربة أفرانهم ، ونشر العقيدة الاسلامية ^(١) . وأهم مراكز التيجانية عين ماضي على ٧٠ كيلو متراً في الجنوب الشرقي

(١) اذا لحظ القارئ ان تغير حقور النساج الذي كان عليه التيجانية لم يعم الا في النصف الثاني من القرن الماضي ، علم أنه لم يكن الا من أثر نكالب الكباء الذين جماعة لا تبحر وأمثالهم ، فما لاشاحة فيه أن النساج يولاه النساج ، والنكالب يهيج النكالب

من اللاغات ، وفي تياسين . وهم كثيرون في مراكنس ، ولقد تبع الطريقة التيجانية عدد كبير من أغالي ماسينه في السودان وأهالي فوناتورو Ponta-Toru وفوناجلون وأمة البلد وصاروا من أشد أنصار الإسلام وانضموا حول راية الحاج عمر ، فكانوا طيلة أربعين سنة هم سادة السودان من تمكنتو إلى الأقيانوس الاطلنטיكي .

وكان الحاج عمر هذا ابن شيخ مرابط ولد سنة ١٧٩٧ في قرية الفار من بلاد ديار^(١) قرب آبه وعاشه ، ثم حج البيت الحرام وزار المدينة ، وقرأ مدة في الأزهر وعاد إلى بورتو سنة ١٨٣٣ ، ثم ذهب إلى بلاد الهاموسه وأخذ يعظ الناس بالرجوع إلى عقيدة السلف ويطعن في أساهل الفاندية . وفي أثناء ذلك جاء أخوه أحمد ومضى به إلى بلاد فوتو من السنغال ، فخرج على بلاد البامباره وحصلت معه هناك حوادث وعوارض كثيرة ، لكنه تغلب عليها ، وانضم إليه في بلد كنكان^(٢) رجل يقال له محمد وسار على طريقته وأدخل في الإسلام فرقة من البلد يقال لهم الواسولونكة Ouassoulouké .

ولما علت كلمة الحاج عمر ونظر إليه الناس نظرهم إلى المهدي ، حشد جيشاً صغيراً وأثار جميع مسلمي بلاد غابون^(٣) وهزم البامباره الوثنيين شر هزيمة في تومبا ، واستولى بعدها على كونيا كاري^(٤) وسنة ١٨٥٤ جعل مقره العام في نيورو Niuru^(٥) ثم استولى على مملكة سيفو^(٦) وعلى بلاد ماسينه . وكانت وفاة الحاج عمر سنة ١٨٦٥ وهو في حرب مع زنجو ماسينه ، وقد خلف للطريقة التيجانية سلطنة اسلامية عظيمة في وسط بلاد الزنجو الفتيشين .

(١) ناحية من قطر السنغال على الضفة اليسرى من النهر بين الو من الغرب وتورو من الشرق

(٢) مدينة من السودان الفرنسي جنوب النيجر الأعلى أهلها خمسة آلاف نسمة

(٣) ناحية من بلاد الكونغو الفرنسي أشهر مدنها ليرفيل وغلاص Libreville et Glax وبلاد أولي Ouli وبلاد الرب Bigi ، وولد فيها دعائم الطريقة التيجانية . سنة ١٨٤٧ عاد إلى نواحي فوناجلون ، وبنى قلعة حصينة في دبنغراي Dinguiray ناحية من السودان الفرنسي شمال النيجر أهلها من التوكولور والزنجو المائينكة

(٤) من بلاد قبيلة الفرنسية

(٥) من السودان الفرنسي شمال السنغال الأعلى عاصمة احمدو الأولى أهلها من البلد ، اختصها الفرنسيين سنة ١٨٩٠

(٦) من السودان الفرنسي على الضفة اليمنى من متوسط النيجر قاعدة ملك احمد وافتتحها الفرنسيين سنة ١٨٩٠

ثم خلف الحاج عمر ابن أخيه ومريد آخر له اسمه احمدو شيخو بن عمر ، وحاولا توسيع فتوحات الحاج عمر ، وأثارا أهالي فونابورو والسونينسكه الذين في بلاد كاراته Kourou والتوكولور الذين في السينيغال على فرنسا ^(١) ، فصار وجود هذه السلطنة النيجانية في وسط السودان خطراً عظيماً على سيادتنا .

وكان تحرير الخلاف هو هذا : هل يتم تخمين السودان الغربي على يد فرنسا وضباطها والمبشرين المسيحيين ، أم على يد النيجانية ورسول الاسلام ؟

فالكولونيل ارشبنارد باخذه عنه Djenné ^(٢) وبندياقار ^(٣) أوقف غارة النيجانية في هذا القسم من افريقية ويسر فتح السودان بين يدي المدينة الاوربية . ثم عقب ذلك فتح الكولونيل دورغنيس ديهورد Dougnis-Desjardes ابامباناكو Bammakou واستلحاق القومندان غاليني Galigni لبلاد فونابالون ، وافتتاح الكولونيل ارشبنارد لبلاد ماسينه ، وتشوجت جميع هذه الفتوحات باحتلال تمبكتو (١٠ يناير ١٨٩٤) مما خاد أعظم الشرف للعساكر الفرنسية ، وأعاد ذكرى ظفر شارل مارتل في يواتيه Poitiers ، سبب ما كان يترتب من النتائج العظام لمستقبل افريقية ، فيما لو لم يتم هذا الظفر ^(٤)

النوسية

ثم النوسية وهم أشد عدااء للاوربيين من جميع طرق الدراويش ، وقاعدتهم لجهاد في الكفار وجعل كلمة المسلمين أجعين على العدو العام ، وكان مع هذا ، مؤسس هذه الطريقة سيدي محمد بن علي النوسي مستقلاً في رأيه غير متقيد بالذاهب . ^(٥)

(١) لا يخفى أن كل قوم يحافظون على استقلالهم فهم ثائرون عداً في نظر المستعمرين
(٢) بلدة من السودان الفرنسي إلى الجنوب الغربي من تمبكتو عدد أهلها سنة ١٨٩٢ سبعة احتيا
لفرنسيس سنة ١٨٩٢

(٣) من السودان الفرنسي في بلاد ماسينه لا بعد كثيراً عن منطقة النيجر اليبي
(٤) يشير إلى أن افريقية كانت تكون كلها اسلامية لولا قضاء فرنسا على سلطنة النيجانية منه . كما ان اوريا كانت تكون اسلامية لولا انتشار شارل مارتل على الغرب في يواتيه وهي الكلمة التي يقف عليها مؤرخو الانجليز .

(٥) سأل محرر هذه الظهور سيدي أحمد الشريف خليفة سيدي محمد بن علي النوسي ، وحقيقته ، عن حقيقة هذه الرواية ، فأكد ذلك ، وأما قال ان جده كان متبعاً للسلف . وقد لحظت ان الأستاذ الشار اليه يقف في الصلاة مثل المنقية وغيرهم ولا يرسل يديه مثل المالكية فسأله عن سبب مخالفته في ذلك

ولد محمد بن علي السنوسي بقرب مستغانم ^(١) سنة ١٧٩١ ، وقرأ العلوم في فاس ^(٢) ثم حج السيد محمد السنوسي بيت مكة (١٨٢٩) وفي أثناء طريقه تلقى اجازات كثيرة ، ودخل في عدة طرق ، وعاد الى المغرب وقرأ في لاغوات . سنة ١٨٣٩ عاد الى الشرق ، وأخذ يقرأ في الازهر ولكن أحد المشايخ راعه ما هو فيه من استقلال الفكر ، والنزوع الى الاجتهاد ، فافنى بمخالفته للشرع ^(٣)

وكذلك حصلت رية في أمره بمكة ، شبه الى بعض البادئ الوهابية ^(٤) ، ولكنه وجد في اتفاق تام مع السيد أحمد بن ادريس القاضي شيخ القادرية ، وعند وفاة هذا الاستاذ أسس طريقة جديدة وذهب الى افريقية ، وجال في برقة ، وبنى الزاوية البيضاء ، أول زاوية له ^(٥) . وكثر أتباعه في واحة الفرافرة ، وفي القطر الطرابلسي ،

لما اتى مع أنه مالك فاجاب ، أن جده كان يعترض على السادة المالكية في ذلك ، ويقول ان الذي ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم هو القبض ، وان الذين علوا السبال الذين من الامام مالك اخطأوا .
(١) مجلة يقال لها الواسطة

(٢) سيد أحمد الشريف يقول ان ولادة جده كانت سنة ١٢٠٢ هجرية وفي الترجمة التي ألحقها لجده ذكر ما تلقاه من العلوم وقرأ من الكتب ، وأساء من أخذ عنهم من الأشياء ، وهو شيء هائل بالمرء على أن يوفق أحد مثله ، وما يجدر بالله كذا أنه أخذ عن السيد أحمد بن ادريس ففهم حيا في عصر ، والسيد أحمد بن ادريس المشهور بالولاية أخذ عن سيد عبد الوهاب التلوي النعماني الذي عاش ١٣٠ سنة وأدرك الولي الكبير سيد عبد العزيز الخياط وأخذ عنه ؛ ويظهر أن أبناء البيت السنوسي كلهم منقسمون الى العلم . فان والده السيد محمد السنوسي وجده وأمامه وأبنا ، أعمامه ، وكثيراً من قبائهم مثل جده لأبيه السيدة الزهراء . وعنه السيدة فاطمة كانوا علماء ، وأما كثر تربية السيد السنوسي كانت على يد السيدة فاطمة الشار الشيا ، وكانت من فصليات أهل زمانها . متبحرة في العلوم ؛ منقطعة للتدريس والوعظ . يحضر دروسها ومواظبها الرجال . وقد اعتنت كثيراً هذه السيدة تربية ابن أخيها لما توسست فيه من باهر النجابة ، أما والده السيد علي فكان قد توفي شاباً في سن الخامسة والعشرين . وكان يجمع الى العلم والفلاح الخروسية والزماية الى الدرجة القصوى . لذلك تجد السنوسية يترع بهم عرف الى البيت كما يترع بهم عرف الى القلم .

(٣) قوله يشير الى الشيخ عيش الذي بنفسه أشياء لم يقف فيها على حقيقتها . فأسند فتوى بحق الشيخ السنوسي ، وقيل انه لما قيم جالية الأمر رجع عنها .

(٤) هذا ما ينكره السنوسية

(٥) ان بعض معسري الجليل الأخضر يقولون ، أنهم سمعوه يقول وهو بيني البيضاء هذان الاقرع سيأتون يوماً الى هناك ، ويهدمون قبة الصحابي سيد رافع رضي الله عنه ، ويربطون خيولهم في مسجد الزاوية البيضاء ، ويأخذون حجراً من بينان البيضاء قديماً منحوراً مكتوباً عليه ، عبارات لاتينية . وان هؤلاء

وفي النوات^(١) وفي السودان حيث له عشرون زاوية^(٢)، ثم سنة ١٨٥٥ أسس مركز طريقته في جغبوب وهي سوقا القديمة، على مسافة ثلاثة أيام من سيوه، وصارت أعظم مدرسة لمبشرى الاسلام في أواسط افريقية. وكان المؤدى الى بحيرة تشاد طريقان أحدهما شرقي من سوكنه الى مرزوق، والثاني غربي من غدامس والعاير، فالسنوسية نشرها طريقتهما في وادي والباقرى وبوركى ونبعوا نهر ينوى الى أن بلغوا النيجر الأدنى حيث نجدهم يهدون تلك القبائل الى الاسلام وبواسطة السنوسية صارت نواحي بحيرة تشاد هي مركز الاسلام العالم في أواسط افريقية. ويقوم عدد مريدى الطريقة السنوسية بأربعة ملايين، وطريقة هؤلاء الجماعة في التبشير، حتى أن بشنوا الأرقاء صغارا من السودان ويربوهم في جغبوب، وغدامس، وغيرهما، ثم متى بلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلم أعنتقوهم، وسرحوهم الى أطراف السودان، يهدون أبناء جلدتهم الباقين على الفتيشية، وهكذا يرحل كل سنة مئات من مبشرى السنوسية لبيت دعاية الاسلام في جميع افريقية الداخلية من سواحل الصومال شرقاً، الى سواحل السينغامبية غرباً، ولقد حدثا سيدى محمد المهدي وأخوه سيدى محمد الشريف حدثوا والدهما في السى الى الغرض الذي توخاه، الا وهو تخليص الاسلام من النفوذ الأجنبي، وإعادة الامامة العامة كما كانت في عصر الخلفاء.

وبالاجمال، فإن مريدى هذه الطرق هم الذين سعوا في نشر الاسلام ووقفوا اليه في افريقية، قال كوپولاني Cappelani ان هؤلاء نارة بهيئة تجار وطوراً بهيئة مبشرين، يهدون الى الاسلام الأقوام الفتيشيين، وتجدهم ينون زوايا جديدة في هذه الاقطار الواسعة الشاسعة الممتدة من شمالى افريقية الى أقصى أقصى السودان، وأحياناً يؤسسون بممالك مثل سلطنة راج، واجدو، وسامورى، انتهى ملخصاً.

ثم انتقل المسيوبونه مورى الى ذكر تشكيلات الزوايا، والمدارس، والجمامع، والجامعات، مثل الأزهر في مصر والقرويين في فاس، والزيتونة في تونس، وغيرها، وبرامج التعليم فيها. وقال «ان العلوم التي فيها تنقسم الى قسمين الاول، العلوم الاعدادية (مايسمونه بالآلات) كالنحو والصرف والبيان والمنطق والقراءة والعروض والحساب والخير

لعمري الذين سعوا منه هذا الكلام رأوا مصداقه على آخر حياتهم. لأن الطالبان جهلوا وهدموا قبب سيدى رافع — وان كانوا جددوا بانهما بعد ذلك — وروبطوا خيلهم في مسجد البيضاء، وأخذوا الحجر الذي عليه اللاتين من الجدار

(١) غربي الجزائر

(٢) مجموع زوايا السنوسية اليوم ثلاثمائة زاوية

والثاني ، العقائد وأدب الدين وأسباب التنزيل والحديث والفقه - (قال) : ويقرأون في بعض مدارس فلس ، الكيمياء والطب والهندسة والانشاء والنصوف والموسيقى (قال) : ولم أجد ذكر الفلك في العلوم التي يعلمونها هناك ولا في محل مع ان علم الفلك كانت به عناية عظيمة في المغرب . »

فلنا لعل هذا خطأ ممن أطلعوا على برنامج التعليم أو سهوا ، أو ان علم الفلك أهمل في هذه السنين الأخيرة ، فانه من العلوم التي كانت تعلم في فلس وغيرها من مدارس الاسلام بالاعتناء الزائد ، واليك مثالا على ذلك ماقرأته في سيرة سيدي محمد بن علي السنوسي نفسه ، وهي مخطوط الفقه حفيده سيدي أحمد الشريف ، يذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم في فلس فيقول : « ومنهم العلامة الهمام سيدي محمد بن الطاهر الفيلاي الشريف العلوي قرأت عليه مختصر السعد ، وجمع الجوامع ، والسلم ، وحنة صالحة من مختصر الشيخ خليل ، وهو يروي عن الحافظ ابن كيران ، والعلامة الزروالي ، وشيخهم العلامة ابن شقرون ، بإسنادهم السابقة ، وغيرهم من أمثال علماء فلس . ومنهم العلامة المتقي الماهر المنقش أبو المواهب سيدي أبو بكر بن زيان الأدرسي ، حضرته في علوم كثيرة ، وقرأت عليه الفرائض والحساب ، والأربعين وصناعتيهما ، والأسطرلابين وصناعتيهما ، والعلوم الأربعة الرياضية والهندسة والهيئة والطبيعة والارتماضي ، وأصول فواعد الموسيقى ، والمساحة ، والتعديلات ، والتقويم ، وعلم الأحكام والنسب (بكسر النون) والوقف والقواعد الجفرية ، والأصول الزارجية ، والبسط والنكس ، والجبر ، والمقابلة وغيرها الخ . »

فأنت ترى أن الهيئة كانت تدرس في فلس في القرن الماضي وأخيرني السيد أحمد الشريف أن أساتذة سيدي أحمد الربيعي كان بارعا بهذه العلوم ، ويعلم الهيئة والأسطرلاب ، وكان تلقاها عن السيد العلامة ابن السنوسي ، وكانت عندهم الآلات المتعلقة بهذا العلم ، والكرات والأرياح وغير ذلك .

ثم ذكر السيوي بونه موري برنامج الأزهر وأشار الى أن أول مصلح لتعليم الأزهر ، هو الشيخ المهدي العباسي وذكر ما أدخله فيه من الإصلاحات لعهد الخديوي اسماعيل ، وإن المصلح الثاني ، هو الشيخ محمد عبده الذي أدخل في برنامج الأزهر الجغرافية ، والتاريخ ، والتاريخ الطبيعي ، والرياضيات ، والفلسفة ، وغير ذلك فنفتح في الأزهر روحا جديدة . (قال) وقاومه بعض العلماء الجامدين وغيره عليه قلب الخديوي ، فأثرت هذه الحوادث في تحته ونوفي في رمل الأسكندرية سنة ١٩٠٥ .

الزوايا السنوسية

لما كان قد تقدم ذكر الزوايا السنوسية في عدة مواضع وكان عندنا أسماء القسم الأشهر منها آتارنا الحاق هذا الجدول بما تقدم من خبر هذه الطريقة وهي : —

زاوية الناج ، في واحة الكفرة ، مقر السادة السنوسية ، ذرية سيدي محمد بن السنوسي .
 » الجغبوب ، في واحة الجغبوب المقر الثاني لاسادة المشار اليهم وفيها المدرسة الكبرى لتخريج تلاميذهم

» طرابلس الغرب ، وشيخها سيدي عبد الوهاب العيساوي .

» الرجبان ، في جبل يقرن من عمل طرابلس ، وشيخها سيدي محمد العيساوي .

» مزده ، فوق قصبة غريان ، شيخها سيدي عبد الله السني .

» طبقه ، بقرب زنتان ، اشيائها اولاد سيدي محمد الأزهرى .

» الحراية ، بين نالوت وفساطو بالجبل الغربي .

» سيناون فوق نالوت — زاوية درج فوق سيناون .

» غدامس ، على حدود ابلالة تونس ، شيخها سيدي أحمد الحبيب .

» مصراطه ، شيخها السنوسي بن عبد العال .

زاوية ثانية ، في مصراطه ، شيخها عبد الله بن شفيشيم .

» مسلاته — زاوية القطرون .

» مراده ، بين جغبوب وفزان في الصحراء ، شيخها سيدي محمد الرويعي .

» مرزوق ، قاعدة فزان شيخها سيدي عبد اللطيف بن عبيد .

» هون ، في البلاد التي على أبواب السودان ، شيخها سيدي مصطفى الهوني .

» سوكنه ، في البلاد الواقعة بين طرابلس وفزان ، شيخها سيدي الشريف حامد بن

بركات .

» واو في جنوبي طرابلس نحو السودان ، شيخها سيدي محمد الأشهب .

» غات شيخها الحاج أحمد الغاني — التوات جنوبي عمالة الجزائر .

» الهواري في واحة الكفرة على مسافة خمس ساعات شمال مقر السادة ، وشيخ زاوية

الهواري سيدي الفضيل السوسي .

- زاوية الجوف في نفس واحة الكفرة ، شيخها سيدي عبد الهادي الفضيل .
- » نزربو عن زاوية الناج على مسيرة ستة أيام ، شيخها القطب الصالح السيد الملقب من كلاميد سيدي ابن السنوسي الكبير .
- » ريانة على ثلاثة أيام من الكفرة ، شيخها سيدي حسين بزامة .
- » الوجنفة الكبرى في أوائل السودان على خط دارفور على مسيرة ١٧ يوما الى الجنوب من الكفرة ، شيخها سيدي عبد ربه البرعصي .
- » الوجنفة الصغرى ، شيخها سيدي عبد الرزاق الفاخري .
- » قرو عن الوجنفة الكبرى على مسيرة ثلاثة أيام الى الغرب ، شيخها الفاضل الأديب سيدي محمد بن عبد الله التي أحد دعاة الاسلام في أواسط افريقية . أصله من بلاد سنار في الخيشة عباسي النسب .
- » البرقوات — زاوية زندر في السودان .
- » برضى على أبواب السودان ، شيخها ابراهيم تفرقي — زاوية كانوا في بلاد النيجر .
- » فانت بالقرب من غات ، شيخها السنوسي الغاني الانصاري .
- » عين كلك التي جرت الحرب عليها بين السنوسية والفرنسيس على مسيرة ستة أيام غربي و ، شيخها الفاضل سيدي عبد الله الفضيل الزوي . وعين كلك هذه فيها أنهار جارية ومن أخضب بناع البسطة .
- » ون قبلي زاوية عين كلك على مسافة يوم ونصف يوم مائة الى الشرق وهي على مسافة نحو ٣٠ يوما من مرزوق قران ، وشيخ الزاوية هذه سيدي المهدي السنوسي ولد سيدي محمد السنوسي .
- » بني غازي شيخها الامام العزيم سيدي أحمد العيسوي .
- » أم خنوب على مسيرة ٧ ساعات الى الجنوب من بني غازي كان شيخها الأديب سيدي محمد علي بن عبد المولى .
- » الظلمون على مسيرة ١٠ ساعات من بنغازي الى الغرب شيخها سيدي محمد علي المحجوب .
- » مسوس قبلي الظلمون وشيخ هذه الزاوية سيدي سنوسي الاشهب .
- » أجدابية شرقي بنغازي شيخها سيدي عبد الطيف الزوي .

- زاوية القطيفية على مسيرة ٤ أيام الى الغرب من بنغازى شيخها الزر والى بن عبد اللطيف .
- » التوفلية غربى القطيفة بمسافة ٦ أيام شيخها سيدى أحمد بن ادريس .
- » الزعفران غربى التوفلية على مسافة يوم ونصف يوم بجوار قصر سرت شيخها ابن شبيب
- » زليطن فى محلى اسمه زوو شيخها سيدى محمد بن عثمان بن بركة .
- » زويله من فزان .
- » زله شرقى زاوية سوكند شيخها سيدى الخريصى .
- » أوجه شيخها سيدى عبد الله الفضيل .
- » جالوتسمى زاوية العرق وشيخها سيدى عبد الله النواتى .
- » الملة فى أوجه أيضا وشيخها الحاج محمد فرطيس .
- » شجره فى بلاد جالوت وأوجه شيخها سيدى محمد صالح .
- » سيوه وهى الزاوية الأولى تخص السادة رأسا والوكيل عليها سيدى يوسف بن عبد الله بن أحمد .
- » سيوه المنسوبة الى آل معروف شيخها سيدى محمد بن عبد الله الزوي رقيق سيدى أحمد الشريف الأستاذ الأكبر فى سياحته الى الاسناتة والأناضول .
- » سيوه الثالثة تخص السادة رأسا والوكيل عليها أحمد الجبيرى .
- » سيوه الرابعة شيخها الشيخ أحمد أبو غلى .
- » حطية الزيتون على مسافة ٦ ساعات الى الشرق من زاوية بنى معروف وهى تخص السادة رأسا والوكيل عليها سيدى الحسين الشريف .
- » القناره على مسافة ١٣ ساعة على الفارس الى الشرق من حطية الزيتون وهى تخص السادة رأسا والوكيل عليها صالح ولد سيدى يوسف .
- » القرافرة على مسافة ستة أيام الى الشرق شيخها سيدى السنوسى بن خالد .
- » القصر الى الشرق من القرافرة فى الواحات شيخها ابن سيدى محمد الموهوب .
- » الواحات البحرية شيخها سيدى صالح السعدى .
- » الواحات البحرية الثانية شيخها سيدى المبروك القطعاني .
- » متديشة الى جهة صحراء الفيوم شيخها سيدى عبد المالك الموهوب .
- » القامدون فى الواحات أيضا وكل هذه الزوايا فى سيوه والواحات فى عينون وتخييل وكروم

- زاوية الفيوم وشيخها سيدي عبد العال السنوسي .
- » الزينية بالصعيد انصري فيها أولاد الولي الكبير سيدي أحمد بن ادريس .
- » سيدي ابراهيم الرئيس الفاسي في الصعيد .
- » حوش ابن عيسى بجهة الاسكندرية شيخها سيدي محمد بن مالك .
- » الغبطا عند العنصرية في مديرية البحيرة شيخها سيدي مرنطسي الغرياني .
- » بهيج وشيخها سيدي موسى العقاري .
- » سيدي يادم الايرش على مسافة ساعتين من بهيج .
- » سيدي عبد العاطي بن محيظة على مسيرة نصف يوم من زاوية سيدي يادم .
- » الضبعة ويقال لها زاوية شنية وشيخها سيدي عبد المنعم أبو شنية وهي على مسيرة يومين من زاوية سيدي عبد العاطي .
- » فريوة على مسافة يوم من شنيته وشيخها سيدي عبد الرحيم الفاخري .
- » فوكه على مسافة ثلاث ساعات من فريوة شيخها سيدي عبد الرحيم التهامي .
- » محطة فوكه وشيخها سيدي موسى بن موسى .
- » بقوش وشيخها سيدي شارون بن بدر القناشي وهي على ساعتين من فوكه .
- » سيدي علي بن مورد الى الغرب من زاوية بقوش بساعتين .
- » أم الرخم غربي مرسى مطروح وشيخها أبو القاسم الطليب .
- » نجيلة الى الغرب بيوم من أم الرخم وشيخها سيدي عبد القادر بن عمر .
- » نماس على ٣ ساعات من نجيلة الى الغرب وشيخها سيدي عمر الاوجلي .
- » عالم الجبل على مسافة ثلاث ساعات الى الغرب من زاوية نماس وشيخها سيدي محمد الشريف .
- » براني على مسافة يوم الى الغرب من حند وشيخها سيدي الشريف بن ميلود .
- » سيدي عمران بن ابراهيم على مسافة يوم من زاوية براني ومن زاوية سيدي عمران ابن ابراهيم الى السلوم مسيرة يوم . وهذه الزوايا من الاسكندرية الى السلوم كلها في بلاد أولاد علي .
- » جيبيل على مسافة ثلاث ساعات الى الغرب من السلوم شيخها سيدي محمد الشارف من أولاد عم السادة .
- » أم ركب في موقع دفنة على ٣ ساعات من زاوية جيبيل وهي زاوية سيدي علي بن عبد الله .

- زاوية سيدي حسين الغرياني في دفنة أيضا على ثلاث ساعات من أم ركة
- » المرصص في غربي مرسى طبرق على مسافة يومين من التي قبلها وشيخها سيدي صالح الشرف
- » أم الرزم أو أم الرزم^(١) على مسيرة يومين من المرصص وشيخها سيدي مرقضي
- فرকাশ وعندها عين نضاجة وبستان جليل
- » سيدي محمد بن فارس على ساعتين من أم الرزم إلى البحر
- » مرطوبه على مسافة ساعتين إلى الغرب من التي قبلها وشيخها سيدي عبد الله
- فرকাশ وفيها عيون عذبة جارية من الجبل الذي فوقها وبساتين
- » درنه في نفس المدينة شيخها السنوسي الغرياني
- » الغرياني من درنه إلى الجنوب على مسافة يوم شيخها سيدي السنوسي الجبالي
- » الحيلة على مسافة يوم من الغرياني شيخها محمد بن الحسين
- » بشاره على بضع ساعات إلى الجنوب الغربي من درنه وشيخها سيدي عبد القادر
- فرকাশ وعندها عين جارية وبساتين
- » ماره إلى الشرق من بشاره وشيخها سيدي عبد الله أبو سيفه وهي على رأس سبع
- ماره من الزه وأعقب يتابع الدنيا وعذبة البساتين والطواحين
- » قربت إلى الغرب من بشاره وشيخها كان سيدي محمد الغزالي . وكل هذه الزوايا في
- بلاد قبيلة العبيدات الكبيرة
- » لقا شرق قرب شيخها سيدي الحبيب بن جلول — زاوية العوينة بهانيك الجهات أيضا
- » الفاتمية المنسوبة إلى قبيلة فاته وشيخها سيدي صالح بن اسماعيل
- » شحات أي مدينة مبرنا القديمة وهي بلدة عالية في رأس جبل مشرف على البحر
- نضج المياه من مغارة بأعلاه وتسقط في شلالات بديعة ولها منظر من أجل منظر
- الدنيا وشيخ زاوية شحات سيدي محمد المردقي . والزاوية هي زاوية قبيلة الحامسة
- » باسم وهي الزاوية البيضاء التي كانت أول ما أسسه السنوسي الكبير تبعه عن شحات
- نحو ساعتين إلى الغرب وهي على بضع دقائق من مقام سيدي زويغ الاقصر
- رضي الله عنه وشيخ الزاوية البيضاء الآن سيدي محمد الغماري . والزاوية زاوية البراعة
- » الحامة غربي الزاوية البيضاء على ساحل البحر وشيخها سيدي السنوسي الغماري
- » الحنية غربي الحامة وشيخها سيدي أحمد بن العيسوي
- » القصر بن قبلي زاوية الحامة وشيخها سيدي محمد العربي

(١) أم الرزم معناها الرجم

- زاوية العرفوب شرقى زاوية القصور وشيخها سيدى بلك الله الجبلى
- » القصور شرقى قصبة المرج وشيخها البطل المشهور القائد المجاهد بن فى حرب الطليان
- » سيدى عمر المختار وهى زاوية قبيلتى العرقا والتعب
- » اسقفه غرقى دريانة وشيخها سيدى الامين الغمارى
- » دريانة غرقى طاهيشه وشيخها الشريف الغمارى
- » المرج على أربع ساعات قبلى طاهيشه وهى زاوية سيدى عمران السكورى
- » كرسا تبعد عن زاوية مازة السابقة الذكر بمسافة ساعتين صوب البحر وجماعتها
- » التراكى وشيخها سيدى يوسف العجبال
- » الاثرون على ٤٠ دقيقة من زاوية التراكى وشيخها سيدى الحبيب الجلول
- » كغضله على ساعتين ونصف ساعة الى الجنوب من زاوية الحنسة السابقة الذكر
- » وشيخها سيدى حميد بن عمرو
- » مبراد مسعود بحرى زاوية القصور وشيخها سيدى محمد بن حوا
- » الخامدية غرقى مبراد مسعود وشيخها سيدى عبد الله السكايلى
- » عائلة دغار على مسافة نصف ساعة من الخامدية الى الغرب وشيخها سيدى محمد الغالى
- » نيان شيخها سيدى العربى الغمارى
- » طاهيشه على أربع ساعات بحرى قصبة المرج وشيخها التوانى السكايلى
- » توكره غرقى طاهيشه وشيخها سيدى عبد الله الجبلى
- » برسن شرقى توكره وشيخها ابن سيدى عبد الله الجبلى . وأكثرت هذه الزوايا فى
- » بلاد قبيلة المرسا
- » مستغانم فى الفطر الجزائرى وشيخها سيدى أحمد بن تكوك
- » سيدى محمد بن صادق فى بلاد الجريد من عمالة تونس وفى تلك البلاد خمس زوايا
- » أخرى تحت نظارة الشيخ المذكور
- » جدة فى الخيجاز تحت نظارة شيخ زاوية أبى قبيس بمكة
- » أبى قبيس بمكة المشرفة شيخها سيدى حامد - زاوية الطائف وهى تحت نظارة الشيخ المذكور
- » الجديدة فى طريق المدينة - زاوية بدر الشهداء وشيخها سيدى محمد الغمارى
- » المدينة المنورة وشيخها سيدى مصطفى الغمارى - زاوية ينبع البحر
- » ينبع الوجه - زاوية الحراء - زاوية الصفراء - زاوية رابغ - زاوية صبح
- » العيص . وهذه كلها فى الحجاز وجملة ما هو مقيد عندنا من هذه الزوايا ١٣٠ زاوية
- » ولا تزال زوايا كثيرة فى المغرب والسودان والحبشة والصومال مجهولة عندنا .

التاج الجامع للاصول أحاديث الرسول

عليه الصلاة والسلام

(تأليف المحدث الكبير الشيخ منصور علي صاف)

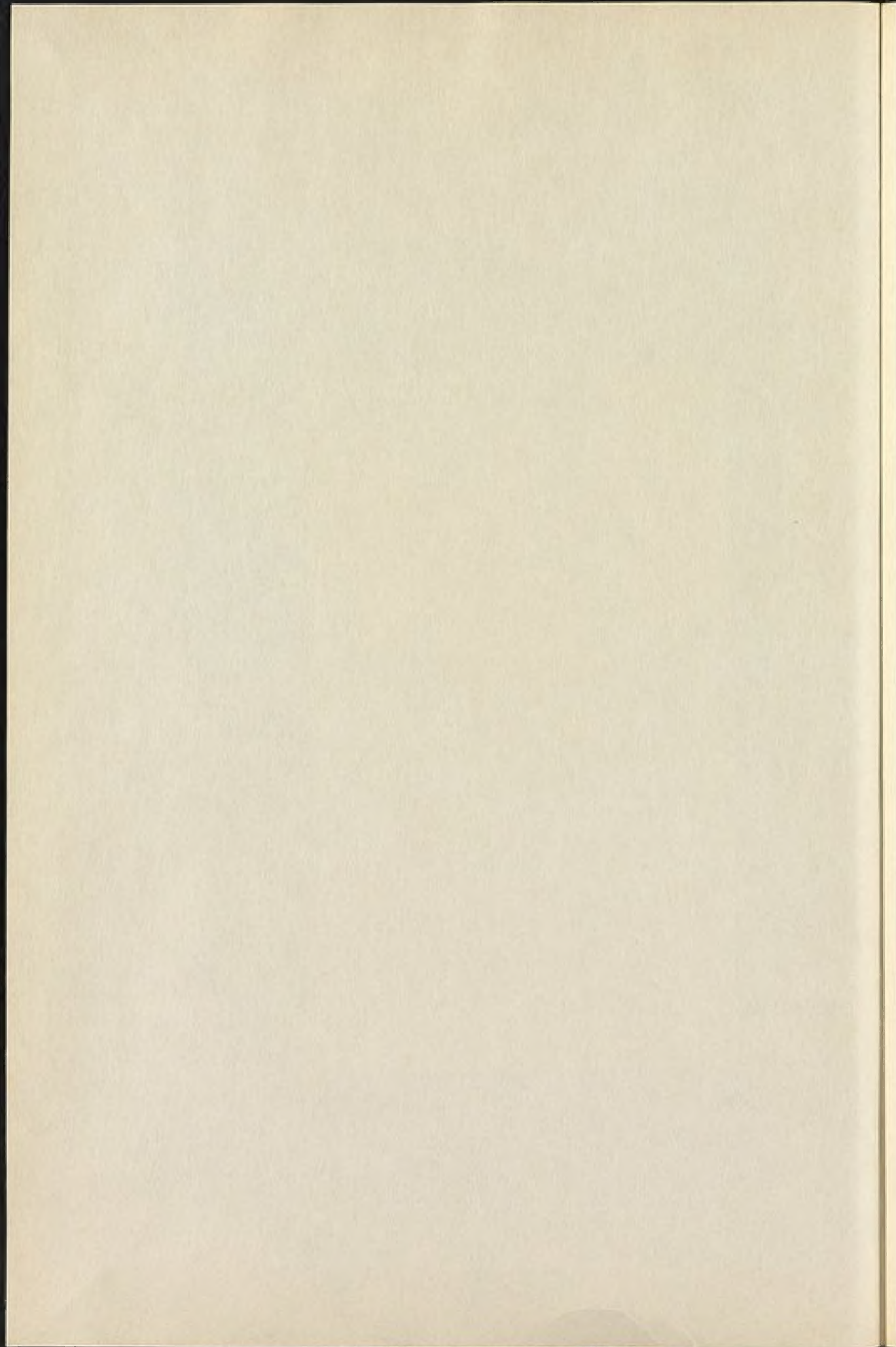
كتاب التاج الجامع للاصول المشهورة في علم الحديث وهي البخاري ومسلم
وأبو داود والترمذي والنسائي بن وراة عليها ثؤايف من مؤلف الامام
مالك ومسنند الامام الشافعي والامام أحمد وعمرها وزاوة حسنا بان وضع في
أولها كل باب ما ورد من القرآن الكريم بخصوصه مطبوع على ورق
أبيض ناعم جيد وباعتناء زائد - فظهر منه جزآن - والباقي تحت الطبع

غنيمة مشروكة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

صندوق البريد رقم ٢٦ بالقاهرة







DATE DUE

FEB 15 2007		
FEB 09 2007		
JUN 01 2012		
MAY 25 2013		
GAYLORD		PRINTED IN U.S.A.

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0023570636

893.791

St644

2

10879722

BOUND

JAN 10 1957

